العزلة الهائلة

كرِسْتِن هانا

مكتبة

رواية

ترجمة:
علاء عودة

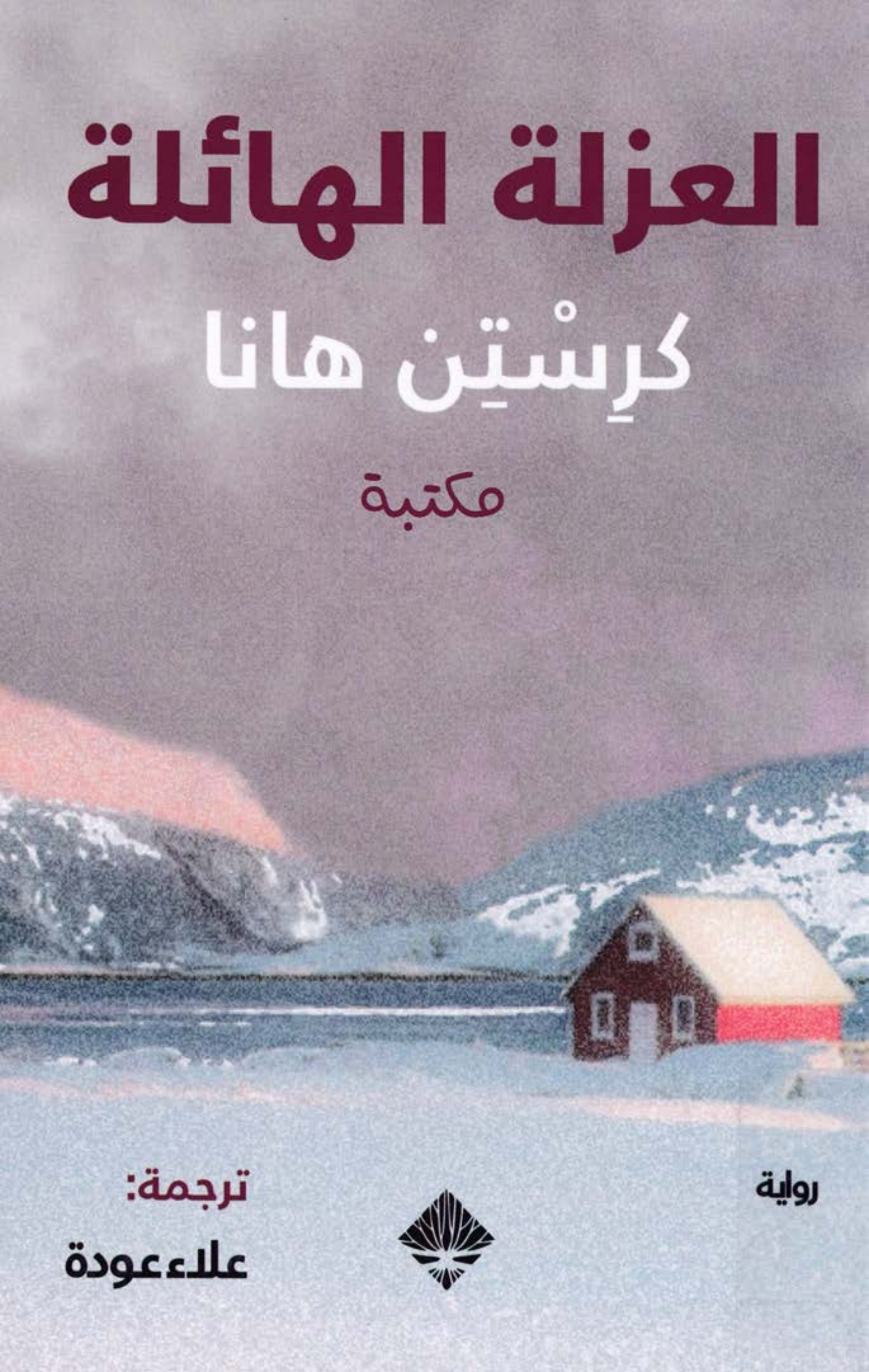

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

العُزلة الهائلة

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

العُزلة الهائلة - رواية

The Great Alone

تأليف: كرِسْتِن هانا

Kristin Hannah

ترجمها عن الإنكليزية: علاء عودة

تصميم الغلاف: قهوة غرافيكس

ISBN: 2 - 54 - 641 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2025

مكتبة

t.me/soramnqraa

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.

القاهرة، جمهورية مصر العربية

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH   fb.com /Adwan.Publishing.House

instagram.com /mamdouh_adwan_publishing_house /

Copyright © 2018 by Kristin Hanna

كِرِسْتِن هانا

مكتبة
t.me/soramnqraa

العُزلة الهائلة

رواية

ترجمها عن الإنكليزية:

علاء عودة

هذا العمل من نسج الخيال، كلّ الشّخصيّات، والمنظّمات، والأحداث الواردة في هذه الرواية، هي إمّا وليدة مخيّلة الكاتبة، وإمّا مستخدمة في سياقٍ خياليّ.

إلى نساء عائلتي؛ المحاربات كلّهنّ.

شارون، ديبي، لورا، جولي، ماكنزي، سارا، كايلي، توني، جاكي، دانا، ليزلي، كيتي، جون، جيري، ليز، كورتني، وستيفاني.

وإلى بريدن، أجدد مغامرينا.

«الطّبيعة لا تخدعنا، نحن من نخدع أنفسنا دائماً».

- جان جاك روسو

1974

* 1 *

مكتبة
t.me/soramnqraa

في ذلك الرّبيع، انهمر المطر في فوراتٍ شديدةٍ كاسحةٍ قرقعت لها الأسطح. شقّت المياه طريقها عبر أصغر الصّدوع، وقلقلت أكثر الأساسات متانةً، وسقطت قطع الأرض الّتي ظلّت ثابتةً لأجيالٍ مثل أكوامٍ من الفضلات فوق الطّرق في الأسفل، جارفةً معها المنازل، والسّيّارات، وبرك السّباحة. هَوت الأشجار، واصطدمت بخطوط التّمديد الكهربائيّ؛ فانقطعت الكهرباء. فاضت الأنهار على ضفافها، واكتسحت الأفنية، ودمّرت المنازل. احتدّ الأحبّة على بعضهم، وانبثقت الشّجارات فيما المياه ترتفع والمطر لا يكفّ.

ليني أيضاً كانت تشعر بالانفعال. إنّها الفتاة الجديدة في المدرسة، وجهٌ ضمن الحشد لا أكثر؛ فتاةٌ بشعرٍ طويلٍ، مفروقٍ في منتصفه، ليس لها أصدقاء، وتسير وحيدةً إلى المدرسة.

إنّها جالسةٌ الآن على سريرها، ساقاها النّاحلتان مضمومتان إلى صدرها الممسوح، وثمّة نسخة ورقيّة من رواية تل ووترشيب مفتوحة قربها، وقد طُويَت زاويتها. عبر جدران المنزل الرّقيقة، سمعت ليني أمّها تقول: «إيرنت، عزيزي، أرجوك لا! اسمع...». فيجيب أبوها بغضب: «دعيني وشأني بحقّ الجحيم!». ها هما مرّةً أُخرى، يتجادلان، يتصايحان.

سرعان ما سيبدأ البكاء.

كان هذا الطّقس يُظهر الجانب المظلم من أبيها.

نظرت ليني إلى السّاعة بجوار سريرها. إن لم تغادر الآن ستتأخّر على المدرسة، والشّيء الوحيد الأسوأ من كون المرء الفتاةَ الجديدة في المدرسة الإعداديّة هو لفت الانتباه إلى نفسه. لقد تعلّمت هذه الحقيقة بالطّريقة الصّعبة؛ ففي السّنوات الأربع الماضية، ارتادت خمس مدارس، ولم تعثر على طريقةٍ للاندماج بحقّ، ولا مرّةً واحدة، غير أنّها حافظت على أملها بعناد. سحبت نفَساً عميقاً، ثمّ تمطّت، وانسلّت من السّرير. قطعت غرفتها الجرداء بحذرٍ، وعبرت الرّدهة، ثمّ توقّفت عند مدخل المطبخ.

- «اللّعنة يا كورا!». قال أبوها: «أنت تعرفين مدى صعوبة هذا عليّ».

خطت الأمّ خطوةً نحوه، ومدّت يدها: «أنت تحتاج إلى المساعدة يا عزيزي، ليس الذّنب ذنبك. الكوابيس...».

تنحنحت ليني كي تلفت انتباههما، وقالت: «مرحباً».

انتبه أبوها إليها فتراجع خطوةً عن أمّها. رأت ليني كم كان يبدو متعَباً، كم كان يبدو مهزوماً.

- «عليّ... عليّ أن أذهب إلى المدرسة». قالت.

مدّت الأمّ يدها في جيب صدر زيّ النّادلة الورديّ، وأخرجت سجائرها. كانت تبدو متعَبة؛ لقد ناوبت في الورديّة المتأخّرة اللّيلة الماضية، وعليها أن تعمل في ورديّة الغداء اليوم. «هيّا إذنْ يا ليني، لا يجدر بك أن تتأخّري». كان صوتها هادئاً وناعماً، برقتها المعتادة نفسها.

كانت ليني تخشى البقاء وتخشى المغادرة. الأمر غريب، بل غبيّ أيضاً، لكنّها كثيراً ما شعرت كما لو أنّها الرّاشدة الوحيدة في عائلتها،

كما لو كانت الصّابورة الّتي تحافظ على توازن مركب عائلة أولبرايت المخلّع. لقد كانت أمّها منخرطةً في سعيٍ حثيثٍ «للعثور» على نفسها. خلال السّنوات القليلة الماضية، جرّبت حلقات إي إس تي التّدريبيّة(*)، وحركة الإمكانات البشريّة، والتّدريب الرّوحانيّ، والتّوحيديّة، بل حتّى البوذيّة. دارت في مداراتها كلّها، تنتقي القطع والجزئيّات من هنا وهناك كمن يقطف الكرز. ورأت ليني أنّ معظم ما خرجت أمّها به كان قمصان تي شيرت وشعارات، أشياء من قبيل «ما يكون يكون، وما لا يكون لا يكون»، ولم يبدُ أنّ شيئاً من ذلك ذو بالٍ يُذكَر.

- «اذهبي». قال أبوها.

أخذت ليني حقيبة ظهرها عن الكرسيّ قرب طاولة المطبخ، وانطلقت إلى الباب الأماميّ. وحالما صُفق منغلقاً خلفها، سمعتهما يبدأان.

- اللّعنة يا كورا...!

- أرجوك يا إيرنت، أصغِ فقط...!

لم تكن الأمور على هذه الحال دائماً. هذا ما كانت الأمّ تقوله على الأقلّ. قبل الحرب، كانوا سعداء، إذ عاشوا آنذاك في فناء مقطورات في كِنْت، وكان الأب ميكانيكيّاً ولديه وظيفة جيّدة، والأمّ تضحك طيلة الوقت وترقص على أغنية قطعة من قلبي وهي تعدّ العشاء. (رقص الأمّ هو كلّ ما تتذكّره ليني حقّاً من تلك السّنوات).

(*) Erhard Seminars Training - حلقات إرهارد التدريبية: منظّمة أسسها ورنر إرهارد في عام 1971، كانت تقدّم دورة تدريبية على مدار عطلتين أسبوعيّتين (60 ساعة) تهدف إلى «تطوير قدرة المرء على اختبار العيش بطريقة تُحلّ معها الأوضاع -الّتي يحاول المرء تغييرها أو تحمّلها- من تلقاء نفسها في خضمّ تقدّم الحياة».

ثمّ ذهب الأب إلى فيتنام، وأُصيبَ، وأُسِر. ومن دونه، تداعت الأمّ تماماً؛ وقتها استوعبت ليني للمرّة الأولى هشاشة أمّها. هامتا على غير هدىً لمدّة، هي وأمّها، تنقّلتا من عملٍ إلى عملٍ، ومن بلدةٍ إلى بلدةٍ، حتّى عثرتا آخر المطاف على منزلٍ ضمن كومونة في أوريغون. وهناك، اعتنتا بخلايا النّحل، وأعدّتا أكياس الخزامى العطرية لبيعها في سوق المزارعين، وشاركتا في الاحتجاجات على الحرب. غيّرت الأمّ شخصيّتها بمقدارٍ يكفي للتّكيّف مع محيطها.

حين عاد الأب إلى الوطن أخيراً، بالكاد عرفته ليني. الرّجل الضّاحك الوسيم في ذكرياتها أصبح متقلّب المزاج، وسريع الغضب، ونائياً. بدا أنّه أبغض كلّ ما يتعلّق بالكومونة، لذا انتقلوا. ثمّ انتقلوا مجدّداً. ومجدّداً. لم تجرِ الأمور بالطريقة التي أرادها.

لم يستطع النّوم، ولا الاحتفاظ بوظيفة، على الرغم من أنّ الأمّ تقسم إنّه كان أمهر ميكانيكيّ على الإطلاق.

هذا هو الأمر الّذي كان هو والأمّ يتشاجران بخصوصه هذا الصّباح: طرد الأب من العمل مجدّداً.

رفعت ليني قبّعة سترتها. في طريقها إلى المدرسة، سارت عبر كُتلٍ سكنيّةٍ من منازل معتنى بها جيّداً، وتجاوزت أيكةً مظلمةً (تجنّبي ذلك المكان)، ومرّت بمطعم إيه أند دبليو الذي يقضي فيه طلّاب المدرسة وقتهم في عطلة الأسبوع، ومحطّة وقود يمتدّ أمامها طابورٌ من السّيّارات التي تنتظر ملْء خزّاناتها مقابل خمسة وخمسين سنتاً للغالون. كان الجميع غاضبين حيال ذلك هذه الأيّام - أسعار الوقود.

إلى حدّ معرفة ليني، فإنّ الرّاشدين عموماً مهتاجون وسريعو الانفعال،

ولا عجب. لقد قسمت الحربُ في فيتنام البلاد. كانت الصّحف تدوّي بالأخبار السّيّئة كلّ يوم: تفجيرات نفّذها الويذرمان(*)، أو الجيش الجمهوريّ الأيرلنديّ، طائرات تتعرّض للخطف، واختطاف باتي هيرست(**). كانت المذبحة التي حدثت في أولمبياد ميونخ قد أذهلت العالم بأسره، كما فعلت فضيحة ووترغيت. ومؤخّراً، بدأت فتيات جامعيّات في ولاية واشنطن يختفين من دون أثر. لقد كان عالماً محفوفاً بالخطر.

كانت ليني مستعدّةً لتقديم أيّ شيءٍ لقاءَ الحصول على صديقٍ حقيقيٍّ الآن، هذا كلّ ما تريده حقّاً: شخص تتحدّث إليه.

وفي المقابل، لم يكن الحديث عن مخاوفها يساعدها، فما جدوى الفضفضة؟

بالطّبع كان أبوها يفقد أعصابه أحياناً ويبدأ بالصّياح. ليس لديهم ما يكفي من المال، وهم يتنقّلون طيلة الوقت للنّأي بأنفسهم عن الدّائنين، بيد أنّ تلك هي طريقتهم، وهم يحبّون بعضهم.

لكن في بعض الأحيان، ولا سيّما في الأيّام الشّبيهة بهذا اليوم، كانت ليني تشعر بالخوف. يبدو لها كأنّ عائلتها تقف محاولةً أن تتوازن على

(*) Weatherman: الاسم الّذي كان يُطلق على منظمّة الطّقس تحت الأرض (WUO - Weather Underground Organization)، وهي جماعة محليّة من أقصى اليسار نشطت في أواخر السّتينيّات والسّبعينيّات، وكان هدفها إنشاء حزب ثوريّ للإطاحة بالإمبرياليّة الأمريكيّة. (المترجم)

(**) باتريسيا كامبل هيرست (1954-): كاتبة وممثّلة أمريكيّة، وهي حفيدة النّاشر الأمريكيّ الشّهير وليام راندولف هيرست، حظيت بشهرة عالميّة عقب اختطافها في عام 1974 من قبل الجماعة المنتمية إلى أقصى اليسار والّتي عُرفت باسم جيش التّحرير التّكافليّ. (المترجم)

حافّة جرفٍ مهولٍ قد يتداعى في أيّة ثانية، فينهار مثل البيوت التي انجرفت عن سفوح تلال سياتل المتزعزعة التي سدّ الماء مساربَها.

❄

بعد المدرسة، سارت ليني إلى المنزل تحت المطر وحيدة.

كان منزلها قائماً وسط طريقٍ مسدودٍ، في فناءٍ يتلقّى عنايةً أقلّ من جيرانه: منزلٌ من طابقٍ واحدٍ، ذو طلاءٍ بنّيٍّ بلون اللّحاء، بصناديق أزهار فارغة، ومجارير مسدودة، وباب مرأب لا يُغلق. كانت الحشائش تنمو على هيئة كتل متناثرة فوق القرميد الرمادي المتآكل للسقف، وثمّة سارية علم خاوية تشير إلى الأعلى على نحوٍ اتّهاميّ، بمنزلة تعبيرٍ عن بغض أبيها للاتّجاه الذي تسلكه هذه البلاد. بالنّسبة إلى رجُلٍ تصفه أمّها بالوطنيّ، كان يكره حكومته من دون شكّ.

رأت أباها في المرأب، جالساً إلى طاولة عملٍ مائلة قرب سيّارة أمّها الموستانغ المتبعّجة التي تغطّي سطحَها الأشرطةَ اللّاصقة. ثمّة صناديق كرتون مصفوفة على الجدران الدّاخليّة، ممتلئة بأغراضٍ لمّا يفرغوها بعد الانتقال الأخير.

كان، كعادته، يتزيّن بسترته العسكريّة البالية وبنطاله الممزّق من ماركة ليفايز. جلس متراخياً إلى الأمام، مرفقاه مسنودان إلى فخذيه. شعره الأسود الطّويل في حالةٍ فوضويّةٍ متشابكةٍ، وشاربه بحاجةٍ إلى تشذيب، وقدماه المتّسختان حافيتان. حتّى في تهدّله وهيئته الواهية، كانت له وسامة نجوم الأفلام، الجميع يرى ذلك.

رفع رأسه ونظر إليها من خلف شعره، كانت الابتسامة التي رمقها بها منهَكة الحوافّ بعض الشيء، لكنّها أضاءت وجهه على الرغم من ذلك.

تلك هي السّمة التي تميّز أباها: قد يكون متقلّب المزاج وحادّ الانفعال، بل حتّى إنّه مخيفٌ بعض الشّيء أحياناً، لكنّ مردّ ذلك إلى كونه جامح الشّعور تجاه أشياء من قبيل الحبّ، والفقدان، والخيبة، والحبّ أكثر من أيّ شيء. «لينورا». قال بصوته الأجشّ الّذي يميّز المدخّنين: «كنت بانتظارك. أنا آسف، لقد فقدتُ أعصابي، وعملي كذلك. لا بدّ من أنّك تشعرين بخيبةٍ شديدةٍ منّي».

- كلّا يا أبي.

كانت تعلم كم يشعر بالأسف، بوسعها أن ترى ذلك على وجهه. حين كانت أصغر سنّاً، تساءلت أحياناً عن قيمة كلّ هذه الاعتذارات إن لم يتغيّر أيّ شيء على الإطلاق، لكنّ أمّها شرحت لها؛ لقد كسرت الحرب والأسر شيئاً داخله. «كما لو أنّ ظهره مكسور»، قالت الأمّ: «ونحن لا نتوقّف عن حبّ شخصٍ ما عندما يتألّم، بل نصبح أقوى كي يتسنّى له الاتّكاء علينا. إنّه يحتاج إليّ.. إلينا».

جلست ليني بجانبه، فلفّها بذراعه وضمّها إليه. «العالم يُدار من قِبل معاتيه، لم تعد هذه هي أمريكا التي تناسبني، أريد أن...». لم يكمل، وليني لم تتفوّه بشيء. لقد اعتادت حزن أبيها وإحباطه. كان يتوقّف في منتصف جمله طوال الوقت، كأنّه يخاف أن يمنح الأفكار المخيفة والمغمّة صوتاً. ليني خَبرَتْ ذلك التّحفّظ وباتت تفهمه؛ الأفضل لها أن تبقى صامتةً في كثير من الأوقات.

مدّ يده إلى جيبه، وأخرج علبة سجائر مسحوقة بمعظمها. أشعل لفافةً، وتنشّقت هي الرّائحة اللّاذعة المألوفة.

كانت تعرف مقدار الألم الذي يعانيه. تستيقظ في بعض الأحيان على

صوت أبيها يبكي، وأمّها تحاول تهدئته، قائلةً أشياء من قبيل: ششش، اهدأ يا إيرنت، انتهى الأمر الآن، لقد عدتَ، أنت بأمان في المنزل.

هزّ رأسه، ونفث دفعة من الدّخان الأزرق الرّماديّ: «أنا فقط أريد... المزيد، على ما أعتقد. ليس وظيفة.. بل حياة.. أريد أن أسير في الشّارع من دون قلق من أن أُنعتَ بقاتل الأطفال. أريد...». تنهّد، ثمّ ابتسم: «لا تقلقي، سيكون كلّ شيء على ما يرام، سنكون على ما يرام».

- «ستحصل على وظيفةٍ أُخرى يا أبي». قالت له.

- بالطّبع سأفعل يا صهباء، سيكون الغد أفضل.

هذا ما يقوله والداها دائماً.

❄

في صباحٍ باردٍ مكفهرٍّ من منتصف أبريل، نهضت ليني باكراً وحجزت مكانها على الأريكة المهلهلة ذات الزّخرفة النّباتيّة في غرفة المعيشة، وشغّلت التّلفاز على برنامج ذا توداي شو. ضبطت الهوائيّ لتحصل على صورةٍ مقبولةٍ، وعندما اتّضحت الرّؤية كانت باربرا والترز تقول: «...باتريسيا هيرست، التي باتت تطلق على نفسها اسم تانيا، تظهر هنا في هذه الصّورة، وهي تحمل بندقيّة إم 1 كاربين في عمليّة السّطو الأخيرة على مصرفٍ في سان فرانسيسكو. وأفاد شهود عيان أنّ الوريثة ذات التسعة عشر ربيعاً، التي اختطفها جيش التّحرير التّكافليّ في فبراير...».

كانت ليني مسحورةً، لم تزل غير قادرة على تصديق أنّ جيشاً قد يقتحم ويأخذ مراهقة من شقّتها. كيف يمكن لأيّ شخصٍ أن ينعم بالأمان في مكانٍ من عالمٍ كهذا؟ وكيف تحوّلت مراهقة ثريّة إلى ثائرةٍ تُدعى تانيا؟

- «هيّا يا ليني». قالت الأمّ من المطبخ: «جهّزي نفسك للمدرسة».

انفتح الباب الأمامي بقوّة.

دخل الأب إلى المنزل، مبتسماً بطريقةٍ يستحيل معها ألّا تُقابَل ابتسامته بمثلها. بدا ناتئاً عن مقاييس ما حوله، أكبر من الحياة في المطبخ ذي السّقف الخفيض، ونابضاً بالحيويّة قبالة الجدران الرّماديّة الملطّخة بآثار الماء، فيما الماء يقطر من شعره.

كانت الأمّ واقفةً عند الموقد، تقلي اللّحم المقدّد من أجل الفطور.

انسلّ الأب إلى المطبخ، وشغّل مذياع الترانزستور الموضوع على طاولة الفورمايكا. انطلقت أغنية روك أند رول متحشرجة، فضحك الأب وسحب الأمّ إلى ذراعيه.

سمعت ليني همسه: «أنا آسف، سامحيني».

- «دائماً». أجابت الأمّ، متمسّكةً به كما لو كانت تخشى أن يدفعها عنه.

أبقى ذراعيه حول خصرها وجذبها نحو طاولة المطبخ، ثمّ سحب كرسيّاً وقال: «ليني، تعالي إلى هنا!».

كانت ليني تحبّ أن يشملاها في ما يفعلانه، تركت مطرحها على الأريكة، واتّخذت مقعداً بجانب أمّها. ابتسم أبوها وناولها كتاباً ذا غلافٍ ورقيٍّ؛ نداء البرية. «ستحبّينه يا صهباء».

قعد قبالة الأمّ، وقرّب كرسيّه من الطّاولة. علت وجهه ابتسامة تسمّيها ليني «ابتسامة الفكرة الكبيرة». سبق لها أن رأتها، كلّما تكون في جعبته خطّة لتغيير حياتهم. ولقد سبق أن وضع الكثير من الخطط: بيع كلّ شيء والتّخييم لمدّة عام وهم يقودون عبر طريق بيغ سور السّريع، تربية حيوانات المِنك (كم كان ذلك ليكون فظيعاً)، بيع علب حبوب شركة أميريكان سيد في وسط كاليفورنيا.

مدّ يده إلى جيبه، وأخرج ورقة مطويّة ضربها بزهو المنتصر على الطّاولة.

- أتتذكّرين صديقي بو هارلان؟

استغرقت الأمّ برهةً من الوقت قبل أن تجيب: «مِن نام(*)؟».

أومأ الأب، ثمّ قال للبيني: «بو هارلان كان قائد الطّاقم، وكنت أنا الرامي الجانبي. كان واحدنا يعتني بالآخر، وكنّا معاً حين هوت طائرتنا وتعرّضنا للأسر. لقد خضنا في الجحيم معاً».

لَاحظت ليني كيف كان يرتجف. كان كُمّا قميصه مشمّرين، لذا استطاعت أن ترى ندبات الحروق التي امتدت من معصمه إلى مرفقه في أخاديد من بشرةٍ مشوّهةٍ جعدةٍ لا يطولها الاسمرار أبداً. لم تكن ليني تعرف ما الذي سبّب هذه النّدوب - هو لم يقل، وهي لم تسأل، لكنّ آسريه هم من فعلوا هذا. لقد استوعبت إلى هذا الحدّ. النّدوب تغطّي ظهره أيضاً، وتشدّ الجلد في دوّامات وتجاعيد.

- «أرغموني على مشاهدته وهو يموت». قال.

نظرت ليني إلى أمّها بقلق؛ لم يسبق لأبيها أن قال هذا. أصابهما سماع الكلمات الآن باضطراب.

نقر بقدمه على الأرضيّة، ودقّ إيقاعاً على الطّاولة بحركةٍ سريعةٍ من أصابعه. فردَ الرّسالة، وسوّاها، ثمّ قلبها كي يتسنّى لهما قراءة ما جاء فيها.

(*) Nam: اختصار أمريكيّ لـ«فيتنام» شاع على وجه الخصوص بين معاصري حرب فيتنام. (المترجم)

حضرة الرّقيب أولبرايت،

إنّك رجل يصعب إيجاده. أنا إيرل هارلان.

أرسل لنا ابني، بو، العديد من الرسائل عن صداقته معك، وأنا أشكرك على ذلك.

في رسالته الأخيرة، أخبرني -في حال حدوث أيّ شيء له في ذلك المكان القذر- فإنه يريدك أن تحظى بأرضه هنا في ألاسكا.

إنّها ليست بالشّيء الكثير؛ أربعون فدّاناً مع كوخٍ يحتاج إلى ترميم، لكن بوسع رجُلٍ مجدٍّ في العمل أن يتعيّش على الأرض هنا، بعيداً عن المجانين، والهيبيّين، والفوضى في الولايات الثّماني والأربعين السفلى.

لا أملكُ هاتفاً، لكن بإمكانك أن تكتب إليّ على عنوان مكتب بريد هومر، وستصل إليّ الرّسالة عاجلاً أم آجلاً.

الأرض تقع في نهاية الطّريق، بعد البوّابة الفضّيّة ذات جمجمة البقرة، وقبل الشّجرة المحروقة تماماً، عند لافتة المسافة رقم 13.

أشكرك من جديد،

إيرل.

رفعت الأمّ ناظريها، ثمّ اشرأبّت بعنقها، وأمالت رأسها بإيماءةٍ صغيرةٍ تشبه حركات الطّيور وهي تحدّق في الأب: «هذا الرّجل... بو، منحنا منزلاً؟ منزلاً؟».

- «فكّري في الأمر». قال الأب، وهبّ عن مقعده من الحماسة: «منزل لنا نحن. نملكه نحن. في مكانٍ نستطيع فيه أن ننعم بالاكتفاء الذّاتيّ، فنزرع

خضراواتنا بأنفسنا، ونصطاد لحومنا بأنفسنا، ونتمتّع بالحرّيّة. لقد حلمنا بهذا لسنوات يا كورا، أن نعيش حياةً أبسط بعيداً عن كلّ الهراء المنتشر هنا. بوسعنا أن نصبح أحراراً. فكّري في الأمر».

- «مهلاً». قالت ليني. حتّى بالنّسبة إلى أبيها، كان هذا الأمر هائلاً: «ألاسكا؟ تريد الانتقال من جديد؟ للتّوّ انتقلنا إلى هنا».

عبست أمّها: «لكن... ما من شيء هناك، أليس كذلك؟ لا شيء سوى الدّببة والإسكيمو».

جذبها وأنهضها على قدميها بلهفةٍ جعلتها تتعثّر وتسقط في حضنه، ورأت ليني الحدّة اليائسة لحماسته. «أنا أحتاج إلى هذا يا كورا، أحتاج إلى مكانٍ أستطيع فيه أن أتنفّس من جديد. أحياناً، أشعر أنّني على وشك أن أزحف خارجاً من جلدي؛ أمّا هناك، ستنقطع ومضات الذّكريات والهراء. أنا موقنٌ بذلك. نحن نحتاج إلى هذا. يمكن للأمور أن تعود إلى عهدها كما كانت قبل أن تنال نام منّي وتدمّرني».

رفعت الأمّ وجهها إلى وجهه، وكان شحوبها في تباينٍ حادٍّ مع شعره الدّاكن وبشرته المسمرّة.

- «بحقّك يا عزيزتي». قال لها: «تخيّلي ذلك...!».

رأت ليني أمّها تلين، وتعيد تشكيل احتياجاتها لتتوافق مع احتياجاته، فتتخيّل هذه الشّخصيّة الجديدة: ألاسكيّة. لعلّها ظنّت الأمر شبيهاً بتدريبات إي إس تي، أو اليوغا، أو البوذيّة. الحلّ. لم يكن المكان، أو الزّمان، أو الماهيّة أموراً تهمّ الأمّ، كلّ ما يهمّها كان هو. «منزلنا الخاصّ». قالت: «لكن... المال... يمكنك التّقدّم بطلبٍ من أجل تعويضات الإعاقة العسكريّة تلك...».

- «ليس ذلك النّقاش من جديد». قال متنهّداً: «لن أفعل ذلك، التّغيير هو كلّ ما أحتاج إليه. وسأكون أكثر حرصاً في التّعامل مع المال من الآن فصاعداً يا كورا، أقسم لك. ما زال لديّ القليل ممّا ورثته عن العجوز، كما أنّني سأقتصد في الشّرب. سأذهب إلى اجتماع مجموعة دعم المحاربين القدامى ذلك كما تريدين».

لقد سبق لليني أن رأت كلّ هذا من قبل. ففي نهاية المطاف، لم يكن يهمّ ما تريده هي، أو أمّها.

أبوها يريد بدايةً جديدة.. يحتاج إليها.. وأمّها تحتاج إلى أن يكون سعيداً.

لذا سيجرّبون مرّةً أُخرى في مكانٍ جديدٍ، على أمل أن تحمل الجغرافيا الحلّ. سيذهبون إلى ألاسكا بحثاً عن هذا الحلم الجديد. ستفعل ليني ما يُطلب منها، بل وستفعله عن طيب خاطر. ستكون الفتاة الجديدة في المدرسة مرّةً أخرى؛ لأنّ هذا هو ما يعنيه الحبّ.

❊ 2 ❊

في الصّباح التّالي، استلقت ليني في سريرها تصغي إلى المطر يتكتك على السّطح، وتتخيّل انبثاق الفطر تحت نافذتها؛ قلانسه السّامة المكتنزة تتفتّق عبر الطّين بتلألئها المغوي. لقد بقيت مستيقظة في سريرها طويلاً بعد منتصف اللّيل، تقرأ عن أصقاع ألاسكا الشّاسعة، وقد سحرها ذلك على نحوٍ غير متوقّع. التّخم الأخير(*) ذلك بدا شبيهاً بوالدها؛ فسيح أكبر من أبعاد الحياة، وبه شيء من الخطورة.

سمعت موسيقا.. لحن له وقع صفيحيّ من الترانزستور؛ «مدمن على شعور»... رمت عنها الأغطية، ونهضت من السّرير. وجدت أمها في المطبخ واقفة أمام الموقد، تدخّن لفافة. بدت أثيريّةً في ضوء المصباح؛ شعرها الأشقر ذو التّسريحة الشّعثاء متفاوتة الطّبقات ما يزال فوضويّاً من أثر النّوم، ووجهها مستتر خلف الدّخان الأزرق الرّماديّ. كانت ترتدي قميصاً أبيض بلا أكمام غُسل مراراً حتّى بات يتهدّل على جسدها النّاحل، وبنطالاً زهريّاً فاقعاً بنطاقٍ مطاطيٍّ مرتخٍ. على قاعدة عنقها كدمة أرجوانيّة صغيرة كانت جميلةً على نحوٍ غريب، تشبه نجماً مشعّاً، وتلقي ضوءاً على رقّة ملامحها.

(*) التّخم الأخير: كناية شائعة عن ألاسكا. (المترجم)

- «ينبغي لك أن تكوني نائمة». قالت الأمّ: «الوقت مبكّر».

اقتربت ليني من أمّها، وأسندت رأسها إلى كتفها؛ كانت بشرة الأمّ تعبق بشذا الورد والسّجائر. «نحن لا ننام». قالت ليني.

نحن لا ننام... ذلك كان ما تقوله الأمّ دائماً؛ أنتِ وأنا. الارتباط بينهما ارتباط ثابت، يمدّ بالرّاحة، كما لو أنّ التّماثل يرسّخ الحبّ بينهما. كان صحيحاً بلا ريب أنّ الأمّ تعاني مشكلات نوم منذ عاد الأب إلى البيت؛ كلّما استيقظت ليني في منتصف اللّيل وجدت أمّها تسير في المنزل دائماً على غير هدى، وروبها الهفهاف مفتوح يتدلّى في إثرها. في الظّلام، كانت الأمّ تميل إلى محادثة نفسها همساً، فتقول كلاماً لا تستطيع ليني أن تتبيّنه تماماً البتّة.

- «أسنذهب حقّاً؟». سألتها ليني.

حدّقت الأمّ في القهوة السّوداء وهي تتقطّر في الكبسولة الزّجاجيّة الصّغيرة أعلى الغلّاية المعدنيّة: «أظنّ ذلك».

- متى؟

- أنت تعرفين أباك.. قريباً...

- هل سيتسنّى لي أن أنهي العام الدّراسيّ؟

رفعت الأمّ كتفيها.

- أين هو؟

- «خرج قبل الفجر ليبيع مجموعة العملات المعدنيّة التي ورثها عن أبيه». صبّت الأمّ لنفسها كوباً من القهوة، وارتشفت رشفة، ثمّ وضعته على طاولة الفورمايكا. «ألاسكا.. ربّاه.. لمَ لا نذهب إلى سيبيريا؟». أخذت سحبةً طويلةً من لفافتها، ثمّ أفلتتها: «أحتاج إلى صديقةٍ أتحدّث إليها».

- أنا صديقتك.

- أنت في الثّالثة عشرة، وأنا في الثّلاثين. يُفترض بي أن أكون أمّاً لك، عليّ أن أتذكّر هذا.

سمعت ليني اليأس في صوت أمّها، وأفزعها ذلك؛ هي تعلم كم كان كلّ شيء هشّاً: عائلتها، والداها. إن كان ثمّة شيء واحد يعرفه كلّ أبناء أسرى الحرب، فهو مدى سهولة انكسار النّاس. كانت ليني ما تزال ترتدي سوار أسرى الحرب الفضّيّ اللّامع في ذكرى نقيبٍ لم يعد إلى عائلته.

- إنّه بحاجةٍ إلى فرصة.. بداية جديدة.. جميعنا نحتاج إلى ذلك، ولعلّ ألاسكا تكون الحلّ المناسب.

- كما سبق لأوريغون أن كانت الحلّ، وسنوهوميش، وعبوات البذور التي ستجعلنا أغنياء. ولا تنسي السّنة التي ظنّ فيها أنّ بمقدوره جني ثروةٍ من آلات لعبة الكرة والدّبابيس. ألا يمكننا أن ننتظر حتّى انتهاء العام الدّراسيّ على الأقلّ؟

تنهّدت الأمّ: «لا أظنّ ذلك، والآن اذهبي وتجهّزي من أجل المدرسة».

- ما من دوام اليوم.

ظلّت الأمّ صامتة لوقتٍ طويلٍ، ثمّ قالت بهدوء: «هل تتذكّرين الفستان الأزرق الذي اشتراه بابا لك في عيد ميلادك؟».

- أجل.

- ارتديه.

- لماذا؟

- هيّا الآن، اذهبي من هنا وارتدي ملابسك، لدينا ما نفعله أنا وأنت اليوم.

على الرغم من شعورها بالسّخط والارتباك، فعلت ليني ما طُلب منها. كانت دائماً تفعل ما يُطلب منها، وكان ذلك يجعل الحياة أسهل. ذهبت إلى غرفتها وراحت تنقّب في خزانتها إلى أن وجدت الفستان.

ستبدين جميلة كالصّور فيه، يا صهباء.

إلّا أنّها لن تبدو جميلة. كانت تعلم تماماً كيف ستبدو: ابنة ثلاث عشرة هزيلة مسطّحة الصّدر في فستان زريّ يكشف عن فخذيها العجفاوين، ويجعل ركبتيها تبدوان مثل مقابض الأبواب. فتاة يُفترض بها أن تكون واقفة على شفا الأنوثة، غير أنّ تلك لم تكن الحال كما هو واضح. كانت متأكّدة تماماً أنّها الفتاة الوحيدة في صفّها التي لم تبدأ عادتها الشّهرية ولم يبرعم ثدياها بعد.

عادت إلى المطبخ الفارغ، العابق بالقهوة ودخان السّجائر، وارتمت فوق كرسيّ وفتحت كتاب نداء البرية.

غابت الأمّ في غرفتها ولم تخرج قبل ساعة.

بالكاد استطاعت ليني أن تميّزها؛ كانت قد رفعت شعرها الأشقر وجمعته في كعكة صغيرة، وارتدت فستاناً مزرّراً محزّماً يلتصق بجسمها، له لون ثمرة الأفوكادو الأخضر، غطّاها من عنقها إلى معصميها وركبتيها، وجوربي نايلون، وانتعلت حذاء سيّدة مسنّة. «يا ويلتاه!».

- «أجل، أجل». قالت الأمّ وهي تشعل لفافة تبغ: «أبدو مثل المسؤولات عن تنظيم بيع المخبوزات لدى رابطة الآباء والمعلّمين». كان في ظلّ العينين الأزرق القشديّ الذي وضعته شيء من البهرج البرّاق، وقد ألصقت رموشها الاصطناعيّة بيد راجفة قليلاً، كما أنّ كحل تحديد عينيها أثخن من المعتاد: «أليس لديك غير هذا الحذاء؟».

أخفضت ليني نظرها نحو الحذاء الأرضيّ(*) المسطّح الشّبيه بالملوقة الذي يرفع أصابع قدميها على نحوٍ طفيفٍ عن مستوى عقبيها، كانت قد توسّلت طويلاً حتّى تحصل على هذا الحذاء بعد أن اشترت جوان بيركوفيتس زوجاً منه وجعلت كلّ من في الصّفّ يتأوّه دهشةً: «الديّ حذاء التّنس الأحمر، لكنّ رباطَه انقطع البارحة».

- حسناً، أيّاً يكن، فلنذهب.

تبعت ليني أمّها إلى خارج المنزل، واعتلتا المقعدين الأحمرين المتهتّكين في الموستانغ المتبعّجة المطليّة بطلاءٍ تحضيريّ؛ كان صندوق السّيّارة مشدوداً بحبالٍ مطّاطيّةٍ ذات لونٍ أصفر فاتح لئلّا ينفتح.

أنزلت الأمّ مِردّ الشّمس وتفحّصت زينتها في المرآة. (كانت ليني مقتنعة أنّ المفتاح لن يشغل المحرّك إن لم تتفقّد أمّها صورتها المنعكسة وتشعل لفافة تبغ). وضعت طبقةً جديدةً من أحمر الشّفاه، وزمّت شفتيها، ثمّ استخدمت الطّرف المثلّث من كمّها لتمسح غباشة تعيق الرّؤية. وحين شعرت بالرّضا أخيراً، أعادت رفع لوح المِرَدّ وأدارت المحرّك، فصدح المذياع مدوّياً بأغنية «منتصف اللّيل في الواحة».

- «هل تعلمين أنّ ثمّة مئة طريقة للموت في ألاسكا؟». سألتها ليني: «قد تسقطين عن سفح جبل، أو تتهشّم بك طبقة رقيقة من الجليد. يمكن أن تتجمّدي، أو تتضوّري جوعاً، بل من الممكن حتّى أن تُلتهَمي».

- «ما كان يجدر بأبيك أن يعطيك ذلك الكتاب». أدرجت الأمّ شريطاً في آلة التّسجيل فطغى صوت كارول كينغ؛ أشعر بالأرض تدور...

(*) الحذاء الأرضيّ: نمط غير تقليديّ من الأحذية ابتكرته مصمّمة الأحذية ومدرّبة اليوغا الدّنماركيّة آنا كالسو في السّبعينيّات، يتميّز بثخن نعل أقلّ عند العقب ممّا هو في الأمام. (المترجم)

بدأت تغنّي وانضمّت ليني إليها. ولبضع دقائق جميلة، كانتا تفعلان شيئاً اعتيادياً؛ تعبران شارع I-5 نحو وسط سياتل، وتبدّل الأمّ مسلكها كلّما ظهرت سيّارة أمامها، مع لفافة تبغ أسيرة بين إصبعين من اليد التي تتولّى المقود.

بعد مجمّعي أبنية، توقّفت الأمّ أمام مصرف، ركنت وتفقّدت زينتها من جديد وقالت: «ابقي هنا». ثمّ خرجت من السّيّارة.

انحنت ليني وأقفلت باب السّيّارة، وشاهدت أمّها تمشي إلى الباب الأماميّ. غير أنّ الأمّ لم تكن تمشي حقّاً؛ كانت تتراقص، وركاها يتحرّكان برقّةٍ من جانبٍ إلى آخر. إنّها امرأةٌ جميلةٌ وتعرف ذلك، وهذا كان أمراً آخرَ تتشاجر هي والأب حوله؛ طريقة نظر الرّجال إليها. كان يبغض ذلك، بيد أنّ ليني تعلم أنّ أمّها تحبّ لفت الانتباه (على الرغم من حرصها على ألّا تعترف بذلك أبداً).

بعد خمس عشرة دقيقة حين خرجت الأمّ من المصرف، لم تكن تتراقص؛ كانت تتقدّم في مشيةٍ عسكريّةٍ، ويداها مكوّرتان إلى قبضتين. بدت غاضبة، فكّها الدّقيق منقبض بشدّة. «سحقاً لهذا». قالت، وهي تفتح الباب بعنفٍ وتدخل السّيّارة، ثمّ كرّرتها، وهي تصفق الباب.

- «ماذا؟». قالت ليني.

- «لقد أفرغ أبوكِ حساب توفيرنا، ولم يقبلوا إعطائي بطاقة ائتمانيّة ما لم يقدّم والدك، أو والدي أنا توقيعه». أشعلت لفافة تبغ: «بحقّ المسيح، نحن في عام 1974. لديّ عمل، وأجني المال، ومع ذلك لا يمكن للمرأة أن تحصل على بطاقةٍ ائتمانيّةٍ من دون توقيع رجُل. إنّه عالم رجالٍ يا فتاتي الصّغيرة». أدارت المحرّك وانطلقت عبر الشّارع، منعطفة نحو الطّريق السّريع.

واجهت ليني صعوبة في الثّبات فوق مقعدها من كثرة تغيير المسالك، وظلّت تنزلق من جانبٍ إلى آخر. كانت تصبّ تركيزها في الحفاظ على ثباتها إلى درجة لم تنتبه معها قبل أن تقطعا عدّة أميال إلى أنّهما كانتا قد تجاوزتا تلال وسط سياتل وباتت السّيّارة الآن تعبر حيّاً هادئاً تسيّج الأشجار منازله المهيبة. «يا للسّماء!». قالت ليني بصوتٍ يكاد لا يُسمع؛ لم تكن قد أتت إلى هذا الشّارع منذ سنوات، سنوات عديدة إلى حدّ أنّها كادت تنساه.

منازل الشّارع تنضح بالامتياز ويُسر الحال؛ سيّارات حديثة من طراز كاديلاك، وتورنادو، ولينكولن كونتيننتال، مركونة فوق طرقات مداخل إسمنتيّة.

ركنت الأمّ أمام منزلٍ كبيرٍ من الحجر الرّماديّ الخام، له نوافذ بشِباك قضبان معيّنة الشّكل، كان يقوم فوق مرجٍ صغيرٍ مرتفعٍ مقلّم، تحيط به من كلّ الجهات مساكب زهور تحظى بعنايةٍ مُحكمة، وعلى صندوق البريد كُتب اسم: «غوليهر».

- «واو.. لم نأتِ إلى هنا منذ سنوات». قالت ليني.

- أعلم، ابقي هنا.

- مستحيل! لقد اختفت فتاة أُخرى هذا الشّهر، لن أبقى هنا وحدي.

- «تعالي». قالت الأمّ وهي تُخرج فرشاة وشريطتين ورديّتين من حقيبتها، ثمّ جذبت ليني إليها، وهاجمت شعرها الطّويل الأحمر النّحاسيّ كما لو كان قد وجّه إساءة إليها. «أوه!». وعوعت ليني فيما أخذت أمّها تجمع لها شعرها في ضفيرتين تدفّقتا مثل نافورتين من كلا جانبي رأسها.

- «ستكتفين بالإصغاء اليوم يا لينورا». قالت الأمّ وهي تعقد شريطةً في طرف كلّ ضفيرة.

- «لقد كبرت على هذه الضّفائر». تذمّرت ليني.

- «الإصغاء». كرّرت الأمّ: «أحضري كتابك واجلسي بهدوء واتركي الحديث للبالغين». فتحت بابها وخرجت من السّيّارة، فهرعت ليني لتلتحق بها على الرّصيف.

أخذت الأمّ بيد ليني وجذبتها فوق ممشى تحفّه الشّجيرات المنحوتة على شكل تماثيل، واتّجهتا نحو بابٍ أماميٍّ خشبيٍّ كبير.

نظرت الأمّ إلى ليني وغمغمت: «فلنرَ ما سيحدث». ثمّ قرعت الجرس. أصدر الجرس صوت رنينٍ عميقٍ، مثل أجراس الكنائس، تلاه صوت وقع أقدامٍ مكتوم.

بعد لحظات، فتحت جدّة ليني الباب. في فستانٍ باذنجانيّ اللّون، وحزامٍ رفيعٍ يطوّق وسطها، وثلاثة عقود من اللّؤلؤ حول عنقها، بدت على أهبة الاستعداد لتناول الغداء مع الحاكم. كان شعرها الكستنائيّ ملفوفاً وملمّعاً مثل أرغفة الخبز في الأعياد، واتّسعت عيناها المزيّنتان بتبرّجٍ ثقيل. «كورالين». همست وهي تتقدّم فاتحةً ذراعيها.

- «هل أبي هنا؟». سألت الأمّ.

تراجعت الجدّة، وتركت ذراعيها تهويان على جانبيها: «إنّه في المحكمة اليوم».

أومأت الأمّ: «أيمكننا الدّخول؟».

رأت ليني كيف ضايق السّؤال جدّتها؛ إذ تموّجت التّجاعيد فوق جبينها الشّاحب المغطّى بالمساحيق: «بالطّبع. وأنتِ يا لينورا، كم يسعدني أن أراك من جديد».

انسحبت الجدّة إلى الظّلّ، وقادتهما عبر ردهةٍ تتوزّع خلفها غرفٌ وممرّاتٌ ودرجٌ يلتفّ صاعداً إلى طابقٍ ثانٍ تحجبه الظّلال.

كان المنزل يعبق بروائح شمع اللّيمون والأزهار.

اتّجهت بهما نحو شرفة خلفيّة مسيّجة لها نوافذ زجاجيّة مقوّسة، وأبواب زجاجيّة عملاقة، وتتوزّع النّباتات في كلّ مكان منها، وكان الأثاث كلّه مصنوعاً من الخيزران الأبيض الرّفيع. قُدّم للّيني مقعد عند طاولةٍ صغيرةٍ تطلّ على الحديقة في الخارج.

- «كم اشتقت إليكما!». قالت الجدّة، ثمّ، كما لو ساءها اعترافها، استدارت وسارت مبتعدة، لتعود بعد بضع لحظات وهي تحمل كتاباً: «أتذكّر كم تحبّين القراءة. حتّى حين كنتِ في عمر السّنتين، كان ثمّة كتاب بين يديك دائماً. لقد اشتريت هذا لك منذ سنوات، لكن... لم أعرف إلى أيّ عنوان أرسله. لديها شعر أحمر أيضاً».

جلست ليني وأخذت الكتاب، الذي كانت قد قرأته مراراً حتّى حفظت فقرات كاملة منه. بيبي ذات الجورب الطّويل؛ كتاب مخصّص لفتياتٍ أصغر سنّاً بكثير، وهي قد تجاوزت ذلك منذ وقتٍ طويل. «شكراً لك يا سيّدتي».

- «ناديني جدّتي، أرجوك!». قالت بهدوء؛ وكان ثمّة مسحة من اللّهفة في صوتها، ثمّ نقلت انتباهها إلى الأمّ.

رافقت الجدّة الأمّ إلى طاولةٍ حديديّةٍ بيضاء تعلوها إحدى النّوافذ. وفي قفصٍ مذهّبٍ على مقربة، كان زوجٌ من الطّيور البيضاء يهدلان لبعضهما. فكّرت ليني أنّهما حزينان بلا شكّ؛ هذان الطّائران اللذان لا يستطيعان الطّيران.

- «فاجأني أنّك سمحتِ لي بالدّخول!». قالت الأمّ وهي تتّخذ مقعدها.

- لا تتواقحي يا كورالين، أنت موضع ترحيب دائم، أنا ووالدك نحبّك.

- زوجي هو من لن تسمحا له بالدّخول.

- لقد قلّبك علينا، بل وعلى كلّ أصدقائك كما يمكنني القول. أرادك أن تكوني له وحده...

- لا أريد أن أتحدّث عن كلّ ذلك من جديد، نحن سننتقل إلى ألاسكا.

جلست الجدّة: «أوه! حبّاً بالقدّيس بطرس».

- لقد ورث إيرنت منزلاً وقطعة أرض، سنزرع خضراواتنا ونصطاد لحومنا بأنفسنا ونعيش وفقاً لقواعدنا الخاصّة. سنكون أنقياء.. روّاداً.

- توقّفي! لا أستطيع الاستماع إلى هذا الهراء. ستتبعينه إلى أقاصي الأرض، حيث لن يكون أحد قادراً على مساعدتك. لقد حاولت أنا ووالدك بجهدٍ كبيرٍ أن نحميك من أخطائك، لكنّك ترفضين تلقّي المساعدة، أليس كذلك؟ تظنّين أنّ الحياة مجرّد لعبة، وتكتفين بالنّطنطة...

- «كفى!». قالت الأمّ بحدّة، وانحنت إلى الأمام: «أتعلمين كم كان صعباً عليّ أن آتي إلى هنا؟».

خيّم صمتٌ إثر هذه الكلمات، ولم يكسره سوى هديل طائر.

بدا كما لو أنّ نسمةً باردةً مرّت لتوّها، وكانت ليني لتقسم أنّ السّتائر الشّفافة الغالية رفرفت، لكن لم يكن ثمّة نوافذ مفتوحة.

حاولت أن تتخيّل أمّها في هذا العالم المنغلق الكتيم، بيد أنّها لم تستطع. الهوة بين الفتاة التي تربّت الأم لتكونها، والمرأة التي صارت عليها بدت مستحيلة العبور. تساءلت ليني ما إن كانت كلّ تلك الاحتجاجات التي شاركت هي وأمّها فيها في أثناء غياب أبيها -ضدّ الطّاقة النّوويّة والحرب- وكلّ حلقات إي إس تي التّدريبيّة والأديان المختلفة التي جرّبتها أمّها، ليست إلّا طريقة الأمّ في الاحتجاج على المرأة الّتي رُبّيَت كي تكونها.

- لا تكوني مجنونة وتلقي بنفسك في مهاوي الخطر يا كورالين. اتركيه، عودي إلى البيت وانعمي بالأمان.

- أنا أحبّه يا أمّي، ألا يمكنك أن تفهمي هذا؟

- «كورا». قالت الجدّة برقّة: «أصغي إليّ، أرجوك. تعلمين أنّه خطِر...».

- «سنذهب إلى ألاسكا». قالت الأمّ بحزم: «جئت كي أودّعك و...». ذوى صوتها: «هل ستساعديننا أم لا؟».

لم تنبس الجدّة ببنت شفة لبرهةٍ طويلةٍ، واكتفت بعقد ذراعيها وفردهما. «كم تحتاجين هذه المرّة؟». سألتها في نهاية المطاف.

❄

في الطّريق إلى المنزل، دخّنت الأمّ اللّفافة تلو الأخرى، وأبقت صوت المذياع مرتفعاً إلى درجة تعذّر معها تبادل الحديث. ما كان ذلك ليشكّل اختلافاً بحقّ، فعلى الرغم من سلسلة الأسئلة التي كانت لدى ليني، لم تكن تعلم من أين تبدأ. لقد حظيت اليوم بلمحةٍ من عالمٍ يكمن تحت سطح عالمها، لم تكن أمّها قد حدّثتها كثيراً عن حياتها قبل الزّواج. لقد شردت هي والأب معاً؛ قصّتهما كانت قصّة رومانسيّة جميلة عن حبٍّ تغلّب على جميع العقبات. كانت الأمّ قد تخلّت عن مدرستها الثّانويّة و«عاشت على الحبّ»، تلك هي الصّياغة التي لطالما اختارتها؛ الحكاية السّحريّة. والآن كبرت ليني بما يكفي كي تعرف أنّ حكايتهم، حالها حال جميع الحكايات السّحريّة، كانت ممتلئة بالأحراش، والأماكن المظلمة، والأحلام المكسورة، والفتيات الهاربات.

كان جليّاً أنّ الأمّ غاضبة من أمّها، ومع ذلك ذهبت إليها طلباً للعون،

ولم تحتج حتّى إلى أن تطلب المال كي تحصل عليه. لم تستطع ليني استيعاب ذلك، غير أنّ الأمر أشعرها بالاضطراب. كيف يمكن لكلّ هذه المسافة أن تفصل بين أمٍّ وابنتها؟

انعطفت الأمّ إلى مدخل المنزل وأطفأت المحرّك، فانقطع صوت المذياع تاركاً إيّاهما في الصّمت.

- «لن نخبر أباك أنّني أخذت مالاً من أمّي». قالت الأمّ: «إنّه رجُلٌ ذو كبرياء».

- لكن...

- «هذا ليس نقاشاً يا ليني، عليك ألّا تخبري أباك». فتحت باب السّيّارة وخرجت، ثمّ صفقته خلفها.

مرتبكةً من التوجيه غير المتوقّع الذي أصدرته أمّها، تبعتها ليني عبر العشب الموحل الطّريّ للفناء الأماميّ، مروراً بشجيرات العرعر ذات حجم سيّارة الفولكس فاغن المعرّشة فوق بعضها بخشونةٍ شعثاء، إلى الباب الأماميّ.

داخل المنزل، كان والدها جالساً إلى طاولة المطبخ، وقد انفردت أمامه خرائط وكتب، وهو يشرب الكولا من زجاجة.

لدى دخولهما، رفع رأسه بابتسامةٍ عريضةٍ: «لقد حدّدت المسار الذي سنسلكه. سنقود السّيّارة عبر كولومبيا البريطانيّة وإقليم يوكون، المسافة نحو ألفين وأربعمئة ميل. اضبطا جدولكما يا سيّدتيّ: خلال أربعة أيّام، ستبدأ حياتنا الجديدة».

- «لكنّ المدرسة لم تنتهِ...». قالت ليني.

- «من يأبه بالمدرسة؟ هذا هو التّعليم الحقيقيّ يا ليني». قال الأب،

ثمّ نظر إلى الأمّ: «لقد بعت سيّارتي الجي تي أو، ومجموعة عملاتي المعدنيّة، وغيتاري. لدينا بعض السّيولة، وسنقايض سيّارتك الموستانغ بحافلة فولكس فاغن. لكن تبّاً، لا ضير في قليلٍ من المال بعد».

وجّهت ليني نظرةً جانبيّةً، فالتقت عيناها بعيني أمّها.

لا تخبريه!

لم يبدُ ذلك صائباً، أليس الكذب تصرّفاً خاطئاً على الدّوام؟ ولا شكّ أنّ هذا الإغفال للحقيقة ضربٌ من الكذب.

على الرغم من ذلك، بقيت ليني صامتة. لم يخطر لها أن تتحدّى أمّها قطّ. ففي هذا العالم الشاسع -وقد تضاعف حجمه ثلاث مرّات مع شبح انتقالهم إلى ألاسكا- كانت الأمّ هي الشّيء الصحيح الوحيد لدى ليني.

❄ 3 ❄

- ليني، صغيرتي، انهضي. كدنا نصل!

فتحت عينيها مستيقظة؛ كلّ ما رأته أوّل الأمر هو حضنها وقد تناثر فوقه فتات رقائق البطاطا. ثمّة جريدة قديمة قربها، مغطّاة بأغلفة الحلوى، ونسختها الورقيّة من رفقة الخاتم. كانت متروكةً مثل خيمة صغيرة، والصّفحات الصّفراء تبرز منها. أمّا أعزّ ممتلكاتها على قلبها، الكاميرا التي من طراز بولارويد، فمعلّقة بحزام يتدلّى حول عنقها.

لقد كانت رحلةً مذهلةً إلى الشّمال على طريق **كندا-ألاسكا** السّريع غير الممهّد بمعظمه، إجازتهم العائليّة الحقيقيّة الأولى. أيّامٌ من قيادة السّيّارة في ضوء الشّمس السّاطع، وليالٍ أمضوها في التّخييم قرب أنهارٍ هائجةٍ وجداول هادئة، في ظلال ذُرا جبال تشبه أسنان المنشار، رابضين حول نارٍ مشتعلةٍ يغزلون أحلاماً بمستقبلٍ يبدو أقرب يوماً بعد يوم. شووا النقانق من أجل العشاء، وأعدّوا السّمورز للتّحلية، وتشاركوا الأحلام حول ما سيكتشفونه في نهاية الطّريق. لم يسبق لليني أن رأت والديها بهذه السّعادة؛ ووالدها على الأخصّ، كان يضحك ويبتسم ويلقي النّكات ويعِدُهما بجلب القمر لهما، لقد كان الأب الذي تتذكّره من العهد السّابق.

عادةً، في رحلات السّفر البرّيّ، كانت ليني تبقي أنفها مدفوناً داخل

كتاب، لكنّ المناظر في هذه الرّحلة غالباً ما استحوذت على انتباهها، لا سيّما عبر الجبال السّاحرة في كولومبيا البريطانيّة. وفي رحاب هذه المناظر الطّبيعيّة المتتالية، جلست في مقعد الحافلة الخلفيّ، تتخيّل نفسها مثل فرودو أو بيلبو، بطلةً لمهمّة البحث الخاصّة بها.

تعثّرت حافلة الفولكس فاغن بشيءٍ ما -ربّما برصيف- فتطايرت الأغراض في الدّاخل، وسقطت على الأرض، وتدحرجت داخل حقائب الظّهر والصّناديق التي كانت تملأ القسم الخلفيّ من الحافلة، ثمّ أزّت المكابح وصدرت رائحة مطّاطٍ محترقٍ ودخان عادم.

تدفّق شعاع الشّمس من خلال النّوافذ المتّسخة المبقّعة بالبعوض، وتسلّقتليني كومة أكياس النّوم الملفوفة كيفما اتّفق لتفتح الباب الجانبيّ. كانت لافتتهم المزيّنة بأقواس القزح التي كُتب عليها: «إمّا ألاسكا، وإمّا الانهيار» ترفرف في النّسيم البارد، وحوافّها مثبّتة في مكانها بالأشرطة اللّاصقة.

خرجت ليني من الحافلة.

- «لقد وصلنا يا صهباء». اقترب والدها منها ووضع يده على كتفها: «نهاية الأرض؛ مدينة هومر، ألاسكا. النّاس يأتون إلى هنا من كلّ مكانٍ كي يتموّنوا، هذا المكان بمنزلة النّقطة الحدوديّة الأخيرة للحضارة، يُقال إنّ الأرض تنتهي والبحر يبدأ هنا».

- «واو». قالت الأمّ.

على الرغم من كلّ الصّور التي تأمّلتها ليني بدقّة، والمقالات والكتب التي قرأتها، لم تكن مهيّأةً لجمال ألاسكا البرّيّ السّاحر. كان جمالها يبدو من عالمٍ آخر بطريقةٍ ما، سحريّاً بأطرافه المترامية، منظر طبيعيّ لا يُضاهى

من الجبال الشّاهقة الممتلئة بالمجالِد، والتي تمتدّ على طول الأفق، قممها الدّقيقة كأطراف السّكاكين تطعن سماءً صافية زرقاء بلون القنطريون العنبريّ. كان خليج كاتشيماك صفحة من الفضّة الخالصة المطرّقة في ضوء الشّمس، القوارب ترقّطه، والهواء يعبق برائحة البحر الملحيّة العميقة. الطّيور السّاحليّة تطفو على ظهر الرّيح، تنخفض وترتفع بلا جهد.

لسان هومر الرّمليّ الذي قرأت عنه كان إصبعاً من اليابسة بطول أربعة أميال ونصف ينحني إلى داخل الخليج، وثمّة بعض الأكواخ زاهية الألوان ترتفع فوق ركائز عند حافّة الماء.

رفعت ليني آلة تصوير البولارويد، والتقطت الصّور بالقدر الذي يسمح به جهاز التّحميض من السّرعة. راحت تُخرج الصّور واحدةً تلو الأُخرى من آلتها وتشاهدها وهي تظهر أمام عينيها؛ أخذت الأبنيةُ ترسم حدودها على الورقة البيضاء اللّمّاعة خطّاً بعد آخر.

- «أرضنا تقع هناك». قال الأب مشيراً عبر خليج كاتشيماك إلى طوق من الرّوابي الخضراء المورقة في المسافة السّديميّة: «بيتنا الجديد. على الرغم من أنّه يقع على شبه جزيرة كيناي، لا توجد طرق إليه. المجالد الضّخمة والجبال تقطع بلدة كانِك عن البرّ الرّئيسيّ، لذا علينا أن نستقلّ الطّائرة، أو القارب».

دنت الأمّ من ليني. في بنطالها الجينز ذي الخصر المنخفض والنّهايتين الواسعتين وبلوزتها عديمة الأكمام مخرّمة الحوافّ، بوجهها شاحب البشرة وشعرها الأشقر، بدت كأنّها منحوتةٌ من ألوان هذا المكان الهادئة؛ ملاكٌ حطّ على شاطئ ينتظره. حتّى ضحكتها بدت تنتمي إلى المكان، صدىً لرنين أجراس الرّيح أمام المتاجر. ونسمةٌ منعشة تُلصق قميصها بجسدها ليأخذ قوام صدرها العاري. «ما رأيك يا فتاتي الصّغيرة؟».

- «هذا رائع!». قالت ليني، والتقطت صورةً أُخرى، لكن ما من حبرٍ وورقٍ يستطيع رصد عظمة تلك السّلسلة الجبليّة.

التفت الأب نحوهما، بابتسامةٍ واسعةٍ إلى درجة تجعّد لها وجهه: «العبّارة إلى كانِك تنطلق في الغد، لذا فلنذهب ونشاهد المعالم قليلاً، ثمّ نختر موقعاً للتّخييم على الشّاطئ، ونتمشَّ في الأنحاء، ما قولكما؟».

- «مرحى!». هتفت ليني وأمّها معاً.

فيما سارت الحافلة بهم من اللّسان الرّمليّ عبر البلدة، ضغطت ليني بأنفها على الزّجاج، وراحت تحدّق إلى الخارج. كانت البيوت مزيجاً من عناصر مختلفة؛ منازل كبيرة بنوافذ لامعة تقوم إلى جانب ملحقاتٍ خشبيّةٍ بسيطةٍ استُخدمت قطع البلاستيك والأشرطة اللّاصقة لجعلها قابلةً للمعيشة. ثمّة بيوتٌ بسيطةٌ مؤلّفة من عوارض وألواحٍ خشبيّة، وأكواخٌ، ومنازل متنقّلة، ومقطورات، وحافلات مركونة على جانب الطّريق لها نوافذ مسدلة السّتائر وأمامها كراسي. بعض الأفنية مقلّمة ومسيّجة، فيما تتراكم في الأخرى نفايات معدنيّة صدئة، وسيّارات مهجورة، وأدوات قديمة؛ معظمها غير مكتمل بطريقةٍ أو بأُخرى. مشاريع الأعمال تُدار داخل كلّ شيء، من مقطورات الإيرستريم القديمة الصّدئة إلى المقاصير الخشبيّة الجديدة والأكواخ على أطراف الطّرقات. المكان بريٌّ بعض الشّيء، بيد أنّه لم يبدُ أجنبيّاً أو نائياً بالدّرجة التي تخيّلَتْها.

رفع الأب صوت المذياع فيما هُم ينعطفون نحو شاطئٍ طويلٍ رماديٍّ، وغاصت العجلات في الرّمل فأبطأت تقدّمهم. كانت المركبات المركونة منتشرةً على طول الشّاطئ: شاحنات، وحافلات، وسيّارات. بدا واضحاً أنّ النّاس يقطنون على هذا الشّاطئ تحت أيّ سقفٍ يستطيعون العثور

عليه؛ خيام، سيّارات معطّلة، أكواخ مبنيّة من الخشب الذي تلفظه المياه والمشمّعات. «إنّهم يُسمَّون جرذان اللّسان الرّمليّ». قال الأب وهو يبحث عن مكانٍ يركن فيه: «يعملون في معامل التّعليب القريبة ولدى أصحاب مراكب الأجرة».

ناور ليدخل في فسحةٍ بين حافلة إيكونولاين صغيرة ملطّخة بالوحل تحمل لوحةً من نبراسكا وسيّارة غريملين خضراء ليمونيّة أُغلِقت نوافذها بالكرتون والأشرطة اللّاصقة. نصبوا خيمتهم فوق الرّمل، وربطوها بمصدّ الحافلة. وكانت الرّيح المشبعة برائحة البحر تسود المكان.

الأمواج المتكسّرة تصدر صوتاً هادئاً يبعث على السّكينة في تقدّمها وانحسارها. النّاس يستمتعون بالنّهار من كلّ صوب حولهم، فيرمون الأطباق الطّائرة للكلاب، ويعمّرون نيران السّمر في الرّمل، ويُنزلون الزّوارق إلى الماء. بدت ثرثرة الأصوات البشريّة صغيرة وعابرة أمام ضخامة العالم هنا.

أمضوا يومهم مثل السّيّاح، يتجوّلون على غير هدىً من مكانٍ إلى آخر. اشترت الأمّ والأب جعةً من حانة سالتي دوغ(*)، في حين اشترت ليني قمع مثلّجات من أحد الأكشاك على اللّسان الرّمليّ، ثمّ راحوا ينقّبون في صناديق متجر جيش الخلاص(**) إلى أن وجدوا جزماً مطّاطيّة تناسب مقاساتهم. كما ابتاعت ليني خمسة عشر كتاباً قديماً (معظمها تالف ومبقّع

(*) تعني حرفياً «الكلب المالح»، وهي تسمية تُطلق في أمريكا على البحّارة أو جنود البحريّة الّذين قضوا معظم حياتهم في البحر. (المترجم)

(**) جيش الخلاص: جماعة مسيحيّة بروتستانتيّة ومنظّمة خيريّة دوليّة تهتمّ بتلبية «الحاجات المادّيّة والرّوحيّة» للمحتاجين، تُدير متاجر ودور إيواء ومراكز إغاثة وإعادة تأهيل، إضافة إلى المساعدات الإنسانيّة الّتي تقدّمها للدّول النّامية. (المترجم)

بآثار المياه إلى درجةٍ ما) مقابل خمسين سنتاً، واشترى والدها طائرة ورقيّة ليطيّرها على الشّاطئ. ومرّرت الأمّ للّيني بعض النّقود وقالت: «اشتري لنفسك فيلم تصوير يا فتاتي الصّغيرة».

وفي مطعم صغير عند النّهاية القصيّة للّسان الرّمليّ، اجتمعوا حول طاولة نزهات وتناولوا وجبةً من سلطعون دونجنس؛ أغرِمت ليني بمذاق لحم السّلطعون الأبيض المالح اللّذيذ المشبع بالزّبدة الذّائبة، وراحت النّوارس تنعق لهم محلّقةً في الأعلى، وأعينها على البطاطا المقليّة والخبز الفرنسيّ.

لم تستطع ليني أن تتذكّر يوماً أفضل من هذا، ولم يسبق لمستقبلٍ مشرقٍ أن بدا بهذا القرب.

في الصّباح التّالي، استقلّوا بالحافلة عبّارةَ توستامينا الضّخمة (يُطلق المحلّيّون عليها اسم توستي) التّابعة لمنظومة خطّ ألاسكا البحريّ السّريع. السّفينة القديمة المتينة تخدّم بلدات نائية مثل: هومر، وكانِك، وسيلدوفيا، وداتش هاربر، وكودياك، وجزر ألوشيان ذات الطّبيعة البرّيّة البِكر. حالما رُكنت الحافلة في مصفّها، هرع ثلاثتهم إلى ظهر المركب واتّجهوا نحو الإفريز. كان المكان مكتظّاً بالنّاس، معظمهم رجال بشعور طويلة، ولحىً كثّة، يعتمرون قبّعات سائقي الشّاحنات، ويرتدون أقمصة فلانيل بنقوشٍ مربّعةٍ، وسترات منفوخة بلا أكمام، وبناطيل جينز متّسخة مدكوكة داخل جزم مطّاطيّة بنّيّة. كان ثمّة بعض الهيبّيّين في سنّ الجامعة هنا أيضاً، يمكن تمييزهم من حقائب ظهورهم وقمصانهم المصبوغة بالفتل(*) وصنادلهم.

(*) الصّبغ بالفتل: طريقة صبغ ملابس تقوم على فتلها قبل صباغتها لتخرج الألوان بشكل متموّج فنّيّ، شاعت في الولايات المتّحدة منتصف السّتينيّات. (المترجم)

ابتعدت العبّارة برويّة عن حوض السّفن وهي تنفث الدّخان، وسرعان ما لاحظت ليني أنّ الماء في خليج كاتشيماك لم يكن بالهدوء الذي بدا عليه من أمان الشّاطئ. هنا كان البحر منفلتَ العنان يغطّيه بياض الزّبد، والأمواج متكدّرة تطرطش جوانب المركب. كان المنظر جميلاً وساحراً وجامحاً، والتقطت ما لا يقلّ عن دستة من الصّور دسّتها داخل جيبها.

ظهرت مجموعة من حيتان الأوركا من بين الأمواج، وأخذت الفقمات تنظر إليها من فوق الصّخور، وثعالب الماء تأكل في رقع أعشاب البحر على طول الشّطآن الوعرة.

وأخيراً، انعطفت العبّارة وهي تصدر قرقرةً حول متراس أخضر بلون الزّمرّد من اليابسة حجبهم عن الرّياح التي كانت تهبّ في أنحاء الخليج، ورحّبت بهم جزر خصبة بشواطئ صخريّة تتناثر فوقها الأشجار، استقبلتهم داخل مياهها الهادئة.

- «اقتربنا من كانِك!». انبثق الصّوت من المكبّر: «المحطّة التّالية هي سيلدوفيا!».

- «هيّا يا آل أولبرايت، فلنعد إلى الحافلة!». قال الأب ضاحكاً. شقّوا طريقهم المتعرّج عبر صفّ السّيّارات، ووجدوا حافلتهم ثمّ ركبوها.

- «لا أطيق الانتظار حتّى أرى بيتنا الجديد». قالت الأمّ.

رست العبّارة ونزلوا بالحافلة، ثمّ قادوها على طريق ترابيّ عريض صاعد مشقوق وسط غابة. وعلى قمّة التّلّة، كان ثمّة كنيسة مبنيّة من الألواح الخشبيّة البيضاء لها برج ذو قبّة زرقاء يعلوه صليب روسيّ بثلاث أكتاف، وإلى جانبها مقبرة صغيرة مسيّجة بالأوتاد تتناثر فيها الصّلبان الخشبيّة.

وصلوا إلى قمّة التّلّة، ثمّ انحدروا على الجانب الآخر، ليلقوا نظرتهم الأولى على كانِك.

- «مهلاً». قالت ليني وهي تنظر من النّافذة المتّسخة: «لا يمكن أن يكون هذا».

رأت مقطورات مركونة على العشب، وأمامها كراسي، ومنازل كانت لتُدعى أكواخاً هناك في واشنطن. أمام أحد الأكواخ، ثلاثة كلاب مهزولة مقيّدة بالسّلاسل؛ كانت ثلاثتها واقفة فوق بيوتها البالية تنبح وتعوي باهتياج، وكان الفناء العشبيّ منقّراً بحفر حفرتها الكلاب الضّجرة.

- «إنّها بلدة قديمة ذات تاريخ مميّز». قال الأب: «قطن فيها السّكّان الأصليّون في البداية، ثمّ استوطنها تجّار الفراء الرّوس، وبعد ذلك استولى عليها المغامرون الباحثون عن الذهب. وضربها زلزال في عام 1964 بشدّة جعلت الأرض تنخفض خمسة أقدام خلال ثانية واحدة، فدُمّرت المنازل وهوت في البحر».

حدّقت ليني إلى المباني القليلة المتداعية ذات الطّلاء المتشقّق التي كانت تتّصل ببعضها عن طريق ممشى خشبيّ عتيق؛ كانت البلدة مرفوعة على ركائز فوق مسطّحات طينيّة. خلف الطّين ثمّة مرفأ ممتلئ بقوارب الصّيد، وطول الشّارع الرّئيسيّ أقلّ من مسافة كتلة سكنيّة، ولم يكن ممهّداً.

إلى يسارها كان ثمّة حانة تُدعى ذا كيكينغ موس، وكان المبنى عبارة عن خباء مسودّ متفحّم؛ واضح أنّه تعرّض لحريق. عبر النّافذة الزّجاجيّة القذرة، رأت زبائن في الدّاخل؛ أشخاصاً يشربون في العاشرة من صباح يوم خميس داخل قشرة محروقة تقوم مقام مبنى.

على جانب الشّارع المحاذي للخليج، رأت نُزل منامة مغلقاً، أخبرها أبوها أنّه قد بُني على الأغلب من أجل تجّار الفراء الرّوس قبل أكثر من مئة عام. وإلى جانبه، مطعم بحجم خزانة ملابس يُدعى فيش أون، يرحّب

بالزّوّار بباب مفتوح؛ استطاعت ليني أن ترى بضعة أشخاص يربضون أمام منضدة طويلة في داخله. وكان ثمّة بضع شاحنات قديمة مركونة قرب مدخل المرفأ.

- «أين المدرسة؟». قالت ليني، وهي تحسّ بوخزة من الذّعر.

لم تكن هذه بلدة، بل ربّما محطّة حدوديّة؛ مكان من النّوع الذي ربّما كان المرء يجد فيه قافلة عربات خيول تتّجه نحو الغرب قبل مئة عام، مكان من النّوع الذي لا أحد يقيم فيه. أيكون ثمّة أطفال في سنّها هنا؟

توقّف الأب أمام منزلٍ فيكتوريٍّ ضيّقٍ ذي سطحٍ مدبّبٍ بدا أنّه كان أزرق اللّون ذات زمان، والآن ما عادت تظهر عليه سوى رقع من هذا اللّون هنا وهناك فوق الخشب الذّاوي الذي تقشّر طلاؤه، وعلى النّافذة خُطّت كلمات بحروف مذهّبة ذات زخرفة ملولبة تقول: «مكتب الفحص(*)»، علّق أحدهم تحتها لافتة كُتب عليها بخطّ اليد: «محطّة تجاريّة/ مخزن عامّ» وثُبّتت بالأشرطة اللّاصقة. «فلنستعلم عن الاتّجاه يا آل أولبرايت».

خرجت الأمّ من الحافلة بسرعة، وهرعت نحو المقدار الصّغير من الحضارة الذي يمثّله هذا المخزن. وما إن فتحت الباب، صدر رنين عن جرس في الأعلى. اقتربت ليني بتردّد خلف أمّها، ووضعت إحدى يديها على خصرها.

كان ضوء الشّمس يدخل من النّوافذ خلفهما، مضيئاً الرّبع الأماميّ من المخزن؛ وبعد ذلك، لم يكن ثمّة ضوء سوى ذلك الّذي تقدّمه حبابة مصباح وحيدة عارية، والقسم الخلفيّ من المخزن غارق في الظّلّ.

كان الدّاخل يعبق برائحة الجلد المدبوغ القديم والويسكي والتّبغ،

(*) مكاتب الفحص: منشآت مختصّة بتقييم نقاوة المعادن الثّمينة وما شابهها. (المترجم)

والجدران مغطّاة بصفوف من الرّفوف؛ رأت ليني مناشيرَ، وفؤوساً، ومعازق، وجزم ثلج مكسوّة بالفراء، وجزماً مطّاطيّة لصيد السّمك، وأكواماً من الجوارب، وصناديقَ ممتلئة بمصابيح الرّأس. الفخاخ الفولاذيّة وسلاسل الجنزير تتدلّى عن كلّ الأعمدة، وثمّة دستة على الأقلّ من الحيوانات المحنّطة فوق الرّفوف والطّاولات؛ سمكة سلمون ملكيّ عملاقة أُسِرت إلى الأبد فوق لوح خشبيّ لامع، حالها في ذلك حال رؤوس حيوانات موظ وقرونها وجماجم بيضاء لحيوانات مختلفة، حتّى إنّه كان هنالك ثعلب أحمر محشوّ يجمع الغبار في إحدى الزّوايا، وعلى الجانب الأيسر توجد الأطعمة: أشوِلة البطاطا، ودلاء البصل، ومعلّبات السّلمون والسّلطعون والسّردين المكدّسة، وأشولة الأرزّ والطّحين والسّكّر، وعبوات سمن كريسكو. وقسم الوجبات الخفيفة الأثير لديها، حيث ذكّرتها أغلفة الحلوى الجميلة متعدّدة الألوان بالوطن؛ رقائق البطاطا، وعبوات البودينغ الجاهزة بصلصة السّكّر الأسمر والزّبدة، وصناديق حبوب الإفطار.

بدا مثل مخزنٍ كان ليرحّب بلورا إنغالز وايلدر(*) بسرور.

- زبائن!

سمعت ليني تصفيق أيدٍ، وظهرت امرأة سوداء بتسريحةٍ إفريقيّةٍ منفوشةٍ من الظّلال. كانت طويلة عريضة المنكبين وضخمة البنية إلى درجة اضطرّتها أن تسير على نحوٍ جانبيّ كي تخرج من خلف المنضدة الخشبيّة المصقولة، ووجهها مرقّط بالشّامات السّوداء الصّغيرة.

(*) لورا إنغالز وايلدر (1867-1957): كاتبة أمريكيّة اشتهرت بسلسلة كتب الأطفال المعنونة بـ«المنزل الصّغير في البراري» الّتي استمدّتها من طفولتها في عائلة من المستوطنين الرّوّاد. (المترجم)

اتّجهت إليهما بسرعة، وأساور من العظم تخشخش حول معصميها المكتنزين. كانت كبيرة في السنّ: في الخمسين من عمرها على الأقلّ. ترتدي تنّورة مرقّعة من قماش الدّنيم، وجوربين صوفيّين غير متطابقين، وصندلاً مفتوح المقدّمة، وقميصاً طويلاً أزرق غير مزرّر يكشف عن تي شيرت حائل اللّون. على خصرها حزام جلديّ عريض عُلّقت به سكّين مغمدة. «مرحباً، أعلم أنّ المكان يبدو مثبّطاً وغير منظّم، لكنّني أعرف مكان كلّ شيء، وصولاً إلى حلقات الوصل المستديرة والبطّاريّات الصّغيرة. الأهالي ينادونني لارج مارج(*) بالمناسبة». قالت وهي تمدّ يدها.

– «وتسمحين لهم بذلك؟». سألتها الأمّ مرسلةً ابتسامتها الجميلة المعهودة، تلك التي تجذب النّاس وتجعلهم يردّون بالمثل، وصافحت المرأة.

كانت ضحكة لارج مارج صاخبة وجشّاء، كأنّها لا تستطيع الحصول على ما يكفي من الهواء: «تعجبني المرأة التي تملك حسّ دعابة. إذنْ، بمقابلة من أتشرّف؟».

– «كورا أولبرايت». أجابت الأمّ: «وهذه ابنتي، ليني».

– أهلاً بكما في كانِك يا سيّدتيّ، لا يزورنا الكثير من السّيّاح عادةً.

دخل الأب إلى المخزن في الوقت المناسب كي يقول: «نحن من المحلّيّين، أو نوشك أن نكون. لقد وصلنا لتوّنا».

ازدادت ذقن لارج مارج المزدوجة طيّةً ثالثة وهي تُخفض رقبتها: «محلّيّون؟».

مدّ الأب يده: «لقد ترك لي بو هارلان منزله، وجئنا كي نقيم».

(*) مارج الضّخمة. (المترجم)

- يا للمصادفة! أنا جارتكم، مارج بيردسول، أقيم على بعد نصف ميل على الطّريق فقط، ثمّة لافتة. معظم الأهالي في هذه الأنحاء يعيشون خارج شبكة الخدمات، في الأحراش، لكنّنا محظوظون بما يكفي؛ إذْ يطلّ منزلانا على طريقٍ ما. إذنْ، ألديكم كلّ المؤن التي تحتاجون إليها؟ يمكنكم فتح حساب هنا في المخزن إن أردتم، وسددوا لي إما نقداً أو بالمقايضة، فهذه هي الطريقة التي نعتمدها هنا.

- «هذا بالضّبط هو نمط الحياة الذي جئنا نبحث عنه». قال الأب: «سأعترف، المال قليل بعض الشّيء، لذا ستكون المقايضة خياراً جيّداً. أنا ميكانيكيّ بارع بحقّ، وبوسعي إصلاح أيّ محرّك تقريباً».

- من الجيّد معرفة ذلك، سأنشر الخبر.

أومأ الأب: «جيّد، لا ضير من بعض اللّحم المقدّد، وربّما قليل من الأرزّ، وبعض الويسكي».

- «هناك». قالت لارج مارج وهي تشير: «خلف صفّ الفؤوس والبلطات».

تبع الأب توجيهها وسار إلى ظلال المخزن.

التفتت لارج مارج إلى الأمّ، ومسحتها من الرّأس حتّى القدم بنظرةٍ فاحصةٍ واحدة: «أخمّن أنّ هذا حلم زوجك، يا كورا أولبرايت، وأنّكم أتيتم إلى هنا من دون الكثير من التّخطيط».

ابتسمت الأمّ: «نحن نفعل كلّ شيء بدافع من النّزوات يا لارج مارج، وهذا يبقي الحياة مثيرة».

- حسناً، عليكِ أن تتحلّي بالقوّة هنا يا كورا أولبرايت، من أجلك أنت وابنتك. لا يمكنك أن تكتفي بالاعتماد على رجُلك، عليك أن تكوني قادرة على إنقاذ نفسك وفتاتك الجميلة هذه.

- «هذا كلام دراميّ بعض الشّيء». قالت الأمّ.

انحنت لارج مارج نحو صندوق كرتونيّ كبير، وجرّته إليها فوق الأرضيّة. أخذت تنقّب فيه، وأصابعها السّوداء تتحرّك مثل أصابع عازف بيانو، حتّى أخرجت صفّارتين بشريطين أسودين، ووضعت واحدة حول عنق كلّ من الفتاة وأمّها: «هذه صافرة دببة، ستحتاجان إليها. الدّرس الأوّل: لا يمكن المشي بهدوء -أو من دون سلاح- في ألاسكا، ليس إلى مسافة طويلة في الخارج، وليس في هذا الوقت من السّنة».

- «أتحاولين إخافتنا؟». سألتها الأمّ.

- «يمكنك أن تراهني بمؤخّرتك على ذلك، الخوف فطرة سليمة في هذه الأنحاء. الكثير من النّاس يأتون إلى هنا، يا كورا، بآلات تصوير وأحلام بحياة أبسط. لكنّ خمسة من كلّ ألف ألاسكيّ يُفقدون كلّ عام، يختفون ببساطة. ومعظم الحالمين... حسناً، لا يصمدون حتّى نهاية الشّتاء الأوّل، لا يطيقون الانتظار حتّى يعودوا إلى أرض أفنية سينما السّيّارات والحرارة التي تنتشر بضغطة زرّ، وضوء الشّمس».

- «أنت تجعلين الأمر يبدو خطراً». قالت الأمّ بارتباك.

- ثمّة نوعان من النّاس الذين يأتون إلى ألاسكا يا كورا؛ أناس يهربون نحو شيءٍ ما، وأناس يهربون من شيءٍ ما. النّوع الثّاني، سترغبين في إبقاء عينك يقظة تجاههم. وليس النّاس فقط هم من عليك الحذر منهم حتّى؛ إذ يمكن لألاسكا نفسها أن تكون حسناء نائمة في لحظةٍ ما، ثمّ تتحوّل إلى عاهرة تحمل بندقيّة قصيرة في اللّحظة التّالية. ثمّة مقولة مفادها: هنا يمكن للمرء اقتراف خطأ واحد، أمّا الثّاني فسيقتله.

أشعلت الأمّ لفافة تبغ، وكانت يدها ترتجف: «بوصفك لجنة التّرحيب، عليك أن تتركي شيئاً يستدعي الرّغبة يا مارج».

ضحكت لارج مارج من جديد: «أنت محقّة تماماً في هذا يا كورا، لقد ذهبت مهاراتي الاجتماعيّة كي تتغوّط في الأحراش». ابتسمت ووضعت يدها على كتف الأمّ النّحيلة تواسيها: «إليك ما تريدين سماعه: نحن نشكّل مجتمعاً متلاحماً هنا في كانِك، إذ إنّنا لا نتجاوز الثّلاثين شخصاً ممّن يقطنون في هذا القسم من شبه الجزيرة على مدار العام، لكنّنا نعتني ببعضنا. أرضي قريبة من أرضك، وإن احتجتِ أيّ شيء -أيّ شيء- فاستخدمي اللّاسلكيّ، وسآتي جرياً».

❄

وضع الأب ورقة دفتر فوق عجلة القيادة، عليها خريطة رسمتها له لارج مارج. كانت الخريطة تُظهر كانِك على شكل دائرة حمراء، وثمّة خطّ واحد صادر عنها؛ ذلك كان الطّريق (لم يكن هنالك إلّا واحد في الحقيقة وفقاً لما قالته) الذي يمتدّ من البلدة إلى شرم ثعلب الماء. وعلى طول الخطّ المستقيم وُضعت ثلاث علامات x؛ الأولى تمثّل مسكن لارج مارج على يسار الطّريق، ثمّ مسكن توم ووكر على يمينه، وأخيراً مسكن بو هارلان القديم، الذي يقع عند نهاية الخطّ تماماً.

- «إذنْ، نسير مسافةَ ميلين بعد جدول آيسيكل فنرى بداية أرض توم ووكر، التي تميّزها بوّابة معدنيّة. منزلنا يقع على بعدِ قليل منها، عند نهاية الطّريق». قال الأب تاركاً الخريطة تسقط على الأرضيّة فيما هم يخرجون من البلدة: «قالت مارج إنّنا لن نخطئه».

أخذت الحافلة تقعقع على جسرٍ متقلقل الهيئة يتقوّس فوق نهرٍ مياهه زرقاء صافية كالكريستال. مرّوا بأهوارٍ مشبعةٍ بالماء، ترقّشها أزهار صفراء وورديّة اللّون، ثمّ بمَدرج فيه أربع طائرات صغيرة باليّة المظهر مركونة ومثبّتة في أماكنها.

بعد مدرج الطائرات تماماً، تحوّل الطّريق المفروش بالحصى إلى تراب وصخور، وراحت تحفّ به أشجار نمت بكثافة على كلا جانبيه. تلطّخَ الزّجاج الأماميّ بالطّين والبعوض، وترجرجت الحافلة القديمة، وأخذت تصلصل بسبب أخاديد لها حجم بِرك سباحة أطفال. «بئساً». كان الأب يقول كلّما ارتموا فوق مقاعدهم. لم يكن ثمّة منازل هنا، ما من علامات حضارة، إلى أن بلغوا طريقاً تبعثرت فيه النّفايات الصّدئة والمركبات التّالفة. ظهرت لافتة خُطّ عليها باليد: «بيردسول»؛ مسكن لارج مارج.

بعد ذلك ساء الطّريق أكثر وازدادت مطبّاته؛ الكثير من الصّخور وبرك الوحل. وعلى الجانبين، نما عشبٌ بلا حدود، وأحراشٌ شوكيّةٌ، وأشجارٌ مرتفعةٌ بما يكفي لتحجب رؤية أيّ شيء آخر.

الآن باتوا بالفعل وسط مكانٍ معزولٍ عن الحياة.

بعد أن قطعوا المزيد من المسافة الخاوية على الطّريق، استقبلتهم جمجمة بقرةٍ ناصعة البياض تعلو البوّابة المعدنيّة الصّدئة التي تحدّد مسكن ووكر.

- «عليّ القول إنّني أشعر بشيءٍ من الرّيبة تجاه الجيران الذين يستخدمون حيوانات ميتة لأغراض الزّينة». قالت الأمّ متشبّثةً بمقبض الباب، الذي اقتُلع بيدها حين اصطدموا بأحد الأخاديد.

بعد خمس دقائق، داس الأب على المكابح بشدّة؛ كانوا على بعد مئتي قدم من السّقوط عن جرف.

- «يا للمسيح!». قالت الأمّ. كان الطّريق قد اختفى، وحلّت محلّه آجام وحافّة صخريّة؛ نهاية الأرض حرفيّاً.

- «لقد وصلنا!». قفز الأب مترجّلاً من الحافلة، وصفق الباب خلفه.

نظرت الأمّ إلى ليني؛ كلتاهما كانتا تفكّران في الشّيء نفسه: ما من شيء هنا سوى الأشجار والطّين وجرف كان من شأنه أن يودي بحياتهم في الضّباب. خرجتا من الحافلة والتصقتا ببعضهما، وفي مكان غير بعيد -ربّما أسفل الجرف أمامهما- كانت الأمواج تتكسّر وتهدر.

- «هلّا نظرتما إلى هذا؟». فرد الأب ذراعيه على وسعهما، كما لو يريد أن يطوّق المشهد كلّه. بدا كأنّه ينمو أمام أعينهما، مثل شجرة؛ ينشر أغصانه متفرّعةً، ويكتسب القوّة. لقد أعجبه العدم الذي يراه، الخواء الشّاسع؛ كان هذا ما أتى من أجله.

كان مدخل ملكيّتهم شريطاً مخصّراً ضيّقاً من الأرض تحفّه من كلا جانبيه جروف يضرب المحيط أساساتها، فكّرت ليني أنّ بوسع صاعقة أو زلزال أن يقلع قطعة الأرض هذه عن البرّ الرّئيسيّ، ويتركها تنجرف حصناً عائماً بمنزلة جزيرة.

- «هذا مدخلنا الخاصّ». قال الأب.

- «مدخل خاصّ؟». كرّرت الأمّ وهي تحدّق في المسلك بين الأشجار. بدا كأنّه لم يُستخدم منذ سنوات، ثمّة أشجار حور روميّ رفيعة الجذوع نمت في الطّريق.

- «لقد رحل بو منذ وقتٍ طويلٍ، سيتعيّن علينا تنظيف الطريق من النّباتات الجديدة، لكنّنا سنخوض فيها مبدئيّاً». قال الأب.

- «نخوض؟». سألت الأمّ.

طفق يُفرغ الحافلة من حمولتها. وبينما وقفت ليني وأمّها تحدّقان إلى الأشجار، قسّم الأب ضروريّاتهم في ثلاث حقائب ظهر وقال: «حسناً، ها نحن أولاء».

رمقت ليني الحقائب غير مصدّقة.

- «هاكِ يا صهباء». قال وهو يرفع حقيبةً بدت بحجم سيّارة بويك.

- «تريدني أن أحمل هذه؟». سألته.

- «أجل، إن كنت تريدين طعاماً وكيس نوم في الكوخ». ابتسم مردفاً: «هيّا يا صهباء، بوسعك فعلها».

تركته يضع لها الحقيبة على ظهرها. شعرت كأنّها سلحفاة داخل قوقعة أكبر من حجمها؛ إن سقطت فلن تتمكّن من استعادة توازنها أبداً. سارت على نحوٍ جانبيّ متوخية حذراً مبالغاً فيه، فيما ساعد أبوها أمَّها في وضع حقيبتها على ظهرها.

- «حسناً يا آل أولبرايت». قال الأب وهو يرزح تحت وزن حقيبته: «هيّا بنا إلى المنزل!».

انطلق يمشي، وذراعاه تتأرجحان على إيقاع خطواته. كانت ليني تسمع جزمته العسكريّة القديمة تطأ وتخضخض في التّراب الموحل، وهو يصفر في أثناء سيره مثل جوني أبلسيد(*).

نظرت الأمّ بلهفة خلفها إلى الحافلة، ثمّ التفتت نحو ليني وابتسمت، لكنّ ليني استقبلت ابتسامتها كتعبير عن الذّعر أكثر ممّا هو عن البهجة. «حسناً إذنْ». قالت: «هيّا بنا».

مدّت ليني يدها إلى يد أمّها.

(*) جوني أبلسيد: جون تشابمان (1774–1845)، أحد قدامى الرّوّاد الأمريكيّين، غرس أعداداً كبيرة من أشجار التّفّاح (ومن هنا جاء لقبه الّذي يعني «بذرة التّفّاح») على امتداد الحدود الإقليميّة القديمة، وأصبح من أبطال السّيَر الشّعبيّة لكثرة ما أشاد بذكره الرّوائيّون ومؤلّفو القصص القصيرة وناظمو الأشعار. (المترجم)

ساروا عبر أرضٍ تظلّلها الأشجار، يقتفون مسلكاً ضيّقاً ملتفاً. كان بمقدورهم سماع البحر يتكسّر من كلّ صوب حولهم. ومع مواصلتهم السّير، بدأ صوت الأمواج يضعف، واتّسعت الأرض؛ المزيد من الأشجار، المزيد من الأرض، المزيد من الظّلّ.

- «لطفك يا يسوع الطّيّب!». قالت الأمّ بعد مدّة: «كم بقي لنصل؟». تعثّرت بحجر، فهَوت بقوّة.

- «ماما!». انحنت ليني نحوها من دون تفكير فأسقطتها حقيبتها على الأرض، وملأ الطّين فمها، فراحت تبصق باهتياج.

صار الأب بجانبهما من فوره، وراح يساعدها هي وأمّها على الوقوف. «هيّا يا فتاتيّ، اتّكئا عليّ». قال لهما، ثمّ انطلقوا من جديد.

الأشجار متزاحمة تتداخل في بعضها، تتدافع بالمناكب من أجل المساحة، فتحيل المسار إلى عتمةٍ كئيبة. ضوء الشّمس يتغلغل من الثّغرات، بلونٍ ونقاءٍ يتغيّران في أثناء مسيرهم. كانت الأرض المفروشة بالأشنات خضلة نابضيّة، كأنّ المرء يمشي فوق حلوى مارشميلو. وفي رفّة عين، انتبهت ليني إلى أنّها تخوض في ظلٍّ بعمقٍ يغمر كاحلها؛ بدت الظّلمة هي التي ترتفع عوضاً عن أن تنخفض الشّمس، كما لو أنّ الظّلام هو الأمر المعتاد في هذه الأنحاء.

كانت الأغصان تضرب وجوههم مثل الخطاطيف، وهم يتعثّرون فوق الأرض الإسفنجيّة، حتّى خرجوا إلى الضّوء من جديد أخيراً، إلى مرج من العشب والحشائش البرّيّة التي تبلغ ارتفاع الرّكبة. اتّضح أنّ أرضهم ذات الفدادين الأربعين كانت شبه جزيرة: بصمة إبهام ضخم من الأرض المعشبة تجثم فوق الماء من ثلاث جهات، مع شاطئٍ صغيرٍ على شكل حرف C في الوسط؛ هناك كان الماء هادئاً، ساكناً.

ترنّحت ليني وهي تخرج إلى الفسحة، ثمّ فكّت أحزمة حقيبتها وتركتها تهوي على الأرض، وفعلت أمّها الشّيء نفسه.

وهناك كان البيت الذي جاؤوا في طلبه؛ كوخ صغير مبنيّ من قطع خشب اسودّت بفعل الزّمن، بسطح منحدر كساه الحزاز مثل الفراء، ورصّعته عشرات من جماجم الحيوانات ناصعة البياض. ثمّة مصطبة متعطّنة تبرز أمام الكوخ، تكوّمت فوقها كراسي يأكلها العفن. إلى اليسار، بين الكوخ والأشجار، هنالك حظائر بالية، وقنّ دجاج متهدّم.

كانت المخلّفات في كلّ مكان، تنتشر في العشب الطّويل: كومة كبيرة من أسياخ الإطارات، براميل محروقات، لفافات من أسلاك محمرّة، غسّالة خشبيّة قديمة الطّراز بعصّارة ذات ذراع يدويّة.

وضع الأب يديه على خصره، وألقى برأسه إلى الخلف، وراح يعوي مثل ذئب. حين توقّف واستقرّ الصّمت من جديد، سحب الأمّ إلى ذراعيه وراح يفتلها.

عندما تركها آخر الأمر، كادت الأمّ تفقد توازنها؛ كانت تضحك، لكن ثمّة نوع من الرّعب في عينيها. بدا الكوخ مثل شيء قد يسكنه ناسكٌ هرِم أدرد، كما أنّه كان صغيراً.

هل سيُحشَرون جميعهم في غرفة واحدة؟

- «انظرا إلى هذا». قال الأب وهو يشير إشارةً واسعةً بيديه، فاستداروا جميعهم عن الكوخ ونظروا إلى البحر: «هذا هو شرم ثعلب الماء».

في هذه السّاعة المتأخّرة من الأصيل، بدت شبه الجزيرة والبحر يتوهّجان من داخلهما، مثل أرض مسحورة في حكاية خيالية. الألوان تنبض بالحياة أكثر من أيّ شيء سبق لليني أن رأته، والأمواج المرتطمة

بالشّاطئ الطّينيّ تترك آثاراً متلألئة. وعلى الشّاطئ المقابل، كان للجبال لون أرجوانيّ غامق مورق عند سفوحها، وأبيض مطلق عند ذراها.

وكان الشّاطئ في الأسفل -شاطئهم- شريطاً ملتفّاً من الحصى الرّماديّة الصّقيلة، يغسله موجٌ هادئ أبيض الزّبد. ثمّة أدراج متقلقلة مبنيّة على شكل صاعقةٍ تصل المرج العشبيّ بالشّاطئ؛ انقلب الخشب رماديّاً بفعل الزّمن واسودّ من العفن، وغطّت أسلاك الأسوجة كلّ الدّرجات. بدت الأدراج هشّة، كأنّ بمقدور ريح لا بأس بها أن تحطّمها.

كان المدّ منحسراً، والطّين يغطّي كلّ شيءٍ ويترسّب في بركٍ على طول الشّاطئ الذي كسته الطّحالب والأعشاب البحريّة، وثمّة كتل من محار بلح البحر الأسود اللّامع تتمدّد مكشوفة على الصّخور.

تذكّرت ليني ما قاله لها أبوها عن أنّ الفورة المدّيّة في بوغاز كوك الأعلى تُحدث أمواجاً كبيرة بما يكفي للتّزلّج عليها، غير أنّ المدّ أكثر ارتفاعاً في خليج فندي. لم تكن قد فهمت تلك الحقيقة بحقّ قبل الآن، إذ رأت مقدار الارتفاع الّذي يمكن أن تبلغه المياه من الأدراج. سيكون المكان جميلاً عند ارتفاع المدّ، لكنّها الآن، خلال انحسار المدّ وانتشار الوحل في كلّ مكان، فهمت معنى ذلك. عند انخفاض المدّ، يكون من غير الممكن الوصول إلى هذه الأرض بالقارب.

- «هيّا»، قال الأب: «فلنتفقّد المنزل».

أخذ بيد ليني وتقدّم عبر العشب والنّباتات البرّيّة، مروراً بالمخلّفات: البراميل المقلوبة، وأكوام الطّبليّات الخشبيّة، وصناديق التّبريد القديمة، وأقفاص صيد السّراطين المكسورة. راح البعوض يلسع بشرتها، ويسحب الدّماء وهو يُصدر طنينه الرّتيب.

تردّدت الأمّ عند عتبات المصطبة، وترك الأب يد ليني، ووثب على الدّرجات المرتخية، ثمّ فتح الباب الأماميّ واختفى في الدّاخل.

وقفت الأمّ ساكنةً للحظة، تتنفّس بعمق. صفعت عنقها بقوّة، وتركت لطخة من الدّم. «حسناً»، قالت: «ليس هذا ما كنتُ أتوقّعه».

- «ولا أنا». أجابت ليني.

ران صمتٌ طويلٌ آخر، قالت الأمّ بعده بهدوء: «هيّا بنا».

أخذت يد ليني وهما تسيران فوق الدّرجات المتقلقلة، ثمّ دخلتا إلى الكوخ المظلم.

أوّل شيء لاحظته ليني كان الرّائحة.

براز.. حيوان ما (كانت تأمل أن يكون حيواناً) تغوّط في كلّ مكان...

غطّت فمها وأنفها بيدها.

كانت الظّلال تسود المكان، أشكال وأخيلة قاتمة. شباك العنكبوت تتدلّى عن العوارض الخشبيّة في شلل خيوط، الغبار يجعل التّنفّس صعباً، والأرضيّة مغطّاة بالحشرات النّافقة ممّا جعل كلّ خطوة تُصدر صوت سحق.

- «مقرف!». قالت ليني مشمئزّة.

دفعت الأمّ السّتائر القذرة لتفتحها فتدفّق ضوء الشّمس إلى الدّاخل، تُثخنه ذرّات الغبار.

المنزل من الدّاخل أكبر ممّا بدا من الخارج. الأرضيّة مصنوعة من خشب معاكس خشن غير متناسق ثُبّت بالمسامير فبدا مثل لحافٍ مرقّع، وعلى جدران الخشب المقشور توزّعت فخاخ الحيوانات وصنانير الصّيد والسّلال والمقالي ودلاء الماء والشِّباك، واحتلّ المطبخ -أو ما

يسمّى مطبخاً- إحدى زوايا الغرفة الرّئيسيّة. رأت ليني موقداً نقّالاً قديماً، وحوض جلي من دون تمديدات، تحته فسحة مغطّاة بستائر، وعلى الطّاولة ثمّة جهاز لاسلكيّ قديم -ربّما من الحرب العالميّة الثّانية- يكسوه الغبار. احتلّت مركزَ الغرفة مدفأةُ حطب سوداء، يرتفع أنبوبها المعدنيّ إلى السّقف مثل إصبع بمفاصل من الصّفيح يشير إلى السّماء. كان أثاث الكوخ يتألّف من أريكةٍ مهترئةٍ، وصندوقٍ خشبيٍّ مقلوبٍ كُتب على جانبه «بلازو»، وطاولة ورق لعب مع أربعة كراسي معدنيّة، وثمّة سلّم خشبيّ ضيّق شديد الانحدار يقود إلى فسحة علّيّة تضيئها السّماء، وإلى اليسار ستارة من خرز ذات ألوانٍ سيكاديليّة(*) تتدلّى عند مدخلٍ ضيّق.

دفعت ليني ستارة الخرز المغبرّة، ودخلت إلى غرفة النّوم خلفها، وكانت الغرفة بالكاد أكبر من الفراش المتكتّل المبقّع الذي يجثم فوق أرضيّتها. ثمّة المزيد من الخردوات تتدلّى عن علّاقات على الجدران، والمكان ينضح برائحة مبهمة لبراز الحيوانات والغبار المتراكم.

أبقت ليني يدها على فمها، خشيةَ أن تتقيّأ، وهي عائدة إلى غرفة المعيشة (فوق أصوات انسحاق قشور الحشرات النّافقة). «أين الحمّام؟».

شهقت الأمّ، هرعت نحو الباب الأماميّ، ثمّ دفعته وخرجت تركض.

تبعتها ليني إلى الخارج فوق المصطبة المتقلقلة، ثمّ على الدّرجات نصف المكسورة.

- «هناك». قالت الأمّ وهي تشير إلى كبينةٍ خشبيّةٍ صغيرةٍ محاطةٍ بالأشجار، ميّزها رسمٌ بشكل نصف قمر على بابها.

مرحاض خارجيّ.

(*) نسبةً إلى العقاقير التي تسبّب هلوسات لونية. (المترجم)

مرحاض خارجيّ.

- «أيّ خراء!». همست الأمّ.

- «تلاعب لفظيّ غير مقصود». قالت ليني. مالت نحو أمّها، كانت تعرف ما الذي تشعر به الأمّ الآن، لذا تعيّن عليها أن تتحلّى بالقوّة. تلك هي الطّريقة التي اتّبعتاها هي وأمّها، تتناوبان على التّحلّي بالقوّة؛ هكذا صمدتا خلال سنوات الحرب.

- «شكراً يا فتاتي الصّغيرة، كنت أحتاج إلى هذا». وضعت الأمّ ذراعها حول ليني، وجذبتها أكثر: «سنكون على ما يرام، أليس كذلك؟ لا نحتاج إلى تلفاز، أو مياه جارية، أو كهرباء». كان ثمّة نبرة حادّة تذيّل صوتها، وتشي باليأس.

- «سنستغلّ هذا أفضل استغلال». قالت ليني محاولةً أن تبدي الثّقة عوضاً عن القلق: «وهو سيكون سعيداً هذه المرّة».

- أتظنّين هذا؟

- بل أنا متأكّدة.

* 4 *

في الصّباح التّالي، شمّروا أكمامهم وبدؤوا العمل. تولّت ليني وأمّها تنظيف الكوخ، فكنستا، وفركتا، وغسلتا. تبيّن أنّ حوض الجلي في الكوخ كان «جافّاً» (ما من مياه جارية فيه)، لذا يتعيّن حمل الماء دلواً تلو الآخر من جدولٍ غير بعيد، وغليه قبل أن يتمكّنوا من شربه، أو الطّهو به، أو استخدامه للاستحمام. ولم يكن ثمّة كهرباء، مصابيح البروبان تتدلّى من العوارض الخشبيّة وتنتشر فوق طاولات الخشب المعاكس. تحت المنزل مخزن أرضيّ أبعاده ثمانية أقدام بعشرة على الأقلّ، تصطفّ فيه الرّفوف المتقلقلة المغبرّة، وتملؤه المرطبانات الفارغة القذرة والسّلال العفنة؛ لهذا نظّفتا كلّ ذلك أيضاً، فيما عمل الأب على تفريغ مدخل المركبات كي يتمكنّوا من نقل بقيّة مؤنهم بالحافلة إلى داخل المسكن.

بحلول نهاية اليوم الثّاني (الذي طال كأنّه دهر بالمناسبة؛ إذْ لم تكفّ الشّمس عن السّطوع بقوّة)، حلّت العاشرة مساءً قبل أن يتوقّفوا عن العمل.

أشعل الأب ناراً على الشّاطئ -شاطئهم- وجلسوا على الجذوع الملقاة حولها، يتناولون شطائر سمك التّونا، ويشربون الكوكا كولا الدّافئة. عثر الأب على بلح بحر ومحار أراهما كيفيّة فتحه، والتهموا كلّ واحدة من الرّخويّات اللّزجة في لقمة واحدة.

لم يحلّ اللّيل، وعوضاً عن ذلك أخذت السّماء لوناً زهريّاً أرجوانياً غامقاً، ولم يكن ثمّة نجوم. نظرت ليني إلى ضوء النّار البرتقاليّ المتراقص، والشّرر يتطاير نحو السّماء، يفرقع مثل الموسيقا، ورأت والديها يتضامّان؛ رأس أمّها على كتف أبيها، ويد أبيها مستقرّة بحبّ فوق فخذ الأمّ، وهما متلفّعان ببطّانيّة صوف. التقطت ليني صورة.

مع وميض كاميرا البولارويد وأزيزها، رفع الأب نظره إليها وابتسم: «سنكون سعداء هنا يا صهباء، ألا تشعرين بهذا؟».

- «بلى». أجابت. وللمرّة الأولى على الإطلاق، كانت تصدّق ذلك حقّاً.

❄

استيقظت ليني على صوت أحد -أو شيء- ما يقرع باب الكوخ بعنف. انسلّت خارج كيس نومها مذعورة، ودفعته جانباً، فأسقطت كدسة كتبها من العجلة. وفي الأسفل، سمعت خشخشة الخرز ووقْع أقدامٍ صاخباً، فيما ركضت الأمّ والأب إلى الباب. ارتدت ليني ملابسها بسرعة، وأخذت كاميرتها، وهرعت تنزل على السّلّم.

كانت لارج مارج واقفة في الفناء برفقة امرأتين أخريين، وخلفهنّ درّاجة ترابيّة صدئة ملقاة على جنبها فوق العشب، قربها درّاجة رباعيّة محمّلة بالكثير من الأسوجة السّلكيّة الملفوفة.

- «مرحباً يا آل أولبرايت». قالت لارج مارج بإشراق، ملوّحة بيدها التي لها حجم صحن فنجان: «لقد أحضرت بعض الأصدقاء». أضافت تشير إلى المرأتين اللّتين جلبتهما معها. كانت إحداهما جنّيّة غابة، بنيتها صغيرة بما يكفي لتليق بطفلة، لها شعر رماديّ طويل شبيه بأشرطة الزّينة؛

فيما كانت الأخرى طويلة ونحيلة. الثّلاث كُنّ يرتدين أقمصة فلانيل وبناطيل جينز مبقّعة نهاياتها مدكوكة في جزم مطّاطيّة بنّيّة تبلغ الرّكبة، وكلّ منهنّ تحمل أداةً: منشاراً آليّاً، وفأساً، وبلطة.

- «لقد أتينا كي نقدّم بعض المساعدة الأوّليّة». قالت لارج مارج: «وأحضرنا لكم بضعة أشياء ستحتاجون إليها».

رأت ليني أباها يعبس: «أتعتقدن أنّنا لسنا أكْفاء؟».

- «هكذا نتصرّف في هذه الأنحاء يا إيرنت». أجابت لارج مارج: «صدّقني، لا يهمّ كم قرأتَ، أو درست، فلن يكون بمقدورك أن تتهيّأ بما يكفي لشتائك الألاسكيّ الأوّل».

تقدّمت جنّيّة الغابة. كانت نحيلة وضئيلة، لها أنف حادّ بما يكفي لتقطيع الخبز، ومن جيب قميصها برز قفّازان جلديّان. بالنّسبة إلى حجمها الضّئيل، كانت سيماها تنضح بالكفاءة: «أنا ناتالي واتكنز. أخبرتني لارج مارج أنّكم لا تعرفون الكثير عن الحياة هنا، وأنا كنتُ مثلكم قبل عشر سنوات. لقد تبعت رجلاً إلى هذه الأنحاء، القصّة الكلاسيكيّة. فقدتُ الرّجل وعثرت على حياة، بات لديّ قارب صيد خاصّ الآن؛ لذا فأنا أتفهّم الحلم الذي أتى بكم إلى هنا، لكنّ هذا لا يكفي. سيتعيّن عليكم أن تتعلّموا بسرعة». ارتدت ناتالي قفّازيها الأصفرين: «لم أعثر قطّ على رجُل آخر يستحقّ أن أحظى به. تعرفون ما يقولونه عن إيجاد رجُل في ألاسكا: الاحتمالات جيّدة، لكنّ الجودة نادرة».

كان للمرأة الأطول جديلة بلون الصّوف تمتدّ حتّى تبلغ خصرها تقريباً، وعينان شاحبتان بحيث يتراءى للمرء أنّهما تأخذان لونهما من السّماء الباهتة. «مرحباً بكم في كانِك. أنا جينيفا ووكر.. جين.. جيني..

الجينيراتور(*)... ما من اسمٍ إلاّ وأجيب من يناديني به تقريباً». ابتسمت لتكشف عن غمّازتين: «عائلتي من فيربانكس، لكنّني أُغرِمت بأرض زوجي، ولذلك أقمت هنا. أنا هنا منذ عشرين سنة».

- «أنتم بحاجة إلى دفيئة وخبيئة على أقلّ تقدير». قالت لارج مارج: «كان لدى بو العزيز خططٌ كبيرةٌ من أجل هذا المكان حين اشتراه، لكنّه ذهب إلى الحرب... وكان بارعاً جدّاً في ترك الأعمال غير المنتهية».

- «خبيئة؟». سأل الأب.

أومأت لارج مارج بفظاظة: «الخبيئة هي كبينة صغيرة تُرفع على ركائز، وتوضع فيها اللّحوم كيلا تصل الدّببة إليها. في هذا الوقت من السّنة، تكون الدّببة جائعة».

- «هيّا يا إيرنت». قالت ناتالي وهي تنحني لالتقاط المنشار الآليّ الذي عند قدميها: «لقد أحضرتُ منشرة خشب محمولة، بإمكانك أن تقطع الأشجار وأنا سأنشرها إلى ألواح، خطوة تلو الأخرى، أليس كذلك؟».

عاد الأب إلى الكوخ وارتدى صداره، ثمّ انطلق إلى الغابة مع ناتالي. وسرعان ما سمعتليني أزيز المنشار الآليّ ودويّ فأس في الخشب.

- «سأبدأ العمل على الدّفيئة». قالت جينيفا: «أظنّ أنّ بو ترك كومة من الأنابيب البلاستيكيّة في مكانٍ ما...».

اقتربت لارج مارج نحو ليني وأمّها.

هبّت نسمة، وانقلب الجوّ بارداً في رمشة عين. عقدت الأمّ ذراعيها؛ لا بدّ من أنّها تشعر بالبرد، وهي تقف هكذا في تي شيرت لفرقة غريتفُل

(*) Generator: المولّدة. (المترجم)

ديد وبنطال جينز بنهايتين واسعتين. حطّت بعوضة على وجنتها، فصفعتها مخلّفة لطخة من الدّم.

- «بعوضنا سيّئ». قالت لارج مارج: «سأحضر لكم طارد حشرات في زيارتي القادمة».

- «منذ متى تعيشين هنا؟». سألتها الأمّ.

- «منذ عشر من أفضل سنوات حياتي». أجابت لارج مارج: «الحياة في الأحراش شاقّة، لكن ما من شيء يضاهي مذاق السّلمون الذي تصطادينه في الصّباح، مبلّلاً برذاذ الزّبدة التي تمخضينها من قشدتك الطّازجة. لا أحد هنا يملي عليك ما تفعلينه أو كيفيّة فعله، كلّ منّا يبقى حيّاً بطريقته الخاصّة. إن كنتِ قويّة بما يكفي، سيكون هذا المكان جنّة على الأرض».

حدّقت ليني في المرأة الضّخمة ذات المظهر الخشن في شيءٍ من الرّهبة، لم يسبق لها أن رأت امرأةً بهذا الطّول أو الهيئة القويّة. بدت لارج مارج قادرةً على إسقاط شجرة أرز كاملة النّضج وإلقائها على كتفها والمضيّ بها.

- «نحن بحاجةٍ إلى بدايةٍ جديدة». قالت الأمّ مفاجئةً ليني. ذلك هو نوع حقائق الحضيض الذي كانت أمّها تميل إلى تجنّب الحديث عنه.

- هل كان في نام؟

- أسير حرب.. كيف عرفتِ؟

- «إنّه يمتلك تلك السّيماء. وكذلك، حسناً... بو هو من ترك لكم هذا المكان». نظرت لارج مارج نحو يسارها، إلى حيث كان الأب وناتالي يقطعان الأشجار: «أهو قاسٍ؟».

- «لـ.. لا». أجابت الأمّ: «بالطّبع لا».

- ومضات من الماضي؟ كوابيس؟

- لم يعانِ أيّاً من ذلك منذ اتّجهنا إلى الشّمال.

- «أنت متفائلة». قالت لارج مارج: «سيكون هذا جيّداً كبداية. حسناً، الأفضل أن تبدّلي قميصك يا كورا، سيُجنّ جنون الحشرات أمام كلّ هذه البشرة البيضاء العارية».

أومأت الأمّ واستدارت عائدة إلى الكوخ.

- «وأنتِ». قالت لارج مارج: «ما قصّتك يا آنستي الصّغيرة؟».

- ليست لديّ قصّة.

- الجميع لديه قصّة، لعلّ قصّتك تبدأ هنا.

- ربّما.

- ماذا تستطيعين أن تفعلي؟

رفعت ليني كتفيها: «أقرأ وألتقط الصّور». أشارت إلى الكاميرا المتدلّية عن عنقها: «ليس الكثير ممّا يجدينا نفعاً».

- «إذنْ فستتعلّمين». قالت لارج مارج. اقتربت أكثر، وانحنت لتهمس بتواطؤ في أذن ليني: «هذا المكان سحريّ يا طفلتي، كلّ ما عليكِ هو أن تفتحي قلبكِ له، ستفهمين قصدي. غير أنّه غدّار كذلك، وإيّاك أن تنسي هذا. أظنّ أنّ جاك لندن هو من قال إنّ ثمّة ألف طريقة للموت في ألاسكا.. ابقي حذرة».

- ممّ؟

- من الخطر.

- ومن أين سيأتي؟ من الطّقس؟ الدّببة؟ الذّئاب؟ ماذا أيضاً؟

نظرت لارج مارج عبر الفناء إلى حيث يطيح الأب وناتالي بالأشجار: «يمكنه أن يأتي من أيّ مكان، الطّقس والعزلة يصيبان بعض النّاس بالجنون».

وقبل أن يتسنّى للّيني طرح سؤال آخر، عادت أمّها متهيّئة للعمل في بنطال جينز وبلوزة.

- «كورا، أيمكنك إعداد القهوة؟». سألتها لارج مارج.

ضحكت الأمّ وضربت وركها بورك ليني: «حسناً يا لارج مارج، يبدو أنّك وجدتِ الشّيء الوحيد الذي أستطيع فعله».

❄

عملت لارج مارج وناتالي وجينيفا طيلة اليوم إلى جانب ليني ووالديها. كانت الألاسكيّات يؤدّين عملهنّ في صمت، ويتواصلن بالهمهمات، والإيماءات، وإشارات الأصابع. وضعت ناتالي المنشار الآلي داخل شيء شبيه بالقفص، وراحت وحدها تنشر قطع الخشب الكبيرة التي اقتطعها الأب وتحوّلها إلى ألواحٍ، وكلّ شجرة تسقط تكشف عن شريحةٍ أُخرى من ضوء الشّمس.

علّمت جينيفا ليني كيف تنشر الخشب، وتدقّ المسامير، وتبني مساكب خضراوات مرتفعة، وبدأتا معاً بناء هيكل الألواح والأنابيب البلاستيكيّة الذي سيتحوّل إلى دفيئة. ساعدت ليني جينيفا في حمل لفافة ضخمة ثقيلة من النّسيج البلاستيكيّ عثرتا عليها في قنّ الدّجاج المحطّم، وألقتا بها على الأرض.

- «أووف». قالت ليني. كان تنفّسها ثقيلاً، وجبهتها تلمع بالعرق، وشعرها المجعّد يتدلّى منهَكاً على جانبي وجهها المتورّد، لكنّ مخطّط

الهيكل الشّبيه بالحديقة منحها شعوراً بالفخر، بالتّصميم. وبدأت بالفعل تتطلّع قدماً إلى زرع الخضراوات التي ستكون طعامهم.

في أثناء عملهما، تحدّثت جينيفا عن الخضراوات التي يجب زرعها، وكيفيّة حصادها، ومدى الأهمّيّة التي ستكتسبها حين يأتي الشّتاء.

كان الشّتاء كلمة تقولها هؤلاء الألاسكيّات كثيراً. ربّما لم ينتهِ شهر مايو بعد، وبالكاد حلّ الصّيف، لكنّ الألاسكيّين يركّزون على الشّتاء منذ الآن.

- «استريحي يا صغيرتي». قالت جينيفا أخيراً، وهي تنهض على قدميها: «عليّ أن أستخدم المرحاض الخارجيّ».

ترنّحت ليني وهي تخرج من هيكل الدّفيئة، ووجدت أمّها واقفة وحدها، لفافة تبغ في إحدى يديها، وكوب قهوة في الأُخرى.

- «أشعر كأنّنا سقطنا في جحر الأرنب». قالت الأمّ. وقربها، كانت طاولة ورق اللّعب المتقلقلة التي أحضروها من الكوخ تحمل بقايا الغداء؛ لقد أعدّت كمّيّة من البسكويت المخبوز وقلت بعض السّجق البولونيّ.

للهواء رائحة دخان الحطب والسّجائر والخشب المقطوع حديثاً، وقد امتلأ بأصوات أزيز المنشار الآليّ، وارتطام الألواح فوق أكوامها، وطرق المسامير.

رأت ليني لارج مارج تسير باتّجاههما، بدت متعبة ومتعرّقة، لكنّها كانت تبتسم: «هل لي بتناول رشفة من هذه القهوة؟».

ناولت الأمّ لارج مارج كوبها.

وقفت الثّلاث في مكانهنّ، يُجلن أنظارهنّ في أنحاء المسكن الذي كان يتغيّر أمام أعينهنّ.

- «زوجك إيرنت عامل جيّد». قالت لارج مارج: «يتحلّى ببعض المهارات، قال إنّ والده كان صاحب مزرعة».

- «أها». قالت الأمّ: «في مونتانا».

- هذه أخبار جيّدة، يمكنني أن أبيعكم زوج ماعز للتكاثر حالما تُصلحون الحظائر. سأقدّم لكم سعراً جيّداً، وسيكون الماعز مفيداً من أجل الحليب والجبنة. كما بوسعكم تعلّم الكثير من مجلّة مذر إيرث نيوز، سأحضر لكم رزمة.

- «شكراً لك». قالت الأمّ.

- «قالت جينيفا إنّ العمل مع ليني مبهج، هذا جيّد». ربّتت على ليني بقوّة جعلتها تتعثّر إلى الأمام: «لكن يا كورا، لقد تفحّصت مؤنكم، آمل ألّا تمانعي. ليس لديكم ما يكفي بأي حال، كيف هو وضعكم المالي؟».

- الوضع سيئ.

أومأت لارج مارج، واستقرّ وجهها في خطوط متجهّمة: «أتجيدين إطلاق النّار؟».

ضحكت الأمّ.

لم تبتسم لارج مارج: «أنا أعني ذلك يا كورا، هل تجيدين إطلاق النّار؟».

- «من بندقيّة؟». سألت الأمّ.

- «أجل، بندقيّة». أجابت لارج مارج.

خمدت ضحكة الأمّ: «لا». أطفأت عقب لفافتها على صخرة.

- حسناً، لستم أوّل أفراد من التشيتشاكو يجيئون إلى هنا بحلم وخطّة واهية.

- «التشيتشاكو؟». سألت ليني.

- أي الوافدون الجدد غير المتمرّسين. ألاسكا لا تأبه بمن كنتم حين اتّجهتم إليها، بل بمن ستصبحون. أنتما هنا في البرّيّة أيّتها الفتاتان، وهذه ليست خرافة، أو حكاية سحريّة ما. الأمر حقيقيّ وقاسٍ. سرعان ما سيحلّ الشّتاء، وصدّقاني، لن يكون مثل أيّ شتاء سبق واختبرتماه. سيغربل القطيع وبسرعة. عليكما أن تعرفا كيف تنجوان، عليكما أن تعرفا كيف تطلقان النّار وتقتلان لتطعما نفسيكما وتبقيا في مأمن، فأنتما لا تتربّعان على قمّة السّلسلة الغذائيّة هنا.

جاءت ناتالي والأب يسيران باتّجاههنّ؛ كانت ناتالي تحمل المنشار الآلي وتمسح جبهتها المتعرّقة بمنديل رأسٍ جمّعته في قبضتها. كانت امرأة ضئيلة بحقّ، بالكاد أطول من ليني؛ بدا مستحيلاً أن تستطيع حمل ذلك المنشار الثّقيل والتّجوّل به.

توقّفت بجانب الأمّ، وثبّتت طرف المنشار المستدير على مقدّمة جزمتها المطّاطيّة:

- حسناً، عليّ أن أطعم حيواناتي، لقد أعطيت إيرنت تصميماً جيّداً للخبيئة.

تقدّمت جينيفا نحوهم بخطواتٍ واسعة؛ التّراب الأسود يلوّن شعرها ووجهها، ويتناثر في أنحاء الوجه الأماميّ لقميصها: «ليني تتحلّى بروح العمل الصّحيحة، هنيئاً لكما يا والديها».

أرخى الأب ذراعه فوق كتفي الأمّ، وقال: «لا شكر يفيكنّ حقّكنّ يا سيّداتي».

- «أجل، مساعدتكنّ تعني لنا الكثير». أضافت الأمّ.

ابتسامة ناتالي منحتها مظهر الجنّيات: «من دواعي سرورنا يا كورا. وتذكّروا، أقفلوا بابكم اللّيلة حين تخلدون إلى الأسرّة، ولا تخرجوا قبل أن يحلّ الصّباح. إن كنتم تحتاجون إلى قعّادة(*)، فأحضروا واحدةً من عند لارج مارج في المحطّة التّجاريّة».

أدركت ليني أنّها فغرت فمها قليلاً؛ يريدون منها أن تتبوّل في دلو؟

- «الدّببة خطرة في هذا الوقت من السّنة، ولا سيّما الدّببة السّوداء. وهي تهاجم في بعض الأحيان لمجرّد كونها "تستطيع ذلك"». قالت لارج مارج: «وثمّة ذئاب وأيائل موظ وما لا يعلمه إلّا الله». أخذت المنشار الآلي من ناتالي، وعلّقته بكتفها كما لو كان عوداً من نبتة بلسم: «لا يوجد شرطة في هذه الأنحاء، ولا هاتف إلّا في البلدة. لذا يا إيرنت، علّم امرأتيك كيف تطلقان النّار، وافعل ذلك بسرعة. سأعطيكم قائمة بالحدّ الأدنى من المؤن التي ستحتاجون إليها قبل سبتمبر. سيتعيّن عليكم أن تختزنوا أيلَ موظ هذا الخريف لا محالة؛ من الأفضل أن يجري صيدها في موسمها، لكن... كما تعلمون، ما يهمّ هو وجود لحم في المجمِّدة».

- «ليس لدينا ثلّاجة». أشارت ليني.

ضحكت النّسوة على تعليقها، لسببٍ ما.

أومأ الأب بوقار: «فهمت».

- «حسناً، نراكم لاحقاً». قالت النّسوة بصوتٍ واحدٍ، ومَشين يلوّحن نحو مركباتهنّ وركبنها، ثمّ سرن بها عبر المسلك الذي يفضي إلى الطّريق الرّئيسيّ، واختفين خلال لحظات.

في الصّمت الذي أعقب ذلك، هزّت نسمةٌ باردةٌ ذُرا الأشجار فوقهم،

(*) القعّادة: أداة حوضيّة تُستعمل لقضاء الحاجة. (المترجم)

وحلّق نسرٌ في الأعلى، وبين مخالبه سمكةٌ فضّيّةٌ ضخمةٌ تصارع للفكاك. رأت ليني طوق كلبٍ يتدلّى من الأغصان العلويّة لشجرة دائمة الخضرة؛ لا بدّ من أنّ نسراً التقط كلباً صغيراً، وحمله مبتعداً... أيمكن لنسرٍ أن يحمل فتاةً نحيلةً مثل عمود عريشة؟

كوني حذرة، تعلّمي إطلاق النّار!

إنّهم يعيشون على قطعة أرضٍ لا يمكن بلوغها عبر الماء في المدّ المنخفض، في شبه جزيرةٍ لا يقطنها إلّا حفنة من البشر، ومئات من الحيوانات البرّيّة، في مناخٍ قاسٍ بما يكفي لقتل المرء. ما من مخفر شرطة، ما من شبكة هاتف، ما من أحد يسمع المرء يصرخ.

للمرّة الأولى، فهمت بحقٍّ ما كان يقوله أبوها: مكانٌ ناءٍ...

❄

استيقظت ليني على رائحة قلي اللّحم المقدّد. وعندما نهضت جالسة، تشعّب ألمٌ عبر ذراعيها وساقيها.

كان تتألّم في كلّ موضع، ولدغ البعوض يسبّب حكّة في جلدها. خمسة أيّام (وفي هذه الأنحاء كان النّهار بلا نهاية، ضوء الشّمس يبقى حتّى منتصف اللّيل تقريباً) من العمل الشّاقّ كشفت عن عضلات لم تكن تعلم أنّها تملكها قطّ.

خرجت من كيس نومها وارتدت بنطالها الجينز ذا الطّراز الضّيّق عند الوركين (كانت قد نامت بكنزتها وجوربيها). كان في فمها طعم مريع، فقد نسيت أن تنظّف أسنانها اللّيلة الماضية. بدأت بالفعل تحاول الاقتصاد في استخدام الماء الذي لا يتدفّق عبر الصّنابير، بل يتعيّن جلبه إلى المنزل دلواً تلو الآخر.

نزلت السّلّم.

كانت أمّها في الرّكن المخصّص للمطبخ، عند الموقد النّقّال، تصبّ دقيق الشّوفان في قدر من الماء المغليّ. أخذ اللّحم المقدّد يئزّ ويفرقع في إحدى المقالي المصنوعة من الحديد الصّبّ التي عثروا عليها معلّقة بعلّاقة.

سمعت ليني طرقاً بعيداً لمطرقة؛ لقد تحوّل هذا الإيقاع المتواتر إلى موسيقا تصويريّة لحياتهم بالفعل. كان الأب يعمل منذ مطلع الشّمس حتّى مغربها، طيلة النّهار الطّويل، وقد رمّم بالفعل قنّ الدّجاج، وأصلح حظائر الماعز.

- «عليّ الذّهاب إلى الحمّام». قالت.

- «استمتعي». أجابت أمّها.

انتعلت ليني جزمتها الطّويلة ذات النّعل المحزّز، وخرجت إلى نهار أزرق السّماء. كانت الألوان تنبض بالحياة بشدّة، وبالكاد بدا العالم حقيقيّاً: العشب الأخضر المتمايل في الفسحة، الزّهور البرّيّة الأرجوانيّة، الدّرجات الرّماديّة المتعرّجة التي تقود نحو بحر أزرق يتنفّس شهيقه وزفيره على طول الشّاطئ المفروش بالحصى. ووراء كلّ ذلك، مضيق مذهل بين جرفين صخريّين، نحتته المجالد منذ دهور. أرادت أن تعود لتجلب كاميرتها البولارويد وتلتقط صوراً للفِناء -مجدّداً- غير أنّها بدأت تدرك أنّ عليها الاقتصاد في استهلاك الفيلم، فالحصول على المزيد لن يكون أمراً سهلاً هنا.

كان الحمّام الخارجيّ قائماً فوق المنحدر، في جناح أشجار تنّوب نحيلة الجذوع، يُشرف على الشّاطئ الصّخريّ. على غطاء المرحاض، كتب أحدهم بالطّلاء «لم أعدك قطّ بحديقة ورد»، ووضع صوراً لاصقة لأزهار.

رفعت الغطاء مستخدمةً كمّها لتحمي أصابعها، وتقصّدت أن تتجنّب النّظر إلى الحفرة، وهي تقعد.

حين انتهت، انطلقت عائدة إلى الكوخ. كان ثمّة نسر أصلع يحلّق في الأعالي، ينساب في دائرة، ثمّ ينقضّ إلى أعلى، ليطير مبتعداً. رأت بقايا سمكة تتدلّى عالياً من إحدى الأشجار، تجذب ضوء الشّمس مثل حِلية على شجرة عيد الميلاد. لا بدّ من أنّ نسراً أسقطها هناك، بعد أن نشل كلّ اللّحم عن العظام. إلى يمينها، كانت الخبيئة نصف جاهزة: أربع دعامات من الخشب المقشور تنتهي إلى منصّة خشبيّة بمساحة ثلاثة أقدام بثلاثة، على ارتفاع اثني عشر قدماً في الهواء. تحتها ثمّة ستّ مساكب مرفوعة فارغة، غُطّيت بهيكل من الأنابيب والخشب يشبه التّنانير المقبّبة(*) وينتظر كسوةً بلاستيكيّة ليتحوّل إلى دفيئة.

- «ليني!». صاح والدها، وهو يسير نحوها بمشيته الحيويّة التي تغطّي الأرض تلك. كان شعره فوضى مغبرّة متّسخة، وملابسه مغطّاة ببقع الزّيت، ويداه قذرتين، وقد أمطرت نشارةُ الخشب الورديّة وجهه وشعره. لوّح لها مبتسماً.

أوقفتها البهجة التي تعلو وجهه في مكانها؛ لم تستطع أن تتذكّر آخر مرّة رأته فيها بهذه السّعادة: «ربّاه، كم جميل هذا المكان». قال لها.

أخذ يمسح يديه بمنديل رأسٍ أحمر يبقيه مدسوساً في جيب بنطاله الجينز، ثمّ لفّ ذراعه حول كتفها ودخل معها إلى الكوخ.

كانت الأمّ تضع الفطور توّاً.

(*) التّنانير المقبّبة أو الموسّعة: هياكل من أطواق معدنيّة أو ما شابه ارتدتها النّساء قديماً تحت الفساتين من أجل تثبيتها ومنحها شكلاً أنيقاً. (المترجم)

طاولة ورق اللّعب كانت متقلقلة للغاية، لذا وقفوا في غرفة المعيشة يأكلون دقيق الشّوفان من سلطانيّات التّخييم المعدنيّة. ملأ الأب ملعقته بالدّقيق، ونقلها إلى فمه في أثناء مضغه للّحم المقدّد؛ بات الأكل يبدو له مؤخّراً مضيعة للوقت، ثمّة الكثير ممّا يتعيّن فعله في الخارج.

مباشرة بعد الإفطار، عادت ليني وأمّها إلى تنظيف الكوخ. كانتا قد أزالتا بالفعل طبقات من الغبار والوسخ والحشرات النّافقة؛ لقد عُلّقت كلّ سجّادة على إفريز المصطبة، وضُربت بمكانس بدت بقذارة السّجاجيد ذاتها. أنزلت الأمّ السّتائر وحملتها خارجاً إلى أحد براميل المحروقات الكبيرة في الفناء، وبعد أن حملت ليني الماء من النّهر، ملأتا الغسّالة القديمة بالماء وصابون الغسيل، ووقفت ليني هناك طوال ساعة، تتعرّق تحت الشّمس، وتقلّب السّتائر في الماء الممزوج بالصابون، ثمّ حملت كومة القماش الثّقيلة التي يقطر الماء منها إلى برميل ممتلئ بالماء النّظيف من أجل الشّطف.

هي الآن تلقّم العصّارة قديمة الطّراز السّتائر المنقوعة بالماء؛ العمل شاقّ، منهِك، يقصم الظّهر.

كان صوت أمّها غير بعيد في الفناء يتناهى إليها، تغنّي، وهي تغسل وجبة أخرى من الملابس بالماء ذي الرّغوة.

بلغ ليني صوت محرّك، فنهضت تفرك ألماً أسفل ظهرها. سمعت وطء الحجارة وطشاش الوحل... ثمّ ظهرت حافلة الفولكس فاغن القديمة من بين الأشجار وتوقّفت في الفناء؛ لقد أُفسِح الطّريق أخيراً!

أطلق الأب البوق، فطارت الطّيور عن الأشجار، وهي تصرخ متهيّجة.

توقّفت الأمّ عن تقليب الغسيل، ورفعت رأسها؛ العرق يبلّل منديل

الرأس الذي يغطّي شعرها الأشقر، ولدغ البعوض أحدث تعريشة حمراء على خدّيها الشّاحبين. ظلّلت عينيها بيدها وهتفت: «لقد فعلتَها!».

ترجّل الأب من الحافلة ولوّح يدعوهما: «كفى عملاً يا آل أولبرايت، فلنذهب في جولة».

زعقت ليني من السّرور، كانت على أتمّ استعداد لأخذ استراحة من هذا العمل المنهك. انتشلت القماش المعصور، وحملته إلى حبل الغسيل المرتخي الذي كانت أمّها قد نصبته بين شجرتين، وعلّقت السّتائر لتجفّ.

كانت ليني وأمّها تضحكان معاً، وهما تصعدان إلى الحافلة القديمة. لقد أخرجوا كلّ مؤنهم من الحافلة أساساً (عدّة نقلات ذهاباً وإياباً، تحت وزن حُزَم ثقيلة)؛ لم يبقَ على المقاعد سوى بعض المجلّات وعلب الكولا الفارغة.

عارك الأب ذراع نقل السّرعة المرتخية ووضعها على الغيار الأوّل، فأصدرت الحافلة ما يشبه سعال رجُلٍ عجوز، وارتجّت بصرير معدنيّ فيما تتعثّر عجلاتها بالحفر، وهي تدور فوق أرض الفناء العشبيّة.

بدا لليني مدخل المركبات الذي أفسحه أبوها. «لقد كان موجوداً بالفعل». صاح ليعلو صوتُه على عويل المحرّك: «غير أنّ مجموعة من الصّفصاف نمت فوقه، فتعيّن عليّ أن أزيلها وحسب».

كان المسير وعراً؛ مسلك بالكاد أعرض من الحافلة. أخذت الأغصان تضرب الزّجاج الأماميّ، وتكشط جانبي الحافلة، واقتُلعت لافتتهم وطارت لتعلق بين الأشجار. المدخل يتكوّن من الحفر والجلاميد أكثر ممّا هو من التّراب؛ كانت الحافلة القديمة لا تكفّ عن التّرجرج بين الارتفاع والهبوط المدوّي، وراحت العجلات تسحق الجذور المكشوفة

والبروزات الصّخريّة ببطء، فيما هم يدخلون الظّلالَ القاتمة التي تلقيها الأشجار.

وفي نهاية مدخل المركبات، خرجوا إلى ضوء الشّمس، وانتهوا إلى طريق ترابيّ حقيقيّ.

تحرّكت الحافلة مقعقعة قرب بوّابة آل ووكر المعدنيّة، ولافتة آل بيردسول، وانحنت ليني إلى الأمام متشوّقة لرؤية برك المستنقعات، ومدارج الطّائرات التي تحدّد أطراف كانِك.

البلدة! منذ بضعة أيّام وحسب كانت تبدو لهم أسوأ من نقطة حدوديّة، لكنّ الأحراش الألاسكيّة لا تحتاج إلى الكثير من الوقت حتّى تجعل المرء يعيد النّظر في آرائه. ثمّة مخزن في كانِك، وبوسع ليني الحصول على فيلم تصوير، وربّما قالب حلوى.

- «تشبّثا». قال الأب، وهو ينعطف يساراً نحو الأشجار.

- «إلى أين نذهب؟». سألته الأمّ.

- سنذهب لنشكر عائلة بو هارلان، لقد أحضرت لوالده نصف غالون من الويسكي.

حدّقت ليني من النّافذة المتّسخة، وكان الغبار يحوّل المنظر إلى سديم. ما من شيء سوى الأشجار والمطبّات لأميال كاملة، ومن حين إلى آخر مركبة تتعفّن عند جانب الطّريق بين العشب الطّويل.

لم يكن ثمّة منازل، أو صناديق بريد، لا شيء سوى مسالك ترابيّة هنا وهناك تنحرف لتحجبها الأشجار. لو كان يوجد من يسكن هنا، فهو لا يريد لأحد أن يجده.

الطّريق وعر: مساران مهّدتهما الإطارات فوق أرض صخريّة غير

مستوية. ومع تقدّمهم في طريق مرتفع، أخذت الأشجار تزداد كثافة، وتحجب أكثر فأكثر من الشّمس. رأوا اللّافتة الأولى بعد أن قطعوا نحو ثلاثة أميال: يُمنع التّجاوز، استدر وعُد. أجل، نقصدك أنت. الملكيّة محميّة بالكلاب والأسلحة، فليعد الهيبيّون إلى منازلهم.

الطّريق ينتهي عند قمّة تلّة بلافتة كُتب عليها: سيجري إطلاق النّار على المنتهكين، وسيكرّر الإطلاق على من ينجو.

- «يا للمسيح!». قالت الأمّ: «هل أنت متأكّد أنّنا في المكان الصّحيح؟».

ظهر أمامهم رجُل يمتشق بندقيّة، ووقف مباعداً بين ساقيه. كان له شعر بنّيّ مجعّد ينتفش خارجاً من تحت قبّعة سائق شاحنة متّسخة: «من أنتم؟ ماذا تريدون؟».

- «أظنّ أنّه يجدر بنا أن نعود». قالت الأمّ.

أخرج الأب رأسه من النّافذة: «نحن هنا لرؤية إيرل هارلان، كنتُ من أصدقاء بو».

عبس الرّجل، ثمّ أومأ وتنحّى جانباً.

- «لا أعرف يا إيرنت». قالت الأمّ: «هذا لا يبدو صائباً».

نقل الأب ذراع السّرعة، فدمدمت الحافلة القديمة وتحرّكت إلى الأمام تخضخض فوق الصّخور والنّتوءات.

دخلوا إلى رقعة أرض موحلة مسطّحة وعريضة تتناثر فوقها آجام العشب المصفرّ هنا وهناك، أحاط بها ثلاثة منازل... حسناً، أكواخ بالأحرى. بدت مصنوعة من المواد التي طالتها اليد أيّاً كانت: ألواح الخشب المعاكس، البلاستيك المموّج، خشب الشّجر المقشور. ثمّة حافلة مدرسة بستائر مسدلة على نوافذها تجثم فوق إطارات معدنيّة بلا

عجلات، والوحل يغمر معظمها، العديد من الكلاب المهزولة المقيّدة، تشدّ سلاسلها إلى آخر مداها، وهي تزمجر وتنبح، وبراميل حرق تقذف دخاناً له رائحة مطّاطيّة خبيثة.

خرج أناسٌ يرتدون ملابس متّسخة من الأكواخ والأكشاك؛ رجال بتسريحات ذيل فرس وشعور مقزَّعة، ونسوة يرتدين قبّعات رعاة البقر، والكلّ يتمنطق بالأسلحة النّاريّة، أو السّكاكين المغمدة.

أمامهم مباشرةً، من كوخ خشبيّ ذي سطحٍ منحدرٍ، خرج رجُلٌ أشيب يحمل مسدّساً يبدو قديماً. كان شديد النّحول، بلحية بيضاء طويلة، وعود تنظيف أسنان يقضمه في فمه. نزل إلى الفناء الموحل، وجنّ جنون الكلاب لدى ظهوره، فراحت تدمدم، وتزمجر، وتنبطح أرضاً، وقفز بعضها فوق مساكنها من دون التّوقّف عن النّباح، ثمّ وجّه العجوز مسدّسه نحو حافلتهم.

مدّ الأب يده إلى مقبض الباب.

- «لا تخرج». قالت الأمّ متشبّثة بذراعه.

تحرّر من قبضتها، وأخذ نصف غالون الويسكي الذي جلبه، ثمّ فتح الباب ونزل إلى الوحل، تاركاً باب الحافلة مفتوحاً خلفه.

- «من أنت؟». صاح الرّجُل الأشيب، وعود الأسنان يتحرّك في فمه.

- إيرنت أولبرايت يا سيّدي.

أخفض الرّجل سلاحه: «إيرنت؟ هذا أنت؟ أنا إيرل، والد بو».

- هذا أنا يا سيّدي.

- حسناً، يا لحمقي. من معك؟

استدار الأب ولوّح إلى ليني وأمّها كي تخرجا من الحافلة.

- «أجل، تبدو هذه فكرة جيّدة». قالت الأمّ، وهي تفتح الباب.

حذت ليني حذوها. نزلت إلى الوحل، وسمعته يطشّ حول جزمتها.

في أنحاء المجمّع، كان النّاس قد وقفوا يحملقون.

قرّبهما الأب منه: «هذه زوجتي كورا، وهذه ابنتي ليني. يا فتاتان، هذا هو والد بو، إيرل».

- «الأهالي ينادونني ماد إيرل(*)». قال العجوز. صافحهم ثمّ خطف قنّينة الويسكي من الأب وقادهم إلى كوخه: «ادخلوا، ادخلوا».

تعيّن على ليني أن ترغم نفسها على دخول المكان الصّغير الذي تخيّم عليه الظّلال. كان يعبق برائحة العرق والعفن، المؤن ترصف جدرانه: أطعمة، وغالونات ماء، وصناديق جعة، وعلب ممتلئة بالمعلّبات، وأكوام من أكياس النّوم. وعلى طول أحد الجدران بأكمله اصطفّت الأسلحة: بنادق، وسكاكين، وصناديق ذخيرة، ونشّابيّات قديمة الطّراز معلّقة على خطاطيف إلى جانب هراوات.

هوى ماد إيرل فوق كرسيّ مصنوع من ألواح صناديق بلازو. فضّ قنّينة الويسكي ورفعها إلى فمه، وراح يعبّ بعمق، ثمّ ناولها إلى الأب، الذي شرب طويلاً قبل أن يعيد القنّينة إلى ماد إيرل.

انحنت الأمّ، والتقطت قناع غاز قديم من صندوق ممتلئ بها: «هل تجمع التّذكارات الحربيّة؟». سألت بارتباك.

عبّ ماد إيرل مرّةً أُخرى، متجرّعاً كمّيّة مدهشة من الويسكي بجرعة واحدة. «لا، هذا ليس للاستعراض. لقد جنّ العالم، وعلى المرء أن يحمي

(*) Mad Earl: إيرل المجنون أو الغاضب. (المترجم)

نفسه. أتيتُ إلى هنا عام 62، كانت الولايات الثّماني والأربعون السّفلى غارقةً في الفوضى أساساً؛ الشّيوعيّون في كلّ مكان، وأزمة الصّواريخ الكوبيّة تجعل النّاس يبولون على أنفسهم من الخوف، والملاجئ تُشيَّد في الأفنية. أحضرت عائلتي إلى هنا، لم يكن في حوزتنا شيء سوى بندقيّة وكيس من الأرزّ الأسمر، رأينا أنّ بوسعنا العيش في الأحراش، والبقاء في مأمن، والنّجاة من الشّتاء النّوويّ الذي كان يوشك على القدوم». غبّ جرعة أخرى، ثمّ انحنى إلى الأمام متابعاً: «لن تتحسّن الأمور هناك، بل هي تزداد سوءاً. ما فعلوه بالاقتصاد... بفتياننا المساكين الذين ذهبوا إلى الحرب، هذه لم تعد أمريكا التي تناسبني».

– «أنا أقول هذا منذ سنوات». قال الأب، وكان ثمّة تعبير على وجهه لم يسبق لليني أن رأته؛ نوع من الرّهبة، كأنّه كان ينتظر سماع هذه الكلمات منذ زمن طويل.

– «هناك». تابع ماد إيرل كلامه: «في الخارج، النّاس يقفون في طوابير من أجل الوقود، فيما تضحك منظّمة أوبك طوال طريقها نحو المصرف. وتظنّون أنّ الاتّحاد السّوفييتيّ العزيز نسي أمرنا بعد كوبا؟ فكّروا من جديد. لدينا زنوج يسمّون أنفسهم الفهود السّود(*) ويرفعون قبضاتهم مندّدين بنا، ومهاجرون غير شرعيّين يسرقون وظائفنا. فما الذي يفعله النّاس إذنْ؟ يحتجّون، ويعتصمون، ويلقون القنابل على مكاتب بريد خالية، ويحملون اللّافتات ويمشون في مسيرات عبر الشّوارع، لكن ليس أنا، أنا لديّ خطّة».

(*) حزب الفهود السّود: حركة حقوقيّة لسود الولايات المتّحدة نشأت بعد مقتل مالكوم إكس وما عقبه من توتّرات راح ضحيّتها أكثر من 300 مواطن أسود ممّا جعل جماعات سوداء تؤسّس هذه الحركة بقصد الدّفاع عن أنفسهم. (المترجم)

انحنى الأب إلى الأمام، وكانت عيناه تلمعان: «ما هي؟».

- نحن متهيّئون في هذه الأنحاء، لدينا بنادق، وأقنعة غاز، وسهام، وذخيرة، إنّنا جاهزون.

قالت الأمّ: «من المؤكّد أنّك لا تعتقد حقّاً...».

- «أوه، بلى». قال ماد إيرل: «الرّجُل الأبيض يخسر منزلته، والحرب قادمة». ثمّ نظر إلى الأب: «تعرف ما أقصده، أليس كذلك يا أولبرايت؟».

- «بالطّبع أعرف، جميعنا نفعل. كم فرداً في مجموعتك؟». سأله الأب.

عبّ ماد إيرل طويلاً، ثمّ مسح الرّذاذ عن شفتيه المرقّطتين. تضيّقت عيناه الغائمتان، وانتقلتا من ليني إلى أمّها: «حسناً، عائلتنا فقط، لكنّنا نأخذ الأمر على محمل الجدّ، ولا نتحدّث عنه إلى الغرباء. آخر ما نريده هو أن يعرف النّاس مكاننا عندما تخرج الأمور عن السيطرة».

سُمع طرق على الباب. وحين قال ماد إيرل: «ادخل»، انفتح الباب ليكشف عن امرأة ضئيلة ناحلة ترتدي بنطالاً مموّهاً، وتي شيرت عليه وجه مبتسم أصفر. وعلى الرغم من أنّها تكاد تناهز الأربعين بلا شكّ، كانت تضفر شعرها في جديلتين. الرّجُل الذي بجانبها كان ضخماً مثل منزل، بشعر بنيّ مربوطٍ على هيئة ذيل حصان طويل، وغرّة تتدلّى فوق عينيه. كانت تحمل كومة من عبوات حفظ الطّعام بين ذراعيها، وتتمنطق بمسدّس مغمد في قرابه.

- «لا تدَعوا أبي يميتكم رعباً». قالت المرأة بابتسامةٍ مشرقة. ومع تقدّمها إلى داخل الكوخ، اقتربت طفلة وسارت بجانبها، فتاة في نحو الرّابعة، حافية بوجه متّسخ. «أنا ثيلما شيل، ابنة إيرل. كان بو أخي الكبير،

وهذا هو زوجي تيد؛ أمّا هذه فاسمها ماريبيت، ونناديها موبيت(*)». وضعت ثيلما يدها فوق رأس الفتاة.

- «أنا كورا». قالت الأمّ، مادّةً يدها: «وهذه ليني».

ابتسمت ليني بتردّد، وراح زوج ثيلما، تيد، يحدّق إليها بعينيه الحولاوَين.

كانت ابتسامة ثيلما دافئة وصادقة: «ستذهبين إلى المدرسة يوم الاثنين يا ليني؟».

- «أتوجد مدرسة؟». قالت ليني.

- بالطّبع. ليست كبيرة، لكنّني أظنّك ستقيمين صداقات. الأطفال يأتون إليها من أماكن بعيدة تصل إلى شرم الدّبّ، وأظنّ أنّ الدّوام مستمرّ لأسبوع آخر، فالمدرسة تنتهي مبكّراً هنا كي يتسنّى للأطفال أن يعملوا.

- «أين المدرسة؟». سألتها الأمّ.

- في شارع ألباين ستريت، خلف الحانة تماماً، عند أسفل تلّة الكنيسة، لن تضلّوا الطّريق. صباح الاثنين عند التّاسعة.

- «سنكون هناك». قالت الأمّ، وهي ترمق ليني بابتسامة.

- «جيّد. يسعدنا جدّاً أن نرحّب بكم هنا: كورا، وإيرنت، وليني». نظرت ثيلما إليهم مبتسمة: «لقد كتب بو لنا كثيراً من نام، وكنتَ تعني له الكثير. الجميع يريد لقاءكم». قطعت الغرفة، وأخذت إيرنت من ذراعه، ثمّ قادته إلى خارج الكوخ.

(*) Moppet: الدّمية الجميلة، وهو اسم يُطلق على الفتيات الصّغيرات عادةً بقصد التّودّد. (المترجم)

تبعتهما ليني وأمّها، وسمعتا ماد إيرل ينهض على قدميه، متذمّراً من تولّي ثيلما لزمام الأمور.

في الخارج، وقف تجمّعٌ عشوائيٌّ من النّاس ينتظرون: رجال، ونساء، وأطفال، ويافعون، كلّ منهم يحمل شيئاً ما.

– «أنا كلايد». قال رجُلٌ بلحيةٍ تشبه لحية بابا نويل، وحاجبين مثل الشّوادر: «شقيق بو الأصغر». مدّ منشاراً آلياً نصْله مغمَد في غطاء بلاستيكيّ بلون برتقاليّ فاقع: «لقد شحذتُ المنشار توّاً». تقدّمت امرأة مع شابّين، كلّ منهما في نحو العشرين، إلى جانب فتاتين متّسختي الوجه في عمر السّابعة، أو الثّامنة غالباً: «هذه هي دونا، زوجتي، والتوءم داريل وديف، وابنتانا: أغنيس، ومارث».

لم يكونوا كثيرين، بيد أنّهم كانوا ودودين ومرحّبين. قدّم لهم كلّ شخص قابلوه هديّة: منشار معادن، لفافة حبال، ألواح من البلاستيك الثّقيل، بكرات من الشّريط اللّاصق، سكّين فضّيّة لامعة تسمّى يولو ولها شكل مروحة يدويّة.

لم يكن ثمّة أحد في عمر ليني، والمراهق الوحيد –آكسل، الذي كان في السّادسة عشرة– بالكاد نظر إليها. كان يقف جانباً وحده، يرمي السّكاكين نحو جذع شجرة، وكان له شعر أسود طويل متّسخ، وعينان رماديّتان.

– «ستحتاجون إلى تجهيز الحديقة سريعاً». قالت ثيلما، فيما اتّجه الرّجال نحو أحد البراميل المشتعلة، وراحوا يمرّرون قنّينة الويسكي في ما بينهم: «لا يمكن التّنبّؤ بالطّقس هنا. في بعض السّنوات يكون يونيو ربيعاً، ويوليو صيفاً، وأغسطس خريفاً، وكلّ ما عدا ذلك شتاءً».

قادت ثيلما ليني وأمّها إلى حديقة كبيرة، يقوم حولها سياجٌ من الشّباك المرتخية المربوطة بأوتادٍ معدنيّةٍ لإبعاد الحيوانات.

كانت معظم الخضراوات كتلاً صغيرة من اللّون الأخضر فوق أكوام من التّراب الأسود، وثمّة حصائر من شيء مقزّز -بدا مثل الطّحالب- مفروشة تجفّ عند قاعدة الشّباك، إلى جانب أكوام من بقايا السّمك الزّنخة، وقشور البيض، والقهوة المطحونة.

- «أتجيدون أعمال البستنة؟». سألت ثيلما.

- «يمكنني تمييز البطّيخة النّاضجة». قالت الأمّ.

- «سأكون مسرورة بتعليمك. موسم الزّراعة قصير في هذه الأنحاء؛ لذا علينا أن نعمل بجدّ حقّاً». التقطت دلواً معدنيّاً مبعوجاً من على الأرض قربها: «لديّ بعض البطاطا والبصل يمكنني الاستغناء عنها، ما زال ثمّة وقت لها. ويمكنني إعطاؤكم بعض الجزر للزّرع، كما أستطيع الاستغناء عن بضع دجاجات حيّة».

- أوه، بحقّك، ليس عليكِ...!

- صدّقيني يا كورا، لا فكرة لديك عن مدى طول الشّتاء وقرب حلوله. ليس الأمر عسيراً على الرّجال هنا؛ فكثير منهم سيغادرون كي يعملوا على خطّ الأنابيب الجديد؛ أمّا أنت وأنا -الأمّهات- فنبقى في المسكن، ونحافظ على حياة أولادنا وصحّتهم. الأمر ليس سهلاً دائماً؛ والطّريقة التي نتّبعها هي العمل معاً، نتساعد ما استطعنا، ونتقايض. غداً سأريك طريقة تعليب السّلمون، عليك أن تبدئي بملء مخزنك الأرضيّ بالأطعمة من أجل الشّتاء منذ الآن.

- «أنت تخيفينني». قالت الأمّ.

لمست ثيلما ذراع الأمّ: «أتذكّر أوّل قدومنا إلى هنا من كانساس سيتي، لم تفعل أمّي شيئاً سوى البكاء، وماتت في الشّتاء الثّاني هنا. ما زلت أعتقد

أنّها حملت نفسها على الموت، لم تستطع احتمال الظّلام أو البرد ببساطة. على المرأة أن تكون صلبة كالفولاذ هنا يا كورا، لا يمكنك الاعتماد على أيّ أحد من أجل إنقاذك أنت وأبناؤك، عليكم أن تكونوا مستعدّين لإنقاذ أنفسكم، كما عليك أن تتعلّمي بسرعة، ففي ألاسكا يمكنك اقتراف خطأ واحد.. واحد.. الثّاني سيقتلك».

- «لا أعتقد أنّنا مستعدّون كفاية». قالت الأمّ: «لعلّنا اقترفنا خطأ في الأصل بقدومنا إلى هنا».

- «سأساعدك». وعدتها ثيلما: «جميعنا سنفعل».

❋ 5 ❋

أعاد ضوء النّهار الذي لا ينتهي ضبط ساعة ليني الدّاخليّة؛ إذْ جعلها تشعر بخروجها عن إيقاع الكون على نحوٍ غريبٍ، كما لو أنّ الوقت نفسه -الشّيء الوحيد الذي بوسع المرء أن يعتمد عليه- كان مختلفاً في ألاسكا؛ فضوء النّهار حين تخلد إلى السّرير كحاله حين تستيقظ.

والآن حلّ صباح الاثنين.

وقفت خلف النّافذة تُحدّق في الزّجاج الذي نُظّف حديثاً، وتحاول تبيّن صورتها المنعكسة. جهد بلا جدوى؛ ثمّة ضوء أكثر من اللّازم.

لم تستطع أن ترى إلّا شبحاً لنفسها، غير أنّها كانت تعلم أنّ مظهرها لا يبدو جيّداً، حتّى بالنّسبة إلى ألاسكا.

المسألة الأولى والدّائمة كانت شعرها؛ طويل، وجامح لا يُروَّض، وأحمر، ثمّ تأتي البشرة الحليبيّة التي تمثّل مشكلة نموذجيّة ترافق الشّعر، والنّمش الأشبه برقائق من الفلفل الأحمر تتناثر حول أنفها. وأفضل ميّزات ملامحها، العينان الخضراوان الزّرقاوان، كانت الأهداب التي لها لون القرفة تنتقص من بهائهما.

اقتربت أمّها إليها من الخلف، ووضعت يديها على كتفي ليني: «أنت جميلة وستقيمين الصّداقات في هذه المدرسة الجديدة».

ودّت ليني لو تلتمس المواساة من هذه الكلمات المألوفة، لكن كم مرّة سبق للكلمات نفسها أن أثبتت عدم صحّتها؟ لقد كانت الفتاة الجديدة في المدرسة لمرّات كثيرة، ولم تجد بعد مكاناً تشعر بالانتماء إليه. دائماً كان ثمّة شيء خاطئ فيها في اليوم الأوّل؛ شعرها، ملابسها، حذاؤها. الانطباع الأوّل مهمّ في المدرسة الإعداديّة، وهي تعلّمت هذا الدّرس بالطّريقة الصّعبة؛ من العسير على فتاة في الثّالثة عشرة أن تتعافى من خطأ يتعلّق بالأزياء والمظهر.

- «سأكون الفتاة الوحيدة في المدرسة بأكملها على الأغلب». قالت بتنهيدة دراميّة. لم ترغب في أن تأمل بالأفضل؛ فالآمال المحطَّمة أسوأ من غياب الأمل من الأساس.

- «لا شكّ أنّك ستكونين الأجمل». قالت الأمّ، وهي تردّ شعر ليني خلف أذنها برقّة ذكّرت الفتاة أنّها لن تكون وحيدةً بحقّ مهما حدث، فلديها أمّها.

فُتح باب الكوخ مفسحاً لدخول هبّةٍ من الهواء البارد، ودخل الأب حاملاً زوجاً نافقاً من البطّ البريّ؛ رقبتاهما المكسورتان متدلّيتان، ومنقاراهما يرتطمان بفخذه. وضع بندقيّته على العلّاقة عند الباب، وبسط صيده فوق الطّاولة الخشبيّة قرب حوض الجلي الجافّ.

- «صَحبني تيد إلى كبينة صيده قبل الفجر، لدينا بطّ من أجل العشاء». انسلّ إلى جانب الأمّ وقبّل طرف عنقها.

دفعته الأمّ ضاحكة: «أتريد قهوة؟».

حين ذهبت إلى المطبخ، التفت الأب إلى ليني: «تبدين مكتئبة بالنّسبة إلى فتاة ذاهبة إلى المدرسة».

- أنا بخير.

- «ربّما كنتُ أعرف ما هي المشكلة». قال الأب.

- «أشكّ في ذلك». قالت بنبرة تعكس همّتها الفاترة.

- «دعيني أرَ». قال الأب بعبوس مبالغ فيه، ثمّ تركها واقفة مكانها ودخل إلى غرفة نومه. بعد برهة، خرج يحمل كيس قمامة أسود وضعه على الطّاولة: «لعلّ بمقدور هذا أن يساعد».

أجل، القمامة هي ما كانت تحتاج إليه.

- «افتحيه». قال الأب.

فتحت ليني الكيس على مضض.

في داخله، وجدت بنطالاً بنهايتين واسعتين، مقلّماً بالأسود ولون الصّدأ، وسترة صيّادي سمك صوفيّة موبَّرة بلون العاج بدت كأنّها كانت بحجم رجاليّ، وقام أحدهم بتصغير قياسها.

يا للهول!

ربّما لم تكن ليني تعرف الكثير عن الأزياء، بيد أنّ هذا بنطال فتيان بلا شكّ، والسّترة... لا تظنّ أنّها كانت رائجة في أيّة سنة من سنوات حياتها.

التقت نظرة ليني بنظرة أمّها؛ كلتاهما تعلمُ كم بذل جهده في المحاولة، وكم أخفق على نحوٍ لا مردّ له. في سياتل، كان مثل هذا الزيّ بمنزلة انتحارٍ اجتماعيّ.

- «ليني؟». قال الأب، والخيبة تُسدل على وجهه.

أجبرت نفسها على الابتسام: «إنّها ممتازة يا أبي، شكراً».

تنهّد وابتسم: «أوه، هذا جيّد، لقد أنفقت وقتاً طويلاً وأنا أنقّب في الصّناديق».

جيش الخلاص. إذنْ فقد خطّط للأمر مسبقاً، وفكّر فيها ذلك اليوم حين كانوا في هومر. ذلك جعل الملابس القبيحة تكاد تكون جميلة.

- «ارتديها». قال الأب.

اجترحت ليني ابتسامة، دخلت إلى غرفة نوم والديها وبدّلت ملابسها.

كان مقاس السّترة الأيرلنديّة صغيراً جدّاً، والصّوف سميك إلى درجة بالكاد تستطيع معها أن تثني ذراعيها.

- «تبدين فاتنة». قالت الأمّ.

حاولت أن تبتسم.

اقتربت الأمّ بصندوق غداء معدنيّ عليه رسم ويني الدّبدوب: «رأت ثيلما أنّه سيروق لك».

وبذلك، خُتم على مصير ليني الاجتماعيّ، لكنّها لم تستطع أن تحرّك ساكناً.

- «حسناً». قالت لأبيها: «من الأفضل أن نتحرّك، لا أريد أن أتأخّر».

عانقتها أمّها بشدّة، وهمست: «حظّاً سعيداً».

في الخارج، اعتلت ليني مقعد الرّكّاب الأماميّ في حافلة الفولكس فاغن وانطلقا، يرتجّان فوق المسلك الوعر، منعطفين نحو البلدة على الطّريق الرّئيسيّ، والحافلة تقرقع بهما مارّةً بالميدان الذي يسمّي نفسه مدرج طائرات. وعند الجسر، هتفت ليني: «توقّف!».

داس أبوها على المكابح والتفت نحوها: «ماذا؟».

- أيمكنني أن أتابع سيراً من هنا؟

رمقها بنظرة محبَطة: «حقّاً؟».

كانت متوتّرة أكثر من أن تطبطب على مشاعره الجريحة. ثمّة شيء واحد ينطبق على كلّ مدرسة سبق أن ارتادتها: حالما يلتحق المرء بالإعداديّة، يجب على الأهالي أن يغيبوا، ففرص إحراجهم له تطاول السّماء. «أنا في الثّالثة عشرة وهذه ألاسكا، حيث يُفترض بنا أن نكون أقوياء». قالت ليني: «بحقّك يا أبي، أرجوووك!».

- حسناً، سأفعل هذا من أجلك.

خرجت من الحافلة، وسارت وحدها عبر البلدة، ومرّت برجُلٍ يتربّع جالساً بالطّريقة الهنديّة على جانب الطّريق، وفي حضنه إوزّة، سمعته يقول للطّائر: «مستحيل يا ماتيلدا!»، وهي تحثّ السّير قرب الخيمة المتّسخة التي تؤوي خدمة تأجير قوارب الصّيد.

كان مبنى المدرسة المؤلّف من غرفةٍ واحدةٍ يقوم فوق قطعة أرضٍ تغزوها الأعشاب الضّارّة خلف البلدة، ووراءه تمتدّ مستنقعات خضراء وصفراء، ويتعرّج نهر على شكل حرف S منحدراً بين العشب الطّويل. البناء بسيط مشيّد من الخشب المقشور، بسقف معدنيّ حادّ الانحدار.

توقّفت ليني لبرهة عند الباب المفتوح، واسترقت نظرةً إلى الدّاخل؛ كانت الغرفة أكبر ممّا تبدو من الخارج، بأبعاد لا تقلّ عن أربعة عشر قدماً بأربعة عشر، وثمّة لوح طبشور على الجدار الخلفيّ خُطّت عليه عبارة: **حماقة سيوارد**(*) بأحرف كبيرة.

في القسم الأماميّ من الغرفة، وقفت امرأة من السّكّان الأصليّين خلف

(*) سيوارد هي مدينة في ألاسكا، وقد أطلق بعضهم تسمية «حماقة سيوارد» على صفقة ألاسكا، وهي صفقة اشترت بموجبها الولايات المتّحدة الأمريكيّة ولاية ألاسكا من الإمبراطوريّة الروسيّة عام 1867، لقناعتهم أنّ الولايات المتّحدة اشترت أرضاً عديمة النّفع. (المترجم)

مكتب كبير في مواجه الباب. كانت ذات مظهر صلب، بكتفين عريضتين، ويدين كبيرتين قويّتين، الشّعر أسود طويل مضفور في جديلتين غير متقنتين تحيطان بوجه له لون القهوة الفاتحة، وثمّة خطوط سوداء موشومة تسير من شفتها السّفليّة إلى ذقنها. كانت ترتدي بنطال ليفايز حائل اللّون مدسوساً داخل جزمة مطّاطيّة، وقميصاً رجاليّاً من الفلانيل، وصداراً مهدّباً من الجلد السّويديّ.

رأت ليني وهتفت: «مرحباً! أهلاً بك!».

استدار الأطفال في الصّفّ وسط موجة من صرير الكراسي.

كان هنالك ستّة طلّاب. طفلتان أصغر سنّاً جلستا في الصّفّ الأماميّ؛ تذكّرتهما من مجمّع ماد إيرل: مارث، وأغنيس. كما تعرّفت إلى ذلك الفتى المراهق ذي المظهر المتجهّم الفظّ؛ آكسل. وثمّة فتاتان من السّكّان الأصليّين تتبادلان الضّحكات المكتومة، بدتا في نحو الثّامنة، أو التّاسعة، تجلسان إلى طاولتين قُرّبتا إلى بعضهما؛ كلّ منهما تعتمر إكليلاً من أزهار الهندباء البرّيّة الذّابلة. في الجانب الأيمن من الغرفة طاولتان ملصقتان ببعضهما جنباً إلى جنب، تواجهان لوح الطّبشور؛ إحداهما شاغرة، وإلى الأخرى جلس صبيّ مهزول في عمرها تقريباً، له شعرٌ أشقر يبلغ كتفيه. كان الطّالب الوحيد الذي بدا مهتمّاً بها، بقي ملتفتاً في مقعده، ولم يكفّ عن التّحديق إليها.

- «أنا تيكا رودز». قالت المدرّسة: «أعيش مع زوجي في شرم الدّبّ، لذا أحياناً لا أستطيع الوصول إلى هنا في الشّتاء، لكنّني أبذل قصارى جهدي. وهذا ما أنتظره من طلّابي أيضاً». ابتسمت متابعة: «وأنت لينورا أولبرايت، لقد قالت لي ثيلما أن أنتظرك».

- ليني.

- «كم عمركِ؟ إحدى عشرة؟». قالت الآنسة رودز، وهي تتفحّص ليني.

- «ثلاث عشرة». أجابت ليني، وهي تشعر بوجنتيها تسخنان؛ فقط لو يبدأ ثدياها بالنّموّ.

أومأت الآنسة رودز: «ممتاز، ماثيو أيضاً في الثّالثة عشرة من عمره، اذهبي واجلسي هناك». أشارت نحو الفتى ذي الشّعر الأشقر: «هيّا».

كانت قبضة ليني مشدودة حول صندوق غداء ويني الدّبدوب الغبيّ إلى درجة آلمت أصابعها. «مر.. مرحباً». قالت لآكسل حين مرّت بمقعده، فرمقها بنظرة تقول: «من يأبه؟»، وعاد إلى رسم شيء بدا مثل كائن فضائيّ بثديين هائلين على حافظة أوراق بي-تشي خاصّته.

انسلّت متخبّطة وجلست في المقعد بجانب الفتى ذي الثّلاث عشرة. «مرحباً». تمتمت مشيحةً بنظرها.

ابتسم كاشفاً عن فمٍ ممتلئٍ بالأسنان الملتوية. «حمداً لله». قال، وهو يدفع شعره عن وجهه: «ظننت أنّه سيتعيّن عليّ الجلوس مع آكسل لبقيّة العام، أعتقد أنّ المطاف سينتهي بهذا الولد إلى السّجن».

ضحكت ليني رغماً عنها.

- «من أين أنتِ؟». سألها.

لم تكن ليني تعرف قطّ كيف تجيب عن هذا السّؤال؛ كان ينطوي على رسوخ واستقرار، على ماضٍ لم يوجد يوماً بالنّسبة إليها، لم تكن تنظر إلى أيّ مكان باعتباره وطنها: «مدرستي الأخيرة كانت قرب سياتل».

- لا شكّ أنّك تشعرين كأنّك سقطتِ في موردور.

- هل قرأتَ سيّد الخواتم؟

- أعلم أنّ هذا أمر سخيف لا يثير الاهتمام، لكنّنا في ألاسكا، الشّتاء مظلم للغاية وليس لدينا تلفاز. على عكس أبي، لا أستطيع إمضاء ساعات في الاستماع إلى عجائز يثرثرون على أجهزة اللّاسلكيّ.

شعرت ليني ببارقةِ عاطفةٍ جديدة إلى درجة أنّها لم تميّزها. «أنا أحبّ تولكين». قالت بهدوء. أشعرها التّحدّث بصراحة مع أحد ما بتحرّر غريب؛ إذْ كان معظم الأطفال في مدرستها الأخيرة أكثر اهتماماً بالأفلام والموسيقا ممّا هو بالكتب. «وهربرت».

- كُتيّب كانت مدهشة؛ «الخوف هو قاتل الفكر»، كم هذا صحيح!

- وكذلك غريب في أرضٍ غريبة، هذا ما أشعر به هنا إلى حدٍّ ما.

- ينبغي لك هذا، فما من شيء طبيعيّ في التّخم الأخير؛ ثمّة بلدة في الشّمال يشغل كلبٌ منصبَ عمدَتِها.

- مستحيل!

- «بلى، من سلالة الملموت، لقد أوصلوه إلى المنصب بالتّصويت».

وضع ماثيو يده على صدره: «لا أحد يستطيع اختلاق هكذا هراء».

- لقد رأيت رجُلاً يجلس وفي حضنه إوزّة في طريقي إلى هنا، أظنّ أنّه كان يتحدّث إليها.

- هذان هما بِيت المجنون وماتيلدا، إنّهما متزوّجان.

ضحكت ليني بعالي صوتها.

- لديكِ ضحكة غريبة.

أحسّت ليني بوجنتيها تسخنان من الإحراج، لم يسبق لأحد أن قال لها ذلك. أصحيح هذا؟ كيف بدت ضحكتها؟.. ربّاه...

- أنا.. أنا آسف، لا أعرف لماذا قلت ذلك، مهاراتي الاجتماعيّة رديئة.

أنت أوّل فتاة في سنّي أتحدّث إليها منذ مدّة. أقصد.. أنت جميلة.. هذا كلّ شيء.. إنّني أهذر، أليس كذلك؟ ستهربين على الأغلب، صارخةً، وتطلبين الجلوس إلى جانب آكسل الذي سيصبح قاتلاً عمّا قريب، ويكون ذلك بمنزلة تحسينٍ لوضعك. حسناً، سأخرس الآن.

لم تسمع ليني أيّ شيء بعد كلمة «جميلة».

حاولت إقناع نفسها أنّ ذلك لم يعنِ شيئاً، لكن حين نظر ماثيو إليها، شعرت برعشةِ إمكانيّةٍ ما. قالت لنفسها: بوسعنا أن نكون صديقين. وليس من نوع الأصدقاء الّذين يستقلّون الحافلة ويأكلون على الطّاولة نفسها.

صديقان.

النّوع الذي لديه قواسم مشتركة حقيقيّة؛ مثل: سام وفرودو، آن وديانا، بونيبوي وجوني. أغمضت عينيها لجزء من الثّانية تتخيّل ذلك؛ بوسعهما أن يضحكا ويتحدّثا و...

- «ليني؟». ناداها: «ليني؟».

يا للهول.. لقد قال اسمها مرّتين.

- أجل، أفهم هذا، أنا أيضاً أشطح في أفكاري طوال الوقت. تقول أمّي إنّ هذا ما يحدث حين يعيش المرء داخل رأسه برفقة ثلّة من الأشخاص المختلَقين، غير أنّها تقرأ نقطة جذب أخرى على جانب الطّريق منذ عيد الميلاد.

- «هذا يحدث لي». اعترفت ليني: «أحياناً... أشرد بالكامل».

رفع كتفيه، كما لو أراد أن يقول إنّه ما من شيء خاطئ في ذلك: «مهلاً، هل سمعتِ عن حفلة الشّواء التي ستُقام اللّيلة؟».

❄

ماذا عن الحفلة إذنْ؟ أيمكنكِ القدوم؟

أعادت ليني تدوير السّؤال مراراً وتكراراً، وهي تنتظر أباها ليقلها من المدرسة؛ أرادت أن تقول: نعم، وتعنيها، أرادت ذلك أكثر ممّا أرادت أيّ شيء منذ مدّة.

لكنّ والديها لم يكونا من محبّي تجمّعات الشّواء، بل لم يكونا من محبّي التّجمّعات أيّاً كانت في الحقيقة. لم يكن ذلك من شيم آل أولبرايت. العائلات في حيّهم القديم كانت تقيم كلّ أنواع التّجمّعات: حفلات الشّواء في الأفنية حيث يرتدي الآباء ياقات على شكل حرف V، ويشربون الويسكي السكوتلنديّ، ويقلّبون شرائح البرغر على النّار، وتدخّن النّساء السّجائر، ويرشفن المارتيني، ويحملن صينيّات كبد الدّجاج الملفوف باللّحم المقدّد، فيما يتصايح الأولاد ويركضون في الأنحاء. كانت تعلم هذا لأنّها استرقت النّظر ذات مرّة من فوق سياج الجيران، ورأت كلّ ذلك: حلقات الهولاهوب، وزحاليق الأطفال المائيّة، والمِرَشّات.

- «إذنْ يا صهباء، كيف كانت المدرسة؟». سأل الأب حين صعدت ليني إلى حافلة الفولكس فاغن وصفقت الباب. كان آخر من وصل من الأهالي.

- تعلّمنا عن شراء الولايات المتّحدة لألاسكا من روسيا، وعن جبل أليسكا في سلسلة تشوغاتش الجبليّة.

ندّت عنه نخرة استحسان، ونقل غيار سرعة الحافلة.

فكّرت ليني في طريقة لتقول ما أرادت قوله.. في الصّفّ فتى في مثل سنّي، إنّه جارنا...

لا، الإتيان على ذكر فتى مدخل خاطئ.

سيستضيف جيراننا حفلة شواء ووجّهوا لنا دعوة...

لكنّ والدها يكره هذه الأشياء، أو اعتاد أن يكرهها، في جميع الأماكن الأخرى الّتي قطنوها.

راحت الحافلة تقعقع بهما عبر الطّريق التّرابيّ والغبار يتلاطم على الطّرفين، ثمّ انعطفا نحو مدخلهم الخاصّ. وعند المنزل، وجدا حشداً من النّاس في الفناء. معظم عشيرة هارلان كانوا هناك، يعملون؛ كانوا يتحرّكون في تناغم صامت، فيتقاربون ويتفرّقون مثل الرّاقصين. كلايد يعمل على ذلك الشّيء الشّبيه بالقفص، وينشر قطع الخشب محوّلاً إيّاها إلى ألواح، وتيد يضع اللّمسات الأخيرة على الخبيئة، فيشدّ الألواح إلى الدّعامات الجانبيّة؛ أمّا دونا فكانت تكدّس الحطب.

- «لقد جاء أصدقاؤنا عند الظّهيرة ليساعدونا في التّحضير للشّتاء».

قال الأب: «لا، هم أفضل من الأصدقاء يا صهباء، إنّهم رفاق».

رفاق؟

عبست ليني؛ هل تحوّلوا إلى شيوعيّين الآن؟ كانت واثقة جدّاً من بغض أبيها للشّيوعيّين بمقدار بغضه لرجال السّلطة والهيبّيين.

- هكذا ينبغي للعالم أن يكون يا صهباء؛ يساعد النّاس بعضهم بدلاً من قتل أمّهاتهم مقابل القليل من المال.

لم تستطع ليني إلّا أن تلحظ أنّ الجميع تقريباً يضعون المسدّسات المغمدة على خصورهم.

فتح الأب باب الحافلة: «سنذهب جميعنا إلى ستيرلينغ نهاية هذا الأسبوع، من أجل صيد السّلمون في فارمرز هول على نهر كيناي. يظهر أنّه من العسير وضع اليد على أسماك السّلمون الملكيّ هذه». نزل إلى الأرض الرّطبة.

لوّح ماد إيرل بيده المكسوّة بقفّاز إلى أبيها، الذي انطلق على الفور نحو العجوز.

سارت ليني قرب هيكل جديد ارتفاعه نحو تسعة أقدام مقابل عرض أربعة أقدام، وجوانبه مغطّاة ببلاستيك أسود سميك (كانت ليني متأكّدة أنّها أكياس قمامة مفرودة)، وكشف باب مفتوح عن داخله الممتلئ بسمك السّلمون الأحمر المشقوق على طول عموده الفقريّ، والمعلّق على الأغصان. كانت ثيلما راكعة فوق التّراب تُعنى بنار مُضرَمة في صندوق معدنيّ، والدّخان ينتفخ متصاعداً في غيوم داكنة تصل إلى السّلمون المعلّق على الأغصان فوق النّار.

رفعت الأمّ نظرها عن سمكة السّلمون التي كانت تنظّفها على طاولة في الفناء، كانت ثمّة لطخة من الأحشاء الورديّة فوق ذقنها. «إنّه مَدْخَن». قالت الأمّ، وهي تشير برأسها نحو ثيلما: «ثيلما تعلّمني كيفيّة تدخين السّمك، ويظهر أنّ الأمر أشبه بفنّ؛ إن كانت الحرارة زائدة عن اللّازم فالسّمك يُطهى، من المفترض أن يُدخَّن ويجفّ في الوقت نفسه.. يم يم.. كيف كان يومك الأوّل في المدرسة؟». كان منديل أحمر يرفع شعرها عن عينيها.

- ظريف.

- ما من انتحار اجتماعيّ بسبب الملابس، أو صندوق الغداء؟ لم تسخر الفتيات منك؟

لم تستطع ليني إلّا أنْ تبتسم: «ما من فتيات في سنّي أساساً، لكن... هنالك فتى...».

أثار ذلك اهتمام الأمّ: «فتى؟».

شعرت ليني بنفسها تحمرّ خجلاً: «صديق، يا أمّي. وصادف أنّه فتى».

- «أها». كانت الأمّ تحاول ألّا تبتسم، وهي تشعل لفافتها: «أهو لطيف؟».

تجاهلت ليني ذلك: «يقول إنّ هنالك حفلة شواء اللّيلة، وأريد أن أذهب».

- أجل، نحن ذاهبون.

- حقّاً؟ هذا رائع!

- «أجل». قالت الأمّ مبتسمة: «أخبرتك أنّ الوضع سيكون مختلفاً هنا».

❄

عندما آن الأوان للتّحضّر من أجل حفلة الشّواء، كادت ليني تفقد عقلها. بصراحة، لم تعرف ما خطبها.

لم يكن لديها ملابس كثيرة تنتقي من بينها، لكنّ ذلك لم يثنِها عن تجريب عدّة توليفات مختلفة. وفي النّهاية، لأنّها -أكثر من أيّ شيء آخر- أُنهِكت من رغبتها في أن تبدو جميلة في حين كان الجمال مستحيلاً، استقرّ رأيها على بنطال بنهايتين واسعتين من قماش البوليستر ذي النّقوش المربّعة، وكنزة خضراء مخطّطة بياقة طويلة ضيّقة تحت صدار مهدّب من الجلد السّويديّ المزيّف. ومهما حاولت، لم تستطع أن تفعل أيّ شيء بشعرها، فسرّحته إلى الخلف بأصابعها، وعقصته في جديلة غير متقنة لها حجم القبضة.

وجدت أمّها في المطبخ، تضع قطعاً مربّعة سميكة من خبز الذّرة في حافظة طعام. كانت قد مشّطت شعرها ذا القصّة المنفوشة الذي يبلغ كتفيها

حتّى بات يومض في الضّوء، وتزيّتْ على نحو يثير إعجاب النّاظرين ببنطال جينز ضيّق واسع النّهايتين وبلوزة بيضاء بمقاس جسدها، مع قلادة هنديّة تركوازيّة لها شكل أزهار القرع كانت قد اقتنتها قبل بضع سنوات.

بدت الأمّ مشتّتة، وهي تفرغ الهواء من حافظة الطّعام.

- أنتِ قلقة، أليس كذلك؟

- «ما الّذي يجعلك تقولين هذا؟». رمقتها الأمّ بابتسامةٍ سريعةٍ مشرقةٍ، لكنّ نظرة عينيها لم تكن قابلة للتّبديل بهذه السّهولة. كانت تضع مساحيق التّبرّج للمرّة الأولى منذ أيّام، وجعلها ذلك تبدو جميلة ونابضة بالحياة.

- أتتذكّرين المعرض؟

- ذلك كان مختلفاً، لقد حاول الرّجل أن يغشّه.

ليست تلك هي الصّورة التي تتذكّر ليني الأمر عليها. لقد كانوا يستمتعون بوقتهم في معرض الولاية إلى أن بدأ والدها بشرب الجعة، ثمّ غازل رجُل ما أمّها (وردّت هي له الغزل)، فثارت ثائرة الأب. دفع الرّجلَ بقوّة تكفي لتحطّم رأسه على عمود الخيمة في مخزن الجعة، وبدأ يصيح. وحين جاء رجال الأمن، تصرّف الأب بشراسة أدّت إلى استدعاء الشّرطة. ملأ الخزي ليني لرؤيتها اثنين من زملائها في الصّفّ يتفرّجان على المشادّة، ويشاهدان أباها يُجرّ إلى سيّارة الشّرطة.

فتح الأب باب الكوخ ودخل.

- هل فتاتاي الجميلتان مستعدّتان للاحتفال؟

- «بالتّأكيد». أجابت الأمّ بسرعة مبتسمة.

- «فلنذهب إذنْ». قال الأب، وهو يقودهم إلى الحافلة.

وفي غضون وقت قصير -كانت المسافة أقلّ من ربع ميل في مسار

مستقيم- دخلوا بحافلتهم عبر البوّابة الفولاذيّة التي يعلوها رأس بقرة ناصع البياض، وكانت البوّابة مفتوحة في بادرة ترحيب.

مسكن آل ووكر؛ أقرب جيرانهم.

تقدّم الأب بالحافلة ببطء، كان المدخل (وهو عبارة عن شريطين من العشب الموطوء يتموّجان ذهاباً وإياباً فوق أرض تغطّيها الأشنة) يمتدّ على شكل حرف S كسول بين مجموعات من أشجار التّنّوب النّحيلة ذات الجذوع السّوداء. من حين إلى آخر تنفتح فرجة بين الأشجار على شِمال ليني فترى بقعة من الأزرق البعيد، غير أنّها لم تشاهد الإطلالة قبل أن يصلوا إلى الفسحة.

- «واو!». قالت الأمّ.

خرجوا إلى حافّة مسطّحة تقوم فوق شرم أزرق هادئ، لقد أُفرِغت قطعة الأرض الضّخمة من كلّ شيء عدا بضع أشجار منتقاة بعناية وزُرعت قشاً.

تربّع بيت خشبيّ كبير من طابقين مثل تاج فوق أعلى نقطة من الأرض، وكانت واجهته المثلّثيّة تتباهى بنوافذ ضخمة لها شكل شبه منحرف ومصطبة بارزة تحيط بالبيت من كلّ جوانبه. بدا مثل مقدّم سفينة عظيمة، قذفها إلى الشّاطئ بحرٌ غاضب فعلقت فوق البرّ، ترنو إلى الأبد نحو البحر الذي تنتمي إليه. المصطبة مزيّنة بكراسي غير متجانسة، وُضعت كلّها بحيث تواجه المشهد الأخّاذ. وعلى الجانب القصيّ من البيت ثمّة عدّة حظائر حيوانات ممتلئة بالبقر، والماعز، والدّجاج، والبطّ. لفافات من الأسلاك الشّائكة، صناديق وطبليّات خشبيّة، جرّار معطوب ومجرفة حفّارة صدئة، وبقايا عدّة شاحنات نافقة ومحتضرة تتناثر بين العشب الذي

يبلغ ارتفاع الرّكبة. ثمّة قفران نحل متجمّعة على مقربة من هيكل خشبيّ صغير ينفث الدّخان، وفي فرجة بين الأشجار يظهر السّقف المدبّب الحادّ لمرحاض خارجيّ.

في الأسفل عند الماء، رصيف رماديّ بارز يخترق البحر الأزرق، وعند نهايته تقوم قنطرة حتّتها عوامل الجوّ كُتب عليها: «شرم آل ووكر». هنالك طائرة عوّامة رُبطت بالرّصيف، إضافة إلى قاربي صيد فضّيّين لامعين.

– «طائرة عوّامة». تمتم الأب: «لا بدّ من أنّهم أثرياء».

ركنوا الحافلة، وساروا مارّين بجرّار ذي لون أصفر ساطع له مجرفة سوداء ودرّاجة رباعيّة حمراء لامعة. ومن القمّة المرتفعة، رأت ليني أناساً تجمّعوا على الشّاطئ في الأسفل، دستة على أقلّ تقدير، حول نار ضخمة في الهواء الطّلق. ألسنة اللّهب تتطاير في السّماء ذات لون الخزامى الفاتح، مصدرةً صوتاً يشبه فرقعة الأصابع.

تبعت ليني والديها على الأدراج نحو الشّاطئ، ومن هناك كان بمقدورها رؤية كلّ من في الحفلة. كان رجُل عريض المنكبين بشعر أشقر طويل يجلس فوق جذع شجرة ساقطة، ويعزف الغيتار، وقد حوّلت لارج مارج دلوين من البلاستيك الأبيض إلى طبلَي بونغو؛ أمّا معلّمة ليني -الآنسة رودز- فكانت قد أطلقت العنان لنفسها على آلة كمنجة، وناتالي مأخوذة بالعزف على هارمونيكا، وثيلما تغنّي «مَلِك الطّريق»، وانضمّ الجميع إليها في الغناء عند عبارة: «أنا رجل ثريّ لا أملك موارد».

كان كلايد وتيد يتولّيان أمر الشّوّاية التي بدت مصنوعة من براميل محروقات قديمة، وماد إيرل يقف على مقربة ويشرب من إناء فخّاريّ. الفتاتان الصّغيرتان من المدرسة: مارث، وأغنيس، كانتا في الأسفل عند خطّ الماء منحنيتين تجمعان الصّدف مع موبيت.

وصلت الأمّ إلى الشّاطئ حاملةً حافظة طعامها الممتلئة بخبز الذّرة، وكان الأب وراءها مباشرةً مع خُمس غالون من الويسكي.

وضع الرّجل الضّخم عريض المنكبين غيتاره جانباً ونهض، كان -مثل معظم الرّجال هنا- يرتدي قميص فلانيل، وبنطال جينز حائل اللّون، وجزمة مطّاطيّة، لكنّه بدا مميّزاً على الرغم من ذلك. بدا كأنّ بنيته خُلقت لهذه الأرض الوعرة، كأنّ بمقدوره الرّكض طوال اليوم، وإسقاط شجرة معمّرة باستخدام بلطة، والسّير بوثبات رشيقة على جذع شجرة ممدود فوق نهر غاضب. حتّى ليني رأته وسيماً، بالنّسبة إلى رجل كبير بالسّنّ.

- «أنا توم ووكر». قال: «مرحباً بكم في مسكني».

- إيرنت أولبرايت.

تصافح توم والأب.

- هذه زوجتي، كورا.

ابتسمت الأمّ لتوم وصافحته، ثمّ نظرت إلى الخلف: «وهذه ابنتنا ليني، إنّها في الثّالثة عشرة».

ابتسم توم لليني: «مرحباً يا ليني، لقد أتى ابني ماثيو على ذكرك».

- «حقّاً؟». قالت ليني. لا تبالغي في ابتسامتك هكذا، يا لكِ من متخلّفة.

انسلّت جينيفا ووكر إلى جانب زوجها. «مرحباً». قالت تبتسم لكورا: «أرى أنّكم قابلتم زوجي».

- «السّابق». وضع توم ووكر ذراعه حول جينيفا وضمّها إليه: «أحبّ هذه المرأة كما أحبّ الهواء، لكنّني لا أستطيع العيش معها».

- «ولا تستطيع العيش دوني كذلك». ابتسمت جينيفا، وأومأت برأسها

إلى اليسار: «ذلك هو حبيبي الأساسيّ هناك؛ كالهون مالفي. هو لا يحبّني بمقدار حبّ توم، لكنّني أروق له أكثر بكثير.. كما أنّه لا يشخر». لكزت السّيّد ووكر في جنبه عابثة.

- «سمعت أنّكم لم تتحضّروا بما فيه الكفاية». قال السّيّد ووكر للأب: «سيتعيّن عليكم أن تتعلّموا بسرعة، لا تتردّد في طلب مساعدتي، أنا جاهز دائماً، ولديّ كلّ ما تحتاج إلى استعارته».

سمعت ليني في شكر أبيها شيئاً أيقظ تخوّفها؛ بدا مغتاظاً فجأة، كأنّه تعرّض لإساءة. أمّها سمعت ذلك أيضاً، فنظرت إليه بقلق.

تقدّم ماد إيرل متعثّراً نحوهم، كان يرتدي تي شيرت كُتب عليه: «أنا صيّاد سمك مخضرم أداعب قضيب الصنّارة كأنّه جزء منّي». أخذ يترنّح بابتسامته المخمورة: «أتعرض المساعدة على إيرنت يا توم العظيم؟ يا له من تصرّف رجُل أبيض كعهدك، أشبه بعرض الملك جون أن يساعد أقنانه المساكين. لعلّ بمقدور صديقك الحاكم أن يمدّ لك يد العون».

- «حبّاً بالله يا إيرل، ليس مجدّداً». قالت جينيفا: «فلنعزف بعض الموسيقا. إيرنت، هل تجيد العزف على آلةٍ ما؟».

- «الغيتار». أجاب الأب: «لكنّني بعت...».

- «عظيم!». قالت جينيفا، وأخذته من ذراعه بعيداً عن ماد إيرل نحو لارج مارج والفرقة المرتجَلة المتجمّعة على الشّاطئ. ناولت الأب الغيتار الذي وضعه السّيّد ووكر جانباً، وسار ماد إيرل متعثّراً قرب النّار ليستعيد إناءه الفخّاريّ.

تساءلت ليني إن كانت أمّها تعلم كم تبدو جميلة، وهي تقف هناك في بنطالها الذي يبرز قوامها، بشعرها الأشقر المتموّج مع نسيم البحر. كان

جمالها واضحاً وصافياً مثل علامة موسيقيّة عُزفت بأناة فائقة، وناشزاً عن محيطه هنا مثل زهرة أوركيد.

بلى، كانت تعرف تماماً كم هي جميلة، والسّيّد ووكر رأى ذلك أيضاً.

- «أيمكنني أن أحضر لك ما تشربينه؟». سأل الأمّ: «هل تفي الجعة بالغرض؟».

- «بالتّأكيد يا توم، الجعة ممتازة». أجابت الأمّ، وتركت السّيّد ووكر يقودها نحو مائدة الطّعام وصندوق التّبريد الممتلئ بجعة رينير.

سارت تتهادى خلفه، واتّخذت وركاها إيقاع الموسيقا فراحتا تتمايلان. لمست ساعد السّيّد ووكر، فنظر إليها وابتسم.

- ليني!

سمعت اسمها فاستدارت.

كان ماثيو واقفاً عند القمّة في الأعلى، غير بعيد عن الأدراج، يلوّح لها كي تصعد.

صعدت على الأدراج ووصلت إليه، فوجدته يحمل عبوة جعة في كلّ يد. «هل سبق لك أن تناولت الجعة؟». سألها.

هزّت رأسها نفياً.

- «ولا أنا، هيّا بنا». انطلق نحو أيكة الأشجار إلى يساره، وسارا في مسلك ملتوٍ يقود إلى الأسفل، مروراً بنتوءات صخريّة.

قادها نحو فسحة صغيرة أرضيّتها مفروشة بالأشنة، وكان بوسعهما أن يريا الحفلة من خلال فرجة بين أشجار التّنّوب السّوداء. كان الشّاطئ على بعد خمسة عشر قدماً لا أكثر، لكنّه بدا في كونٍ آخر. هناك، راح البالغون

يضحكون، ويتحدّثون، ويعزفون، والصّغار ينبشون بين الحصى عن أصداف غير مكسورة، وآكسل ينأى بنفسه ويطعن جذعاً متفسّخاً بسكّينه.

جلس ماثيو وفرد ساقيه متّكئاً على قرمة خشب، فقعدت ليني بجانبه، قريبة منه لكن ليس إلى حدّ التّلامس.

فتح إحدى عبوتي الجعة فأصدرت هسيساً، وناولها إيّاها. جعّدت أنفها وأخذت رشفة، فراحت تفور في حلقها بمذاق سيّئ.

- «مقزّزة». قال ماثيو، فضحكت. وبعد ثلاث رشفات أرجعت ظهرها وأسندته إلى القرمة. هبّت نسمة لطيفة من الشّاطئ، حملت معها رائحة الماء المالح وروائح الشّواء اللّاذعة، كان طنين الحفلة وجلبتها خلف الأشجار مباشرة.

جلسا في صمت مؤنس، ممّا أدهش ليني؛ عادةً ما تكون بلهاء التّوتّر بالقرب من الأولاد الذين ترغب في مصادقتهم.

كانت الحفلة قد ضربت أطنابها على الشّاطئ الآن، واستطاعا مشاهدة كلّ شيء من خلال فرجة بين الأشجار. ثمّة مرطبان يُمرَّر من شخص إلى آخر، وأمّها ترقص بطريقة تتمايل لها وركاها، ويتناثر شعرها. كانت أشبه بجنّيّة غابة، تضيء من داخلها، وترقص لعمالقة الأشجار الأفظاظ المتبلّدين.

الجعة جعلت ليني تشعر بغشاوةٍ ودوار خفيفين، وتحسّ بنفسها كأنّها ممتلئة بالفقاعات.

- «ما الذي جعلكم تنتقلون إلى هنا؟». سألها ماثيو. وقبل أن تتسنّى لها الإجابة، كان قد ضرب عبوته الفارغة بصخرة وبعّجها.

لم تستطع ليني منع نفسها من الضّحك، لا أحد يفعل هذا سوى الصّبيان. «يمكن القول إنّ أبي... محبّ للمغامرات». استقرّت على

جوابها هذا. (لا تقولي الحقيقة أبداً، أنّ أباكِ يواجه صعوبات في الحفاظ على الوظائف والاستقرار في مكان واحد، وإيّاكِ وذِكر أنّه يشرب كثيراً ويحبّ أن يصيح): «لقد سئم من سياتل، كما أظنّ. وماذا عنكم أنتم؟ متى انتقلتم إلى هنا؟».

- جدّي، إيكهارت ووكر، جاء إلى ألاسكا خلال الكساد الكبير. قال إنّه لا يريد الوقوف في طابور من أجل حساء شبيه بالماء؛ لذا وضّب حاجيّاته، وسافر متطفّلاً إلى سياتل، ثمّ شقّ طريقه شمالاً من هناك. يُفترض أنّه قطع ألاسكا من السّاحل إلى السّاحل سيراً على قدميه، بل حتّى تسلّق جبل أليسكا بسلّم مربوط إلى ظهره كي يستطيع أن يعبر الصّدوع الجليديّة. التقى بجدّتي ليلي في مدينة نوم، كانت تدير محلّاً للغسيل ووجبات الطّعام، فتزوّجا وقرّرا أن يقيما مسكناً لهما.

- إذاً فقد ترعرعت أنت وجدّاك ووالدك في ذلك المنزل؟

- «المنزل الكبير شُيّد بعد ذلك بوقت طويل، لكنّنا جميعاً ترعرعنا على هذه الأرض. عائلة أمّي تعيش في فيربانكس، وأختي تقيم معهم فترة ارتيادها للكلّيّة. انفصل والداي قبل بضع سنوات، فبنت أمّي لنفسها منزلاً جديداً ضمن المُلكيّة وانتقلت إليه مع خليلها كال، الذي هو وغد حقيقيّ». ابتسم متابعاً: «بيد أنّنا نعمل معاً جميعاً، هو وأبي يلعبان الشّطرنج في الشّتاء. هذا غريب، لكنّها ألاسكا».

- «واو! لا أستطيع حتّى أن أتخيّل الإقامة في مكان واحد طيلة حياتي». سمعت مسحة اللّهفة الّتي تخلّلت صوتها فأحرجها ذلك، ورفعت عبوة الجعة وأفرغت آخر قطرات الرّغوة في فمها.

كانت الفرقة المرتجلة في أوج انهماكها الآن؛ الأيدي تقرع الدّلاء، وأوتار الغيتار تصدر النّغمات، والكمنجات تعزف.

ثيلما، والأمّ، والآنسة رودز يتمايلن بأوراكهنّ مع إيقاع الموسيقا، ويغنّين بصخب: جبل روكي الشّاهق في كولورادو...

هناك عند الشّوّاية، صاح كلايد: «برغر الموظ جاهز! من يريد جبنة؟».

- «هيّا». قال ماثيو: «أنا أتضوّر جوعاً». أخذ بيدها (بدا ذلك طبيعيّاً) وقادها عبر الأشجار نحو الأسفل إلى الشّاطئ. اقتربا من والدها وماد إيرل، اللذين كانا منعزلين وحدهما يشربان، وسمعت ليني ماد إيرل يطرق مرطبانه بمرطبان أبيها بقوّة ندّ عنها صوت ارتطام شديد. «توم ووكر ذلك يعتقد أنّ خراءه لا يُصدر رائحة نتنة». قال أبوها.

- «عندما تخرج الأمور عن السيطرة، سيأتيني زاحفاً لأنّني هيّأتُ نفسي». قال ماد إيرل بلسان ثقيل.

جمدت ليني في مكانها من الخزي، نظرت إلى ماثيو؛ لقد سمع ذلك هو الآخر.

- «ثريّ بالولادة». أضاف أبوها، وكانت كلماته تخرج بطيئة وغير واضحة: «هذا ما قلتَه، صحيح؟».

أومأ ماد إيرل، وتعثّر متّكئاً على الأب، فأنهضا بعضهما: «يظنّ نفسه أفضل منّا».

تَنحَّتْ ليني مبتعدةً عن ماثيو؛ الخزي جعلها تشعر بالصّغر، والوحدة.

- ليني؟

- «آسفة لأنّك سمعت ذلك». قالت. وكما لو لم يكن كلام أبيها القبيح الثّقيل كافياً، هناك كانت أمّها، تقف على مقربة شديدة من السّيّد ووكر، تبتسم له بطريقة من شأنها أن تقدح زناد المتاعب.

تماماً مثل كلّ المرّات الماضية، وكان يفترض بألاسكا أن تكون مختلفة.

- «ما المشكلة؟». سألها ماثيو.

هزّت ليني رأسها، شاعرةً بحزن مألوف يزحف إليها. ما كان بوسعها أن تحدّثه عن شعور العيش مع أب يخيفها في بعض الأحيان، وأمّ تحبّه للغاية وتجعله يثبت مدى حبّه لها بطرق محفوفة بالمخاطر، مثل المغازلة.

تلك كانت أسرار ليني، وأعباءها، وما كانت تستطيع مشاركتها.

طيلة هذا الوقت، طيلة هذه السّنوات، كانت قد حلمت أن تحظى بصديق حقيقيّ، صديق يخبرها بكلّ شيء. كيف فاتها ما هو واضح؟

لم تكن ليني تستطيع أن تحظى بصديق حقيقيّ لأنّها غير قادرة على أن تكون صديقة حقيقيّة. «آسفة». تمتمت: «لا شيء. هيّا بنا نأكل، أنا أتضوّر جوعاً».

❄ 6 ❄

انكبّ والدا ليني على بعضهما في الكوخ بعد الحفلة، يتبادلان القبل مثل المراهقين، ويرتطم جسداهما المتلاصقان بالجدران. كانت التّوليفة التي صنعتها الكحول والموسيقا (وربّما اهتمام توم ووكر) قد أشعلت بينهما نار الشغف.

هرعت ليني إلى العلّيّة، حيث غطّت أذنيها بوسادتها وراحت تدندن أغنية «هيّا، تمتّع بالسّعادة». وحين خيّم الصّمت على الكوخ من جديد، زحفت إلى كدسة الكتب التي اشترتها من متجر جيش الخلاص. جذب انتباهها كتاب شعر لشخص اسمه روبرت سيرفس، فرجعت به إلى السّرير، وفتحته على قصيدة عنوانها: «حرق جثمان سام ماكغي». لم تحتج إلى إشعال قنديلها لأنّ الضّوء اللّعين ما زال يملأ المكان في الخارج، حتّى في هذا الوقت المتأخّر.

ثمّة أشياء غريبة تحت شمس منتصف اللّيل
يفعلها الرّجال الكادحون من أجل الذّهب؛
للطُّرُق القطبيّة حكاياتها السّرّيّة
التي تجعل دماءك تسري باردة...

انجرفت ليني داخل عالم القصيدة القاسي الجميل، وأسرها ذلك إلى درجة جعلتها تتابع القراءة، عن دان ماكغرو الخطر والسّيّدة المعروفة باسم لو، ثمّ «قانون يوكون». هذا هو قانون يوكون / وضّحتْه لي ببساطة: / «لا ترسل حمقاك وضعفاءك، / بل أرسل لي أقوياءك وعقلاءك». كان كلّ سطر يكشف عن جانب مختلف من جوانب هذه الولاية التي جاؤوا إليها، لكنّها على الرغم من ذلك لم تستطع أن تتوصّل إلى إخراج ماثيو من تفكيرها؛ ظلّت تتذكّر الإحراج الذي شعرت به في الحفل حين سمع كلمات والدها المشينة.

هل سيظلّ راغباً في أن يكون صديقها؟

استنزفها السّؤال، جعلها تتوتّر بحيث لم تستطع النّوم. كانت لتقسم أنّها لم تنم البتّة، لولا أنّها استيقظت في الصّباح التّالي لتسمع: «هيا أيّتها النّؤوم، أحتاج إلى مساعدتك ريثما تطهو ماما لنا شيئاً من القوت. أمامك بعض الوقت قبل أن يبدأ دوام المدرسة».

قوت؟ هل تحوّلوا فجأة إلى رعاة بقر؟

ارتدت ليني بنطالها الجينز وبلوزة كبيرة، ثمّ نزلت إلى الطّابق السّفليّ لتنتعل حذاءها. في الخارج، وجدت أباها يعتلي ذلك الشّيء الشّبيه بمسكن الكلب، والقائم فوق ركائز؛ الخبيئة. ثمّة سلّم من الخشب المقشور، يُشبه ذلك الذي يقود إلى العلّيّة، مسنودٌ إلى الإطار. وكان والدها واقفاً قرب القمّة، يدقّ الألواح ليثبّتها في أماكنها على السّطح. «ناوليني تلك المسامير الصّغيرة يا صهباء». قال لها: «حفنة منها».

أخذت علبة القهوة الزّرقاء الممتلئة بالمسامير، وتسلّقت السّلّم خلفه.

انتشلت أحد المسامير وأعطته إيّاه: «يدك ترتجف».

حدّق إلى المسمار في يده؛ كان يهتزّ في قبضته المرتعدة. وجهه شاحب مثل ورق البرشمان، وعيناه الدّاكنتان بدتا مكدومتين، والطّيّتان تحتهما شديدتا القتامة. «لقد شربتُ كثيراً ليلة أمس، وكان نومي متقطّعاً».

شعرت ليني بوخزة قلق. لم تكن قلّة النّوم توائم أباها؛ فهي تصيبه بالتّشوّش. حتّى الآن، كان نومه ممتازاً في ألاسكا.

- «الشّرب يصيبك بأكثر الأشياء رداءة يا صهباء، يفترض بي أن أكون أوعى من ذلك. حسناً، انتهينا». قال، وهو يدقّ المسمار الأخير في قفّاز العمل الجلديّ الذي استُخدم لصنع مفصلة الباب. (فكرة لارج مارج. هؤلاء الألاسكيّون يعرفون كيف يدبّرون أمورهم بأيّ شيء).

نزلت ليني وحطّت على الأرض، فخشخشت المسامير في علبة القهوة.

دكّ والدها المطرقة في حزامه وبدأ ينزل على السّلّم.

حطّ بجانب ليني وشعّث شعرها بيده: «أظنّ أنّك نجّارتي الصّغيرة».

- كنت أعتقد أنّني أمينة مكتبتك، أو دودة كتبك.

- تقول أمّك إنّ بمقدورك أن تكوني أيّ شيء؛ هراءٌ ما حول سمكة ودرّاجة(*).

أجل، سبق لليني أن سمعت ذلك؛ ربّما كانت المقولة لغلوريا ستاينم، من يدري؟ كانت أمّها لا تكفّ عن الهذر بالأقوال المأثورة طيلة الوقت، وكان المنطق في ذلك بالنّسبة إلى ليني لا يزيد عن المنطق في إحراق حمّالة صدر صالحة تماماً من أجل إبداء وجهة نظر؛ لكن من جانب آخر،

(*) إشارة إلى مقولة شهيرة نصّها: «حاجة المرأة إلى الرّجل مثل حاجة السّمكة إلى الدّرّاجة». (المترجم)

لم يكن منطقياً على الإطلاق في عام 1974 ألّا تتمكّن امرأة ناضجة لديها وظيفة من الحصول على بطاقة ائتمانيّة باسمها.

إنّه عالم رجال يا فتاتي الصّغيرة.

تبعت أباها من الخبيئة إلى المصطبة، مروراً بهيكل دفيئتهم الجديدة والمدخن المرتَجل المغلّف بأكياس القمامة. على الجانب الآخر من الكوخ، كانت دجاجاتهم الجديدة تنقر في الأرض خلف سياجها الجديد، وثمّة ديك يسوّي ريشه فوق المنحدر الّذي يقود إلى مدخل القنّ.

عند برميل الماء غرف الأب مقداراً رشّ به وجهه، فانسابت القطرات في خطوط بنّيّة على خدّيه، ثمّ اتّجه إلى المصطبة، وجلس على الدّرجة السّفليّة. بدا بمظهر متردٍّ كأنّه مخمور منذ أيّام، وقد أصابه الغثيان من ذلك. (مثلما كان يبدو حين تراوده الكوابيس ويفقد أعصابه).

- بدا أنّ أمّك استلطفت توم ووكر.

توتّرت ليني.

- أرأيتِ كيف صدّع رؤوسنا بما لديه من مال؟.. يمكنني أن أعيرك جرّاري يا إيرنت، أم تحتاج إلى توصيلة إلى البلدة؟.. كان ينظر إليّ بتعالٍ يا صهباء.

- «قال لي إنّه يراك بطلاً، وإنّه لأمرٌ مخزٍ ما حدث لك ولرفاقك هناك». كذبت ليني.

- «حقّاً؟». دفع الأب شعره عن وجهه، وجعّدت تكشيرةٌ جبهتَه التي لفحتها الشّمس.

- «هذا المكان يعجبني يا أبي». قالت ليني، مدركةً فجأةً الحقيقة في كلماتها. باتت تشعر بالفعل أنّها تنتمي إلى ألاسكا أكثر ممّا شعرت يوماً

في سياتل: «نحن سعداء هنا، وأرى كم أنت سعيد. ربّما... ربّما لم يكن الشّرب جيّداً لك».

مرّت لحظة من الصّمت المتوتّر؛ باتّفاق ضمنيّ لم تكن ليني وأمّها تأتيان على ذكر شربه أو انفعاله.

- «أنت محقّة في هذا على الأغلب يا صهباء». بدا عليه التّفكّر: «هيّا بنا، فلنوصلكِ إلى المدرسة».

❄

بعد ساعة، كانت ليني تحدّق إلى مبنى المدرسة ذي الغرفة الواحدة. شقّت طريقها نحو الباب الأماميّ معلّقةً حزام حقيبة ظهرها فوق كتفٍ واحدة وصندوق غدائها يرتطم بفخذها اليمنى. كانت أمّها لتنعت مشيتها بالتكاسل، كلّ ما كانت ليني تعلمه هو أنّها ليست مستعجلة للوصول إلى الصّفّ.

كانت قد شارفت على بلوغ الباب الأماميّ حين انفتح بعنف، وخرج الطّلّاب منه في حشدٍ ضاحكٍ ثرثار. وكانت والدة ماثيو، جينيفا، في المنتصف رافعةً يديها اللّتين شقّقهما العمل، تطلب من الجميع أن يهدؤوا.

- «أوه، ليني، رائع!». قالت السّيّدة ووكر: «لقد تأخّرتِ كثيراً، ظننتك ستتغيّبين. لم تستطع تيكا أن تأتي إلى المدرسة اليوم؛ لذا سأتولّى التّعليم أنا. ها! أنا بالكاد تخرّجت، فلنواجه الحقيقة». ضحكت على نفسها: «وبما أنّ اهتمامي كان منصبّاً على الفتيان أكثر من المدرسة، سنذهب في رحلة ميدانيّة. أكره أن أبقى في الدّاخل في يومٍ جميلٍ كهذا».

انضمّت ليني إلى الرّكب بجانب السّيّدة ووكر، التي وضعت ذراعها حولها وشدّتها نحوها: «أنا مسرورة جدّاً لأنّكم انتقلتم إلى هنا».

- وأنا كذلك.

- كان ماثيو قبلك يحرّم مزيل العرق، والآن بات يرتدي ملابس نظيفة. هذا بمنزلة حلم تحقّق بالنّسبة إلينا نحن الذين نعيش معه.

لم تعرف ليني كيف تردّ على ذلك.

ساروا في موكب إلى المرفأ، مثل قطيع الفيلة في فيلم كتاب الأدغال. أحسّت ليني بتحديق ماثيو فيها، وضبطته مرّتين يحملق فيها بتعبير حائر يعلو وجهه.

حين وصلوا إلى رصيف الضّيوف في المرفأ، وراحت قوارب الصّيد تتمايل في صرير من كلّ صوب حولهم، وزّعت السّيّدة ووكر الطّلّاب في أزواج، وخصّصت زورقاً لكلّ زوج. «ماثيو، ليني، الزّورق الأخضر لكما، ارتديا سترتَي نجاتكما. ماثيو، احرص على سلامة ليني».

فعلت ليني ما طُلب منها، وصعدت إلى الطّرف الخلفيّ من الزّورق، وجلست مواجهةً المقدّمة.

صعد ماثيو بعدها، وأصدر الزّورق قعقعةً وصريراً ريثما استقرّ في مكانه فوقه.

جلس مواجهاً إيّاها.

لم تكن ليني تعرف الكثير عن قيادة الزّوارق، لكنّها علمت أنّ هذا خاطئ.

- يُفترض بك أن تدير وجهك في الاتّجاه الآخر.

- «ماثيو دينالي ووكر، ما الّذي تفعله بحقّ الجحيم؟». قالت أمّه مارّةً بهما، وموبيت معها في زورقها: «هل أصابتك نوبة، أو ما شابه؟ ما اسمي؟».

- أردت أن أتحدّث إلى ليني قليلاً يا أمّي، سنلحق بكم.

رمقت السّيّدة ووكر ابنها بنظرة عارفة: «لا تتأخّرا. أنتما في المدرسة، لا في موعدكما الأوّل».

همهم ماثيو: «يا إلهي، كم أنتِ غريبة الأطوار».

- «وأنا أيضاً أحبّك». قالت السّيّدة ووكر ضاحكةً، وابتعدت بزورقها. «هيّا يا أطفال». هتفت ببقيّة الزّوارق: «فلنتّجه نحو شرم فرخ النّسر».

- «أنت تحدّق بي». قالت ليني لماثيو حين باتا بمفردهما.

وضع ماثيو مجذافه فوق حضنه، وراحت الأمواج تصفع زورقهما، فتُصدر صوت ارتطام أجوف، وهما يتمايلان مبتعدين عن الرّصيف.

كانت تعلم أنّه ينتظرها كي تقول شيئاً، ولم يكن ثمّة ما يُقال إلّا شيء واحد. تغلغلت الرّيح في شعرها، وحرّرت خصلاً مجعّدة من الرّبطة المطّاطيّة التي تجمعه، فراحت الخصل الحمراء ترفرف على وجهها. «أنا آسفة بشأن ليلة أمس».

- علامَ تأسفين؟

- بحقّك يا ماثيو، لست مضطرّاً إلى التّصرّف بهذا اللّطف.

- لا فكرة لديّ عمّا تتحدّثين عنه.

- «أبي كان مخموراً». قالت بحذر. كان هذا الاعتراف أكثر من أيّ شيء سبق أن جاهرت به، وبدا مثل الخيانة، بل حتّى إنّه ربّما كان خطِراً. لقد سبق لها أن شاهدت بعض حلقات إيه بي سي آفترسكول سبيشال، وهي تعرف أنّ الأولاد يؤخذون من أهاليهم المتقلّبين أحياناً. بوسع رجال السّلطة تفريق شمل أيّة عائلة لأيّ سبب، وهي ما كانت لتريد إثارة أيّ شيء من شأنه إقحام أبيها في المتاعب.

ضحك ماثيو: «جميعهم كانوا سكارى، يا له من حدث جلل. في العام الماضي، نال السّكر من ماد إيرل إلى درجة أنّه تبوّل في المدخن».

– إنّ أبي.. يسكر أحياناً.. ويغضب. يقول أشياء لا يعنيها، أعرف أنّك سمعت ما قاله عن والدك.

– أنا أسمع هذا طوال الوقت، وخاصّةً من ماد إيرل. بِيت المجنون ليس مولعاً بأبي كثيراً هو الآخر، وبيلي هورتشو حاول قتله ذات مرّة، ولم يعرف أحد السّبب قطّ. هذه هي حال ألاسكا، يمكن للشّتاء الطّويل، والإفراط في الشّرب، جعل الرّجال يفعلون أشياء غريبة. لم آخذ الأمر على محمل شخصيّ، وأبي ما كان ليفعل كذلك.

– مهلاً، أتقصد أنّ ذلك لا يهمّك؟

– هذه هي ألاسكا، نعيش ونترك الآخرين يعيشون. لا آبه إن كان والدك يكره أبي، أنت المُهمّة يا ليني.

– أنا المهمّة؟

– أجل، بالنّسبة إليّ.

شعرت ليني بخفّة كافية لجعلها تطفو في الهواء فوق الزّورق؛ لقد أخبرته بواحد من أحلك أسرارها وأفظعها، ومع ذلك ظلّت تروق له. «أنت مجنون».

– يمكنكِ أن تراهني بمؤخّرتكِ على ذلك.

– «ماثيو ووكر، كفّ عن الثّرثرة وابدأ بالتّجذيف». صاحت السّيّدة ووكر بهما.

– «إذنْ، نحن صديقان، صحيح؟». قال ماثيو: «مهما حدث؟».

أومأت ليني: «مهما حدث».

– «ممتاز». استدار ماثيو ليواجه المقدّمة، وشرع بالتّجذيف: «لديّ شيء رائع سأريكِ إيّاه حين نصل إلى وجهتنا». قال من فوق كتفه.

- ما هو؟

- ستكون البرك ممتلئة ببيض الضّفادع، إنّه مقزّز وشديد اللّزوجة. لعلّي أتوصّل إلى جعل آكسل يأكل بعضاً منه، فذلك الفتى مجنون تماماً.

التقطت ليني مجذافها.

سَرَّها أنّه لا يستطيع رؤية كم كانت ابتسامتها كبيرة.

❄

حين خرجت ليني من مبنى المدرسة، وهي تضحك من شيء كان ماثيو قد قاله، رأت والديها ينتظرانها في حافلة الفولكس فاغن، كلاهما. مدّت أمّها رأسها من النّافذة ولوّحت كما لو كانت تحاول الحصول على مكان فوق منصّة برنامج السعر صحيح.

- ربّاه، أنت تحظين بمعاملة تليق بالملوك فعلاً!

ضحكت ليني وودّعته، ثمّ صعدت إلى القسم الخلفيّ من الحافلة.

- «إذنْ يا دودة كتبي الصّغيرة». قال الأب، والحافلة تنطلق فوق الطّريق التّرابيّ الخارج من البلدة: «أيّ شيء مفيد تعلّمتِ اليوم؟».

- «لقد ذهبنا في رحلة ميدانيّة إلى شرم فرخ النّسر، وجمعنا أوراق الشّجر من أجل مشروع أحياء. هل تعلمان أنّ المرء يصاب بنوبة قلبيّة إن أكل ثمار نبتة الأقتى السّنبليّة؟ وأنّ أعشاب العاشم تسبّب قصوراً تنفّسيّاً؟».

- «عظيم!». قالت الأمّ: «الآن بوسع النّباتات أن تقتلنا هي الأخرى».

ضحك الأب: «هذا عظيم يا ليني، وأخيراً هناك معلّمة تدرّس الأمور المهمّة».

- «تعلّمتُ أيضاً عن حمّى ذهب كلونديك. شرطة الخيّالة الكنديّة الملكيّة لا تسمح لأحد بعبور ممرّ تشيلكوت ما لم يحمل معه موقداً

يحمله على ظهره، غير أنّ معظم عمّال المناجم الذين جاؤوا كانوا يدفعون للهنود مقابل حمل مؤنهم».

أومأ الأب: «الأغنياء يمتطون ظهور الرّجال الأفضل.. هذا هو تاريخ الحضارة متجسّداً، هذا ما يدمّر أمريكا؛ الرّجال الذين يأخذون ويأخذون ولا يكفّون عن الأخذ».

كانت ليني لاحظت أنّ حديث أبيها بهذه النّبرة قد ازداد منذ لقائه بماد إيرل.

انعطف الأب نحو مدخلهم الخاصّ، وراحت الحافلة تقرقع في سيرها، وحين دخلوا المسكن ركن متعجّلاً وقال: «حسناً يا آل أولبرايت، ستتعلّم فتاتاي اليوم إطلاق النّار».

وثب مترجّلاً من الحافلة، وأحضر رزمة من القشّ المتعفّن المسودّ من خلف قنّ الدّجاج.

أشعلت الأمّ لفافة تبغ، فشكّل الدّخان هالة رماديّة فوق شعرها الأشقر. «ينبغي لهذا أن يكون ممتعاً». قالت من دون بهجة.

- «علينا أن نتعلّم ذلك، هذا ما أجمعت عليه لارج مارج وثيلما». قالت ليني.

أومأت الأمّ.

انتقلت ليني إلى مقعد السّائق: «ماما.. لاحظتِ أنّ أبي يُظهر شيئاً من... شيئاً من الضّيق تجاه السّيّد ووكر، صحيح؟».

التفَّت الأمّ والتقت أعينهما: «أحقّاً؟». قالت بنبرة اعتياديّة.

- تعلمين ذلك، لذا.. أقصد.. تعرفين كيف يمكن أن يتصرّف إن قمتِ.. كما تعلمين.. بالمغازلة.

دقّ الأب على مقدّمة الحافلة بقوّة أجفلت منها الأمّ، وندّ عنها صوت ضئيل، مثل صرخة مبتورة، فأسقطت لفافة تبغها، وانحنت مندفعةً تبحث عنها.

كانت ليني تعلم أنّ أمّها لن تجيب على أيّة حال؛ وذلك معلم آخر من معالم غرابة عائلتهم. كان غضب الأب سريع الانفجار، والأمّ تشجّع ذلك بطريقةٍ ما، كأنّها ربّما تحتاج إلى أن تتأكد من مدى حبّه لها طيلة الوقت.

قاد الأب ليني وأمّها من الحافلة فوق فسحة الأرض الوعرة نحو المكان الذي وضع فيه رزمة القشّ، وعليها علامة هدف.

أخرج بندقيّته من غمدها الجلديّ، وصوّب، ثمّ أطلق، فأصاب مركز الهدف في الرّأس الذي رسمه على ورقة بقلم خطّاط. طارت مجموعة طيور فارّة عن الأشجار، وتفرّقت في أنحاء السّماء الزّرقاء تنعب بغضب على الأب الذي عكّر صفوها. حطّ نسر أصلع يمتدّ جناحاه المفتوحان على عرض ستّة أقدام على الأقلّ ليأخذ مكان الطّيور، وجثم فوق غصن مرتفع لإحدى الأشجار مصوّباً منقاره الأصفر باتّجاههم. «هذا ما أنتظره منكما». قال الأب.

نفثت الأمّ الدّخان: «سنقضي هنا مدّة من الوقت يا فتاتي الصّغيرة».

ناول الأب البندقيّة لليني: «حسناً يا صهباء، فلنرَ ما لديكِ من موهبة فطريّة. انظري من المنظار، من دون أن تقتربي أكثر من اللّازم، وحين يصبح الهدف في مرمى بصرك، اضغطي الزّناد.. ببطء وثبات.. وتنفّسي بانتظام.. حسناً، صوّبي. سأقول لك متى تطلقين. وانتبهي لـ...».

رفعت البندقيّة وصوّبت، وقالت في قرارتها: واو يا ماثيو، لا أطيق انتظاراً حتّى أخبرك... ثمّ ضغطت الزّناد بالخطأ.

ضربت البندقيّة كتفها بشدّة أطاحت بتوازنها، وارتطمت فتحة التّصويب بمنطقة عينها مصدرةً طقطقة بدت مثل تكسير العظام.

صرخت ليني من الوجع، وألقت البندقيّة منهارةً على ركبتيها في الوحل، ثمّ أطبقت يدها فوق عينها التي تنبض ألماً. كان الألم شديداً جعلها تشعر بالغثيان يقلب معدتها، وكادت تتقيّأ.

كانت ما تزال تصرخ وتبكي حين شعرت بشخص يهوي قربها، وبيد تفرك ظهرها. «تبّاً يا صهباء». قال الأب: «لم أقل لك أن تطلقي. أنت بخير، فقط تنفّسي. هذا خطأ مبتدئين طبيعيّ، ستكونين على ما يرام».

- «أهي بخير؟». صرخت الأم: «قل لي».

أنهض الأب ليني على قدميها. «لا تبكي يا ليني». قال: «ليس هذا تدريب مسابقة جمال تتعلّمين فيه الغناء من أجل منحة دراسيّة، عليك أن تصغي إليّ، فحياتك هي ما أحاول إنقاذه».

- «لكن...». كان الألم شديداً، وانبثق صداع من العدم، وراح يتخبّط خلف عينيها. لم تستطع أن ترى جيّداً بعينها المصابة، كان نصف العالم غبِشاً. وما آلمها أكثر حتّى هو أنّه لم يكترث بمدى الألم، لم تستطع إلّا أن تشعر بالأسف على حالها؛ كانت لتراهن أنّ توم ووكر لا يعامل ماثيو بهذه الطّريقة أبداً.

- «كفى يا لينورا». قال الأب، وهو يهزّ كتفها برفق: «أنتِ قلتِ إنّك أحببت ألاسكا وتريدين أن تشعري بالانتماء فيها».

- «أرجوك يا إيرنت، إنّها ليست جنديّاً». قالت الأمّ.

أدار الأب ليني، وأمسك بكتفيها، وهزّها بقسوة: «كم عدد الفتيات اللّاتي خُطفن في سياتل قبل أن نغادرها؟».

– كـ... كثيرات.. واحدة كلّ شهر، وأحياناً أكثر.

– ومَن كُنّ؟

– مجرّد فتيات.. أغلبهنّ مراهقات.

– وباتي هيرست أُخِذت من شقّتها، وكان عشيقها حاضراً هناك، صحيح؟

مسحت ليني عينيها وأومأت.

– أتريدين أن تكوني ضحيّة أم ناجية يا لينورا؟

كان الصّداع ينال من ليني بحيث لم تستطع التّفكير. «نـ... ناجية؟».

– «علينا أن نتهيّأ لأيّ شيء في هذه الأرجاء، أريدك أن تكوني قادرةً على حماية نفسك». ذوى صوته عند هذه العبارة، ورأت العاطفة التي كان يحاول إخفاءها حثيثاً. إنّه يحبّها، لهذا يريدها أن تكون قادرةً على الاعتناء بنفسها. «ماذا لو لم أكن موجوداً عند حدوث شيء ما؟ حين يحطّم دبّ الباب، أو تحاصرك مجموعة ذئاب؟ أحتاج إلى أن أعرف أنّ بمقدورك حماية أمّك وإنقاذ نفسك».

نشقت ليني ما سال من أنفها بقوّة، وكافحت كي تستعيد زمام نفسها. إنّه محقّ، عليها أن تكون قويّة. «أعرف».

– «حسناً، التقطي البندقيّة». قال الأب: «حاولي مجدّداً».

التقطت ليني البندقيّة الملطّخة بالوحل، وصوّبت.

– «لا تقرّبي فتحة التّصويب كثيراً من عينك، الارتداد عنيف. هاك، أمسكيها بهذه الطّريقة». عدّل الأب وضعيّة السّلاح برفق: «ضعي إصبعك على الزّناد، من دون ضغط».

لم تستطع فعل ذلك، تملّكها الفزع من إصابة عينها مجدّداً.

- «هيّا». قال الأب.

سحبت نفساً عميقاً ودسّت سبّابتها في فرجة الزّناد، فأحست ببرودة القوس الفولاذيّة.

أخفضت ذقنها، وأبعدت رأسها أكثر عن فتحة التّصويب.

أرغمت نفسها على التّركيز، فتلاشت الأصوات: انخفض نعيق الغربان وخشخشة الرّيح في الأشجار حتّى ما عادت تسمع إلّا خفق قلبها.

أغمضت عينها اليسرى، وحاولت أن تهدأ.

تقلّص العالم إلى دائرة واحدة؛ كانت غبِشة في البداية، صورة مزدوجة.

تركّزت الصّورة.

رأت رزمة القشّ، الورقة البيضاء المثبّتة بها، الحدود الخارجيّة لرأس رجُل وكتفيه. أذهلتها نقاوة الصّورة، فعدّلت وضعيّة البندقيّة، وصوّبت نحو مركز الرّأس تماماً.

برويّة، ضغطت على الزّناد.

طقطقت البندقيّة مرتدّة، وضربت كتفها بقسوةٍ من جديد، بقسوةٍ جعلتها تتعثّر، إلّا أنّ فتحة التّصويب لم ترتطم بعينها.

أصابت الرّصاصة رزمة القشّ. ليس الهدف، ولا حتّى الورقة البيضاء التي تحيط بالهدف، بل الرّزمة. شعرت بفخر مفاجئ من ذلك الإنجاز الصّغير.

- كنت أعلم أنّك تستطيعين فعلها يا صهباء. حينما نتمّ عملنا، ستصبحين بمهارة قنّاص.

❋ 7 ❋

كانت الآنسة رودز واقفةً عند السبورة تكتب أرقام صفحات الوظيفة حين وصلتليني إلى المدرسة. «آه». قالت المدرّسة: «يبدو أنّ أحدهم قرّب المنظار من عينه أكثر من اللّازم. أتحتاجين إلى حبّة أسبرين؟».

- «غلطة مبتدئين». قالت ليني، وهي تكاد تكون فخورة بالإصابة؛ إذْ كانت تعني أنّها تتحوّل إلى ألاسكيّة: «أنا بخير».

أومأت الآنسة رودز: «اجلسي في مقعدك وافتحي كتاب التّاريخ».

تبادلت ليني وماثيو التّحديق في بعضهما، وهي تدخل غرفة الصّفّ؛ كانت ابتسامته كبيرة بحيث كشفت لها عن كلّ ما في فمه من أسنان ملتوية.

انسلّت في مقعدها الذي قرقع ملتصقاً بمقعده.

- الجميع تقريباً يصابون بضربة في عيونهم أوّل مرّة، لقد بقيت عيني مسودّة لنحو أسبوع. أتؤلمك؟

- كانت تؤلمني، بيد أنّ تعلّم إطلاق النّار كان رائعاً إلى درجة أنّني لم...

- «موظ!». هتف آكسل واثباً عن مقعده، وركض إلى النّافذة.

تبعته ليني وماثيو. احتشد جميع الأولاد عند النّافذة، يشاهدون ذكر

موظ عملاقاً، يتهادى عبر المنطقة المعشبة خلف مبنى المدرسة. أسقط طاولة النّزهات وبدأ يأكل من الشّجيرات.

انحنى ماثيو مقترباً من ليني، فلامست كتفُه كتفَها. «أرى أن نختلق عذراً ونتملّص من المدرسة اليوم، سأقول: إنّهم يحتاجون إليّ في المنزل بعد الغداء».

شعرت ليني بشيء من الإثارة لفكرة الهروب من المدرسة، لم يسبق لها أن فعلت ذلك: «بوسعي القول إنّني أعاني صداعاً، لكن سيتحتّم عليّ أن أعود إلى هنا عند الثّالثة لأنّ والدي سيقلني».

- «رائع». قال ماثيو.

- «حسناً، حسناً». قالت الآنسة رودز: «يكفي هذا. ليني، آكسل، ماثيو، افتحوا على الصّفحة 117 في كتاب تاريخ ولاية ألاسكا...».

طيلة ما تبقّى من الصّباح، لم تنقطع ليني وماثيو عن مراقبة السّاعة بتوتّر. وقُبيل موعد الغداء، تذرّعت ليني بالصّداع وقالت إنّها تحتاج إلى العودة إلى المنزل. «يمكنني السّير إلى المخزن العامّ، والاتّصال بوالديّ عبر اللّاسلكيّ».

- «لا بأس». قالت الآنسة رودز. لم يبدُ أنّ المعلّمة شكّكت في الكذبة، فانطلقت ليني خارجةً من الصّفّ، وأغلقت الباب وراءها. سارت إلى الطّريق واختبأت بين الأشجار، وانتظرت.

بعد نصف ساعة، خرج ماثيو من المدرسة بخطواتٍ واسعةٍ يكشّر عن ابتسامة عريضة.

- «ماذا سنفعل إذنْ؟». سألت ليني. وما الخيارات التي كانت أمامهما؟ ما من تلفاز، ولا صالة سينما، ولا طرق معبّدة من أجل ركوب الدّرّاجات،

ولا مطاعم تخدّم على السّيّارات من أجل تناول مخفوق الحليب، ولا حلبات تزلّج، أو ملاعب.

أخذها من يدها وقادها نحو درّاجة ثلاثيّة ملطّخة بالوحل. «تسلّقي».
قال ماثيو، وهو يرفع ساقه فوق المركبة، ويتّخذ مكانه على المقعد الأسود.

لم ترَ ليني أنّ تلك فكرة جيّدة، لكنّها لم تشأ أن يظنّها هرّة جبانة، لذا تسلّقت المركبة. وبارتباك أخرق وضعت ذراعيها حول خصره.

فتل قبضة المِقوَد، فانطلقا وسط غمامة من الغبار، فيما المحرّك يتذمّر بنبرة عالية، والأحجار تتطاير من تحت العجلات المطّاطيّة العريضة. ساق ماثيو عبر البلدة، وقرقع فوق الجسر، وتعثّر بخندقٍ صغيرٍ، ثمّ انطلق في مسلكٍ لم تره قبل أن يدخلاه.

قادا المركبة في طريقٍ صاعدٍ، وبين أشجارٍ ملتفّةٍ على نفسها، وفوق هضبة. من هناك، رأت ليني فسحة من الزّرقة، ماء البحر ينحت اليابسة، والأمواج تتكسّر على الشّاطئ. أبطأ ماثيو سرعة المركبة ووجّهها بخبرة فوق الأرض الوعرة، حيث لم يعد ثمّة آثار تحت العجلات. كادت ليني ترتمي، فتعيّن عليها التشبّث به بشدّة.

استقرّ بالدّرّاجة أخيراً، وأطفأ المحرّك.

لفّهما الصّمت على الفور، لا تكسره إلّا الأمواج تتحطّم على الصّخور السّوداء في الأسفل. نبّش ماثيو في الحقيبة التي على مركبته ثلاثيّة العجلات وأخرج منظاراً.

- هيّا!

سار أمامها بقدمين ثابتتين فوق الأرض الصّخريّة الوعرة، وكادت ليني تسقط مرّتين بسبب تعرّج الصّخور تحت قدميها، لكنّ ماثيو كان أشبه بالماعز الجبليّ، كأنّه في منزله تماماً.

قادها إلى فسحةٍ ترتفع مثل يدٍ مفتوحةٍ لاستقبال حفنةٍ فوق البحر، وكان ثمّة كرسيّان خشبيّان مصنوعان يدويّاً، وُضعا بحيث يواجهان الأشجار، فألقى ماثيو نفسه على أحدهما، وأشار إليها نحو الآخر.

ألقت ليني حقيبة ظهرها على العشب وجلست، وانتظرت فيما راح ماثيو ينظر في المنظار ويمسح الأشجار. «ها هما». ناولها المنظار مشيراً نحو أجمة أشجار: «إنّهما لوسي وريكي، أمّي سمّتهما».

نظرت ليني في المنظار. أوّل الأمر لم ترَ غير الأشجار والأشجار والمزيد من الأشجار، وهي تنتقل ببطءٍ من اليسار إلى اليمين، ثمّ لاحت ومضة من البياض.

عادت برويّة بضع درجات إلى اليسار.

زوج من النّسور الصّلعاء يجثمان على عشٍّ بحجم حوض الاستحمام، أُقيم عالياً على الأشجار؛ كان أحدهما يطعم فراخاً ثلاثة تتمايل وتتدافع بمناقير مرفوعة طلباً للغذاء الذي يُفرزه جوفه، واستطاعت ليني سماع صيحات الفراخ الحادّة المختلطة تعلو على تكسّر المياه في الأسفل.

- «واو!». قالت ليني. كانت لتخرج كاميرا البولارويد من حقيبة ظهرها (لم تكن تذهب إلى أيّ مكان من دونها)، لكنّ النّسور أبعد من أن تلتقطها عدسة الآلة السّاذجة.

- إنّهما يعودان إلى هنا لوضع البيض منذ مدّة لا أذكر متى بدأت، لقد أحضرتني أمّي أوّل مرّة حين كنت صغيراً. ينبغي أن تشاهديهما وهما يبنيان العشّ، الأمر مذهل! والنّسر يظلّ مع شريكٍ واحدٍ طيلة حياته، أتساءل عمّا قد يفعله ريكي إن أصاب لوسي مكروهٌ ما. تقول أمّي إنّ العشّ يكاد يزن طنّاً، لقد شاهدت فراخاً تغادر هذا العشّ طوال حياتي.

- «واو!». قالت ليني مرّةً أُخرى، وابتسمت حين خفق أحد الفراخ بجناحيه وحاول اعتلاء شقيقيه.

- لم نأتِ إلى هنا منذ مدّة طويلة مع ذلك.

التقطت ليني شيئاً في صوت ماثيو، فأنزلت المنظار ونظرت إليه: «أنت وأمّك؟».

أومأ: «منذ انفصالها هي وأبي، باتت الأمور عصيبة. ربّما السبب وراء ذلك هو انتقال أختي، أليسكا، إلى فيربانكس كي ترتاد الكلّيّة. إنّني أفتقدها».

- لا بدّ من أنّكما متقاربان.

- أجل، إنّها رائعة، كنت ستستلطفينها. تظنّ أنّها تريد العيش في مدينة، لكنّ ذلك يستحيل أن يدوم، ستعود. أبي يقول إنّ علينا كلينا أن نذهب إلى الجامعة كي نحيط بجميع خياراتنا، وهو متزمّت في هذا الشّأن إلى حدٍّ ما في الحقيقة. أنا لا أحتاج إلى الجامعة كي تخبرني بما أريد أن أكونه.

- أتعرف منذ الآن؟

- بالتّأكيد، أريد أن أصبح طيّاراً، مثل خالي وينت. أحبّ أن أكون في أعالي السّماء، لكنّ أبي يقول إنّ ذلك ليس كافياً، أظنّ أنّني أحتاج إلى الإلمام بالفيزياء وما إلى هنالك من هراء.

تفهّمت ليني ذلك. إنّهما طفلان، هي وماثيو؛ لا أحد يأخذ رأيهما، أو يخبرهما بأيّ شيء، يتعيّن عليهما أن يتأقلما ويعيشا في العالم الذي قُدّم لهما، مرتبكَين معظم الوقت لأنّه لا شيء يبدو منطقيّاً، لكنّهما واثقان من تدنّي مرتبتهما في السّلسلة الغذائيّة.

أرجعت ظهرها على الكرسيّ المتشقّق. كان قد أفضى إليها بشيءٍ

شخصيٍّ يخصّه، شيء مهمّ، وعليها أن تفعل الأمر نفسه. أليس هكذا تكون الصّداقة الحقيقيّة؟ ابتلعت ريقها بصعوبة، وقالت بصوت خفيض: «أنت محظوظ لأنّ أباك يريد لك الأفضل، أبي يتصرّف... بغرابة منذ الحرب».

- كيف ذلك؟

رفعت ليني كتفيها؛ لم تعرف ماذا تقول تماماً، أو كيف تقوله من دون أن تفشي بما هو أكثر من اللّازم: «تراوده... كوابيس... ويمكن للطّقس السّيئ أن يخرجه عن صوابه، في بعض الأحيان. لكنّه لم يعانِ أيّ كابوس منذ انتقلنا إلى هنا، لذا ربّما تحسّنت حالته».

- لا أدري، الشّتاء هنا أشبه بليلةٍ طويلةٍ متّصلة. يفقد النّاس رشدهم في الظّلام، يركضون صارخين، ويفتحون النّار على حيواناتهم الأليفة وأصدقائهم.

أحسّت ليني بانقباض في معدتها، لم تكن قد فكّرت بحقّ في أنّ الظّلام سيطغى في الشّتاء كما يطغى الضّوء الآن. لم تشأ التّفكير في ذلك، الظّلام الشّتويّ. «ما الأمر الذي يقلقك؟». سألته.

- «أقلق من أن تهجرنا أمّي. أقصد، أنا أعلم أنّها شيّدت منزلاً ومكثت في الملكيّة، وأنّ والديّ ما زالا يحبّان بعضهما بطريقةٍ غريبةٍ ما، لكنّ الأمر لم يعد كعهده. لقد أتت إلى المنزل ذات يوم وقالت إنّها لم تعد تحبّ أبي، وإنّها تحبّ كال المريب». استدار فوق كرسيّه، ونظر إلى ليني: «مرعب أن يكون بوسع النّاس التّوقّف عن حبّك ببساطة، صحيح؟».

- أجل.

- أتمنّى لو تستمرّ المدرسة فترة أطول.

- أعرف، أمامنا ثلاثة أيّام قبل العطلة الصّيفيّة، ثمّ...

حالما تنتهي المدرسة، سيُنتظر من ليني أن تعمل بدوام كامل في أرضهم، وكذلك ماثيو في أرضه، وبالكاد سيتسنّى لهما اللّقاء.

❄

في اليوم الدّراسيّ الأخير، تبادلت ليني وماثيو كلّ أنواع الوعود حول أن يبقيا على تواصل حتّى يبدأ الدّوام من جديد في سبتمبر، لكنّ الحقيقة كانت تُزاحمهما بمنكبيها لتحول بينهما. إنّهما طفلان، ولا يملكان من أمرهما شيئاً، لا سيّما جدولهما الزّمنيّ. شعرت ليني بالوحدة منذ تلك اللحظة، وهي تسير مبتعدةً عن ماثيو في ذلك اليوم الأخير وتتّجه إلى حافلة الفولكس فاغن التي تنتظرها جانب الطّريق.

– «تبدين في غاية الإحباط يا فتاتي الصّغيرة». قالت الأمّ من مكانها على مقعد السّائق.

اعتلت ليني مقعد المرافق الأماميّ، لم ترَ جدوى من التّذمّر بخصوص شيء لا يمكن تغييره. كانت السّاعة الثّالثة؛ وما زال ضوء النّهار ممتدّاً مثل محيط، ما يعني ساعات من المهامّ الرّوتينيّة.

حال وصولهما إلى المنزل، قالت الأمّ: «لديّ فكرة، اذهبي واجلبي بطّانيّة الصّوف المقلّمة تلك، وإصبع الشّوكولا من صندوق التّبريد، سأنتظرك عند الشّاطئ في الأسفل».

– ماذا سنفعل؟

– لا شيء على الإطلاق.

– ماذا؟ لن يوافق أبي أبداً.

– «لكنّه ليس هنا». ابتسمت الأمّ.

لم تضيّع ليني أيّة ثانية، جرت إلى المنزل (قبل أن تغيّر أمّها رأيها).

أخذت إصبع شوكولاتة هيرشي الرّفيع من صندوق التّبريد في المطبخ، والبطّانيّة من خلف الأريكة، ثمّ انطلقت إلى أدراج الشّاطئ المتقلقلة تلفّ البطّانيّة حولها مثل معطف بونشو، وسلكت نحو قوس الحصى المرقّط بالماء الذي يمثّل شاطئهم الخاصّ. على اليسار ثمّة كهوف حجريّة مظلمة تدعو بإغواء، نحتتها قرون من اندفاع الماء.

كانت الأمّ واقفة في العشب الطّويل تطلّ على الشّاطئ، بلفافة أُشعِلت مسبقاً.ليني واثقة أنّ الطّفولة -بالنّسبة إليها- ستظلّ دائماً تعبق بهواء البحر، ودخان السّجائر، وعطر أمّها ذي شذا الورد.

بسطت البطّانيّة على الأرض المضرَّسة، وجلست فوقها هي وأمّها، فاردتين سيقانهما تميل إحداهما بجسدها على الأخرى. أمامهما كان البحر الأزرق ينفرد قُدماً بلا انقطاع، فيغسل الحجارة ويخشخشها. وعلى مسافةٍ غير بعيدةٍ ثمّة ثعلب ماء يطفو على ظهره، ويُعمل مخالبه السّوداء الصّغيرة في فتح محارة.

- أين أبي؟

- «ذهب لصيد السّمك مع ماد إيرل، أظنّه يطمح إلى طلب قرضٍ من العجوز، فالوضع الماليّ يسوء بحقّ. ما زال لديّ بعض المال الذي أخذته من أمّي، لكنّني كنت أستخدمه من أجل السّجائر وأفلام البولارويد». افترّت عن ابتسامة ناعمة لليني.

- «لست متأكّدة أنّ ماد إيرل جيّد لأبي». قالت ليني.

ذوت ابتسامة أمّها: «أفهم قصدك».

- «لكنّه سعيد هنا». أضافت ليني. حاولت ألّا تفكّر في الحديث الذي خاضته مع ماثيو حول دنوّ الشّتاء المظلم البارد الذي يبعث على الجنون.

- أتمنّى لو كنتِ تتذكّرين أباكِ قبل نام.

- «أجل». سبق للّيني أن سمعت عشرات القصص عن ذلك الزّمان، كانت أمّها تهوى الحديث عن الماضي، عن الشّخصين اللّذين كاناهما في البدء، وكانت الكلمات أشبه بحكاية سحريّة يكلّلها الحبّ.

لقد كانت الأمّ في السّادسة عشرة حين حبلت.

السّادسة عشرة.

ستبلغ ليني الرّابعة عشرة في سبتمبر. وللدّهشة، لم تكن قد فكّرت في ذلك حقّاً من قبل؛ كانت تعرف سنّ أمّها بالطّبع، لكنّها لم تربط بين الحقائق قطّ على نحوٍ فعليّ. السّادسة عشرة.

- «كنتِ أكبر منّي بعامين فقط حين حبلتِ». قالت ليني.

تنهّدت الأمّ: «كنت في السّنة الأولى من الثّانويّة.. ربّاه، لا عجب أنّ ذلك كاد يودي بوالديّ». رمقت ليني بابتسامة ملتوية ساحرة: «لم يكونا من النّمط الذي بوسعه تفهّم فتاة مثلي، كانا يمقتان ملابسي وموسيقاي، وأنا أمقت قواعدهما. في السّادسة عشرة، كنت أظنّ أنّني أعلم كلّ شيء، وهذا ما قلته لهما. أرسلاني إلى مدرسة بنات كاثوليكيّة، حيث كان التّمرّد يتمثّل في طيّ حزام تنّورتك لتقصير حاشيتها وإظهار إنش من البشرة فوق ركبتيك. علّمونا أن نركع، ونصلّي، ونتزوّج زيجة حسنة. والدك دخل حياتي مثل موجةٍ كاسحةٍ، فأطاح بي. كان كلّ شيء يقوله يقلب عالمي التّقليديّ رأساً على عقب، ويغيّر ما كنت عليه، ما عدت أعرف كيف أتنفّس من دونه، وكنت أصدّق كلّ ما يقوله. كنّا أنا وأبوك غارقين في الحبّ أكثر من أن نأخذ حيطتنا، فحبلت. انفجر أبي حين أخبرته، أراد إرسالي إلى إحدى دور الأمّهات غير المتزوّجات تلك. علمتُ أنّهم سيأخذونك منّي، ولم أكره أحداً قطّ كما كرهته في تلك اللّحظة».

تنهّدت متابعة: «لذلك لذنا بالفرار. كنت في السّادسة عشرة -أشارف على السّابعة عشرة- وكان والدك في الخامسة والعشرين. وحين جئتِ، كنّا مفلسين تماماً، ونعيش في فناء مقطورات، لكن لم يكن لأيّ من ذلك أهمية. ما قيمة المال، أو العمل، أو الملابس الجديدة، حين يكون لديك أكثر الأطفال كمالاً في العالم؟».

أسندت ظهرها وواصلت: «كان يحملك طوال الوقت، بين ذراعيه في البداية، ثمّ على كتفيه، وكنتِ تهيمين به. ابتعدنا عن العالم الخارجيّ، واعتشنا على الحبّ، لكنّ العالم عاد مزمجراً».

- «الحرب». قالت ليني.

- أومأت الأمّ: «توسّلت إلى أبيك ألّا يذهب إلى فيتنام، تشاجرنا مراراً حول ذلك. لم أرد أن أصبح زوجة جنديّ، لكنّه أراد الذّهاب، لذا وضّبت دموعي مع ملابسه وتركته يذهب. كان يُفترض ألّا يزيد غيابه عن السّنة. لم أعرف ماذا أفعل، إلى أين أذهب، كيف أحيا من دونه. نفدت نقودي، وعدت إلى منزل والديّ، لكنّني لم أستطع أن أطيق الإقامة هناك. لم نكن نفعل شيئاً سوى الشّجار، ظلّا يُلحّان عليّ أن أطلّق أباك وأفكّر فيك، حتّى غادرتُ من جديد في النّهاية. وآنذاك عثرت على الكومونة والنّاس الذين لا يطلقون الأحكام عليّ لكوني طفلة لديها طفلة، ثمّ أُسقِطت مروحيّة أبيك، وأُسر، ووصلتني رسالة واحدة منه طيلة ستّة أعوام».

كانت ليني تتذكّر الرّسالة وكم بكت أمّها بعد قراءتها.

- «حين عاد إلى الوطن، كان يبدو مثل ميت». قالت الأمّ: «لكنّه كان يحبّنا.. يحبّنا كما يحبّ الهواء.. كان يقول إنّه لا يستطيع النّوم إن لم أكن بين ذراعيه، على الرغم من أنّه لم يكن ينام كثيراً حتّى حين أكون معه».

كالعادة، اعترض قصّةَ الأمّ توقّفٌ متعثّر عند هذه النّقطة؛ انتهت الحكاية السّحريّة، صُفق باب السّاحرة على الأطفال التّائهين. الرّجُل الذي عاد من الحرب لم يكن الرّجل نفسه الذي استقلّ الطّائرة المتّجهة إلى فيتنام. «مع ذلك، حاله أفضل هنا». قالت الأمّ: «ألا تتّفقين؟ يكاد يستعيد سابق عهده».

رنت ليني إلى البحر، وكان يفرد أمواجه نحوها بلا هوادة. لا يملك المرء ردع ذلك المدّ المتعاظم مهما فعل؛ يكفيه خطأ واحد، أو سوء تقدير، ليُقذف على الشّاطئ، أو يُجرف مع المياه، ليس بوسعه إلّا أن يحمي نفسه بقراءة الخرائط والجداول والاستعداد واتّخاذ الخيارات الذّكيّة. «تعلمين أنّ الظّلام يسود هذه الأرجاء طوال ستّة أشهر في الشّتاء، وكذلك الثّلوج والصّقيع والعواصف».

- أعرف.

- لطالما قلتِ إنّ الطّقس السّيّئ يزيد من تردّي حالته.

شعرت ليني بأمّها تنفضّ عنها، تلك حقيقة كانت لا تريد مواجهتها، وكلتاهما تعلمُ لماذا. «لن يكون الأمر على هذه الحال هنا». قالت الأمّ، وهي تسحق لفافتها على الأحجار قربها. كرّرت ذلك، لمجرّد التّأكيد على الفكرة: «ليس هنا، إنّه أسعد هنا، سترين».

❄

مع مرور أيّام الصّيف الطّويلة، أخذ توجّس ليني يذوي. كان الصّيف في ألاسكا سحراً صرفاً.. أرضُ شمسِ منتصف اللّيل.. أنهار من الضّوء؛ نهار يمتدّ لثماني عشرة ساعة، يخيّم بعدها الغسق بمقدار نفَسٍ ليميّزه عن الذي يليه.

ضوء، وعمل؛ هذا هو الصّيف في ألاسكا.

كان ثمّة الكثير ممّا يتعيّن إنجازه، والجميع يتحدّث عن ذلك طوال الوقت. في طابور الانتظار عند المطعم، خلال الحساب في المخزن العامّ، على متن العبّارة المتّجهة إلى البلدة.. كيف يسير صيد السّمك؟ هل القنص جيّد؟ كيف حال الحديقة؟.. كلّ الأسئلة تدور حول التموّن بالطّعام، والاستعداد للشّتاء.

الشّتاء كان خطباً جللاً، وقد تعلّمت ليني ذلك. البرد القادم نزيلٌ دائمٌ بين السّطور هنا؛ حتّى حين تخرج لصيد السّمك في يوم صيفيّ جميل، فأنت تصطاد السّمك من أجل الشّتاء. قد يكون ذلك ممتعاً، غير أنّه عملٌ جادّ. بدا أنّ حتّى أصغر الأشياء بوسعها أن تكون عاملاً حاسماً في البقاء.

كانت تستيقظ هي ووالداها في الخامسة صباحاً، يلوكون فطورهم في غمغمة، ثمّ ينجزون أعمالهم الرّوتينيّة. يعيدون بناء حظيرة الماعز، ويقطعون الحطب، ويعتنون بالحديقة، ويصنعون الصابون، ويصطادون السلمون ويدخّنونه، ويدبغون الجلود، ويعلّبون السمك والخضراوات، ويرتُقون الجوارب، ويستخدمون الأشرطة اللاصقة لتثبيت كل شيء. كانوا ينقلون الأشياء ويجرّونها، ويدقّون المسامير فيها، ويبنونها، ويكشطونها. باعتهم لارج مارج ثلاثة رؤوس من الماعز، وتعلّمت ليني كيفيّة الاعتناء بها، كما تعلّمت قطف التّوت، وصنع المربّى، وتقشير المحار، وتحويل بيض السّلمون إلى أفضل طُعم صنّارة في العالم. في المساء، تُعدّ الأمّ أطعمةً جديدة؛ يدخل السّلمون أو الهلبوت في مكوّنات كلّ شيء تقريباً، وكذلك الخضراوات من الحديقة. وينظّف الأب أسلحته، ويُصلح الفخاخ المعدنيّة التي باعها ماد إيرل له، ويقرأ كتيّبات إرشاديّة حول ذبح الحيوانات وتقطيعها. المقايضة والمبادلة ومساعدة الجيران هي الطّريقة التي يعيش الجميع وفقها، ليس بوسع المرء أن يخمّن متى يدخل أحدهم من مدخل

أرضه ويعرض لحماً زائداً أو بعض ألواح الخشب المتفسّخة أو دلواً من التّوت الأزرق لقاء شيءٍ ما.

وكانت الحفلات تتفتّق مثل الحشائش في هذا المكان البرّيّ. يأتي النّاس محمّلين بصناديق تبريد ممتلئة بالسّلمون وصندوق جعة، فيُجرى اتّصال على جهاز اللّاسلكيّ، يرسو قاربٌ ممتلئٌ بالصّيّادين، وتحطّ طائرةٌ عوّامةٌ في الخليج، ثمّ في رفّة عين يكون النّاس قد تجمّعوا حول نار أوقِدت في مكانٍ ما على الشّاطئ، وغرقوا في الضّحك والكلام والشّرب حتّى بعد منتصف اللّيل بوقتٍ طويل.

أصبحت ليني بالغة ذلك الصّيف؛ هكذا بدا الأمر لها. وفي سبتمبر، صار عمرها أربع عشرة، وبدأت دورتها الشّهريّة، وباتت تحتاج إلى حمّالة صدر أخيراً. نتأت البثور مثل فوهات براكين ورديّة صغيرة على وجنتيها، وأنفها، وبين حاجبيها. حين حدث ذلك لأوّل مرّة، شعرت بالقلق من لقاء ماثيو، من أنّه قد يغيّر رأيه بسبب دخولها الأخرق في سنيّ المراهقة؛ لكن لم يبدُ أنه لاحظ أن بشرتها بدأت تُعاديها. ظلّت رؤيتُه الحدثَ المميّزَ في أيّامها هنا؛ كلّما سنحت لهما الفرصة للوجود معاً ذلك الصّيف، كانا يتملّصان من الجمع ليعتزلا في مكانٍ ما ويتبادلا الأحاديث. يقرأ عليها قصائد روبرت سيرفس، ويريها أشياء مميّزة، مثل عشّ ممتلئ ببيض البطّ الأزرق، أو أثر ضخم لقوائم دبّ في الرّمل، وكانت تلتقط الصّور للأشياء التي يريها إيّاها -وله هو- كلّما واتتها الفرصة، وتثبّتها بالدّبابيس على لوح كولاج عملاق يغطّي جدار غرفة نومها في العلّيّة.

انتهى الصّيف بالسّرعة التي بدأ بها، وكان الخريف في ألاسكا أقرب إلى لحظةٍ عابرةٍ، أو مرحلةٍ انتقاليّةٍ، منه إلى فصل. بدأت الأمطار تتساقط، ولم تتوقّف، فحوّلت الأرض إلى وحلٍ، وأغرقت شبه الجزيرة، منهمرةً في

غلائل رماديّة. وارتفعت الأنهار لتندلق فوق ضفافها المتفتّتة، وتقلع منها نتفاً كبيرة، مغيّرةً مسارها.

من دون سابق إنذار، كما بدا، تحوّل ورق أشجار الحور حول الكوخ إلى اللّون الذّهبيّ، وراح يتهامس في ما بينه، ثمّ تلفلف متحوّلاً إلى نايات سوداء، وتهاوى على رسله إلى الأرض في أكوامٍ من الدّانتيل المخرّم الهشّ.

بدأت المدرسة، ومعها شعرت ليني بطفولتها تعود. التقت بماثيو في الصّفّ واتّخذت مقعدها بجانبه، مقرّبة إيّاه ليلتصق بمقعده.

ابتسامته أيقظتها من جديد بطريقةٍ ذكّرتها أنّ في الحياة ما هو أكثر من العمل، لقد علّمها شيئاً جديداً عن الصّداقة: إنّها تستأنف من حيث تُترك، كأنّ الأصدقاء لم يفترقوا لحظة.

❄

في ليلةٍ باردةٍ من أواخر سبتمبر، بعد يوم عملٍ طويلٍ، وقفت ليني خلف الشّبّاك تتبحّر بنظرها في ظلام الفناء. كانت هي وأمّها منهكتين؛ لقد عملتا منذ بزوغ الشّمس حتّى غروبها، تعلّبان آخر سلمون الموسم: تحضّران المرطبانات، وتقشّران السّمك، وتشرّحان شرائط اللّحم الورديّة والفضّيّة المكتنزة، وتزيلان الجلد اللّزج. كدّستا الشّرائط في المرطبانات، ووضعتاها في طنجرة الضّغط. واحداً تلو الآخر، حملتا المرطبانات إلى المخزن الأرضيّ، وصفّتاها فوق رفوف أقيمت مؤخّراً.

- إن كان ثمّة عشرة رجال أذكياء ومعتوه واحد في غرفة، فبإمكانك تخمين من الذي سيستأثر باستلطاف أبيك من بينهم.

- «ها؟». سألت ليني.

- لا تشغلي بالك.

دخلت الأمّ لتقف بجانب ليني. في الخارج كان اللّيل قد أرخى سدله، أراق قمرٌ مكتمل ضياءه الأبيض المزرقّ فوق كلّ شيء، ورصّعت النّجوم السّماء بثقوب دبابيس ولطخات إهليلجيّة من النّور. هنا ليلاً، تكون السّماء مستحيلة الامتداد، ولا تنقلب إلى السّواد تماماً، بل تظلّ على زرقة مخمليّة غامقة. العالم تحت قبّتها يتضاءل إلى لا شيء: سكبة من ضوء النّار، انعكاس أبيض مخربَش لضياء القمر على الأمواج الكامدة.

كان الأب هناك وسط ظلام الخارج برفقة ماد إيرل. وقف الرّجُلان جنباً إلى جنب أمام نارٍ تضطرم في برميل محروقات، يتبادلان إناءً جيئة وذهاباً. تلاطم الدّخان الأسود متصاعداً من القمامة التي يحرقانها، وكان كلّ الآخرين الذين جاؤوا لتقديم العون قد عادوا إلى بيوتهم منذ ساعات.

شهرَ ماد إيرل مسدّسه على حين غرّة، وأطلق نحو الأشجار.

تعالى ضحك الأب بصخب على ذلك.

- «إلى متى سيبقيان هناك؟». سألت ليني. كانت في خروجها الأخير إلى المرحاض قد سمعت شذرات من حديثهما: تدمير البلاد... إبقاء أنفسنا في مأمن... الأناركيّة القادمة... النّوويّ...

- من يدري؟

بدت أمّها مغتاظة. كانت قد قلت شرائح لحم الموظ التي جلبها ماد إيرل معه، ثمّ حضّرت البطاطا المحمرة، وأعدّت طاولة ورق اللّعب، ووضعت عليها أطباق الرّحلات وأدوات الطّعام خاصّتهم، وقد استُخدمت إحدى روايات ليني ذات الأغلفة الورقيّة في تثبيت قائمة الطّاولة المتقلقلة.

مضى على ذلك ساعات، والآن بات اللّحم على الأغلب بجفاف جزمة عتيقة.

- «لقد طفح الكيل». قالت الأمّ في نهاية المطاف، وخرجت. انسلّت ليني نحو الباب، وفتحته كي يتسنّى لها السّماع. ندّ عن الماعز ثغاء إزاء وقع الأقدام.

- «مرحباً يا كورا». قال ماد إيرل بابتسامةٍ مفرطةٍ، وقف متضعضعاً على قدميه، ومال إلى اليمين فتعثّر.

- «أتودّ البقاء على العشاء يا إيرل؟». سألته الأمّ.

- «لا، لكن شكراً لك». أجاب مترنّحاً ميمنة وميسرة: «ستجلدني ابنتي إن لم أعد إلى المنزل، فهي تعدّ حساء السّلمون والبطاطا».

- «إلى لقاء آخر إذنْ». قالت الأمّ واستدارت عائدة إلى الكوخ: «هيّا يا إيرنت، ليني تتضوّر جوعاً».

تمايل ماد إيرل في طريقه نحو شاحنته، ثمّ تسلّق وقادها مبتعداً، بين وقوف وإقلاع وإطلاق للنّفير.

سلك الأب طريقه عبر الفناء على نحوٍ متبخترٍ ومفرطٍ في الحرص وشى بسُكْره، لقد سبق لليني أن رأت ذلك. صفق الباب خلفه، وتعثّر نحو الطّاولة، ليهوي فوق كرسيّه في نصف سقوط.

دخلت الأمّ حاملة طبقاً كبيراً فوقه اللّحم، والبطاطا المحمّرة بالفرن، ورغيف دافئ من خبز العجين المتخمّر، الذي كانت ثيلما قد علّمتهم صنعه من المكوّنات التي لا يستغني عنها أيّ صاحب ملكيّة ينتهج الاكتفاء الذّاتيّ.

- «يبـ... ـدو شهياً». قال الأب، وهو يستخدم الشّوكة لنقل لقمة لحم الموظ إلى فمه، ثمّ يمضغ بصخب. رفع عينين عمشاوين: «أمامكما الكثير ممّا عليكما استدراكه، أنا وإيرل كنّا نتحدث عن هذا. عندما تخرج الأمور عن السيطرة، أنتما ستكونان أوّل الضّحايا».

- «"عندما تخرج الأمور عن السيطرة"؟ ما الذي تتحدّث عنه حبّاً بالله؟». قالت الأمّ.

رمقت ليني أمّها بنظرةٍ تحذيريّةٍ؛ يفترض بالأمّ أن تكون أوعى من أن تردّ على أيّ شيء حين يكون مخموراً.

- «حين تبلغ الأمور ذروتها. كما تعلمين؛ أحكام عرفيّة، قنبلة نوويّة، أو جائحة وبائيّة». قسَم قطعة من الخبز، وغطّسها في مرق اللّحم.

أرجعت الأمّ ظهرها، أشعلت لفافة تبغ، وهي لا ترفع عينها عنه.

- «إيّاكِ يا ماما». قالت ليني في سرّها: «لا تقولي أيّ شيء».

- «كلّ هذه الخطابات حول نهاية العالم لا تروق لي يا إيرنت، وعلينا أخذ ليني بعين الاعتبار، إنّها...».

خبط الأب قبضته على الطّاولة بشدّة هزّت كلّ شيء فوقها. «اللّعنة يا كورا، ألا يمكنك الاكتفاء بمساندتي على الإطلاق؟».

نهض على قدميه، وذهب إلى صفّ معاطف الفراء المقلنسة المعلّقة عند الباب الأماميّ. كانت حركته مرتعشة، وظنّت أنّها سمعته يقول: «اللّعنة على الغباء»، ويدمدم بشيء آخر. هزّ رأسه وقبّض يديه، ثمّ أرخاهما. رأت ليني جموحاً فيه، انفعالاً بالكاد يحتويه يتصاعد بقوّة وسرعة.

ركضت الأمّ خلفه، ومدّت يدها.

- «لا تلمسيني». زمجر وهو يدفعها عنه.

أخذ إحدى السّترات، ووضع قدميه في جزمته وخرج، صافقاً الباب بقوّة خلفه.

التقت عينا ليني بتحديقة أمّها، فثبّتتهما عليها. في تينك العينين الزّرقاوين الواسعتين اللّتين تعلق بهما أدقّ التّعابير، رأت قلقها ينعكس.

- أيُصدّق هو كلّ هذا الكلام حول نهاية العالم؟

- «أظنّه يفعل». أجابت الأمّ: «أو لعلّه يريد أن يصدّق وحسب، من يدري؟ لكنّ هذا لا يهمّ، إنّه مجرّد كلام».

ليني تعرف ما يهمّ.

كانت حالة الطّقس تزداد سوءاً.

وكذلك حالته هو.

❄

- «**كيف يكون بحقّ؟**». سألت ليني ماثيو في اليوم التّالي عند نهاية الدّوام، وكان الأولاد حولهم يجمعون أغراضهم ليعودوا إلى منازلهم.

- ما هو؟

- الشّتاء.

- فكّر ماثيو في الأمر: «فظيع وجميل! إنّه الطّريقة التي تعرفين من خلالها إن كنتِ قد خُلقتِ لتكوني ألاسكيّة، فمعظمهم يعودون جرياً إلى الخارج قبل انتهائه».

- «العزلة الهائلة». قالت ليني؛ هكذا كان روبرت سيرفس يسمّي ألاسكا.

- «ستتدبّرين أمرك». قال ماثيو بجدّيّة.

أومأت، وتمنّت لو باستطاعتها إخباره أنّها بدأت تقلق بشأن الأخطار داخل منزلها مثل قلقها تجاه خارجه.

كان بوسعها أن تُسِرّ إلى ماثيو بأشياء كثيرة، لكن ليس هذا. بوسعها أن تقول إنّ والدها يفرط في الشّرب، أو إنّه يصرخ، أو يفقد أعصابه، لكن

لا يمكنها التّحدّث عن أنّه يخيفها أحياناً. يستحيل أن تُقدم على خيانة من هذه الشّاكلة.

خرجا من مبنى المدرسة معاً، يسيران كتفاً إلى كتف.

في الخارج، كانت حافلة الفولكس فاغن تنتظرها. بدت رديئة المظهر في الآونة الأخيرة، تغطّيها الخدوش والانبعاجات؛ المِصدّ مثبّت في مكانه بالشّريط اللّاصق، وقد سقط كاتم الصّوت بسبب أحد الأخاديد فباتت هذه الخردة العتيقة المسكينة تجأر مثل سيّارة سباق. والداها كلاهما في الدّاخل، ينتظرانها.

- «إلى اللّقاء». قالتليني لماثيو، واتّجهت إلى المركبة. رمت حقيبة ظهرها داخل القسم الخلفيّ من الحافلة وتسلّقت: «مرحباً يا رفاق». قالت.

دفع الأب الحافلة إلى وضعيّة السّير المعاكس، ورجع بها، ثمّ استدار.

- «يريد ماد إيرل منّي أن أعلّم عائلته بضعة أشياء». قال الأب ملتحقاً بالطّريق الرّئيسيّ: «تحدّثنا في ذلك تلك اللّيلة».

وخلال وقتٍ قصيرٍ أصبحوا خارج البلدة يسلكون الطّريق الصّاعد، ثمّ يركنون في المجمّع. كان الأب أوّل الخارجين من الحافلة، أخذ بندقيّته من خلف مقعده، وعلّقها على كتفه.

همّ ماد إيرل، الجالس على مصطبته، من فوره بالنّهوض، ولوّح بيده. صاح بشيء لم تستطع ليني سماعه، فتوقّف النّاس عن العمل؛ تركوا معاولهم، وفؤوسهم، ومناشيرهم الآليّة، واتّجهوا إلى الفسحة وسط المجمّع.

فتحت الأمّ الباب وخرجت، فتبعتها ليني عن كثب، وراحت جزمتها المدبّبة تغوص في الأرض الإسفنجيّة الخضِلة.

ركنت شاحنةُ فورد مبعوجة قرب الفولكس فاغن، وخرج منها آكسل والفتاتان، أغنيس ومارث، متّجهين نحو الحشد المتجمّع أمام مصطبة ماد إيرل.

وقف ماد إيرل على المصطبة المائلة المتآكلة، وساقاه المقوّستان منفرجتان أكثر بقليل ممّا يبدو مريحاً. تدلّى شعره الأبيض المرتخي حول وجهه المترهل، كان شعره دهنيّاً عند جذوره، ومجعّداً عند الأطراف. وكان يرتدي بنطال جينز متّسخاً أقحمه داخل جزمة مطّاطيّة بنّيّة، وقميص عمل من الفلانيل ليس في أيّام عزّه. حرّك يديه حركةً واسعة: «اقتربوا، هيّا. إيرنت، إيرنت، تعال بقُربي يا بنيّ».

سرى بين الحشد لغطٌ هامسٌ، والتفتت الرّؤوس.

مشى الأب بخطواتٍ واسعةٍ، مارّاً بثيلما وتيد، وابتسم لكلايد ولكمه على ظهره حين وصل إليه، ثمّ اعتلى المصطبة، ووقف بجانب ماد إيرل. بدا طويلاً مديد القامة قرب العجوز الضّئيل، فائقَ الوسامة بشعره الأسود وشاربه الأسود الكثّ.

- «كنّا نتحدّث ليلة أمس -نحن الاثنين- عن الفوضى التي تدور في الخارج». قال ماد إيرل: «رئيسنا محتالٌ برُخصة، وقد فجّرت قنبلة طائرةً تابعةً لشركة تي دبليو إيه في كبد السّماء. لم يعد أحدٌ في مأمن بعد الآن».

التفتت ليني ونظرت إلى أمّها، فرفعت الأخيرة كتفيها.

- «لقد كان ابني، بو، أفضلنا أجمعين. كان يحبّ ألاسكا، ويحبّ الولايات المتّحدة القديمة الطّيّبة، بما يكفي كي يتطوّع للقتال في تلك الحرب اللّعينة، وخسرناه، لكنّه حتّى في حفرة الجحيم تلك، كان يفكّر فينا.. في عائلته.. كانت سلامتنا وأمننا يهمّانه؛ لذا أرسل إلينا صديقه،

إيرنت أولبرايت، ليصير واحداً منّا». لكم ماد إيرل الأبَ على ظهره كأنّه يدفعه إلى الأمام: «كنت أراقب إيرنت طوال الصّيف، وبتّ موقناً الآن أنّه يريد الأفضل لنا».

أخرج الأب جريدةً مطويّةً من جيبه الخلفيّ ورفعها، كان العنوان الرّئيسيّ يقول: قنبلة على متن رحلة خطوط تي دبليو إيه رقم 148 تودي بحياة 88 شخصاً. «لعلّنا نعيش في الأحراش، لكنّنا نذهب إلى هومر، وستيرلينغ، وسولدوتنا. نحن نعلم ما يحدث في الخارج؛ تفجيرات ينفّذها الجيش الجمهوريّ الأيرلنديّ، ومنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، والويذرمان، اقتتال بين الأهالي، عمليّات خطف. كلّ أولئك الفتيات اللّاتي يختفين في ولاية واشنطن، والآن هناك من يقتل الفتيات في يوتا.. جيش التّحرير التّكافليّ.. الهند تختبر قنابل نوويّة.. ليست هي إلّا مسألة وقت قبل أن تندلع الحرب العالميّة الثّالثة، قد تكون نوويّة.. أو جرثوميّة.. وحين يحدث ذلك ستخرج الأمور عن السيطرة حقّاً».

أومأ ماد إيرل بدمدمة موافقة.

– «ماما..». همستليني: «هل كلّ هذا صحيح؟».

أشعلت الأمّ لفافة تبغ: «يمكن للأشياء أن تكون صحيحة من دون أن تجسّد الحقيقة. والآن اصمتي، لا نريد إثارة غضبه».

كان الأب مَركز الاهتمام، وعاش الدّور كاملاً. «لقد أبليتم بلاءً حسناً جميعكم في التّحضير لمواسم الشّحّ، وبرعتم في نهج الاكتفاء الذّاتيّ. لديكم منظومة تجميع مياه ومخازن طعام جيّدة، وضعتم يدكم على منابع مياه عذبة، كما أنّكم صيّادون متمرّسون. يمكن لحدائقكم أن تكون أكبر، لكنّها تحظى بعنايةٍ جيّدة. أنتم جاهزون للنّجاة من أيّ شيء، ما عدا آثار الأحكام العرفيّة».

- «ماذا تقصد؟». سأله تيد.

بدا الأب... مختلفاً على نحوٍ ما؛ أطول، كتفاه أكثر ارتفاعاً وتربّعاً من أيّ وقت رأتهما فيه. «حرب نوويّة.. وباء.. نبضة كهرومغناطيسيّة.. زلزال.. موجة مدّيّة.. إعصار.. ثوران بركان ريداوت، أو بركان رينر.. في عام 1908، حدث انفجار في سيبيريا كان أقوى ألف مرّة من القنبلة التي ألقيت على هيروشيما. هنالك مليون طريقة يمكن لهذا العالم السّقيم الفاسد أن ينتهي بها».

عبست ثيلما: «أوه، بحقّك يا إيرنت، لا داعي لإخافة...».

- «صهٍ يا ثيلما». قاطعها ماد إيرل بعنف.

- «أيّاً كان ما سيأتي، مأساة من صنع البشر أم كارثة طبيعيّة، فأوّل ما يحدث هو انهيار القانون والنّظام». تابع الأب: «فكّروا في هذا: لا كهرباء، لا اتّصالات، لا مخازن بقالة، لا طعام نظيف، لا ماء، لا حضارة.. أحكام عرفيّة».

توقّف الأب قليلاً، ونقّل عينيه بين العيون، اثنتين اثنتين: «أمثال توم ووكر، بمنزله الكبير، وقواربه باهظة الأثمان، وحفّارته، سيؤخذون على حين غرّة. ماذا ستجديه كلّ تلك الأرض والثّروة نفعاً حين ينفد طعامه ومؤونته الطّبّيّة؟ لا شيء. أتعلمون ماذا سيحدث حين يُدرك من على شاكلة توم ووكر أنّهم غير مجهّزين؟».

- «ماذا؟». رفع ماد إيرل ناظريه محملقاً إلى الأب كأنّه رأى الإله توّاً.

- «سيأتي إلى هنا، ويقرع أبوابنا، متوسّلاً العون منّا نحن الّذين يظنّ نفسه أفضل منهم»، توقّف قليلاً ثمّ تابع: «علينا أن نعرف كيف نحمي أنفسنا، وندحر المُغِيرين والنّاهبين الذين سيريدون ما لدينا. قبل كلّ شيء،

علينا أن نجمع حقائب ضروريّات -حقائب تكون موضّبةً مسبقاً من أجل النّجاة- علينا أن نكون قادرين على الاختفاء من دون إشعارٍ مسبقٍ عند الحاجة، مع كلّ شيء يلزمنا».

- «أجل!». هتف أحدهم.

- لكنّ هذا غير كافٍ. في حوزتنا ما يوفّر بدايةً جيّدةً هنا، لكنّ الأمن متزعزع. أظنّ أنّ بو ترك لي أرضه كي أجد طريقي إلى هنا، إليكم، وأعلّمكم أنّه من غير الكافي أن تتهيّؤوا للنّجاة، عليكم القتال من أجل ما هو لكم. اقتلوا أيّ أحد يأتي ليأخذه منكم. أعرف أنّكم جميعاً صيّادون، لكنّنا سنحتاج إلى ما هو أكثر من البنادق عندما تخرج الأمور عن السيطرة. العصيّ والهراوات تكسر العظام، والسّكاكين تقطع الشّرايين، والسّهام تثقب وتخترق. قبل تساقط الثّلج الأوّل، أعدكم سيكون كلّ واحد منّا مهيّأً للأسوأ، كلّ شخص منكم بشخصه -من أصغركم إلى أكبركم- سيكون قادراً على حماية نفسه وعائلته من الخطر القادم.

أومأ ماد إيرل.

- إذنْ، فلتصطفّوا جميعاً، أريد أن أُجري تقييماً دقيقاً لمهارة كلّ منكم في استخدام البندقيّة. سنبدأ من هذه النّقطة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

❄ 8 ❄

بحلول مطلع نوفمبر، أخذ النّهار يقصر بسرعة، وشعرت ليني بقيمة كلّ لحظة ضوء تضيع. الفجر يجيء على مضض عند التّاسعة صباحاً، ويستردّ اللّيلُ العالمَ في نحو الخامسة مساءً. بالكاد ثمّة ثماني ساعات من ضوء النّهار الآن، مقابل ستّ عشرة ساعة من الظّلام. اللّيل يجتاح، فلا يشبه أيّ شيء سبق لليني أن رأته، مثل ظلٍّ مجنّحٍ لمخلوق أكبر حجماً وأشدّ افتراساً من أن يجري استيعابه.

بات التّنبّؤ بالطّقس مستحيلاً: لقد أمطرت، وأثلجت، وأمطرت من جديد، والآن سماء آخر الأصيل تبصق عليهم مزيجاً مجمّداً من البرَد والمطر. روّمَ الماء في برك على الأرض، تحوّلت إلى صفحاتٍ من الجليد المتّسخ ترصّعه الحشائش، وتعيّن على ليني إتمام مهامّها الرّوتينيّة وسط القذارة والوحل؛ فبعد عَلْف الماعز والدّجاج، مشت مجهَدةً إلى الدّغل خلف المنزل، حاملةً دلوين فارغين. كانت أشجار الحور عارية؛ حوّلها الخريف إلى هياكل جرداء. جرى إيواء كلّ شيء في مكان ما خلال رفّة عين، محاولةً للفرار من البرَد والمطر.

وبينما كانت تسير نحو النّهر، راحت ريحٌ باردةٌ تشدّ لها شعرها، وتعوي في أنحاء سترتها، فحدّبت كتفيها، وأبقت رأسها منخفضاً.

تطلّب الأمر منها خمس نقلات لملء برميل الماء الفولاذيّ الذي يبقونه جانب المنزل. كان المطر يساعد في ذلك، لكن ليس من الممكن الاعتماد عليه؛ فالماء -مثل الحطب- لا يمكن تركه للمصادفة.

كانت تتفصّد عرقاً، وتغرف دلواً من الجدول لتدلقه فوق جزمتها، حين حطّ اللّيل. تقصد أنّه حطّ حرفيّاً؛ إذْ سقط بشدّة وبسرعة، مثل غطاء تُرك يهوي فوق قِدره.

حين التفتت ليني نحو البيت، رأت امتداداً لا ينتهي من السّواد. لا يمكن تمييز شيء، لا نجوم في الأعلى، ولا قمر يضيء الطّريق.

نقّبت في جيب معطفها بحثاً عن مصباح الرّأس الذي أعطاها إيّاه والدها. عدّلت حزامه، ووضعته على رأسها، ثمّ ضغطت زرّ الضّوء، وسحبت مسدّساً من قرابه المدسوس في حزامها.

كان قلبها يطرق في صدرها، وهي تنحني لترفع الدّلوين اللّذين ملأتهما بالماء، وحفرت مسكتاهما المعدنيّتان في يديها المكسوّتين بقفّازين.

انقلب المطر الجليديّ ندفَ ثلج، فقرص وجنتيها وجبهتها.

الشّتاء.

لم تدخل الدّببة في سباتها بعد، أليس كذلك؟ إنّها الآن أخطر ما يكون، فهي تتغذّى بنهم قبل أن تخلد إلى النّوم.

رأت عينين صفراوين تحدّقان بها من الظّلام.

لا، هذا من نسج خيالها.

تغيّرت الأرض تحتها، انفسحت قليلاً. تعثّرت، وطفّ الماء من الدّلوين فبلّل قفّازيها. لا تُصابي بالذّعر، لا تُصابي بالذّعر، لا تُصابي بالذّعر.

كشف مصباح رأسها عن جذع شجرةٍ ساقط أمامها، فتجاوزته بأنفاسٍ

متثاقلةٍ، وسمعت صرخة احتكاك اللّحاء ببنطالها الجينز، واستمرّت في المشي؛ صعدت تلّة، ثمّ نزلت عن أخرى، والتفّت حول أيكةٍ كثيفةٍ سوداء. وأخيراً، رأت وميضاً في الأعلى.

ضوء.

الكوخ.

أرادت أن تركض.. كانت تتوق إلى بلوغ البيت، إلى تحسّس ذراعي أمّها حولها، لكنّها لم تكن غبيّة. لقد سبق أن اقترفت خطأً واحداً أصلاً؛ لم ترصد مرور الوقت.

لدى اقترابها من الكوخ، انكشف اللّيل قليلاً. رأت معالمَ خطوط فحميّة على خلفيّة السّواد: بريق مدخنة المدفأة تبرز من السّقف، نافذة جانبيّة ممتلئة بالضّوء، ظلال الأشخاص في الدّاخل. غزت الهواءَ روائحُ دخان الخشب والتّرحاب.

هرعت ليني نحو جانب الكوخ، رفعت غطاء البرميل المرتجَل، وصبّت فيه ما كان قد تبقّى من مائها. جزء الثّانية الذي فصل بين قلبِها للدّلو وصوت خضخضة الماء أعلمها أنّ البرميل ممتلئ حتّى ثلاثة أرباعه.

كانت ليني ترتجف بشدّةٍ جعلت فكّ رتاج الباب يتطلّب منها محاولتين.

- «لقد عدت». قالت، وهي تخطو إلى داخل الكوخ، وكان جسدها كلّه يرتعد.

- «اخرسي يا ليني». صاح أبوها بعنف.

أمّها تقف أمام أبيها؛ كان مظهرها متقلقلاً، ترتدي بنطال بيجاما بالياً، وكنزة سميكة. «أهلاً بك يا فتاتي الصّغيرة». قالت: «علّقي معطفك وانزعي جزمتك».

- «أنا أتحدّث إليك يا كورا». قال الأب.

ميّزت ليني الغضب في صوته، ورأت أمّها تجفل.

- عليكِ أن تُرجعي الأرزّ، أخبري لارج مارج أنّنا لا نستطيع دفع ثمنه، والبسكويت القاسي ومسحوق الحليب كذلك.

- «لكن... أنت لم تحصل على موظ بعد». قالت الأمّ: «نحتاج...».

- «الذّنب ذنبي بأكمله، أليس كذلك؟». صاح الأب.

- ليس هذا ما قصدتُه، وتعلم ذلك. لكنّ الشّتاء يقترب منّا متوعّداً، نحتاج إلى طعامٍ أكثر ممّا لدينا، كما أنّ نقودنا...

- «أتظنّينني لا أعرف أنّنا بحاجة إلى النّقود؟». دفع الكرسيّ الذي أمامه بعنف، فسقط بجلبةٍ على الأرضيّة.

بثّ الاتّساع المفاجئ لعينيه وبروز بياضهما الخوف في ليني، فتراجعت مقدار خطوة إلى الخلف.

اتّجهت أمّها إليه، ولمست وجهه محاولةً تهدئة روعه: «إيرنت، عزيزي، سنجد حلّاً».

انفضّ عنها وانطلق نحو الباب. جذب معطفه المقلنس من مكانه على العلّاقة قرب النّافذة، وفتح الباب بعنفٍ مفسحاً الطّريق للبرد الجائح، ثمّ خبطه وراءه. وبعد لحظة، دبّت الحياة على شكل هدير في محرّك حافلة الفولكس فاغن، فاخترق ضوء مصابيحها الأماميّة النّافذة محوّلاً الأمّ إلى لونٍ أبيض ذهبيّ.

- «إنّه الطّقس». قالت الأمّ، وهي تشعل لفافة، وتشاهده يقود مبتعداً. بدت بشرتها الجميلة شاحبة في وهج المصابيح الأماميّة، وتكاد تكون من شمع.

- «سيزداد سوءاً». قالت ليني: «كلّ يوم أشدّ ظلاماً وبرداً من سابقه».

- «أجل». قالت الأمّ بملامح اعتلاها الخوف نفسه الذي شعرت ليني فجأةً به: «أعرف ذلك».

❄

ضيّق الشّتاء قبضته على ألاسكا. تضاءلت حدود الطّبيعة الشّاسعة لتنحصر في كوخهم، وكانت الشّمس تشرق في العاشرة والرّبع صباحاً، وتغرب بعد نهاية اليوم الدّراسيّ بخمس عشرة دقيقة فقط؛ أقلّ من ستّ ساعات من الضّوء في اليوم. تساقط الثّلج من دون توقّف، وغطّى كلّ شيء بدثاره. كان يتراكم، وينجرف، ويغزل دانتيله المخرّم على زجاج النّوافذ، فلا يترك لهم شيئاً يرونه سوى أنفسهم. خلال ساعات ضوء النّهار القليلة، تمتدّ السّماء رماديّة في الأعالي؛ وفي بعض الأيّام تحلّ ذكرى الضّوء فقط محلّ أيّ وهج حقيقيّ. صقلت الرّيح البراري، وكانت تصرخ كأنّها تتألّم. تجمّد الحطب، وعلق كلّ شيء في مكانه: تجمّدت أبواب السّيّارات، وتصدّعت النّوافذ، وأبت المحرّكات أن تدور. غصّ اللّاسلكيّ بإنذارات حول الطّقس السّيّئ وقوائم الوفيات التي كانت شائعة في شتاء ألاسكا مثل تجمّد الرّموش. النّاس يموتون بأبسط الأخطاء: مفاتيح سيّارات تسقط في نهر، خزّان وقود يفرغ، عربة ثلج آليّة تتعطّل، دخول منعطف بسرعة أكبر من اللّازم. لم يكن بمقدور ليني أن تذهب إلى أيّ مكان أو تفعل أيّ شيء من دون تحذير. بات الشّتاء يبدو كأنّه موجود منذ بدء الخليقة؛ حجب جليد الشّطآن خطّ السّاحل، وصقل الأصداف والحجارة حتّى بدا الشّاطئ أشبه بياقة مزيّنة بالتّرتر الفضّيّ. كانت الرّيح تزمجر في أنحاء المُلكيّة، كما فعلت طوال الشّتاء، وتغيّر شكل الطّبيعة البيضاء مع كلّ نفَس. احتشدت الأشجار في مواجهتها، بَنَت الحيوانات أوكاراً، وحفرت جحوراً اختبأت

داخلها. لم تكن تختلف بذلك كثيراً عن البشر، الذين همدوا ولزموا أماكنهم في هذا البرد يتّخذون إجراءات حيطة خاصّة.

صارت حدود حياة ليني أضيق من أيّ وقت مضى. في الأيّام الجيّدة، حين تعمل الحافلة ويكون الطّقس محتملاً، تكون ثمّة المدرسة؛ أمّا في الأيّام السّيّئة، فليس هناك سوى العمل الذي ينبغي إنجازه في هذا البرد القاسي المفسد للأخلاق. ركّزت ليني على ما يتعيّن فعله: الذّهاب إلى المدرسة، إنجاز الفروض، إطعام الحيوانات، حمل الماء، تكسير الجليد، رتق الجوارب، إصلاح الملابس، الطّهو مع أمّها، تنظيف الكوخ، تلقيم مدفأة الحطب. كلّ يوم يتوجّب قطع المزيد والمزيد من الخشب، ونقله، وتكديسه. لم يكن ثمّة وقت في هذه الأيّام القصيرة للتّفكير في أيّ شيء خارج إطار آليّات البقاء؛ كانوا يزرعون براعم الخضراوات الأولى في أكواب ديكسي الورقيّة على طاولة تحت العلّيّة، وحتّى التّدريب على مهارات البقاء في مجمّع هارلان خلال عطلات الأسبوع قد عُلّق.

العزلة التي سببها الطّقس كانت أسوأ من الطّقس نفسه.

وفيما راح الشّتاء يقشّر حياتهم، تُرك آل أولبرايت وحدهم ليس لهم إلّا بعضهم. كانوا يقضون كلّ الأمسيات معاً، ساعات وساعات من اللّيل، متحلّقين حول مدفأة الحطب.

كلّهم على حافّة أعصابهم؛ تثور المشادّات بين والديها على المال، على الأعمال الرّوتينيّة، على الطّقس.. على لا شيء...

كانت ليني تعلم كم يشعر والدها بالقلق بشأن مؤنهم غير الكافية، وانعدام المال لديهم؛ رأت كيف يتآكل من التّفكير، رأت كذلك كيف تراقبه أمّها عن كثب، وكم يقلقها قلقه المتصاعد.

كان عناؤه للحفاظ على هدوئه يتبدّى في تقلّصات وجهه المتكرّرة، وطريقة تلافيه النّظر إليهما في بعض الأحيان؛ يستيقظ قبل الفجر بكثير، ويعمل في الخارج ما استطاع، ليرجع بعد حلول الظّلام بوقتٍ طويلٍ، وقد غطّاه الثّلج، شاربه وحاجباه متجمّدان، وأرنبة أنفه مبيضّة.

كان الجهد الذي يبذله لضبط أعصابه ظاهراً للعيان على الدّوام. ومع تقاصر النّهار وتطاول اللّيل، بدأ يذرع المكان بعد العشاء، ويهتاج مدمدماً لنفسه. في تلك اللّيالي السّيّئة، يأخذ الفخاخ التي علّمه ماد إيرل كيفيّة استخدامها، ويذهب لنصبها في أعماق الغابة وحيداً، ثمّ يعود منهكاً مضنى الهيئة.. هادئاً.. يشبه نفسه.. وفي أغلب الأوقات، يعود إلى المنزل وقد نجح في الصيد، يحمل فراء ثعلب، أو سمّور، يبيعها في البلدة. كان يجني مالاً يكفي ليقيم أودهم لا غير؛ لكن حتّى ليني انتبهت إلى الرّفوف الخاوية في مخزنهم الأرضيّ، ولم تكن الوجبات تكفيهم ليشعروا بالشّبع. نفد المال الذي استدانته الأمّ من الجدّة منذ وقتٍ طويلٍ، ولم يكن ثمّة ما يحلّ محلّه؛ لذا توقّفت ليني عن التقاط الصّور، وكانت أمّها بالكاد تدخّن، وعمدت لارج مارج أحياناً إلى إعطائهما السّجائر والأفلام مجّاناً –على غفلة من الأب– لكنّهما ما كانتا تذهبان إلى البلدة كثيراً.

كانت نيّات الأب طيّبة، لكن على الرغم من ذلك، بدا العيش معه أشبه بمعايشة حيوان برّيّ، مثل أولئك الهيبّيّين المجانين الذين يتحدّث الألاسكيّون عنهم ويقولون إنّهم يعيشون مع الذّئاب والدّببة فينتهي بهم الأمر إلى الموت قتلاً لا محالة. قد يبدو الكائن المفترس بالفطرة مدجّناً، بل أليفاً أيضاً، قد يلعق عنقك بحنان، أو يتمسّح بك كي تحكّ له ظهره، لكنّك تعلم –أو ينبغي أن تعلم– أنّه شيء برّيّ جامح تعيش معه، وأنّه ربّما يكون من شأن الطّوق، والحبل، وزبديّة الطّعام، ترويض تصرّفات

الوحش، لكنّها لا تستطيع تغيير الطّبيعة التي جُبل عليها. في جزء من الثّانية، أقلّ ممّا تحتاج إليه كي تزفر نفَسَك، يمكن للذّئب أن يستردّ فطرته، ويكشّر عن أنيابه.

كان من المرهق القلق طيلة الوقت، تمحيص كلّ حركة يأتي بها الأب ونبرة تعتري صوته.

وقد أنهك الأمر الأمّ بجلاء، سحب القلق نور عينيها ووهج بشرتها، أو لعلّ الشّحوب كان نتيجة العيش مثل فطر عشّ الغراب.

وفي يوم اشتدّ برده أكثر من غيره في أواخر نوفمبر، استيقظت ليني على صوت صراخ، وشيء يتحطّم على الأرضيّة.

علمت من فورها ما كان يحدث؛ كابوس راود أباها، الثّالث هذا الأسبوع.

زحفت خارجةً من كيس نومها إلى حافّة العلّيّة، استرقت النّظر إلى أسفل. كانت أمّها واقفة عند باب غرفة نومهما المزيّن بالخرز، تحمل قنديلاً وترفعه عالياً. بدت خائفة في وهج القنديل، شعرها غارق في الفوضى، وترتدي بنطال بيجاما وكنزة. بدت مدفأة الحطب نقطة من اللّون البرتقاليّ في الظّلام.

كان أبوها أشبه بحيوانٍ جامحٍ لا يُكبح: يدفع، ويمزّق، ويزمجر، ويتفوّه بكلمات لم تستطع فهمها... ثمّ أخذ يفضّ الصّناديق بعنف، باحثاً عن شيء ما. اقتربت أمّها منه بحذر، ووضعت يدها على ظهره. دفعها عنه بشدّة جعلتها ترتطم بالجدار الخشبيّ، وصاح.

توقّف الأب وانتصب واقفاً، كان منخراه يتوسّعان متوهّجين، يقبض يمناه ويبسطها. وحين رأى الأمّ تغيّر كلّ شيء؛ استدارت كتفاه، وتدلّى

رأسه خزياً. «ربّاه يا كورا». همس بانكسار: «أنا آسف، لم... لم أكن أعرف أين أنا».

- «أعلم». قالت، والدّمع يتلألأ في عينيها.

ذهب إليها وطوّقها بذراعيه، حضنها وجثوا معاً على ركبهما، وتلامست جبهتاهما. سمعتهما ليني يتحدّثان، بيد أنّها لم تستطع تبيّن الكلمات.

عادت إلى كيس نومها وحاولت أن ترجع إلى النّوم.

❄

- ليني! انهضي. سنذهب إلى الصّيد، عليّ أن أخرج من المنزل اللّعين.

أفلتت تنهيدة، وارتدت ملابسها في الظّلام. في الأشهر الأولى من هذا الشّتاء الألاسكيّ، كانت قد تعلّمت العيش كإحدى تلك اللّافقاريّات ذات الوميض الفوسفوريّ التي تجوب قاع البحر، من دون أن يمسّ حيواتها أيّ ضوء أو لون عدا ما تولّده بنفسها.

في غرفة المعيشة، عرضت مدفأة الحطب ضوءاً من خلال نافذةٍ ضيّقةٍ في بابها المعدنيّ الأسود. استطاعت أن تترسّم ظلال والديها يقفان قربها، وأن تسمع تنفّسهما. قرقرت القهوة في ركوة معدنيّة فوق المدفأة، ونفخت شذاها المرحّب في قلب الظّلام.

أوقد الأب قنديلاً ورفعه، فبدا مضنىً في وهجه البرتقاليّ، وظهر عليه الضّيق الشّديد. راح تقبّضٌ لا إراديّ يلعب بزاوية عينه اليمنى: «هل أنتما مستعدّتان؟».

بدت الأمّ مرهقة، وعلى الرغم من معطفها المبطّن بالفراء، وبنطالها ذي الطّبقة العازلة، بدت أكثر هشاشة من أن تتحمّل الطّقس، وأكثر تعباً من أن تسير مسافة طويلة. خلال أسبوع من الكوابيس المتصاعدة وصراخ منتصف اللّيل، لم تكن تحظى بنوم كافٍ.

- «بالتّأكيد». أجابت الأمّ: «أحبّ أن أذهب للصّيد في السّادسة من صباح يوم أحد».

ذهبت ليني إلى العلّاقات على الحائط، وأخذت المعطف الرّماديّ والبنطال ذا الطّبقة العازلة اللّذَيْن عثرت عليهما في متجر جيش الخلاص في هومر الشّهر الماضي، وجزمة الأرنب(*) المستعملة التي كان ماثيو قد أعطاها إيّاها، وأخرجت قفّازين مبطّنين من جيبي معطفها.

- «جيّد». قال الأب: «هيّا بنا».

كان عالم ما قبل الفجر الذي يحيط بهم ساكناً؛ ما من ريح، ولا أغصان تتقصّف، لا شيء سوى الثّلج المتناثر الذي يتساقط بلا توقّف، والبياض المتراكم في كلّ مكان. خطت ليني بجهد في الثّلج نحو الحظائر؛ وقف المعز ملتمّاً على بعضه، وراح يثغو لدى وصولها، ويتدافع متصادماً. ألقت إليه برزمة شعير، ثمّ أطعمت الدّجاج وكسرت الجليد المتشكّل في حوض مائه.

حين وصلت إلى حافلة الفولكس فاغن، كانت أمّها قد أصبحت في الدّاخل. تسلّقت ليني إلى المقعد الخلفيّ. في هذا البرد، استغرقت الحافلة وقتاً طويلاً كي تدور ووقتاً أطول كي يزول الصّقيع عن نوافذها. لم تكن المركبة نافعة في هذا المكان من العالم، وقد تعلّموا ذلك بالطّريقة الصّعبة. وضع الأب سلاسل جنزير على العجلات، وألقى حقيبة معدّات بين المقعدين الأماميّين. جلست ليني في الخلف، عاقدةً ذراعيها ترتعد، ويأخذها الوسن من حين إلى آخر، ثمّ تستيقظ.

(*) جزمة الأرنب: اسم شعبيّ يُطلق على نوع من الجزم المطّاطيّة يُنتعل عند البرد الشّديد درج استخدامه لدى الجيش الأمريكيّ، وتتميّز بانتفاخها وحجمها الّذي يعطي القدمين حجماً كبيراً، يُقال إنّ تسميتها جاءت تشبيهاً بشخصيّة باغز باني الكرتونيّة، وهو أرنب ذو قدمين كبيرتين. (المترجم)

على الطّريق الرّئيسيّ، أخذ الأب يمينه نحو البلدة، لكنّه انعطف يساراً قبل مدرج الطّائرات على الطّريق المفضي إلى منجم الكروم المهجور. قطعوا أميالاً فوق الثّلج المرصوص، وكان الطّريق سلسلة من التّعرّجات الحادّة التي بدت قد نُحتت في سفح الجبل. وفي أعماق الغابة، على نقطة مرتفعة من الجبل، ركن الحافلة فجأة بصرير ندّ عن المكابح، وناول كلّاً منهما مصباح رأس وبندقيّة رشّ قبل أن يرفع حقيبة ثقيلة ويفتح بابه.

انسلّت الرّيح والثّلج والبرد إلى داخل الحافلة؛ الحرارة هنا لا تعلو على الصّفر بكثير دون شكّ.

ثبّتت المصباح على رأسها وعدّلت حزامه، ثمّ أشعلت الضّوء فقدّم حزمة نحيلة ساطعة من النّور أمامها مباشرةً.

ما من نجوم، ولا ضوء نجوم. الثّلج يتساقط بشدّة وسرعة. سواد قاتم ممتدّ يملؤه همس الأشجار والمفترسات الكامنة المختبئة.

تقدّمهما الأب منطلقاً، وراح يخطو مجهداً عبر الثّلج بزحّافته الثّلجيّة يصوغ درباً، وتركت ليني أمّها تتبعه، ثمّ لحقتها وانضمّت إلى الرّكب.

مشوا طويلاً إلى درجة أنّ وجنتي ليني انتقلتا من البرودة إلى الدفء ثم إلى الخدر، طويلاً إلى حدّ أنّ أهدابها تجمّدت هي ووبر منخريها، وشعرت بعرقها يتجمّع تحت ملابسها الدّاخليّة الطّويلة مسبّباً لها الحكّة. وفي مرحلةٍ ما، بدأت رائحتها تنبعث، وجعلتها تتساءل أيّ شيء آخر عساه يستطيع شمّها. كان من السّهل أن يتحوّل المرء من مفترس إلى فريسة هنا.

كانت ليني متعَبة جدّاً، تكتفي بسيرها المجهد إلى الأمام، ذقنها منكّس، وكتفاها محدودبتان، وبالكاد استوعبت أنّها في مرحلةٍ ما بدأت ترى قدميها، وجزمتها، وزحّافتها الثّلجيّة. في البدء كان الوهج الرّماديّ

المحيط -ضوء ليس حقيقيّاً تماماً- يرشح من الثّلج، ثمّ بزغ الفجر، ورديّاً مثل لحم السّلمون، شبيهاً بالزّبدة.

ضوء النّهار.

أخيراً رأت ليني ما حولها؛ كانوا يسيرون فوق نهرٍ متجمّدٍ، وروّعها أن تدرك أنّها تبعت أباها على نحوٍ أعمى على سطحه الأملس. ماذا لو كان الجليد أرقّ من اللّازم؟ خطوة خاطئة واحدة تكفي لينغمر أحدهم بالماء الجليديّ وينجرف بعيداً.

سمعت تحتها صوت تصدّع.

كان الأب يسير قُدماً بثقة، ولا يبدو منشغلاً بالجليد تحت قدميه. على الضّفّة الأخرى، شقّ درباً عبر الأجمة الكثيفة المغطّاة بالثّلج، ثمّ حدّق إلى أسفل وأمال رأسه كأنّه يصغي. كان وجهه فوق اللّحية المكسوّة بالثّلج أحمر من البرد، وعرفت أنّه يتبع علامةً ما؛ روثاً، أو آثاراً. أرانب حذاء الثّلج البرّيّة تتناول معظم طعامها وتقوم بمعظم تحرّكاتها عند الفجر والغسق.

توقّف فجأةً: «ثمّة أرنب برّيّ هناك». قال الميني: «عند طرف الأشجار».

نظرت ليني في الاتّجاه الذي أشار إليه؛ كان كلّ شيء أبيض، حتّى السّماء. يصعب تمييز الأشكال في هذا العالم المؤلّف من بياض فوق بياض.

ثمّ حركة: وثب أرنب برّيّ أبيض سمين إلى الأمام.

- «أجل». قالت: «أراه».

- «حسناً يا ليني، هذا الصّيد لك. تنفّسي، استرخي، وانتظري حتّى يصير في مرمى نارك». قال أبوها.

رفعت بندقيّتها. كانت تتمرّن على التّصويب منذ أشهر؛ لذا فهي تعرف ماذا عليها أن تفعل. تنفّست شهيقاً وزفيراً بدلاً من كتم أنفاسها؛ ركّزت

على الأرنب، ثمّ صوّبت. انتظرت. تقلّص العالم بالتّدريج، أصبح بسيطاً. لم يكن ثمّة غيرها هي والأرنب البرّيّ، مفترس وفريسة، متّصلان.

ضغطت الزّناد.

بدا كلّ شيء يحدث في وقتٍ واحدٍ: الإطلاق، الإصابة، القتل، سقوط الأرنب على جنبه.

رمية جيّدة أنيقة.

- «ممتاز». قال الأب.

علّقت ليني بندقيّتها على كتفها، وانطلق الثّلاثة في رتلٍ واحدٍ نحو صفّ الأشجار وصيد ليني.

حين وصلوا إلى الأرنب، حدّقت ليني إليه، وكان الجسد الأبيض النّاعم مرشوشاً بالدّم، راقداً وسط بركة منه.

لقد قتلت شيئاً، وأمّنت قوت عائلتها لليلة أخرى.

قتلت شيئاً، أنهت حياةً ما.

لم تعرف ماذا تشعر حيال الأمر، أو لعلّ شعورين متصارعين اعترياها في الوقت نفسه: الفخر، والحزن. في الحقيقة، كادت ترغب في البكاء. غير أنّها باتت ألاسكيّة الآن، وهذه هي حياتها. فدون الصّيد لن يكون هناك طعام على المائدة، كما أنّ شيئاً لن يُهدر؛ الفرو سيُحوَّل إلى قبّعة، وسيُحضَّر حساء مرق من العظام. اللّيلة ستقلي أمّها اللّحم بالزّبدة المنزليّة المصنوعة من حليب الماعز، وتتبّله بالبصل والثّوم، حتّى إنّهم قد يُسرفون ويضيفون بضع حبّات بطاطا.

جثا أبوها فوق الثّلج، رأت ارتجاف يديه، وخمّنت من تكشيرة فمه أنّه يعاني صداعاً فيما هو يقلب الأرنب الميت على ظهره.

وضع نصله عند الذّيل، وقطع باتّجاه الأعلى، عبر الجلد والعظم، في خطّ واحد مستمرّ. أبطأ تقدّمه عند عظم قصّ الأرنب، وثبّت إحدى أصابعه الدّامية تحت نصل السّكّين، ثمّ تابع بحرص ليتجنّب جرح أيّ عضو عن طريق الخطأ. فتح جسد الحيوان، ومدّ يده ليخرج الأحشاء التي تركها فوق الثّلج في كومةٍ ورديّةٍ محمرّةٍ يتصاعد منها البخار.

نزع القلب الصّغير الغضّ ورفعه نحو ليني، والدّم ينزّ من بين أصابعه: «أنتِ من اصطدتِه، كُلي القلب».

- «إيرنت، أرجوك». قالت الأمّ: «لسنا همجاً».

- «بل هذا بالضّبط ما نحن عليه». قال بصوت له برودة الرّيح التي تضرب ظهورهم: «كُليه».

اتّجهت نظرة ليني إلى أمّها، التي بدت مرتاعةً مثل ارتياعها.

- «أستُرغمينني على أن أطلب منك مجدّداً؟». قال الأب.

كان الهدوء في صوته أسوأ من الصّراخ. شعرت ليني بوخزةٍ من الخوف تنبثق لتسري في عمودها الفقريّ. مدّت يدها، وأخذت العضو الصّغير الأحمر المزرقّ بأصابعها. (أتراه ما يزال ينبض أم هي التي ترتعد؟).

تحت نظرة أبيها المتضيّقة المثبّتة عليها، وضعت القلب في فمها، وأرغمت شفتيها على الإطباق. وعلى الفور، شعرت برغبة في التّقيّؤ. كان القلب زلقاً ولزجاً؛ عندما أطبقت أسنانها تفتّق داخل فمها، وبدا مذاقه معدنيّاً. شعرت بالدّم يسيل هزيلاً في جانب فمها.

ابتلعت، وغصّت، ثمّ مسحت الدّم عن شفتيها، وشعرت باللّطخة الدّافئة التي تركها على خدّها.

رفع والدها ناظريه، فقط بما يكفي للتّواصل البصريّ. بدا محطَّماً،

متعَباً، لكنّه حاضر؛ في عينيه، رأت من الحبّ والحزن أكثر ممّا ينبغي أن يوجد في كائن بشريّ واحد. كان ثمّة ما يمزّقه من الدّاخل، حتّى في هذه الأثناء. ذلك كان الرّجُل الآخر، الرّجُل السّيئ، الذي يعيش داخله ويحاول أن يتحرّر في الظّلام.

- أحاول أن أجعلك قادرة على الاكتفاء بنفسك.

بدا ذلك أشبه باعتذار، لكن عن ماذا؟ عن التّصرّف بجنون في بعض الأحيان أم عن تعليمها الصّيد؟ أم عن جعلها تأكل قلب أرنب برّيّ ما زال يخفق؟ أم عن الكوابيس الّتي كانت تفسد نومهم جميعاً؟

أم لعلّه كان يعتذر عن شيء لم يُقدم عليه بعد، لكنّه يخشى أنّه سيفعل.

❄

ديسمبر.

كان الأب يقف على أطراف أعصابه المنقبضة، يفرط في الشّرب، ويدمدم بصوت غير مسموع. باتت الكوابيس أكثر تكراراً؛ ثلاثة في الأسبوع، كلّ أسبوع.

كان يتحرّك دائماً، ويكثر الطّلب، ويتسلّط؛ يأكل وينام ويتنفّس ويشرب لمجرّد أن يبقى على قيد الحياة. تحوّل إلى جنديّ من جديد، أو هذا ما كانت الأمّ تقوله، وألفت ليني نفسها معقودة اللّسان في حضرته، تخشى أن تقول أو تفعل شيئاً خاطئاً.

مع كلّ عملها الشّاقّ الذي تقوم به بعد المدرسة وفي عطلات الأسبوع، كان يُفترض بها أن تنام كالموتى، غير أنّها لم تكن تفعل. ترقد مستيقظة ليلة تلو الأخرى، يسهّدها القلق. لقد شُحذ خوفها وقلقها بشأن العالم حتّى بات قاطعاً مثل سكّين.

اللّيلة، على الرغم من إنهاكها، ظلّت راقدةً وهي مستيقظة، تتسمّع متأهّبة للحظة انطلاق صراخه. وحين غطّت في النّوم أخيراً، حطّت في عالم أحلام تأكله النّيران، مكان ممتلئ بالخطر؛ عالم في حالة حرب، حيوانات تُذبح، فتيات يُختطفن، رجال يصرخون، وبنادق مُشهرة. صرخت تنادي ماثيو، لكنّ أحداً لا يستطيع سماع صوت فتاةٍ واحدةٍ في عالمٍ يتداعى. وإضافة إلى ذلك، أيّ نفع عساه يجديها؟ ليس بمقدورها أن تخبر ماثيو عن هذا. إلّا هذا. ثمّة مخاوف على المرء أن يحملها وحده.

- ليني!

سمعت اسمها يُنادى من بعيد. أين هي؟ اللّيل في منتصفه، أما زالت تحلم؟

جذبها أحدهم، وانتشلها من سريرها بعنف. الأمر حقيقيّ هذه المرّة، لقد أطبقت يد على فمها.

تعرّفت إلى رائحته. «أبي؟». قالت من تحت يده المطبقة.

- «تعالي». قال لها: «الآن».

تعثّرت، وهي تنزل على السّلّم، وسارت خلفه في ظلمة دامسة.

لم يكن أيّ من المصابيح مضاءً في الأسفل، لكنّها استطاعت سماع أنفاس أمّها الثّقيلة.

قادها إلى طاولة ورق اللّعب الثّابتة التي أُصلِحت مؤخّراً، ووجّهها للجلوس.

- «إيرنت، بحقّك...». قالت الأمّ.

- «اصمتي يا كورا!». قاطعها.

خُبط شيء على الطّاولة أمام ليني بقرقعة ورنين. «ما هذا؟». قال واقفاً بجانبها.

مدّت يدها، وراحت أصابعها تتسحّب فوق سطح الطّاولة الخشن.

بندقيّة.. مفكّكة...

- تحتاجين إلى تدريب أفضل يا ليني. عندما تخرج الأمور عن السيطرة، سيتعيّن علينا تأدية الأمور على نحوٍ مختلف. ماذا لو كان الوقت شتاءً؟ قد يكون كلّ شيء مظلماً، وستكونين مأخوذة على حين غرّة، مرتبكة، نعسى. ستتسبّب الأعذار في مقتلك. أريدك أن تكوني قادرةً على فعل كلّ شيء في الظّلام، وأنت خائفة.

- «إيرنت». قالت الأمّ من الظّلماء، بصوت متفاوت النّبرة: «إنّها مجرّد فتاة، دعها تعود إلى السّرير».

- حين يتضوّر الرّجال جوعاً، ويكون في حوزتنا طعام، هل سيأبهون لكونها مجرّد فتاة؟

سمعت ليني طقّة ساعة موقوتة. «انطلقي يا ليني؛ نظّفي سلاحك، وأعيدي تركيبه».

مدّت ليني يدها، وتلمّست بحثاً عن قطع البندقيّة الباردة، ثمّ جذبتها نحوها. أثار الظّلام أعصابها، وجعل حركتها بطيئة. رأت وهج ثقاب في الظّلام، وشمّت رائحة لفافة تُشعَل.

- «توقّفي». قال الأب. انبثقت حزمة مصباح يدويّ تتشكّل، وسُلّطت على البندقيّة: «غير مقبول. أنت ميتة. اختفى كلّ طعامنا. ولعلّ أحدهم يفكّر في الاغتصاب». أخذ البندقيّة وفكّكها، ثمّ دفع القطع نحو مركز الطّاولة. في هبّة الضّوء، رأت ليني البندقيّة مجزّأة، إلى جانب سيخ تنظيف، وخرق قماشيّة، إضافةً إلى بعضٍ من محلول هوبز 9، ومانع صدأ، وبضعة مفكّات براغٍ. حاولت أن تحفظ مكان كلّ شيء.

إنّه محقّ؛ عليها أن تعرف كيف تفعل هذا وإلّا فقد تُقتَل.

- ركّزي!

أُطفِئ الضّوء، وضُغطت السّاعة الموقوتة.

- انطلقي!

مدّت ليني يدها، محاولةً تذكّر ما رأته. جذبت قطع البندقيّة نحوها، جمعتها بسرعة، شدّت براغي المنظار لتثبّته في مكانه. وكانت تمدّ يدها نحو خرقة التّنظيف حين ضُغطت السّاعة الموقوتة.

- «ميتة». قال الأب مشمئزّاً: «حاولي من جديد».

❄

البارحة، في السّبت الثّاني من ديسمبر، انضمّوا إلى جيرانهم في حفل قطع أشجار. ساروا جميعهم على أقدامهم داخل البرّيّة، واختاروا أشجاراً. قطع الأب شجرة دائمة الخضرة، وجرّها فوق مزلجتهم، ثمّ ساقها إلى الكوخ، حيث وضعوها في الزّاوية تحت العلّيّة. زيّنوها بصور البولارويد العائليّة، وطعوم صيد السّمك، ووُضعت بضع هدايا مغلّفة بأوراق مصفرّة من صحيفة أنكوراج ديلي تايمز تحت الأغصان الخضراء الشّذيّة، وتظاهرت الخطوط المرسومة بقلم الخطّاط بأنّها أشرطة هدايا. خلقت قناديل البروبان المعلّقة جوّاً من الدّفء، وكان ضوءها في تنافر حادّ مع الصّباح الذي ما زال مظلماً. أخذت الرّيح تخمش الإفريز، وبين الفينة والأخرى يصفع غصنُ شجرةِ الكوخَ بعنف.

والآن، بعد ظهيرة الأحد، كانت الأمّ في المطبخ تعدّ خبز العجين المتخمّر، وقد ملأت الرّائحة الخميريّة للخبيز الكوخ. حبسهم الطّقس السّيّئ داخل المنزل جميعهم؛ كان الأب منكبّاً فوق اللّاسلكيّ، يستمع

إلى أصوات مشوّشة، وأصابعه تعمل على أقراص الجهاز بلا انقطاع. سمعت ليني صوت ماد إيرل ينبثق من التّشويش، ووقوقته عالية النّبرة تصل مسموعةً واضحة.

كانت تجلس متكوّمة على الأريكة، تقرأ نسخة ورقيّة من كتاب «اذهب واسأل أليس» وجدتها في مكبّ النّفايات. العالم يبدو لها صغيراً على نحو لا يُصدَّق هنا؛ أُسدِلت السّتائر تماماً من أجل الدّفء، وأُقفِل الباب في وجه البرد والمفترسات.

- «ماذا؟ كرّر من جديد. حوّل». قال الأب، وهو يصغي منكبّاً على الجهاز: «مارج، أهذه أنت؟».

سمعت ليني صوت لارج مارج قادماً من الرّاديو، متقطّعاً يغطّيه التّشويش: «حالة طارئة... مفقود... مجموعة بحث... قرب كوخ ووكر... اللقاء عند طريق المنجم، انتهى».

تركت ليني كتابها واعتدلت في جلستها: «من المفقود؟ في هذا الطّقس؟».

- «لارج مارج». قال أبوها: «تكلّمي. من هو؟ من المفقود؟ إيرل، هل أنت هنا؟».

تشويش.

استدار الأب: «ارتديا ملابسكما، ثمّة من يحتاج إلى المساعدة».

أخرجت الأمّ الخبز نصف المخبوز من الفرن، ووضعته على الطّاولة، ثمّ غطّته بفوطة صحون. ارتدت ليني أكثر ملابس تبعث على الدّفء لديها: بنطال كارهارت بطبقة عازلة مشمّراً من نهايتيه، ومعطفَ فراءٍ مقلنساً، وجزمة أرنب. وخلال خمس دقائق تلت مكالمة لارج مارج، كانت في القسم الخلفيّ من الحافلة تنتظر أن يدور المحرّك.

سيستغرق وقتاً.

أخيراً، فرك الأب الزّجاج الأماميّ بما يكفي للرّؤية عبره، ثمّ تفقّد السّلاسل وتسلّق إلى مقعد السّائق: «إنّه يوم سيّئ ليضيع فيه أحدهم».

ناور برويّة فوق الثّلج الذي يبلغ محور الحافلة، ثمّ استدار نحو مدخل المركبات، الّذي كان عبارةً عن طبقةٍ سميكةٍ متواصلةٍ من البياض من دون آثار عجلات تحاصرها الأشجار المغطّاة بالثّلج. كان بوسع ليني أن ترى أنفاسها؛ البرد يبلغ تلك الدّرجة داخل الحافلة، وأخذ الثّلج يتراكم ثمّ يختفي على الزّجاج الأماميّ بين كلّ حركة وأخرى من المسّاحتين.

مع اقترابهم من البلدة، راحت المركبات تظهر من خلف ستائر الثّلج المتساقط أمامهم، والمصابيح الأماميّة تتوهّج خلال الدُّكنة. في المسافة إلى الأمام، رأت ليني أضواءً كهرمانيّةً وحمراء تومض. يُفترض بهذا أن يكون ناتالي وكاسحة ثلوجها، تقود الطّليعة فوق طريق بالكاد موجود يفضي نحو المنجم القديم.

أرخى الأب ضغطه على دوّاسة الوقود. تباطأت حركة الحافلة، وانضمّت إلى الرّكب خلف شاحنة بيك أب كبيرة تعود لكلايد هارلان، ثمّ سارت تصعد الجبل.

حين وصلوا إلى فسحة، أبصرت ليني مجموعة من ماكينات الثّلج (ما زالت ترى أنّها عربات ثلوج، لكن لا أحد يطلق عليها هذا الاسم هنا) مركونة في صفّ متفاوت. كانت تعود للسّكّان الذين يقطنون في الأحراش، من دون طرق تصل إلى ملكيّاتهم. جميع أضواء المركبات مشتعلة، ومحرّكاتها تعمل، والثّلج ينزل كالجدائل عبر حزم الضّوء، فيضفي عليها مظهراً مريباً ينتمي إلى خارج هذا العالم.

ركن الأب بجانب ماكينة ثلج، ثمّ تبعت ليني والديها خارج الحافلة تحت الثّلوج المتساقطة، والرّيح الآخذة بالعويل، والبرد الذي يحفر عميقاً. رأوا ماد إيرل وثيلما فشقّوا طريقهم نحو صديقيهم.

- «ما الأمر؟». صاح الأب كي يُسمع من فوق صوت الرّيح.

وقبل أن يتاح لماد إيرل أو ثيلما أن يجيبا، سمعت ليني نحيباً عالي النّبرة من صافرة.

تقدّم رجُلٌ يرتدي معطفاً وبنطالاً ثقيلين مبطّنين لهما لون أزرق، وعرّفت عنه قبّعة عريضة الحافّة كرجُل شرطة: «أنا كيرت وارد، شكراً لقدومكم. جينيفا وماثيو ووكر مفقودان، كان يفترض بهما الوصول إلى كبينة صيدهما قبل ساعة. هذا هو مسلكهما المعتاد، إن كانا مفقودَين، أو مصابين، فينبغي أن نعثر عليهما في المسافة الممتدّة من هنا إلى الكبينة».

لم تتنبّه ليني إلى أنّها صرخت حتّى أحسّت بلمسة أمّها المُطمْئنة.

ماثيو!

رفعت عينيها إلى أمّها. «سيتجمّد في هذا المكان». قالت: «أوشك أن يحلّ اللّيل».

وقبل أن تتمكّن أمّها من الرّدّ، قال الضّابط وارد: «تفرّقوا واتركوا نحو عشرين قدماً بين الواحد والآخر».

بدأ يوزّع المصابيح الكشّافة.

أشعلت ليني مصباحها، وراحت تنظر إلى أرض الطّريق المغطّاة بالثّلوج أمامها. لقد دار العالم بأكمله في دوّامة حتّى تحوّل إلى شريطٍ واحدٍ من الأرض، وكانت تراه على طبقات: أرضيّة بيضاء وعرة تغطّيها الثّلوج، هواء تملؤه الثّلوج، أشجار بيضاء مدبّبة تشير نحو سماء رماديّة.

أين أنت يا ماثيو؟

أخذت تتحرّك إلى الأمام ببطءٍ وعنادٍ، بالكاد واعيةً بالباحثين الآخرين والأضواء الأخرى. سمعت كلاباً تنبح، وأصواتاً تتعالى؛ أضواء كشّافة تتقاطع في ما بينها. كان الوقت يمضي بطريقةٍ غريبةٍ سرياليّةٍ، مع خفوت الضّوء، وزفير الأنفاس.

رأت ليني آثار حيوانات، كومة من العظام تمتزج بدماء طازجة، إبر تنّوب متساقطة. لقد نحتت الرّيح الثّلج إلى نتوءات ومنحنيات بأطرافٍ مستدقّةٍ جليديّةٍ صلبةٍ مصقولة. المساحات التي تخلو من الثّلج تحت الأشجار مسودّة من أكوام الأحجار، حوّلتها الحيوانات إلى أوكار مرتجلة تمنحها مكاناً تنام فيه لائذةً من الرّيح.

أخذت الأشجار حولها تزداد كثافة. انخفضت الحرارة فجأة؛ وشعرت بهبّة برد فيما النّهار يفسح الطّريق للّيل. توقّف سقوط الثّلج، دفعت الرّيح الغيوم بعيداً، وتركت محلّها سماءً زرقاء بحريّة اللّون تغسلها دوّامات من ضوء النّجوم. أشرق قمر أحدب، وسطع ضوءه فوق الثّلج، فأشعل العالم بوهج فضّيّ محيط.

رأت شيئاً.. ذراعين.. تمتدّان إلى أعلى من الثّلج، وأصابع نحيلة مفرودة، متجمّدة. اندفعت بقوّة إلى الأمام عبر الثّلج العميق، وقالت: «أنا آتية يا ماثيو»، بين صفير أنفاسها المؤلم، وضوء مصباحها يتمايل أعلى وأسفل أمامها.

قرون.. قرنان كاملان، طرحهما ذكر موظ، أو ربّما تحت هذه الثّلوج ترقد العظام التي تركها أحد الصّيّادين المخالفين. مثل الكثير من الخطايا، الثّلج يغطّي كلّ شيء. لن تُكشف الحقيقة قبل الرّبيع، هذا إن كُشفت.

اشتدّت الرّياح، وراحت تضرب من بين الأشجار، وتقتلع الأغصان وتحملها.

تابعت السّير مجهدة؛ ضوء واحد وسط عشرات تنتشر في أنحاء الغابة السّوداء والبيضاء والزّرقاء المتوهّجة، ثقوب دبابيس صفراء تفتّش، وتفتّش... سمعت صوت السّيّد ووكر ينادي، يصيح باسم ماثيو ويكرّره حتّى بات يبدو أجشّ.

- «هناك! إلى الأمام!». هتف أحدهم.

فأجاب السّيّد ووكر: «أراه».

انطلقت ليني إلى الأمام محاولةً أن تركض عبر الثّلج السّميك.

في المسافة أمامها، رأت كتلةً ظليلة... شخصاً... جاثياً عند جانب نهرٍ متجمّدٍ في ضوء القمر، رأسه محنيّ إلى الأمام.

اندفعت ليني بين الحشد، تشقّ طريقها بمرفقيها نحو المقدّمة فيما قرفص السّيّد ووكر بجانب ابنه. «ماتي؟». صاح كي يسمعه، ووضع يده المكسوّة بالقفّاز على ظهر ابنه: «أنا هنا.. أنا هنا.. أين أمّك؟».

التفت رأس ماثيو ببطء. كان وجهه أبيض بشكل صارخ، وشفتاه متشقّقتين. بدت عيناه الخضراوان كأنّهما فقدتا صبغتهما، واستمدّتا اللّون من الجليد المحيط به. الجليد تحته يتوهّج بضوء القمر، وهو يرتعد على نحوٍ خارج عن السّيطرة. «لقد رحلت». نعب قائلاً بصوتٍ جافّ: «سقطت».

أنهض السّيّد ووكر ابنه على قدميه. كاد ماثيو ينهار مرّتين، لكنّ أباه أمسكه.

سمعت ليني النّاس يتكلّمون في شذرات.

- ... سقطت في الجليد...

- ... كان ينبغي أن تأخذ حذرها...

- ... يا للمسيح...!

- «هيّا». قال الضّابط وارد: «أفسحوا لهما، علينا أن ندفّئ هذا الفتى».

❄ 9 ❄

انتزع الشّتاء واحداً منهم؛ واحداً وُلد هنا، وكان يعرف أسباب النّجاة.

لم تستطع ليني أن تكفّ عن التّفكير في ذلك، والقلق حياله. إن كان يُمكن خسارة جينيفا ووكر -جين.. جيني.. الجينيراتور.. ما من اسمٍ إلّا وأجيب من يناديني به تقريباً- بهذه السّهولة، إذنْ فلا أحد في مأمن.

- «ربّاه!». قالت ثيلما، وهم عائدون بحزن إلى مركباتهم: «لم تكن جيني تقترف الأخطاء على الجليد».

- «الجميع يقترفون الأخطاء». أجابت لارج مارج ووجهها الدّاكن متغضّن من الأسى.

أومأت ناتالي واتكنز بتجهّم: «لقد عبرتُ ذلك النّهر نحو عشر مرّات هذا الشّهر.. يا للمسيح.. كيف أمكن أن تسقط في هذا الوقت من العام؟».

كانت ليني تصغي ولا تصغي؛ لم تسطع أن تفكّر إلّا في ماثيو وما يمرّ به الآن بلا شكّ، لقد رأى أمّه تسقط عبر الجليد وتموت.

كيف للمرء أن يتجاوز شيئاً كهذا؟ ألن يراها ماثيو من جديد كلّما أغمض عينيه؟ ألن يجفل صارخاً من كوابيسه لبقيّة حياته؟ كيف يمكنها أن تساعده؟

في المنزل، مرتعدةً من البرد ومن خوف جديد (يمكن للمرء أن يفقد

والديه أو حياته في يوم أحد عاديّ، بمجرّد الخروج والسّير في الثّلج... ينتهي الأمر)، كتبت إليه سلسلة من الرّسائل، مزّقت كلّاً منها لأنّ الأمر لم يكن صائباً.

كانت ما تزال تحاول تأليف الرّسالة الأمثل بعد يومين، حين اجتمعت البلدة من أجل جنازة جينيفا.

في برد هذا الأصيل القارس، كانت عشرات المركبات في البلدة، تركن أينما استطاعت؛ على جوانب الطّرقات، وفي المساحات الشّاغرة. إحداها كانت عمليّاً وسط الشّارع. لم يسبق لليني أن رأت هذا العدد من الشّاحنات وماكينات الثّلج في البلدة دفعة واحدة. جميع المحالّ مغلقة، حتّى حانة ذا كيكينغ موس. كانِك هامدة في الشّتاء، يغطّيها الثّلج والجليد المصقول، ويضيئها وهج ضوء النّهار المحيط.

يمكن للعالم أن يتشقلب، أن يتغيّر على نحوٍ جذريّ في غضون يومين، بسبب نقصان قاطنيه شخصاً واحداً لا غير.

ركنوا في شارع ألباين ستريت وخرجوا من الحافلة. سمعت الأنين الرّتيب لمحرّك مولّدة يدمدم صاخباً، ويمدّ أضواء الكنيسة على التّلّة بالكهرباء.

صعدوا التّلّة في رتلٍ واحدٍ مجهد الخطوات. الضّوء يملأ النّوافذ المغبرّة للكنيسة القديمة، والمدخنة تنفث الدّخان.

عند الباب المغلق، توقّفت ليني بما يكفي كي ترفع القلنسوة المزيّنة بالفراء عن وجهها. لقد رأت هذه الكنيسة في كلّ رحلة قامت بها إلى البلدة، لكن لم تدخلها قطّ.

كانت الكنيسة من الدّاخل أصغر ممّا يبديه هيكلها الخارجيّ، بجدران من الألواح البيضاء المتشقّقة، وأرضيّة من خشب الصّنوبر. ما من مقاعد؛

النّاس يملؤون المساحة من جانب إلى الآخر. وقف رجُل يرتدي بنطال ثلج مموّهاً ومعطف فراء في الواجهة، ووجهه يكاد يختفي خلف شاربٍ ولحيةٍ وفودين.

كلّ شخص سبق لليني أن قابلته في كانِك كان حاضراً. رأت لارج مارج، تقف بين الآنسة رودز وناتالي؛ وأفراد عائلة هارلان بأكملهم هنا، متلاصقين ببعضهم، حتّى بيت المجنون موجود، وإوزّته ساكنة في حضنه.

لكنّ الصّفّ الأماميّ هو ما لفت انتباهها. السّيّد ووكر يقف بجانب فتاةٍ شقراء جميلة لا بدّ من أنّها أليبسكا، وقد عادت إلى المنزل من كلّيّتها، وإلى جانبهما أقرباء من عائلة ووكر لم ترهم من قبل. على يمينهم، واقفاً معهم، لكنّه وحده على الرغم من ذلك بطريقةٍ ما، كان ماثيو. ظلّ كالهون مالفي، عشيق جينيفا، ينقل وزنه من قدم إلى أخرى، كأنّه لا يعرف ماذا يفعل، وكانت حواف عينيه محمرّة.

حاولت ليني جذب انتباه ماثيو، لكن حتّى فتح باب الكنيسة المزدوج وإغلاقه وما نتج عن ذلك من تسلّل للبرد والثّلج لم يؤثّر عليه. كان يقف مكانه، كتفاه متراخيتان، وذقنه منكّس، صورته الجانبيّة محجوبة بشعر بدا لم يُغسل منذ أسبوع.

تبعت ليني والديها إلى فسحةٍ فارغةٍ خلف عائلة ماد إيرل ووقفوا هناك، وعلى الفور مرّر ماد إيرل دورقاً للأب.

حدّقت ليني إلى ماثيو، تحثّه على النّظر نحوها. لم تكن تعرف ماذا ستقول حين يتسنّى لهما الحديث أخيراً، ربّما لن تقول شيئاً، وتكتفي بأخذ يده.

بدأ الخوريّ بالكلام -أم تراه قسّاً، راهباً، أباً، أم ماذا؟- لم تكن لدى ليني أيّة فكرة عن هذه الأمور: «جميعنا هنا نعرف جينيفا ووكر. لم تكن

من أعضاء هذه الكنيسة، غير أنّها كانت واحدة منّا، منذ اللّحظة التي أحضرها توم فيها إلى هنا من فيربانكس. كانت تتقبّل كلّ شيء، ولا تيأس على الإطلاق. أتتذكّرون حين أقنعتها آلي بغناء النّشيد الوطنيّ في مهرجان السّلمون، وكان غناؤها سيّئاً بحيث بدأت الكلاب تعوي، وحتّى ماتيلدا هزّت ذيلها مبتعدة؟ وبعد أن انتهى كلّ شيء، قالت جين: "حسناً، أنا لا أفقه شيئاً في الغناء، لكن من يأبه؟ فهذا ما أرادته عزيزتي آلي". أو حين أصابت جيني وجنة توم بخطّاف الصّنّارة في سباق صيد السّمك، وحاولت أن تحصل على جائزة الصّيد الأكبر؟ كان قلبها كبيراً مثل ألاسكا». تنهّد قبل أن يضيف: «عزيزتنا جين.. كانت امرأةً تعرف كيف تحبّ. لا ندرك تماماً زوجة من كانت في نهاية المطاف، لكنّ هذا لا يهمّ، فجميعنا كنّا نحبّها».

تعالى الضّحك، هادئاً وحزيناً.

فقدت ليني تتبُّعها للكلمات، لم تكن متأكّدةً حتّى كم من الوقت انقضى. جعلها الأمر تفكّر في أمّها، وكيف قد يكون شعور فقدانها، ثمّ سمعت النّاس يبدؤون بالتّوجّه إلى الباب، الجزم تطأ الأرض، وألواح الأرضيّة تصدر صريراً.

انتهى الأمر.

حاولت أن تشقّ طريقها نحو ماثيو، لكنّ ذلك كان مستحيلاً؛ الجميع يتدافع نحو الباب.

حسب ما تتذكّر، لم يقل أحدٌ شيئاً بشأن الذّهاب إلى حانة ذا كيكينغ موس بعد الكنيسة، لكنّ المطاف انتهى بالجميع إلى هناك على أيّة حال. لعلّه كان تصرّفاً غريزيّاً لدى الرّاشدين.

تبعت والديها نزولاً على التّلّة وعبر الشّارع إلى داخل الحانة المتفحّمة المتداعية، وما إن تجاوزت العتبة حتّى شمّت الرّائحة اللّاذعة السّخاميّة

للخشب المحروق؛ يبدو أنّ تلك الرّائحة لم تَزُل يوماً. كانت الحانة تشبه كهفاً من الدّاخل، بقناديل بروبان تتدلّى عن عوارض الخشب مصدرةً صريراً، وترمي الضّوء مثل دفقات من الماء على الزّبائن الدّائمين تحتها، يحرّكها نقر الرّيح كلّما فُتح الباب.

يقف جيم العجوز خلف البار، يقدّم المشاريب بأسرع ما يستطيع. تتدلّى عن كتفه خرقة رماديّة مبتلّة، تقطر بقعاً قاتمةً على الوجه الأماميّ لقميصه الفلانيل. كانت ليني قد سمعت أحدهم يقول إنّه يعمل ساقياً هنا منذ عقود، لقد بدأ عمله حين كان الرّجال القلّة الذين يعيشون في هذه البرّيّة مختبئين من الحرب العالميّة الثّانية أو عائدين إلى الدّيار منها. طلب الأب أربعة مشاريب على الفور، وتجرّعها بسرعة على التّتالي.

كانت الأرضيّة المصنوعة من نشارة الخشب تبعث رائحةً مغبرّةً تشبه رائحة الحظائر، وتكتم وقع أقدام كلّ هذا العدد من الأشخاص.

الجميع يتحدّثون في الوقت نفسه، بأصوات الأسى الخفيضة، وليني تلتقط شذرات.. مناقب...

«... جميلة... تمنع عن نفسها وتعطيك... أفضل خبز بالقرّاص على الإطلاق... مأساة...».

رأت تأثير الموت في النّاس، رأت النّظرة الزجاجية في عيونهم، طريقة هزّهم لرؤوسهم، طريقة انقطاع جملهم في منتصفها إن لم يعرفوا هل الصّمت أم الكلمات هو ما سيحرّرهم من الأسى.

لم يسبق لليني أن عرفت شخصاً مات من قبل؛ لقد رأت الموت على التّلفاز، وقرأت عنه في كتبها العزيزة (موت جوني في الغرباء(*) قلبها رأساً

(*) The Outsiders: رواية شهيرة لـ إس. إي هينتون. (المترجم)

على عقب)، لكنّها الآن ترى حقيقته. في الأدب، كان الموت أشياءً كثيرة: رسالةً، تطهيراً، جزاء. كان ثمّة ميتات تتأتّى عن توقّف قلبٍ نابضٍ، وميتات من نوعٍ آخر؛ خيار يُتّخذ، مثل ذهاب فرودو إلى الموانئ الرّماديّة. موتٌ يجعلك تبكي، يملؤك حزناً، لكن في أفضل كتبها، ثمّة سلامٌ أيضاً، ثمّة ارتياح رضيّ، شعورٌ بانتهاء القصّة كما ينبغي لها أن تنتهي.

أمّا في الحياة الواقعيّة، كما رأت، فلم يكن الأمر كذلك؛ بل حزن يتفتّح داخلك، يغيّر رؤيتك للعالم.

جعلها ذلك تفكّر في الله، وما يقدّمه في مثل هذه الأوقات. تساءلت للمرّة الأولى عمّا يؤمن به والداها، عمّا تؤمن به هي، ورأت كيف لفكرة الجنّة أن تمنح العزاء.

لم تستطع أن تتخيّل شيئاً بفظاعة فقدان المرء لأمّه، مجرّد الفكرة كانت كفيلة بجعلها تشعر بغثيان في معدتها. الفتاة تشبه طائرة ورق؛ ومن دون قبضة أمّها القويّة والثّابتة على الخيط، قد تطير بعيداً وتضيع في مكانٍ ما بين الغيوم.

لم تشأ ليني أن تفكّر في فقدانٍ كهذا، في فداحته التي تكسر العظام؛ لكنّ الإشاحة بالنّظر لا تكون ممكنة في أوقات مثل هذه، وحين نظرت إلى الأمر وجهاً لوجه، من دون أن ترمش، أو تدير وجهها، أدركت هذا: لو أنّها كانت محلّ ماثيو، ستكون في حاجة إلى صديق الآن. من يدري كيف باستطاعة الصّديق أن يقدّم العون؟ وهل الأفضل هو تقديم الصّحبة الصّامتة أم لغو الكلام؟ سيتعيّن عليها اكتشاف هذا –هذه الكيفيّة– بنفسها، لكنّ الماهيّة –الصّداقة– هي ما كانت واثقة به.

انتبهت إلى دخول آل ووكر الحانة من خلال الصّمت الذي حطّ، والتفات الوجوه نحو الباب.

دخل السّيّد ووكر أوّلاً؛ كان طويلاً وعريض المنكبين بحيث تعيّن عليه أن ينحني كي يمرّ من الباب الخفيض، تراخى الشّعر الأشقر الطّويل على وجهه فدفعه إلى الخلف. حين رفع نظره، رأى الجميع يحدّقون إليه، فتوقّف وانتصب بقامته. جالت نظرته أنحاء القاعة ببطء، وانتقلت من وجهٍ إلى آخر، فذوت ابتسامته؛ لقد جعله الأسى يشيخ. دخلت الفتاة الشّقراء الجميلة خلفه، بوجه بلّلته الدّموع. كانت تطوّق ماثيو بذراعها، تحضنه مثل عميل خدمة سرّيّة يسير بالرّئيس نيكسون بين الجماهير الغاضبة منه. وكانت كتفا ماثيو متكوّرتين، وجسده محدّباً إلى الأمام، ووجهه متهدّلاً بالغمّ. يحوم خلفهما كال متردّداً بعينين زجاجيّتين.

رأى السّيّد ووكر أمَّ ليني، فاتّجه نحوها أوّلاً.

- «أنا آسفة جدّاً يا توم». قالت، وأمالت وجهها نحوه تبكي.

أخفض السّيّد ووكر ناظريه إليها: «كان ينبغي أن أكون معهما».

- «أوه، توم...». لمست ذراعه.

- «شكراً». قال بصوت خفيض أجشّ. ازدرد ريقه بصعوبة، وبدا يكبح نفسه عن قول المزيد. نظر إلى الأصدقاء المتجمّعين على مقربة: «أعرف أنّ الجنائز الكنسيّة ليست المفضّلة لدينا، لكنّ الجوّ اللّعين شديد البرودة في الخارج، وجينيفا كانت تحبّ فكرة الكنيسة».

انتشرت دمدمة موافقة، وحسٌّ من الحركة القلقة المكبوحة، من الرّاحة الممزوجة بالأسى.

- «نخب جين». قالت لارج مارج رافعةً قدحها الصّغير.

- نخب جين!

فيما راح البالغون يدقّون كؤوسهم ويتجرّعون مشاريبهم، ثمّ يلتفتون

إلى البار من أجل جولة شراب أخرى، راقبت ليني أفراد عائلة ووكر يسيرون بين الحشد، ويتوقّفون لتبادل الحديث مع الجميع.

- «يا لها من جنازة تنضح بالتّكلّف». قال ماد إيرل بصوتٍ عالٍ مخموراً.

نظرت ليني بطرف عينها لترى إن كان توم ووكر قد سمع، لكنّ السّيّد ووكر كان يتحدّث إلى لارج مارج وناتالي.

- «ماذا تتوقّع؟». قال الأب، وهو يتجرّع كأساً أخرى من الويسكي، كانت عيناه تحملان تلك النظرة الخاوية من أثر السّكر: «فاجأني أنّ الحاكم لم يأتِ بالطّائرة كي يملي علينا كيف ينبغي أن نشعر. سمعتُ أنّه وتوم رفيقا صيد سمك، إنّه يحبّ أن يذكّرنا نحن -عمّال السّخرة- بذلك».

اقتربت الأمّ نحوه: «إيرنت، هذا يوم جنازة زوجته، هلّا...».

- «إيّاكِ والتّفوّه بحرف». فحّ في وجهها: «رأيتُ كيف كنتِ ترمين نفسك عليه...».

اندفعت ثيلما بينهما: «أوه، حبّاً بالله يا إيرنت. هذا يوم حزن، اكبح غيرتك لعشر دقائق».

- «أتظنّينني أغار من توم؟». قال الأب، ثمّ نظر إلى الأمّ: «أينبغي أن أغار؟».

أدارت ليني ظهرها لهم، وراحت تراقب أليسكا تدفع ماثيو بين جموع المعزّين وتتّجه به نحو ركن هادئ في الخلف.

تبعتهما ليني، وتسحّبت من بين أشخاص ينضحون برائحة دخان الحطب، والعرق، ومفرزات الأجساد؛ كان الاستحمام ترفاً في وسط الشّتاء، لا يمارسه أحد بما يكفي.

كان ماثيو واقفاً وحده يحدّق إلى الأمام بعينين فارغتين، ظهره مستند إلى الحائط المتفحّم المقشور، والسّخام يتناثر على كمّيه.

صعقها كم بدا أنّه تغيّر؛ من غير الممكن أن يكون قد خسر كلّ هذا الوزن خلال هذا الوقت القصير، لكنّ عظام وجنتيه بدت أشبه بحوافّ جرف يطلّ على خدّيه الغائرين. كانت شفتاه مشقّقتين وداميتين، وثمّة رقعة مبيضّة من الجلد على صدغه في لون متنافر بحدّة مع وجنتيه اللّتين لوّحتهما الرّيح، وشعره متّسخ يتدلّى في خصل رفيعة منهكة على طرفي وجهه.

- «مرحباً». قالت.

- «أهلاً». أجاب بفتور.

والآن ماذا؟

لا تقولي: أنا آسفة. هذا ما يقوله الرّاشدون، وهو أمر غبيّ. بالطّبع أنت آسفة، ما العون الّذي يقدّمه ذلك؟

لكن ماذا؟

تقدّمت إلى الأمام ببطء وحذر، حريصةً على ألّا تلمسه، وانسلّت لتقف بجانبه متّكئة بظهرها على الحائط المحروق. من هنا، استطاعت أن ترى كلّ شيء: القناديل المتدلّية عن العوارض المتفحّمة، الجدران المكسوّة بزخّافات ثلج قديمة ومغبرّة وشباك صيد سمك وزلّاجات طويلة، منافض سجائر طافحة بمحتوياتها، والدّخان يغبّش كلّ شيء، وكلّ شخص.

كان والداها مندمجين في حلقة مع ماد إيرل، وكلايد، وثيلما، وبقيّة أفراد عائلة هارلان. وحتّى عبر سديم دخان السّجائر، استطاعت ليني أن ترى كم كان وجه أبيها أحمر (علامة على الإفراط في الويسكي)، وكم

كان الغضب يضيّق عينيه حين يتكلّم. بدت أمّها منهكةً بجانبه، تخاف أن تتحرّك، تخاف أن تشارك في المحادثة، أو تنظر إلى أيّ شيء عدا زوجها.

- إنّه يلقي اللّوم عليّ.

فوجئت ليني من سماع ماثيو يتكلّم، إلى درجة استغرقت معها بعض الوقت كي تعالج ما قاله، وتتبّعت نظرتُها نظرتَه نحو السّيّد ووكر.

- «والدك؟». التفتت نحوه: «ليس له أن يفعل. ما هو بذنب أحد، إنّها فقط... أقصد، الجليد...».

بدأ ماثيو بالبكاء، وسالت الدّموع على وجهه فيما هو واقف، مكانه لا يتزحزح، متوتّر إلى حدّ يبدو معه أنّه يهتزّ. لمحت في عينيه عالماً أكبر. الوحدة، والخوف، وأب غاضب متقلّب المزاج؛ تلك أشياء سيّئة تسبّب الكوابيس.

لكنّ كلّ ذلك لم يكن شيئاً بالمقارنة مع مشاهدة أمّك تموت.. أيّ شعور تراه يكون هذا؟ كيف للمرء أن يتجاوزه يوماً؟

وكيف عساها هي، فتاة في الرّابعة عشرة لديها من مشكلاتها ما يكفيها، أن تقدّم العون؟

- «لقد وجدوها البارحة». قال: «أسمعتِ؟ كانت إحدى ساقيها مفقودة، ووجهها...».

لمسَتْه قائلةً: «لا تظنّ...».

مع لمستها، أفلت عويلاً من الألم شدّ انتباه الجميع. راح يجأر به من جديد، ويرتعد. تجمّدت ليني في مكانها غير واثقة بما يجدر بها أن تفعل؛ أتتراجع أم تتقدّم أكثر؟ تصرّفت كما دعتها غريزتها، أخذته بين ذراعيها. ذاب في حضنها، وشدّ عليها حتّى لم تعد تستطيع التنفّس. أحسّت بدموعه

على عنقها، دافئة ورطبة. «الذّنب ذنبي. لا تنفكّ تراودني هذه الكوابيس... أستيقظ غاضباً إلى حدٍّ لا أستطيع تحمله».

قبل أن تتمكّن ليني من قول أيّ شيء، اقتربت الفتاة الشّقراء الجميلة من ماثيو، وضعت ذراعها حوله وجذبته بعيداً عن ليني. تعثّر ماثيو نحو أخته، وتحرّك دون ثبات، كأنّ المشي أمرٌ غير مألوف.

- «لا بدّ من أنّك ليني». قالت أليسكا.

أومأت ليني.

- «أنا آلي، شقيقة ماتي الكبرى. لقد حدّثني عنك». كانت تحاول بجدّ أن تبتسم، وبدا ذلك بوضوح: «أخبرني أنّكما صديقان مقرّبان».

أرادت ليني أن تبكي: «صحيح».

- «يا لحظّكما، لم يكن في المدرسة أحد في سنّي حين كنت أعيش هنا». قالت آلي، وهي تدسّ شعرها خلف أذنها: «أظنّ أنّ هذا ما جعل فيربانكس تبدو فكرةً جيّدة، أقصد... يمكن لكانِك والمُلكيّة أن تبدوا بحجم ذرّة من الهباء أحياناً، لكن كان ينبغي بي أن أكون هنا...».

- «كفى...!». قال ماثيو لأخته: «أرجوكِ!».

تهدّجت ابتسامة آلي. لم تكن ليني تعرف هذه الفتاة على الإطلاق، لكنّ كفاحها للحفاظ على الاتّزان وحبّها لأخيها كانا بيّنين. ذلك جعل ليني تشعر بارتباط غريب بها، كأنّ بينهما شيئاً واحداً مهمّاً مشتركاً.

- «يسعدني أنّك بجانبه. إنّه... يعاني الآن، أليس كذلك يا ماتي؟». انكسر صوت آلي: «لكنّه سيكون على ما يرام، كما آمل».

رأت ليني فجأة كيف من شأن الأمل أن يكسر صاحبه، كيف يكون شَرَكاً مغوياً برّاقاً للغافلين. ماذا يحدث لك إن أجهدك الأمل بالأفضل، ثمّ

نلت الأسوأ؟ أيكون الأحسن ألّا تأمل على الإطلاق كي تستعدّ؟ أليس هذا ما أراد أبوها تعليمها إيّاه دائماً؟ الاستعداد للأسوأ.

- «بالطّبع سيكون على ما يرام». قالت ليني، لكن من دون قناعة. هي تعرف ماذا بوسع الكوابيس أن تفعل بالمرء، وكيف للذّكريات السّيّئة أن تغيّر من هويّته.

❄

في طريق العودة إلى المنزل، لم يتكلّم أحد. شعرت ليني بضياع كلّ ثانية من الضّوء مع حلول اللّيل، شعور حادّ مثل مطرقة تدقّ العظام. تخيّلت أنّ بوسع أبيها سماعها، هذه الثّواني الضّائعة، مثل أحجار ترتطم بجدار صخريّ، لتغوص في مكان ما داخل مياه سوداء كدرة.

كانت أمّها هامدة في مقعدها، متحدّبة على نفسها، لا تكفّ عن استراق النّظرات نحو الأب.

كان مخموراً وغاضباً، يترجرج فوق مقعده، ويداه مشدودتان على المقود.

مدّت الأمّ يدها، ولمست ذراعه.

انفضّ عنها بعنف وقال: «هذا ما تجيدينه، أليس كذلك؟ ملامسة الرّجال. تظنّينني لم أرَ، تعتقدين أنّني غبيّ».

نظرت الأمّ إليه بعينين مشرعتين، وكان الخوف يذيب ملامحها الرّقيقة: «ليس صحيحاً».

- «لقد رأيتُ كيف كنتِ تنظرين إليه، رأيتُ ذلك». دمدم شيئاً ما، وانقبض مبتعداً عنها. ظنّت ليني أنّه همس لنفسه: «تنفَّسْ». لكنّها لم تكن متأكّدة، كلّ ما كانت موقنة منه هو أنّهم في ورطة: «رأيتكِ تلمسين يده».

هذا سيّئ.

لطالما كان يغار من مال توم ووكر... أمّا هذا فشيء آخر.

طوال الطّريق إلى المنزل، وهو يدمدم لنفسه هامساً: عاهرة، قحبة، كاذبة، كانت أصابعه كأنّها تعزف البيانو على المقود. وحين وصلوا إلى المُلكية، ترجّل من الحافلة متعثّراً، ووقف يترنّح في مكانه، وهو ينظر إلى الكوخ. ذهبت الأمّ نحوه، وراحا يحدّقان واحدهما في الآخر في أنفاس غير منتظمة.

- اجعليني أبدو أحمق مرّة أخرى... هلّا فعلتِ؟

لمست الأمّ ذراعه: «لست تظنّ حقّاً أنّني أريد توم...».

جذب الأمّ من ذراعها وجرّها إلى داخل الكوخ. حاولت أن تتحرّر، وتعثّرت في طريقها، وضعت يدها فوق يده في محاولة واهية لجعله يخفّف قبضته: «إيرنت، أرجوك!».

ركضت ليني خلفهما، وتبعتهما إلى داخل الكوخ، وهي تقول: «أبي، أرجوك، اتركها».

- «ليني، اذهبي...». بدأت الأمّ جملتها.

ضرب الأب الأمّ بقوّة جعلتها ترتمي على جنبها، وارتطم رأسها بالحائط الخشبيّ ثمّ تداعت على الأرض.

صرخت ليني: «ماما!».

زحفت الأمّ على ركبتيها، ونهضت على قدميها متزعزعة. كانت شفتها قد شُقّت وأخذت تنزف.

ضربها من جديد، بقوّة أكبر، وحين ارتطمت بالجدار، أخفض ناظريه فرأى الدّماء على براجمه، وراح يحدّق فيها.

انفجر منه عويل عالٍ نادب من الألم، راح يرنّ بين جنبات الجدران الخشبيّة. تراجع إلى الخلف متعثّراً، وترك مسافة بينهما. رنا إلى الأمّ بنظرة طويلة يائسة ملؤها الأسى والكره، ثمّ خرج من الكوخ راكضاً، وصفق الباب وراءه.

❄

شعرت ليني بالخوف والمفاجأة والهلع ممّا رأته توّاً، لم تفعل شيئاً.

لا شيء.

كان يجدر أن ترمي نفسها على أبيها، أن تقحم نفسها بينهما، بل أن تتّجه إلى بندقيّتها.

سمعت صفق الباب فأجفلت من شللها.

كانت أمّها جالسةً على الأرض أمام مدفأة الحطب، يداها في حضنها، ورأسها محنيّ إلى الأمام، ووجهها مستتر بشعرها.

- ماما؟

رفعت الأمّ ناظريها على مهل، ودسّت شعرها خلف أذنها. ثمّة بقعة حمراء تشوّه صدغها، وشفتها السّفليّة مشقوقة تقطر دماً على بنطالها.

افعلي شيئاً.

ركضت ليني إلى المطبخ، غطّست خرقة بماء الدّلو، وعادت إلى أمّها لتجثو عندها.

بابتسامة مجهَدة، أخذت الأمّ الخرقة وضغطتها على شفتها النّازفة.

- «آسفة يا فتاتي الصّغيرة». قالت من خلف الخرقة.

- «لقد ضربك». قالت ليني ذاهلة.

هذه شناعة لم تتخيّلها قطّ. أن يفقد أعصابه، نعم.. لكن، لكمة؟ دماء؟ لا...

يُفترض بالمرء أن يشعر بأمان داخل بيته، مع والديه. يُفترض بهما أن يحمياه من الأخطار في الخارج.

- «كان مهتاجاً طوال اليوم، ما كان يجدر بي أن أتحدّث إلى توم». تنهّدت الأمّ متابعة: «والآن أظنّه ذهب إلى المجمّع كي يشرب الويسكي ويتجرع الكراهية مع ماد إيرل».

نظرت ليني إلى وجه أمّها المبرَّح الممتلئ بالكدمات، انقلب لون الخرقة أحمر من دمائها: «أتقولين إنّ الذّنب ذنبك؟».

- أنت أصغر من أن تفهمي. لم يقصد أن يفعل ذلك، الأمر فقط... أنّه يحبّني أكثر من اللّازم في بعض الأحيان.

أصحيح؟ أهذا ما يكون الحبّ عليه حين نكبر؟

- «لقد قصد». قالت ليني بهدوء، مستشعرة بموجة فهم باردة تستشري داخلها. نزلت الذّكريات في أماكنها مثل قطع الأحجية، لتشكّل صورة كاملة؛ كدمات الأمّ، نعتها الدّائم لنفسها بالحمق. لقد كانت تخفي هذه الحقيقة البشعة عن ليني منذ سنوات. كان والداها قادرين على إخفائها عنها خلف الجدران والأكاذيب، لكن لم يعد ثمّة مجال للإخفاء في هذا الكوخ ذي الغرفة الواحدة: «لقد سبق له أن ضربك».

- «لا». قالت الأمّ: «لا شيء يُذكر».

حاولت ليني تجميع الأفكار في رأسها، وجعلها تأخذ معنىً ما، إلّا أنّها لم تستطع. كيف لهذا أن يكون حبّاً؟ كيف يمكن أن يكون ذلك خطأ ماما؟

- «علينا أن نتفهّم ونسامح». قالت أمّها: «هكذا نحبّ شخصاً مريضاً،

شخصاً يعاني. كما لو أنّه مصاب بالسّرطان، عليك أن تنظري إلى الأمر بهذه الطّريقة. سيتحسّن.. سيفعل.. إنّه يحبّنا كثيراً».

سمعت ليني أمّها تشرع بالبكاء، وبطريقةٍ ما زاد ذلك الطّينَ بلّةً، كأنّ دموعها تسقي هذه الشّناعة، فتجعلها تنمو وتكبر. جذبت ليني أمّها بين ذراعيها، وطوّقتها بشدّة، وراحت تمسّد لها ظهرها، كما سبق للأمّ أن فعلت مرّات كثيرة لها.

لم تدركـ ليني كم مضى عليها جالسةً في مكانها، تحتضن أمّها وتدوّر المشهد الفظيع في رأسها مراراً وتكراراً.

سمعت أباها عائداً.

سمعت الوقع المتفاوت لأقدامه على المصطبة، عبثه بمزلاج الباب. لا بدّ من أنّ أمّها سمعت هي الأخرى، لأنّها أخذت تزحف مترنّحة، وتحاول النّهوض على قدميها، ثمّ أبعدت ليني عنها قائلةً: «اذهبي إلى الأعلى».

راقبت ليني أمّها تنهض؛ ألقت الخرقة المبلّلة الدّامية، فسقطت على الأرضيّة مُحدثةً صوتاً مكتوماً ورطباً.

فُتح الباب وتدفّق البرد إلى الدّاخل.

- «لقد عدت». همست الأمّ.

وقف الأب في الباب، الكرب يخطّط وجهه، والدّموع تملأ عينيه. «كورا، يا إلهي». قال بصوت مجرَّح ثخين: «بالطّبع عدت».

اتّجه واحدهما نحو الآخر.

خرّ الأب على ركبتيه أمام الأمّ، وارتطمت ركبتاه بخشب الأرضية بصوت عالٍ جعل ليني تدركـ أنّ ذلك سيخلّف كدمات غداً.

اقتربت الأمّ أكثر، وغلغلت أصابعها في شعره. دفن وجهه عند معدتها،

وطفق يرتجف ويبكي: «أنا آسف جدّاً، الأمر أنّني أحبّك كثيراً... إلى درجة تجعلني مجنوناً.. أكثر جنوناً». رفع رأسه وازداد بكاؤه زخماً: «لم أقصد ذلك».

- «أعرف يا حبيبي». ركعت الأمّ على ركبتيها، وأخذته بين ذراعيها، وراحت تهدهده جيئةً وذهاباً.

شعرت ليني بالهشاشة المفاجئة لعالمها، للعالم ذاته. بالكاد كانت تستطيع تذكّر العهد الماضي، وربّما لم تكن تتذكّره أصلاً في الواقع. لعلّ الأخيلة التي كانت لديها: والدها يرفعها على كتفيه، ويقطف بتلات أقحوانة، ويقرّب زهرة حوذان من ذقنها، ويقرأ لها قصّةً قبل النّوم؛ لعلّها كانت كلّها أخيلة أخذتها من الصّور وصبغتها بحياة متخيَّلة.

لم تكن تعرف. كيف لها أن تعرف؟ كانت أمّها تريدها أن تغضّ بصرها بالسّهولة نفسها التي تفعل بها هي ذلك، أن تسامح حتّى حين يكون الاعتذار المقدَّم رفيعاً مثل خيط صنّارة صيد، وواهياً مثل وعدٍ بسلوكٍ أحسن.

طوال سنوات، طوال حياتها بأكملها، كانت ليني تفعل ذلك بالحرف. تحبّ والديها، كليهما. كانت تعرف من دون أن يخبرها أحد، أنّ الظّلام داخل أبيها وَخيمٌ، وأنّ ما يفعله خاطئ، لكنّها تصدّق مسوّغات أمّها كذلك: أنّ أباها مريضٌ، ويشعر بالنّدم، أنّهما إن أحبّتاه كفايةً سيتحسّن وتعود الأمور إلى سابق عهدها.

غير أنّ ليني لم تعد تصدّق ذلك.

الحقيقة هي كالتّالي: الشّتاء في بدايته ليس إلّا، والبرد والظّلام سيستمرّان لوقت طويل طويل، وهما هنا وحدهما، عالقتان في هذا الكوخ مع أبيها.

ما من شرطة محلّيّة، أو أيّ أحد تستدعيانه للمساعدة. لقد انهمك أبوها طوال هذا الوقت في تعليمها عن مدى خطورة العالم في الخارج، لكنّ الحقيقة أنّ أكبر الأخطار قاطبةً يكمن داخل بيتها.

* 10 *

- «هيّا أيّتها النّؤوم!». نادت الأمّ بصوتٍ مشرقٍ في بكرة الصّباح التّالي: «حان وقت المدرسة».

بدا ذلك في غاية الاعتياديّة، شيئاً تقوله كلّ الأمّهات لبناتهنّ اللّاتي في الرّابعة عشرة، لكنّ ليني سمعت الكلمات التي خلف الكلمات، عبارة: «أرجوكِ دعينا نتظاهر» التي تشكّل ميثاقاً خطراً.

أرادت أن تضمّ ليني إلى نادٍ سرّيٍّ صامتٍ مريع لم تكن تريد الانتماء إليه. لم ترد التّظاهر بأنّ ما حدث كان طبيعيّاً، لكن ماذا عساها -هي الطّفلة- أن تفعل حيال ذلك؟

تجهّزت من أجل المدرسة، ونزلت على سلّم العلّيّة بحذر، خشية أن ترى أباها.

كانت أمّها واقفةً بجانب طاولة ورق اللّعب، تحمل صحناً من الفطائر المغطّاة بشرائح اللّحم المقدّد المقرمشة. وجهها متورّم في جانبه الأيمن، اللّون الأرجوانيّ يتشعّب على طول صدغها، وعينها اليمنى سوداء ومنتفخة، بالكاد تقوى على فتحها.

شعرت ليني بغضبٍ يتصاعد؛ سبّب لها القلق والبلبلة.

الخوف والخزي أمران تفهمهما؛ الخوف يجعلك تهرب وتختبئ، والخزي يجعلك تبقى هادئاً؛ أمّا هذا الغضب فيريد شيئاً آخر.. يريد أن يتحرّر...

- «لا تفعلي». قالت الأمّ: «أرجوك».

- «لا أفعل ماذا؟». سألتها ليني.

- أنت ترمينني بالأحكام.

أدركت ليني متفاجئةً أنّ ذلك صحيح؛ لقد كانت ترمي أمّها بالأحكام فعلاً، وبدا ذلك لها ضرباً من قلّة الوفاء، بل حتّى من القسوة، فهي تعرف أنّ أباها مريض. انحنت لتأخذ الكتاب ذا الغلاف الورقيّ من تحت قائمة الطّاولة المتقلقلة.

- الأمر أكثر تعقيداً ممّا تظنّين، هو لا يقصد فعلها، صدّقيني. وأحياناً أنا من أدفعه إلى ذلك، من دون أن أقصد. يجدر بي أن أكون أوعى.

تنهّدت ليني ردّاً على كلام أمّها، وأخفضت رأسها. نهضت ببطء على قدميها والتفتت تواجهها: «لكنّنا الآن في ألاسكا يا أمّي، ولن نستطيع الحصول على العون إن احتجنا إليه. ربّما ينبغي لنا أن نغادر». لم تكن تدرك وجود الفكرة في خاطرها قبل أن تسمع نفسها تقول الكلمات الفظيعة. «ما زال أمامنا الكثير من الشّتاء».

- أنا أحبّه.. وأنت تحبّينه.

كان ذلك صحيحاً، لكن أتراه الجواب الصّائب؟

- أضيفي إلى ذلك أنّه ليس لدينا مكان نذهب إليه، ولا مال يكفينا في رحلتنا. وحتّى لو أردتُ أن أفرّ إلى المنزل، وذيلي بين ساقيّ، كيف عساي أفعلها؟ سيتعيّن علينا ترك كلّ ما نملكه هنا، والسّير حتّى البلدة، ثمّ

الحصول على توصيلة إلى هومر، وبعدها أن نطلب من والديّ أن يرسلا إلينا مالاً يكفي تذكرة طائرة.

- أتراهما يساعداننا؟

- «ربّما، لكن ماذا سيكون الثّمن؟ و...». توقّفت الأمّ لتسحب نفَساً: «لن يرضى أن أعود إليه أبداً، ليس إن فعلت ذلك، سينفطر قلبه. وما من أحد على الإطلاق سيحبّني مثله. إنّه يبذل قصارى جهده، رأيتِ كم كان متأسّفاً».

ها هي ذي: الحقيقة الحزينة. أمّها تحبّه أكثر من أن تستطيع هجره. ما تزال تحبّه، حتّى في هذه اللحظة، على الرغم من تورّم وجهها، وامتلائه بالكدمات. لعلّه صحيحٌ ما تقوله دائماً، لعلّها لا تستطيع أن تتنفّس من دونه، لعلّها ستذبل مثل زهرة في غياب ضوء شمس غرامه.

قبل أن يتسنّى لليني أن تقول: «أهذا هو الحبّ؟»، فُتح باب الكوخ، جالباً معه هبّةً من هواء الصّقيع، ودوّامة من الثّلج.

دخل الأب إلى الكوخ، وأغلق الباب خلفه. نضا قفّازيه وراح ينفخ في المحراب الذي شكّلته يداه العاريتان، ثمّ نفض الثّلج عن جزمة الفرو التي ينتعلها. تجمّع الثّلج عند قدميه، أبيضَ للحظة قبل أن يذوب إلى برَكٍ صغيرة. كانت قبّعته الصّوف مبيضّةً من الثّلج، وكذلك شاربه الكثّ، ولحيته الكثيفة. بدا مثل رَجُل جبال، وكان بنطاله الجينز شبه متجمّد. «ها هي أمينة مكتبتي الصّغيرة». قال، وهو يرسم ابتسامةً حزينة تكاد تكون يائسة: «لقد أدّيتُ عنكِ مهامَّك هذا الصّباح، أطعمت الدّجاج والماعز. قالت أمّك إنّك بحاجة إلى النّوم».

رأت ليني حبَّه لها يسطع من خلال ندمه. ذلك جعل غضبها يتآكل،

وجعلها تُخضع كلّ شيء للمساءلة من جديد. لم يكن يريد أن يؤذي ماما، لم يقصد، إنّه مريض...

- «ستتأخّرين عن المدرسة». قالت أمّها بهدوء: «هاكِ، خذي فطورك معك».

جمعت ليني كتبها، وأخذت صندوق غداء ويني الدّبدوب، وتلحّفت بطبقات الملابس: جزمة، وقبّعة مغزولة من صوف ثور المسك، وسترة كاويتشان(*)، وقفّازين. تناولت فطيرة ملفوفة ومحشوّة بالمربّى، وهي تتّجه نحو الباب لتخرج إلى عالم أبيض.

تجمّعت أنفاسها غيوماً أمامها؛ لم تكن ترى شيئاً عدا الثّلج المتساقط، والرّجُل الذي يتنفّس بجانبها. بدأت حافلة الفولكس فاغن ترسم حدودَها من العدم شيئاً فشيئاً، وكان محرّكها قد شُغِّل بالفعل.

مدّت يدها المكسوّة بالقفّاز، وفتحت باب المُرافق. تطلّب الأمر عدّة محاولات في البرد، لكنّ الباب المعدنيّ العجوز فُتح آخر الأمر مُصدراً صريراً، فألقت ليني حقيبة ظهرها وصندوق غدائها على الأرضيّة، ثمّ تسلّقت مقعد الفينيل الممزّق.

صعد أبوها إلى مقعد السّائق، وشغّل المسّاحتين. انطلق صوت المذياع بانفجار صاخب، البثّ الصّباحيّ لإذاعة بيننسو لا بايلاين؛ رسائل إلى من يسكنون الأحراش من دون هواتف أو خدمة بريد: «... وإلى موريس لافو في مكارثي، أمّك تقول لك أن تتّصل بأخيك، فهو يشعر بـ...».

لم ينبس الأب ببنت شفة طيلة الطريق إلى المدرسة. وكانت ليني غارقةً حتّى رأسها في أفكارها، ففوجئت حين قال: «وصلنا».

(*) كاويتشان: قبائل من سكّان كولومبيا البريطانيّة، يشتهرون بنمط خياطة ثقيل ذي نقوش مميّزة شاع استخدامه في المناطق الباردة. (المترجم)

رفعت عينيها فرأت المدرسة أمامها، وكان المبنى يظهر بين المسّاحتين في مروحة ضبابيّة، ثمّ يختفي.

- لينورا؟

لم تكن تريد النّظر إليه؛ أرادت أن تتحلّى بقوّةٍ رائدةٍ ألاسكيّة ناجية من معركة هرمجدون، أن تُعلِمَه بغضبها، تترك للغضب أن يكون سيفاً يطاوع يدها، بيد أنّه حينذاك نطق اسمها من جديد، منقوعاً بالنّدم الأسيف.

أدارت رأسها.

كان قد لوى جذعه بحيث استند بظهره إلى الباب. مع الثّلج والضّباب في الخارج، بدا يشعّ حياةً؛ شعره الأسود، وعيناه الدّاكنتان، وشاربه ولحيته الأسودان الكثيفان.

- أنا مريضٌ يا صهباء، وأنت تعلمين ذلك. الأطبّاء النّفسيّون يسمّونه اضطراب ما بعد الصدمة، وما هذه الكلمات إلّا هراء، غير أنّ ومضات الذّكريات والكوابيس حقيقيّة. ثمّة أشياء مريعة حقّاً لا أستطيع إخراجها من رأسي، وهي تدفعني إلى الجنون. لا سيّما الآن، مع ضيق حالنا.

- «الشّرب لا يساعد». قالت ليني عاقدةً ذراعيها.

- صحيح، ولا هذا الطّقس كذلك. وأنا آسف، أنا في غاية الأسف. سأكفّ عن الشّرب، لن يتكرّر هذا أبداً، أقسم بحبّي لكما.

- حقّاً؟

- «سأحاول بجدٍّ أكبر يا صهباء، أعدك. أنا أحبّ أمّك مثل...». تناهى صوته إلى همس: «هي لي بمنزلة الهيروين، تعلمين ذلك».

كانت ليني تعرف أنّ هذا ليس أمراً جيّداً، ليس علاقة سويّةً بين أمّ وأب، أن يقارن حبّه بمخدّر من شأنه أن يفرغ جسده، ويصهر دماغه، ويتركه نهباً

للموت. لكنّهما كانا يقولان هذا لبعضهما طوال الوقت، يقولانه كما تقول آلي ماكغرو في فيلم قصّة حبّ إنّ الحبّ يعني ألّا يتعيّن على المرء أن يتأسّف، كما لو كان كلاماً مُنزلاً.

كانت تريد أن تكتفي بندمه، وخزيه، وحزنه، كانت تريد أن تحذو حذو أمّها كعهدها الدّائب، تريد أن تصدّق أنّ اللّيلة الماضية لم تكن إلّا شذوذاً فظيعاً لن يتكرّر.

مدّ يده ولمس خدّها البارد: «تعلمين كم أحبّك».

- «أجل». قالت.

- لن يتكرّر ذلك.

عليها أن تصدّقه، أن تؤمن به.. ماذا عساه يكون عالمها من دون ذلك؟.. أومأت وخرجت من الحافلة، شقّت الثّلج بخطوات ثقيلة، ثمّ صعدت العتبات لتدخل إلى المدرسة الدّافئة.

حيّاها الصّمت.

ما من أحد يتكلّم.

كان الطّلاب في مقاعدهم، والآنسة رودز تقف عند اللّوح، تكتب: الحرب العالميّة الثّانية، كانت ألاسكا الولاية الوحيدة الّتي تعرّضت للغزو من قبل اليابانيّين. كان صريف طبشورتها الصّوت الوحيد في القاعة، لا أحد من الأولاد يتكلّم، أو يقرقر في ضحكه، أو يدفع زميله.

ماثيو جالس إلى طاولة مقعده.

علّقت ليني سترتها الكاويتشان على علّاقة بجانب معطف أحدهم، ثمّ نفضت الثّلج عن جزمة الأرنب خاصّتها. لم يلتفت أحد لينظر إليها.

وضعت صندوق غدائها جانباً، واتّجهت نحو مقعدها لتجلس بجانب ماثيو.

- «مرحباً». قالت.

رسم على وجهه ابتسامة خفيفة بالكاد تُلحظ، ومن دون أن يلتقي نظره بعينيها: «أهلاً».

استدارت الآنسة رودز كي تواجه الطّلّاب. حطّت نظرتُها على ماثيو، فتراخت. تنحنحت لتسلّك حنجرتها: «حسناً. بالنّسبة إلى آكسل، وماثيو، وليني، افتحوا على الصّفحة 172 من كتاب تاريخ الولاية. في صباح السّادس من يونيو عام 1942، اجتاح خمسمئة جنديّ يابانيّ جزيرة كيسكا، في أرخبيل ألوشيان. هذه هي المعركة الوحيدة التي خيضت على أرضٍ أمريكيّة خلال الحرب. لقد نسيها العديد من النّاس، لكن...».

أرادت ليني أن تمدّ يدها تحت الطّاولة وتمسك بيد ماثيو، أن تشعر بالمواساة التي تقدّمها لمسة صديق، لكن ماذا لو أبعد يده؟ ماذا ستقول حينها؟

ليس بوسعها أن تشكو من الهشاشة التي اتّضحت على عائلتها، ومن أنّها لم تعد تشعر بالأمان في بيتها، ليس بعد ما مرّ به هو.

كان يمكنها أن تقول ذلك في ما مضى -ربّما- حين كانت الحياة تبدو مختلفة لهما كليهما، لكن ليس الآن؛ إذ بات مكسوراً إلى درجة لا يقوى معها حتّى على الاستقامة في جلسته.

كادت تقول له: «ستصبح الأمور أفضل». لكنّها حينذاك رأت الدّموع في عينيه فأغلقت فمها. لا أحد منهما بحاجةٍ إلى السّفاسف المبتذلة الآن.

ما يحتاجان إليه هو العون.

❄

ازداد الطّقس سوءاً في يناير، وزاد البرد والظّلام من عزلة عائلة أولبرايت أكثر بعد. بات تلقيم مدفأة الحطب أولى الأولويّات، مهمّة مستمرّة على مدار السّاعة. تعيّن عليهم تقطيع كمّيّة ضخمة من الخشب وحملها وتكديسها كلّ يوم، لمجرّد أن ينجوا. وكما لو لم يسبّب كلّ ذلك من التّوتّر ما يكفي، كان الأب يوقظهما في اللّيالي السّيّئة -ليالي الكوابيس- وسط اللّيل، ليوضّبوا حقائب ضروريّات النّجاة، ويعيدوا توضيبها، ليختبروا جاهزيّتهم، ليفكّكوا أسلحتهم، ويعيدوا تركيبها.

كلّ يوم، تغرب الشّمس قبل الخامسة مساءً، ولا تشرق حتّى العاشرة صباحاً، ممّا يمنحهم إجماليَّ ستِّ ساعات من ضوء النّهار -وستّ عشرة ساعة من الظّلام- في اليوم. داخل الكوخ، لم تُظهر أكواب ديكسي الورقيّة بوادر خضرة جديدة. يمضي الأب ساعاتٍ منكبّاً فوق اللّاسلكيّ، يتحدّث إلى ماد إيرل وكلايد، لكنّ أجزاءً أكبر فأكبر من العالم تُقتطَع عنهم. لا شيء سهل المنال: لا جلب الماء، ولا الاحتطاب، ولا عَلْف الحيوانات، ولا الذّهاب إلى المدرسة.

لكنّ الأسوأ من كلّ ذلك كان المخزن الأرضيّ الذي يفرغ بسرعة. لم يعد لديهم أيّ خضراوات: لا بطاطا، ولا بصل، ولا جزر. وكان مخزونهم من السّمك يشارف على النّفاد، وفي الخبيئة تتدلّى فخذ أيل رنّة وحيدة. وبما أنّهم لا يأكلون شيئاً عدا البروتين تقريباً، كانوا يعلمون أنّ اللّحم لن يبقى طويلاً.

والداها يتشاجران بلا انقطاع بشأن انعدام المال والمؤن، وها هو غضب الأب -وهو بالكاد يسيطر عليه منذ الجنازة- يأخذ بالتّصاعد على رسله من جديد. بوسع ليني أن تشعر به ينفرد ويتشعّب، يشغل مساحة. كانت هي وأمّها تتحرّكان بحذر، تحاولان ألّا تفاقما غضبه أبداً.

اليوم، استيقظت ليني في الظّلام، تناولت فطورها وارتدت ملابسها من أجل المدرسة في الظّلام، ووصلت إلى صفّها في الظّلام. لم تظهر الشّمس بعينيها العمشاوين حتّى تجاوزت السّاعة العاشرة، لكن حين ظهرت نهاية الأمر، مرسلةً رايات الضّوء الأصفر الهشّ داخل قاعة الصّفّ الظّليلة التي تستمدّ ضياءها من القناديل ومدفأة الحطب؛ انتعش الجميع.

- «إنّه يوم مشمس! كان رجُل الأرصاد على حقّ». قالت الآنسة رودز من مكانها في مقدّمة الصّفّ. لقد أمضت ليني في ألاسكا وقتاً كافياً كي تعلم أنّ يوماً مشمساً أزرق السّماء من يناير هو أمر جدير بالملاحظة. «أظنّنا بحاجةٍ إلى الخروج من هذه القاعة، وإمداد رئاتنا بشيء من الهواء، ووجوهنا ببعض من شعاع الشّمس. انفضوا عنكم شباك عناكب الشّتاء، لقد خطّطتُ لرحلة ميدانيّة».

ندّت غمغمة عن آكسل، كان يكره أيّ شيء وكلّ شيء له علاقة بالمدرسة، وراح يحدّق من خلف شراريب شعره الأسود الشّبيه بأعشاش الجرذان، الذي لا يغسله أبداً. «أوه، بحقّك... ألا يمكننا الانصراف إلى المنزل مبكّراً وحسب؟ بوسعي الذّهاب لصيد السّمك في الجليد».

تجاهلت الآنسة رودز المراهقَ ذا الشّعر القذر: «الأكبر سنّاً بينكم -ماثيو وآكسل وليني- ساعدوا الصّغار على ارتداء معاطفهم ووضع حقائب ظهرهم».

- «أنا لن أساعد». قال آكسل ببلادة: «دعي عصفورَي الحب يتكفّلان بكلّ شيء».

التهب وجه ليني من التّعليق، ولم تنظر إلى ماثيو.

- «حسناً، أيّاً يكن». قالت الآنسة رودز: «بوسعك الذّهاب إلى المنزل».

لم يحتج آكسل إلى مزيدٍ من التّشجيع، أخذ معطفه وغادر المدرسة متعجّلاً.

نهضت ليني عن مقعدها، وذهبت لتساعد مارث وأغنيس في ارتداء معطفيهما. لم يحضر أحد آخر إلى المدرسة اليوم؛ لا بدّ من أنّ الرّحلة من شرم الدّبّ كانت عسيرة أكثر من اللّازم.

استدارت إلى الخلف، فرأت ماثيو واقفاً عند طاولة مقعده، كتفاه مثقلتان، وشعره المتّسخ مرتخٍ فوق عينيه. ذهبت إليه، ومدّت يدها حتّى لمست كمّ قميصه الفلانيل: «أتريد أن أجلب لك معطفك؟».

حاول أن يبتسم: «أجل، شكراً».

جلبت لماثيو معطفه المموّه وناولته إيّاه.

- «حسناً جميعاً، فلننطلق». قالت الآنسة رودز، وقادت الطّلّاب إلى خارج الصّفّ نحو النّهار المشرق بضوء الشّمس. ساروا عبر البلدة نحو المرفأ، حيث كانت طائرة بيفر عوّامة راسية عند الرّصيف.

كانت الطّائرة مبعّجة وبحاجة إلى طلاء، تتحرّك بصرير وتشدّ حبالها مع كلّ لطمة من المدّ الوارد. لدى اقترابهم، فُتح باب الطّائرة، ووثب منه رجُل نحيل بلحية بيضاء كثّة ليحطّ على الرّصيف. كان يعتمر قبّعة سائق شاحنة مهترئة، وينتعل فردتَي جزمة مختلفتين، وكانت الابتسامة التي قدّمها لهم كبيرة بحيث لكمت وجنتيه، وحوّلت عينيه إلى شقّين.

- «يا أولاد، أقدّم لكم ديتر مانس من هومر، كان يعمل طيّاراً لدى شركة بان آم. هيّا اصعدوا إلى متن الطّائرة». قالت الآنسة رودز، ثمّ حوّلت خطابها إلى ديتر: «شكراً يا صاح، أقدّر لك هذا». وأعادت نظرها بقلق إلى ماثيو: «كنّا نحتاج إلى تصفية رؤوسنا قليلاً».

- أومأ العجوز: «من دواعي سروري يا تيكا».

ما كانت ليني لتصدّق في حياتها السابقة أنّه قد سبق لهذا الرّجُل أن كان ربّاناً جويّاً لدى بان آم، لكن في هذه الأرجاء، ثمّة كثُرٌ ممّن كانوا شيئاً في الخارج وأصبحوا شيئاً آخر في ألاسكا. لارج مارج كانت مدّعيةً عامّةً في مدينة كبرى، وها هي الآن تستحمّ في مغسلة ثياب لوندرومات المأجورة، وتبيع العلكة، كما انتقلت ناتالي من تعليم الاقتصاد في جامعة إلى قيادة قارب صيدها الخاصّ. ألاسكا ممتلئة بأناس لا يمكن توقّعهم، مثل المرأة التي تعيش داخل حافلةٍ مدرسيّةٍ معطوبةٍ في منطقة رأس المرساة وتقرأ الكفّ؛ تقول الشّائعات إنّها كانت شرطيّة في مدينة نيويورك، والآن تتجوّل في الأنحاء بببّغاء على كتفها. كلّ شخص هنا لديه قصّتان: حياته السّابقة، وحياته الحاليّة. إن كنتَ تريد أن تصلّي لإله غريب الأطوار، أو تعيش في حافلة مدرسيّة، أو تتزوّج من إوزّة، فما من أحد في ألاسكا سيعلّق عليك بشيء. لا أحد يأبه إن كنت تحتفظ بسيّارةٍ قديمةٍ فوق مصطبة بيتك، ناهيك عن برّاد صدئ. بالإمكان عيش أيّ حياة يمكن تخيّلها في هذه الأنحاء.

دخلت ليني إلى الطّائرة، خافضةً رأسها، وطاويةً جذعها. حين أصبحت في الدّاخل، اتّخذت مقعداً في الصّفّ الأوسط، وثبّتت حزام الأمان. جلست الآنسة رودز بجانبها، ومرّ بهما ماثيو متثاقلاً، ورأسه مطأطأ، دون أن يلتقي نظره بنظرهما.

- «يقول توم إنّه لا يتكلّم كثيراً». قالت الآنسة رودز لليني منحنيةً نحوها.

- «لا أعرف ما يحتاج إليه». قالت ليني، واستدارت تراقب ماثيو يتّخذ مقعداً، ويشدّ حزام الأمان.

- «يحتاج إلى صديق». أجابت الآنسة رودز. بيد أنّه كان جواباً غبيّاً، من نمط الأشياء التي يقولها البالغون، وواضحاً. لكن ماذا يُفترض بهذا الصّديق أن يقول؟

صعد الطّيّار على المتن، وثبّت نفسه بالحزام، واعتمر سمّاعتَي رأس، ثمّ شغل المحرّك. سمعت ليني كركرة مارث وأغنيس من مقعديهما خلفها.

همهم محرّك العوّامة، وراح المعدن يقرقع من كلّ صوب حولها، والأمواج تصفع الأطواف.

كان الطّيّار يقول شيئاً بشأن وسائد المقعد، وما يتوجّب عمله في حال هبوطٍ غير محسوب في الماء.

- «مهلاً، هذا يعني سقوطاً، إنّه يتحدّث عمّا يتوجّب فعله إن هَوَت الطّائرة». قالت، وهي تشعر بالذّعر يشرئبّ.

- «سنكون على ما يرام». قالت الآنسة رودز: «لا يمكن أن تكوني ألاسكيّة وتخافي من الطّائرات الصّغيرة، فهي وسيلة تنقّلنا».

أدركت ليني أنّ هذا صحيح. بسبب ضآلة المساحة التي يمكن الوصول إليها بالطّرق البرّيّة من الولاية، كان للقوارب والطّائرات أهمّيّة هنا. في الشّتاء، تترابط أطراف ألاسكا المترامية من خلال الأنهار والبحيرات المتجمّدة، في حين تفصل بينها كلّ هذه المياه سريعة الجريان وتعزلها في الصّيف. تساعدهم طائرات الأدغال على التّنقّل. ومع ذلك، لم يسبق لليني أن كانت على متن طائرة من قبل، وبدا لها بجلاء أنّها غير ثابتة، ولا موضع ثقة، فتشبّثت بمسندَي الذّراعين، ولم تفلتهما. حاولت أن تكنس الخوف من فكرها فيما الطّائرة تهيم بمحاذاة حاجز الأمواج، وتقرقع بشدّة قبل أن تبدأ بالارتفاع إلى السّماء. تمايلت الطّائرة على نحوٍ يثير الغثيان، ثمّ

استوت في الجوّ. لم تفتح ليني عينيها، كانت تعرف أنّها سترى ما يرعبها إن فعلت: مزاليجَ قد تنخلع، نوافذ قد تتصدّع، جبالاً قد يصطدمون بها. راح فكرها إلى الطّائرة التي كانت قد اصطدمت بجبال الأنديز قبل بضع سنوات؛ لقد تحوّل النّاجون إلى أَكَلَة لحوم بشر.

آلمتها أصابعها، إلى هذا الحدّ كانت تشدّ قبضتيها.

- «افتحي عينيك». قالت الآنسة رودز: «ثقي بي».

فتحتهما، ودفعت لفّات شعرها المتذبذبة عن وجهها.

عبر كوّة من زجاج البلكسيغلاس، كان العالم شيئاً لم تشهده من قبل؛ أزرق.. أسود.. أبيض.. أرجوانيّاً.. ومن الامتياز الذي تمنحه هذه الإطلالة، دبّت الحياة في تاريخ ألاسكا الجغرافيّ من أجلها؛ رأت عنف مولدِه: براكين مثل ريداوت وأوغسطين تقذف حممها، ذرا جبال تطعن صفحة البحر وتشرئبّ منها لتقهرها من ثمّ المَجالدُ الزّرقاء الصّخريّة، أفاجيج تنحتها أنهار الجليد الزّاحف. أبصرت هومر، مُستكينةً فوق شريطِ يابسةٍ بين أجراف شاهقة من الحجر الرّمليّ، مفاوز تغطّيها الثّلوج، واللّسان الرّمليّ إصبع يشير إلى قلب الخليج. لقد صاغت المجالدُ كلّ هذا الرّيف، شقّت طرقاتها وتقدّمت في الأرض مَضغاً، لتغرف خلجاناً عميقة، وتترك جبالاً على جانبَي كلٍّ منها.

كانت الألوان مباهجَ تُشبع الأنظار، وسمقت جبال كيناي على الطّرف المقابل من الخليج الأزرق كشيء خارجٍ من حكاية سحريّة، نصال منشار بيضاء تنغرز عالياً، عالياً في لحم السّماء الأزرق. في بعض المطارح، كانت لحوافّ المجالد المنحدرة زُرقة بيوض أبي الحنّاء الشّاحبة.

ترامت الجبال حتّى ابتلعت الأفق؛ ذرا بيضاء مفلّلة فلّعَت حزوزَها

صدوعٌ سوداء ومجالد فيروزيّة. «واو!». قالت مقرّبةً نفسها أكثر إلى النّافذة. كانوا يحلّقون على مقربة من قمم الجبال.

ثمّ تدرّجوا هبوطاً، لينزلقوا منخفضين فوق مَنفذٍ خليجيّ. الثّلج يدثّر الأشياء كلّها، ينفرد رُقعاً لألاءةً على بساط الشّاطئ، حتّى إذا اقتربَ من الماء صيّره هذا إلى جليد وبُرشةٍ نصف ذائبة. مادت العوّامةُ وطفت في الهواء، لترتقي من جديد وتطير فوق أيكة من أشجار شيّبها الثّلج. رأت ذكر موظ ضخماً يدبّ نحو الخليج.

كانوا فوق مَنفذ ينخفضون بسرعة.

تشبّثت بالمسندين من جديد، أغمضت عينيها، واستعدّت.

حطّت الطّائرة بخبطةٍ مكتوّمةٍ قويّةٍ، واستأنفت الأمواج جَلدها للأطواف. أخمد الطّيّار المحرّك، ووثب من الطّائرة محدثاً رذاذاً من الماء الجليديّ البارد، جرّ العوّامة إلى ارتفاع أعلى فوق الشّاطئ ليربطها بجذعٍ ساقط. راح الثّلج المجروش يطفو حول كاحليه.

خرجت ليني من الطّائرة بأناة (لا شيء أخطر في هذه الأنحاء من الابتلال في الشّتاء)، مشت على طول الطّوف، ثمّ قفزت إلى الشّاطئ المكسوّ بنثار الثّلج. كان ماثيو خلفها تماماً.

جمعت الآنسة رودز رهط الطّلّاب على الشّاطئ الجليديّ: «حسناً يا أولاد، سنسير أنا والصّغار على الأقدام إلى حافّة الشّاطئ. ماثيو، اذهب أنت وليني واستكشفا، احظيا ببعض الوقت الممتع».

نظرت ليني حولها. جمال هذا المكان، جلاله الوقور، كان يغمرها بصنوف المشاعر. ثمّة سلام عميق وآسر يسكن هنا؛ ما من أصوات بشريّة، لا خبط أقدام، لا ضحك، ولا محرّكات دائرة. العالم الطّبيعيّ يتحدّث

بصوته الأعلى هنا، تنفّسُ المدِّ على وجه الصّخور، لطمات الماء لأطواف الطّائرة، النّباح القصيّ لأسود البحر الّتي تستلقي في جماعةٍ كسلى فوق صخرة، تحوطها حلقات النّوارس الثّرثارة.

الماء بعد جليد الشّاطئ هيولى زرقاء تُذهِل، باللّون الذي تتخيّله ليني للبحر الكاريبيّ، مع ترتر السّاحل الثّلجيّ المرصّع بصخور سوداء ضخمة طلاها البياض. قمم تعتمر الثّلج تطوّق المشهد بقوّتها العضليّة. وفي الأعالي، رأت ليني نقاطاً بلون العاج مبعثرةً على السّفوح ذات الانحدار المستحيل؛ ماعزاً جبليّاً. مدّت يدها في جيبها نحو بكرة الفيلم الأخيرة العزيزة.

لم تُطق انتظاراً حتّى تلتقط بعض الصّور، لكن عليها أن تكون حكيمةً حيال الفيلم.

من أين عساها تبدأ؟ من صخور الشّاطئ التي صقلها الجليد حتّى بدت مثل لآلئ خرجت من بطون المحار؟ من سَعَفِ السّرخس المتجمّد النّامي من جذع أسود وشّاه الثّلج؟ أم من ماء الفيروز؟ التفتت نحو ماثيو تهمّ بقول شيء، لكنّه كان قد ذهب.

استدارت، أحسّت بالماء الجليديّ يخربش جزمتها، ورأت ماثيو واقفاً على مسافة بعيدة، وحده، عاقداً ذراعيه. لقد أسقط معطفه؛ ها هو مرميّ على بعد إنشات من الأمواج الواردة. شعرُ الفتى يسوط صفحة وجهه.

خوّضت في الماء نحوه، تمدّ يدها: «ماثيو، عليك أن ترتدي معطفك. الجوّ بارد...».

نزع نفسه ليفلت من لمستها، وتعثّر مبتعداً. «ابتعدي عنّي». قال بخشونة: «لا أريدك أن تري...».

- «ماثيو؟». جذبت ذراعه وأرغمته على النّظر إليها، كان الأحمر يؤطّر عينيه من البكاء.

دفعها عنه، فتراجعت متلعثمَة الخطوات، وتعثّرت بقطعة خشب قذفها البحر لتهوي في سقطة قاسية.

حدث ذلك بسرعة كانت كافية لتخطف أنفاسها. رقدت هناك متمدّدة على الصّخور المتجمّدة، والماء البارد ينبسط نحوها، ثمّ حدّقت إليه، وكان الألم يلسع مرفقها.

- «يا إلهي!». قال: «هل أنت بخير؟ لم أقصد أن أفعل هذا».

نهضت ليني على قدميها، وحدّقت إليه. لم أقصد أن أفعل هذا! الكلمات نفسها التي سمعتها من أبيها.

- «ثمّة خطبٌ ما بي». قال ماثيو بصوت أرعش: «أبي يلقي اللّوم عليّ، وأنا لا أستطيع النّوم. ومن دون أمّي، المنزل غارق في سكونٍ يجعلني أريد أن أصرخ».

حارت ليني في الرّدّ.

- تراودني كوابيس.. عن أمّي. أرى وجهها، تحت الجليد.. تصرخ... لا أعرف ماذا أفعل، لم أرِد لك أن تعرفي.

- لماذا؟

- «أريد أن أروق لك. أحياناً تكونين الشّيء الوحيد... سحقاً... انسي الأمر». هزّ رأسه وعاد إلى البكاء: «أنا فاشل!».

- «لا، أنت بحاجة إلى بعض المساعدة لا أكثر». أجابته: «ومن عساه لا يحتاج إليها، إن مرّ بما مررتَ به؟».

- «خالتي في فيربانكس تريدني أن أذهب للعيش معها، تظنّ أنّه يجدر

بي أن ألعب الهوكي، وأتعلّم الطّيران، وأرى طبيباً نفسيّاً. سيتسنّى لي أن أكون مع آلي، إلّا إذا...». نظر إلى ليني.

– «إذنْ ستذهب إلى فيربانكس». قالت بهدوء.

أفلت تنهيدة ثقيلة. فكّرت أنّ الأمر ربّما قد حُسم مسبقاً، وكان يتحيّنُ فرصةً ليخبرها طيلة الوقت. «سأشتاق إليكِ».

سيذهب.. سيغادر...

أمام ذلك، شعرت بحسٍّ أليم من الأسى يتوسّع في صدرها. ستشتاق إليه كثيراً، لكنّه بحاجة إلى المساعدة. بسبب أبيها، كانت تعرف ما بوسع الكوابيس والحزن والحرمان من النّوم فعله بالمرء، وأيّ مزيج سامٍّ تؤلّفه هذه العناصر. أيّ صديقة تراها تكون إن هي اهتمّت بنفسها أكثر من اهتمامها به؟

«سأشتاق إليكَ». أرادت أن تجيبه بالمثل، لكن ما الجدوى؟ الكلمات لا تساعد.

❄

بعد مغادرة ماثيو، أمسى يناير أحلك ظلاماً، وأشدّ برداً.

– «ليني، هلّا أعددتِ الطّاولة للعشاء؟». طلبت أمُّها ذات ليلة اشتدّ بردها وعصفها، فيما الرّيح تخرمش بمخالبها تريد الدّخول، والثّلج يدوّم. كانت تقلي بعض لحم سبام المعلّب في مقلاة من الحديد الصّبّ، وتضغطه بمِلْوَقَتِها. شريحتا لحم سبام لثلاثة أشخاص هو كلّ ما لديهم.

تركت ليني كتاب الاجتماعيّات وذهبت إلى المطبخ، من دون أن ترفع عينها عن أبيها. كان يذرع مكانه عند الجدار الخلفيّ، يداه تنبسطان، ثمّ تعودان إلى قبضتيهما، كتفاه محدودبتان، وهو يغمغم لنفسه. كانت ذراعاه

نحيلتين مفتولتي العضلات، ومعدته مقعّرة تحت قميصه الدّاخليّ الطّويل الملطّخ.

ضرب جبينه بقسوة بعقب راحته، مدمدماً شيئاً غير مفهوم.

انسلّت ليني من حول الطّاولة ودخلت إلى المطبخ الصّغير.

نظرت إلى أمّها نظرة قلقة.

- «ماذا قلتما؟». قال الأب، وقد تجسّد من العدم خلف ليني، مثل طيف.

ضغطت الأمّ بالملوقة على شريحة سبام، فطفرت منها فقاقيع الشّحم، وحطّت إحداها على ظهر رسغها. «آخ! اللّعنة!».

- «هل تتحدّثان عنّي؟». ألحّ الأب.

أخذت ليني أباها برفق من ذراعه، وقادته إلى الطّاولة.

- كانت أمّك تتحدّث عنّي، أليس كذلك؟ ماذا قالت؟ هل أتت على ذكر توم؟

سحبت ليني كرسيّاً أقعدته عليه برويّة. «لقد كانت تتحدّث عن العشاء يا بابا، هذا كلّ شيء». همّت بالمغادرة، فجذبها من يدها، وشدّها بقوّة جعلتها تتعثّر وترتطم به: «أنت تحبّينني، صحيح؟».

لم يَرُق لليني تشديده على «أنت»: «أنا وماما كلتانا نحبّك».

أتت الأمّ كأنّها استُدعيَت، وضعت صحن لحم السبام الصّغير إلى جانب زبديّة مطليّة بالمينا تحتوي الفاصولياء المطبوخة بالسّكّر الأسمر التي أعدّتها ثيلما.

دنت منحنية، وطبعت قبلة على خدّ الأب، ثمّ حطّت راحتَها على وجهه.

بثّ ذلك الهدوءَ في روعه، تلك اللّمسة. تنهّد محاولاً أن يبتسم: «الرّائحة زكيّة».

اتّخذت ليني مقعدها وبدأت تسكب، وصبّت لنفسها كأساً خفيف التّركيز من الحليب المبودر.

جلست الأمّ قبالة ليني تنقّر في حصّتها من حبّات الفاصولياء، وتدفعها في أنحاء الطّبق، وهي تراقب الأب. غمغم شيئاً غير مسموع. «عليك أن تأكل شيئاً يا إيرنت».

- «لا أستطيع أن آكل هذا الخراء». أزاح طبقه جانباً، فهوى على الأرض وتكسّر.

اعترم ناهضاً، ومدّ خطوته مبتعداً عن الطّاولة بحركةٍ سريعةٍ، ثمّ انتزع معطفه عن علّاقة الجدار، وكاد يخلع الباب وهو يفتحه: «ما من طمأنينة تحت لعنة الرّبّ». قال مغادراً الكوخ، وصفق الباب في أثره. بعد لحظات، سمعتا اشتغال الحافلة، ثمّ استدارتها وابتعادها.

مدّت ليني نظرها فوق الطّاولة.

- «كلي». قالت الأمّ، وانحنت إلى الطّبق والكأس اللّذَين سقطا.

بعد العشاء، وقفتا جنباً إلى جنب، تجليان الأواني وتجفّفانها، ثمّ تعيدانها إلى الرّفوف فوق منضدة المجلى.

- «أتريدين أن نلعب ياتزي؟». سألت ليني أخيراً، وكان في سؤالها من الحماسة المقدار نفسه الذي حملته إيماءة أمّها الحزينة.

جلستا إلى طاولة ورق اللّعب، تلعبان قدر ما تتيح مقدرتهما على تحمّل الادّعاء.

كانت ليني تعرف أنّهما تنتظران كلتاهما سماع قعقعة الفولكس فاغن عائدةً إلى الفِناء، قلقتين، حائرتين أيّهما أسوأ: حضوره هنا أم ذهابه.

- «أين تظنّينه؟». سألت ليني أمّها بعد ما بدا ساعات.

- عند ماد إيرل، إن استطاع الوصول إلى هناك، أو في ذا كيكينغ موس، إن كانت الطّرقات سيّئة للغاية.

- «يشرب». قالت ليني.

- يشرب.

- ربّما علينا...

- «لا تبدئي». قالت الأمّ: «اذهبي إلى السّرير وحسب، اتّفقنا؟». أسندت ظهرها، وأشعلت إحدى آخر لفافاتها النّفيسة.

لمّت ليني أحجار النّرد وبطاقات النّقاط وعبوة هزّ النّرد الصّغيرة المصنوعة من الجلد الزّائف ذي اللّونين البنّيّ والأصفر، وأعادتها جميعاً إلى الصّندوق الأحمر.

تسلّقت إلى العلّيّة، وانسلّت زاحفة داخل كيس نومها من دون حتّى أن تتعب نفسها بتنظيف أسنانها. ومن الأسفل، سمعت أمّها تجوب المكان.

انقلبت ليني على جنبها لتتناول ورقة وقلماً. منذ ذهاب ماثيو، كانت قد كتبت إليه عدّة رسائل أودعتها لارج مارج البريدَ من أجلها. كان ماثيو يتقشّف في ردّ الرّسائل، تدوينات قصيرة عن فريقه الجديد للهوكي، وكيف يشعر لكونه في مدرسة لديها فرق رياضيّة بالفعل، خطّه رديء بالكاد تستطيع فكّ طلاسمه. تنتظر بلا صبر وصول كلّ رسالة، وتشقّ ظرفها على الفور. تقرأ كلّ واحدة مراراً وتكراراً، مثل مفتّش يبحث عن رؤوس خيوط أو تلميحات لعاطفة. لم تعلم لا هي ولا ماثيو ماذا يقولان تماماً، وكيف يستخدمان شيئاً غير شخصيّ كالكلمات في صوغ جسر بين حياتيهما المتفاوتتين، لكنّهما ظلّا يتراسلان. لم تعرف بعد كيف يشعر حيال نفسه،

أو حيال الانتقال، أو فقدان أمّه، لكنّها تعرف أنّه يفكّر فيها، وهذا أكثر من كافٍ كبداية.

عزيزي ماثيو،

تعلّمنا اليوم المزيد عن حمّى ذهب كلونديك في المدرسة، وقد ذكرت الآنسةُ رودز في الحقيقة جدّتَك كمثال على امرأة انطلقت إلى الشّمال وهي لا تملك شيئاً فعثرَتْ على...

سمعت صرخة.

هبّت مذعورة من كيس نومها، ونزلت على السّلّم في شبه انزلاق.

- «ثمّة شيء في الخارج». قالت أمّها خارجةً من غرفة نومها تحمل قنديلاً. في وهجه، بدت هائجةً وشاحبة السّحنة.

عوى ذئب، وتموّج عويله عبر الظّلام.

قريب.

أجابه ذئب آخر.

ردّ الماعز بصراخ، صيحة فظيعة نادبة بدت بشريّة.

أخذت ليني البندقيّة من جيب العلّاقة واتّجهت إلى الباب تريد فتحه.

- «لا!». صاحت أمّها، وشدّتها إلى الخلف بعنف: «لا يمكن لنا الخروج، قد تهاجمنا».

دفعتا السّتائر جانباً، وفتحتا النّافذة، فدهمهما البرد.

شعاع هزيل من ضوء القمر ينساب فوق الفناء. واهٍ ويشبه الوهم، لكنّه كافٍ ليريهما وميض حركة. الضّوء على فرو فضّيّ، أعين صفراء، أنياب. ذئاب تتحرّك في مجموعة نحو حظيرة الماعز.

- «اخرجوا من هنا!». صاحت ليني. شهرت البندقيّة وسلّطتها على شيء ما، حركة ما، وأطلقت.

كان للطلق النّاريّ صوت كأنّه تصدُّع. نبح أحد الذّئاب وأنّ.

أطلقت النار مجدّداً ومجدّداً، سمعت الرّصاصات تنطمر في الأشجار، وتئزّ على المعدن.

استمرّ صراخ الماعز الثّاغي أكثر وأكثر.

❄

هدوء.

فتحت ليني عينيها فوجدت نفسها ممدّدة على الأريكة، وأمّها بجانبها.

كانت النّار قد انطفأت.

مرتعدةً، دفعت ليني عنها كومة دُثُر الصّوف والفراء، وأعادت إيقاد النّار.

- «ماما، استيقظي». قالت ليني. كلتاهما ترتدي طبقات من الملابس، لكن حين غطّتا في النّوم أخيراً، كان يتملّكهما إرهاق شديد جعلهما تنسيان النّار: «علينا أن نتفقّد الوضع في الخارج».

نهضت الأمّ جالسة: «سنخرج حين يبزغ الضّوء».

نظرت ليني إلى السّاعة: السّادسة صباحاً.

بعد ساعات، حين صبّ الفجر أخيراً ضوءه البطيء المتردّد على الأرض، انتعلت ليني جزمة الأرنب البيضاء، وأخذت البندقيّة عن علّاقة الأسلحة عند الباب، ولقّمتها، فأصدر إغلاق المخزن طقّةً صاخبة.

- «لا أريد الخروج إلى هناك». قالت أمّها: «وكلّا، لن تخرجي بمفردك

يا آني أوكلي(*)». بابتسامة شاحبة، انتعلت جزمتها وارتدت معطفها مسدلةً قلنسوته المبطّنة بالفرو على رأسها، ثمّ لقّمت بندقيّة ثانية، ووقفت بجانب ليني.

فتحت ليني الباب، وخطت إلى الخارج فوق المصطبة المغطّاة بالثّلج شاهرةً بندقيّتها أمامها.

كان العالم بياضاً على بياض؛ الثّلج يتساقط مكتوماً، ولا أصوات.

سارتا فوق المصطبة، ثمّ نزلتا على العتبات.

اشتمّت ليني الموتَ قبل أن تراه.

كان الدّم يخطّط الثّلج قرب حظيرة الماعز المخرَّبة؛ لقد مُزّقت الدّعائم والأبواب ورقدت محطَّمة. الرّوث في كلّ مكان، أكوام قاتمة تختلط بالدّم والأشلاء والأحشاء. آثار الدماء تقود نحو الغابة.

كلّ شيء مهشّم: الحظائر، وفناء الدّجاج، والقنّ، لم يبقَ حيوان واحد، ولا حتّى أشلاء.

ظلّتا تحدّقان إلى الخراب حتّى قالت الأمّ: «لا يمكننا أن نبقى في الخارج، رائحة الدّم ستجذب المفترسات».

(*) آني أوكلي (1860–1926): رامية بندقيّة أمريكيّة شهيرة. (المترجم)

❄ 11 ❄

في الخارج، على الطّريق مع أمّها، وهما تسيران متشابكتي اليدين، أحسّت ليني نفسها مثل رائد فضاء يتحرّك ضمن بيئة بيضاء غير مضيافة؛ لم تكن تسمع شيئاً عدا تنفّسها، ووقع أقدامهما. حاولت إقناع أمّها أن تعرّجا على مسكن آل ووكر، أو لارج مارج، لكنّ الأمّ لم تصغِ؛ لم تكن تريد الاعتراف بما حدث.

في البلدة، كلّ شيء كان هامداً. الممشى الخشبيّ شريط من الجليد المكسوّ بالثّلج، نوازل الجليد تتدلّى من أفاريز المباني، والثّلج يغطّي السُّطوح كلّها. المرفأ ممتلئ بالأمواج المكلّلة بالبياض التي تلقي بقوارب الصّيد من جنب إلى جنب وتشدّ على حبالها.

كانت حانة ذا كيكينغ موس قد فتحت أبوابها بالفعل، أو ما تزال مفتوحة من اللّيلة السّابقة، الضّوء ينزف من الشّبابيك الكهرمانيّة، وثمّة بضع مركبات مركونة أمام المبنى؛ شاحنات وماكينات ثلج، لكنّها ليست كثيرة.

لكزت ليني أمّها بمرفقها، وأشارت برأسها نحو حافلة الفولكس فاغن المركونة قرب الحانة.

لم تبدر حركة عن أيّة منهما: «لن يسرّه أن يرانا». قالت الأمّ.

رأت ليني أنّ ذلك تصريح يهوّن الأمور.

- «لعلّه ينبغي لنا الذّهاب إلى المنزل». قالت أمّها ترتجف.

على الجانب الآخر من الشّارع، فُتح باب المخزن العامّ، وسمعت ليني رنين الجرس البعيد.

خرج توم ووكر من المخزن يحمل صندوقاً كبيراً من المؤن، ثمّ توقّف حين رآهما.

كانت ليني مدركةً بدقّة للمظهر الذي تبدو عليه هي وأمّها، غائصتين بالثّلج حتّى الرّكب، بوجهين متورّدين من البرد، وقبّعتاهما مبيضّتان متجمّدتان. لا أحد يخرج للمشي في طقس كهذا. وضع السّيّد ووكر صندوق مؤنه في القسم الخلفيّ من شاحنته، ودفعه نحو قمرة المركبة. خرجت لارج مارج من المخزن خلفه. رأتهما ليني يتبادلان النّظرات في عبوس، ثمّ يتّجهان نحوها هي وأمّها.

- «مرحباً يا كورا». قال السّيّد ووكر: «أنتما خارج المنزل في يوم سيّئ».

جعلت هبّةُ بردٍ الأمَّ ترتجف، واصطكّت أسنانها: «لقد داهمت الذّئاب فناءنا اللّيلة الماضية، لا أعـ.. أعرف عددها. قـ.. قتلت كلّ الماعز والدّجاج، وحطّمت الحظائر والقـ.. قنّ».

- هل قتل إيرنت أحدها؟ أتحتاجون إلى مساعدة في سلخ الجلد؟ قيمة الفراء...

- «لـ.. لا». قالت الأمّ: «كان الظّلام دامساً. أنا هنا فقط... لأسجّل طلباً بالمزيد من الصّيصان». نظرت إلى لارج مارج: «حين تذهبين إلى هومر المرّة القادمة، يا مارج. وكذلك المزيد من الأرزّ والفاصولياء، لكن... لقد نفدت نقودنا. ربّما يمكنني غسل الملابس، أو رتقها، أنا أجيد استخدام الخيط والإبرة».

انتبهت ليني كيف تقبّض وجه لارج مارج، وسمعت التّجديف الذي غمغمت به لنفسها: «لقد ترككما وحدكما، وهاجمت الذّئاب منزلكم. كان يمكن أن تموتا».

- «نحن بخير، لم نخرج». أجابت الأمّ.

- «أين هو؟». سأل السّيّد ووكر بهدوء.

- «لـ.. لا نعرف». كذبت الأمّ.

- «في ذا كيكينغ موس». قالت لارج مارج: «ها هي الفولكس فاغن».

- «توم، كلّا». قالت الأم، لكنّ الوقت كان قد فات. أخذ السّيّد ووكر يسير مبتعداً، يوسع خطاه عبر الشّارع الهادئ، ويتطاير الثّلج تحت وقع خطواته.

هرعت المرأتان -وليني- خلفه، في انزلاقٍ وتعثّرٍ بسبب العجلة.

- «لا يا توم، حقّاً». قالت الأم.

شدّ باب الحانة وفتحه، فشمّت ليني على الفور رائحة الصّوف الرّطب، والأجساد الّتي لا تغتسل، والكلاب المبلّلة، والخشب المحروق.

كان ثمّة خمسة رجال على الأقلّ هنا، من دون عدّ السّاقي المحدودب الأدرد. الضّوضاء تعمّ المكان: أيادٍ تخبط على براميل ويسكي اتُّخِذت طاولات، ومذياع بطّاريّة يدوّي معلناً: «ليروي براون السّيّئ للغاية». والرّجال كلّهم يتكلّمون في الوقت نفسه.

- «أجل، أجل، أجل». كان ماد إيرل يقول، وعيناه زائغتان: «أوّل ما سيفعلونه هو السّيطرة على المصارف».

- «والاستيلاء على أرضنا». أضاف كلايد بكلمات مختلطة.

- «لا لن يأخذوا أرضي وحقّ اللّعنة!». صدر هذا عن أبيها. كان يقف

تحت أحد القناديل المعلّقة، يترنّح بلا ثبات، والدّم محتقن في عينيه: «لا أحد يأخذ ما هو لي».

- «إيرنت أولبرايت، أيّها الخراء الرّذيل». هسّ السّيّد ووكر.

ذهل الأب في مكانه، ثمّ استدار، وانتقلت نظرته المحدّقة من السّيّد ووكر إلى الأمّ: «ما هذا بحقّ الجحيم؟».

اندلعت خطوات السّيّد ووكر قُدماً، وهو يطيح بالكراسي التي تعترضه، واندفع ماد إيرل مذعوراً ليفسح له الطّريق: «لقد داهمت مجموعة ذئاب بيتك ليلة أمس يا أولبرايت.. ذئاب». كرّر الكلمة.

نقل الأب عينيه إلى الأمّ: «ذئاب؟».

- «أنت ستتسبّب في مقتل عائلتك». قال السّيّد ووكر.

- اسمع يا...

- «لا، بل اسمع أنت». قال السّيّد ووكر: «لستَ أوّل تشيتشاكو يأتي إلى هنا من دون أي فكرةٍ عمّا سيفعله، ولستَ حتّى أغباهم، ولا تقاربُ أن تكون، لكنّ الرّجُل الذي لا يعتني بزوجته...».

- «أنت لا تملك الحقّ في الكلام عن إبقاء النّساء في مأمن، أليس كذلك يا توم؟». قال الأب.

شدّه السّيّد ووكر من أذنه، ولواها بشدّة جعلته يزعق مثل فتاة، ثمّ جرّه خارج الحانة النّتنة إلى الشّارع: «يجدر بي أن أشبعك ضرباً في أنحاء الشّارع». قال السّيّد ووكر بصوت خشن.

- «توم». توسّلت الأمّ: «أرجوك، لا تزد الطّين بلّة».

توقّف السّيّد ووكر، ثمّ استدار. رأى الأمّ واقفةً في مكانها مرتاعة، تكاد

دموعها تطفر، وشاهدته ليني يستجرّ نفسه عن حافّة الغضب الحانق. لم يسبق لها أن رأت رجُلاً يفعل هذا من قبل.

همد في مكانه عابساً، ثمّ دمدم بشيء غير مسموع، وجذب الأب بعنف إلى الحافلة. بعد فتح الباب، رفع الأبَ كمن يرفع ولداً ودفعه فوق مقعد المرافق: «يا لك من عارٍ ومصدر خزي!».

صفق الباب واتّجه نحو الأمّ.

- «أستكونين على ما يرام؟». سمعته ليني يسألها.

همست أمّها جواباً لم تستطع سماعه، لكنّها ظنّت أنّها سمعت السّيّد ووكر يهمس: \اقتليه، ورأت أمّها تهزّ رأسها.

لمس السّيّد ووكر ذراعها، بالكاد، لثانية لا أكثر، غير أنّ ليني رأت ذلك.

منحته الأمّ ابتسامةً متزعزعة وقالت: «ليني، اصعدي إلى الحافلة»، من دون أن ترفع عينيها عنه.

فعلت ليني ما طُلب منها.

تسلّقت الأمّ إلى مقعد السّائق ودوّرت الحافلة.

طوال الطّريق إلى البيت، كان بوسع ليني أن ترى الحنق يعتمر في أبيها، رأته في توسّع منخريه بين آن وآخر، في تقبّض يديه وارتخائهما، وسمعته في الكلمات التي لم يقلها.

لقد كان رجُلاً يتكلّم، لا سيّما مؤخّراً، لا سيّما في الشّتاء، لديه دائماً ما يقوله. والآن شفتاه مختومتان تماماً.

جعل ذلك ليني تشعر كأنّها حبلٌ ملفوفٌ حول وتدٍ، والرّيح تجذبه، تشدّه، فيما يصرخ الحبل مقاوماً وينزلق. لو لم يكن مربوطاً على نحوٍ

ممتاز لانحلّ، لتمزّق، ولعلّ الرّيح كانت لتقلع الوتد من مكمنه في غضبتها العارمة.

ما يزال ثمّة أثر ورديّ ساطع على أذنه، مثل حرق، في الموضع الذي أمسكه السّيّد ووكر منه وساقه إلى الخارج وأذلّه.

لم يسبق للّيني أن رأت أحداً يعامل والدها بهذه الطّريقة، وهي تعلم أنّ أبواب الجحيم ستنفتح بسبب هذا.

ارتجّت الحافلة، وتوقّفت أمام الكوخ، منحرفةً إلى الجانب قليلاً في الثّلج.

أطفأت الأمّ المحرّك، فترامى الصّمت، وصار أثقل في غياب هدير المحرّك الذي كان يخفي طبقةً من عمقه.

خرجت ليني وأمّها من الحافلة بسرعة، وتركتا الأب جالساً مكانه، وحده.

حين اقتربتا من الكوخ، شاهدتا من جديد الخراب الذي تركته الذّئاب. الثّلج يفترش كلّ شيء، في حفن مكوّمة فوق الأعمدة والألواح. أسلاك السّياج ناتئة في أكوام متشابكة، وثمّة باب يرقد نصف مكشوف. هنا وهناك -تحت المظلّات التي تشكّلها الأشجار في المعظم، لكن فوق قطع الخشب أيضاً- ثمّة دماء تحوّلت إلى جليد زهريّ اللّون، وكتل متجمّدة من الأشلاء، كما يمكن رؤية بضع ريشات ملوّنة.

أخذت الأمّ ليني من يدها وقادتها عبر الفناء إلى داخل الكوخ، ثمّ خبطت الباب بقوّة خلفهما.

- «سيُلحق بكِ الأذى». قالت ليني.

- أبوك رجُل يثمّن كبرياءه، أن يتعرّض إلى ذلك الإذلال...

بعد ثوانٍ، دُفع الباب منفتحاً، ووقف الأب بعينيه الملتمعتين بالكحول والحنق.

قطع الغرفة في وقت أقلّ ممّا احتاجت إليه ليني كي تسحب نفَساً، شدّ الأمّ من شعرها ولكمها في فكّها بشدّة اصطدمت على إثرها بالحائط، ثمّ انهارت أرضاً.

صرخت ليني وطارت نحوه، وتقوّست أصابع يديها متحوّلةً إلى مخالب.

- «لا يا ليني!». صرخت الأمّ.

أخذ الأب ليني من كتفيها، وهزّها بشدّة، ثمّ ملأ قبضته بخصل شعرها، وشدّها فوق الأرضيّة، وقدماها تتعثّران بالبساط، ثمّ دفعها خارجاً إلى البرد.

صفق الباب.

رمت ليني نفسها على الباب، وراحت تدكّه بجسدها حتّى خارت آخر قواها، ثمّ تداعت على ركبتيها تحت ظلّة السّقف المتدلّية الصّغيرة.

من الداخل، سمعت صوت تحطّم، شيء يتكسّر، وصرخة. أرادت أن تركض، أن تجلب المساعدة، لكنّ ذلك لن يزيد الطّين إلّا بلّة. ما من شيء بوسعه مساعدتهم.

أغمضت ليني عينيها وصلّت للرّبّ الذي لم يعلّمها أحد شيئاً عنه.

سمعت قفل الباب يُفتح... كم من الوقت مضى؟

لم تعرف.

نهضت ليني على قدميها المتعثّرتين متجمّدةً، ودخلت إلى الكوخ.

بدا المكان أشبه بساحة وغى؛ كرسيّ مكسور، شظايا زجاج تتناثر على الأرضيّة، دماء تبقّع الأريكة.

الأمّ بدت في حال أسوأ من كلّ ذلك.

للمرّة الأولى، قالت ليني لنفسها: كان يمكن أن يقتلها.

يقتلـ.. ها...

عليهما أن تغادرا.. الآن...

❄

اقتربت ليني من أمّها بحذر، تخشى أن تكون على حافّة الانهيار. «أين أبي؟».

- «أغمي عليه. في السّرير. أراد أن.. يعاقبني...». أشاحت بوجهها في خزي: «يجدر بك الذّهاب إلى سريرك».

اتّجهت ليني إلى العلّاقات قرب الباب، وجلبت معطف أمّها وجزمتها: «هاكِ، ارتدي ثياباً تبعث الدّفء».

- لماذا؟

- «افعلي ذلك وحسب». تحرّكت ليني بهدوء في أنحاء الكوخ، ودخلت على رسلها من ستارة الخرز. كان خفق قلبها مطرقة تدقّ قفصها الصّدريّ، وهي تنظر حولها، لترى ما جاءت تبحث عنه.

المفاتيح، حقيبة الأمّ؛ ليس فيها أيّة نقود.

أخذت الأغراض وهمّت بالخروج، ثمّ توقّفت واستدارت.

نظرت إلى أبيها، ممدّداً على وجهه فوق السّرير، عارياً، مؤخّرته مغطاة ببطّانيّة. ندبات الحروق تتجعّد وتلتوي فوق كتفيه وذراعيه، والجلد يبدو بلون زرقة الخزامى في الظّلّ. الدّم يلطّخ الوسادة.

تركته مكانه وعادت إلى غرفة المعيشة، حيث كانت أمّها واقفةً وحدها، تدخّن لفافة تبغ، وتبدو كأنّها تعرّضت للضّرب بهراوة.

- «هيّا بنا». قالت ليني آخذةً يدها تشدّها برفق وإلحاح.

- سألت الأمّ: «إلى أين نذهب؟».

فتحت ليني الباب، ودفعت أمّها بلين، ثمّ مدّت يدها نحو إحدى حقائب ضروريّات الكوارث الّتي كانت تظلّ دائماً قرب الباب، أغنيةً صامتةً تُنذر بالأسوأ الّذي قد يطرأ، تذكاراً بأنّ النّاس الأذكياء يكونون على أهبة الاستعداد.

علّقتها على كتفها، وانحنت في وجه الرّيح والثّلج تتبع أمّها نحو الحافلة: «ادخلي». قالت برقّة.

تسلّقت الأمّ إلى مقعد السّائق، وأدارت المفتاح إلى وضعيّة التّشغيل. وبينما أخذت الفولكس فاغن تسخن، قالت بفتور: «إلى أين نذهب؟».

ألقت ليني الحقيبة الكبيرة في القسم الخلفيّ من الحافلة: «سنغادر يا ماما».

- ماذا؟

صعدت ليني إلى مقعد المرافق: «سنهجره قبل أن يقتلك».

- «أوه، هذا ما تقصدينه، لا». هزّت الأمّ رأسها: «يستحيل أن يفعل ذلك، فهو يحبّني».

- أظنّ أنّ أنفك مكسور.

جلست الأمّ ساكنة لدقيقة بعد، والوجوم يصبّ وجهها في قالبه، ثمّ ببطء، نقلت عصا سرعة الفولكس فاغن القديمة، وانعطفت نحو مدخل المركبات، فأشارت المصابيح الأماميّة نحو طريق الخروج.

بدأت الأمّ تبكي بطريقتها الهادئة تلك، كأنّها ظنّت أنّ ليني لن تعرف. وفيما تقودان بين الأشجار، ظلّت تسترق النّظر إلى المرآة الخلفيّة،

وتمسح عبراتها. حين بلغتا الطّريق الرّئيسيّ، أخذت ريح وحشيّة تخرمش الحافلة. تعاملت الأمّ مع دوّاسة الوقود بحذر، محاولة إبقاء الحافلة ثابتة فوق أرضيّة الثّلج المرصوص.

مرّتا ببوّابة آل ووكر وتابعتا.

عند المنعطف التّالي من الطّريق، لكمت عصفة ريح الحافلةَ بقوّة كانت كافيةً لزحزحتهما في مكانهما. ارتطم غصن مكسور بالزّجاج الأماميّ، وعلق بعصا المسّاحة لثانية، ثمّ اضطرب أعلى وأسفل قبل أن يطير مبتعداً، ليكشف عن ذكر موظ عملاق أمامهما يعبر الطّريق عند منعطف.

صرخت ليني محذّرةً، لكنّها علمت أنّ الأوان فات. إمّا أن تصدما الموظ، وإمّا أن تنحرفا بقسوة بالغة، والاصطدام بحيوان من هذا الحجم قد يدمّر الحافلة.

أدارت الأمّ المقود، ورفعت قدمها برويّة عن الدّواسة.

دخلت الحافلة، التي لا تصلح للسير في الثّلج، في رقصة دوران بطيئة طويلة.

رأت ليني الموظ، وهما تنزلقان من جانبه؛ رأسه الضّخم على إنشات من نافذتها، ومنخراه يتوسّعان.

- «تشبّثي». صرخت الأمّ.

اصطدمت الحافلة بحيد ثلجيّ وانقلبت، تدحرجت بعنف في الهواء قبل أن تهوي عن الطريق، لترتطم بالأرض وسط صرير معدني مدوٍّ.

شاهدت ليني المشهد متقطعاً: أشجار رأساً على عقب، سفح تلّ يكسوه الثّلج، أغصان متكسّرة.

ارتطم رأسها بالنّافذة.

حين استعادت وعيها، كان الهدوء أوّل ما فطنت إليه. الألم في رأسها، ومذاق الدّم في فمها. أمّها متكوّمة بجانبها؛ كلتاهما في مقعد المرافق.

- ليني؟ هل أنت بخير؟

- أ.. أظنّ ذلك.

سمعت صوت هسيس -ثمّة خطب أصاب المحرّك- وأنيناً صارّاً لمعدن يستقرّ في مكانه.

قالت الأمّ: «الحافلة مقلوبة على جنبها، أظنّ أنّنا فوق أرض صلبة، لكنّنا ربّما نوشك على سقوط أعمق».

طريقة أخرى للموت في ألاسكا. «هل سيعثر علينا أحد؟».

- لن يكون أحد خارج منزله في طقس مثل هذا.

- حتّى لو كان ثمّة أحد، فلن يرانا.

متحرّكةً بحذر، تلمّست ليني حولها بحثاً عن حقيبة الظّهر الثّقيلة المقرقعة، وجدتها، ونقّبت فيها عن مصباح رأس؛ وإذْ ثبّتته على رأسها وضغطت المفتاح، كان الوهج أصفر للغاية، كأنّه من عالم آخر. بدت الأمّ بمظهر مروِّع، وجهها المكدوم أشبه بشمع يذوب.

وحينذاك رأت ليني الدّم في حضن أمّها وذراعها المكسورة؛ ثمّة عظم بارز من مزقة في كمّها.

- ماما! ذراعك.. ذراعك! يا إلهي...

- خذي نفساً. انظري إليه، انظري جيّداً. إنّه كسر عظميّ، وليس أوّل كسر يصيبني.

حاولت ليني أن تهدّئ ذعرها، فسحبت نفساً عميقاً، وجعلته يغمرها: «ماذا نفعل؟».

فتحت الأمّ سحّاب حقيبة الظّهر، وهمّت بإخراج قفّازات وكمامات من مطّاط النيوبرين باستخدام يدها السّليمة.

لم تستطع ليني أن تشيح نظرها عن العظم المتشظّي، الخارج من كمّ أمّها المنقوع بالدّم.

- حسناً، قبل كلّ شيء، أحتاج منك أن تضمّدي ذراعي لإيقاف النّزف. تعلّمتِ طريقة فعل هذا، أتتذكّرين؟ مزّقي الجزء السّفليّ من قميصك.

- لا أستطيع.

- «لينورا». قالت الأمّ بحدّة: «مزّقي قميصك».

كانت يدا ليني ترتعدان، وهي تستلّ السّكين من حزامها، وتستخدمها في تمزيق القماش، وعندما حصلت على شريط طويل من الفلانيل، تزحزحت إلى الجانب بأناة.

- فوق موضع الكسر، اربطيه أشدّ ما استطعتِ.

ثبّتت ليني القماشة حول عضد أمّها، فسمعت أنّة الألم التي ندّت عنها حين عقدتها.

- أنت بخير؟

- اعقديه أكثر.

شدّته ليني قدر ما استطاعت، ثمّ ربطته في عقدة.

أفلتت الأمّ تنهيدة راعشة، وانتقلت عائدةً إلى مقعد السّائق: «إليك ما علينا فعله؛ سأكسر نافذتي، وتتسلّقين عليّ، ثمّ تخرجين».

- لـ.. لكن...

- ما من لكن يا ليني، أحتاج منك أن تتحلّي بالقوّة الآن، اتّفقنا؟ أنت تحتاجين إلى ذلك. لن أتمكّن من الخروج، وإن ظللنا هنا اثنتانا، سنموت

متجمّدتين. عليكِ أن تذهبي في طلب النّجدة، أنا لا أستطيع التّسلّق والخروج من الحافلة بهذه الذّراع المكسورة.

- لا أستطيع فعلها.

- «تستطيعين يا ليني». أطبقت الأمّ يدها الدّامية فوق الضّمادة المرتجلة على ذراعها: «أحتاجك أن تفعليها».

- «ستتجمّدين ريثما أعود». أجابتها.

- «أنا أصلب ممّا أبدو عليه، ألا تتذكّرين؟ بفضل فوبيا هرمجدون التي لدى أبيك، لدينا حقيبة ضروريّات: بطّانيّة نجاة، وطعام، وماء». أرخت ابتسامة ذاوية: «سأكون على ما يرام. اذهبي وأحضري النّجدة، اتّفقنا؟».

- «حسناً». حاولت ألّا تكون خائفة، لكنّ جسمها يرتعد برمّته. ارتدت قفّازيها وكمامة النّيوبرين، ورفعت سحّاب معطفها.

أخرجت الأمّ مطرقة طوارئ من تحت مقعدها: «مسكن آل ووكر هو الأقرب، لا أظنّه يبعد أكثر من ربع ميل من هنا. اذهبي إليه، أتستطيعين بلوغه؟».

- أجل.

صدرعن الحافلة صرير كليل، استقرّ للحظة، ثمّ زال.

- أحبّك يا فتاتي الصّغيرة.

حاولت ليني ألّا تبكي.

- احبسي أنفاسك، اصعدي، إلى أعلى.

طرقت الأمّ النّافذة بالمطرقة، بضربة قويّة وسريعة.

طقطق الزّجاج في ما يشبه شبكة عنكبوت وارتخى. ظلّ متماسكاً مدّة ثانية، ثمّ تكسّر بصوت فرقعة، فانكبّ الثّلج إلى داخل الحافلة، وغطّاهما.

كان البرد صادماً.

تمايلت ليني إلى الأمام، تسلّقت فوق أمّها محاولةً ألّا تصيب ذراعها، وهي تسمع أنينها المتألّم، وتشعر بيدها السّليمة تنبت من الثّلج لتدفعها.

تملّصت عبر النّافذة.

صفعها غصنٌ في وجهها. تابعت التّقدّم زاحفةً على جنب الحافلة حتّى بلغت سفح التّل، الذي كان قد امتلأ خدوشاً وندوباً بسبب المركبة المندفعة؛ تراب أسود، وأغصان متكسّرة، وجذور مكشوفة.

دفعت نفسها قُدماً، تتأرجح بحثاً عن موطئ قدم أعلى، وتسلّقت سفح التّل.

بدا الأمر وكأنه استغرق دهراً. كانت تحفر بأصابعها، وتتشبّث بكل ما تصل إليه، وتجرّ نفسها إلى الأعلى، تتنفّس بصعوبة، وتتنشّق الثّلج، لكنّها نجحت أخيراً؛ رمت نفسها من فوق الحافّة، وحطّت على وجهها فوق الثّلج، على الطّريق زحفت على أربع، لاهثة، ثمّ نهضت واقفةً على قدميها.

ابيضاض. كان مصباح رأسها يلقي بوهج رقيق كالشفرة، والرّيح تحاول دفعها عن الطّريق فيما هي تبدأ رحلتها المضنية. الأشجار ترتجف في كلّ حدب وصوب، تنحني وتطقطق. الأغصان تتطاير مارّةً بها، وتخدش الأرض المفتّتة. أحدها ضربها بقوّة في جنبها، وكاد يرميها.

كان الضّوء بمنزلة خطّ إمدادها الحيويّ هنا. بدأ صدرها يؤلمها من الهواء القارس الذي تتنفّسه، وانبثقت غرزة من الألم المفاجئ في جنبها. تفصّد العرق متقطّراً على ظهرها، ودبّق يديها داخل قفّازيها.

لم تكن تملك فكرة كم مضى عليها، وهي تحمل خطاها الثّقيلة قُدماً،

محاولةً ألّا تتوقّف، أو تبكي، أو تصرخ، حين أبصرت البوّابة الفضّيّة تلوح في الأعالي، وفوقها جمجمة البقرة تعتمر قبّعةً من الثّلج.

دفعت ليني البوّابة فوق الأرض الوعرة لتفتحها، جارفةً الثّلوج جانباً.

أرادت أن تنطلق راكضةً، تصيح: النّجدة! لكنّها كانت أوعى من ذلك. قد يكون الرّكض الخطأ رقم اثنين. عوضاً عن ذلك، أخذت تشقّ طريقها عبر الثّلج الذي يبلغ ركبتيها، والغابة على يمينها تحجب شيئاً من الرّيح.

تطلّب منها الوصول إلى منزل آل ووكر خمس عشرة دقيقة على أقلّ تقدير. ولدى اقترابها، رأت ضوءاً في النّوافذ، فشعرت بلذعة الدّموع؛ دموع تجمّدت في زوايا عينيها، تؤلمها وتشوّش رؤيتها.

همدت الرّيح دفعةً واحدةً؛ وأخذ العالم نفَساً هادئاً، تاركاً صمتاً شبه مطبق، لا تشوبه سوى أنفاسها الممزّقة، والخرير النّائي للأمواج فوق شاطئ متجمّد.

تعثّرت فوق أكوام الخردة والسّيّارات القديمة المكسوّة بالثّلج، مروراً بقفران النّحل. مع دنوّها، أخذت الأبقار تخور وتخبط بحوافرها متلملمةً على بعضها، تحسّباً لأن يكون القادم مفترساً، وكذلك ثغا الماعز.

صعدت ليني العتبات الملساء من الجليد، وراحت تخبّط على الباب الأماميّ.

أجاب السّيّد ووكر سريعاً، وفتح الباب. حين رأى ليني، انقلب وجهه: «يا للمسيح!». شدّها إلى داخل المنزل، عبر المدخل القطبيّ المرصوف بالمعاطف والقبّعات والجزم، إلى مدفأة الحطب.

كانت أسنانها تصطكّ بقوّة خشيت معها أن تعضّ لسانها فتقطعه إن حاولت الكلام، لكن عليها أن تفعل.

- لقـ.. لقـ.. لقد انقـ.. انقلبت الحـ.. حـ.. حافلة، مـ.. ماما عالقة.

- أين؟

لم تعد قادرةً على كبح دموعها الآن، ولا ارتجافها: «قرب مُنـ.. منعطف الطّريق قبل مسـ.. مسكن لارج مارج».

أومأ السّيّد ووكر: «حسناً». تركها واقفةً مكانها ترتجف وترتعش فترةً كافيةً كي يعود في ملابس ثلج، تتدلّى على كتفه حقيبة بفتحة مزمومة.

ذهب إلى جهاز اللّاسلكيّ، ووجد تردّداً شاغراً. انبثق صوت التّشويش مطقطقاً، ثمّ صدرت صرخة أزيز عالية الطّبقة. «لارج مارج». تحدّث عبر لاقط الصّوت اليدويّ: «معك توم ووكر. حادث سيّارة قرب منزلي على الطّريق الرّئيسيّ. نحتاج إلى النّجدة. في طريقي. انتهى». ثمّ رفع إبهامه عن الزّرّ، فعَلا صوت التّشويش من جديد، وكرّر الرّسالة، ثمّ أغلق الإرسال: «هيّا بنا».

أيكون أبوها قد سمع ذلك؟ أتراه كان يستمع أم لم يزل مغشيّاً عليه؟

نظرت ليني بقلق إلى الخارج، نصفَ متوقّعة أن يتجسّد أبوها من العدم أمامها.

أخذ السّيّد ووكر بطّانيّة صوف مقلّمةً بالأحمر والأصفر والأبيض من خلف الأريكة، ولفّ ليني بها.

- ذراعها مكسورة، إنّها تنزف.

أومأ السّيّد ووكر، ثمّ أخذ يدها المكسوّة بالقفّاز في يده، وسحبها خارج المنزل الدّافئ معيداً إيّاها إلى البرد القارس.

في المرأب، دارت شاحنته الكبيرة على الفور. انتشرت الحرارة لتدثّر قمرة القيادة، فجعلت ارتعاش ليني يشتدّ. لم تستطع أن تكفّ

عن الارتعاش، وهما يعبران مدخل المركبات، وينعطفان نحو الطّريق الرّئيسيّ، حيث أخذت الرّيح تضرب الزّجاج الأماميّ، وتصفر عبر كلّ صدع من الهيكل المعدنيّ.

خفّف توم دعسته على دوّاسة الوقود؛ فتباطأت الشّاحنة، وصدرت عنها دمدمة وأنين.

- «هناك!». قالت تشير إلى حيث كانتا قد انحرفتا عن الطّريق. ولدى توقّف السّيّد ووكر جانباً، ظهرت أمامهما مصابيح أماميّة.

ميّزت ليني شاحنة لارج مارج.

- «ابقي داخل الشّاحنة». قال السّيّد ووكر.

- لا!

- «ابقي هنا». أخذ حقيبته وخرج صافقاً الباب خلفه.

رأت ليني السّيّد ووكر في وهج المصابيح الأمامية يلتقي بلارج مارج في منتصف الطّريق. ألقى حقيبته، وأخرج منها حبلاً ملفوفاً.

ضغطت ليني بوجهها على النّافذة، أنفاسها تغبّش الرّؤية، وهي تمسحها بنفاد صبر.

ربط السّيّد ووكر إحدى نهايتي الحبل بجذع شجرة، وأوثق الأخرى حول خصره في تكنيك قديم الطّراز.

وبعد تلويحة إلى لارج مارج، دلّى نفسه عن الحاجز واختفى.

دفعت ليني الباب، وفتحته تعارك الرّيح، يعميها الثّلج، كي تقطع الشّارع.

كانت لارج مارج تقف عند حافّة الحاجز.

ألقت ليني نظرة من فوق الحافّة، فرأت أشجاراً متكسّرة، وجسد

الحافلة الثّقيل الغارق بالظّلّ. أضاءت مصباحها اليدويّ ووجّهته إلى الأسفل، لكنّه لم يُصدر ضوءاً كافياً. سمعت صرير معدن، وخبطة مكتومة، وصرخة امرأة.

ثمّ... ظهر السّيّد ووكر من جديد في حزمة الضّوء الواهية، وأمّها تتشبّث بجنبه، مربوطةً إليه.

شدّت لارج مارج الحبل بيديها المكسوّتين بقفّازين، ترفعهما، يداً تلو الأخرى، إلى أن تعثّر السّيّد ووكر من جديد يحاول اعتلاء الطّريق، والأمّ مرتخية عند جنبه، فاقدةً الوعي، تثبّتها قبضته. «إنّها في حالة سيّئة». هتف السّيّد ووكر في الرّيح: «سآخذها بالقارب إلى المستشفى في هومر».

- «ماذا عنّي؟». صاحت ليني. بدا أنّهما نسيا وجودها.

رمق السّيّد ووكر ليني بإحدى نظراتِ «أيّتها البنت المسكينة» تلك التي تعرفها جيّداً: «أنتِ تعالي معي».

❄

كانت غرفة الانتظار الصّغيرة في المستشفى هادئة.

جلس توم ووكر بجانب ليني، كوّم معطفه في حضنه. كانوا قد قادوا السيّارة إلى شرم آل ووكر أوّلاً، حيث حمل الأمّ إلى الرّصيف المائيّ، ووضعها برفق فوق المقعد الطّويل في قاربه المصنوع من الألمنيوم، ثمّ انطلقوا يبحرون حول السّاحل الصّخريّ إلى هومر.

حمل السّيّد ووكر الأمّ في المستشفى إلى المكتب الأماميّ. وليني تركض بجانبه، تلمس كاحل أمّها، معصمها، أيّ شيء تستطيع بلوغه منها.

كانت ثمّة امرأة من السّكّان الأصليّين بضفيرتين طويلتين تجلس خلف المكتب، تنقر بلا توقّف على آلة كاتبة.

خلال لحظات، جاءت ممرّضتان لتأخذا الأمّ.

- «الآن ماذا؟». سألت ليني.

- الآن ننتظر.

جلسا هناك، بلا كلام؛ ليني تجد صعوبة في كلّ نفسٍ تسحبه، كما لو أنّ لرئتيها عقلاً خاصّاً بهما يمكن أن يتوقّف عن العمل. ثمّة الكثير جدّاً ممّا يُخشى: إصابة أمّها، فقدان أمّها، قدوم أبيها (لا تريد أن تفكّر كم سيكون غاضباً... ماذا سيفعل حين يدرك أنّهما كانتا تهمّان بالمغادرة)، والمستقبل. كيف ستغادران الآن؟

- أأحضر لك شيئاً تشربينه؟

كانت ليني غارقةً حتّى شحمتي أذنيها في حفرة مخاوفها، إلى درجة أنّها استغرقت قليلاً حتّى تدرك أنّ السّيّد ووكر يكلّمها.

رفعت عينيها العمشاوين: «وهل من شأن هذا أن يساعد؟».

- «لا». مدّ يده نحو يدها، وأمسكها. تفاجأت من التّلامس غير المتوقّع بحيث كادت تسحب يدها، غير أنّ ذلك بدا لطيفاً أيضاً، لذا أمسكت يده بالمقابل. لم تستطع ألّا تتساءل كم ستختلف الحياة لو أنّ توم ووكر كان أباها.

- «كيف حال ماثيو؟». سألته.

- حالته تتحسّن يا ليني، شقيق جيني سيعلّمه الطّيران. كما أنّه يراجع معالجاً نفسيّاً. إنّه يحبّ رسائلك، شكراً لك لبقائك على تواصل معه.

كانت هي أيضاً تحبّ رسائله، أحياناً تشعر أنّ سماع أخبار ماثيو هو الجزء الأفضل في حياتها: «أنا مشتاقة إليه».

- أجل، وأنا كذلك.

- هل سيعود؟

- لا أدري. ثمّة الكثير هناك؛ أولاد في سنّه، دور سينما، فرق رياضة. وأنا أعرف ماتي، حالما يسيطر على طائرة للمرّة الأولى، سيقع في الغرام. إنّه ولد يحبّ المغامرة.

- لقد أخبرني أنّه يريد أن يصبح طيّاراً.

- «أجل، أتمنّى لو كنت أصغي إليه على نحوٍ أفضل قليلاً». قال السّيّد ووكر متنهّداً: «كلّ ما في الأمر أنّني أريد له السّعادة».

دخل طبيب إلى غرفة الانتظار، واقترب نحوهما. كان رجُلاً ممتلئ الجسم، بصدر عريض يكدح كي يتحرّر من سجن بدلته الطّبّية الزّرقاء، له المظهر الصّارم الذي يشي بالإفراط في الشّرب ويميّز كثيراً من الرّجال القاطنين في الأحراش، لكنّ شعره مشذّب بعناية، وكان -في ما خلا الشّارب الرّماديّ الكثّ- حليقاً تماماً: «أنا د. إيرفينغ، لا بدّ من أنّك ليني». قال، وهو ينزع قبّعة الجراحة.

أومأت ليني ونهضت على قدميها: «كيف حالها؟».

- «ستكون على ما يرام. جبّرنا ذراعها، لذا ستحتاج إلى الرّاحة لنحو ستّة أسابيع، أو ما شابه، لكن لا أظنّ أنّ هنالك ضرراً دائماً». نظر إلى ليني متابعاً: «لقد أنقذتِها يا سيّدتي الشّابّة، أكّدت عليّ أن أقول لك هذا».

- «أيمكننا أن نراها؟». سألت ليني.

- بالطّبع، اتبعاني.

سارت ليني والسّيّد ووكر خلف د. إيرفينغ عبر البهو الأبيض إلى داخل غرفة على بابها لافتة كُتب عليها: «إنعاش»، ودفع الباب فاتحاً إيّاه.

كانت الأمّ في مهجع مجلّلٍ بستائر قماشيّة، تجلس باستقامة فوق سرير

ضيّق، وتلبس رداء مستشفى، وقد بُسط على حضنها دثار للتّدفئة. ذراعها اليسرى مطويّة في زاوية تسعين درجة، ومغلّفة بجبيرة من الجصّ الأبيض، ثمّة خطب ما بأنفها، وعيناها كلتاهما تظهران علامات كدمات.

- «ليني». قالت، ورأسها يتدلّى قليلاً إلى اليمين فوق كدسة من المخدّات خلفها، تعلوها السّيماء الكسولة فاقدة التّركيز لشخص تحت تأثير التّخدير: «أخبرتك أنّني صلبة». تابعت بصوتٍ مشوّهٍ بعض الشّيء: «آه يا فتاتي الصّغيرة، لا تبكي».

لم تستطع ليني منع نفسها؛ حين رأت أمّها بهذه الحال، وقد نجت من الحادثة، كلّ ما استطاعت التّفكير فيه كان مدى هشاشة الأمّ، وكم يمكن فقدانها بسهولة. جعلها الأمر تفكّر بحدّة وتوق في ماثيو، وكيف يمكن للموت أن يجتاح بسرعة ومن دون سابق إنذار.

سمعت الطّبيب يودّعهم ويغادر الغرفة.

اقترب السّيّد ووكر من سرير الأمّ: «كنت تهمّين بهجره، أليس كذلك؟ أيّ سبب آخر عساه يدفعك إلى الخروج في هذا الطّقس؟».

- «كلّا». هزّت الأمّ رأسها.

- «باستطاعتي أن أساعدك». قال: «باستطاعتنا أن نساعدك جميعنا. لارج مارج كانت مدّعيةً عامّةً، ويمكنني الاتّصال بالشّرطة، وإخبارهم أنّه يؤذيك. هو يفعل هذا، صحيح؟ أنفك لم يتعرّض للكسر خلال الحادثة، أليس كذلك؟».

- «ليس بوسع الشّرطة مساعدتي». أجابت الأمّ: «أنا أعرف النّظام، أبي محامٍ».

- سيزجّونه في السّجن.

- كم من الوقت؟ يوم؟ يومين؟ سيعود للانتقام منّي، أو منك، أو من ليني. أتظنّني أستطيع العيش مخاطِرةً بالآخرين؟ وعدا عن ذلك... حسناً...

سمعت ليني كلمات أمّها التي لم تُنطق: أنا أحبّه.

حدّق السّيّد ووكر إلى الأمّ، التي كانت مكسوّة بالكدمات والأضمدة إلى درجة بالكاد تشبه معها نفسها: «كلّ ما عليك فعله هو أن تطلبي المساعدة». قال بهدوء: «أريد أن أساعدك يا كورا، لا شكّ أنّك تعرفين أنّني...».

- أنت لا تعرفني يا توم، لو كنت تعرفني...

رأت ليني الدّموع تتجمّع في عيني أمّها: «ثمّة شيء خاطئ فيّ». قالت على رسلها: «أحياناً يبدو قوّةً، وأحياناً أخرى ضعفاً، لكنّني لا أعرف كيف أكفّ عن حبّه».

- «كورا!». سمعت ليني صوت أبيها، ورأت أمّها تنكمش، وتغوص في الوسائد خلفها.

تراجع السّيّد ووكر من قرب سريرها خلسة.

تجاهله الأب تماماً، واندفع متجاوزاً إيّاه: «يا إلهي يا كورا! هل أنت بخير؟».

بدت الأمّ تذوب أمامه: «لقد تعرّضنا لحادث بالحافلة».

- «ما الذي كنتما تفعلانه خارجاً في هذا الطّقس؟». سأل، لكنّه كان يعرف الجواب؛ رأت ليني ذلك في عينيه. كان ثمّة خدش عميق فوق وجنته.

انسحب السّيّد ووكر نحو الباب، رجلاً كبيراً يحاول الاختفاء. رمق ليني بنظرة حزينة عارفة، وغادر الغرفة، مغلقاً الباب خلفه بهدوء.

- «كنّا بحاجة إلى الطّعام». أجابت الأمّ: «أردت أن أعدّ لك عشاءً مـ.. مميّزاً».

أرخى الأب يده التي شقّقها العمل على وجنتها المتورّمة المكدومة، كما لو بوسع لمسته أن تشفيها: «سامحيني يا حبيبتي، سأقتل نفسي إن لم تفعلي».

- «لا تقل هذا». قالت الأمّ: «إيّاك أن تقول هذا، تعرف أنّني أحبّك، أنت فقط».

- «سامحيني». كرّر ثمّ استدار: «وأنت أيضاً يا صهباء، سامحي رجُلاً غبيّاً لا يستطيع تمالك نفسه أحياناً، لكنّه يحبّك، وسيحسن التّصرّف».

- «أحبّك». قالت الأمّ، وباتت تبكي الآن هي الأخرى، ففهمت ليني فجأةً واقع عالمها، الحقيقة التي أماطت ألاسكا -بكلّ وعورتها الجميلة- النّقابَ عنها. إنّهم محاصرون، محاصرون بالبيئة والظّروف الماديّة، لكن بالحبّ المريض المختلّ الذي يجمع والديها قبل أيّ شيء آخر.

لن تهجر أمّها أباها أبداً؛ لا يهمّ إن وصل بها الأمر إلى أن تأخذ حقيبة ظهر، وتركض إلى الحافلة، وتقودها مبتعدة. سترجع.. في كلّ مرّة.. لأنّها تحبّه، أو تحتاج إليه، أو تخافه. من يدري حقّاً؟

ما كان لليني أن تبدأ حتّى باستيعاب حيثيّات حبّ والديها وأسبابه؛ هي كبيرة كفاية كي ترى السّطح المضطرب، لكنّها أصغر من أن تعرف ما يكمن تحته.

لن تستطيع الأمّ أن تهجر الأب، وليني لن تترك أمّها، وأبوها لن يسعه تركهما تذهبان. في هذه العُقدة السّمّيّة التي تكوّن عائلتهم، ما من مهرب لأيّ منهم.

❄

تلك اللّيلة، أعادا الأمّ إلى المنزل من المستشفى.

كان الأب يمسك بها كما لو كانت من زجاج؛ بحذر شديد، بتخوّف شديد على سلامتها، وذلك ملأ ليني بحنق عقيم.

ثمّ حدث أن لمحته والدموع تملأ عينيه، فرقّ حنقها، وانزلق متحوّلاً إلى شيء شبيه بالغفران. لم تعرف كيف تحبس أو تبدّل أيّاً من هذين الشّعورين؛ كان حبّها له متشابكاً بالكراهية. أحست بالشّعورين كليهما يتزاحمان فيها، ويتدافعان بالمناكب نزاعاً على الصّدارة.

أركن الأمّ في دعة السّرير، وخرج من فوره لتقطيع الخشب. لم تكن كومة الحطب كافية على الإطلاق، وكانت ليني تعلم أنّ بذل الجهد البدنيّ يساعده بطريقة ما. جلست بجانب سرير أمّها قدر ما استطاعت، ممسكةً بيدها الباردة. كان لديها الكثير من الأسئلة التي تريد طرحها، لكنّها تعرف أنّ الكلمات القاسية لن تؤدي إلا إلى جعل والدتها تبكي، لذا لم تقل شيئاً.

في الصّباح التّالي، كانت ليني تنزل على السّلّم عندما سمعت أمّها تبكي.

دخلت إلى غرفة نومها فوجدتها جالسةً على السّرير (فراش على الأرضيّة لا غير)، تسند ظهرها إلى جدار الخشب المقشور، وجهها متورّم، وعيناها مزرقّتان ومسودّتان معاً، وأنفها يميل إلى اليسار قليلاً من مكانه المعتاد.

- «لا تبكي». قالت ليني.

- «لا بد أنك ترينني بأسوأ صورة». قالت الأمّ، تتلمّس الشّقّ في شفتها بحذر: «أنا من جَررته إلى ذلك، صحيح؟ قلتُ الشّيء الخاطئ بلا شكّ، أليس كذلك؟».

لم تعرف ليني كيف تردّ على هذا. أتقصد أمُّها أنّها المذنبة، وأنّها لو كانت أكثر هدوءاً، أو دعماً، أو أبدت المزيد من القبول لما انفجر أبوها؟ لم يبدُ ذلك صحيحاً لليني، على الإطلاق. كان يفقد أعصابه أحياناً، وأحياناً لا، هذا كلّ ما في الأمر. بدا خاطئاً أن تتحمّل أمّها اللّوم، بل حتّى خطِراً.

- «أنا أحبّه». قالت الأمّ، محدّقةً إلى ذراعها المجبّرة: «لا أعرف كيف أكفّ عن ذلك، لكن عليّ أن أفكّر فيكِ أيضاً. يا إلهي... لا أدري لماذا أتصرّف هكذا، لماذا أتركه يعاملني بهذه الطّريقة. الأمر أنّني لا أستطيع أن أنسى من كان قبل الحرب، أظلّ أفكّر أنّه سيعود إلى عهده، الرّجل الذي تزوّجت منه».

- «أنت لن تتركيه أبداً». قالت ليني بهدوء، حاولت ألّا تجعل كلامها يبدو اتّهاماً.

- «أتريدين ذلك حقّاً؟ ظننت أنّك تحبّين ألاسكا». قالت الأمّ.

- «لكنّني أحبّك أكثر، وأنا... خائفة». أجابت ليني.

- الأمر كان سيّئاً هذه المرّة، أعترف بهذا، لكنّه أخافه. حقّاً. لن يتكرّر ذلك، لقد وعدني.

تنهّدت ليني. فيمَ يختلف إيمان أمّها الذي لا يتزعزع بأبيها عن خوفه من هرمجدون المرتقبة؟ أينظر البالغون إلى العالم فيرون ما يريدون رؤيته وحسب، ويعتقدون ما يريدون اعتقاده؟ ألا تعني الأدلّة والتّجارب أيّ شيء؟

اجترحت أمّها ابتسامة: «أترغبين في لعب الثّمانية المجنونة؟».

هكذا ستتعاملان مع الأمر إذنْ، تعودان للقيادة على الطّريق بعد انفجار العجلة. ستتفوّهان بأمور اعتياديّة، وتتظاهران بأن لا شيء حدث، بانتظار المرّة المقبلة.

أومأت ليني، وأخرجت البطاقات من صندوق خشب الورد الذي يؤوي أغراض أمّها المفضّلة، وجلست على الأرضيّة بجانب الفراش.

– «أنا محظوظة جدّاً بك يا ليني». قالت الأمّ، محاولةً ترتيب بطاقاتها بيد واحدة.

«إنّنا فريق». أجابت ليني.

– حبّتا بازلّاء في قرن واحد.

– اثنتان من النّوع نفسه.

باتت الكلمات التي تكرّرانها على بعضهما طيلة الوقت تبدو جوفاء بعض الشّيء، بل حزينة ربّما.

كانتا قد قطعتا نصف جولة اللّعب الأولى حين سمعت ليني مركبة تقترب، ألقت البطاقات على السّرير، وركضت إلى النّافذة: «إنّها لارج مارج». هتفت لأمّها: «والسّيّد ووكر».

– «تبّاً». قالت الأمّ: «ساعديني على ارتداء ملابسي».

هرعت ليني عائدة إلى غرفة نوم أمّها، وساعدتها على نضو منامتها الفلانيل، وارتداء بنطال جينز حائل اللّون، وكنزة مقلنسة كبيرة المقاس، كمّاها كبيران كفايةً لاستيعاب الجبيرة، ثمّ سرّحت لها شعرها، وعاونتها في الخروج إلى غرفة المعيشة، وأجلستها على الأريكة المهترئة.

فُتح باب الكوخ، فهبّ الثّلج إلى الدّاخل تحمله موجة من الهواء الجليديّ، وتناثر على أرضيّة الخشب المعاكس.

كانت لارج مارج أشبه بدبٍّ رماديٍّ في معطفٍ وجزمة الفرو الضّخمين، مع قبّعة من فراء ابن عرس بدت مصنوعة يدويّاً، وقرطين من عظم قرن الوعل يتدلّيان من شحمتي أذنيها المرتخيتين. نفضت الثّلج

عن جزمتها، وهمّت تقول شيئاً ما، ثمّ رأت وجه الأمّ المغطّى بالكدمات فغمغمت: «ابن العاهرة الشّمطاء، ينبغي بي أن أركل تلك المؤخّرة العجفاء المقدّدة التي يجرّها خلفه».

دخل السّيّد ووكر ووقف خلفها.

- «أهلاً». قالت الأمّ، تتلافى النّظر في عينيه. لم تقف؛ ربّما لم تكن تقوى على ذلك: «أترغبان في بعض من...».

اقتحم الأب الكوخ وصفق الباب خلفه: «سأعدّ لهما القهوة يا كورا، ابقي على حالك».

ساد بين البالغين توتّر لا يُحتمل. ما الذي يحدث هنا؟ شيء ما، بلا شكّ.

سحبت لارج مارج السّيّد ووكر من ذراعه -بمسكة حازمة كخطّاف صنّارة- وقادته إلى كرسيّ قرب مدفأة الحطب: «اجلس». قالت، وهي تدفعه على الكرسيّ حين لم يتحرّك بسرعة كافية.

أخذت ليني كرسيّاً بلا مسند ظهر من جانب طاولة ورق اللّعب، وجرّته إلى غرفة المعيشة من أجل لارج مارج.

- «هذا الشّيء الضئيل؟». سألتها لارج مارج: «ستبدو مؤخّرتي مثل فطر عشّ غراب فوق عود أسنان». لكنّها جلست على الرغم من ذلك، ونظرت إلى الأمّ دافنةً يديها المكتنزتين في خاصرتها.

- «الأمر أسوأ ممّا يبدو». قالت الأمّ بنبرة متفاوتة: «لقد تعرّضنا لحادث كما تعلمين».

- «أجل، أعلم». أجابتها لارج مارج.

دخل الأب إلى غرفة المعيشة حاملاً كوبين مرقّطين بالأزرق، ممتلئين

بالقهوة، يتصاعد البخار منهما، ويملأ الجوّ بعبقه، ناول واحداً لتوم، والآخر للارج مارج.

- «إذنْ». قال بارتباك: «لم يزرنا ضيوف في الشّتاء منذ فترة».

- «اجلس يا إيرنت». قالت لارج مارج.

- أنا لا...

- «اجلس وإلّا صرعتك أرضاً». قاطعته لارج مارج.

شهقت الأمّ.

جلس الأب على الأريكة بجانب الأمّ: «ما هذه بالطّريقة التي تتحدّثين بها إلى رجُل داخل منزله».

- «ليس من مصلحتك أن تجعلني أبدأ الحديث حول ما يجب بالرّجُل الحقيقيّ أن يكونه يا إيرنت أولبرايت. أنا أمسك أعصابي، لكنّها قد تفلت منّي بسهولة، ولن تودّ أن ترى امرأة ضخمة تنقضّ عليك، ثق بي، لذا أغلق فمك وأصغِ». نظرت إلى الأمّ: «كلاكما».

أحسّت ليني بالهواء يغادر الغرفة، ودخل صمت ثقيل بارد جثم فوقهم.

نظرت لارج مارج إلى الأمّ: «أعرف أنّك تعرفين أنّني من العاصمة، وأنّني كنت أعمل محامية، مدّعيةً عامّةً في مدينة كبرى، أرتدي بدلات بتوقيع مصمّمين، وأنتعل أحذيةً بكعبٍ عالٍ، كلّ ما إلى هنالك، وكنت أحبّ ذلك. كما كنت أحبّ أختي، التي تزوّجت برجُل أحلامها، لكنْ تبيّن أنّ لديه بضع مشكلات، بضع خصال ملتوية. تبيّن أنّه يفرط في الشّرب، ويحبّ استخدام أختي الصّغيرة ككيس ملاكمة. حاولت فعل كلّ شيء كي أحملها على هجره، لكنّها رفضت. لعلّها كانت خائفة، لعلّها كانت تحبّه،

لعلّها كانت مريضةً ومحطّمةً مثله، لا أدري. ما أعرفه أنّني حين اتّصلت بالشّرطة زاد ذلك الطّين بلّة بالنّسبة إليها، وتوسّلت إليّ ألّا أكرّر ذلك. تراجعت، وتلك كانت أكبر غلطة في حياتي. لقد انقضّ عليها بمطرقة». تقبّضت ملامحها: «اضطررنا إلى إقامة جنازة بتابوت مغلق، هذا ما فعله بها. ادّعى أنّه أخذ المطرقة منها وحمى نفسه. القانون لا يرأف بحال النّساء المضطهَدات، وهو ما يزال طليقاً حُرّاً. أنا أتيت إلى هنا كي أبتعد عن كلّ ذلك». نظرت إلى إيرنت: «وها أنت ذا».

همّ الأب بالنّهوض.

- «كنتُ لأجلس لو أنّني مكانك». قال السّيّد ووكر.

عاد الأب إلى الجلوس ببطء، يلمع الضّيق في عينيه، ويظهر في تقبّض يديه وانبساطهما، فيما تنقر جزمته على الأرضيّة بتوتّر. لا فكرة لديهما عمّا قد تتكبّده الأمّ بسبب هذا الاجتماع الصّغير، قد ينفجر حالما يغادران.

- «أنتما تقصدان خيراً على الأغلب». قالت ليني: «لكن...».

- «لا». قال السّيّد ووكر بصوتٍ حانٍ: «ليس مطلوباً منكِ أن تقدّمي حلّاً يا ليني، أنت طفلة، أصغي وحسب».

- «لقد تحدّثنا أنا وتومي عن الأمر». قالت لارج مارج: «عن وضعكم هنا. لدينا بضعة حلول، لكن في الحقيقة يا إيرنت، الحلّ المفضّل لدينا هو أن نقتلك ونتخلّص منك».

ضحك الأب مرّة، ثمّ لاذ بالصّمت. اتّسعت عيناه حين أدرك أنّهما لا يمزحان.

- «هذا ما اخترته أنا في الواقع». قال السّيّد ووكر: «لكنّ لارج مارج لديها خطّة مختلفة».

- «إيرنت، ستحزم أغراضك وتذهب إلى المنحدر(*)». قالت لارج مارج: «خطّ الأنابيب يستأجر رجالاً من أمثالك، الوضع أشبه بسدوم وعمورة هناك، وهم بحاجة إلى ميكانيكيّين. ستجني كومة من النّقود، وأنت تحتاج إلى ذلك، كما أنك ستغيب حتّى الرّبيع».

- «لا أستطيع ترك عائلتي وحدها حتّى الرّبيع». قال الأب.

- «يا لاهتمامك!». تمتم السّيّد ووكر.

- «أتظنّني سأتركها لك ببساطة؟». قال الأب.

- «كفى أيّها الفتَيان!». قالت لارج مارج: «يمكنكما أن تتناطحا بالقرون لاحقاً؛ أمّا الآن، فإيرنت سيغادر، وأنا سأنتقل للعيش هنا. سأمكث مع فتاتيك خلال الشّتاء يا إيرنت، سأبقيهما بمأمن من كلّ الأشياء والأشخاص، ويمكنك العودة في الرّبيع. بحلول ذلك الوقت، ربّما تكون عرفت ما الذي لديك فتعامل زوجتك كما تستحقّ».

- «لا يمكنك إرغامي على الذّهاب». قال الأب.

- «ليس هذا أفضل جواب». أجابته لارج مارج: «اسمع يا إيرنت، ألاسكا تُخرج أفضل ما في الرّجُل، وأسوأ ما فيه، لعلّك لو كنت بقيت في الخارج لم تتحوّل إلى ما أنت عليه الآن. أعرف قصّة نام، وينفطر قلبي بسبب ما مررتم به، لكنّك لا تستطيع التّعامل مع الظّلام، أليس كذلك؟ ما من سبب للشّعور بالخزي، فالمعظم لا يستطيعون، تقبّل الأمر وافعل ما هو أفضل لعائلتك. أنت تحبّ كورا وليني، صحيح؟».

تغيّر التّعبير الذي يعلو وجهه عندما نظر إلى الأمّ، رقّ كلّ شيء فيه.

(*) المنحدر: إشارة إلى مقاطعة نورث سلوب في ألاسكا، إذ يعني اسمها «المنحدر الشّماليّ». (المترجم)

وللحظة، رأت ليني أباها، رأته على حقيقته، الرّجُل الذي كانه لو لم تدمّره الحرب، رجل الزمن السابق. «أجل». أجاب.

- «ممتاز، تحبّهما كفاية كي تغادر وتؤمّن قوتهما». قالت له: «اذهب واحزم أمتعتك، وانطلق في دربك، سنراك مجدّداً في فسحة الرّبيع».

1978

❄ 12 ❄

مكتبة
t.me/soramnqraa

قادت ليني، ذات السبعة عشر عاماً، ماكينة الثّلج بثقة تحت الثّلج المتساقط. كانت وحدها تماماً في قلب الشّتاء الواسع، اتّبعت وهج مصابيحها الأماميّة في ظلمات ما قبل الفجر، وانعطفت على طريق المنجم القديم. بعد ميل، أو نحوه، تحوّل الطّريق إلى مسلك يلتوي، وينعطف، ويصعد، ويهبط. المزلجة البلاستيكيّة خلفها تتخبّط فوق الثّلج، خاويةً في الوقت الحاليّ، لكنّها تأمل أن تحمّلها قريباً بصيدها الجديد. إن كان ثمّة شيء واحد أصاب فيه والدها، فهو أنّ ليني تعلّمت كيف تصيد.

اندفعت فوق سواتر ترابيّة، وحول أشجار، وقطعت أنهاراً متجمّدة، تطير بها الماكينة أحياناً فتنزلق خارجةً عن سيطرتها، وتزعق أحياناً من البهجة، أو الخوف، أو مزيج من الاثنين. كانت هنا في عالمها تماماً.

مع تصاعد الارتفاع، أصبحت الأشجار أكثر نحولاً، وأقلّ كثافة، بدأت ترى جروفاً ونتوءات صخريّة يغطّيها الثّلج.

تابعت تقدّمها: إلى أعلى، وأسفل، وفي المنعطفات، تقتحم منحدرات ثلجيّة، وتناور حول جذوع ساقطة. الأمر يتطلّب تركيزاً كبيراً، فلا تستطيع أن تفكّر أو تحسّ بأيّ شيء آخر.

فوق أحد التّلال، انزلقت ماكينة الثّلج إلى اليسار، وفقدت قوّة جرّها. خفّفت ليني الضّغط على الوقود، فتباطأت المركبة حتّى توقّفت.

بأنفاسٍ ثقيلةٍ عبر فتحات كمامة النّيوبرين، أخذت تُجيل نظرها حولها. ذرا جبال حادّة بيضاء، مجالد يتماوج لونها بين الأزرق والأبيض، ظلال سوداء.

ترجّلت عن آلتها مرتجفة، فتحت حقيبتها متحصّنةً في وجه الرّيح، وانتعلت زحّافتها الثّلجيّة، ثمّ دفعت ماكينة الثّلج نحو الحماية المحدودة التي تقدّمها شجرة كبيرة وربطتها هناك. لا يمكنها المتابعة بالمركبة إلى بعد هذا الحدّ.

الضّوء ينير السّماء بدرجات متفاوتة، ونور النّهار يمتدّ مع كلّ نفَس.

انحنى المسار صاعداً يتضيّق، رأت أوّل كتلة من روث الخراف المتجمّد بعد نصف ميل فتبعت آثار الحوافر مرتقيةً في طريقها.

أخرجت منظارها، ومسحت المشهد الأبيض المحيط بها.

هناك. خروف دال قشديّ اللّون بقرنين مقوّسين ضخمين، يسير فوق حافّة صخريّة مرتفعة، حوافره تدكّ الأرض الوعرة المكسوّة بالثّلج بأناقة.

تحرّكت بحذر، تشقّ طريقها فوق الحافّة الضّيّقة، ودخلت بين الأشجار. وهناك، عثرت على الآثار من جديد، وتبعتها إلى نهرٍ متجمّد.

روث طازج.

كان الخروف قد قطع النّهر إلى هنا، فانهار به الجليد، وتابع طريقه يخوّض في ماء النّهر. ثمّة قطع كبيرة من الجليد تتمايل على وجه الماء، ويثبّتها الجليد الصّلب حولها في مكانها.

فوق الجليد تستلقي شجرة قديمة، أغصانها المجمّدة منبسطة، والماء يترقرق في برك صغيرة على طولها.

الثّلج يدور في دوّامات على وجه الجليد، ويتراكم على أحد جانبي الجذع، ليتناثر في زوابع صغيرة على الجانب الآخر. هنا وهناك، كنست الرّيح كلّ الثّلج من مكانه، تاركةً رقعاً لامعة متصدّعة من الجليد الأزرق الفضّيّ. علمت أنّ من غير الآمن العبور من هنا، لكنّ البحث عن مكان آخر قد يكلّفها ساعات. ومن يعلم إن كان هناك نقطة عبور جيّدة أصلاً؟ هي لم تقطع كلّ هذه المسافة كي تستسلم.

شدّت ليني حقيبتها، وربطت بندقيّة الصّيد، ونزعت زحّافتها، وربطتها بالحقيبة أيضاً.

حدّقت إلى الجذع الذي يبلغ قطره نحو قدمين، لحاؤه متقشّر متجمّد، يغطّيه الثّلج والجليد، ثمّ سحبت نفساً عميقاً وتسلّقته على أربع.

صار العالم بعرض الجذع واتّساع النّهر، أخذ اللّحاء المتجمّد الخشن يعضّ ركبتيها، وكان تصدُّع الجليد أشبه بانفجار الأعيرة النّاريّة حولها.

راحت تحدّق في جسم الجذع.

هناك.. الضّفّة الأخرى.. هذا هو كلّ ما تريد التّفكير فيه، لا الجليد المتصدّع، ولا الماء القارس الذي يجري في الأسفل، ولا فكرة السّقوط بلا شكّ.

تابعت الزّحف إلى الأمام إنشاً تلو الآخر، الرّيح تسوط جسدها، والثّلج يتناثر فوقه.

تشقّق الجليد، بصوتٍ عالٍ وقاسٍ، وبدأ الجذع ينهار إلى الأسفل، مكسّراً صفحة الجليد أمامها. اندفع الماء منبجساً، وتراكم على الجليد في برك تلتقط النّزر اليسير المتوفّر من الضّوء.

صدر عن الجذع صوت تقصّف عميق، وغار أكثر مرتطماً بشيء ما.

هبّت ليني واقفةً على قدميها، وفردت ذراعيها كي تحافظ على توازنها. بدا الجذع كأنّه يتنفّس تحتها.

تصدّع الجليد مجدّداً، بصوتٍ أشبه بالهدير هذه المرّة.

ربّما ثمّة سبعة أقدام تفصلها عن الضّفّة. فكّرت في أمّ ماثيو، التي عُثر على جثّتها على بعد أميالٍ من مكان سقوطها في الجليد، وقد نهشتها الحيوانات. لا أحد يتمنّى أن يسقط في الجليد، فلن يعرف أين سيُعثَر على جثّته؛ الماء يجري في كلّ أنحاء ألاسكا، ويكشف عن أشياء يجدر أن تبقى مستترة.

تقدّمت إلى الأمام ببطء، وحين اقتربت من الضّفّة المقابلة، قذفت نفسها في الهواء، ترفرف بذراعيها وساقيها كأنّها تستطيع دفع نفسها إلى الطّيران، وسقطت على الصّخور المكسوّة بالثّلج فوق الجانب الآخر.

دماء.

أحسّت بمذاقها، دافئاً ومعدنيّاً في فمها، وشعرت بها تنساب فوق وجنتها الباردة مثل الجليد.

فجأةً بدأت ترتعد، وانتبهت إلى ابتلال ثيابها، إمّا من العرق، وإمّا من قطيرات الماء على معصميها، أو في جزمتها، لم تستطع أن تحدّد. وكان قفّازاها مبتلّين، كحال جزمتها، غير أنّهما مضادّان للماء كليهما.

زحفت على قدميها، وقدّرت الأضرار؛ ثمّة خدش سطحيّ في جبهتها كما أنّها عضّت لسانها، كمّا معطفها مبلّلان، وتظنّ أنّ بعض الماء تسرب إلى عنقها. لا شيء سيّئ.

أعادت ضبط وضع حقيبتها وبندقيّتها، ثمّ انطلقت من جديد، وهمّت

بالسّير مبتعدةً عن النّهر، من دون أن تتركه يخرج عن نطاق رؤيتها. تبعت الآثار والرّوث، وهي تصعد أعلى وأعلى عبر رفوف صخريّة ناتئة. على هذا الارتفاع، كان العالم غارقاً في سكون مطبق، الثّلج المتساقط يغبّش كلّ شيء، وكذلك تفعل أنفاسها.

ثمّ: صوت.. تقصّفُ غصن، دكُّ حوافرَ تنزلق فوق صخرة. شمّت الرّائحة المسكيّة المنبعثة من طريدتها، فانسلّت بين شجرتين ورفعت سلاحها.

حدّقت من فرجة المنظار، فعثرت على الخروف، وصوّبت نحوه.

تنفّست بانتظام.

انتظرت.

ثمّ ضغطت الزّناد.

لم يصدر أيّ صوت عن الخروف. رمية ممتازة، نحو الهدف مباشرةً. لا معاناة. خرّ الخروف على ركبه، وانزلق عن وجه الصّخرة، ثمّ كبح حاجزٌ ثلجيّ انزلاقه.

تقدّمت بخطوات ثقيلة في الثّلج نحو صيدها. أرادت أن تنزع أحشاء الحيوان وتضع اللّحم في حقيبتها بأسرع ما يمكن؛ لم يكن هذا الصّيد قانونيّاً من النّاحية العمليّة -فموسم صيد الخراف يكون في الخريف- لكنّ المجمِّدة الخاوية لا تعترف بذلك. خمّنت أنّ الحيوان سيتجرّد إلى نحو مئة رطلٍ من اللّحم الصّافي، وستكون رحلة العودة إلى ماكينة الثّلج طويلة بهذا الحمل الثّقيل.

❄

ناورت ليني بماكينة الثّلج عبر مدخل المركبات الطّويل الأبيض نحو

الكوخ. أبقت قبضتها مرخيّة على قبضة المِقوَد، وتحرّكت ببطء منتبهة إلى كلّ انحناءة.

خلال السّنوات الأربع الماضية، كانت قد شبّت على ما يشبّ عليه كلّ شيء في ألاسكا: صارت برّيّة جامحة. شعرها يتدلّى حتّى يكاد يبلغ خصرها (لم تجد أيّ سبب يدفعها لقصّه) وقد تحوّل إلى لون الماهوغاني الأحمر الغامق، واستدقّت ملامح وجه البنت الممتلئ، وتلاشى نمشه، ليترك محلّه سحنةً حليبيّةً تُبرز زرقة عينيها.

سيعود والدها إلى الكوخ الشّهرَ القادم، لقد اتّبع القواعد التي وضعها توم ووكر ولارج مارج خلال السّنوات القليلة الماضية. مُكرهاً، ومن دون طيب خاطر، فعل مثلما «نصحاه». بعد عيد الشّكر في كلّ عام (حالما تأخذ كوابيسه بالتّزايد عادةً، ويبدأ بالغمغمة بينه وبين نفسه، والتّنقيب عن المشاجرات)، يغادر إلى مقاطعة نورث سلوب ليعمل في خطّ الأنابيب. كان يجني مبلغاً جيّداً، يرسله لهما كلّ أسبوع. وقد استخدمتا المال لتحسين حياتهم هنا؛ بات لديهم الآن ماعز ودجاج، وقارب من الألمنيوم لصيد السّمك، وحديقة تزدهر تحت قبّة دفيئة. قايضوا حافلة الفولكس فاغن بشاحنة معقولة، والآن ثمّة ناسك عجوز يعيش في الحافلة، في الغابة قرب مكارثي.

لم يزل الأب رجُلاً يصعب العيش معه؛ سريع الاستثارة، ومتقلّب المزاج. تعاظمت كراهيته للسّيّد ووكر على نحوٍ خطر، وما زال بوسع أقلّ خيبة (أو الويسكي، أو ماد إيرل) قدح زناده، لكنّه لم يكن غبيّاً. كان يعرف أنّ توم ووكر ولارج مارج يراقبانه عن كثب.

ظلّت الأمّ تقول: «بات أحسن حالاً، ألا توافقينني؟». ولين تصدّق

ذلك في بعض الأحيان، أو لعلّهما تأقلمتا مع بيئتهما، مثل طيور التّرمجان التي ينقلب لونها إلى الأبيض في الشّتاء.

خلال الشّهر الذي يتزايد فيه الظّلام قبل مغادرته إلى خطّ الأنابيب، وفي نهايات الأسابيع الشّتويّة حين يجيء للزّيارة، كانتا تدرسان أمزجة الأب مثل عالمتين، وتنتبهان إلى أصغر رفّات عينه التي تنبئ بتصاعد توتّره. تعلّمت ليني كيف تلطّف مزاج أبيها حين تستطيع، وكيف تبتعد عنه حين لا تستطيع؛ لم يكن تدخّلها يزيد الطّين إلّا بلّةً بالنّسبة إلى أمّها، وقد تعلّمت هذا بالطّريقة الصّعبة. مكتبة سُر مَن قرأ

أوقفت ليني ماكينتها في الفناء الأبيض، وانتبهت إلى شاحنة توم ووكر الكبيرة المركونة بجانب مركبة الإنترناشونال هارفستر الخاصّة بلارج مارج.

ركنت بين قنّ الدّجاج والكوخ، ونزلت عن ماكينة الثّلج، فغاصت جزمتها في الثّلج الهشّ المتّسخ. كان الطّقس يتقلّب بسرعة في هذه الأنحاء، ويزداد دفئاً. إنّها أواخر مارس، وسرعان ما ستبدأ نوازل الجليد تقطر ماءً من الإفريز في إيقاع مستمرّ، وسينجرف الثّلج الذّائب من الأعالي مُحيلاً فناءهم وحلاً.

فكّت جثة الطّريدة منزوعة الأحشاء عن مزلجة البلاستيك الحمراء التي تجرّها ماكينة الثّلج، وحملت الحقيبة البيضاء الدّامية على كتفها، ثمّ سارت بخطوات ثقيلة مارّةً بالحيوانات -الّتي استقبلتها بالنّقيق والثّغاء- وصعدت الدّرَجات المُثبَّتة حديثاً، ودخلت إلى الكوخ.

غلّفها الدّفء والضّوء على الفور، واختفت أنفاسها التي كانت تراها قبل ثوانٍ لا غير. سمعت همهمة المولّدة التي تمدّ المصابيح بالكهرباء،

وراحت مدفأة الحطب السّوداء الصّغيرة -التي لطالما كانت في مكانها- تضخّ الحرارة.

الموسيقا تدوي من مذياع كبير محمول فوق طاولة غرفة الطّعام الجديدة، أغنية ديسكو لفرقة بي جيز، والكوخ يعبق بروائح خبيز الخبز، وشواء اللّحم.

يمكن للمرء تخمين غياب الأب دائماً، كلّ شيء أسهل وأكثر استرخاءً حين لا يكون حاضراً.

كانت لارج مارج والسّيّد ووكر جالسين إلى طاولة الطّعام المستطيلة الكبيرة التي صنعها الأب الصّيف الماضي، يلعبان الورق.

- «أهلاً يا ليني، تأكّدي من أنّهما لا يغشّان». هتفت الأمّ من مختلى المطبخ، الذي أعيد تصميمه تدريجيّاً خلال السّنوات؛ أضيف إليه فرن بروبان وبرّاد، كما كسا السّيّد ووكر منضدة المجلى بالبلاط، وركّب حوض جلي أفضل من سابقه. ما زالت المياه الجارية غير متوفّرة، وكذلك ما من حمّام في الكوخ، ولارج مارج صنعت رفّاً للصّحون التي ابتاعوها حين ذهبوا إلى متجر جيش الخلاص في هومر.

- «أوه، إنّهما يغشّان!». قالت ليني مبتسمة.

- «ليس أنا». أجابت لارج مارج، وهي تقذف قطعةً من نقانق لحم الرّنّة في فمها: «لا أحتاج إلى الغشّ كي أهزم هذين الاثنين. تعالي يا ليني، العبي لعلّك تزيدين صعوبة الفوز عليّ».

نهض السّيّد ووكر يقهقه، وأصدر كرسيّه صريراً فوق ألواح الأرضيّة: «يبدو أنّ أحدهم اصطاد خروفاً». أخرج ملاءةً بلاستيكيّةً بيضاء كبيرةً من تحت الحوض وفردها على الأرضيّة.

ألقت ليني حملها على غطاء البلاستيك وجثت قربه: «أجل». قالت: «قرب بورتر ريدج». فتحت الحقيبة وأخرجت الطريدة منزوعة الأحشاء.

شحذ السّيّد ووكر سكّين يولو وناولها إيّاها.

شرعت في مهمّة تقطيع الفخذ إلى شرائح جاهزة للشّواء، وسلخ الخصل الفضّيّة عن اللّحم. ذات زمان، كان يبدو من الغريب تقطيع اللّحم في المنزل فوق ملاءة بلاستيكيّة، لكنّه لم يعد كذلك؛ هكذا هي الحياة في شهور الشّتاء.

خرجت الأمّ من المطبخ تبتسم، كانت تبدو دائمة الابتسام في الشّتاء. لقد أزهرت هنا في ألاسكا، حالها في ذلك حال ليني. وللمفارقة، كانتا كلتاهما تشعران بأمان لا يضاهى في الشّتاء، حين يكون العالم في أشد حالاته ضيقاً، وأكثرها خطراً. بمغيب الأب، كانتا تتنفّسان بسهولة. لقد باتتا متساويتين في الطّول الآن، هي وليني، وقد جعلتهما حميتهما غزيرة البروتين برشاقة راقصات الباليه، ولدانة أجسادهنّ.

أخذت الأمّ موضعها على الطّاولة وقالت: «سأرفع آمالي وأصوّب نحو القمر هذه المرّة، أعلمكم بذلك كي تحسنوا التّخطيط وحسب».

- «نحو القمر دفعة واحدة؟». قال السّيّد ووكر: «أم معظم المسافة باتّجاهه، كالعادة؟».

ضحكت الأمّ: «ستتراجع عن كلامك نادماً يا توم». وبدأت توزيع الورق.

كانت ليني تمارس شيئاً من الادّعاء في الشّتاء، كما تفعل في الصّيف. الآن مثلاً، هي تدّعي أنّها لا تلحظ كيف تنظر أمّها والسّيّد ووكر أحدهما إلى الآخر، وكم يتوخيّان الحذر كي يتجنّبا التّلامس، وكيف كانت أمّها أحياناً تتنهّد حين تذكر اسمه.

ثمّة أشياء خطرة؛ وجميعهم يعرفون ذلك.

انكبّت ليني على مهمّتها؛ كانت تصبّ كامل تركيزها على التّقطيع إلى درجة أنّ بعض الوقت مضى قبل أن تنتبه إلى صوت المحرّك الوارد، ثمّ رأت وميض مصابيح أماميّة يدخل من النّافذة، ويضيء الكوخ في هبّة متقطّعة.

دخل الأب. كان يرتدي قبّعة سائق شاحنة بالية حائلة اللّون تغطّي جبهته، وقد أطلق لحيته وشاربه من دون عناية. بعد أشهر من العمل في خطّ الأنابيب، بات يتحلّى بالسّيماء العصبيّة القاسية لرجُلٍ يفرط في الشّرب، ولا يأكل إلّا قليلاً، ومنح جوُّ ألاسكا العصيب جلدَه سحنةً متينة مخطّطة.

هبّت الأمّ ناهضةً، وقد اعتلى القلق هيأتها على الفور: «إيرنت! لقد عدتَ مبكّراً! كان ينبغي لك إخباري أنّك قادم».

- «أجل». قال وهو ينظر إلى السّيّد ووكر: «أفهم ما يجعلك تريدين أن تعلمي».

- «ما هذه إلّا جولة لعب ورق مع الجيران». قال السّيّد ووكر، وقد نهض على قدميه: «لكنّنا سنترككم للقائكم العائليّ». مرّ بالأب (الذي لم يتراجع ولو خطوة، مرغماً إيّاه على تغيير مساره)، وأخذ معطفه عن العلّاقة قرب الباب وارتداه: «شكراً يا فتيات».

بعد أن غادر، حدّقت الأمّ إلى الأب، وجهها شاحب، وشفتاها منفرجتان قليلاً. بدا القلق يحبس أنفاسها.

وقفت لارج مارج: «لا يمكنني أن أحزم أمتعتي بهذه السّرعة، لذا سأبقى هنا اللّيلة، إن كنت لا تمانع. وأنا متأكّدة أنّك لا تمانع».

لم يكلّف الأب نفسه عناء نظرةٍ نحو لارج مارج، كانت عيناه للأمّ فقط: «حاشا وكلّا أن أملي على امرأةٍ بدينةٍ ما تفعله».

ضحكت لارج مارج وسارت مبتعدةً عن طاولة الطّعام، ثمّ ألقت نفسها على الأريكة الّتي كان الأب قد اشتراها من فندق خرج عن الخدمة في أنكوراج، ورفعت قدميها المكسوّتين بخفّين على طاولة القهوة الجديدة.

اتّجهت الأمّ نحو الأب، طوّقته بذراعيها، وشدّته إليها: «مرحباً يا أنت». همست تقبّل عنقه: «لقد اشتقت إليك».

- طردوني، أولاد العاهرة.

- «أوه، لا». قالت: «ماذا حدث؟ لماذا؟».

- ثمّة ابن عاهرة كذّاب أخبرهم أنّني أشرب في أثناء العمل، ورئيسي وغدٌ خسيس. لم يكن ذنبي.

- «مسكين يا إيرنت». قالت الأمّ: «الهموم لا تمنحك استراحة».

لمس وجهها، ورفع ذقنها بيده، ثمّ قبّلها بشدّة: «ربّاه كم اشتقت إليكِ». قال أمام شفتيها. تأوّهت من لمسته، وألصقت جسدها بجسده.

تهاديا نحو غرفة النّوم، واقتحما ستارة الخرز التي أخذت تخشخش، من دون أن يهتما بوجود غيرهما في الكوخ. سمعتهما ليني يحطّان على السّرير بسقطة مكتومة، ثمّ سمعت تنفّسهما يتسارع.

ارتدّت إلى مكانها مرتبكة. يا للرّبّ! لن تفهم علاقة والديها يوماً. كان الأمر يشعرها بالخزي؛ ذلك الحبّ الرّاسخ الذي تكنّه هي وأمّها لأبيها يسبّب لها شعوراً كاسفاً يبعث على القنوط. ثمّة خطب ما بهم؛ كانت تعرف ذلك، ورأته بالطّريقة التي تنظر بها لارج مارج إلى أمّها أحياناً.

- «هذا ليس طبيعيّاً يا فتاة». قالت لارج مارج.

- ما هو؟

- ومن يدري بحقّ الجحيم؟ بيت المجنون هو أسعد شخص متزوّج أعرفه.

- حسناً، ماتيلدا ليست بالإوزّة العاديّة. هل أنت جائعة؟

ربّتت لارج مارج على بطنها الكبيرة: «بلا شكّ، يخنة أمّك هي المفضّلة لديّ».

- «سأحضر لنا القليل منها، يعلم الله أنّهما لن يخرجا من غرفة النّوم قبل مدّة». غلّفت ليني اللّحم الذي قطّعته، ثمّ غسلت يديها بماء من الدّلو قرب الحوض. وفي المطبخ، شغّلت المذياع على أعلى درجة يتيحها، لكنّ ذلك لم يكن كافياً ليطغى على لمّ الشّمل الذي يحدث في غرفة النّوم.

❄

فسحة الرّبيع القصيرة في ألاسكا؛ موسم الذّوبان، والحركة، والضّجّة، حيث يعود ضوء الشّمس بتردّد، فيسطع فوق رقع الثّلج المتّسخة. يتبدّل العالم، وينفض البرد عن كتفيه، مصدراً أصواتاً مثل مسنّنات هائلة تدور. تنفصل قطع جليد بحجم المنازل، وتطفو مع التّيّار ضاربةً أيّ شيء يعترض طريقها. الأشجار تئنّ وتهوي، فيما تتحرّك الأرض المتقلقلة المبتلّة من تحتها، ويتحوّل الثّلج إلى فتات نصف ذائب، ثمّ إلى ماء يتجمّع ليملأ كلّ تجويف وثلم في الأرض.

عُثر على الأشياء التي فُقدت في الثّلج من جديد: قبّعة أخذتها الرّيح، حبل ملفوف، عبوات جعة كانت قد قُذفت على المنحدرات الثّلجيّة تعود عائمةً على سطح الطّريق الموحل. إبر التّنّوب الأسود تتناثر في برك قاتمة، وأغصان كسرتها العواصف تطفو في الماء النّازل من كلّ زوايا أرضهم.

الماعز واقف في الطّين الّذي يبلغ ركبه، ولا كمّيّة من القشّ تستطيع أن تتشرّبه.

ملأ الماء الحفرَ عند قواعد الأشجار، وجرى على الأرصفة، وتراكم في كلّ مكان، مذكّراً الجميع أنّ هذا الجزء من ألاسكا غابة مطريّة عمليّاً. أينما وقف المرء سمع الجليد يتصدّع، والماء يغدق من فروع الأشجار والأفاريز، يسيل على طول جوانب الطّرق، ويجري في غدران تملأ كلّ أثلام الأرض التي تشبّعت به حدّ التّخمة.

خرجت الحيوانات من مخابئها؛ أيائل الموظ تمشي الهوينى في البلدة، لا أحد يجرؤ على أخذ منعطف بسرعة زائدة. عاد البطّ البحريّ في أسراب تضجّ بصراخها الحادّ وتحطّ فوق الأمواج في الخليج، خرجت الدّببة من عرائنها وراحت تتسكّع على السّفوح بحثاً عن الطّعام. الطّبيعة تعزّل نفسها احتفالاً بالرّبيع: تحفّ الجليد، والبرْد، والصّقيع، وتنظّف الشّبابيك لتسمح للضّوء بالدّخول.

في هذا المساء الأزرق الجميل، تحت سماء لازورديّة، انتعلت ليني جزمتها الإكستراتَف المطّاطيّة، وخرجت كي تطعم الحيوانات؛ بات لديهم سبعة رؤوس من الماعز، وثلاث عشرة دجاجة، وأربع بطّات. وفيما كانت تخوّض في الوحل الذي يبلغ الكاحل، فوق أخاديد يملؤها الماء، سمعت أصواتاً. استدارت نحو مصدرها، باتّجاه الشّرم الذي كان صلة وصل عائلتها بالعالم الخارجيّ. على الرغم من السّنوات التي مضت عليهم هنا، لقد حافظت المُلكية على طبعها البرّيّ بعناد. كان على ليني أن تظلّ حذرةً حتّى في فناء بيتها، لكن في أيّام مثل هذا، حين يكون المدّ متقدّماً، والماء يرتطم فوق الشّاطئ المرصّع بالأصداف، ما زال المنظر يحبس أنفاسها.

ترى الآن زوارق فوق صفحة الماء، أسطول صغير من القوارب زاهية الألوان تمرّ منسابة.

سيّاح. لا يعون أغلب الظّنّ مدى السّرعة التي قد تتغيّر الأمور بها في ألاسكا. كانت المياه تحتهم هادئة للغاية، لكنّ الشّرم يمتلئ ويفرغ مرّتين يوميّاً في مدّ سريع مندفع بوسعه أن يلقي بالغافلين، أو يُغرقهم قبل أن يتنبّهوا للخطر.

جاءت الأمّ ودنت من ليني. شمّت الفتاة التّوليفةَ المألوفة من دخان السّجائر وصابون ثمر الورد ومرطّب الأيدي بالخزامى التي ستظلّ تذكّرها بأمّها. طوّقت أمّها كتفها بذراعها، وضربتها بوركها معابثة.

أخذتا تشاهدان السّيّاح ينزلقون داخل الشّرم، وسمعتا أصداء ضحكهم تتردّد فوق جنبات الماء. تساءلت ليني عن شكل حيواتهم، أطفال الخارج أولئك، الذين جاؤوا إلى هنا في إجازة يتنزّهون بحقائب الظّهر عند جوانب الجبال، ويحلمون بالعيش «على خيرات الأرض»، ثمّ يعودون إلى منازلهم في الضّواحي وحيواتهم المتقلّبة.

لعلع هدير الشّاحنة الحمراء إذْ دبّت الحياة فيها خلفهما: «حان الوقت للذّهاب أيّتها الفتاتان». هتف الأب.

أخذت الأمّ يد ليني، وهمّتا بالسّير نحو أبيها.

- «لا يجدر بنا أن نذهب إلى الاجتماع». قالت ليني حين وصلتا إليه.

نظر أبوها إليها. لقد شاخ خلال سنواتهم في ألاسكا؛ ازداد نحولاً، وأحاطت بعينيه خطوط دقيقة، وتجعّدت وجنتاه الغائرتان: «لماذا؟».

- سيعكّر ذلك مزاجك.

- أتظنّينني سأهرب من ابن آل ووكر؟ أتظنّينني جباناً؟

- أبي...

- إنّها جماعتنا نحن أيضاً، لا أحد يحبّ كانِك أكثر منّي. إن كان ووكر يريد أن يلعب دور صاحب الشّأن العظيم، ويدعو إلى عقد اجتماع، فسنحضر. اصعدي إلى الشّاحنة.

تراصّ الثّلاثة داخل الشّاحنة القديمة.

باتت كانِك بلدةً مختلفةً عمّا كانت عليه أوّل انتقالهم إلى هنا، وكان الأب يكره كلّ تغيير يحصل. يكره أن صارت هناك الآن عَبّارة ركّاب راجلين تنقل السّيّاح من هومر، ويكره أنّ المرء يضطر إلى الإبطاء من أجلهم لأنّهم يسيرون في منتصف الطّريق، ويتسكّعون في الأنحاء بعيون جاحظة ذاهلة عمّا حولها، يشيرون بالبنان نحو كلّ نسر، وصقر، وفقمة يلمحونها. يكره أنّ تجارة تأجير قوارب الصّيد الجديدة على البلدة تزدهر، وأحياناً لا يوجد مقعد شاغر في المطعم. يكره الأشخاص القادمين للزّيارة، ويسمّيهم متطفّلين فضوليّين، لكنّه يكره أكثر أبناء الخارج الذين انتقلوا للاستقرار هنا، وأخذوا يشيّدون المنازل قرب البلدة، ويسيّجون أراضيهم، ويبنون المرائب.

في هذا المساء الدّافئ، بضعة سيّاح جسورين يتمشّون عبر شارع مين ستريت، يلتقطون الصّور، ويتحدّثون بصخبٍ كفيلٍ بإجفال الكلاب المربوطة على الأرصفة. تجمّعوا خارج متجر سناكل الجديد (حيث يمكن للمرء شراء وجبات خفيفة ولوازم صيد سمك).

ثمّة لافتة معلّقة عند حانة ذا كيكينغ موس تقول: اجتماع البلدة ليلة الأحد في السّاعة السّابعة.

- «أين نحن؟ في سياتل؟». دمدم الأب.

- «آخر اجتماع لنا كان قبل عامين». قالت الأم: «حين تبرّع توم ووكر بالخشب من أجل ترميم الرّصيف المائيّ المؤقّت».

- «أتظنّينني لا أعرف ذلك؟». قال، وهو يلج فسحة للرَّكن: «أتظنّينني أحتاج منك أن تخبريني؟ أنّى لي أن أنسى توم ووكر، وهو يتبجّح مثل عظماء الشّأن، ويقحم نقوده في أنوفنا؟». ركن أمام حانة ذا كيكينغ موس المتفحّمة، وكان بابها مشرعاً عن آخره يرحّب بالقادمين.

تبعت ليني والديها إلى داخل الحانة.

أمام كلّ التّغييرات التي استجدّت في البلدة، هذا هو المكان الوحيد الذي ظلّ على حاله. لا أحد في كائِنٍ يبدي اهتماماً بالجدران المسودّة، أو رائحة السّخام، ما دامت الخمور تتدفّق.

كان المكان قد اكتظّ بالفعل؛ رجال ونساء (والغلبة للرّجال) في قمصان فلانيل يحتشدون عند البار، وبضعة كلاب مهزولة ترقد متكوّمة على نفسها تحت كراسي البار العالية نائيةً بنفسها عن الطّريق. الجميع يتحدّثون دفعةً واحدةً، والموسيقا تدور في الخلفيّة، وثمّة كلب كان ينتحب مع الصّوت، وعوى مرّة قبل أن تُخرسه جزمة.

رآهم ماد إيرل ولوّح بيده.

أومأ الأب وتوجّه نحو البار.

كان جيم العجوز يقدّم المشروبات، كما يفعل منذ عقود. من دون أسنان، وبعينين محمرّتين رطبتين، ولحيةٍ خفيفةٍ متناثرة مثل مفرداته، كان بطيئاً خلف البار، لكنّه ودود. الجميع يعلم أنّ جيم العجوز لا يمانع تقديم شراب يسجّله على الحساب، أو يقبل مقايضته بشيءٍ من لحم الموظ، وتقول الشّائعات إنّ الأمور جرت على هذا النّحو في حانة الموظ منذ بناها والد توم ووكر عام 1942.

- «ويسكي، كأس مزدوجة». صاح الأب لجيم: «وجعة رينير للسّيّدة».
رطم حفنة من نقود خطّ الأنابيب الورقيّة المكرمشة على المنضدة.

أخذ شرابه وجعة الأمّ واتّجه نحو الزّاوية، حيث كان ماد إيرل، وثيلما، وتيد، وكلايد، وبقيّة عشيرة هارلان قد جمّعوا بعض الكراسي حول برميل مقلوب.

ابتسمت ثيلما للأمّ، وسحبت كرسيّاً أبيض إلى جانبها، وجلست الأمّ فضمّت المرأتان رأسيهما على الفور، وانخرطتا في حديث. لقد أصبحتا صديقتين مقرّبتين خلال السّنوات القليلة الماضية، وكانت ثيلما، كما تعلّمت ليني عبر السّنوات؛ مثل معظم النّساء الألاسكيّات اللّاتي تجرّأن على العيش في الأحراش: صلبة، رابطة الجأش، صادقة إلى حد الإفراط، لكن ليس من مصلحة المرء أن يعبث معها.

- «مرحباً يا ليني». قالت موبيت، وابتسمت لتكشف عن أسنان مصطفّة لرقصة عشوائيّة. كانت سترتها كبيرة عليها، وبنطالها قصيراً، يكشف على الأقلّ ثلاثة إنشات من قصبتي ساقيها الناحلتين مثل سيخ تنظيف الأنابيب فوق جوربين صوفيّين مرتخيين، وجزمة تبلغ الكاحل.

ابتسمت ليني لابنة الثّمانية: «أهلاً يا موب».

- «كان آكسل في المنزل البارحة، وكدت أصيبه بسهمي»، قالت بابتسامة كشرة: «ربّاه، كم أخرجته عن طوره».

كبحت ليني ابتسامة غالبتها.

- ألديك صور جديدة تريني إيّاها؟

- «بالطّبع، سأجلبها حين نأتي المرّة القادمة». أسندت ليني ظهرها إلى حائط الخشب المحروق، فاندسّت موبيت بجانبها عن كثب.

رنّ جرس في واجهة البار.

هدأت المحادثات حول البار، لكنّها لم تخمد. قد تكون اجتماعات البلدة عرفاً مقبولاً في المناطق التي تقع خارج شبكة الخدمات، لكنّ أحداً لا يستطيع إسكات قاعة ممتلئة بالألاسكيّين.

تحرّك توم ووكر متّخذاً مكانه خلف البار، وابتسم قائلاً: «مرحباً يا جيران، شكراً لحضوركم. أرى الكثير من الأصدقاء القدامى في هذه القاعة، وكذلك العديد من الوجوه الجديدة. لجيراننا الجُدد، أقول: مرحباً بكم. لمن لا يعرفني من بينكم، أنا توم ووكر. جاء والدي، إيكهارت ووكر، إلى ألاسكا قبل أن يولد معظمكم. كان ينقّب عن رواسب الذّهب، لكنّه عثر على ثروته الحقيقيّة في الأراضي، هنا في كانِك. قام هو ووالدتي برعاية مئة وستّين فدّاناً، وحدّدوا ملكيّتهما».

- «ها نحن أولاء». قال الأب بفظاظة، وهو يفرغ كأسه: «سنستمع الآن إلى قصّة صديقه الحاكم، وكيف كانا يذهبان لصيد السّراطين في طفولتهما. رحماك يا ربّ...».

- لقد عاشت ثلاثة أجيال من عائلتي على الأرض نفسها. ليس هذا مكان سكننا وحسب، بل هو هويّتنا. غير أنّ الزّمان يتغيّر، تعلمون ما أتحدّث عنه، والوجوه الجديدة تصادق على هذه التغيّرات. ألاسكا هي التّخم الأخير، والنّاس متعطّشون لرؤية ولايتنا قبل أن تتغيّر أكثر بعد.

- «وماذا إذنْ؟». هتف أحدهم.

- السّيّاح يتوافدون أفواجاً إلى ضفاف نهر كيناي خلال موسم السّلمون الملكيّ، إنّهم يبحرون في مياهنا، يكتظّون في منظومة العبّارات البحريّة، ويقصدون رصيفنا في جماعات. ستبدأ سفن الرّحلات بجلب آلاف الأشخاص إلى هذه الأنحاء، لا المئات وحسب. أعلم أنّ تجارة

تيد في تأجير المراكب قد تضاعفت في العامين الأخيرين، وما عاد يتسنّى للمرء الحصول على مقعد في المطعم خلال الصّيف. وثمّة كلام عن أنّ عبّارة المشاة بيننا وبين سيلدوفيا وهومر قد تمتلئ يوميّاً.

- «نحن أتينا إلى هنا من أجل النّأي عن كلّ هذا». صاح الأب.

- «لماذا تخبرنا بكلّ ذلك يا تومي؟». نادت لارج مارج من الزّاوية.

- «يسرّني أنّكِ سألت يا مارج». قال السّيّد ووكر: «لقد قرّرت أخيراً أن أنفق بعض المال على حانة الموظ، لإصلاح هذه الفتاة العجوز. حان الوقت كي نحظى بحانة لا تسودّ منها راحات كفوفنا، وقعائد بناطيلنا».

هلّل أحدهم مستحسناً.

نهض الأب على قدميه: «أتظنّنا بحاجة إلى حانة متمدّنة، وإلى التّرحيب بالحمقى الذين يأتون إلى هنا بالصّنادل، مع آلات تصوير تتدلّى حول رقابهم؟».

التفت النّاس لينظروا إلى الأب.

- «لا أعتقد أنّ قليلاً من الطّلاء وبعض الثّلج خلف البار سيضرّنا». أجاب السّيّد ووكر باتّزان.

ضحك الحشد.

- لقد أتينا إلى هنا للابتعاد عن ذلك العالم الخارجيّ الذي يعيث فيه الفساد، أقترح أن نقول لا للسّيّد عظيم الشّأن الذي يريد تحسين هذه الحانة. فليذهب التشيتشاكو إلى حانة سالتي دوغ، وليشربوا هناك.

- «لست أنوي بناء جسر يصلنا بالبرّ الرّئيسيّ، حبّاً بالله». قال السّيّد ووكر: «والدي هو من شيّد هذه البلدة، لا تنسَ ذلك. كنتُ أعمل في هذه الحانة حين كنت أنت تجرّب حظّك بالانضمام إلى دوريّ الصّغار في

العالم الخارجيّ. إنّها كلّها ملكي». توقّف قليلاً قبل أن يردف: «بكاملها. هل نسيت ذلك؟ والآن إذ خطر ذلك ببالي، يحسن بي أن أرمّم نُزُل المنامة القديم أيضاً، يحتاج النّاس إلى مكان ينامون فيه. سحقاً، سأسمّيه نزل جينيفا، كان هذا ليروق لها».

كان يحاول استفزاز الأبّ؛ رأت ليني ذلك في عيني السّيّد ووكر. العداء بين الرّجلين دائم الحضور. صحيح أنّهما يحاولان الحفاظ على مسافة تفصل بينهما، لكنّ العداء موجود دائماً، الأمر أنّ السّيّد ووكر لم يكن يعمل على تلافيه الآن.

- «أتصدّق هذا الهراء؟». التفت الأب إلى ماد إيرل: «ماذا بعد؟ كازينو؟ عجلة ملاهٍ؟».

عبس ماد إيرل ونهض على قدميه: «على رسلك لحظةً يا توم...».

- «إنّه عشر غرف لا أكثر يا إيرل». قال السّيّد ووكر: «وكان يستقبل الضّيوف قبل مئة عام حين جال تجّار الفراء والمبشّرون الرّوس في هذه الشّوارع. أمّي هي من صنعت النّوافذ الزّجاجيّة المزخرفة في اللّوبي. النّزل جزء من تاريخنا، والآن تغطّيه الألواح الخشبيّة مثل أرملة ترتدي السّواد. سأجعله يلمع من جديد». توقّف قليلاً وصوّب نظره إلى الأب مباشرةً: «ليس بوسع أحد منعي عن تحسين هذه البلدة».

- «لا يمكنك التّسلّط وتوجيه الأوامر لنا جميعاً لمجرّد كونك ثريّاً». صاح الأب.

- «إيرنت». قالت ثيلما: «أظنّ أنّك تضخّم الأمور».

رمى إيرنت ثيلما بنظرة حادّة: «لا نريد لحفنة من السّيّاح أن يركبوا مؤخّراتنا. سنقول لا لهذا. لا، وحقّ اللّعنة...!».

مدّ السّيّد ووكر يده إلى الجرس فوق البار وقرعه: «المشروبات على حساب المحلّ». قال مبتسماً.

ماج هدير اللّغط على الفور: أخذ النّاس يصفّقون، ويهلّلون، ويتزاحمون نحو البار.

- «لا تسمحوا له أن يشتريكم ببعض المشروبات المجّانيّة». صاح الأب: «فكرته هذه سيّئة. لو أردنا أن نحيا في مدينة، لكنّا في مكانٍ آخر، تبّاً! وماذا لو لم يتوقّف عند هذا الحدّ؟».

لم يكن أحد يصغي إليه، حتّى ماد إيرل كان يسير إلى البار من أجل مشروبه المجّانيّ.

- «لم تكن تعرف يوماً متى تغلق فمك يا إيرنت». قالت لارج مارج مقتربةً منه. كانت ترتدي معطفاً من الجلد السّويديّ المطرّز بالخرز يدويّاً يبلغ ركبتيها فوق بنطال منامة فلانيل مدسوس في جزمة فرو: «هل ثمّة من يجبرك على الحصول على رخصة عمل من أجل إصلاح محرّكات القوارب في الرّصيف المائيّ؟ لا، نحن لا نفعل. إن أراد توم أن يحوّل هذا المكان إلى منزل أحلام باربي، فلا أحد منّا سيعترض. لهذا نحن هنا، كي نفعل ما نريده أيّاً كان، لا كي نفعل ما تريد منّا فعله».

- لقد تحمّلتُ الخراء من أمثاله طيلة حياتي.

- «حسناً، ربّما كانت المشكلة فيك أنت أكثر ممّا هي فيه». قالت لارج مارج.

- «أغلقي فمك البدين». انفجر الأب في وجهها: «هيّا يا ليني». جذب الأمّ من عضدها وسحبها عبر الحشد.

- أولبرايت!

سمعت ليني صوت السّيّد ووكر الجهير خلفهم.

وإذ كاد يبلغ الباب، توقّف الأب واستدار. جذب الأمّ وقرّبها منه بعنف، فتعثّرت وكادت تسقط.

سار السّيّد ووكر نحو الأب، وتبعه الحضور، فوقفوا على مقربة، والمشاريب في أيديهم. بدا السّيّد ووكر في هيئة عاديّة حتّى تسنّى للمرء أن يرى عينيه، وتقبّضَ فمه حين نظر إلى الأمّ. لقد كان غاضباً.

- «بحقّك يا أولبرايت، لا تغادر وتترك جيرانك». قال السّيّد ووكر: «ثمّة أرباح يمكن للجميع أن يجنوها يا رجُل، والتّغيير أمر طبيعيّ، لا يمكن تلافيه».

- «لن أتركك تغيّر بلدتنا». قال الأب: «ولا يهمّني كم تملك من المال».

- «بلى، ستتركني». أجابه السّيّد ووكر: «لا خيار لديك، لذا دعك من ذلك واخسر بلباقة. تناول شراباً».

بلباقة؟

ألم يعلم السّيّد ووكر بعد كلّ هذا الوقت؟

لم يكن الأب الرّجُلَ الذي ينسى الأمور بسهولة.

❄ 13 ❄

طوال اليوم التّالي، ظلّ الأب يذرع المكان، وهو يرغي ويزبد عن التّغييرات الخطرة والمستقبل. وعند الظّهيرة، شغّل اللّاسلكيّ، ودعا إلى اجتماع في مجمّع عائلة هارلان.

كان ثمّة شعور سيّئ يراود ليني اليومَ بطوله، خواء في جوف معدتها. مضت السّاعات بطيئة، لكنّها مضت على أيّة حال. وبعد العشاء، انطلقوا بالشّاحنة إلى المجمّع.

الجميع الآن ينتظرون بدء الاجتماع بنافد الصّبر. أُخرِجت الكراسي من الأكواخ والسّقائف، ونُصبت على نحوٍ اعتباطيٍّ فوق الأرض الموحلة لتواجه مصطبة ماد إيرل.

كانت ثيلما جالسةً على كرسيّ من الألمنيوم، وموبيت تتمدّد على نحوٍ غير مريح فوقها؛ لقد كبرت الفتاة كثيراً على حضن أمّها. وقف تيد خلف زوجته، يدخّن لفافة. وجلست الأمّ بجانب ثيلما على كرسيّ أديرونداك بذراع واحدة، وكانت ليني بجانبها، جالسة على كرسيّ معدنيّ قابل للطّيّ غاص في سبخة الوحل. ووقف كلايد ودونا مثل حارسين على جانبي مارث وأغنيس، اللّتين كانتا تنحتان أعواداً خشبيّة وتحوّلانها إلى أوتاد مدبّبة.

كانت كلّ العيون على الأب، الذي وقف على المصطبة بجانب ماد إيرل.

لم يكن ثمّة أثر للويسكي بينهما، لكنّ ليني تستطيع أن تجزم أنّهما كانا يشربان.

تساقط مطر يُغمّ النّفس؛ كلّ شيء رماديّ: سماء رماديّة، مطر رماديّ، أشجار رماديّة تائهة في سديم رماديّ. الكلاب تنفجر بالنّباح عند أطراف جنازيرها الصّدئة، ووقف العديد منها فوق مسكنه يراقب الأحداث في مركز المجمّع.

أطلّ الأب بنظرته على الحشد المتجمّع أمامه، الذي كان في أقلّ عدد له. خلال السّنوات القليلة الماضية، كان اليافعون قد غامروا بالخروج من أرض جدّهم بحثاً عن حيواتهم الخاصّة؛ فعمل بعضهم بصيد السّمك في بحر بيرنغ، وآخرون في حراسة المنتزه الوطنيّ. العام الماضي، أحبل آكسل فتاة من السّكّان الأصليّين، وبات يقطن إحدى مستوطنات اليوبيك(*) في مكانٍ ما.

- «جميعنا نعرف لماذا نحن هنا». قال الأب. كان شعره الطّويل فوضى متّسخة، ولحيته كثّة غير مشذّبة، لبشرته شحوب الشّتاء، وثمّة منديل رأسٍ أحمر يغطّي معظم رأسه، ويردّ شعره عن وجهه. ربّت على كتف ماد إيرل المهزولة: «لقد رأى هذا الرّجل المستقبل قبل أن يراه أيّ منّا بكثير، وكان يعلم على نحوٍ ما أنّ حكومتنا ستخذلنا، أنّ الجشع والجريمة سيدمّران كلّ شيء نحبّه في أمريكا. جاء إلى هنا -وجلبكم إلى هنا جميعكم- من أجل عيش حياة أفضل، وأكثر بساطة، حياة تعودون فيها إلى الأرض. أراد أن يصيد

(*) اليوبيك: مجموعة من السّكّان الأصليّين في غرب ألاسكا وجنوبها الغربيّ وشمال وسطها، وأقصى الشّرق الرّوسيّ، وهم من الإسكيمو وتربطهم علاقة قربى بالإنويت والإنيوبياك. (المترجم)

طعامه، ويحمي عائلته، وينأى عن الخراء التّافه الّذي يعمّ المدن». توقّف الأب قليلاً، مطلّاً على المتجمّعين أمامه: «وقد نجح كلّ ذلك، إلى الآن».

- «قل لهم يا إيرنت». قال ماد إيرل منحنياً إلى الأمام، يمدّ يده إلى إناء مخبّأ تحت كرسيّه، ويفضّ سدادته بصوت طقّة هوائيّة.

- «توم ووكر وغدٌ ثريٌّ متعجرف». قال الأب: «جميعنا خبِرنا رجالاً مثله. هو لم يذهب إلى نام، لقد وجد أمثاله مليون طريقة للتّملّص من التجنيد. على عكسي أنا وبو وأصدقائنا، نحن الذين هببنا للدّفاع عن بلدنا. لكن لعلمكم، يمكنني التّغاضي عن ذلك أيضاً. أستطيع التّغاضي عن سلوكه المتعالي، وتباهيه أمامي بنقوده. أستطيع التّغاضي عن نظراته الخبيثة إلى زوجتي». نزل على درجات المصطبة المتقلقلة، وطشّ في المياه الآسنة المروّمة فوق الدّرجة الأخيرة: «لكنّني لا ولن أسمح له أن يخرّب كائِك وطريقة عيشنا. هذا وطننا، ونريد له أن يظلّ جامحاً بريّاً وحرّاً».

- «إنّه ينوي إصلاح الحانة يا إيرنت، لا بناء قاعة مؤتمرات». قالت ثيلما. وأمام صوتها المرتفع، نهضت موبيت وسارت مبتعدة لتلعب مع مارث وأغنيس.

- «وفندق». قال ماد إيرل: «لا تنسي ذلك يا آنسة».

نظرت ثيلما إلى أبيها: «بحقّك يا أبي، إنّكم تضخّمون الأمر. لا توجد طرقات هنا، ما من خدمات، ولا كهرباء. تذمّركم هذا ذو نتيجة عكسيّة، اتركوا الأمر يمضي وحسب».

- «أنا لا أريد أن أتذمّر». أجاب الأب: «بل أريد أن أفعل شيئاً، وسأفعل وحقّ المسيح. من معي؟».

- «أصبت القول». قال ماد إيرل، بصوتٍ متثاقلٍ بعض الشّيء.

- «سيرفع أسعار المشروبات». شكا كلايد: «سترون ذلك».

- «أنا لم أنتقل إلى الأحراش كي أجاور فندقاً». قال الأب.

دمدم ماد إيرل بشيء ما، ثمّ عبّ من شرابه طويلاً.

شاهدت ليني الرّجال يتجمّعون، وكلّ منهم يدقّ على ظهر أبيها كأنّه قال القول الأمثل.

وخلال لحظات، بقيت النّساء جالسات وحدهنّ في مركز المجمّع الموحل.

- «إيرنت منفعل جدّاً بشأن بعض التّرميم للحانة». قالت ثيلما، وهي تنظر إلى الرّجال. كان بوسع المرء أن يراهم يتشرّبون غضباً صادقاً، فينتفخون به، ممرّرين الإناء من يد إلى أخرى. «ظننت أنّه سيترك الأمر يمرّ».

أشعلت الأمّ لفافة: «إنّه لا يترك أيّ شيء يمرّ».

- «أعرف أنّكما لا تملكان تأثيراً كبيراً عليه». قالت ثيلما منقّلةً نظرها بين الأمّ وليني: «لكنّه قد يطلق عاصفةً من الخراء هنا. ربّما كان توم ووكر يملك شاحنة جديدة، وأفضل قطعة أرض في شبه الجزيرة، لكنّه يقطع عن فمه ويعطي الآخرين. حين مرضت موب العام الماضي، سمع توم بالأمر من لارج مارج، وحضر إلى هنا وحده، ونقلها بالطّائرة إلى كيناي».

- «أعلم». قالت الأمّ بهدوء.

- سيتسبّب زوجك في تمزيق أوصال هذه البلدة إن لم نأخذ حذرنا.

أفلتت الأمّ ضحكة متعَبة، ففهمت ليني؛ يمكن للمرء أن يتصرّف بحذر الكيميائيّين مع النّيتروغليسرين قرب أبيها، ولن يغيّر ذلك شيئاً، فعاجلاً أم آجلاً سينفجر.

❄

مرّةً أخرى، سَكِر والدا ليني بشدّة اضطرتها أن تقود بهما إلى المنزل. وحين وصلوا إلى الكوخ، ركنت الشّاحنة وساعدت أمّها في دخول غرفتها، حيث هوت على السّرير تضحك، وهي تمدّ يدها إلى الأب.

صعدت ليني إلى سريرها، إلى الفراش الذي انتشلوه من المكبّ ونظّفوه بالمبيّض، ورقدت تحت بطّانيّات معونات الجيش محاولةً أن تغطّ في النّوم.

غير أنّ حادثة الحانة والاجتماع مع آل هارلان لم يبارحاها. ثمّة في الأمر شيء غير مطمئن، على الرغم من أنّها لم تستطع أن تشير بالبنان إلى لحظةٍ معيّنة ما وتقول: ها هو، هذا ما أزعجني. لعلّه مجرّد شعور باختلال التّوازن من جهة أبيها، مكثّف إن لم يكن جديداً.

تغيّرٌ ما. طفيف، لكنّه ظاهر.

كان أبوها غاضباً، بل ربّما مهتاجاً، لكن لماذا؟

لأنّه طُرد من خطّ الأنابيب؟ لأنّه رأى أمّها وتوم ووكر معاً في مارس، ورأى السّيّد ووكر جالساً إلى طاولتهم؟

لا بدّ من أنّه شيء أكبر من ظاهره. كيف لبضعة مشاريع في البلدة أن تثير استياءه إلى هذا الحدّ؟ يعلم الله أنّه يحبّ شرب الويسكي في ذا كيكينغ موس أكثر من معظم الرّجال.

انقلبت على جنبها نحو الصّندوق قرب سريرها، ذلك الذي يحوي رسائل ماثيو خلال السّنوات القليلة الماضية. لم يمرّ شهر من دون خبر منه. كانت قد حفظت كلّ رسالة من بينها عن ظهر قلب، وتستطيع استظهارها متى شاءت، وثمّة بعض الجمل التي علقت ولا تتركها أبداً: إنّني أتحسّن... فكّرت فيكِ ليلة أمس حين خرجت للعشاء، أحد الفتية

كان معه كاميرا بولارويد ضخمة... لقد سجّلت أوّل أهدافي البارحة، تمنّيت لو كنتِ هناك... والعبارات الأثيرة لديها، حين يقول أشياء من مثل: اشتقت إليك يا ليني، أو: أعرف أنّ هذا يبدو مبتذلاً، لكنّني حلمتُ بك. هل يحدث أن تحلمي بي ؟

اللّيلة، على الرغم من ذلك، هي لا تريد التّفكير فيه، أو كم هو بعيد، أو كم تشعر بالوحدة دونه ودون صداقته. خلال سنوات غيابه، لم ينتقل شبّان جدد إلى كانِك. لقد تعلّمت أن تحبّ ألاسكا، بيد أنّها كانت في وحدة شديدة أيضاً. في الأيّام السّيّئة، مثل هذا اليوم، لم تكن ترغب أن تقرأ رسائله وتتساءل إذا كان سيعود يوماً ما، وكانت تقلق من أنّها إن كتبت له قد تخطئ وتقول ما كان في بالها حقّاً: أنا خائفة، وربّما تقول: أنا وحيدة.

بدلاً من ذلك، فتحت أجدد كتبها -طيور الشّوك- وأطلقت العنان لنفسها في قصّة حبّ محرّم على أرضٍ قاسيةٍ غير مضيافة.

كانت ما تزال تقرأ في ساعةٍ متأخّرةٍ بعد منتصف اللّيل، حين سمعت خشخشة الخرز. توقّعت أن تسمع طقّة باب مدفأة الحطب، وهو يُفتح ويُغلق، لكن لم يكن ثمّة إلّا وقع أقدام تتحرّك فوق الأرضيّة الخشب. نهضت من سريرها وزحفت إلى حافّة العلّيّة تسترق النّظر.

في الظّلام، من دون ضوء إلّا وهج المدفأة، استغرقت عيناها قليلاً كي تتأقلما.

كان الأب مرتدياً ملابس سوداء بالكامل، ويعتمر قبّعة فريق ألاسكا إيسز للبيسبول منخفضةً تغطّي جبهته، ويحمل حقيبة معدّات كبيرة تصلصل في أثناء مشيه.

فتح الباب الأماميّ وخرج إلى اللّيل.

نزلت ليني على سلّم العلّيّة، واتّجهت نحو النّافذة بهدوءٍ تنظر إلى

الخارج. قمر مكتمل يضيء الفناء الموحل؛ هنا وهناك، رقع عنيدة من الثّلج البنّيّ الهشّ تلتقط الضّوء. ثمّة أكوام من الخردة في كلّ مكان: صناديق من أدوات صيد السّمك ومعدّات التّخييم، وأقفاص معدنيّة صدئة، وأدوات غريبة، وبوّابة مكسورة، ودرّاجة أخرى لم يتوصّل الأب إلى العمل على إصلاحها قطّ، وكومة من العجلات المثقوبة.

ألقى الأب حقيبة المعدّات في صندوق الشّاحنة، ثمّ مشى متثاقلاً نحو سقيفة الخشب المعاكس حيث يحتفظون بأدواتهم.

خرج بعد لحظة يحمل فأساً فوق كتفه.

صعد إلى الشّاحنة وقادها مبتعداً.

❄

في الصّباح التّالي، كان مزاج الأب رائقاً. شعره الأسود الأشعث مشدود في عقدة غريبة الأطوار في قمّة رأسه هجينة بين يسوع ومحاربي السّاموراي، تدلّت على أحد الجانبين فبدت أشبه بأذن جرو. لحيته السّوداء الكثيفة ممتلئة بنشارة الخشب، وكذلك شاربه. «ها هي فتاتنا النّؤوم، هل سهرتِ تقرئين اللّيلة الماضية؟».

- «أجل». أجابت ليني وهي تعاينه بقلق.

ضمّها بين ذراعيه، وراقصها حتّى لم تستطع أن تكبح ابتسامتها.

انفسح القلق الذي يعتريها منذ ليلة أمس ببطء.

يا له من انفراج! وفي أوّل سبت من أبريل؛ أحد أيّام السّنة المفضّلة لديها.

مهرجان السّلمون. اليوم تجتمع البلدة للاحتفال بموسم السّلمون المرتقب. لقد بدأت الاحتفالات المهرجانيّة أوّل أمرها تحت مسمّىً

آخر، دشّنتها قبيلة السّكّان الأصليّين التي كانت تعيش هنا ذات يوم؛ كانوا يجتمعون للدعاء من أجل موسم صيد جيّد؛ أمّا الآن، فقد تحوّل الأمر إلى مجرّد حفلٍ في البلدة. واليوم، من بين كلّ الأيّام، ستُنسى كلّ منغّصات ليلة أمس.

بعد السّاعة الثّانية بقليل، عقب إتمامهم لجميع الأعمال الرّوتينيّة، ملأت ليني وسع ذراعيها بحافظات طعام، وتبعت والديها خارج الكوخ. سماء زرقاء تنبسط على مدّ البصر؛ الشّاطئ الحصويّ يبدو قزحيّاً في نور الشّمس، بمصاريع المحار المكسورة المتناثرة مثل قطع دانتيل العرس.

حمّلوا طعاماً، وبطّانيّات، وحقيبة ممتلئة بمعدّات المطر، ومعاطف إضافيّة (لا يمكن الوثوق بالطّقس في هذا الوقت من السّنة) في القسم الخلفيّ من الشّاحنة، ثمّ تراصّوا فوق مقعد قمرة القيادة الطّويل، وانطلق الأب بالشّاحنة.

في البلدة، ركنوا قرب الجسر وساروا نحو المخزن العامّ.

- «ما كلّ هذا؟». قالت الأمّ حين انعطفوا عند الزّاوية.

كان شارع مين ستريت مكتظّاً، لكن ليس بالطّريقة التي ينبغي أن تكون. كان ينبغي أن يوجد رجال مجتمعون حول الشّوّايات، يشوون برغر الموظ، ونقانق الرّنّة، والمحار الطّازج، يتبادلون حكايات صيد السّمك، ويشربون الجعة. وينبغي للنّساء أن يكنّ عند المطعم، يثرن الجلبة حول موائد طويلة عامرة بالأطعمة: شطائر سمك الهلبوت، وأطباق من سراطين دونجنس، ودلاء من المحار المطهوّ بالبخار، وخوابٍ من الفاصولياء المطبوخة.

بدلاً من ذلك، وقف نصف سكّان البلدة على الممشى الخشبيّ عند جانب الماء من البلدة، فيما وقف النّصف الآخر أمام الحانة، كان المشهد أشبه بمبارزة مسدّسات غريبة في أو كيه كورال.

ثمّ رأت ليني الحانة.

كلّ النّوافذ مكسورة، الباب قد حُطم إلى قطع، لم يبقَ منه إلّا شظايا حادّة معلّقة بالمفاصل النّحاسيّة، وقد غطّت الجدران المحروقة عبارةٌ كُتبت بطلاء بخّاخٍ أبيض تقول: هذا تحذير، ابقَ بعيداً أيّها الوغد المتغطرس، لا نريد التطوّر!

كان توم ووكر يقف أمام الحانة المخرَّبة، على شِماله لارج مارج وناتالي، وعلى يمينه الآنسة رودز وزوجها. تعرّفت ليني إلى بقيّة الواقفين معه: معظم تجّار البلدة، وصيّادي سمكها، وبائعي معدّاتها؛ هؤلاء هم الأشخاص الذين جاؤوا إلى ألاسكا من أجل شيء ما.

أمّا في الجهة المقابلة من الشّارع، على الممشى الخشبيّ، فقد وقف من يعيشون خارج شبكة الخدمات، المنبوذون، المنعزلون؛ أولئك الذين يحيون في الأحراش، من دون طريق يوصل إلى ملكيّاتهم إلّا عبر البحر، أو الجوّ، الذين جاؤوا إلى هنا هرباً من شيء ما: الدّائنين، الحكومة، القانون، دعم الطّفل، الحياة العصريّة. مثل أبيها، كانوا يريدون لألاسكا أن تظلّ جامحة وبرّيّة إلى الأبد حتّى أقصى أقاصيها. إن سارت الأمور كما يشتهون، فلن يكون ثمّة كهرباء، أو سيّاح، أو هواتف، أو طرق معبّدة، أو أنظمة طرد في المراحيض.

سار الأب إلى الأمام بثقة، وهرعت ليني وأمّها للّحاق به.

خطا توم ووكر خطوات واسعة ليقابله في منتصف الشّارع، ورمى عبوة من الطّلاء البخّاخ على الأرض عند قدميه، فخشخشت فوق التّراب، وتدحرجت مبتعدة:

- أتظنّني لا أعلم أنّك الفاعل؟ أتشكّ أنّ الجميع يعلمون أنّك من فعل ذلك، أيّها الوغد المجنون؟

ابتسم الأب: «هل حدث شيء ما ليلة أمس يا توم؟ أعمال تخريب متعمّدة؟ يا لها من خسارة!».

لاحظت ليني كم بدا السّيّد ووكر ذا سطوة قبالة والدها، كم كان رابط الجأش. لم تستطع أن تتخيّل توم ووكر يتعثّر في مشيته مخموراً، أو يحدّث نفسه، أو يستيقظ وهو يصرخ ويبكي. «أنت أكثر وضاعةً من الجبناء يا أولبرايت، لأنّك غبيّ. تتسلّل تحت جنح الظّلام لتحطّم نوافذ، وتبخّ كلمات فوق خشب سأقوم بهَدْمه على أيّة حال».

- «ما كان له أن يفعل هذا يا توم». قالت الأمّ متوخيّةً الحذر كي تبقي نظرتها مصبوبةً إلى الأسفل، فهي أوعى من أن تنظر إلى توم مباشرةً، لا سيّما في وقت كهذا: «لقد كان في المنزل ليلة البارحة».

تقدّم السّيّد ووكر خطوة إلى الأمام: «أصغِ جيّداً يا إيرنت، سأتغاضى عن هذا باعتباره خطأً حدث. لكنّ التطور آتٍ إلى كانِك، وإن فعلتَ أيّ شيء -أيّ شيء- كي تلحق الضّرر بعملي من الآن فصاعداً، لن أدعو إلى عقد اجتماع بلدة، ولن أتّصل بالشّرطة، بل سآتي في طلبك بنفسي».

- لا تخيفني أيّها الولد الثّريّ.

هذه المرّة ابتسم السّيّد ووكر: «كما قلت لك؛ غبيّ».

استدار السّيّد ووكر عائداً إلى المحتشدين، الذين كان معظمهم قد اقترب ليسمع الشّجار: «جميعنا هنا أصدقاء وجيران. ما هي إلّا بضع كلمات بُخَّت على الخشب ولا تعني أيّ شيء، فلنبدأ احتفالنا».

استجاب النّاس على الفور، فأعادوا ترتيب صفوفهم. اتّجهت النّساء إلى موائد الطّعام، في حين همّ الرّجال بإشعال الشّوّايات. وعند نهاية الشّارع، بدأت الفرقة بالعزف.

استلقي يا سالي، وارتاحي بين ذراعيّ...

أخذ الأب الأمّ من يدها، وقادها عبر الشّارع، وهو يهزّ رأسه على إيقاع الموسيقا.

تُركتليني واقفةً وحدها، فتاةً عالقةً بين عُصبتين متنازعتين.

أحسّت بالشِّقاق في البلدة، الخلاف الذي من شأنه أن ينقلب بسهولةٍ إلى شجار حول الروح التي ينبغي لكانِك أن تكون عليها.

يمكن للتّداعيات أن تتّخذ مساراً شائناً.

كانت ليني تعرف ما فعله والدها، وكشفَ تخريبُ الممتلكات عن وجهٍ آخر لغضبه الحانق. لقد حزّ في روعها أن يكون قد فعل شيئاً كهذا على الملأ. منذ اليوم الذي أرسل فيه السّيّد ووكر ولارج مارج أباها إلى خطّ الأنابيب فترةَ الشّتاء، وهو في حالة تأهب. لم يكن يضرب أمّها على وجهها، أو على أيّ مكان يمكن للكدمات فيه أن تُرى. كان يعمل بجدّ -بجدّ كبير- على ضبط أعصابه، ويبقي مسافة أمان واسعة بينه وبين السّيّد ووكر.

ليس بعد الآن، كما يبدو.

لم تنتبه ليني إلى اقتراب توم ووكر منها حتّى تكلّم.

- «تبدين خائفة». قال السّيّد ووكر.

- «يمكن لهذا الأمر الذي بينك وبين أبي أن يشقّ صفّ كانِك». قالت: «تعرف هذا، صحيح؟».

- ثقي بي يا ليني، لا شيء يستدعي قلقك.

رفعت ليني ناظريها إلى السّيّد ووكر: «أنت مخطئ». ردّت.

❄

- «أنتِ تبالغين في قلقك». قالت لارج مارج للّيني في اليوم التّالي، حين وصلت الأخيرة إلى العمل. طوال السّنوات الماضية، عملت ليني بدوام جزئيّ في المخزن العامّ، تحمّل السّلع على الرّفوف، وتنفض الغبار عن المؤن، وتسجّل المبيعات برنين معدنيّ على صندوق الحساب الأنتيكا. كانت تجني ما يكفي من النّقود كي تموّن نفسها جيّداً بأفلام التّصوير والكتب. عارضها أبوها في ذلك، بالطّبع، لكنّ أمّها للمرّة الأولى وقفت في وجهه، وأخبرته أنّ فتاةً في السّابعة عشرة من عمرها تحتاج إلى عمل بعد المدرسة.

- «ذلك التّخريب الذي حدث أمرٌ سيّئ». قالت ليني محدّقةً من النّافذة عبر الشّارع إلى الحانة المخرَّبة.

- «أوه، الرّجال أغبياء! لا ضير في أن تتعلّمي ذلك الآن. انظري إلى فحول الموظ، إنّها تناطح بعضها هاجمةً بالسّرعة القصوى، وكذلك حال خراف الدّال؛ وينتج عن ذلك الكثير من الجعجعة والغضب، من دون أن يعني الأمر أيّ شيء».

لم تتّفق ليني معها. كانت ترى ما فعله التّخريب الذي أقدم والدها عليه، وأثره على النّاس من حولها. لقد تحوّلت بضع كلمات بُخَّت بالطّلاء إلى رصاصٍ اخترق قلب البلدة. على الرّغم من أنّ الحفلة ليلة أمس في شارع مين ستريت استعرت كما يحدث دائماً، واستمرّت جلبتها حتّى بدأ ضوء النّهار يُعتم أخيراً، كانت قد رأت أهالي البلدة يقسمون أنفسهم فريقين: أحدهما مؤمن بالتّغيير والنّموّ، والآخر لا. وحين انتهى الحفل في آخر المطاف، ذهب كلٌّ في طريقه منفصلاً.

منفصلاً.. في بلدةٍ كان دأب سكّانها التّكاتف جنباً إلى جنب...

❄

ليلة الأحد، ذهبت ليني برفقة والديها إلى مجمّع آل هارلان من أجل عشاء شواء. وبعد ذلك، كالعادة، أشعلوا ناراً في العراء وسط الوحل وتحلّقوا حولها، يتبادلون الأحاديث والشّراب فيما يحطّ المساء حولهم، محوّلاً النّاس إلى أخيلة بنفسجيّة.

من مكانها على مصطبة ثيلما، وهي تعيد قراءة رسالة ماثيو الأخيرة على ضوء القنديل، كانت ليني ترى الرّاشدين مجتمعين قرب اللّهب. إبريق يبدو من هنا أشبه بدبّور أسود كان يتحرّك من يد إلى يد. سمعت أصوات الرّجال فوق طقطقة ألسنة اللّهب وحسيسها، ضجيج غضب متصاعد.

«... السّيطرة على بلدتنا...».

«... الوغد المغرور، يظنّ أنّه يملكنا...».

«... سرعان ما سيريد إدخال الكهرباء والتّلفاز... وتحويلنا إلى لاس فيغاس...».

انتشرت أضواء مصابيح أماميّة خلال الظّلام، وثار جنون الكلاب في الفناء، فأخذت تنبح وتعوي فيما شقّت شاحنةٌ بيضاءُ كبيرةٌ طريقَها عبرَ الوحلِ وتوقّفت محدثةً رذاذاً.

خرج السّيّد ووكر من شاحنته الجديدة باهظة الثّمن، ووسّع خطواته بثقة نحو حلقة السّمر، هادئاً للغاية كأنّه ينتمي إلى هنا.

أو-أوه!

طوت ليني رسالتها، وأقحمتها في جيبها، ثمّ نزلت إلى الأرض الموحلة.

كان وجه أبيها برتقاليّاً في ضوء النّار، ارتخت عقدة شعره فتجمّع في كتلة خلف أذنه اليسرى. «يبدو أنّ أحدهم تائه». قال، والخمر قد أفقد صوتَه معالمه: «أنت لا تنتمي إلى هنا يا ووكر».

- «هذا ما يقوله التشيتشاكو». قال السّيّد ووكر، وابتسامته العريضة تنقص شيئاً من لذعة الإهانة، أم تراها تضيف إليها؛ لم تكن ليني متأكّدة.

- «أنا هنا منذ أربعة أعوام». أجاب الأب، وفمه يرقّ حتّى كادت شفتاه تختفيان.

- «كلّ هذه المدّة، ها؟». قال السّيّد ووكر، عاقداً ذراعيه الكبيرتين أمام صدره: «لديّ جِزَم قطعت مساحات في ألاسكا أكبر من التي قطعتها أنت».

- أصغِ إليّ...

- «اهدأ يا فتى». قاطعه السّيّد ووكر مكشّراً عن ابتسامة، غير أنّها لم تبلغ عينيه: «لم آتِ كي أتحدّث إليك، أتيت كي أتحدّث إليهم». رفع ذقنه مشيراً إلى كلايد، ودونا، وثيلما، وتيد: «لقد عرفتهم طوال حياتي. تبّاً! أنا من علّمت كلايد صيد البطّ، أتذكر يا كلايد؟ كما أنّ ثيلما أبرحتني ضرباً لقاء تجاوزي لحدودي حين كنّا طفلين. جئت كي أتحدّث إلى أصدقائي».

بدا الأب مستاءً وساخطاً.

ابتسم السّيّد ووكر لثيلما، فردّت له بالمثل: «لقد شربنا جعتنا الأولى معاً، أتذكرين؟ حانة الموظ هي مكاننا نحن.. إنّها لنا.. سحقاً يا دونا، لقد تزوّجتما هناك».

رمقت دونا زوجها، ورسمت ابتسامة متزعزعة.

- «إليكم الأمر، لقد حان الوقت كي نصلح تلك العجوز العزيزة، إنّنا نستحقّ مكاناً نستطيع أن نجتمع فيه، ونتحدّث، ونقضي وقتاً ممتعاً من دون أن نتنشّق رائحة الخشب المحروق، ويكسونا السّخام من رؤوسنا إلى أقدامنا ريثما نغادر. لكنّ ذلك سيتطلّب عملاً كثيراً». توقّف السّيّد ووكر، وتنقّلت نظرته من وجه إلى آخر: «والكثير من العمّال. يمكنني أن

أستأجر أشخاصاً من هومر، وأدفع لهم أربعة دولارات في السّاعة لتجديد بناء المكان، لكنّني أفضّل إبقاء نقودي هنا، في البلدة، لدى أصدقائي وجيراني. جميعنا نعلم كم هو لطيف أن نملك بعض الفكّة في جيوبنا حين يأتي الشّتاء».

- «أربعة دولارات في السّاعة؟ هذا مبلغ مرتفع». قال تيد، وهو يسدّد نظرةً إلى ثيلما.

- «أريد أن أكون أكثر من مُنصفٍ». قال السّيّد ووكر.

- «ها!». قال الأب: «إنّه يحاول أن يتلاعب بكم.. أن يشتريكم.. لا تصغوا إليه.. نحن نعرف ما يصبّ في مصلحة بلدتنا، وهذا ليس نقوده».

رمت ثيلما الأبَ بنظرة ساخطة: «كم سيستمرّ العمل يا توم؟».

رفع كتفيه: «يجب إتمامه قبل انقلاب الطّقس يا ثيلما».

- وكم تحتاج من العمّال؟

- كلّ العدد الذي أستطيع الحصول عليه.

تراجعت ثيلما خطوة، والتفتت إلى تيد وهمست شيئاً له.

- «إيرل؟». قال الأب: «أنت لن تتركه يفعل هذا».

خمد وجه ماد إيرل الشّاحب المجعّد، فبدا مثل نحت على تفّاحة مجفّفة: «العمل شحيح في هذه الأنحاء يا إيرنت».

انتبهت ليني إلى الأثر الذي تركته هذه الكلمات القليلة على أبيها.

- «سأشارك في العمل». قال كلايد.

ابتسم السّيّد ووكر بانتصار، ورأت ليني نظرته تنتقل إلى أبيها، وتمكث هناك: «عظيم. أيّ أحد آخر؟».

حين تقدّم كلايد إلى الأمام، أصدر الأب صوتاً أشبه بانثقاب عجلة،

وجذب الأمّ من ذراعها ساحباً إيّاها عبر المجمّع. تعيّن على ليني أن تركض كي تلحق بهما، ثمّ صعد الثّلاثة إلى الشّاحنة.

دعس الأب على دوّاسة الوقود بقوّة شديدة، فدارت العجلات في الوحل قبل أن تستجمع قوّة سحبها. دفع عصا الغيار إلى الوضعيّة المعكوسة، واندفع بالشّاحنة إلى الخلف، ثمّ دار بها، وانطلق عبر البوّابة المفتوحة.

مدّت الأمّ يدها، وأمسكت بيد ليني، كانتا كلتاهما أوعى من أن تتفوّها بأيّة كلمة، فيما هو يحدّق مدمدماً لنفسه، ويخبط راحة يده بقوّة على المقود كي يرقّم أفكاره.

الحمقى الملاعين.. يتركونه يفوز.. اللّعنة على الرّجال الأثرياء، يظنّون أنّهم يملكون العالم...

عند الكوخ، داس على المكابح فجأةً، وأقحم عصا الغيار في وضعيّة الرَّكن.

جلست ليني وأمّها مكانهما، تخشيان أن تتنفّسا بصوت أعلى من اللّازم.

لم يؤتِ بحركة، اكتفى بالتّحديق من الزّجاج الأماميّ القذر الملطّخ بالبعوض إلى المدخن الذي تواريه الظّلال، وحفنة الأشجار السّوداء خلفه. كانت السّماء بدرجة لون غامقة بين الأرجوانيّ والبنّيّ، تنتثر فيها النّجوم كرؤوس الدّبابيس.

- «اذهبا». قال من خلف صريف أسنانه: «أحتاج إلى أن أفكّر».

فتحت ليني الباب، وكادت هي وأمّها ترتميان من الشّاحنة لفرط ما استعجلتا للاختفاء. يداً بيد، كدحتا لشقّ طريقهما في الوحل، وصعدتا العتبات، ثمّ فتحتا الباب، لتصفقاه خلفهما متمنّيتين لو كان بإمكانهما

إيصاده، لكنّ رشدهما أثناهما عن ذلك. قد يُقدم على إحراق المكان عن بكرة أبيه كي يصل إلى الأمّ في إحدى نوبات غضبه.

ذهبت ليني إلى النّافذة، وأزاحت السّتارة لتنظر إلى الخارج.

كانت الشّاحنة في مكانها، تنفث في اللّيل، ومصباحاها الأماميّان حزمتان ساطعتان.

تمكّنت من رؤيته، ظلّاً يكلّم نفسه.

- «هو من فعلها». قالت ليني واقفةً على مقربة: «لقد خرّب الحانة».

- لا، كان في المنزل، معي في السّرير. وهو لا يقدم على أشياء من هذا النّوع.

كان جزءٌ من ليني يريد إخفاء الأمر عن أمّها، كي يوفّر عليها الألم، لكنّ الحقيقة تحرق ثقباً في روح الفتاة، ومشاركتها هي الطّريقة الوحيدة لإطفاء اللّهيب. إنّهما فريق، هي وأمّها، هما في صفٍّ واحد، ولا تخفيان الأسرار عن بعضهما: «بعد أن غططتِ في النّوم، ذهب بالشّاحنة إلى البلدة. لقد رأيته يغادر، ومعه فأس».

أشعلت الأمّ لفافة تبغ، وأفلتت نفساً ثقيلاً: «ظننت لمرّة واحدة...».

فهمت ليني.. الأمل.. شيء لامع، شرَك يغوي الغافلين. كانت تعرف كم يمكن له أن يكون مغرياً، وخطراً أيضاً: «ماذا نفعل؟».

- «نفعل؟ لقد كان مستاءً أساساً بسبب فقدانه لوظيفته في خطّ الأنابيب، والآن يمكن لهذا الأمر المتعلّق بالحانة -المتعلّق بتوم- أن يدفعه إلى فقدان السيطرة».

شعرت ليني بخوف أمّها، والخزي الذي كان توْءَمه الأخرس: «سيتحتّم علينا أن نتوخّى شديد الحذر، يمكن لهذا أن يؤدّي إلى انفجار».

❄ 14 ❄

أبريل في فيربانكس شهرٌ لا يمكن الوثوق به. هذا العام، أحكمَ بردٌ في غير موسمه قبضتَه على خناق البلدة، فتساقط الثّلج، وظلّت الطّيور نائية بنفسها، وبقيت الأنهار متجمّدة. حتى المخضرمون بدؤوا بالتّذمّر والشّكوى، وهم الذين أمضوا عشرات السّنين في هذه البلدة التي تُعدّ الأبرد في أمريكا.

سار ماثيو مبتعداً عن حلبة التّزلّج الجليديّة بعد التّمرين، حاملاً عصا الهوكي فوق كتفيه. كان يعلم أنّه يبدو كأيّ فتى عاديّ في السّابعة عشرة يرتدي زيّ هوكي مضمّخاً بالعرق وينتعل جزمة، لكنّ المظاهر يمكن أن تخدع. هو يعرف ذلك، وهم أيضاً، الفتية الذين يرتاد المدرسة معهم منذ أربع سنوات. بلى، لقد كانوا ودودين بما يكفي (لا أحد يصدر الأحكام بحقّ أحدٍ على هذا البعد عن الحضارة؛ يمكنك أن تكون من أردت)، لكنّهم يبقون على مسافة منه. لقد سرت الشّائعات حول «انهياره» أسرع من حريق في البرّيّة على طول نهر كيناي. قبل أن يتّخذ مقعده في أوّل حصّة دراسيّة له في الصّفّ التّاسع، كانت سمعته قد سبقته. فتيان الثّانويّة -حتّى في مجاهل ألاسكا- يظلّون قطيعاً، يستشعرون بوجود فردٍ ضعيفٍ وسطهم.

حوّل الضّباب الجليديّ -وهو سديمٌ رماديٌّ ثقيلٌ مرصّعٌ بذرّاتٍ صغيرةٍ من الشّوائب المتجمّدة- فيربانكس إلى نسخةٍ منها تشبه منزل مفاجآت في مدينة ملاهٍ، حيث لا يوجد ما هو ثابت في مكانه، ولا حدود تفصل بوضوح بين الأشياء. للمكان رائحة دخان عادم مخنوق، مثل مضمار سباق.

بدا المبنيان الواطئان ثنائيّا الطّوابق على الطّرف الآخر من الشّارع كأنّهما يسندان بعضهما، منسيّين في الضّباب. كالعديد من المباني في البلدة، كانا يبدوان مؤقّتين، شُيِّدا على عجل.

وسط العتم بدا النّاس رسوماً بالفحم، خطوطاً وضربات؛ المشرّدون المتكوّمون على أنفسهم في المداخل، السّكّارى الذين يخرجون متعثّرين من الحانات أحياناً في وقت متأخّر من اللّيل، ويتجمّدون حتّى الموت. لا أحد ممّن يراهم ماثيو الآن سينجو يوماً، أو أسبوعاً، ناهيك عن هذا البرد غير المتوقّع في بلدةٍ يستمرّ شتاؤها من سبتمبر إلى أبريل، ويبسط اللّيل رداءه على أرضها لثماني عشرة ساعة. ثمّة خسائر بشريّة كلّ يوم، ومفقودون طوال الوقت.

فيما هو يسير إلى شاحنة البيك أب، حلّ اللّيل. بتلك البساطة، في رفّة جفن. مصابيح الشّارع تخلق الضّوء الوحيد الموجود -نقاط هنا وهناك- في ما خلا أفعوان المصابيح الأماميّة التي تتوهّج من حينٍ إلى آخر. كان يرتدي معطفاً سميكاً، وتحته كنزة الهوكي، وملابس داخلية طويلة، وبنطال الهوكي، والجزمة السميكة. لم يكن البرد بتلك الشّدّة، ليس وفق معايير فيربانكس. بالكاد تحت درجة التّجمّد، لذا لم يُتعب نفسه بارتداء القفّازات.

لم تأخذ الشّاحنة وقتاً طويلاً كي تعمل، ليس في هذه الفترة من السّنة؛ على عكس الحال في وسط الشّتاء وأوجِه، حين تترك محرّك شاحنتك

يعمل فيما تذهب إلى المتجر، أو تجري مهامّك القصيرة، حين ينخفض التّرموستات غالباً إلى خمس وعشرين درجة تحت الصّفر.

تسلّق إلى داخل البيك أب الكبيرة ذات القمرة المزدوجة الخاصّة بخاله، وقادها عبر البلدة ببطءٍ وحذرٍ، دائمَ التّيقّظ للحيوانات، أو السّيّارات المنزلقة، أو الأطفال الذين يلعبون حيث لا ينبغي لهم أن يلعبوا.

ظهرت أمامه سيّارة دودج شبه مدمَّرة، عُلِّقت على نافذتها الخلفيّة لافتة تقول: تحذير؛ في حالة الطّرب والنّشوة، ستفتقر هذه السّيّارة إلى من يقودها.

ثمّة الكثير من الملصقات المشابهة على السّيّارات هنا، في أعماق مجاهل ألاسكا الدّاخليّة، بعيداً عن الوجهات السّياحيّة في السّاحل، وجمال جبل دينالي المهيب. ألاسكا ممتلئة بأبناء الهوامش، أشخاص يؤمنون بأشياء غريبة الأطوار، ويصلّون لآلهةٍ استثنائيّةٍ، ويملؤون أقبيتهم بمقادير متساوية من الأسلحة والأناجيل. إن كنت تريد أن تعيش في مكان لا يملي فيه أحدٌ عليك ما تفعله، ولا يبالي إن ركنت مقطورة في فنائك، أو وضعت برّاداً على مصطبتك، فألاسكا هي الولاية التي تناسبك. تقول خالته إنّ فكرة المغامرة الرّومانسيّة هي ما يجذب كلّ هذا العدد من ذوي الميول الفردانيّة، ولم يكن ماثيو يعرف إن كان يتّفق معها (في الحقيقة، هو لا يستهلك الكثير من الطّاقة في التّفكير بشأن أمور مشابهة)، لكنّه يعرف أنّه كلّما ابتعد المرء أكثر عن الحضارة، زادت غرابة الأمور. معظم النّاس يمضون شتاءً مظلماً موحشاً واحداً يمتدّ على ثمانية أشهر في فيربانكس، ثمّ يغادرون الولاية، وهم يصرخون؛ أمّا القلّة الذين يبقون -الشّاذّون اجتماعيّاً، والمغامرون، والرّومانسيّون، والوحدانيّون- فنادراً ما يغادرون من جديد.

استغرق نحو خمس عشرة دقيقة كي يصل إلى طريق المُلكية، وخمس دقائق أخرى ليبلغ المنزل الذي سمّاه بيته طيلة السّنوات القليلة الأخيرة. قبل عقدين من الزّمن، حين استوطنت عائلة أمّه في هذا المكان معتمدةً على ذاتها، كانت الأرض نائية؛ ومع مرور السّنوات، زحفت البلدة مقتربةً أكثر فأكثر، وانتشرت في الأنحاء. ربّما كانت فيربانكس موجودة وسط العدم، على بعد أقلّ من 120 ميلاً عن دائرة القطب الشّماليّ، غير أنّها ثاني أكبر مدن الولاية مساحةً، ومن أسرعها نموّاً بسبب خطّ الأنابيب.

قاد عبر مدخل المركبات الطّويل الملتفّ الذي تحفّه الأشجار، وركن في المرأب/ الورشة الضّخم الذي أقيمت جدرانه من الألواح الخشبيّة، بين درّاجة خاله وينت الرّباعيّة وماكينته الثّلجيّة.

داخل المنزل، الجدران مشيّدة من ألواح خشب مقطوعة بحوافّ خشنة تبدو فوضويّة تحت مزيج الضّوء والظّلّ، لطالما عزمت خالته وخاله على إكسائها بألواح الجصّ، لكنّهما لم يفعلا ذلك قطّ. المطبخ مرصوفٌ بمناضد من الخشب المصقول على شكل حرف L تقوم فوق خزائن خضراء جيء بها من منزل مهجور في أنكوراج، أحد منازل «الأحلام» تلك التي شيّدها أبناء المناطق المنخفضة الذين لم يستطيعوا الصّمود خلال شتائهم الأوّل. يفصل بين المطبخ ومنطقة الطّعام بار وثلاثة كراسي مرتفعة، ويلي ذلك غرفة المعيشة: أريكة مركّبة كبيرة ذات قماش مربّع النّقوش (كاملة مع مساند أقدام متحرّكة)، وكرسيّا لي-زي-بوي منجّدان تظهر آثار الاستخدام عليهما وُضعا بحيث يواجهان نافذة تطلّ على النّهر. ثمّة خزائن كتب في كلّ مكان، تغصّ بالكتب؛ القناديل والمصابيح اليدويّة تزيّن كلّ الأسطح تقريباً لاستخدامها عند انقطاع الكهرباء، وكانت غالباً ما تنقطع، بوجود كلّ هذا العدد من الأشجار الكبيرة والطّقس السّيّئ. المنزل

يتمتّع بالكهرباء والمياه الجارية، بل حتّى فيه تلفاز، لكن ما من مراحيض بأنظمة شطف. في الحقيقة، لا أحد من آل ووكر يأبه بذلك، فجميعهم نشؤوا على استخدام المراحيض الخارجيّة، وكانوا سعداء بالعيش بهذه الطّريقة. لا يملك أهل الجنوب فكرة كم يمكن للمرحاض الخارجيّ أن يكون نظيفاً إن اعتنيتَ به.

- «أهلاً بك». قالت آلي من موضعها على الأريكة، كانت تنجز وظيفة دراسيّة كما يبدو.

ألقى ماثيو حقيبة معدّاته قرب الباب، وأسند عصا الهوكي إلى الجدار في المدخل القطبيّ - ممرّ ممتلئ بالمعاطف والجزم يفصل بين الخارج والدّاخل، وعلّق معطفه على علّاقة، ثمّ ركل فردتي جزمته لينزعهما. لقد بات طويلاً الآن؛ ستّة أقدام وإنشان، بما يضطرّه إلى الانحاء كي يدخل المنزل.

- «مرحباً». ألقى نفسه بجانبها.

- «رائحتك مثل التّيس». قالت، وهي تغلق كتابها الدّراسيّ.

- «تيسٌ سجّل هدفين». أرجع ظهره، وأسند رأسه إلى ظهر الأريكة، محدّقاً في العوارض الخشبيّة الكبيرة المتصالبة التي تعترض السّقف. لا يعرف السّبب، لكنّه يشعر بالتّوتّر، وبشيء من الاضطراب المبهم. أخذ ينقر بقدمه، ويوقّع إيقاعاً سريعاً بأصابعه على مسند الذّراع المهترئ.

حدّقت آلي فيه. كالعادة، كانت قد تزيّنت بمساحيق التّجميل على نحو متقطّع، كأنّها فقدت الاهتمام في منتصف العمليّة. شعرها الأشقر مشدود في ذيل فرس فوضويّ يتدلّى منحرفاً إلى اليسار قليلاً، لا فكرة لديه إذا ما كان ذلك متعمَّداً. إنّها جميلة على الطّريقة الطّبيعيّة غير المهذّبة التي تتميّز

بها الفتيات الألاسكيّات، اللّاتي يُرجِّح أن يذهبن للصّيد في عطلة الأسبوع على أن يقصدن مركز التّسوّق، أو السّينما.

- «أنت تفعلين ذلك مجدّداً». قال.

- ماذا؟

- تراقبينني، كأنّك تظنّينني سأنفجر، أو ما إلى هنالك.

- «كلّا». أجابت محاولةً الابتسام: «الأمر فقط.. كما تعلم.. أتمرّ بيوم عصيب؟».

أغمض ماثيو عينيه، وتنهّد. لقد بات خلاصُه يتمثّل في أخته الكبيرة؛ ما من شكّ في ذلك. أوّلَ انتقاله إلى هنا، حين لم يكن قادراً على التّعامل مع أساه، وكان عرضةً لهجمات الكوابيس الفظيعة، صارت آلي يدَه الثّابتة، الصّوت الذي بوسعه أن يعبر إليه ويبلغه، على أنّ الأمر تطلّب وقتاً. طوال الأشهر الثّلاثة الأولى، لم يكن ينطق بحرف تقريباً، ولم يَظهر للمعالج النّفسيّ الذي أرسلوه إليه أيّ نفع يُذكر؛ لقد علم منذ الجلسة الأولى أنّه لن يمدّ يده طلباً ليد شخصٍ غريبٍ، لا سيّما شخص يتحدّث إليه كما لو كان طفلاً.

آلي هي التي أنقذته. لم تستسلم قطّ، لم تكفّ عن سؤاله عمّا يشعر به. وحين عثر أخيراً على الكلمات كي يعبّر عن نفسه، أظهر أساه نفسَه، وكان فظيعاً، بلا قعر.

ما زال ينكمش حين يتذكّر كيف كان يبكي.

كانت أخته تطوّقه بذراعيها عندما يبكي، تهدهد له كما كانت أمّهما لتفعل. ومع مرور السّنوات، صمّم الاثنان قاموس مفردات للأسى، وتعلّما كيف يتكلّمان عن فقدهما. تحدّث هو وآلي عن ألمهما حتّى لم تبقَ كلمات

تقال؛ كما كانا يمضيان ساعات بصمت، واقفين جنباً إلى جنب عند النّهر يصيدان السّمك بقصبات خفيفة، ويتنزّهان على الأقدام عبر مسالك وعرة في جبال ألاسكا. مع الوقت، تحوّل أساه إلى غضب، ثمّ انساق باتّجاه الغمّ، والآن، أخيراً، كان قد استقرّ في حزن مقيم أصبح جزءاً منه، وليس كلَّ كيانه. ومؤخّراً، بدأا يتحدّثان عن المستقبل عوضاً عن الماضي.

كان كبيراً، ذلك التّغيير، وهما يعلمان ذلك. لقد لجأت آلي إلى الاختباء في قاعات الدّراسة، مستخدمةً الصّفّ درعاً تحجبها عن الوقائع القاسية لحياتها كفتاةٍ يتيمة الأمّ، وظلّت هنا، في فيربانكس، لتكون بجانب ماثيو. قبل وفاة أمّها، كانت أحلام آلي كبيرة؛ حلمت بالانتقال إلى نيويورك، أو شيكاغو، إلى مكان تتوفّر فيه خدمة نقل بالحافلات، ومسرحٌ حيٌّ، وصالات أوبرا، لكنّ الفقد، كما فعل مع ماثيو، أعاد ترتيبها من الدّاخل والخارج. الآن، باتت تعلم مدى أهمّيّة العائلة والتّمسّك بمن نحبّهم. بدأت تتحدّث مؤخّراً عن العودة للإقامة في المُلكية مع أبيها، وربّما العمل معه، وكان ماثيو يعلم أنّ وجوده هنا يردع أخته عن ذلك. يمكن للأمر أن يستمرّ على هذا المنوال إلى الأبد إن هو سمح له، وثمّة جزء منه يريد أن يفعل هذا بالضّبط، لكنّه شارف على بلوغ ربيعه الثّامن عشر، وإن لم يندفع ليشقّ طريقه خارج العشّ فقد تظلّ بجانبه إلى الأبد.

- «أريد أن أكمل العام الدّراسيّ في كانِك». قال في قلب الصّمت، سمع السّؤال الذي لم تطرحه وأجاب عنه: «لا يمكنني الاختباء إلى الأبد».

بدت آلي خائفة؛ سبق لها أن رافقته في أسوأ أوقاته، ويعلم أنّها ترتعب من انزلاقه إلى الكآبة من جديد: «لكنّك تحبّ الهوكي، وأنت ماهر في لعبها».

- سينتهي الموسم في غضون أسبوعين، وسأبدأ بارتياد الكلّيّة في سبتمبر.

- ليني.

لم يفاجئه أنّها فهمت. كان هو وآلي يتحدّثان حول كلّ شيء، بما في ذلك ليني وكم تعني له رسائلها: «ماذا لو ذهبْتُ لارتياد الجامعة في مكان ما؟ أريد أن أراها، قد لا تتسنّى لي فرصة أخرى».

- أواثق أنّك مستعدّ؟ أينما نظرت، سترى ماما.

وها هو ذا، السّؤال الأهمّ. الحقيقة أنّه لا يدري إن كان بمقدوره التّعامل مع أيّ من ذلك: العودة إلى كانِك، رؤية النّهر الذي ابتلع أمّه، رؤية أسى أبيه بالألوان الطّبيعيّة، عن كثب؛ غير أنّه موقنٌ من أمرٍ واحدٍ؛ لقد كانت رسائل ليني مهمّة لديه، ولعلّها ساهمت في إنقاذه بقدر ما فعلت آلي. على الرّغم من كلّ الأميال التي تفصل بينهما، وحياتيهما المختلفتين، كانت رسائل ليني والصّور الفوتوغرافيّة التي ترسلها تذكّره بالشّخص الذي كانه.

- إنّني أراها في كلّ مكان هنا، ألا يحدث هذا معك؟

أومأت آلي على مهل: «أقسم إنّي لأراها بزاوية عيني طيلة الوقت، وأتحدّث إليها في اللّيل».

أومأ لها. عندما يستيقظ في الصّباح أحياناً، يمرّ جزء من ثانية يظنّ فيه أنّ العالم على حالته الطّبيعيّة، أنّه فتى عاديّ في منزل عاديّ، وأنّ أمّه ستناديه عمّا قليل كي ينزل لتناول الفطور. يكون الصّمت فظيعاً في صباحات كتلك.

- أتريدني أن آتي معك؟

أجل، كان يريدها بجانبه، تمسك يده، وتبقيه ثابتاً. «لا، دوامك لا ينتهي قبل يونيو». قال، وهو يسمع التّزعزع في صوته، ويعرف أنّها تسمعه هي الأخرى: «إضافةً إلى ذلك، أظنّ أنّ عليّ الإقدام على هذا وحدي».

- تعلم أنّ بابا يحبّك، سيفرح كثيراً بعودتك إليه.

كان يعلم ذلك بالفعل، وكذلك يعلم أنّ بوسع الحبّ أن يتجمّد، ويصبح شكلاً فريداً من الجليد الرّقيق. بات هو وأبوه يواجهان صعوبة في الكلام خلال السّنوات القليلة الماضية، لقد لوّعهما الأسى والذّنب حتّى أفقدهما ملامحهما.

مدّت آلي يدها إليه، وأمسكت يده.

انتظر أن تتكلّم، لكنّها لم تقل شيئاً. كلاهما يعرف لماذا: ليس ثمّة ما يقال. أحياناً، يتعيّن عليك الرّجوع إلى الخلف في سبيل التّقدّم إلى الأمام؛ كانا يعرفان هذه الحقيقة، على الرغم من حداثة سنّهما، لكن ثمّة حقيقة أخرى، حقيقة تدفعهما الخشيةُ إلى تجنّبها، حقيقة يحاولان حماية بعضهما منها. أحياناً يكون الرّجوع مؤلماً.

لعلّ الأسى كان ينتظر عودة ماثيو طوال هذا الوقت، ينتظره في الظّلام، في البرد. لعلّ كلّ التّقدّم الذي أحرزه سيذهب أدراج الرّيح في كانِك، فيستسلم للانهيار من جديد.

- «أنت أقوى الآن». قالت آلي.

- أظنّ أنّنا سنكتشف إن كان ذلك صحيحاً.

❄

بعد أسبوعين، حلّق ماثيو بطائرة خاله العوّامة فوق منطقة رأس ثعلب الماء، ومال بها إلى الميمنة، ثمّ انخفض وحطّ على صفحة الماء الأزرق.

أطفأ المحرّك، وعام باتّجاه القنطرة الخشبيّة المفضّضة التي كُتب عليها: شرم آل ووكر.

كان والده واقفاً عند نهاية الرّصيف البحريّ، ذراعاه مفرودتان على جانبيه.

قفز ماثيو عن الطّوف إلى الرّصيف وربط العوّامة. ظلّ على تلك الحال، منحنياً وظهره إلى أبيه، للحظة أطول ممّا تقتضيه الضّرورة، يستجمع ما يحتاج إليه من قوّة كي يكون هنا حقّاً.

انتصب واقفاً في نهاية الأمر، واستدار.

كان أبوه قد اقترب الآن؛ شدّ ماثيو إلى عناقٍ تحتكّ فيه العظام استمرّ حتّى اضطرّه أن يلهث كي يتنفّس. تراجع الأب أخيراً ونظر إليه، فاتّخذ الحبّ شكلاً في الهواء حولهما؛ نسخة ملؤها النّدم والذّكرى، وربّما يهدّب الحزنُ حوافّها، لكنّه حبّ.

لم يكن قد مضى على لقائهما سوى بضعة أشهر. (حرص الأب على القدوم لحضور عدّة من مباريات الهوكي التي يخوضها ماثيو، وزيارة فيربانكس بالقدر الذي يسمح به الطّقس القاسي ومهام المُلكية الرّوتينيّة، بيد أنّهما لم يتحدّثا بحقّ حول أيّ شيء مهمّ).

بدا الأب أكبر سنّاً، ازدادت خطوط بشرته وتجاعيدها. ابتسم بطريقته تلك، الطّريقة التي يفعل بها كلّ شيء في الحياة؛ بكامل عزمه، من دون شروحات، من دون ندم، من دون شِباك أمان. المرء يعرف توم ووكر من لمحة عين، لأنّه يسمح لك بالعبور إلى دواخله. تعرف من فورك أنّ هذا رجُلٌ يقول الحقيقة كما يراها دائماً، سواء أكانت ستلقى القبول أم لا، رجل لديه مجموعة من القواعد تسيّر حياته، ولا تهمّه أيّة قاعدة أخرى.

كان يضحك من صميم قلبه أكثر من أيّ رجُل سبق لماثيو أن قابله، ولم يره يبكي إلّا مرّةً واحدةً؛ ذلك اليوم على الجليد.

- لقد بتَّ أطول حتّى من آخر مرّة رأيتك فيها.

- أنا أشبه العملاق الأخضر هالك، لا أكفّ عن تمزيق ملابسي.

أخذ الأب حقيبة ماثيو وقاده على الرّصيف، مروراً بقارب الصّيد الذي ينازع حبالَه. طيور البحر تنعب في الأعالي، والأمواج تلطم الرّكائز. رحّبت به رائحة عشب البحر الذي يُطهى في الشّمس، ونبات الغمرة الذي يسحقه الموج.

عند أعلى الدّرَج، حظي ماثيو بلمحته الأولى من المنزل الخشبيّ الكبير، بواجهته المقنطرة الشّاهقة، ومصطبته التي تلتفّ حول محيطه. أنار ضوءٌ مرحّبٌ الأصائص المعلّقة على الإفريز، التي ما تزال تحمل نبات الغرنوقيّ الميت من العام الماضي.

أصائص الأمّ.

توقّف قليلاً والتقط أنفاسه.

لم يكن يدرك كيف بوسع الزّمن أن يكرّ خيوط حياته حتّى يعود للحظةٍ إلى الرّابعة عشرة من عمره، يبكي من مكانٍ عميقٍ إلى درجةٍ يبدو معها موجوداً قبل وجوده هو نفسه، ويتوق إلى استعادة عافيته من جديد.

تقدّم الأب وسبقه.

حمل ماثيو نفسه على السّير. مرّ بطاولة النّزهات التي أحال الطّقس لونها، وصعد العتبات الخشبيّة إلى الباب الأماميّ ذي الطّلاء الأرجوانيّ، الّذي عُلّقت بجانبه لوحة معدنيّة على شكل حوت أوركا كُتب عليها: المنزل بسقفه وحيتانه يرحّب بكم! (كانت هديّةً من ماثيو لطالما أضحكت أمّه).

بلّلت الذّكرى عينيه بالدّموع، فمسحها محرَجاً من انكشافه أمام والده الرّصين ودخل.

بدا المنزل كما كان دائماً؛ مجموعة من الأثاث الأنتيكا والمرمّم في غرفة المعيشة، طاولة نزهات قديمة مسربلة بقماش أصفر ساطع تعلو سطحها في مركزه مزهريّة فيها أزهار زرقاء. لمسة أمّه في كلّ مكان، بل يكاد يستطيع سماع صوتها.

المنزل من الدّاخل محاط بجدران خشبيّة قاتمة بلون اللّحاء، تتوسّطها نوافذ كبيرة بما يكفي لالتقاط الإطلالة، وثمّة زوج من الأرائك المنجّدة بجلد بنّيّ، وبيانو شحنته جدّته من العالم الخارجيّ. سار نحو النّافذة وحدّق إلى الخارج، فرأى الشّرم والرّصيف البحريّ عبر انعكاسٍ مائيّ لوجهه.

أحسّ بأبيه يقترب من ورائه: «أهلاً بك في البيت».

البيت.. لهذه الكلمة طبقات من المعنى؛ مكان.. عاطفة.. ذكريات..

«لقد تقدّمَتْ في السّير وسبقَتْني». قال، وهو يسمع التّزعزع في صوته.

سمع أباه يسحب نفساً حادّاً؛ أتراه سيوقفه، ويجهض هذا الحديث الذي لم يتجرّأا يوماً على خوضه؟

مرّت لحظة؛ صمت قصير استمرّ وقتاً أقلّ من الشّهيق، وضع الأب بعده يداً ثقيلة على كتف ماثيو: «ما كان بوسع أحد أن يكبح جماح والدتك». قال بهدوء: «لم يكن ذنبك».

لم يعرف ماثيو كيف يردّ. ثمّة الكثير ممّا يقال، لكنّهما لم يتحدّثا قطّ عن أيّ من ذلك. كيف للمرء أن يبدأ حتّى بحديث كهذا؟

شدّ الأب ماثيو إلى عناق عنيف: «أنا في غاية السّرور لعودتك».

- «أجل». أجاب ماثيو بصوتٍ أجشّ: «وأنا كذلك».

❄

منتصف أبريل. الفجر يغسل وجه الأرض قبل السّابعة صباحاً بمدّة لا بأس بها. عندما فتحت ليني عينيها، ولو أنّها فتحتهما على الظّلام، أحسّت من فورها بالبهجة التي تجيء مع انقلاب الفصول. بوصفها ألاسكيّة، كان بوسعها أن تستشعر الضّوء الوليد، وتراه في انفساح السّواد الحبريّ وتحوّلِه إلى صبغة فحميّة. كان ذلك يحمل معه حسّاً بالأمل، بنور النّهار القادم، بأنّ كلّ شيء سيكون أفضل حالاً الآن.. بأنّه هو سيكون أفضل حالاً...

لكنّ شيئاً من ذلك لم يكن صحيحاً هذا الرّبيع. حتّى مع عودة ضياء الشّمس، كانت حالة أبيها تزداد سوءاً؛ كان غاضباً ومتقبّضاً، وقد اشتدّت غيرته من توم ووكر.

كان يعتريها شعور مريع متأجّج ينبئها بأنّ شيئاً سيّئاً سوف يحدث.

صارعت صداعاً طيلة يومها في المدرسة، وفي طريق عودتها إلى المنزل على الدّرّاجة، بدأت تعاني ألماً في المعدة. حاولت أن تقنع نفسها أنّها الدّورة الشّهريّة، لكنّها ما كانت لتصدّق ذلك. إنّه التّوتّر.. القلق.. لقد دخلت هي وأمّها في وضعيّة التّأهّب اليقظ من جديد؛ كانت أعينهما تتواصل دائماً، وتسيران بحذر، تحاولان أن تكونا خفيَّتين.

عبرت مدخل المركبات الوعر بخبرة متمرّسة، متوخّيةً الحفاظ على مسارها فوق الأرض المرتفعة بين الأخدودين الموحلين اللّذين حفرتهما العجلات.

في الفناء، وهو مستنقعٌ من الوحل والمياه الجارية، انتبهت إلى غياب الشّاحنة الحمراء، ما يعني أنّ أباها إمّا قد ذهب للصّيد، وإمّا لرؤية آل هارلان.

أسندت درّاجتها إلى جدار الكوخ وانكبّت على أعمالها الرّوتينيّة،

فأطعمت الحيوانات، وتفقّدت مياهها، وجمعت الملاء الجافّة عن حبل الغسيل، وألقتها في سلّة من قصب الصّفصاف. وإذْ حملت سلّة الغسيل وأسندتها إلى وركها، سمعت صوتاً مطّاطيّاً مرتفعاً لمحرّك قارب، فأطلّت على الماء تنظر مظلّلةً عينيها بيدها: المدّ مرتفع.

دخل مركبٌ صغيرٌ من الألمنيوم إلى شرمهم، وكانت قرقرة المحرّك الصّوتَ الوحيد المسموع على مسافة أميال. ألقت ليني سلّة الغسيل على المصطبة، واتّجهت إلى دَرج الشّاطئ، الذي قاموا بتدعيمه مع مرور السّنوات. كلّ الألواح كانت جديدة تقريباً؛ لكنّك تستطيع أن ترى اللّون الرّماديّ الكامد للعتبات الأصليّة هنا وهناك. نزلت على الدّرجات المتعرّجة بجزمتها الملطّخة بالوحل.

اندفع القارب قدماً بجلبته، ومقدّمه الحادّ يمخر بارزاً فوق الأمواج بكبرياء. ثمّة رجُل يقف عند لوحة القيادة، يوجّه القارب إلى الأمام، ثمّ يرسو به عند الشّاطئ.

ماثيو.

أطفأ المحرّك، ونزل إلى الماء الّذي يبلغ كاحليه، متشبّثاً بحبل القارب الأبيض الخشن.

وضعت يدها على شعرها، وهي تشعر بالإحراج؛ لم تكن قد كلّفت نفسها عناء ضَفْرِهِ أو تمشيطه هذا الصّباح. وكانت ترتدي الملابس نفسها الّتي ارتدتها إلى المدرسة اليوم والبارحة تماماً، وربّما كان قميصها الفلانيل ينضح برائحة دخان الحطب.

بئساً!

شدّ القارب إلى برّ الشّاطئ، ثمّ ألقى الحبل وسار نحوها. لقد تخيّلت

هذه اللّحظة طوال سنوات؛ وفي تهويماتها، كانت دائماً تعرف ما ستقول بالضّبط. في خصوصيّة مخيّلتها، كانا يبدأان الكلام ببساطة، يستدركان خيط صداقتهما كأنّه لم يغب يوماً.

لكن في ذهنها، كان هو ماثيو، ابن الرّابعة عشرة الذي أراها بيوض الضّفادع وفراخ النّسور، الفتى الذي يكتب إليها كلّ أسبوع.. عزيزتي ليني، الوضع صعب في هذه المدرسة، لا أظنّ أنّ أحداً يستلطفني... والّذي تكتب الرّدود إليه.. أعرف الكثير عن أن يكون المرء الولدَ الجديد في المدرسة، هذا مقيت. دعني أعطيك بعض النّصائح...

هذا.. الرّجل كان شخصاً آخر، شخصاً لا تعرفه. فارع القامة، بشعر أشقر طويل، ووسامة لا تُصدَّق. ماذا يسعها أن تقول لهذا الماثيو؟

مدّ يده داخل حقيبة ظهره، وأخرج نسخة سيّد الخواتم المصفرّة المهترئة التي أرسلتها إليه في عيد ميلاده الخامس عشر. تذكّرت الإهداء الذي خطّته عليها: صديقان إلى الأبد، مثل سام وفرودو.

فتاة مختلفة هي التي كتبت ذلك، فتاة لم تكن تعرف الحقيقة البشعة حول عائلتها السّامّة.

- «مثل سام وفرودو». قال لها.

- «سام وفرودو». كرّرت خلفه.

ليني تعرف أنّ هذا جنونيّ، لكن بدا لها أنّهما يخوضان حديثاً من دون أن يتفوّها ببنت شفة، يتكلّمان عن الكتب، والصّداقات المتينة، والتّغلّب على المصاعب العصيّة. لعلّهما لم يكونا يتحدّثان عن سام وفرودو على الإطلاق، لعلّهما كانا يتحدّثان عن نفسيهما، وكيف تمكّنا بطريقة ما من أن يكبرا ويظلّا طفلين في الوقت نفسه.

أخرج من حقيبة ظهره صندوقاً صغيراً مغلّفاً وناولها إيّاه: «هذا من أجلك».

- هديّة؟ اليوم ليس عيد ميلادي.

انتبهت ليني إلى ارتعاش يديها، وهي تمزّق الغلاف الورقيّ. وجدت في الدّاخل كاميرا كانون كانونيت سوداء ثقيلة، فرفعت إليه عينين تكلّلهما المفاجأة.

- «لقد اشتقتُ إليك». قال لها.

- «وأنا اشتقتُ إليك أيضاً». أجابت بهدوء، مدركةً أنّ الأشياء قد تغيّرت على الرغم من قولها هذا. ما عادا في الرّابعة عشرة من عمرهما، والأهمّ من ذلك، والدها تغيّر، وقد تُسبّب صداقتها مع ابن توم ووكر الكثير من المتاعب.

أقلقها أنّها لم تكن تعبأ بكلّ ذلك.

❄

بالكاد استطاعت ليني أن تركز في اليوم التّالي في المدرسة. ظلّت تسترق النّظرات الجانبيّة إلى ماثيو، كما لو كانت تريد طمأنة نفسها أنّه هنا حقّاً. تعيّن على الآنسة رودز أن تصيح على ليني عدّة مرّات كي تحظى بانتباهها.

خرجا من مبنى المدرسة معاً عند نهاية الحصة ودخلا عهدة شعاع الشّمس جنباً إلى جنب، فنزلا على العتبات الخشبيّة، وعبرا الأرض الموحلة.

- «سأعود لأخذ درّاجتي الثّلاثيّة لاحقاً». قال لها، وهي تُخرج درّاجتها من مكانها عند السّياج الشّبكيّ الذي أقيم قبل عامين بعد أن دخلت خنزيرة

مع خنانيصها ووصلت إلى باب المدرسة بحثاً عن الطّعام: «سأسير معك إلى منزلك، إن كنتِ لا تمانعين».

أومأت ليني، بدت لا تستطيع الوصول إلى صوتها. لم تكن قد نطقت بكلمتين أمامه طوال اليوم؛ كانت تخشى أن تحرج نفسها. هما ما عادا طفلين، وهي لا تملك أدنى فكرة بشأن كيفيّة التّحدّث إلى فتى في سنّها، لا سيّما فتىً يهمّها رأيه بها كثيراً.

ضيّقت قبضتيها بشدّة حول مقبضي المقود البلاستيكيّين، وراحت درّاجتها التي انتُشلت من المكبّ وأعيد تدويرها تقرقع بجانبها على طول الطّريق المرصوف بالحصى. قالت شيئاً ما عن عملها في المخزن العامّ، لمجرّد أن تكسر الصّمت.

كانت في حالة إدراك جسمانيّ تجاهه لم يسبق لها أن اختبرتها؛ طوله، عرض منكبيه، الطّريقة السّلسة الواثقة التي يسير بها. كانت تشمّ شذا علكة النّعناع في أنفاسه، وتركيبة روائح الشامبو والصّابون الجاهزين على شعره وبشرته. كانت متناغمة معه، مرتبطةً به كارتباط المفترس والفريسة، نوع مفاجئ خطر من ارتباطات دائرة الحياة ألغز معناه عليها.

انعطفا عن شارع ألباين ستريت وسارا عبر البلدة.

- «كم تغيّرت البلدة!». قال ماثيو.

عند الحانة، توقّف وظلّل عينيه بيده، قرأ عبارة الغرافيتي التي بُخَّت على الواجهة الخشبيّة المتفحّمة. «بعضهم لا يريدون التّغيير، كما أعتقد».

- أظنّ ذلك.

حوّل نظرته إليها: «أبي يقول إنّ أباك هو من خرّب الحانة».

حدّقت ليني فيه، وشعرت بالخزي يلوي أحشاءها. أرادت أن تكذب

عليه، لكنّها لم تستطع، ولم يكن بإمكانها أن تجاهر بالكلمات الخائنة. النّاس يفترضون أنّ أباها هو الذي خرّب الحانة، لكنّها هي وأمّها وحدهما متأكدتان من ذلك.

استأنف ماثيو سيره؛ وإذْ شعرت بالانفراج من تجاوزهما دليل غضب أبيها، التحقت بخطاه. عندما مرّا بالمخزن العامّ، ظهرت لارج مارج تحمل منفاخاً، وذراعاها الكبيرتان مشرعتان على وسعهما. عانقت ماثيو، ثمّ خبطته على ظهره، وحين تراجعت إلى الخلف راحت ترمقهما معاً.

- خذا حذركما، الأمور ليست على ما يرام بين والديكما.

همّت ليني بالانطلاق، وتبعها ماثيو.

أرادت أن تبتسم، غير أنّ الحانة المخرّبة وتحذير لارج مارج كانا قد ذهبا ببريق يومها. لارج مارج محقّة، ليني تلعب الآن بالنّار. من الممكن أن يمرّ أبوها من هذا الطّريق في أيّة لحظة، ولن يسرّه أن يراها تسير إلى البيت برفقة ماثيو ووكر.

- ليني؟

انتبهت أنّ ماثيو ركض كي يلحق بها: «آسفة».

- آسفة على ماذا؟

لم تعرف كيف تجيب؛ كانت آسفة على أشياء لا يدري شيئاً عنها، على مستقبل أغلب الظّنّ أنّها تستدرجه إليه، وسيكون بغيضاً بلا شكّ. عوضاً عن ذلك، قالت شيئاً مبتذلاً عن آخر كتاب قرأته؛ وأخذا يتحدّثان حول أمور سطحيّة لما تبقّى من الطّريق إلى البيت: الطّقس، الأفلام التي شاهدها في فيربانكس، آخر الطّعوم المستخدمة في صيد السّلمون الملكيّ.

لم يبدُ أنّ الوقت مرّ، على الرغم من أنّهما قد سارا معاً لنحو ساعة،

حين رأت ليني البوّابة الحديديّة التي تعلوها جمجمة البقرة تلوح أمامها. كان السّيّد ووكر واقفاً بجانب حفّارة صفراء كبيرة مركونة قرب البوّابة التي تحدّد المدخل إلى أرضه.

توقّفت ليني عن السّير: «ما الذي يفعله والدك؟».

- إنّه يُخلي بعض المساحة ليبني أكواخاً، ويريد تشييد قنطرة فوق مدخل المركبات كي يستدلّ الضّيوف علينا. سيسمّيه «نُزل شرم آل ووكر للمغامرات»، أو شيئاً من هذا القبيل.

- نزل للسّيّاح؟ هنا؟

أحسّت ليني بتحديقة ماثيو على وجهها، قويّةً كما لو كانت لمسة: «بالطّبع، سيُدرّ ذلك الكثير من المال».

سار السّيّد ووكر نحوهما، ونزع قبّعة سائق الشّاحنة عن رأسه، كاشفاً عن خطّ أبيض من البشرة يمتدّ على عرض جبهته، وراح يحكّ شعره المخضلّ.

- «لن تروق تلك القنطرة لأبي». قالت ليني، فيما هو يقترب.

- «الكثير من الأشياء لا تروق لأبيك». ردّ السّيّد ووكر مبتسماً، وهو يمسح العرق عن جبهته بمنديلِ رأسٍ كوّره بيده: «وصداقتك مع عزيزي ماتي ستتصدّر قائمة كراهيته، تعلمين هذا، أليس كذلك؟».

- «بلى». أجابت ليني.

- «هيّا يا ليني». قال ماثيو، أخذ بمرفقها وقادها مبتعداً عن أبيه، فيما الدّرّاجة تقعقع بجانبهما. حين بلغا مدخل مركبات بيتها، توقّفت وحدّقت إلى الطّريق الذي تظلّله الأشجار.

- «يجدر بك أن تغادر الآن». قالت، وهي تهمّ بالابتعاد.

- أريد أن أسير معك إلى البيت.

- «لا». أجابته.

- والدك؟

تمنّت لو تنشقّ الأرض وتبلعها، وأومأت تقول: «لن يريد لي أن أصادقك».

- «سحقاً له». أجاب ماثيو: «لا يمكنه أن يمنع صداقتنا، لا أحد يمكنه ذلك. لقد أخبرني أبي عن القطيعة الغبيّة القائمة بينهما. من يكترث؟ ما همّنا بذلك؟».

- لكن...

- ألا تكنّين لي الودّ يا ليني؟ ألا تريدين أن نكون صديقين؟

أومأت أنْ بلى. بدت اللّحظة مهيبةً وجدّيّة. ثمّة ميثاق يُعقَد.

- وأنا أكنّ لكِ الودّ؛ لذا ها هو ذا، انقضى الأمر، نحن صديقان، ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً لمنع ذلك.

كانت ليني تعرف كم هو ساذج، كم هو مخطئ. ماثيو لا يعلم شيئاً عن الآباء الغاضبين اللّاعقلانيّين، عن اللّكمات التي تهشّم الأنوف، والغيظ العارم الذي يبدأ بتخريب الممتلكات، وقد يبلغ أماكنَ لا يستطيع تخيّلها.

- «لا يمكن التّنبّؤ بتصرّفات أبي». قالت ليني، تلك كانت العبارة الملتبسة الوحيدة الّتي استطاعت أن تخرج بها.

- ما معنى ذلك؟

- قد يؤذيك إن عرف أنّ بيننا مودّة متبادلة.

- أستطيع أن أنازل أباك.

شعرت ليني بانبثاق رغبةٍ صغيرةٍ في الضّحك الهستيريّ تتصاعد فيها؛ كانت فكرة أن «ينازل» ماثيو أباها فظيعة أكثر من أن تتأمّلها.

يجدر بها أن تسير مبتعدةً الآن على الفور، وتخبر ماثيو أنّه ليس بوسعهما أن يكونا صديقين.

- ليني؟

نظرة عينيه هي ما سيقودها إلى التّهلكة. هل سبق لأيّ أحدٍ أن نظر إليها هكذا يوماً؟ شعرت بشيءٍ ما يسبّب لها رجفة، ربّما التّوق، أو الارتياح، أو حتّى الرّغبة. لم تعرف ما هو، كلّ ما عرفته أنّها لا تستطيع أن تدير ظهرها لهذا الشّيء، ليس بعد كلّ هذه السّنوات من الوحدة، على الرغم من أنّها تشعر بالخطر ينسلّ بصمت إلى الماء ويسبح باتّجاهها. «لا يمكننا أن نترك أبي يعرف أنّنا صديقان، أبداً، على الإطلاق».

- «بالتّأكيد». أجابها ماثيو، لكن كان بوسعها أن ترى أنّه لم يفهم. ربّما كان يعرف عن الألم، والفقدان، والمعاناة؛ ذلك الباع الطّويل في الظّلماء ظاهر في عينيه، لكنّه لا يعرف شيئاً عن الخوف، يظنّ أنّ تحذيراتها إغراق في الميلودراميّة.

- أنا أعني ذلك يا ماثيو، لا يمكن أن يعرف أبداً.

* 15 *

حلمت ليني أنّها تُمطر. كانت تقف على ضفّة نهر، مبللة بالكامل. المطر يصقل شعرها، ويشوّش رؤيتها.

ارتفع النّهر، وصدر عنه صوتٌ عظيمٌ، مجلجلٌ، هادرٌ كالرّعد، وفجأةً حلّت فسحة الرّبيع. تحرّرت قطع جليدٍ بحجم المنازل من اليابسة، وراحت تطفو مع التّيّار، آخذةً كلّ شيء في طريقها: الأشجار، والقوارب، والبيوت.

عليكِ أن تعبري.

لم تعرف ليني إن كانت قد سمعت الكلمات أم قالتها، كلّ ما عرفته هو أنّ عليها أن تعبر هذا النّهر قبل أن يجرفها الجليد، ويقتحم الماء رئتيها.

لكن لم يكن ثمّة مكان للعبور.

الأمواج الجليديّة الباردة تتعاظم إلى جدران، الأرض تميد وتتداعى، والأشجار تتحطّم. أحدهم يصرخ.

إنّها هي.. لقد ضربها النّهر مثل معولٍ على رأسها، فأطاح بها على جنبها.

أخذ جسمها ينوس ويتمايل، أخذت تصرخ، شعرت بنفسها تهوي وتهوي.

هنا، هتف صوتٌ لها.

ماثيو!

بوسعه أن ينقذها. حاولت لاهثةً أن تشقّ طريقها إلى السّطح بأظافرها، لكن ثمّة ما استحكم بقدميها، وراح يجرّها إلى أسفل، أسفل وأسفل حتّى ما عادت تقدر أن تتنفّس. خيّم الظّلام على كلّ شيء.

استيقظت ليني بشهقة، ورأت أنّها بمأمنٍ في غرفتها، مع أكوام كتبها ودفاترها الممتلئة بصورها مكدّسةً على طول الحائط، وصندوق رسائل ماثيو بجانبها.

منام سيّئ.

بدأ يتلاشى من الذّاكرة منذ الآن. شيء ما عن نهر، فكّرت. فسحة الرّبيع؛ طريقة أخرى للموت في ألاسكا.

تزيّت للمدرسة بأوفرول من الجينز، وقميص فلانيل مربّع النّقوش، وردّت شعرها عن وجهها، وعقصته في ضفيرةٍ فرنسيّةٍ رخوة. بسبب افتقار المنزل إلى المرايا (كان أبوها قد حطّمها جميعاً على مرّ السّنوات)، لم يكن بوسعها تقييم مظهرها. كانت قد اعتادت أن تنظر إلى نفسها بوساطة كِسرات الزّجاج؛ ترى نفسها قِطعاً، ولم تكن تهتمّ على الإطلاق حتّى رجع ماثيو.

في الأسفل، ألقت كدسةَ كتبها المدرسيّة على طاولة المطبخ، واتّخذت مقعداً. وضعت أمّها صحناً من نقانق الرّنّة، والبسكويت، ومرق اللّحم أمامها، إلى جانب زبديّة ممتلئة بتوتٍ أزرق كانوا قد قطفوه من الجروف الرّمليّة فوق خليج كاتشيماك الخريفَ الماضي.

فيما أخذت ليني تتناول فطورها، وقفت الأمّ تراقبها على مقربة.

- ظللتِ تنقلين المياه طوال ساعةٍ ليلةَ أمس كي تستطيعي الاستحمام، وها قد ضفرتِ شعرك. يبدو جميلاً بالمناسبة.

- إنّها تسمّى سلوكيّات صحّيّة اعتياديّة، ماما.

- سمعتُ أنّ ماثيو ووكر عاد إلى البلدة.

كان حريّاً بليني أن تعرف أنّ أمّها ستجمع قطع الأحجية. في بعض الأحيان، بسبب أبيها وما إلى هنالك، كانت تنسى مدى ذكاء أمّها وحدّة ملاحظتها.

تابعت تناول طعامها، متوخّيةً أن تتلافى التّواصل البصريّ. تعرف ما ستقوله أمّها حول هذا؛ لذا فهي لا تنوي إخبارها. ألاسكا مكانٌ كبيرٌ؛ ثمّة وفرة من المطارح التي يمكن إخفاء شيءٍ صغيرٍ كصداقة فيها.

- من المؤسف أن يكره أبوك أباه إلى هذه الدّرجة، ومن المؤسف أن يعاني أبوك من مشكلةٍ في ضبط أعصابه.

- أهذا ما سنصطلح على تسميتها به؟

شعرت ليني بعين أمّها تسبر أعماقها، مثل نسرٍ يراقب الأمواج بانتظار لمعان رذاذٍ فضّيّ. إنّها أوّل مرّة تخفي فيها شيئاً عن أمّها، وكان ذلك يبعث على انزعاجها.

- كدتِ تبلغين الثّامنة عشرة، امرأة شابّة. ولا بدّ من أنّكما كتبتما أنتِ وماثيو مئة رسالة لبعضكما عبر السّنوات.

- وما علاقة هذا بأيّ شيء؟

- الهرمونات أشبه بالمحرّكات النّفّاثة، لا تحتاج إلّا إلى اللّمسة المناسبة كي تنقلك إلى الفضاء الخارجيّ.

- ها؟

- إنّني أتحدّث عن الحبّ يا لينورا.. الشّغف...

- الحبّ؟ يا إلهي! لا أعرف ما الذي قادنا إلى هذا الحديث. ما من شيء يستدعي قلقك، ماما.

- جيّد. ابقي على ذكائك يا فتاتي الصّغيرة، لا تقترفي الخطأ الذي اقترفتُه نفسه.

رفعت ليني عينيها أخيراً: «أيّ خطأ؟ أبي؟ أم أنا؟ هل أنت...».

فُتح الباب ودلف أبوها، الذي كان قد غسل شعره هذا الصّباح، وارتدى بنطالاً قماشيّاً بنّيّاً نظيفاً نسبيّاً وتي شيرت. ركل الباب ليغلقه خلفه وقال: «ثمّة رائحة زكيّة يا كورا. صباح الخير يا صهباء، هل نمتِ جيّداً؟».

- «بالتّأكيد يا أبي». أجابته.

قبّلها على هامة رأسها: «جاهزة للمدرسة؟ سأوصلك».

- بوسعي أن أذهب بدرّاجتي.

- ألا يمكنني أن أصحب فتاتي المفضّلة الثّانية في رحلة قصيرة في يوم مشمس؟

- «بلى، بالطّبع». قالت، والتقطت كتبها وصندوق غدائها (ما زال ويني الدّبدوب؛ باتت تحبّه الآن)، ونهضت على قدميها.

- «انتبهي إلى نفسك في المدرسة». قالت الأمّ.

لم تنظر ليني خلفها، تبعت أباها إلى الخارج نحو الشّاحنة وتسلّقتها.

أقحم الأب شريطاً ثُمانيّ المسارات في آلة التّسجيل، ورفع الصّوت، فدوّت أغنية «عينان كاذبتان» من المكبّرات.

بدأ يرافق الغناء بحماسة ويقول: «غنّي معي»، وهو ينعطف على الطّريق الرّئيسيّ والشّاحنة تقرقع باتّجاه البلدة.

فجأةً، داس على المكابح بشدّة: «ابن العاهرة!».

ارتمت ليني إلى الأمام.

- «ابن العاهرة!». كرّر أبوها.

كان السّيّد ووكر واقفاً تحت قنطرة الخشب الخام التي أقامها فوق مدخل مركباته، وقد نُقشَ باليد على عارضتها العُليا: نُزُل شرم آل ووكر للمغامرات.

دفع الأب عصا الغيار إلى وضعيّة الرَّكن، وخرج يمدّ خطاه فوق الطّريق الوعر، من دون أن يكلّف نفسه حتّى محاولة تجنّب الأخاديد الوحليّة.

رآه السّيّد ووكر آتياً فتوقّف عن عمله، دسّ مطرقته في حزامه فتدلّت من الجلد كسلاح.

انحنت ليني تبحلق بترقّب عبر الزّجاج الأماميّ المكسوّ بالأوساخ والبعوض المسحوق.

راح أبوها يصيح على السّيّد ووكر، الذي ابتسم عاقداً ذراعيه.

استحضرت صورةَ كلبٍ صغيرٍ من سلالة ترير جاك راسل منقضّ بعنف عند نهاية قيده، ينبح مهبهباً على كلب روت وايلر.

كان أبوها ما يزال يصيح حين أدار السّيّد ووكر ظهره وسار إلى القنطرة مستأنفاً عمله.

لزم الأب مكانه لدقيقة، ثمّ جرجر نفسه متعالياً باتّجاه الشّاحنة آخر المطاف، وتسلّق صافقاً الباب خلفه. دفع عصا الغيار ودعس دوّاسة الوقود. «ينبغي لأحدهم أن يمرّغ أنف ابن العاهرة المتغطرس هذا بالتّراب. لقد قابلت رجالاً على شاكلته في نام، ضبّاطاً جبناء تافهين ضحّوا برجال أفضل منهم، وحصدوا النّياشين لقاء ذلك».

كانت ليني أوعى من أن تتفوّه بأيّ شيء. طيلة الطّريق إلى المدرسة، ظلّ يدمدم بصوت منخفض: ابن العاهرة، الوغد المتغطرس، يظنّ أنّه أفضل... أيقنت أنّه سيتّجه رأساً إلى المجمّع من هنا، كي يعثر لنفسه على من ينضمّ إليه في تذمّره، أو لعلّ الكلام لن يعود كافياً بعد الآن.

توقّف عند المدرسة: «سأستقلّ العبّارة إلى هومر اليوم، وسأعود لأقلك عند الخامسة».

- حسناً.

أخذت ليني كتبها وصندوق الغداء وخرجت من الحافلة. في طريقها إلى مبنى المدرسة لم تنظر خلفها، وأبوها لم يُطلق بوق السيارة مودّعاً. انطلق بسرعة تطاير الحصى على إثرها من حول العجلات.

دخلت إلى قاعة الصّفّ فرأت الجميع، وقد اتّخذوا مقاعدهم، كانت الآنسة رودز أمام اللّوح تكتب: البحر الإيامبيّ خماسيّ التّفاعيل في شعر شكسبير.

استدار ماثيو فوق كرسيّه ليواجهها. كانت ابتسامته تشبه قوّة شدّ جاذبيّة من إحدى روايات الخيال العلميّ خاصّتها؛ سارت نحوه وجلست.

راح يحدّق إليها. أكانت هذه هي الطّريقة التي يحدّق أبوها بها إلى أمّها؟ هكذا تظنّ، في بعض الأحيان.. جعلتها نظرته تشعر بالتّزعزع، وشيء من القلق والارتباك.

اقتطع ورقة من الدّفتر وخربش شيئاً ما فيها، ثمّ مرّرها إليها. قرأت: ما رأيك أن تتغيّبي عن العمل بعد المدرسة؟ بوسعنا أن نقوم بشيء ما.

قولي: لا، قالت في قرارتها، غير أنّ ما نطقت به كان: «أبي سيقلني في السّاعة الخامسة».

- إذنْ، جوابك: أجل؟

لم تستطع ألّا تبتسم: «أجل».

- جميل.

وطوال ما تبقّى من اليوم، شعرت ليني بالتّوتّر والحيويّة معاً. بالكاد استطاعت الجلوس ساكنة، ووجدت صعوبة في الإجابة عن الأسئلة حول هاملت. ومع ذلك، قرأت الفقرات الموكلة إليها بصوتٍ جهوريّ، ووضعت ملحوظات حولها محاولةً ألّا تكشف لماثيو أو لأيّ أحدٍ آخر كم كانت تشعر بغرابة.

حين انتهى الدّوام، كانت أوّل من نهض عن مقعده. هرعت خارجةً من المدرسة، وركضت إلى المخزن العامّ، اندفعت عبر الباب الضّيّق وهتفت: «لارج مارج!».

كانت لارج مارج تفرغ صندوقاً من مناديل المرحاض. مثل كلّ سلعها، اشترته من سولدوتنا، دوّنت عليه السّعر، وعرضته للبيع على الرّفوف. «ما الأمر يا فتاة؟».

- لا أستطيع العمل اليوم.

- أوه، حسناً.

- ألا تريدين أن تعرفي السّبب؟

ابتسمت لارج مارج، انتصبت ناهضة، ووضعت يدها على أسفل ظهرها كأنّ الانحناء يؤلمها: «كلّا».

رنّ الجرس من جديد، ودخل ماثيو إلى المخزن.

- «كما قلتُ». كرّرت لارج مارج: «لا أريد أن أعرف». أدارت ظهرها إلى ليني وماثيو، وسارت عبر الممشى المكتظّ لتختفي خلف كومة من أقفاص صيد السّراطين.

- «هيّا بنا». قال ماثيو: «اتبعيني».

انسلّا من المخزن وعبرا في عجلةٍ أمام العمّال في حانة ذا كيكينغ موس، ثمّ سلكا الطّريق الصّاعد قرب الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، وهناك باتا في منأى عن العيون.

أخذا يتمشّيان نحو الرّأس البرّيّ، وعثرا على فسحة. كانت مياه خليج كاتشيماك الزّرقاء تنبسط أمامهما، وتمخر عبابها دستةٌ من القوارب الصّغيرة على الأقلّ.

أخرج ماثيو السّكّين الكبيرة المسنّنة من غمدها في حزامه، ومزّع حزمةً من الأغصان دائمة الخضرة، فرشها على الأرض مشكّلاً بساطاً من الأخضر العبِق.

- هاكِ، اجلسي.

جلست ليني؛ الخُضرة تطفو تحتها، وتفرد طراوتها.

جلس بجانبها، وشابك يديه صانعاً منهما مهداً لرأسه، ثمّ استلقى: «انظري إلى أعلى».

رفعت عينيها.

- لا، استلقي.

نفّذت تعليماته. فوقهما، كانت الغيوم البيضاء تهيم على عرض سماء شاحبة الزّرقة.

- أترين كلب البودل؟

رأت ليني الغيمة المنحوتة على شكل كلب بودل مشذّب الفرو: «وتلك تبدو مثل سفينة قراصنة».

راحت تشاهد الغيوم، وهي تنساب ببطءٍ على صفحة السّماء،

تغيّر أشكالها، وتتحوّل إلى شيءٍ جديدٍ أمام عينيها. تمنّت لو أنّ النّاس يستطيعون التّغيّر بهذه السّهولة.

- كيف كانت فيربانكس؟

- مكتظّة، بالنّسبة إليّ على الأقلّ. أظنّني أحبّ الخلاء والهدوء. وكانت خشنة فظّة كذلك، ممتلئة بعمّال خطّ الأنابيب الذين يكثرون الشّرب، ويفتعلون المشاجرات. بيد أنّ خالتي وخالي كانا عظيمين، وكان من اللّطيف أن أكون مع آلي، كانت تقلق عليّ كثيراً.

- وأنا أيضاً.

- «أجل، أعرف. و... أردت أن أقول: إنّني آسف». قال.

- علامَ؟

- ذلك اليوم في الرّحلة الميدانيّة حين دفعتك. كنت أظنّ أنّني أملك زمام نفسي... أقصد، لم يكن صحيحاً، لكنّني ظننت ذلك.

- لقد تفهّمتك.

- كيف لكِ أن تتفهّمي؟

- أبي يعاني من كوابيس بسبب الحرب، وتصيبه بالجنون في بعض الأحيان.

- «رأيتُها. أمّي. أسفل الجليد، تطفو تحت قدميّ. كان شعرها منفرداً حولها، كانت تنقّب بيديها عن مخرج، ثمّ رحلت». أفلت نفَساً مسنّناً من صدره. أحسّت به يتركها ويغيب، في رحلةٍ إلى أعماق تضاريس الذّكريات الشّائكة المظلمة، ثمّ أحسّت به يعود من جديد: «لا أدري إن كنت لأستطيع أن أستمرّ من دون أختي، و... من دون رسائلك. أعلم أنّ هذا يبدو غريباً، لكنّه صحيح».

أمام كلماته، أحسّت ليني كما لو أنّ الأرض تحتها قد غارت (كما في حلمها تماماً). باتت تعرف الآن أشياء لم تكن تعرفها في الرّابعة عشرة: عن الجليد، والفقد، وحتّى الخوف. ما كانت أصلاً لتستطيع تخيّل فقدان أمّها بأيّ شكل، لكن ذلك.. أن تشاهدها تحت الجليد.. من دون قدرة على إنقاذها...

أدارت رأسها، وتمعّنت في صورته الجانبيّة؛ الخطّ الحادّ الذي يرسم أنفه، الظّلّ الأشقر للّحية الحليقة، حوافّ شفتيه. رأت النّدبة الصّغيرة التي تشقّ حاجبه، والشّامة السّمراء النّاتئة من خطّ شعره. «أنت محظوظ أنّ لديك أختاً مثل أليسكا».

- «أجل، كانت تطمح أن تعمل لدى مجلّة فوغ، أو شيء من هذا القبيل، أمّا الآن فباتت تريد أن تعود إلى المُلكية، وتعمل مع أبي. سيشيّدون نُزل مغامرات على أرض المُلكية، كي يتسنّى لجيل آخر من آل ووكر أن يعيش في المكان نفسه». ضحك من الفكرة.

- ألا يروق لك ذلك؟

- «بلى». ردّ من فوره: «أريد ان أعلّم أولادي الأشياء التي علّمني إيّاها أبي».

وهنا انفضّت ليني عنه، ذلك كان آخر شيء تريده في العالم بأسره. حوّلت انتباهها نحو السّماء مجدّداً، إلى كلب البودل الذي صار سفينة فضاء.

- لقد قرأتُ كتاباً جميلاً، نهاية الطّفولة، يتحدّث عن آخر رجُل حيّ على وجه الأرض. أتساءل أيّ شعور تراه يكون ذلك، أو أن يكون المرء مستبصراً...؟

عندما مدّ يده إلى يدها، لم تسحبها. بدا إمساك يده -ملامسته- أكثر شيء طبيعيّ في العالم.

❄

لم تستغرق ليني طويلاً حتّى أدركت أنّها في ورطة. كانت تفكّر في ماثيو بلا انقطاع، وبدأت تدرس أدنى لفتاته في المدرسة؛ راقبته كما تترصّد طريدة، محاولةً أن تستشفّ النيّة من التّصرّفات. أحياناً، تمرّ يدُه بيدِها تحت طاولة المقعد، أو يلمس كتفها حين يعبر قربها في الصّفّ. لا تعرف إن كانت تلك الاحتكاكات العابرة مقصودة، أو ذات مغزى، غير أنّ جسدها يتجاوب بالغريزة مع كلّ لمسةٍ عابرةٍ، بل لقد نهضت عن كرسيّها ذات مرّة، ودفعت كتفها إلى راحة يده مثل قطّةٍ تستجدي الانتباه. لم يكن فكرةً مضمَرةً ذلك الامتلاء في روحها، تلك الحاجة المجهولة؛ كانت أموراً تحدث وحسب. وفي بعض الأحيان، حين يتحدّث إليها، يخطر لها أنّه يتبحّر في شفتيها كما تتبحّر هي في شفتيه. ألفت نفسها ترسّم تقاطيع وجهه سرّاً، تحفظ عن ظهر قلبٍ كلّ مرتفَعٍ، وغورٍ، ووادٍ، كأنّها رحّالة مستكشفة، وهو اكتشافها الفذّ.

لا تستطيع انتشالَ نفسها من التّفكير فيه، لا في المدرسة فيما يفترض بها أن تكون منهمكةً في القراءة، ولا في البيت حيث ينبغي أن تنكبّ على عملها، وما عادت تحصي المرّات التي تعيّن فيها على أمّها أن ترفع صوتها كي تلفت انتباهها.

ربّما كانت لتتحدّث إلى أمّها، وتسألها عن هذا القلق المتأهّب الذي لا يبارحها، عن أحلام اللّمسات والقُبل التي تتركها في بلبلةٍ مشوّشة حين تستيقظ، في حاجة عارمة إلى شيء لا تستطيع تحديده، لكنّ حالة أبيها كانت تزداد سوءاً بجلاء، والكوخ يبدو مشحوناً بطاقةٍ سلبيّة. لا ينقص أمّها

المزيد ممّا تقلق حياله؛ لذا أبقت ليني غِمار لهفتها الغريبة الملغزة لنفسها، وحاولت أن تسبر كنهها بمفردها.

ليني في الخارج الآن، جالسة مع أمّها وثيلما إلى طاولة الستانلس ستيل في مجمّع آل هارلان، ينظّفن السّمك، ويقطّعن اللّحم شرائحَ طويلة. سينقعن الشّرائح في مرق التّتبيل، ثمّ يدخّنّها في المدخن لستٍّ وثلاثين ساعة على الأقلّ.

كان تيد يرمّم أحد بيوت الكلاب، وكلايد يعمل على دباغة جلد بقرة، ويحضّره ليصنع منه حبالاً وسياطاً. على اليسار، أغنيس بسنواتها الثّلاث عشرة تتمرّن على رمي نجوم فضّيّة حادّة إلى جذوع الأشجار، ويتتالى صوت الضّربات المكتومة. مارث تنجر قطعة خشب لتصنع مقلاعاً، ودونا عند حبال الغسيل تعلّق الملاء؛ أمّا الأب وماد إيرل فقد ذهبا إلى وسط هومر.

رشقت ثيلما الطّاولة بدلو من الماء والصّابون، فانزلقت معه نفايات أحشاء السّمك إلى الأرض الموحلة حيث تعاركت الكلاب عليها.

جالسةً على كرسيّها، وموبيت بجانبها على الأرض تثرثر وتهذر عن عشّ طائر كانت قد عثرت عليه، انهمكت ليني في إصلاح قفص صيد سراطين.

ثمّة ارتباك يرابط في المكان الآن. منذ قدوم السّيّد ووكر إلى المجمّع، وتذكيره لآل هارلان أنّ منزلته في حياتهم قد رُسِّخت بإحكامٍ قبل زمنٍ طويل، وعرضه وظائفَ جيّدة المردود، باتت ليني ترى كيف ينظر البالغون واحدهم إلى الآخر، أو لتحرّي دقّة أكبر: كيف يتلافى واحدهم النّظر إلى الآخر.

لقد انشرخ صدعٌ بين الصّفوف. ليس في البلدة وحسب، بل هنا أيضاً، في مجمّع آل هارلان. لم تكن ليني موقنةً دائماً من يقف في صفّ من، لكنّ البالغين يعلمون. كانت متأكّدةً تماماً أنّ أباها لم يتحدّث إلى ثيلما أو تيد منذ تلك اللّيلة.

انطلق نفير بوق صاخب بما يكفي ليُجفل ليني. أسقطت القفص من يديها، فهوى بثقله على كاحلها. زعقت متأوّهة، وركلته جانباً.

دخلت شاحنة أبيها وركنت قرب سقيفة الأدوات.

انفتح البابان معاً، وخرج الأب وماد إيرل من البيك أب.

مدّ الأب يديه إلى القسم الخلفيّ، والتقط صندوقاً كرتونيّاً كبيراً رفعه بين ذراعيه، فأخذ يخشخش ويقرقع فيما حمله إلى داخل المجمّع. توجّه إلى المرتفَع قرب قفران النّحل، وأطلّ على الحضور، وتقدّم ماد إيرل ليقف بجانبه. بدا العجوز متعَباً، أو أكثر تعباً من المعتاد. لقد فقد معظم شعره خلال العام المنصرم، وبدت خطوط جبهته كأنّها محفورة في مكانها، نبت الشّعر الأبيض على لُغدَيه، ووجنتيه، وفي أنفه، وأذنيه.

- «اقتربوا». قال ماد إيرل بإيماءة.

مسحت ثيلما يديها بساق بنطالها المتّسخ، وانضمّت إلى زوجها.

اقتربت ليني من أمّها وقالت: «يبدوان مخمورين».

أومأت الأمّ موافقة، وأشعلت لفافة تبغ، ثمّ تقدّمتا ووقفتا بجانب ثيلما.

أرسل الأب ابتسامته إلى من تجمّعوا في الأسفل قبالته، واقفاً على الحافّة المرتفعة أمامهم مثل كبير كهنة.

ميّزت ليني ابتسامة «الفكرة الكبيرة» خاصّته، سبق أن رأتها مرّات ومرّات. ثمّة بداية، وهو يحبّ البدايات.

وضع الأب يده فوق كتف إيرل، وشدّ عليها ببادرةٍ ذات دلالة. «لقد رحّب إيرل الواقف هنا بي وبعائلتي، واستقبلنا في هذا المكان الآمن الرّائع الذي خلقتموه. نكاد نشعر أنّنا من آل هارلان، هذا هو الحدّ الذي بلغه دفء معاملتكم لنا. أعرف كم تعني صداقة ثيلما لكورا. وبصراحة، لم يسبق لنا قبل الآن أن شعرنا بالانتماء إلى أيّ مكان». أنزل الصّندوق أرضاً فحطّ بخشخشة، ثمّ أزاحه جانباً بالطّرف الكليل لجزمته المطّاطيّة: «بو أراد لي أن أحظى بكوخه. لماذا؟ كي يتسنّى لي إطلاع هذه العائلة على ما أعرفه. أراد أن يوجد هنا شخصٌ يستطيع وضع ثقته فيه كي يحمي عائلته. وكما تعلمون جميعاً، فقد تصدّيتُ لهذه المسؤوليّة بجدّيّة. كلّ واحد فيكم رامٍ متمرّس، كما أنّكم خبراء مهرة في استخدام القوس والسّهم، وحقائب ضروريّات الكوارث خاصّتكم موضّبة وجاهزة للانطلاق بها من دون سابق إنذار. نحن مستعدّون لأحكام عرفيّة، أو حرب نوويّة، أو جائحة وباء... أو هكذا كنتُ أظنّ».

انتبهت ليني إلى العبوس الذي ارتدى وجه ثيلما.

– «ماذا تقصد؟». سأله كلايد، وهو يحلّ عقدة ذراعيه المفتولتين.

– الأسبوع الماضي، دخل عدوٌّ وسار على هذه الأرض بسهولة لا بعدها. لا أحد أوقفه. لا شيء أوقفه. جاء واستخدم الكلام –والرّشوة– ليدقّ إسفيناً بيننا. تعلمون أنّ هذا صحيح، فأنتم تشعرون بالشِّقاق، وكلّ هذا بسبب توم ووكر.

– غمغمت ثيلما: «ها نحن أولاء من جديد».

– «إيرنت». قال تيد: «هذا مجرّد عمل، ونحن نحتاج إلى المال».

رفع الأب يديه مبتسماً.

(ليني تعرف هذه الابتسامة: ليست علامة سعادة).

- لستُ ألقي اللّوم على أحد، فأنا أتفهّم. إنّني فقط أشير إلى خطرٍ فاتتكم ملاحظته. عندما تخرج الأمور عن السيطرة، سيكون لدى جميع جيراننا قصصُ نُواحٍ يروونها، سيريدون ما لدينا، وستريدون تقديمه لهم. أنتم تعرفونهم منذ زمن طويل، أفهم ذلك، لذا أنا هنا كي أحميكم من أنفسكم أيضاً.

- «كان بو سيُريدَ هذا». قال ماد إيرل. لفّ لفافة تبغ وأشعلها، وسحب سحبةً عميقة ظنّت ليني أنّه سيموت في مكانه بعدها. «أخبرهم». قال أخيراً، وهو ينفث.

جثا الأب مقرفصاً، فتح طيّات الصّندوق، ومدّ يديه فيه. عاود النّهوض على قدميه، ممسكاً بلوح خشب دُقّت فيه مئات المسامير وتزاحمت قرب بعضها لتشكّل ما بدا مثل سلاح، وكان يحمل في يده الأخرى قنبلة يدويّة. «لا أحد سيدخل إلى هذا المكان بتلك البساطة بعد اليوم. أوّلاً: سنشيّد جداراً، ونمدّ سلكاً شائكاً أعلاه، ثمّ سنحفر خندقاً حوله، في الأماكن التي يمكن للمعتدين أن يدخلوا منها. سنملؤه بهذه الألواح المسمّرة، والزّجاج المكسَّر، والأوتاد المدبّبة، وأيّ شيء يخطر ببالنا».

ضحكت ثيلما.

- «ليس الأمر بمزحة يا آنسة». قال ماد إيرل.

- «أمّا القنبلة، فتوضع في مرطبان زجاجيّ». قال الأب، يبتسم مزهوّاً بذكائه: «نزيل المسمار، نضع القنبلة في المرطبان، ونضغط ذراع الأمان، ثمّ ندفن المرطبان. حالما يدوس أحد فوقه، يتكسّر، ثمّ: بوووم».

لم يفتح أحد فمه، اكتفوا بالوقوف أماكنهم، والكلاب تنبح في الخلفيّة.

ربّت ماد إيرل على ظهر الأب: «فكرةٌ جهنمية يا إيرنت، فكرة جهنمية».

- «لا». قالت ثيلما، ثمّ أضافت: «لا.. لا..».

بسبب وقوقة ماد إيرل مِلء صوته، استغرق صوت ثيلما المنخفض قليلاً قبل أن يُسمَع. شقّت طريقها إلى واجهة الجمع مندفعة، ثمّ تقدّمت خطوة أخرى بعد، حتّى باتت واقفةً وحدها رأسَ حربة. «لا». كرّرت مرّةً أُخرى.

- «لا؟». قال أبوها، يمضغ فمه.

- «لقد فقد رشده يا أبي». أجابت ثيلما: «لدينا أطفال هنا، وكذلك -لنكن صريحين- أكثر من بضعة سكّيرين. لا يمكننا أن نفخّخ محيط بيتنا بمتفجّرات مدفونة، سنقتل واحداً منّا على الأرجح».

- «حفظُ الأمن ليس وظيفتك يا ثيلما». قال الأب: «بل وظيفتي».

- لا يا إيرنت، إبقاء عائلتي في مأمنٍ هو وظيفتي. يمكنني المسايرة في تكديس الطّعام، وإنشاء نظام تصفية ماء، يمكنني أن أعلّم ابنتي مهارات مفيدة، مثل الرّماية والصّيد ونصب الفخاخ، بل حتّى يمكنني أن أتركك أنت وأبي تهذران بلا انقطاعٍ عن الحرب النّوويّة والأوبئة الجائحة، لكنّني لن أقبل أن أمضي كلّ يومٍ من حياتي قلقةً من احتمال أن نقتل أحداً ما عن طريق الخطأ من دون سبب.

- «"نهذر"؟». قال الأب بصوتٍ ينخفض.

طفق الجميع يتكلّمون دفعةً واحدةً، ويتجادلون. شعرت ليني بالشّقاق بينهم يمتدّ، وينفتح منفسخاً؛ لقد تفرّقوا إلى مجموعتين: أولئك الذين يريدون أن يكُونوا عائلة (وهم الأغلب) مقابل من يريدون أن يكون بإمكانهم قتل أيّ شخص يقترب (أبوها، وماد إيرل، وكلايد).

- «لدينا أولاد هنا». قالت ثيلما: «عليك أن تتذكّر هذا، لا يمكننا أن نضع القنابل، أو الفخاخ المتفجرة».

- «لكنّهم قد يقتحمون المكان ببنادق آليّة». قال الأب ملتمساً المساندة: «فيقتلوننا ويأخذون ما لدينا».

سمعت ليني موبيت تقول: «أصحيح، ماما؟ هل يمكن أن يفعلوا ذلك؟».

انبثق الجدل من جديد؛ تكتّل البالغون يواجهون بعضهم، القدم أمام القدم، الأصوات مرتفعة، والوجوه محمرّة.

- «كفى!». قال ماد إيرل آخر الأمر، رافعاً يدين من جلدٍ على عظم في الهواء: «لا يمكنني أن أسمح بحدوث هذا لعائلتي، كما أنّ لدينا صغاراً بالفعل»، التفت إلى الأب: «آسف يا إيرنت، عليّ أن آخذ صفّ ثيلما».

تراجع الأب خطوةً إلى الخلف، تاركاً مسافة بينه وبين العجوز: «بالطّبع يا إيرل». قال متقبّضاً: «لك ما تراه يا رجُل».

بتلك البساطة، انتهى الجدل لدى آل هارلان. رأت ليني كيف التمّوا على بعضهم كعائلة، فسامح واحدهم الآخر، وبدؤوا يتحدّثون في أمور أُخرى. تساءلت ليني إن كان أحدهم قد لاحظ حتّى كيف تراجع أبوها ولزم مكانه وحيداً، كيف راح يراقبهم، وكيف انبسط فمه في خطٍّ غاضب.

16

في مايو، عادت طيور دجاج الأرض بالألوف، سرباً من الأجنحة يحلّق في الأعالي، تغطّ سريعاً في الخليج قبل استئناف رحلتها نحو الشّمال. كانت طيور كثيرة ترجع إلى ألاسكا في هذا الشّهر، إلى درجة ازدحمت معها السّماء بلا انقطاع، وضجّ الهواء بصخب التّغريد، والنّعيب، والزّعيق.

عادةً، في هذا الوقت من السّنة، تستلقي ليني في سريرها وتصغي إلى الضّجيج، وتميّز كلّ طائر من تغريده، منتبهةً إلى مرور الفصول من وصول الطّيور ورحيلها، فيما هي تتطلّع إلى قدوم الصّيف.

هذه السّنة كانت مختلفة.

لم يتبقَّ من دوام المدرسة إلّا أسبوعان.

- «أنت هامدة على نحو بغيض». قال الأب، وهو ينعطف بالشّاحنة إلى مصفّ السّيّارات في المدرسة، ثمّ يركنها بجانب بيك أب ماثيو.

- «أنا بخير». قالت تمدّ يدها إلى مقبض الباب.

- قصّة الأمن، أليس كذلك؟

التفتت ليني تنظر إليه: «ماذا؟».

- أنت وأمّك تتصرّفان بشيء من الفتور والكآبة منذ زيارتنا الأخيرة لآل هارلان، أعرف أنّك خائفة.

اكتفت ليني بالتّحديق إليه، غير واثقة ممّا عساه يكون الجواب الصّائب. كان باله قد ازداد قصراً منذ الخلاف عند آل هارلان.

- «ثيلما متفائلة، واحدة من أولئك الذين يدفنون رؤوسهم في الرّمل. بالطّبع لن تودّ أن تواجه الحقيقة صراحةً، لأنّها بشعة، لكنّ غضّ الطّرف ليس حلّاً. يتعيّن أن نتهيّأ للأسوأ، أموت قبل أن أسمح لأيّ شيء بالحدوث لك، أو لأمّك. تعلمين ذلك، صحيح؟ تعلمين كم أحبّكما كلتيكما». شعّث لها شعرها: «لا تقلقي يا صهباء، سأبقيك في أمان».

خرجت من الشّاحنة، وصفقت الباب خلفها، ثمّ أنزلت درّاجتها من الصّندوق الخلفيّ. ثبّتت حزام حقيبة ظهرها فوق كتفها، وأسندت درّاجتها على السّياج، ثمّ اتّجهت إلى مبنى المدرسة.

أطلق أبوها البوق وقاد مبتعداً.

- بسسست! ليني!

نظرت نحو الصّوت.

كان ماثيو يقف مختبئاً بين الأشجار على الطّرف المقابل للمدرسة، ولوّح يستدعيها.

انتظرت حتّى اختفت شاحنة أبيها عند الزّاوية، ثمّ هرعت إليه: «ماذا هناك؟».

- دعينا نتغيّب عن المدرسة اليوم، ونستقلّ توستي إلى هومر.

- نتغيّب عن المدرسة؟ هومر؟

- هيّا! سيكون ذلك ممتعاً.

كانت ليني تعرف كلّ الأسباب التي تدعوها إلى الرّفض، وكذلك تعرف أنّ المدّ منحسر اليوم، وسيكون أبوها يصيد المحار طوال الصّباح.

- لن يُقبض علينا. وحتّى إن حدث ذلك، يا له من أمر جلل! نحن في السّنة الأخيرة، وقد حلّ شهر مايو. ألا يتغيّب طلّاب السّنة الأخيرة في العالم الخارجيّ طيلة الوقت؟

لم ترها ليني فكرةً جيّدة، بل رأت حتّى أنّها قد تكون خطرةً، لكنّها لم تستطع أن تقول لا لماثيو.

تناهى إليها الصّياح الجنائزيّ الخفيض لبوق العبّارة، وهي تقترب من الرّصيف المائيّ.

مدّ ماثيو يده إلى يدها، وقبل أن تعي ما حدث، كانا يركضان خارجين من مصفّ سيّارات المدرسة، ثمّ ينطلقان على الطّريق الصّاعد مروراً بالكنيسة القديمة، ليجدا نفسيهما على متن العبّارة المنتظرة.

وقفت ليني على ظهر المركب متمسّكةً بالإفريز، فيما تهادى مبتعداً عن اليابسة.

طوال الصّيف، تُقلّ عبّارةُ توستامينا الجديرة بالثّقة الألاسكيّين جيئةً وذهاباً: صيّادي سمك، ومغامرين، وعمّالاً، وسيّاحاً، وحتّى فرق طلّاب الثّانويّة الرّياضيّة. بدنها ممتلئ بالسّيّارات والسّلع: معدّات بناء، جرّارات، جرّافات، عوارض فولاذيّة. بالنّسبة إلى القلّة من السّيّاح الجسورين الذين يستخدمون القارب كمركب رحلات بحريّة لصنائعيّة الياقات الزّرقاء نحو وجهات نائية، كان العبور على متن العبّارة بمنزلة طريقة جميلة لقضاء اليوم؛ أمّا بالنّسبة إلى المحلّيّين، فهذا هو الطّريق إلى البلدة ببساطة.

لقد استقلّت ليني هذه العبّارة مئات المرّات خلال حياتها، لكنّها لم تشعر يوماً بمثل هذا الإحساس بالحرّيّة على متنها، أو هذه الإمكانيّة؛ كما لو كان بمقدور هذا المركب القديم أن يبحر بها إلى مستقبلٍ جديدٍ كلّياً.

الرّيح تنفش لها شعرها. النّوارس وطيور الشّاطئ تتصايح في الأعالي، تدور وتغطس، تطفو فوق روابي الرّيح. ماء البحر منبسط وأخضر، لا شيء يعلو سطحه إلّا بعض التموّجات التي يسبّبها المحرّك.

اقترب ماثيو من خلفها، وطوّقها بذراعيه متمسّكاً بالإفريز. لم تستطع منع نفسها عن إسناد ظهرها إليه، تاركةً لجسده أن يدفئها. «لا أصدّق أنّنا نفعل هذا». قالت. كانت تشعر أنّها مراهقة طبيعيّةٌ للمرّة الأولى، هذا أقرب ما تستطيع هي وماثيو بلوغه إلى ذلك، إلى أن يكونا من الأولاد الذين يذهبون لمشاهدة الأفلام ليلة السّبت، وتناول الميلك شيك في مطعم إيه أند دبليو بعدها.

- «لقد قُبلت لدى الجامعة في أنكوراج». قال ماثيو: «سألعب الهوكي مع فريقهم».

استدارت ليني. وبما أنّه ظلّ متمسّكاً بالإفريز، فقد صارت واقفةً بين ذراعيه، وشعرها يجلد وجهها.

- «تعالي معي». قال لها.

بدت أشبه بزهرة جميلة، تلك الفكرة؛ تفتّحت، ثمّ ماتت في يدها. الحياة مختلفة بالنّسبة إلى ماثيو، فهو موهوبٌ وثريٌّ، والسّيّد ووكر يريد لابنه أن يرتاد الجامعة: «لا نستطيع تحمّل نفقات ذلك، كما أنّهما يحتاجان إليّ من أجل الاعتناء بالمُلكية على أيّة حال».

- ثمّة منح دراسيّة.

- «لا يمكنني أن أغادر». قالت بهدوء.

- أعلم أنّ أباك غريب الأطوار، لكن لمَ لا تستطيعين المغادرة؟

- ليس هو من لا أستطيع تركه، بل أمّي، فهي تحتاج إليّ.

- إنّها راشدة.

لم يكن بمقدور ليني التّفوّه بالكلمات التي من شأنها أن تفسّر الأمر.

لن يفهم أبداً ما الذي يدفع ليني أحياناً إلى الاعتقاد بأنّها الشّيء الوحيد الذي يبقي أمّها على قيد الحياة.

سحبها ماثيو بين ذراعيه وطوّقها، تساءلت إذا ما كان يحسّ بها كيف ترتعد. «ربّاه يا لين!». همس خلالَ شَعرها.

هل قصد ذلك، أن يقصّر اسمها، أن يعمّدَه لنفسه كشيء جديد بين يديه بطريقة ما؟

- «كنت لأفعل لو استطعت». قالت، وبعد ذلك خيّم الصمت عليهما. فكّرت في مدى اختلاف عالميهما، فأظهر ذلك لها كم كان العالم كبيراً في الخارج؛ ما هما إلّا ولدان اثنان وسط الملايين.

حينما رسا المركب في هومر، ترجّلا مع حشدٍ من البشر. أطلقا العنان لنفسيهما -متشابكَي اليدين- وسط زحام السّيّاح ذوي العيون الملتمعة، والمحلّيّين بملابسهم الرّتيبة الكامدة. تناولا الهلبوت ورقائق البطاطا على مصطبة المطعم عند طرف اللّسان الرّمليّ، وراحا يلقيان بالرّقائق المالحة المشبعة بالزّيت إلى الطّيور التي تنتظر على مقربة. اشترى ماثيو لليني ألبوم صور من متجر تذكارات يبيع زينة ميلاد تحتفي برموز ألاسكا وقمصان تي شيرت كُتبت عليها عبارات مثل: «لا تتصرّف كالموظ معي» و«ألديك سراطين؟».

تحدّثا عن لا شيء وعن كلّ شيء. مواضيع هامشيّة: جمال ألاسكا، جنون المدّ، حشد السّيّارات والبشر على اللّسان الرّمليّ.

التقطت ليني صورة لماثيو أمام حانة سالتي دوغ. قبل مئة عام، كان

بناؤها يقوم مقام مكتب البريد ومتجر البقّاليّة لهذه الرّقعة الواقعة خارج الطّريق، التي يدعوها الألاسكيّون أنفسهم حتّى باسم: نهاية الأرض. الآن بات المبنى القديم العزيز حانةً قاتمة ملتوية تحتكّ فيها أكواع المحلّيّين بأكواع السّيّاح، وتزيّن جدرانَها التّركاتُ التّذكاريّة، كتب ماثيو: «ليني وماثيو» على ورقة دولار، وثبّتها بالدّبابيس على الجدار حيث ضاعت من فورها وسط آلاف الأوراق النّقديّة والملصقات حولها.

كان ذلك أفضل أيّام حياة ليني بلا منازع، إلى درجة اضطرّت معها حين انتهى -وكانا على متن مركب أجرة مائيّ جالسين فوق مقعدٍ طويلٍ عند مؤخّره يتّجهان إلى كاتِك- أن تغالب موجةً من الحزن. لقد كانا ولدين بين الزّحام على متن توستي وفي البلدة؛ أمّا هنا فما من أحد سواهما هما وربّان مركب الأجرة المائيّ، والمياه الكثيرة التي تحيط بهم.

- «أتمنّى لو لم يكن علينا أن نرجع». قالت.

لفّها بذراعه وجذبها إليه، فيما القارب يركب الأمواج صعوداً وهبوطاً فيزعزع وقفتهما. «فلنهرب». قال لها.

ضحكت.

- لا، حقاً! أستطيع تخيُّلنا نجوب العالم، نسير بحقائب ظهر عبر أمريكا الوسطى، ونتسلّق إلى ماتشو بيتشو. سنستقرّ بعد أن نكون رأينا كلّ شيء. سأعمل طيّاراً لدى شركة خطوط جوّيّة، أو مسعفاً، وتصبحين أنت مصوّرة فوتوغرافيّة، ثمّ نعود إلى هنا حيث ننتمي، فنتزوّج وننجب أطفالاً لن يصغوا إلينا.

كانت ليني تعرف أنّه يعبث لا أكثر، يحلم أحلام يقظة، غير أنّ كلماته قدحت توقاً عميقاً داخلها؛ توقاً لم تعرف يوماً بوجوده. تعيّن أن تحمل نفسها على الابتسام، أن تتابع اللّعبة كأنّ هذا لم يصبها في القلب. «أصبحُ

مصوّرة فوتوغرافيّة، ها؟ تروق لي هذه الفكرة. أظنّني سأضع مساحيق التّجميل وأنتعل كعباً عالياً لأتلقّى جائزة البوليتزر خاصّتي، ولعلّني أطلب كأس مارتيني، لكنّني لا أعلم بخصوص الأطفال».

- بلى، بلا شكّ. أريد ابنة بشعرٍ أحمر، سأعلّمها كيف تقذف الأحجار وتنطّطها على وجه الماء، وكيف تصيد السّلمون الملكيّ.

لم تُحِر ليني جواباً. كان ذلك حديثاً ساذجاً لا أكثر، فكيف له أن يفطر قلبها؟ يجدر بماثيو أن يكون أوعى من أن يرفع سويّة أحلامه هكذا، ويسمح لها بالتّجسّد في كلام مسموع. هو فقد أمّه، وهي لديها أب خطِر؛ عائلتاهما هشّتان مثل المستقبل.

أبطأ مركب الأجرة المائيّ من سرعته، وانعطف جانباً ليرسو عند الرّصيف. وثب ماثيو وعقد حبلاً حول مربط معدنيّ، فنزلت ليني إلى الرّصيف فيما ألقى الحبل إلى متن المركب من جديد.

- «وصلنا إلى المنزل». قال.

رنت ليني إلى الأبنية التي تجثو على ركائز موحلة مرصّعة بالبرنقيل فوق الماء.

المنزل.

العودة إلى الحياة الواقعيّة.

❄

في أثناء العمل في أصيل اليوم التّالي، اقترفت ليني الخطأ تلو الآخر. أخطأت في تسجيل علب مسامير البنسات الثّلاثة، ووضعتها في غير مكانها، ثمّ وقفت تحملق في الخطأ الذي ارتكبته، وتفكّر: أأستطيع الذّهاب إلى الجامعة؟ أيكون ذلك ممكناً؟

- «اذهبي إلى المنزل». قالت لارج مارج، وهي تقترب من خلفها: «عقلك في مكان آخر اليوم».

- «أنا بخير». أجابت ليني.

- «لا، لستِ بخير». رمقتها بنظرة عارفة: «رأيتكِ أنت وماثيو تسيران عبر البلدة البارحة، أنت تلعبين بالنّار يا فتاة».

- مـ.. ماذا تقصدين؟

- تعرفين ماذا أقصد، أتودّين الحديث في الأمر؟

- ما من شيء نتحدّث فيه.

- لا بدّ من أنّك تظنّينني وُلدت أمس. احذري، هذا كلّ ما سأقوله!

لم تبادر ليني إلى الرّدّ. خانتها الكلمات، وكذلك التّفكير المنطقيّ. غادرت المخزن، وأخذت درّاجتها، وقادتها إلى المنزل. حين وصلت، علفت الحيوانات، وحملت الماء من السّاقية التي حفروها قبل بضع سنوات، ثمّ فتحت باب الكوخ. كان ذهنها واقعاً تحت وطأة الأفكار والعواطف إلى درجة أنّها لم تنتبه حتّى أصبحت في المطبخ مع أمّها، من دون أن تتذكّر كيف وصلت إلى هناك.

كانت الأمّ تعجن عجين الخبز. رفعت رأسها حين صُفق الباب، وأبعدت يديها الملطّختين بالدّقيق عن كومة العجين: «ما المشكلة؟».

- «لمَ تقولين ذلك؟». سألتها ليني، لكنّها تعرف الإجابة. كانت على شفا الدّمع، غير أنّها ليست متأكّدة من السّبب. كلّ ما تعرفه هو أنّ ماثيو أخرج عالمها عن إيقاعه المنتظم؛ لقد غيّر نظرتها إلى الأشياء، وفتح مداركها. فجأةً، ما عادت تستطيع التّفكير إلّا في نهاية المدرسة وذهابه إلى الجامعة دونها.

- «ليني؟». مسحت الأمّ يديها من الدّقيق بخرقةٍ، ورمتها جانباً: «تبدين مفطورة القلب».

قبل أن تتمكّن ليني من الإجابة، سمعت مركبةً تقترب، ورأت شاحنة بيك أب بيضاء لامعة تركن في الفناء.

شاحنة آل ووكر.

- «أوه، لا». ركضت إلى باب الكوخ وفتحته عن آخره.

ترجّل ماثيو من الشّاحنة ونزل إلى الفناء.

عبرت ليني المصطبة، وهرعت على العتبات: «ما كان يجدر بك أن تأتي إلى هنا».

- كنتِ هامدةً للغاية اليوم في المدرسة، ثمّ ذهبتِ إلى العمل مسرعة. رحتُ أفكّر... هل فعلتُ شيئاً خاطئاً؟

كانت ليني سعيدةً لرؤيته، وخائفةً من وجوده هنا. بدا لها أنّ كلّ ما تفعله هو قول «لا» و«وداعاً» له، في حين أنّها ترغب بشدّة، بشدّة كبيرة، أن تقول: «أجل».

ظهر الأب من جانب الكوخ حاملاً فأساً، كان متورّداً من الجهد، والعرق يبلّله. رأى ماثيو فتوقّف مكانه بغتةً: «ليس مرحّباً بك في هذه الأرض يا ماثيو ووكر. إن كنتَ أنت وأبوك تريدان أن تلوّثا منزلكما، فأنا لا أستطيع إيقافكما كما يبدو، لكنّك ستبقى خارجَ أرضي وبعيداً عن ابنتي، أتفهم؟ أنتم آل ووكر آفة تفسد أرضنا، بتحديثاتكم للحانة، وفندقكم، ومخطّطات نُزل مغامراتكم اللّعين. ستخرّبون كانِك، وتحوّلونها إلى ديزني لاند لعينة».

عبس ماثيو: «هل قلتَ: ديزني لاند؟».

- اغرب عن وجهي قبل أن أقرّر أنّك تعتدي على مُلكيّتي وأطلق النار عليك.

- «سأذهب». لم يبدُ ماثيو خائفاً على الإطلاق، لكنّ ذلك مستحيل. إنّه مجرّد فتىً، يتعرّض للتّهديد من رجُلٍ يحمل فأساً.

لقد تألّمت ليني لمشاهدته وهو يرحل أكثر ممّا تخيّلت. أشاحت عن أبيها ودخلت إلى المنزل مكتفيةً بالوقوف مكانها، تحدّق في اللّاشيء، تشتاق إلى ماثيو بطريقة أزاحت كلّ شيء آخر من المشهد.

دخلت أمّها بعد قليل، قطعت الغرفة وفتحت ذراعيها تقول: «أوه! يا فتاتي الصّغيرة».

انفجرت دموع ليني، فضيّقت الأمّ عناقها، ومسّدت شعر ابنتها، ثمّ قادتها إلى الأريكة حيث جلستا.

- أنت متعلّقة به، وكيف لا؟ إنّه بهيّ الطّلعة، وأنت وحيدة بمفردك كلّ هذه السّنوات.

اتركي لماما أن تنطق بالكلمات جهراً.

ليني تشعر بالوحدة فعلاً منذ وقت طويل.

- «أفهم ذلك». قالت الأمّ.

ساعدها ذلك؛ تلك الكلمات القليلة ذكّرت ليني أنّه في أطراف ألاسكا المترامية كان هذا الكوخ يشكّل عالماً قائماً بذاته، وأمّها تفهم ذلك.

- غير أنّ الأمر خطر. أنت ترين هذا، صحيح؟

- «أجل». قالت ليني: «أرى هذا».

❄

للمرّة الأولى، فهمت ليني الكتب التي قرأتها عن القلوب المكسورة والحبّ غير المتبادل. كان جسمانيّاً، هذا الألم الذي تشعر به. الطّريقة التي تفتقد ماثيو بها أشبه بمرض.

عندما استيقظت في الصّباح التّالي، بعد ليلةٍ موصولة القلق، أحسّت بتقرّح عينيها. تدفّق الضّوء من السّماء، ساطعاً كفايةً لحملها على حجب عينيها عنه. تزيّت بثياب البارحة ونزلت من العلّيّة، ومن دون أن تكلّف نفسها عناء تناول الفطور، خرجت من الكوخ، وأطعمت الحيوانات، ثمّ قفزت على درّاجتها وقادتها مبتعدة. في البلدة، لوّحت للارج مارج، التي كانت خارج المخزن العامّ تغسل النّوافذ، ومرّت بالمجنون بيت، ثمّ انعطفت إلى مصفّ سيّارات المدرسة. تركت درّاجتها على العشب الطّويل قرب السّياج الشّبكيّ، ثمّ احتضنت حقيبتها إلى صدرها ودخلت قاعة الصّفّ.

كان مقعد ماثيو خاوياً.

- «هذا منطقيّ». تمتمت: «أغلب الظّنّ أنّه أصبح في منتصف الطّريق إلى فيربانكس بعد أن شهد جنون أبي».

- «أهلاً ليني». قالت الآنسة رودز مشرقة: «أيمكنكِ تولّي أمر التّعليم اليوم؟ ثمّة نسرٌ مصابٌ يحتاج إلى المساعدة في المركز في هومر، ورأيت أن أذهب».

- بالتّأكيد. لمَ لا؟

- علمتُ أنّك ستكونين بطاقتي الرّابحة. موبيت تجري عمليّة قسمة مطوّلة، وأغنيس ومارث تعملان على بحثهما التّاريخيّ، ويُفترض بك أنتِ وماثيو أن تقرأا ت. س. إليوت اليوم.

أرغمت ليني نفسها على الابتسام في أثناء مغادرة الآنسة رودز للقاعة.

نظرت إلى ساعة الحائط وقالت لنفسها: لعلّه تأخّر، ثمّ شرعت في مساعدة الفتيات على حلّ وظائفهنّ.

زحف النّهار ببطء، ولم تكفّ ليني عن النّظر إلى السّاعة حتّى أشارت أخيراً إلى الثّالثة.

- حسناً يا صغار، انتهى الدّوام.

حين غادر الأطفال وخيّم الصّمت على الصّفّ، جمعت ليني أغراضها، وكانت آخر من يترك المدرسة.

في الخارج، أخذت درّاجتها وقادتها بكسل وسط شارع مين ستريت، من دون أن تستعجل الوصول إلى المنزل. انطلقت طائرةُ أدغال في الأعالي ترسم قوساً كسولاً، مانحةً ركّابها إطلالة جيّدة على البلدة الصّغيرة الجاثمة فوق ممشىً خشبيّ على طول حافّة المياه. كانت المستنقعات خلف البلدة في أوج ازدهارها، ورقع العشب ترفرف في النّسيم. الهواء عابق بالغبار، والعشب الجديد، والمياه الآسنة، وثمّة قارب أحمر يلوح في المسافة وسط الأيك الكثيف في طريقه إلى عرض البحر. سمعت دقّ مطارق من الحانة، لكن لم ترَ أيّ عمّال خارجها.

وصلت إلى الجسر. عادةً، في مثل هذا اليوم المشرق من مستهلّ الموسم، يكون الجسر مكتظّاً بالرّجال والنّساء والأطفال الواقفين كتفاً إلى كتف؛ خيوط الصّنانير في الماء، والأطفال على رؤوس أصابعهم ينظرون من فوق الحافّة إلى النّهر الكريستاليّ في الأسفل.

الآن ثمّة شخص واحد فقط يقف هنا.

ماثيو.

أوقفت درّاجتها، وأنزلت إحدى قدميها إلى الأرض تاركةً الأخرى على الدّوّاسة: «ما الّذي تفعله؟».

- أنتظر.

- تنتظر ماذا؟

- أنتظركِ أنت.

ترجّلت ليني عن درّاجتها وسارت بجانبه، فيما قادها عائداً باتّجاه البلدة. راحت الدّرّاجة تخشخش وتقرقع فوق الأرض الحصويّة المتخبّطة لشارع مين ستريت، والجرس يصدر من حينٍ إلى آخر صوتَ رنينٍ مرتعد خفيض.

نظرت ليني إلى الحانة بتوتّر، وهما يمرّان قربها، لكنّها لم ترَ كلايد أو تيد يعملان. لم ترد أن يخبر أحدٌ أباها أنّه رآها برفقة ماثيو.

تمشّيا صاعدين على التّلّة مروراً بالكنيسة، ثمّ اختفيا بين أشجار تنّوب سيتكا. مدّدت ليني درّاجتها على الأرض، وتبعت ماثيو إلى الرّأس الذي ينتهي بجرف من الصّخر الأسود.

- «لم أنم ليلة أمس». قال ماثيو أخيراً.

- ولا أنا.

- كنت أفكّر فيكِ.

كان بوسعها أن تقول الشّيء نفسه، لكنّها لم تجرؤ.

أخذها من يدها وقادها إلى بساط الأغصان الذي سبق أن أعدّه، فجلسا وأسندا ظهريهما إلى جذع الشّجرة المتفسّخ المكسوّ بالحزاز. سمعت ليني الموج على الصّخور في الأسفل، وكانت الأرض تعبق برائحة الخصوبة الحلوة، حطّت الظّلال برقع نجميّة الشّكل بين جدائل ضوء الشّمس: «لقد تحدّثتُ إلى أبي ليلة أمس عن موضوعنا، حتّى إنّني ذهبت إلى المطعم كي أتّصل بأختي».

موضوعنا.

- أها؟

- قال أبي إنّني ألعب بالنّار لكوني أريدك.

أريدك.

- «وآلي سألتني إذا ما كنت قد قبّلتك أم ليس بعد، وعندما أجبت بالنّفي، قالت: «بحقّ الجحيم يا أخي الصّغير، بادر إلى العمل». هي تعرف ما أكنّه لك من مودّة. لذا، أيمكنني أن أقبّلك؟».

بالكاد أومأت، لكنّ ذلك كان كافياً. ناوشت شفتاه شفتيها بتردّدٍ تجريبيّ، كان الأمر يشبه كلّ قصص الحبّ التي سبق وقرأتها؛ هذه القبلة الأولى غيّرتها، فتحت مداركها على عالم لم تتخيّله يوماً، كون كبير، مشرق، وضّاء، ممتلئ بالإمكانات غير المتوقّعة.

حين تراجع إلى الخلف، حدّقت ليني إليه: «موضوعنا.. هذا الأمر.. إنّه خطِر».

- «أجل، أظنّ. لكن لا يهمّ، أليس كذلك؟».

- «لا». قالت ليني بهدوء. كانت تدرك أنّها تتّخذ قراراً قد تندم عليه، لكن بدا لها أنّه لا مناص من ذلك: «لا شيء يهمّ سوانا».

❄

تعالي إلى الجامعة معي يا لين، أرجوكِ...

جامعة ألاسكا جميلة... ما زال بوسعك الالتحاق بالفصل الخريفيّ، يمكننا الذّهاب معاً.

معاً...

في المنزل، ركنت درّاجتها جانباً، وذهبت لإطعام الحيوانات، لكنّها

كانت مشتّتة إلى درجة جعلتها تفرغ دلواً كاملاً من الحبوب، ثمّ نقلت الماء من السّاقية في أعلى التّلّة، وبعد ساعة، حين أنهت مهامّها، رأت والديها ينزلان إلى الشّاطئ، ويقفان عند القارب؛ كانا يهمّان بالذّهاب لصيد السّمك.

سيتغيّبان لساعات.

بوسعها أن تركب درّاجتها إلى منزل ماثيو، وتتركه يقبّلها من جديد. لن يبلغ إلى علم والديها حتّى أنّها غائبة.

خطّة غبيّة. هي سترى ماثيو غداً.

لكنّ الغد بدا على بُعد حياةٍ كاملة.

انتزعت درّاجتها، ووثبت فوقها، ثمّ قادتها مبتعدةً، مروراً بالزّورق الذي كان أبوها قد جرّه إلى المنزل من مكبّ النّفايات الأسبوع الماضي، والجيفة المتعفّنة لدرّاجة ترابيّة لم يستطع التّوصّل إلى جعلها تعمل من جديد. غمرتها ظلال مدخل المركبات من كلّ صوب، وجعلتها ترتجف من القشعريرة.

انطلقت بدرّاجتها على الطّريق الرّئيسيّ عائدةً إلى ضوء الشّمس، وقطعت ربع الميل إلى مدخل الملكيّة والبوّابة التي تحرسه. انعطفت عبر البوّابة المفتوحة، ومرّت تحت القنطرة المطليّة، ونقش السّلمون الفضّيّ المسمرّ المحفور في خشبها، متابعةً طريقها.

«هذا خطِر». قالت في قرارتها، لكنّها لم تستطع إرغام نفسها على أن تكترث. كلّ ما تستطيع التّفكير فيه الآن هو ماثيو، وكيف شعرت حين قبّلها، وكم تريد أن تقبّله من جديد.

هنا، لم يكن الطّريق موحلاً للغاية، من الواضح أنّ أحدهم أخذ وقتاً في تسوية الأرض وفرشها بالحصى، وكان ذلك شيئاً من النّوع الذي لن يقدم والدها عليه أبداً: تسوية طريق لجعل الحياة أسهل.

توقّفت متعثّرةً مقطوعة الأنفاس أمام منزل آل ووكر.

كان ماثيو يحمل رزمةً ضخمةً من التّبن إلى حظيرة الماشية، رآها فأسقط الرّزمة ومضى باتّجاهها. كان يرتدي كنزة هوكي كبيرة المقاس، وبنطالاً قصيراً، وينتعل جزمة مطّاطيّة. «لين؟». لقد أحبّت كيف أعاد تسميتها، وحوّلها إلى شخص آخر، شخص لا يعرفه أحد غيره: «هل أنتِ على ما يرام؟».

- «اشتقت إليك». قالت. غبيّة..! هما بالكاد تفارقا: «آمل لو... إنّنا نحتاج إلى وقتٍ معاً».

- «سآتي كي أراك ليلة الغد». قال وأخذها بين ذراعيه، حيث تريد أن تكون.

- مــ.. ماذا تقصد؟

- «سأتسلّل كي أراك». قال ذلك بقناعة جعلتها لا تعرف كيف تردّ: «ليلة الغد».

- لا تستطيع.

- عند منتصف اللّيل، اخرجي متسلّلةً للقائي.

- هذا خطِر للغاية.

- لديكم مرحاض خارجيّ، صحيح؟ لذا ليس أمراً جللاً أن تخرجي. وهل يحدث أن يبحثا عنكِ في العلّيّة منتصفَ اللّيل؟

بوسعها أن ترتدي ملابس دافئة، وتخرج، وتتغيّب لبعض الوقت، يمكنهما أن يسترقا ساعةً معاً، وربّما أكثر.. بمفردهما...

إن قالت لا الآن، فسيثبت ذلك أنّها تستطيع أن تعيش حياةً واعيةً، بنمطٍ من الحبّ لن يشبّهه أحدٌ بالهيروين أبداً، ولن تضطرّ يوماً أن تغرق في البكاء حتّى ينتشلها النّومُ منه.

- أرجوكِ! أحتاج إلى أن أراكِ.

- ليني!

سمعت صوت أبيها يصيح بها. دفعت ماثيو بعيداً، لكنّ الأوان كان قد فات. لقد رآهما أبوها معاً، وها هو الآن يوسع خطاه نحوهما، فيما تركض أمّها كي تلحق به.

- «ما الذي تفعلينه هنا بحقّ الجحيم؟». قال الأب.

- «أنا.. أنا...». لم تستطع أن تجيب. غبيةّ غبيةّ غبيةّ.. ما كان يجدر بها القدوم إلى هنا.

- «ظننتُ أنّني قلت لكَ أن تبقى بعيداً عن ابنتي لينورا». قال الأب، وجذب ليني من عضدها، شادّاً إيّاها بعنف إلى جانبه.

عضّت ليني على شفتيها بقوّة كي لا يندّ عنها أيّ صوت، لم ترد أن يعرف ماثيو أنّ أباها آلمها.

- «ليني». قال ماثيو عابساً.

- «لا تقترب». قالت: «أرجوك!».

- «هيّا يا ليني». قال أبوها، وهو يجذبها بعيداً.

سارت متعثّرةً بجانب أبيها، ترتطم به وتنفضّ عنه فوق الأرض المتعرّجة. عندما تبتعد أكثر من اللّازم، يشدّها كي يعيدها إلى جانبه. وهرعت أمّها كي تلتحق بهما، جارّةً درّاجة ليني معها.

حين عادوا إلى فنائهم، شدّت ليني يدها لتحرّر نفسها، وكادت تقع متعثّرةً فوق العشب الموحل، واجهته تصيح: «لم أفعل أيّ شيء خاطئ».

- «إيرنت». قالت الأمّ، محاولةً أن تبدو عقلانيّة: «إنّهما صديقان لا غير...».

استدار الأب إلى الأمّ: «إذنْ كنتِ تعلمين بقصّتهما؟».

- «أنت تبالغ في ردّ فعلك». قالت الأمّ باتّزان: «هو في صفّ ليني، وهذا كلّ ما في الأمر».

- «كنتِ تعلمين». كرّر.

- «لا». قالت ليني، وقد اعتراها الخوف فجأة.

- «لقد رأيتُها تغادر». قال الأب: «لكنّك رأيتِها أيضاً، أليس كذلك يا كورا؟ وكنتِ تعرفين وجهتها».

هزّت الأمّ رأسها: «لـ.. لا، ظننتُها ربّما ذاهبة إلى العمل، أو لإحضار القليل من بلسم جلعاد».

- «أنت تكذبين عليّ». أجاب الأب.

- «أبي، أرجوك! الذّنب ذنبي». قالت ليني.

لم يكن مصغياً، كانت تعتلي عينيه تلك النّظرة الجامحة المتهوّرة: «يجب أن تكوني أوعى من إخفاء الأسرار عنّي». جذب الأمّ وجرّها نحو الكوخ.

تبعتهما ليني، محاولةً تخليص أمّها.

دفع الأب الأمّ إلى الدّاخل، ودحر ليني عن الطّريق.

صُفق الباب منغلقاً، وأُرتِج المزلاج بطقّة قويّة ليحبسهما في الدّاخل.

ثُمّ سُمع عبر الباب الأماميّ ارتطامٌ قويٌّ، وصرخةٌ مبتورة.

دفعت ليني بجسدها إلى الباب، وخبّطت عليه تصرخ طلباً للدّخول.

❄ 17 ❄

في الصّباح التّالي، كان الجانب الأيسر من وجه الأمّ متورّماً بلون أرجوانيّ، وإحدى عينيها مسودّة. جلست وحيدةً إلى الطّاولة، وأمامها كوب من القهوة. «ما الّذي كنتِ تفكّرين فيه؟ لقد رآكِ ذاهبة فتبع آثار عجلاتك في الوحل».

جلست ليني إلى الطّاولة مخزيّة من نفسها: «لم أكن أفكّر».

- «الهرمونات.. أخبرتك أنّها خطِرة لعينة». انحنت الأمّ إلى الأمام: «إليك الأمر يا فتاتي الصّغيرة، أنت تسيرين على طبقة جليدٍ رقيقة. تعلمين ذلك، وأنا أعلم ذلك. عليكِ أن تبتعدي عن هذا الفتى وإلّا حدث شيء سيّئ».

«لقد قبّلني»، ويريدني أن أتسلّل كي أقابله اللّيلة.

جلست الأمّ في مكانها صامتةً لوقت طويل: «حسناً، بمقدور قبلةٍ واحدةٍ أن تغيّر عالم الفتاة، ألا أعرف هذا؟ لكنّكِ لستِ بفتاةٍ عاديّةٍ تسكن في الضّواحي مع أبٍ يشبه السّيّد كليفر(*). ثمّة عواقب للخيارات يا ليني،

(*) وارد كليفر الابن: شخصيّة خياليّة من المسلسل الأمريكيّ «اتركوا الأمر للقندس - Leave It to Beaver» (1957-1963)، كثيراً ما يُضرب المثل به وبزوجته جون كنمط نموذجيّ لأهالي الضّواحي وأسلوبهم في التّربية. (المترجم)

وهي حتّى لن تعود عليكِ وحدك، بل على فتاك، وعليّ أنا كذلك». لمست عظم وجنتها المكدوم وأجفلت: «عليكِ أن تبقي بعيدةً عنه».

❄

قابليني.. عند منتصف اللّيل...

ظلّت ليني تفكّر في ذلك طيلة اليوم. في المدرسة، كانت كلّما تنظر إلى ماثيو تعرف ما يفكّر فيه.

كانت «أرجوكِ» آخر ما قاله لها.

لقد قالت: لا، وقصدت ذلك، لكنّها حين وصلت إلى المنزل، وطفقت تعمل على قائمة مهامّها الرّوتينيّة الطّويلة، وجدت نفسها تنتظر غروب الشّمس بنافد الصّبر.

لم يكن الوقت شيئاً تلقي له كبيرَ اهتمام عادةً. ففي المُلكيّة، كانت الصّورة الأكبر هي ما يهمّ: إظلام السّماء، انحسار المدّ، تغيير أرانب الثّلج لألوانها، عودة الطّيور، أو طيرانها جنوباً. تلك كانت الطّرق التي يعلّمون مضيّ الوقت بها: بالمواسم النّامية، ورحلات السّلمون، وأوّل سقوط للثّلوج. في أيّام المدرسة، كانت تنتبه إلى ساعة الحائط، لكن على نحوٍ متكاسل. لا أحد يأبه كثيراً إن وصل المرء إلى المدرسة على الموعد؛ ليس في الشّتاء حين يشتدّ البرد في بعض الأيّام إلى درجة تأبى معها محرّكات الشّاحنات أن تدور، وليس في الرّبيع والخريف عندما يكون ثمّة الكثير من المهامّ الرّوتينيّة التي ينبغي إنجازها.

بيد أنّ الوقت الآن كان سيّدَ انتباهِها. في غرفة المعيشة في الأسفل، كانت الأمّ والأب متضامّين على الأريكة يتحدّثان بهدوء؛ لم يكفّ الأب عن لمس وجه الأمّ المكدوم والتّمتمة بالاعتذارات، مردّداً على مسامعها كم يحبّها.

بعد العاشرة بقليل، سمعت أباها يقول: «حسناً يا كورا، أكاد أهوي من التّعب». فتجيبه الأمّ: «وأنا أيضاً».

أطفأ والداها المولّدة، وغذّيا النّار لمرّةٍ أخيرة، ثمّ سمعت ليني خشخشة ستارة الخرز، وهي تُدفع جانباً في أثناء دخولهما إلى غرفتهما.

ثمّ، سكون...

ظلّت مستلقيةً في مكانها، تعدّ أيّ شيء يطوله فكرها: أنفاسها، نبضاتها... استجدت مرور الوقت على الرغم من أنّ مروره يرعبها...

أخذت تتخيّل سيناريوهات مختلفة: الذّهاب للقاء ماثيو، البقاء في السّرير، النجاة بفعلتها، إلقاء القبض عليها.

أخبرت نفسها مراراً وتكراراً أنّها لا تنتظر منتصف اللّيل، وأنّها ليست غبيّة وطائشة كفايةً كي تتسلّل.

ثمّ جاء منتصف اللّيل. سمعت التّكّة الصّغيرة الأخيرة لعقرب ساعة حائطها.

تناهى إليها نداء طير من نافذتها، صوتٌ خفيضٌ راعشٌ لا يبدو حقيقيّاً تماماً.

ماثيو.

نهضت من سريرها وارتدت ثياباً تبعث الدّفء.

أرعبها كلّ صريرٍ صدر عن السّلّم، جعلها تجمد في مكانها. كلّ وطأة قدم على الأرضيّة فعلت الأمر نفسه، حتّى لكأنّها استغرقت أبداً كي تبلغ الباب. دسّت قدميها في جزمتها المطّاطية، ولفّت نفسها بسترةٍ مبطّنة.

حابسةً أنفاسها، فتلت القفل وأزلقت الرّتاج، ثمّ فتحت الباب.

هبّ هواء اللّيل إليها مرحّباً.

كان بوسعها أن ترى ماثيو واقفاً على قمّة التّلّة فوق الشّاطئ، حدود جسمه تنرسم على خلفيّةٍ من سماءٍ بلون الجمشت الضارب إلى الورديّ.

أغلقت ليني الباب وركضت إليه. أخذ يدها، وراحا معاً يركضان عبر الفناء المعشوشب المبتلّ، وينزلقان على المرتفَع، ثمّ على الدّرج إلى الشّاطئ، حيث كان ماثيو قد فرش بطّانيّة مثبّتاً زواياها الأربع كلّاً بحجر كبير.

تمدّدت وحذا حذوها. أحسّت ليني بدفء جسده على امتداد جسدها، وأشعرها ذلك بالأمان على الرغم من كلّ المخاطر التي يغامران بها. كان الأولاد الطّبيعيّون على الأغلب ليتحدّثوا من دون توقّف، أو يضحكوا.. أو شيء ما.. ربّما يشربون الجعة، أو يدخّنون الحشيش، أو يغرقون في قُبلٍ متبادلةٍ، لكنّ ليني وماثيو يعلمان كلاهما أنّهما ليسا ولدين عاديّين يُتوقّع منهما التّسلّل. كان الجموح المجنون لغضب أبيها معلّقاً في الهواء بينهما.

بوسعها سماع البحر يغسل طريقه نحوهما، وأشجار التّنّوب تصرف في هفيفٍ لنسيمٍ ربيعيّ. ضوءٌ محيطٌ شاحب يشعّ على كلّ شيء، يضيء خزامى سماء اللّيل. راح ماثيو يشير إلى كوكبات النّجوم، يحكي لها حكاياتها.

بدا العالم حولهما مختلفاً، سحريّاً، مكاناً ملؤه إمكاناتٌ لا تنتهي بدلاً من المخاطر الكامنة.

انقلب على جنبه، باتا الآن أنفاً لأنف؛ بوسعها أن تحسّ بأنفاسه على وجهها، بخصلة فالتة من شعره على صفحة خدّها.

- «لقد تحدّثتُ إلى الآنسة رودز». قال: «قالت إنّه لم يزل بإمكانك أن تدخلي جامعة ألاسكا. فكّري في الأمر يا لين، نستطيع أن نكون معاً، بعيداً عن كلّ هذا».

- الأمر باهظ التّكلفة.

- لديهم منح وقروض بفوائد منخفضة. نستطيع فعلها، لا شكّ.

تجرّأت ليني -لثانية فقط- على أن تتخيّلها: حياة.. حياتها.. «بوسعي أن أتقدّم بطلب». قالت، لكنّها -حتّى فيما هي تسمع حلمها يُمنح صوتاً- كانت تفكّر في الثّمن. ستكون أمّها هي من يدفعه، كيف لليني أن تعيش مع هذا؟

لكن أيُفترض بها أن تظلّ محاصرةً إلى الأبد بخيار أمّها وغضب أبيها العارم؟

دسّ يده وعلّق عقداً حول عنقها، وراحت أصابعه تتلعثم كي تُطبق بكلته في الظّلام.

- «نحتّه بنفسي». قال لها.

تلمّسته، قلب مقدود من عظم، يتدلّى من سلسال معدنيّ رفيع كخيط عنكبوت.

- «تعالي إلى الجامعة معي يا لين». قال.

لمست وجهه، أحسّت كم كانت بشرته مختلفة عن بشرتها؛ أخشن، سبلات الزّغب تتناثر فوقها هنا وهناك.

لزَّ جسدَه بجسدها وركاً لورك، وراحا في قبلة؛ أحسّت بأنفاسه تتشعّث.

لم تكن تعرف قبل الآن كيف يمكن للحبّ أن ينفجر إلى الوجود كما في نظريّة الانفجار الكونيّ العظيم، فيغيّر كلّ ما في المرء، وما في العالم. آمنت بماثيو فجأة، بالإمكانيّة المتمثّلة فيه، فيهما، مثلما تؤمن بالجاذبيّة، أو باستدارة الأرض. كان الأمر جنونيّاً.. جنونيّاً.. جنونيّاً. عندما قبّلها، لمحت عالماً جديداً بالكامل، لمحت ليني جديدة.

سحبت وجهها متراجعة، كان عمق هذا الشّعور الجديد يروّعها.

الحبّ الحقيقيّ ينمو ببطء، أليس كذلك؟ لا يمكن له أن يكون سريعاً هكذا، كتصادم كوكبين.

التّوق؛ الآن باتت تعرف الشّعور الذي يبعثه. التّوق.. كلمة قديمة، من عالم جين إير، لكنّها جديدة بالنّسبة إلى ليني كما هذه الثّانية.

- ليني! ليني!

صوت أبيها.. يصيح...

قفزت ليني ناهضةً مثل مطواة. يا للهول! «ابقَ هنا». اندفعت مذعورة تركض نحو الدّرجات التي حتّها الجوّ، ثمّ هرعت تصعد الطّريق المتعرّجَ الذي تصنعه؛ سترتها ترفرف مفتوحةً، وجزمتها تدكّ بثقلها الدّرجات المغطّاة بشِباك الأسلاك. «ها أنا ذي يا أبي». صاحت مقطوعةَ الأنفاس تلوّح بذراعيها.

- «حمداً لله». قال: «نهضت كي أتبول فرأيت أنّ جزمتك اختفت».

الجزمة.. تلك كانت غلطتها.. ذلك الشّيء الصّغير...

أشارت إلى السّماء. أتراه لاحظ كم تتنفّس بصعوبة؟ أيستطيع سماع اضطراب قلبها؟

- انظر إلى السّماء، إنّها في غاية الجمال.

- آه.

وقفت بجانبه، تحاول أن تهدّئ روعها. ألقى ذراعه حول كتفيها، فشعرت أنّها مُلكيّةٌ يرسّخها بوضع اليد. «الصّيف سحريّ، أليس كذلك؟».

كان سفح التّلّة المعشب يحجب الشّاطئ من الإطلالة، حمداً لله. لم تستطع ليني رؤية القوس المفروش بالحصى والأصداف المكسّرة، ولا

البطّانيّة التي جلبها ماثيو معه. ولا استطاعت أن ترى ماثيو، كان تحت القمّة بمسافة لا بأس بها بين الكوخ والشّاطئ.

أطبقت يدها على القلب العظميّ حول عنقها، وأحسّت بطرفه المستدقّ الحادّ ينغرز في راحتها.

- لا تكرّري هذا يا صهباء، أنتِ أوعى من ذلك. الدّببة خطرة في هذا الوقت من السّنة، كدتُ آخذ بندقيّتي وأخرج للبحث عنك.

❄

مكتبة
t.me/soramnqraa

بيانٌ شخصيّ

بقلم: لينورا أولبرايت

«هذا عمل خطر يا فرودو، أن تخرج من بابك. أنت تخطو فوق الطّريق، وإن لم تحافظ على ثبات قدميك، لن تعلم إلى أين قد تُجرَف».

لو كنتم تعرفونني، لما فوجئتم أبداً من استهلالي رسالةَ طلبي باقتباسٍ لتولكين؛ الكتب هي علامات الأميال في طريق حياتي. يركن بعض النّاس إلى الصّور العائليّة، أو الأفلام المنزليّة، كي يسجّلوا ماضيهم؛ أمّا أنا فأركن إلى الكتب وشخصيّاتها. منذ ما تسعفني به ذاكرتي، كانت الكتب مكاني الآمن. أقرأُ عن أماكنَ بالكاد أستطيع تخيُّلها، وأطلق العنان لنفسي في رحلاتٍ إلى أراضٍ أجنبيّةٍ لأنقذ فتياتٍ لم يعرفن أنّهنّ أميراتٌ حقّاً.

لم أكتشف إلّا مؤخّراً ما يُحوِجُني إلى تلك العوالم البعيدة.

لقد علّمني أبي أن أخاف من العالم، وما زالت بعض الدّروس عالقة فيّ. كنت أقرأ عن باتي هيرست، وزودياك السّفّاح، والمجزرة في أولمبياد

ميونخ، وتشارلز مانسن، فأعرف أنّ العالم مكان مرعب. كان يقول ذلك في كلّ حين، يذكّرني أنّه بوسع الجبال أن تنفجر وتقتل النّاس في نومهم.. أنّ الحكومات فاسدة.. أنّه يمكن لإنفلونزا ما أن تخرج من العدم لتودي بحياة الملايين.. أو أن تُلقى قنبلة نوويّة في أيّة لحظة فتطمس كلّ شيء...

تعلّمت كيف أطلق النّار على رأس هدفٍ ورقيٍّ في أثناء الجري، ولديّ حقيبة كوارث ممتلئة بضروريّات النّجاة قرب بابي الأماميّ. أستطيع إيقاد نارٍ باستخدام الصّوّان، وتركيب بندقيّة وأنا معصوبة العينين، وأعرف كيف أضبط قناع غاز حتّى يلائم وجهي على النّحو الأمثل. لقد نشأت أتحضّر لحربٍ، أو عصيانٍ أناركيّ، أو مأساةٍ عالميّة.

لكنّ شيئاً من ذلك ليس صحيحاً، أو لعلّه يكون صحيحاً بيد أنّه ليس الحقيقة، وهذا نوعٌ من التّمييز الذي يقدر البالغون عليه.

لقد غادر والداي ولاية واشنطن حين كنتُ في الثّالثة عشرة، أتينا إلى ألاسكا وصغنا حياة اكتفاء ذاتيّ في الأحراش. أنا أحبّها.. أحبّها بالفعل.. أحبّ جمال ألاسكا القاسي الذي لا يقبل أنصاف حلول، وأحبّ النّساء أكثر من كلّ شيء؛ النّساء مثل جارتي، لارج مارج، الّتي كانت محاميةً، وهي الآن تدير متجر بقالة، أحبّ صلابتها وعطفها؛ أحبّ كيف أنّ أمّي، الهشّة مثل ورقة سرخس، ما تزال قادرةً على النّجاة هنا في مناخٍ مصمَّمٍ كي يدمّرها.

أحبّ كلّ ما في ذلك، وأحبّ هذه الولاية التي منحتني مكاناً أنتمي إليه، وطناً، لكنّ وقتي قد حان كي أغادر منزل الأسرة وأشقّ طريقي بنفسي، كي أتعلّم عن العالم الحقيقيّ.

لهذا أريد الذّهاب إلى الجامعة.

❄

في الأيّام التي تلت تلك اللّيلة على الشّاطئ، صارت ليني لصّة، خفيّةً حين تريد أن تكون كذلك. تلك كانت خدعةَ وهمٍ تمرّنت عليها طوال حياتها، والآن، إذْ صارت سارقةَ وقتٍ؛ خدمَتْها خيرَ خدمة.

كذلك صارت كاذبة. بوجهٍ مستقيمٍ، بل وبابتسامةٍ، تكذب على أبيها كي تسرق الوقت الذي تحتاج إليه. ثمّة اختبارٌ يتوجّب إجراؤه مبكّراً -قبل ساعة على الأقلّ- أو رحلة ميدانيّة ستبقيها في الدّوام حتّى وقتٍ متأخّرٍ، أو مشروع بحث يتطلّب منها أن تستقلّ القارب الصّغير إلى المكتبة في سيلدوفيا. كانت تلتقي بماثيو في الغابة، أو في ظلال السّلع المكدّسة داخل مخزن لارج مارج، أو في معمل المعلّبات المهجور. ويتلامسان في الصّفّ طوال الوقت تحت طاولة المقعد. كما احتفلا بعيد ميلاده معاً بعد المدرسة، جالسَين على الرّصيف المائيّ خلف قاربٍ معدنيٍّ عجوز.

كان الأمر رائعاً ومنعشاً. تعلّمت أشياء لم تتعلّمها من أيّ كتاب: كيف يكون للوقوع في الحبّ شعورُ المغامرة، كيف يبدو أنّ جسدها يتغيّر أمام لمسته، كيف يؤلمها إبطاها بعد ساعة قضتها تعانقه بشدّة، كيف تنتفخ شفتاها وتتشقّقان من قبلاته، وكيف تحرق خشونةُ لحيته النّابتة جلدَها.

أمسى الوقت المسروق المحرّكَ الذي يمدّ عالمها بالطّاقة؛ في نهايات الأسابيع، حين تترامى أطراف السّاعات التي تمضي من دون ماثيو أمامها، كانت تشعر بحاجة تكاد لا تُطاق إلى مغادرة المنزل، إلى الرّكض إليه، إلى إيجاد طريقةٍ لسرقة عشر دقائق أخرى فقط.

ألقى شبح انتهاء المدرسة ظلَّه الطّويل. اليوم، حين اندسّت ليني في مقعدها، نظرت إلى ماثيو، وأوشكت أن تشرع في البكاء.

مدّ يده فوق المقعد وأخذ يدها: «هل أنتِ على ما يرام؟».

لم تستطع ألّا تفكّر كم هما صغيران في هذا العالم الكبير الخطِر؛ مجرّد ولدين يريدان أن يعيشا الحبّ.

صفّقت الآنسة روذز بيديها في مقدّمة القاعة مستدعيةً الانتباه: «لم يتبقَّ إلّا أسبوع من الدّوام، ورأيت أنّ اليوم سيكون مناسباً لرحلةٍ في القارب، ونزهةٍ على الأقدام؛ لذا فليأخذ الجميع معاطفهم، وهيّا بنا».

ساقت المعلّمة رعاياها المنهمكين في اللّغو خارج الصّفّ وعبر البلدة إلى أحواض المراكب، وهناك صعد الجميع على متن قارب صيدها الألمنيوم.

انطلق القارب بهم داخل الخليج بسرعةٍ متزايدةٍ، يمتطي مطبّات الأمواج ويتطاير الماء على جانبيه. وجّهته الآنسة في مياه المضيق بين جبالٍ ترتفع حولهم من كلّ صوب، فراحوا يعلون صفحة ماءٍ ويهبطون أُخرى، حتّى ما عادوا يرون أيّ كوخ أو قارب على الإطلاق. هنا كان للماء زرقة الزّبرجد، ورأت ليني خنزيرة تدبّ وخلفها خنّوصان أسودان على شاطئ منعزل.

أرست الآنسة روذز قاربها عند رصيفٍ مائيٍّ في شرمٍ ضيّقٍ، ووثب ماثيو مترجّلاً على الرّصيف الذي أعياه الجوّ ليربط القارب.

- «لقد عمّر جدّا ماثيو هذه الأرض وسكناها في عام 32». قالت الآنسة روذز: «وكانت تلك أوّل مُلكية أسريّة مكتفية بذاتها لهما. من يريد رؤية كهف قراصنة؟».

ساد هرجٌ ومَرج.

قادت الآنسة البنات الصّغار على الشّاطئ، وسرن عبر الرّمل الكثيف يطأن قطعاً ضخمةً من الخشب الذي بصقه البحر.

حينما انعطفن عند زاوية الخليج واختفين، أخذ ماثيو ليني بيدها. «هيّا». قال أخيراً: «سأريك شيئاً رائعاً».

قادها عبر عشبٍ يبلغ الرّكبة في طريقٍ صاعدٍ ينتهي إلى أيكةٍ من أشجارٍ متناثرةٍ أعيق نموّها.

- «ششش». قال، واضعاً إصبعه فوق شفتيه.

بعد هذا، بدأت ليني تنتبه إلى كلّ غصنٍ يتكسّر تحتها، وكلّ همسةٍ تهمسها الرّيح، ومن حينٍ إلى آخر تمرّ طائرةُ أدغالٍ متسكّعة في الأعالي. عند جدار من شجيرات مخضرّة نمت إلى حجمِ ألاسكيٍّ بسبب غزارة المياه التي تتحدّر عن الجبال، أراها درباً ما كانت لتراه وحدها. انخفضا وولجاه، يسيران حانيين ظهريهما في الظّلال الرّطيبة.

جذبهما شقٌّ صغيرٌ من الضّوء ليسيرا قُدماً، وراحت عينا ليني تتأقلمان ببطء.

انفتحت صورةٌ للأفق في الفسحة بين الشّجيرات: أرض هور سبخة، على مدّ ما تستطيع العين بلوغه. عشب طويل متراقص يتعرّج عبره نهرٌ كسولٌ ساكنٌ، والجبال تتضامّ لتطوّق المكان، فتلفّ أذرعَها حول المستنقعات كأنّها تريد أن تحميها.

أحصت ليني خمسة عشر دبّاً بنّيّاً ضخماً في المستنقعات، تمضغ العشب، وتمحّص المياه الرّاكدة بكفوفها بحثاً عن السّمك. كانت مخلوقات مهيبة شعثاء -تسمّى الدّببة الشّيباء في معظم أنحاء العالم- لها رؤوس عملاقة، تدبّ بمشيةٍ متبخترةٍ، كأنّ عظامها مربوطة إلى بعضها بأربطةٍ مطّاطيّةٍ، وأمّهات الدّببة تبقي دياسمها على مقربةٍ منها في منأىً عن الذّكور.

أخذت ليني تشاهد الحيوانات الجليلة، وهي تتحرّك في العشب الطّويل: «واو!».

مالت طائرة أدغال في الأعالي، وبدأت انحدارها.

- «كان جدّي يحضرني إلى هنا في طفولتي». همس ماثيو: «أتذكّر أنّني قلت له إنّه مجنون إذْ استقرّ للسّكن في أرضٍ قريبةٍ من الدّببة هكذا، فقال: إنّها ألاسكا، كأنّ ذلك هو الجواب الوحيد المهمّ. جدّاي كانا يعتمدان على الكلاب لدحر الدّببة إن اقتربت أكثر من اللّازم. لقد أنشأت لنا الحكومة محميّةً وطنيّةً حولنا».

- «هنا فقط». قالت ليني بضحكة.

مالت تتّكئ على ماثيو. هنا فقط.

ربّاه، كم تحبّ هذا المكان! كم تحبّ وحشيّة ألاسكا البرّيّة، وجمالها الجليل! وأكثر حتّى من الأرض، تحبّ النّاس الذين يتحدّث هذا الجمال إليهم. لم تكن قد أدركت قبل هذه اللّحظة كم كان حبّها لألاسكا يسري عميقاً فيها.

- ماثيو! ليني!

سمعا الآنسة رودز تنادي عليهما.

انحنيا من جديد يعبران الشّجيرات، وخرجا إلى الشّاطئ. كانت الآنسة هناك، البنات الصّغيرات بجانبها، وإلى يسارها ثمّة طائرة عوّامة رست على الشّاطئ.

- «بسرعة!». قالت تلوّح بيدها: «مارث، أغنيس، ادخلا الطّائرة. علينا أن نعود إلى كانِك، لقد تعرّض ماد إيرل لنوبة قلبيّة».

❄

مات ماد إيرل.

لم تستطع ليني استيعاب الأمر تماماً. البارحة كان العجوز حيّاً يرزق،

يشرب المونشاين(*) ويروي الحكايات. لقد كان المجمّع مكاناً يعجّ بالحركة، قفيراً من النّشاط: المناشير الآلية تئزّ، والفولاذ يُطوَّع إلى نصالٍ فوق ألسنة اللّهب المكشوفة، والفؤوس تقطع الخشب، والكلاب تنبح. من دونه، سقط كلّ ذلك في الصّمت.

لم تبكِ ليني على ماد إيرل. لم تكن منافقة إلى تلك الدّرجة، لكنّها أرادت أن تندب الفقد الذي رأته في الوجوه من حولها. بالنّسبة إلى ثيلما، وتيد، وموبيت، وكلايد، وبقيّة من يقطنون في المجمّع، سيظلّ الفراغ الخاوي الذي تركه ماد إيرل يؤلم لوقت طويل.

الجميع الآن في الخليج، قرب مرسى القوارب تحت الكنيسة الرّوسيّة.

جلست ليني في زورق الألمنيوم المبعوج الذي انتشله والدها من المهملات. كانت أمّها أمامها، فيما وقف أبوها في الخلف يحافظ على ثباتهم في الماء.

ثمّة قوارب حولهم في كلّ مكان، تعوم في سكينةِ هذا النّهار المشرق، لقد اجتمعوا لإقامة الجنازة بطريقتهم الخاصة. كاد الصّيف يحلّ؛ بإمكان المرء أن يشعر بذلك من حرارة الشّمس. لقد عادت مئات من طيور إوزّ الثّلج إلى رأس الخليج. خطّ السّاحل الصّخريّ، الذي كان خاوياً ومصقولاً بالجليد طوال الشّتاء، بات الآن يحمل كلّ أشكال الحياة. على صخرة وسط المياه، برج من الأحجار الخضراء والسّوداء يرتفع من الأعماق، احتشدت أسود البحر فوق بعضها، وراحت النّوارس تحلّق فوقها في أقواس بيضاء كسولة، وتزعق مثل كلاب التّرير. شاهدت ليني

(*) مونشاين (ضوء القمر): تسمية عامّيّة تُطلق على المشروبات الكحوليّة التي تُقطّر من دون ترخيص تهرّباً من الضّرائب أو ما شابه، وجاءت التّسمية من كون هذه الأعمال تُجرى ليلاً. (المترجم)

نوارس تبني أعشاشها، وطيور غاق تغطس. الفقمات، بوجوهها السّوداء أو الفضّيّة الشّبيهة بكلاب كوكر سبانيل، تُبرز أنوفها من صفحة الماء بجانب القُضاعات المستلقية على ظهورها بكسل تفتح أصداف المحار بحركات براثنها السّريعة.

على مسافةٍ غير بعيدة، كان ماثيو جالساً في قارب ألمنيوم لامع برفقة أبيه. كلّما نظر إلى ليني أشاحت بوجهها، خشية أن تكشف مشاعرها نحوه في مكان عامّ كهذا.

- «كان أبي يحبّ هذا المكان». كانت ثيلما تقول، وكلماتها تترنّح على إيقاع الموسيقا التي يُحدثها مجذافها في الماء: «كم سيُفتقَد!».

شاهدتها ليني تُفرغ نُهيرَ رمادٍ من علبة كرتون. طفا الرّماد للحظة، ثمّ انتشر راسماً بقعةً قاتمة، ليغور بعدها في الماء على مهل.

خيّم الصّمت.

معظم سكّان كانِك هنا، أو هكذا بدا الأمر. آل هارلان، توم وماثيو ووكر، لارج مارج، ناتالي، كالهون مالفي وزوجته الجديدة، تيكا رودز وزوجها، وجميع التّجّار. وثمّة حتّى مجموعة من السّكّان القدامى، رجال يعيشون بعيداً عن شبكة الخدمات وعميقاً في الأحراش إلى درجة أنّه بالكاد يراهم أحد. لديهم القليل من الأسنان والكثير من الشّعر الخشن والوجنات الغائرة، وثمّة كلاب في قوارب العديد منهم. وكان بيت المجنون واقفاً مع ماتيلدا على الشّاطئ، جنباً إلى جنب.

أخذت المراكب تعوم عائدةً إلى البرّ مركباً تلو الآخر، ثمّ رست هناك. حمل السّيّد ووكر زورق ثيلما إلى الشّاطئ وألقاه في صندوق بيك أب صدئة.

توجّهت أنظار النّاس نحوه بالغريزة ينتظرون منه أن يقول شيئاً، أن يجمع شملهم، والتمّوا حوله.

- «أقول يا ثيلما». قال السّيّد ووكر: «لمَ لا تأتون جميعكم إليّ؟ سألقي بعض السّلمون على النّار، وأخرج صندوقاً من الجعة الباردة. يمكننا منح إيرل وداعاً كان ليحبّه».

- «الرّجُل عظيم الشّأن، يعرض أن يستضيف مراسم وداعٍ لرجُل كان ينظر إليه بازدراء». قال الأب: «لسنا بحاجةٍ إلى إحسانك يا توم، سنودّعه بطريقتنا الخاصّة».

لم تكن ليني الوحيدة التي أجفلت من حدّة صوت أبيها، رأت الصّدمة تعلو الوجوه من حولها.

- «إيرنت». قالت أمّها: «ليس الآن».

- «الآن هو الوقت الأمثل. إنّنا نودّع رجُلاً جاء إلى هنا لأنّه أراد أسلوب عيش أبسط، وآخر ما كان ليريد منّا فعله هو الاحتفال بالشّرب مع رجُلٍ يطمح أن يحوّل كانِك إلى لوس أنجلوس».

بدا الأب يتضخّم وهو واقفٌ مكانه، مستمدّاً وقوده من الحنق والعداوة. تحرّك إلى الأمام، واتّجه نحو ثيلما التي بدت مكسورةً مثل عود مثلّجاتٍ مستعمل؛ شعرها متّسخ، وكتفاها متهدّلتان، وعيناها دامعتان.

ضغط على كتفها، فأجفلت وبدت خائفة: «سآخذ مكان إيرل، ليس عليكِ أن تقلقي. سأحرص على أن نظلّ مستعدّين لأيّ شيء، وسأعلّم موبيت...».

- «ماذا ستعلّم ابنتي؟». سألته ثيلما بصوتٍ متقلقل: «مثلما تعلّم زوجتك؟ أتظنّنا لم نرَ كيف تعاملها؟».

جمدت الأمّ مكانها، وصبغ التّورّد وجنتيها.

- «لقد طفح كيلنا منك». قالت ثيلما، وصوتها يزداد قوّة: «أنت تخيف الأطفال، لا سيّما حين تشرب. كان أبي يحتملك كرامةً لما فعلته من أجل أخي، وأنا أيضاً ممتنّة لذلك، لكن ثمّة خطب ما بك. لا أريد أن أحيط أرضنا بالمتفجّرات، حبّاً بالله، وما من طفلة في الثّامنة من عمرها تحتاج إلى أن ترتدي قناع غاز في الثّانية صباحاً وتذهب إلى البوّابة حاملةً حقيبة مستلزمات الكوارث. كان أبي يتصرّف بطريقته، وأنا سأتصرّف بطريقة أخرى». سحبت نفساً عميقاً، وتلألأ الدّمع في عينيها، غير أنّ ليني رأت فيهما الانفراج كذلك. منذ متى أرادت ثيلما أن تقول كلّ هذا؟ «والآن سآخذ أصدقاء أبي القدامى إلى منزل توم للاحتفال بحياته. نحن نعرف آل ووكر منذ الأزل. كنّا أصدقاء جميعنا، مجتمعاً متكافلاً، قبل ظهورك. إن كان بمقدورك المجيء والتّصرّف بأسلوب حضاريّ، فتعال؛ أمّا إن كنتَ تريد تمزيق لُحْمة هذه البلدة وحسب، فابقَ في بيتك».

رأت ليني كيف أخذ النّاس يتراجعون من حول أبيها، حتّى السّكّان القدامى ذوو اللّحى الكثّة تنحّوا خطوةً إلى الخلف.

نظرت ثيلما إلى الأمّ: «تعالي معنا يا كورا».

- «ماذا؟ لكن...». هزّت الأمّ رأسها.

- «زوجتي تبقى معي». قال الأب.

مرّت لحظة مديدة، لم يتحرّك خلالها أحد، أو يفتح فمه، ثمّ، ببطء، أخذ آل هارلان يسيرون مبتعدين.

نظر الأب حوله، ورأى كيف أخرجوه من القطيع بمنتهى السّهولة.

راحت ليني تشاهد أصدقاءهم وجيرانهم يلجون مركباتهم، ويقودونها

بعيداً، والقوارب تقرقع خلفهم فوق المقطورات، أو في صناديق البيك أب. مدّ ماثيو إلى ليني نظرة طويلة حزينة، ثمّ استدار مبتعداً آخر الأمر.

حين أمسى الثّلاثة بمفردهم، رمقت ليني أمّها بطرف عينها، فرأتها تشعر بقلقها وخوفها نفسه. كلتاهما ليس لديها أدنى شكّ: سيتكفّل ما حدث بدفعه عن الحافّة.

لزم الأب مكانه هامداً، البغضاء تبرق في عينيه المحدّقتين إلى الطّريق الخاوي.

- «إيرنت». قالت الأمّ.

- «اخرسي!». هسّ باستهجان: «إنّني أفكّر».

بعد ذلك، وطوال الطّريق إلى المنزل، لم يتفوّه بحرف، ما يُفترض أنّه أفضل من الصراخ، بيد أنّه لم يكن كذلك. الصراخ أشبه بقنبلة في الزّاوية: تراها وتشاهد فتيلها يحترق، فتعرف متى ستنفجر، ويتعيّن عليك الهروب بحثاً عن غطاء يحميك؛ أمّا الصّمت، فهو قاتلٌ يمكث في مكانٍ ما من منزلك حاملاً مسدّسه فيما أنت نائم.

داخل الكوخ، راح يذرع مكانه بلا توقّف، يغمغم لنفسه ويهزّ رأسه كمن يسمع شيئاً لا يروق له.

ظلّت ليني وأمّها بعيدتين عن طريقه.

عند العشاء، وضعت الأمّ بعضاً من يخنة الموظ المتبقّية على الموقد لتسخّنها، لكنّ شذاها الغنيّ بالنّكهة لم يُجدِ شيئاً في تخفيف التّوتّر.

حين مدّت الأمّ العشاء على الطّاولة، توقّف الأب فجأة ورفع رأسه؛ كان الضّوء في عينيه مخيفاً. دمدم بشيء ما عن الجحود، والعاهرات سيّئات المعشر، والأوغاد الذين يظنّون أنّهم يملكون العالم بما فيه، ثمّ عصف خارجاً من المنزل.

- «يجدر بنا أن نحبسه في الخارج». قالت ليني.

- ونتركه يكسر نافذةً أو يهدّ جداراً كي يدخل؟

سمعتا من الخارج أزيزَ الحياة يدبّ في منشار آليّ.

- «يمكننا أن نهرب». قالت ليني.

ابتسمت لها الأمّ ابتسامة باهتة: «أجل، بالتّأكيد، وهو لن يلاحقنا».

كانتا تعلمان، كلتاهما، أنّ ليني قد (قد) يكون بمقدورها الفرار والحصول على حياة؛ أمّا الأمّ فلا، سيتعقّب أثرها أينما توجهت.

تناولتا العشاء في صمت، كلّ منهما تراقب الباب بحذر، وتتسمّع بانتظار تحذير، أو علامة مبكّرة تشي بالورطة المرتقبة.

ثمّ ارتطم الباب بالجدار منفتحاً. ووقف الأب هناك، بعينين مجنونتين، وشعر غطّته نشارة الخشب، يحمل بلطة.

هبّت الأمّ على قدميها، وانسحبت متراجعة. تقدّم مدمدماً وشدّها إليه، ثمّ سحبها إلى الخارج، وجرّها عبر مدخل المركبات. ركضت ليني خلفهما، وسمعت أمّها تكلّمه بصوتها ذي المفعول المهدّئ ذاك.

شدّ الأمّ نحو جذعين مقشورين شكّلا متراساً عملاقاً عند نهاية مدخل المركبات.

- أستطيع أن أشيّد جداراً، وأضع فوقه أوتاداً مدبّبة، وربّما سلكاً شائكاً. سيبقينا آمنين في الدّاخل، لا حاجة لنا بالمجمّع اللّعين، سحقاً لآل هارلان.

- لـ.. لكن يا إيرنت... لا يمكننا أن نعيش...

- «فكّري في الأمر». قال، وهو يجذبها أقرب، والبلطة تتدلّى من يده: «لا شيء سيستدعي خوفنا من العالم الخارجيّ بعد الآن، سنكون آمنين في

الدّاخل. بوسع ابن العاهرة ذاك أن يحوّل كانِك إلى ديترويت، ولن يرفّ لنا جفن. سأحميك يا كورا، سأحميك منهم جميعاً، إلى هذه الدّرجة أحبّك».

حدّقت ليني إلى الجذعين في رعب، وتخيّلت ذلك: جدار يقام عند مفصل قطعة الأرض التي لا تتجاوز حجم بصمة إبهام هذه، فيقطعها عن القطعة الصغيرة من الحضارة التي ستغدو الآن «الخارج».

ما من أحدٍ يمنع أباها عن إقامة جدارٍ، أو الإيصاد عليهما، لا شرطة تحميهما، أو تأتي إن جدّ طارئ.

وحالما يفرغ من ذلك، ويوصد البوّابة، هل سيتسنّى لليني -أو أمّها- الخروج على الإطلاق؟

رمقت ليني والديها: شكلان ناحلان تحدّبا على بعضهما، يتلامسان بالشّفاه والأصابع، يتمتمان عن الحبّ، الأمّ تحاول إبقاءه هادئاً، والأب يحاول إبقاءها قريبة. سيظلّان دائماً على حالهما المعهودة، لن يتغيّر شيء أبداً.

في خضمّ سذاجة حداثة السّنّ، كان والداها يبدوان حضرتين شاهقتين، كلّيَّي القدرة والمعرفة، لكنّهما ليسا كذلك، ما هما إلّا شخصان مكسوران.

بوسعها أن تهجرهما.. بوسعها أن تكسر قيدها، وتسلك دربها الخاصّ.. سيكون ذلك مرعباً، لكنْ محالٌ أن يكون أسوأ من البقاء، ومشاهدة رقصتهما السّامّة هذه، والسّماح لعالمهما أن يصبح عالمها حتّى لا يتبقّى شيء منها على الإطلاق، حتّى تصبح صغيرةً بحجم فاصلة.

❄ 18 ❄

في العاشرة مساءً، ليلة جنازة ماد إيرل، كانت السّماء فوق شرم آل ووكر طبقةً من الزّرقة الغامقة، تذوي إلى لون الخزامى عند حوافّها. لقد خمدت نار السّمر المسائيّة، تحوّلت قُرَم الخشب إلى رماد، وانهارت داخل بعضها.

سحب جَزْرٌ شديد البحرَ إلى الخلف، فانحسر عن شريطٍ عريضٍ من الطّين، مرآة من الرّماديّ الأملس تعكس لون السّماء والجبال التي ترتفع بهاماتها الثّلجيّة قبالة الشّاطئ. كتل من بلح البحر الأسود اللّمّاع تعلّقت بالرّكائز المكشوفة، وقارب الألمنيوم الرّاسي يرقد بزاوية في الوحل مربوطاً بحبله إلى العوّامة.

لساعاتٍ كان هناك حديث متواصل. قصص عن ماد إيرل، تروى بأصواتٍ تتخبّط بكلماتها، منها ما أضحكهم، ومعظمها أسقطهم جميعاً في الصّمت والتّذكار. لم يكن ماد إيرل دائماً الرّجُل الغاضب ذا النّزوات الغريبة الذي صار إليه في أرذل العمر، لقد لوّاه أساه على فقدان ابنه. ذات زمان، كان الصّديقَ المفضّل للجدّ إيكهارت. ألاسكا قاسية على النّاس، لا سيّما حين يشيخون.

والآن صمت؛ ليس إلّا طقطقة النّار بين الفينة والأخرى، وصوت ارتطام قطعة سقطت من الحطب المحترق، والمدّ الآخذ بالانحسار.

جلس ماثيو على أحد كراسي الشّاطئ القديمة، ساقاه ممدودتان تتقاطعان عند الكاحلين، يراقب نسراً فتيّاً يُعمل منقاره في جيفة سمكة سلمون على الشّاطئ، وعلى مقربةٍ يطير زوجٌ من النّوارس بانتظار مخلّفاته.

لم يبقَ من الجمع إلّا ثلاثة الآن: الأب، ولارج مارج، وماثيو.

- «هل سنتحدّث في الأمر يا توم؟». قالت لارج مارج بعد صمتٍ بلغ من طوله أن جعل ماثيو متأكّداً أنّهما ردما النّار بالأقدام وصعدا درج الشّاطئ: «يمكن القول إن ثيلما قد طردت إيرنت من منزلهم».

- «أجل». قال الأب.

لم ترق لماثيو الطّريقة التي نظر بها أبوه إلى لارج مارج، كان القلق حاضراً في عينيه.

- «عمَّ تتحدّثان؟». سألهما.

قال الأب: «إيرنت أولبرايت رجُلٌ سريع الغضب، جميعنا نعلم كيف خرّب الحانة. لقد قالت ثيلما اللّيلة إنّه كان يحاول إقناع آل هارلان بنصب أسلاك التّعثّر وزرع المتفجّرات من أجل "حمايتهم" في حال نشوب حرب».

- أجل، إنّه مجنون مثل ماد إيرل، لكن...

- «ماد إيرل لم يكن مؤذياً». قالت لارج مارج: «أمّا إيرنت فلن يتقبّل هذا الطّرد برحابة صدر، سيخرجه الأمر عن طوره. وحين يغضب يصبح وضيعاً، وحين يصبح وضيعاً يؤذي النّاس».

- «النّاس؟». كرّر ماثيو، وهو يشعر برعدةٍ تسري في أوصاله: «تقصدين ليني؟ أسيؤذي ليني؟».

لم ينتظر جوابهما. هرع على الدّرج نحو الفناء، حيث انتزع درّاجته من مكانها وامتطاها. راح يدفع دوّاساتها بقوّة فوق الأرض المخضلّة الإسفنجيّة، وبلغ الطّريق الرّئيسيّ في أقلّ من عشر دقائق.

عند مدخل مركبات آل أولبرايت، كبح درّاجته بسرعة مفاجئة كادت معها تنزلق من تحته. ثمّة جذعان مقشوران يسدّان مدخل الأرض الضّيّق الشّبيه بالعنق؛ كانا بلون لحم السّلمون، مقطوعين للتّوّ، لون ورديّ لحميّ ترصّعه رقع من اللّحاء هنا وهناك.

ماذا بحقّ الجحيم؟

نظر ماثيو حوله، فلم يرَ حركة، ولم يسمع شيئاً. قاد درّاجته من حول الجذعين، وتابع طريقه ببطءٍ أكبر الآن، قلبه يتخبّط في صدره، وقلقه يتوسّع.

في نهاية مدخل المركبات، نزل عن درّاجته، وأرقدها على جنبها. لم تُظهر معاينته الحذرة لأرض آل أولبرايت أيّ علامة على وجود مشكلة، كانت شاحنة إيرنت مركونة أمام الكوخ.

تسلّل ماثيو متقدّماً ببطء، يجفل كلّما تقصّف عود تحت قدمه، أو وطئ شيئاً -عبوة جعة، مشطاً أسقطه أحدهم- لم يستطع أن يرى في الظّلال. أخذ الماعز يثغو، والدّجاجات قوقت في ذعر.

كان يوشك أن يقدم على خطوةٍ حين سمع صوتاً.

باب الكوخ يُفتح.

رمى نفسه بين العشب الطّويل، ورقد هناك ساكناً.

وقع أقدام على المصطبة. صرير.

خائفاً من أن يأتي بحركة، وخائفاً أكثر من ألّا يفعل، رفع رأسه ونظر من فوق العشب.

كانت ليني واقفةً على حافّة المصطبة، وقد لُفَّ دثار صوف حولها رداءً مقلّماً بالأحمر والأبيض والأصفر. كانت تحمل بكرةً من مناديل الحمّام أضاءها نور القمر.

- «ليني». ناداها.

نظرت نحو الصّوت ورأته. رمقت الكوخ خلفها بقلق، ثمّ ركضت نحوه.

وقف وشدّها إلى ذراعيه مطوّقاً إيّاها بالعناق: «هل أنتِ على ما يرام؟».

- «سيقيم جداراً». قالت ليني، تخطف نظرها إلى الخلف.

- ألهذا وضع الجذعين في الطّريق؟

أومأت: «أنا خائفة، ماثيو».

همّ ماثيو يريد أن يقول: سيكون كلّ شيء على ما يرام، لكنّه سمع قفل الكوخ يتحرّك.

- «اذهب». همست ليني ودفعته عنها.

ألقى نفسه في حجاب الأشجار لحظة فتْح الباب. رأى إيرنت أولبرايت يخرج إلى المصطبة، مرتدياً تي شيرت مهترئاً، وسروالاً داخليّاً قصيراً فضفاضاً. «ليني؟». نادى عليها.

لوّحت له: «أنا هنا يا أبي، أسقطتُ مناديل الحمّام وحسب». ألقت بنظرة يائسة نحو ماثيو خلفها، فاختبأ خلف شجرة.

سارت ليني إلى المرحاض الخارجيّ، واختفت داخله. راح إيرنت ينتظرها على المصطبة، ثمّ ساقها إلى الدّاخل ما إن انتهت، وأوصد الباب بطقّة خلفهما.

استعاد ماثيو درّاجته، وقادها إلى المنزل بأسرع ما استطاع، وهناك وجد لارج مارج وأباه واقفين معاً في الفناء قرب شاحنة مارج.

- «إنـ.. إنّه يبني جداراً». قال ماثيو، وأنفاسه تَخرج لهاثاً، قفز عن درّاجته وأسقطها فوق العشب عند المَدخن.

- «ماذا تقصد؟». سأله أبوه.

- إيرنت. تعرف كيف تبدأ أرضهم بعنق قنّينة، ثمّ تتّسع فوق الماء؟ لقد قشر جذعين، واعترض بهما مدخل المركبات، ليني تقول إنّه يشيّد جداراً.

- «يا يسوع!». قال الأب: «سيفصلهما عن العالم».

❄

استيقظت ليني على صوت الأزيز الحادّ للمنشار الآلي، وضربات بلطة تقصم الخشب من حينٍ إلى آخر. لم ينم الأب منذ ساعات، طوال عطلة الأسبوع، يعمل على تشييد جداره.

كان بصيص الضّوء الوحيد أنّها عبرت العطلة بسلام، وحلّ يوم الاثنين مجدّداً، يوم دوام.

ماثيو.

أزاحت البهجةُ شعورَ الفقد البائس الباعث على الضّيق الذي خلّفته هذه العطلة، فتزيّت استعداداً للمدرسة، ونزلت على السّلّم.

كان الكوخ هادئاً.

خرجت الأمّ من غرفة نومها ترتدي كنزة طويلة العنق، وبنطال جينز فضفاضاً: «صباح الخير».

ذهبت ليني إلى أمّها: «علينا أن نفعل شيئاً قبل أن يُنجَز الجدار».

- لن ينفّذ ما قاله حقّاً، كان يشعر بالجزع لا أكثر، سيرى الأمور بحكمة.

- أهذا ما ستعوّلين عليه؟

رأت ليني للمرّة الأولى كم كان التّقدّم في العمر بادياً على أمّها، كم تبدو مضناةً ومهزومة. لم يعد ثمّة أيّ ضوء في عينيها، وما من ابتسامةٍ جاهزة.

- سأحضر لك القهوة.

قبل أن تبلغ ليني المطبخ، هزّت طرقةٌ باب الكوخ، وانفتح الباب مشرعاً من فوره: «مرحباً يا أهل البيت».

تقدّمت لارج مارج بخطواتٍ واسعةٍ، دستة من الأساور تخشخش حول معصميها المكتنزين، والقرطان يهتزّان مثل طعوم صيد السّمك ملتقطين الضّوء. كان شعرها أخذ ينمو من جديد، وقد فرقته من المنتصف، وربطته في كُرتين تتقافزان مع حركتها.

اندفع الأب خلف المرأة السّوداء، ووضع يديه على عظام وركيه البارزة: «قلت إنّه ليس بإمكانك الدّخول، اللّعنة!».

كشّرت لارج مارج عن ابتسامة، وناولت الأمّ قنّينة مستحضر بشرة، وضعتها بين يديها الصّغيرتين، وأطبقت عليهما يديها الكبيرتين: «لقد أعدّته ثيلما من الخزامى التي تنمو في فنائها الخلفيّ، رأت أنّك ستحبّينه».

استطاعت ليني أن ترى كم عنت بادرة اللّطف الصّغيرة هذه لأمّها.

- «لا نريد إحسانكم». قال الأب: «لا بأس برائحتها من دون أن تضع هذا الخراء».

- الصّديقات يتبادلن الهدايا يا إيرنت، وأنا وكورا صديقتان؛ لهذا أنا هنا في الحقيقة، فكّرت أن أشرب القهوة مع جيراني.

- «هلّا أحضرتِ القهوة لمارج يا ليني؟». قالت الأمّ: «وربّما قطعة من الكعك بالتّوت البرّيّ».

عقد الأب ذراعيه، ووقف متّكئاً بظهره على الباب.

قادت لارج مارج الأمّ إلى الأريكة، وساعدتها على الجلوس، ثمّ قعدت بجانبها، فانهرست الحشيّة تحت وزن المرأة: «حقّاً، كنت أريد التّحدّث إليك عن الإسهال الذي أصابني».

- «رحماك أيّها المسيح». قال الأب.

- إنّه انفجاريّ، تساءلتُ إذا ما مرّت تحت يدك أيّة وصفات منزليّة. ربّاه، المغص فظيع للغاية.

غمغم الأب وغادر الكوخ، صافقاً الباب خلف ظهره.

ابتسمت لارج مارج: «ما أسهل التّغلّب على الرّجال بالتّفكير. إذنْ، ها قد بتنا وحدنا».

قدّمت ليني القهوة، ثمّ جلست على كرسيّ النّوغاهايد المنجّد القديم الذي ابتاعوه من متجر خردوات في سولدوتنا العام الماضي.

انتقلت نظرة لارج مارج من كورا إلى ليني، ثمّ عادت لتستقرّ على الأولى، وكانت ليني واثقة أنّ شيئاً لم يفُت نظرتها هذه: «لا أتخيّل أنّ إيرنت سُرَّ من قرار ثيلما في جنازة إيرل».

- «أوه، ذلك». قالت الأمّ.

- لقد رأيت الرّكائز التي أقامها على الطّريق الرّئيسيّ، يبدو أنّه ينوي إحاطة هذا المكان بجدار.

هزّت الأمّ رأسها: «لن يفعل».

- «أتعرفين ما الذي تفعله الجدران؟». قالت لارج مارج: «إنّها تخفي ما يحدث خلفها، وتحتجز النّاس في الدّاخل». وضعت كوبها على طاولة القهوة، وانحنت نحو الأمّ: «قد يضع قفلاً على تلك البوّابة، ويحتفظ بالمفتاح، كيف ستهربين حينها؟».

- «لـ.. لن يفعلها». أجابت الأمّ.

- «أوه، أحقّاً؟». قالت لارج مارج: «هذا ما قالته أختي آخر مرّة كلّمتها فيها. أفعل أيّ شيء كي أرجع بالزّمن وأغيّر ما حدث. لقد تركَتْه آخر الأمر، لكنّ الأوان كان قد فات».

- «تركَتْه». قالت الأمّ بهدوء، من دون أن تشيح بنظرها هذه المرّة: «هذا ما تسبّب بمقتلها. الرّجال من هذا النّوع... لا يكفّون عن البحث عنك قبل أن يجدوك».

- «نحن نستطيع أن نحميك». قالت لارج مارج.

- «نحن»؟

- أنا وتوم ووكر.. آل هارلان.. تيكا.. كلّ من في كانِك.. أنت واحدة منّا يا كورا، أنت وليني. هو الدّخيل المنبوذ. ثقي بي، دعينا نساعدك.

فكّرت ليني في الأمر حقّاً؛ بالفعل، بوسعهما أن تتركاه.

سيعني ذلك ترك كانِك، بل وألاسكا على الأرجح.

ترك ماثيو.

ثمّ ماذا؟ هل ستقضيان حياتهما في الفرار؟ تختبئان، وتغيّران اسميهما؟ كيف تسير هذه الأمور؟ أمّها لا تملك نقوداً، ولا بطاقة ائتمانيّة. لا تملك حتّى رخصة قيادة سارية المفعول، لا هي ولا ابنتها. أتراها موجودة هي وأمّها من الأساس على الورق؟

وماذا لو عثر عليهما على أيّة حال؟

- «لا أستطيع». قالت الأمّ أخيراً، وفكّرت ليني أنّهما أكثر كلمتين سمعتهما في حياتها حزناً وإثارةً للشّفقة.

حدّقت لارج مارج إلى الأمّ وقتاً طويلاً، وانحفرت الخيبة في خطوط وجهها: «حسناً، هذه الأمور تتطلّب وقتاً. ليكن في علمك فقط أنّنا هنا، وسنساعدك. ما عليك إلّا أن تطلبي، لا يهمّني إن كان ذلك في منتصف ليلة من يناير. تعالي إليّ وحسب، اتّفقنا؟ لا يهمّني ما تكونين قد فعلته، أو فعله هو، تعالي إليّ وسأساعدك».

لم تستطع ليني ردع نفسها، انطلقت حول طاولة القهوة لتحطّ بين ذراعي لارج مارج. أحاطت كتلةُ المرأة الجسيمةُ المواسيةُ بها، وأشعرتها بالأمان. «هيّا». قالت لارج مارج: «فلنوصلك إلى المدرسة، لم تتبقّ أيّام كثيرة قبل أن تتخرّجي».

أخذت ليني حقيبة ظهرها، وعلّقتها على كتفها. وبعد عناقٍ عنيفٍ لأمّها، وهمسة تقول: «علينا أن نتحدّث حول هذا»، تبعت لارج مارج إلى الخارج. كانتا قد قطعتا نصف الطّريق إلى الشّاحنة حين ظهر أبوها، حاملاً وعاءً بسعة خمسة غالونات من الغازولين.

- تغادرين بهذه السّرعة؟

– مجرّد كوب قهوة يا إيرنت. سأُقِلّ ليني إلى المدرسة، فأنا ذاهبة إلى المخزن.

أسقط الوعاء البلاستيكيّ، فخضخضت محتوياته بجانبه: «لا».

عبست لارج مارج: «لا على ماذا؟».

– لن يغادر أحد هذا المكان من دوني بعد اليوم، ما من شيء لنا في الخارج.

– إنّها على بعد خمسة أيّام من التّخرّج، وبالطّبع ستُتمّ دوامها.

– «مستحيل، أيّتها السّيّدة السّمينة». قال الأب: «أحتاج إليها في أعمال المُلكية. خمسة أيّام لا تساوي شيئاً، سيمنحونها مزقة الورق اللّعينة تلك».

– «أتريد أن تخوض هذه المعركة؟». تقدّمت لارج مارج محفوفة بخشخشة أساورها: «إن تغيّبت هذه الفتاة عن المدرسة يوماً واحداً، سأتّصل بالولاية وأبلّغ عنك يا إيرنت أولبرايت. لا تظنّنّ ولو لثانية واحدة أنّني لن أفعلها. يمكنك أن تتصرّف بقدر ما يحلو لك من الجنون والوضاعة، لكنّك لن تمنع هذه الفتاة الجميلة عن إتمام الثّانويّة. أفهمت؟».

– الولاية لن تلقي بالاً.

– أوه، على العكس، ثق بي. أتريد منّي أن أخبر السّلطات بما يحدث هنا يا إيرنت؟

– أنت لا تعرفين شيئاً.

– صحيح، لكنّني امرأة ضخمة بفم ضخم. أتريد أن تتحدّاني؟

– «اذهبي. خذيها إلى المدرسة، إن كان هذا الهراء يعني لك كلّ ذلك».
نظر إلى ليني: «سأقلّك عند الثّالثة، لا تجعليني أنتظر».

أومأت ليني وصعدت إلى الإنترناشونال هارفستر القديمة بمقاعدها المرقّعة، وانطلقتا عبر مدخل المركبات الوعر، مروراً بأعمدة الخشب المقشورة حديثاً. وعلى الطّريق الرّئيسيّ، وسط غيمة غبار تحيط بالمركبة الهائمة على وجهها، أدركت ليني أنّها كانت تبكي.

غمرتها المشاعر على حين غرّة. المخاطرة كبيرة للغاية، ماذا لو هربت أمّها فعثر عليها أبوها بالفعل وقتلها؟

توقّفت لارج مارج أمام المدرسة، وركنت المركبة: «ليس عدلاً أن تكوني مضطرّة إلى التّعامل مع كلّ هذا، لكنّ الحياة ليست منصفة يا صغيرة، وأظنّك تعلمين ذلك. تستطيعين أن تتّصلي بالشّرطة».

- وإن تسبّبتُ في مقتلها؟ كيف تكون حياتي بعد ذلك؟

أومأت لارج مارج: «تعالي إليّ إن احتجت إلى المساعدة، اتّفقنا؟ أتعدينني؟».

- «بالتّأكيد». أجابت ليني بفتور.

انحنت لارج مارج نحو ليني، فتحت باب صندوق القفّازات الذي استجاب بصرير، وأخرجت ظرفاً سميكاً: «لديّ شيء من أجلك».

كانت ليني معتادة على هدايا لارج مارج: قالب حلوى، رواية بغلاف ورقيّ، مشبك شعر لمّاع... كثيراً ما كان لدى لارج مارج شيء تضعه في راحتها عند نهاية يوم العمل في المخزن.

أطرقت ليني تنظر إلى الظّرف. كان من جامعة ألاسكا، وقد أُرسِل بالبريد إلى لينورا أولبرايت، عن طريق مارج بيردسول في مخزن كانِك العامّ.

أخذت يداها ترتجفان، وهي تفتحه وتقرأ السّطر الأوّل: يسرّنا أن نقدّم لك...

نظرت إلى لارج مارج: «لقد قُبلت».

- تهانينا يا ليني.

شعرت بالخدر؛ لقد قُبِلتْ.

في الجامعة.

- «والآن ماذا؟». قالت ليني.

- «تذهبين». أجابت لارج مارج: «لقد تحدّثتُ إلى توم، سيتكفّل بالتّكاليف. أنا وتيكا سنشتري لك كتبك، وثيلما ستقدّم لك مصروف نفقات. أنت واحدة منّا، ونحن سنساندك. ما من أعذار يا صبيّة، اتركي هذا المكان ما إن استطعتِ، اركضي كمن يهرب من الجحيم يا فتاة، ولا تنظري خلفك. لكن يا ليني...».

- نعم؟

- توخّي أشدّ الحذر حتّى يحين يوم مغادرتك.

❄

في اليوم الأخير من المدرسة، ظنّت ليني أنّ قلبها قد ينفجر. ربّما تقع أرضاً على وجهها لتصبح بنداً آخر في إحصائيّات ألاسكا؛ الفتاة التي قضت نحبها من أجل الحبّ.

كانت فكرة الصّيف، كلّ تلك الأيّام الحارّة الطويلة التي تنقضي في العمل منذ شروق الشّمس حتّى مغيبها، تصيبها بخبل يمنعها من الاستغراق في التّفكير. كيف لها أن تصمد حتّى سبتمبر من دون أن ترى ماثيو؟

- «لن نستطيع أن نرى بعضنا تقريباً». قالت متبرّمة: «كلانا سيكون غارقاً في العمل من دون توقّف، تعرف كيف يكون الصّيف». من الآن فصاعداً، ستصبح الحياة مهامَّ وأعمالاً روتينيّة.

الصّيف. موسم رحلة هجرة السّلمون، والحدائق التي تتطلّب عنايةً مستمرّةً، موسم نضوج التّوت على سفوح التّلال، تعليب الفاكهة، والخضراوات، والسّمك، موسم السّلمون الذي يجب تقطيعه إلى شرائح طويلة، ونقعه في الماء المالح، وتدخينه، موسم عمليّات الصّيانة التي يتعيّن اغتنام شروق الشّمس في إنجازها.

- «سنتسلّل». قال لها.

لم تستطع تخيّل نفسها تقدم على هذه المجازفة الآن. كان النّبذ من قِبل آل هارلان قد بتر آخر خيوط سيطرة أبيها على نفسه، بات يقطع الأشجار ويقشر الجذوع يوميّاً، ويستيقظ في قلب اللّيل ليذرع المكان. لا يكفّ عن الغمغمة بصوت غير مسموع، ويضرب يضرب، ثمّ يضرب بمطرقته على جداره.

- «نحن ذاهبان إلى الجامعة معاً في سبتمبر». قال ماثيو (لأنّه يعرف كيف يحلم ويؤمن).

- «أجل». أجابت، راغبةً في ذلك أكثر ممّا رغبت في أيّ شيء يوماً: «سنكون ولدين طبيعيّين في أنكوراج». كانا يردّدان ذلك على مسمع بعضهما طيلة الوقت.

مشت ليني بجانبه إلى الباب، تمتمت كلمات الوداع للآنسة رودز، التي طوّقتها بعناقٍ شديدٍ وقالت: «لا تنسي حفل التّخرّج في الحانة اللّيلة، أنتِ وماتي ضيفا الشّرف».

- شكراً، آنسة رودز.

في الخارج، كان والدا ليني بانتظارها، حاملَين لافتة كُتب عليها: «يوم تخرّج سعيد!». كبحت سيرها متعثّرة.

أحسّت بيد ماثيو عند أسفل ظهرها، وكانت موقنةً أنّه يعطيها دفعة. تقدّمت إلى الأمام، مرغِمةً الابتسامة.

- «مرحباً يا رفاق». قالت لوالديها اللّذين انطلقا نحوها: «ما كان عليكما فعل هذا».

رمقتها أمّها بابتسامة عريضة: «أتمزحين؟ لقد تخرّجتِ متصدّرة ترتيب دفعتك».

- «دفعة مكوّنة من اثنين». ذكّرتها.

لفّها أبوها بذراعه وجذبها نحوه: «لم يسبق لي أن كنتُ الأوّل في أيّ شيء يا صهباء، أنا فخور بك. والآن بوسعك أن تتركي هذه المدرسة التّافهة وراء ظهرك، وداعاً لهذا الهراء».

دخلوا ليرتصّوا داخل الشّاحنة وانطلقوا. في الأعلى، حلّقت طائرة على ارتفاع خفيض، مصدرةً ضوضاء متقطّعة كليلة.

- «سيّاح». تلفّظ الأب بالكلمة كما لو كانت شتيمة، بصوتٍ عالٍ بحيث سمعه النّاس، ثمّ ابتسم: «لقد أعدّت أمّك لك كعكتك المفضّلة وأكوتاك(*) الفراولة».

أومأت ليني، يمنعها الإحباط الفائض من تزييف بسمة.

عبر الشّارع، عُلّقت لافتة كبيرة على الحانة نصف المنجَزة: تهانينا لليني وماثيو! حفل التّخرّج ليلة الجمعة في التّاسعة مساءً! المشروب الأوّل مجّانيّ!

- ليني، يا فتاتي الصّغيرة؟ مظهرك يبعث على الحزن مثل دولار ضائع.

(*) أكوتاك: طبق مثلّجات ينتشر في غربيّ ألاسكا وشماليّ كندا، الكلمة مأخوذة من لغة شعوب اليوبيك، وتعني «الشّيء الممزوج». (المترجم)

- «أريد أن أذهب إلى حفل التّخرّج في الحانة». قالت ليني.

انحنت الأمّ بجذعها ونظرت إلى الأب: «إيرنت؟».

- «تريدينني أن أدخل حانة توم ووكر اللّعينة، وأرى كلّ الأشخاص الّذين يعيثون فساداً في هذه البلدة؟». أجاب الأب.

- «من أجل ليني». قالت الأمّ.

- من سابع المستحيلات.

حاولت ليني أن تنظر خلف غضبه، وترى الرّجُل الذي تدّعي أمّها أنّه كان عليه، قبل أن تغيّره فيتنام، وتكشف أشتيةُ ألاسكا عن جانبه المظلم. حاولت أن تتذكّر أيّام كانت صهباءه، فتاته، تلك التي اعتلت كتفيه في منتزه ستراند الشّاطئيّ في هيرموسا بيتش: «أرجوك يا أبي، أرجوك! أريد أن أحتفل بتخرّجي في المدرسة الثّانويّة في بلدتي، البلدة التي أحضرتَني إليها».

حين نظر إليها، رأت ليني في عينيه ما كانت تراه في لحظات نادرة للغاية: الحبّ. رثّ، ومنهَك، ومفتّت بسبب الخيارات السّيّئة، لكنّه حبٌّ لا ريب.. وندم...

- آسف يا صهباء، لا أستطيع فعل ذلك، ولا حتّى من أجلك.

❄ 19 ❄

المساء.

صوت منشار آليّ يئزّ، يفرقع، ثمّ يصمت.

وقفت ليني عند النّافذة تحدّق إلى الفِناء. السّاعة تشير إلى السّابعة: وقت العشاء، استراحة في يوم عملٍ طويلٍ من هذا الفصل. بين لحظةٍ وأخرى، سيدخل الأب إلى الكوخ، ويُدخل معه التّوتّر. بقايا حفل تخرّج ليني الذي حضره ثلاثة أشخاص -كعكة جزر، وأكوتاك فراولة: نوع مثلّجات يُصنع من الثّلج وسمن كريسكو والفواكه- ما تزال راقدة على الطّاولة.

- «أنا آسفة». قالت الأمّ، وهي تدنو للوقوف بجانبها: «أعلم كم كنتِ ترغبين في الذّهاب إلى الحفلة، وأنا واثقة أنّك فكّرت في التّسلّل. كنت لأفعل الأمر نفسه في سنّك».

غرفت ليني ملعقة من الأكوتاك. كانت تحبّه عادةً، لكن ليس اللّيلة. «خطّطتُ دستةً من الطّرائق لفعل ذلك».

- ثمّ؟

- كانت جميعها تنتهي على الشّاكلة نفسها: أنت، وحيدة في غرفة ممتلئة بلكماته.

أشعلت الأمّ لفافة تبغ ونفثت الدّخان: «هذا.. جداره هذا.. لن ينسى الموضوع، سيتعيّن علينا توخّي المزيد من الحذر».

- «المزيد من الحذر؟». التفتت ليني إليها: «إنّنا نفكّر في كلّ كلمة نتفوّه بها، ونختفي في رفّة عين. نتظاهر أنّنا لا نحتاج إلى أيّ شيء أو شخص سواه هو وهذا المكان، ولا شيء من ذلك كافٍ يا أمّي. لا يمكن أن نكون كافيتين لمنعه من فقدان صوابه».

رأت ليني كم كانت هذه المحادثة صعبة على أمّها. تمنّت لو كان بوسعها أن تفعل ما كانت تفعله على الدّوام؛ ادّعاء أنّ الأمور ستتحسّن، أنّ حاله ستتحسّن، ادّعاء أنّ تصرّفه لم يكن عمداً، أو أنّه لن يتكرّر.. ادّعاء...

لكنّ الأمور باتت مختلفة الآن.

- لقد قُبلت لدى جامعة ألاسكا في أنكوراج، ماما.

- «يا إلهي، هذا رائع!». قالت الأمّ، وعلت وجهها بسمةٌ أضاءته، ثمّ لم تلبث حتّى ذبلت: «لكنّنا لا نستطيع تحمّل...».

- توم ووكر، ولارج مارج، وثيلما، والآنسة رودز سيتكفّلون بالمصاريف.

- المال ليس المشكلة الوحيدة.

- «لا». قالت ليني دون أن تشيح بعينيها: «ليس المشكلة الوحيدة».

- «سيتعيّن علينا التّخطيط للأمر بحذر». استدركت أمُّها: «لا يمكن لأبيك أن يعرف أنّ توم سيدفع، على الإطلاق».

- لا يهمّ، فأبي لن يسمح لي بالذّهاب، وأنت تعلمين ذلك.

- «بلى، سيفعل». قالت الأمّ بنبرةٍ أكثر ثباتاً ممّا سمعته ليني يصدر عن فمها طوال سنوات: «سأجعله يفعل».

أطلقت ليني صنّارة حلمها، تركت خطّاف طُعمه يُبحر فوق الماء شديد الزّرقة، ثمّ يغوص فيه.. الجامعة.. ماثيو.. حياة جديدة...

أجل، صدّقتُ.. «ستجعلينه يفعل». قالت بفتور.

- أتفهّم لماذا لا تثقين بي.

ارتخى تشبّث ليني بنقمتها: «ليس هذا هو الأمر يا ماما، كيف لي أن أتركك هنا وحدك معه؟».

قدّمت لها الأمّ ابتسامة حزينة متعَبة: «لن يدور بيننا حديث عن هذا الموضوع، على الإطلاق. أنت الفرخ، وأنا الطّائر الأمّ. إمّا أن تقفزي للطّيران بنفسك، وإمّا أن أدفعك خارج العشّ، الخيار لك. وفي الحالتين، ستنطلقين إلى الجامعة مع فتاك».

- «أتظنّين هذا ممكناً؟». سمحت ليني للحلم عديم الشّكل أن يتجسّد بصلابة كافية لتمسكه بيديها، فتقلّبه وتنظر إليه من زوايا مختلفة.

- متى يبدأ الدّوام؟

- بعد عيد العمّال(*) مباشرةً.

أومأت الأمّ: «حسناً، سيتعيّن عليك أن تتصرّفي بحذرٍ وذكاء. لا تخاطري بكلّ شيء من أجل قبلة، فهذا أمرٌ من قبيل ما كنت لأفعله أنا. إليك ما سنقوم به: ابقي بعيدةً عن ماثيو وآل ووكر حتّى حلول سبتمبر، وأنا سأعمل على أن أدّخر لك ما يكفي من المال لشراء تذكرة حافلة إلى أنكوراج. سنملأ حقيبة الطّوارئ خاصّتك بما تحتاجين إليه. وحين يأتي اليوم الموعود، أرتّب رحلةً إلى هومر لنا جميعاً، ثمّ تقولين إنّ عليك

(*) تحتفل الولايات المتّحدة بعيد العمّال في أوّل يوم اثنين من شهر سبتمبر، ويكون يوم عطلة. (المترجم)

استخدام الحمّام، فتهربين. في ما بعد، حين يهدأ روع أبيك، سأعثر على رسالة تركتِها أنت، تقولين فيها إنّك ذهبتِ إلى الجامعة -من دون تحديد المكان- وتعدين أنّك سترجعين إلى المنزل في الصّيف. سينجح الأمر، سترين. إن توخّينا الحذر، سينجح».

ألّا ترى ماثيو حتّى حلول سبتمبر.

أجل، هذا ما سيتعيّن عليها فعله.

لكن هل سيكون باستطاعتها أن تفعله حقّاً؟ إنّ حبّها لماثيو جوهريّ، قويّ مثل المدّ، ولا أحد يستطيع ردع المدّ.

ذكّرها الأمر بذلك الفيلم الذي شاهدته مع أمّها منذ وقتٍ طويلٍ؛ روعة بين العشب. في الفيلم، وقعت ناتالي وود في حبّ وارن بيتي بتلك الطّريقة الفيّاضة بالعواطف، لكنّها فقدته، وانتهى بها المطاف إلى مستشفى أمراض نفسيّة. وحين خرجت، كان قد تزوّج وصار لديه ولد، لكنّ المرء يعلم أنّ أيّاً منهما لن يحبّ شخصاً آخر بتلك الطّريقة من جديد.

كانت الأمّ قد بكت وبكت.

لم تفهم ليني حينذاك، لكنّها تفهم الآن. باتت ترى كيف يمكن للحبّ أن يكون خطِراً وخارجاً عن السّيطرة، كيف يكون ضارياً. كان قدر ليني المحفور فيها أن تحبّ بالطّريقة التي أحبّت بها أمُّها، الآن أمست تعرف ذلك.

- «بحقّ يا ليني». قالت الأمّ والقلق بادٍ عليها: «سيتعيّن عليك أن تكوني ذكيّة».

❄

عمل الأب على جداره كلّ يوم في يونيو، وبحلول نهاية الشّهر، أصبحت دعامات الخشب المقشور جاهزة في أماكنها؛ تنبثق من الأرض

كلّ عشرة أقدام على طول حدود المُلكية، لتشكّل حاجزاً إهليلجيّاً بين أرضهم والطّريق الرّئيسيّ.

حاولت ليني أن تغمر توقها إلى ماثيو تحت السّطح، لكنّه كان يطفو، ولا يكفّ عن الخروج إلى وجه الماء. في بعض الأحيان، حين يُفترض بها أن تنكبّ على العمل، كانت تتوقّف وتُخرج قلادتها السّريّة من جيب بنطالها، فتطبق عليها يدها بشدّة ينغرز لها الطّرف الحادّ حتّى تنزف الدّماء. وضعت قوائم في رأسها بالأشياء التي تريد أن تقولها له، وخاضت حوارات كاملةً وحدها، مراراً وتكراراً. في اللّيل، تقرأ الرّوايات ذات الأغلفة الورقيّة التي كانت قد عثرت عليها داخل الصّندوق المجّانيّ في المخزن العامّ، واحدةً تلو الأخرى: رغبة الشّيطان، اللّهب والزّهرة، جنون ضوء القمر؛ قصص رومانسيّة تاريخيّة تدور حول نساء قاتلن من أجل الحبّ الذي أنقذهنّ في النّهاية.

كانت تعرف الفرق بين الحقيقة والخيال، لكنّها لم تستطع التّخلّي عن قصص حبّها. جعلتها هذه القصص تشعر كما لو كانت النّساء قادرات على التّحكّم في أقدارهنّ. حتّى في عالم مظلم قاسٍ يختبر قدرة النّساء على التّحمّل إلى أقاصيها، استطاعت هؤلاء البطلات أن ينتصرن ويجدن الحبّ الحقيقيّ. كنّ يمنحن ليني أملاً وطريقةً لملء ساعات اللّيل الموحشة.

وخلال ساعات النّهار التي لا تنتهي، كانت تعمل: تُعنى بالحديقة، تحمل القمامة إلى برميل المحروقات، وتضرم النّار فيها حتّى تتحوّل إلى رماد تستخدمه لتسميد الحديقة، وصنع الصّابون، وحجب الحشرات المؤذية عن مشاتل الخضراوات. تنقل الماء، وتصلح أقفاص صيد السّراطين، وتحلّ شباك صيد السّمك المتداخلة، وتعلف الحيوانات، وتجمع البيض، وتثبّت الأسوجة، وتدخّن الأسماك التي يصطادونها.

وطوال الوقت تفكّر: ماثيو.. لقد تحوّل اسمه إلى تعويذةِ مانترا(*).

تقول لنفسها مراراً وتكراراً: سبتمبر ليس بعيداً إلى تلك الدّرجة.

لكن مع انقضاء يونيو ودخول يوليو، واستمرار حصار ليني وأمّها في المُلكية خلف الجدار الذي يبنيه الأب، بدأ الحسّ السّليم يفلت من قبضة الفتاة. في الرّابع من يوليو، كانت تعرف أنّ البلدة تحتفل في شارع مين ستريت، وشعرت بتوق إلى الوجود هناك.

ليلة تلو ليلة، أسبوعاً تلو أسبوع، ترقد في سريرها مشتاقةً إلى ماثيو. حبّها له -محارب يجوب الجبال ويقطع الجداول- أوسعَ خطاه ودخل المنطقة الحدوديّة البرّيّة الجامحة للهوس.

باقتراب نهاية يوليو، بدأت تراودها تخيّلات سلبيّة: أن يعثر الفتى على شخصٍ آخر، فيقع في الحبّ، ويخلص إلى أنّ ليني ورطة أكبر من اللّازم. كانت تتألّم توقاً إلى لمسته، تحلم بقبلته، تتحدّث إلى نفسها بصوته. أخذ ينتابها شعورٌ مقلقٌ مبهَمٌ بأنّ اللّهفة اللّامتناهية التي تعتصرها قد تضافرت مع الخوف كي يتركا وصمةً فيها، أنّ أنفاسها قتلت الطّماطم التي لم تحمرّ قطّ، أنّ قطرات عرقها الضّئيلة أفسدت مربّى التّوت الأزرق، وفي الشّتاء القادم، حين يأكلان كلّ هذا الطّعام الذي لمسته، سيتساءل والداها عن هذا الخطأ الذي حدث.

بحلول أغسطس، تحوّلت إلى حطام. كاد العمل على الجدار ينتهي. الخطّ الفاصل بين المُلكية والطّريق الرّئيسيّ بأكمله، من الجرف إلى الجرف، بات جداراً من ألواح الخشب المقطوعة حديثاً؛ لم تبقَ إلّا فرجة بعرض عشرة أقدام عند مدخل المركبات تسمح لهم بالدّخول والخروج.

(*) المانترا: تعويذة صوتيّة في الحضارة الهنديّة، تتكوّن من كلمة أو جملة تساعد في خلق تحوّلٍ نفسيّ. (المترجم)

لكنّ الجدار لم يكن أكثر ما يقلق ليني؛ لقد خسرت خمسة باوندات من وزنها، وكانت بالكاد تنام. تستيقظ كلّ ليلة في الثّالثة، أو الرّابعة، وتخرج لتقف على المصطبة، تقول لنفسها: إنّه هناك...

مرّتين انتعلت جزمتها؛ ووصلت في إحداهما إلى نهاية مدخل مركباتهم قبل أن تستدير عائدة.

كان عليها أن تحسب حساب سلامة أمّها، وسلامة ماثيو.

بقي على عيد العمّال أقلّ من شهر.

عليها أن تنتظر كي ترى ماثيو في أنكوراج، حين سيكون الوقت في صفّهما.

ذلك هو التّصرّف الذّكيّ، بيد أنّها لم تكن ذكيّة في الحبّ.

عليها أن تراه مجدّداً، وتتوثّق من أنّه ما زال يحبّها.

متى تحوّل الأمر إلى ما هو أكثر من توق؟ متّى تجسّد متّخذاً شكل خطّة؟

أحتاج إلى أن أراه.

أن أكون معه.

«لا تفعليها!». قالت ليني القديمة، الفتاة التي شكّلها عنفُ أبيها، وخوف أمّها.

مرّة واحدة فقط، جاء الجواب من ليني التي أعاد الشّغفُ صياغتها.

مرّة واحدة فقط.

لكن كيف؟

❄

في أوائل أغسطس؛ إذْ بات النّهار يمتدّ على ثماني عشرة ساعة، بلغ تكديس الطّعام من أجل الشّتاء أوْجَه. أخذوا يحصدون الحديقة، ويعلّبون الخضراوات، ويقطفون التّوت، ويصنعون المربّى، ويصيدون السّمك من المحيط، والأنهار، والخليج، ويدخّنون السّلمون، والأطروط، والهلبوت.

لقد استيقظوا اليوم مبكّراً، وأمضوا كامل نهارهم على النّهر يصيدون السّلمون؛ صيد السّمك عملٌ جادّ، ولا أحد يكلّف نفسه عناء الكلام. بعد ذلك، حملوا صيدهم إلى المنزل وانكبّوا يعملون على حفظ اللّحم. يوم آخر من سلسلة الأيّام الطّويلة المنهِكة.

أخذوا استراحةً أخيراً من أجل العشاء، ودخلوا إلى الكوخ. على الطّاولة، فردت الأمّ عشاءً من فطيرة السّلمون، والفاصولياء الخضراء المطبوخة بدهن اللّحم المقدّد. ابتسمت لليني، محاولةً التّظاهر بأنّ كلّ شيء على ما يرام: «ليني، أراهن أنّك تتطلّعين بشوق إلى بدء موسم الموظ».

- «أجل». قالت بصوت مهتزّ. لم تعد قادرة على التّفكير في شيء سوى ماثيو، لقد أعياها اشتياقها إليه جسديّاً.

شكّ الأب شوكته في قشرة الفطيرة الرّقيقة باحثاً عن السّمك: «كورا، سنذهب إلى ستيرلينغ يوم السّبت. ثمّة ماكينة ثلج معروضة للبيع، ماكينتنا في حالة مزرية، كما أنّني بحاجة إلى بعض المِفصلات من أجل البوّابة. ليني، سيتعيّن عليك البقاء هنا والاعتناء بالحيوانات».

كادت شوكة ليني تسقط من يدها. أكان يعني ذلك؟

ستيرلينغ تقع على بعد ساعة ونصف على الأقلّ عن طريق البرّ، وإن كان الأب يخطّط لإحضار ماكينة ثلج، فسيتعيّن عليه الذّهاب بشاحنته،

ما يعني أن يستقلّ العبّارة، أي نصف ساعة ذهاباً، ومثلها إياباً. سيستغرق الذّهاب من هنا إلى ستيرلينغ، ثمّ العودة، النّهارَ بطوله.

استأنف الأب التّنقير في فطيرته، وعندما نفد كلّ محتواها من السّمك، تابع التّنقيب بحثاً عن البطاطا، ثمّ الجزر، وأخيراً البازلّاء.

نظرت الأمّ إلى ليني: «لا أظنّها فكرة جيّدة يا إيرنت. فلنذهب جميعاً، لا تروق لي فكرة بقاء ليني وحيدةً في المنزل».

أحسّت ليني نفسها معلّقةً بالصّمت فيما أخذ الأب يمسح طبقه بقطعة من الخبز: «ليس مريحاً أن ننحشر ثلاثتنا في الشّاحنة كلّ تلك المدّة. ستكون على ما يرام».

❄

جاء يوم السّبت أخيراً.

- «حسناً يا ليني». قال الأب بنبرته الأكثر تجهّماً: «إنّه الصّيف. تعرفين معنى هذا؛ الدّببة السّوداء. البنادق ملقّمة، أبقي الباب مقفلاً إن كنتِ في الدّاخل. حين تذهبين من أجل الماء، أحدثي الكثير من الجلبة، وخذي صافرة الدّببة خاصّتك. يُفترض بنا أن نكون في المنزل عند الخامسة، لكن إن تأخّرنا أريدكِ داخل الكوخ وقد أقفلتِ الباب بحلول الثّامنة. لا يهمّني كم ما يزال النّور ساطعاً في الخارج، ممنوع صيد السّمك على الشّاطئ، اتفقنا؟».

- أبي، أكاد أبلغ الثّامنة عشرة، أعرف كلّ ذلك.

- نعم، نعم. لا تبدو الثّامنة عشرة سنّاً كبيرةً إلّا لك، سايريني.

- «لن أغادر المُلكية، وسأقفل الباب». وعدته.

- «فتاة مطيعة». أخذ الأب صندوقاً ممتلئاً بالجلود غير المدبوغة التي سيبيعها لتاجر الفراء في ستيرلينغ، واتّجه إلى الباب.

حين ذهب، قالت الأمّ: «أرجوكِ يا ليني، لا تفسدي الأمور. لقد اقتربتِ من الذّهاب إلى الكلّيّة، ما هي إلّا بضعة أسابيع». تنهّدت مردفة: «أنت لا تصغين إليّ».

– «بلى، أنا مصغية، لن أقترف أيّة حماقة». كذبت ليني.

في الخارج، صاح بوق الشّاحنة.

عانقت ليني أمّها ودفعتها نحو الباب حرفيّاً.

راقبتهما يبتعدان بالشّاحنة.

ثمّ انتظرت، تعدّ الدّقائق المتبقيّة على موعد مغادرة العبّارة.

بعد سبع وأربعين دقيقة بالضّبط على مغادرتهما، قفزت على صهوة درّاجتها وانطلقت بها عبر مدخل المركبات الوعر، منسلّةً من فُرجة جدار الألواح إلى الطّريق الرّئيسيّ. انعطفت على طريق آل ووكر، وتوقّفت متعثّرةً أمام المنزل الخشبيّ ذي الطّابقين، ثمّ ترجّلت عن درّاجتها تنظر حولها. لا أحد سيكون في الدّاخل في مثل هذا النّهار، ليس مع كلّ المهامّ الرّوتينيّة التي يجب تأديتها. رأت السّيّد ووكر على يسارها قرب الأشجار، يقود جرّافةً ينقل بها أكواماً من التّراب.

ألقت ليني درّاجتها على العشب، وسارت في الفسحة المعشبة، ثمّ حدّقت عبر الدّرجات الرّماديّة العريضة التي ترك الجوّ بصمته عليها إلى الشّاطئ المفروش بالحصى. أصداف بلح البحر المتكسّرة تتناثر بين عشب البحر، والوحل، والصّخور.

كان ماثيو واقفاً في المياه الضّحلة أمام طاولةٍ معدنيّةٍ مائلةٍ، يشرّح سمكة سلمون فضّيّة حمراء كبيرة، وينزع منها أكياس بيض برتقاليّة فاتحة، ثمّ يفردها بحذر كي تجفّ. النّوارس تزعق في الأعلى، تحوّم وترفرف منتظرةً ما يلقيه من نفايات، والأحشاء تعوم في الماء حول جزمته.

- «ماثيو!». هتفت تناديه.

رفع رأسه.

- والداي على متن العبّارة، ذاهبان إلى ستيرلينغ. أتستطيع القدوم؟ يمكننا قضاء النّهار بأكمله معاً.

ترك سكّين اليولو خاصّته: «يا للهول! سأكون هناك خلال ثلاثين دقيقة».

عادت ليني إلى درّاجتها وامتطتها.

في المنزل، علفت الحيوانات وسقتها، ثمّ راحت تجري في الأنحاء مثل مجنونة، محاولةً أن تتجهّز لموعدها الحقيقيّ الأوّل. ملأت سلّة نزهاتٍ بالأطعمة، ونظفت أسنانها -مجدّداً- وحلقت شعر ساقيها، وتزيّت بفستان غاني ساكس(*) جميل بلون أبيض ضارب إلى الصّفرة كانت أمّها قد قدّمته لها في عيد ميلادها السّابع عشر. جدلت شعرها الذي يبلغ خصرها في ضفيرةٍ مفردةٍ بسماكة المعصم، عقدت طرفها بشريطةٍ من قماش الغروغرين. أفسد جورباها الصّوف الرّماديّان اللّذان أبلاهما الشّدّ، وجزمتها ذات النّعل المدبّب، الانطباعَ الرّومانسيّ إلى حدٍّ ما، لكنّ ذلك كان أفضل ما استطاعت التّوصّل إليه.

ثمّ انتظرت. وقفت على المصطبة تحمل سلّة النّزهات والبطّانيّة، وتنقر بقدمها. إلى يمينها، بدا الماعز والدّجاج في حالة من الهياج، الأرجح أنّ حيواناتها كانت تحسّ بتوتّرها. وفي الأعلى، أظلمت سماءٌ كان ينبغي لها أن تصطبغ بزرقة القنطريون العنبريّ؛ راحت الغيوم تتوافد وتمتدّ لتحجب الشّمس.

(*) Gunne Sax: علامة ملابس أمريكية اشتهرت في السبعينيات واقترن اسمها بالتصاميم الرسمية وشبه الرسمية المستمدة من الطراز الفيكتوريّ والإدوراديّ للملابس النسائية. (المترجم)

إنّهما على متن العبّارة الآن، يتّجهان إلى هومر؛ لا شكّ في ذلك. ربّاه، لا تجعلهما يعودان لسبب ما.

وبينما هي تحدّق إلى مدخل المركبات الكامن في الظّلال، سمعت أزيز محرّك بعيد؛ قارب صيد. الصّوت شائع في هذه الأنحاء صيفاً مثل طنين البعوض.

ركضت إلى حافّة المُلكية، فيما تراخى قارب صيد ألمنيوم في تقدّمه دالفاً شرمهم. باقترابه إلى البرّ، انطفأ المحرّك فانساب القارب إلى الأمام بلا صوت، ليرسو فوق حصى الشّاطئ. كان ماثيو يقف خلف الدّفّة ملوّحاً.

هرعت تنزل الدّرج نحو الشّاطئ.

وثب ماثيو إلى المياه الضّحلة، وتقدّم باتّجاه ليني، جارّاً القارب خلفه إلى مكان أعلى على الشّاطئ، يفتنها بابتسامته، وثقته، والحبّ في عينيه.

في لحظة، في رفّة عين، انفرج التّوتّر الذي حبسها في جوفه طوال أشهر. شعرت بدوار طائش، بشبابها، بأنّها واقعة في الحبّ.

- «لدينا حتّى الخامسة». قالت له. مكتبة سُر مَن قرأ

رفعها عن الأرض وقبلها.

ضاحكةً من البهجة الصّرفة التي سلبت حواسّها، أخذته ليني من يده وتقدّمته مروراً بالكهوف التي تنفتح على الشّاطئ إلى ممرّ يتّجه نحو الدّاخل، ويؤول إلى رقعة أرض تكسوها الأشجار تطلّ على الجانب الآخر من الخليج. الجروف تبرز بأطرافها تحتهما، ألواحاً جريئة من الصّخر. هنا، كان المحيط يتكسّر على الشّاطئ الصّخريّ، فينشر رذاذه ليحطّ على بشرتيهما مثل قبلات نَديّة.

فرشت البطّانيّة التي أحضرتها، ووضعت سلّة النّزهات.

- «ماذا جلبتِ؟». سألها ماثيو، وهو يهمّ بالجلوس.

جثت مستندةً بركبتيها على البطّانيّة: «أشياء بسيطة: شطائر هلبوت، سلطة سلطعون، بعض الفاصولياء الطّازجة، كعك بالسّكّر». رفعت ناظريها مبتسمة: «هذا موعدي الأوّل».

- وأنا كذلك.

- «لقد عشنا حياتين غريبتين». قالت له.

- «ربّما كان الجميع يعيش هكذا». قال، وهو يجلس بجانبها، ثمّ يستلقي ويجذبها بين ذراعيه. للمرّة الأولى منذ أشهر، استطاعت أن تتنفّس.

تبادلا قبلة طويلةً إلى درجة فقدت معها الإحساس بالوقت، بالخوف، بكلّ شيء عدا نعومة لسانه على لسانها وطعمه الخاصّ.

فكّ أحد الأزرار اللّؤلئيّة لفستانها، بالمقدار الكافي لدسّ يده. شعرت بأصابعه الخشنة التي ندّبها العملُ تنساب فوق بشرتها؛ وغيّرت القشعريرة من إحساسها بلحمها. أحسّت به يلمس ثدييها، يدسّ يده تحت القطن المهترئ لحمّالة صدرها كي يلمس حلمتها.

دويّ رعد شاقّ.

للحظة، كانت الرّغبة قد أغرقت حواسّها حتّى ظنّت أنّها تخيّلته.

ثمّ انهمر المطر؛ يجلد الأرض بقوّة وسرعة.

هرعا واقفين على أقدامهما يضحكان، أخذت ليني سلّة النّزهات، وانطلقا معاً يركضان بمحاذاة الممرّ الشّاطئيّ الملتفّ، ثمّ خرجا عند المنحدر قرب المرحاض الخارجيّ.

لم يتوقّفا قبل أن يصبحا داخل الكوخ، واقفين وجهاً لوجه، واحدهما

يحدّق إلى الآخر. شعرت ليني بقطرات المطر تنساب على خدّيها، وتتقاطر من شعرها.

- «ألاسكا صيفاً». قال ماثيو.

حدّقت ليني فيه، مدركةً \الآن دفعةً واحدةً، والقشعريرة تجتاحها، كم كانت تحبّه.

ليس بالطّريقة اليائسة المتطلّبة السّامة التي تحبّ بها أمّها أباها.

هي تحتاج إلى ماثيو، لكن ليس كي ينقذها، أو يكملها، أو يعيد ابتكارها.

حبّها له كان أصفى، وأنظف، وأقوى عاطفة شعرت بها يوماً.

الأمر أشبه بأن يفتح المرء عينيه، أو ينضج، فيدرك أنّه مجبول على الحبّ بهذه الطّريقة.. إلى الأبد.. طوال الوقت.. أو طوال الوقت الذي يملكه.

همّت بحلّ أزرار فستانها المبلّل، فهوت ياقة الدّانتيل على كتفها، كاشفةً عن شريط حمّالة صدرها.

- ليني، هل أنت متأكّدة...

أسكتته بقبلة. لم يسبق لها أن كانت متأكّدة من أيّ شيء كما الآن. أنهت حلّ أزرار فستانها، الذي سقط عن جسدها ليحطّ مثل مظلّة هبوط عند جزمتها. خرجت من فستانها، وركلته جانباً.

فكّت رباط جزمتها ونزعتها، ثمّ رمتها بعيداً، فارتطمت إحدى الفردتين بجدار الكوخ في خبطة مكتومة؛ وإذْ وقفت عاريةً إلّا من حمّالة صدرها وسروالها الدّاخليّ القطنيّ، قالت: «تعال». وقادته على سلّم العلّيّة إلى غرفة نومها، حيث تخلّص ماثيو من ملابسه في عجلة، وجذبها ليستلقيا على الفرشة المغطّاة بالفراء.

راح يعرّيها على مهل؛ يستكشف جسدها بيديه وفمه حتّى تقبّض كلّ عصب فيها. وحين يلمسها: موسيقا.

فقدت نفسها فيه. كان جسدها مستقلّاً عنها، يتحرّك وفق إيقاع غريزيّ بدائيّ لا بدّ من أنّه كان يعرفه طوال الوقت، وينسحب إلى عالم من اللّذة الكثيفة بحيث كادت تكون ألماً.

كانت نجمة، تحترق بوضاءة تجعلها تتفتّت، فتتطاير أجزاءً، ويتناثر ضوءها رذاذاً. بعد ذلك، سقطت إلى الأرض من جديد، فتاةً مختلفة، أو نسخةً مختلفة عن نفسها. أخافها الأمر حتّى فيما هو يملؤها انتعاشاً. هل لأيّ شيء آخر في حياتها أن يغيّرها بهذا العمق وهذه الأصالة؟ والآن إذْ حظيت بهذا، إذْ حظيت به هو، كيف عساها تتركه؟ على الإطلاق؟

- «أحبّك». قال بهدوء.

- وأنا أحبّك أيضاً.

بدت الكلمة أصغر، أكثر اعتياديّة، من أن تحتوي كلّ هذه العاطفة.

استلقت بجانبه تحدّق في ضوء السّماء، تراقب المطر المهتاج يغلي على الزّجاج، وأيقنت أنّها ستتذكّر هذا اليوم طيلة حياتها.

- «كيف ستكون الجامعة برأيك؟». سألته.

- مثلنا أنت وأنا، مثل أن تستمرّ هذه اللّحظة طوال الوقت. هل أنت مستعدّة للذّهاب؟

في الحقيقة، كانت تخشى أنّها، عندما سيحين وقت الذّهاب فعلاً، لن تتمكّن من ترك أمّها، لكنّها إن بقيت، إن تخلّت عن هذا الحلم، لن تتعافى أبداً. لم تستطع أن تنظر إلى ذلك المستقبل القاسي عيناً لِعَين.

هنا، بين ذراعيه، والزّمن يلُوح بإمكاناته السّحريّة بينهما، لم تشأ أن

تقول أيّ شيء على الإطلاق. لم تُرد أن تتحوّل الكلمات إلى جدران تفصل بينهما.

- «أتريدين أن تتحدّثي عن أبيك؟». سألها.

أرادت بدافع الغريزة أن تقول: لا، أن تفعل الأمر الذي لطالما فعلته: الحفاظ على السّرّ. لكن أيّ حبّ يكون ذلك؟ «لقد عاثت الحرب فيه فساداً، كما أعتقد».

- والآن بات يضربك؟

- ليس أنا، بل أمّي.

- أنت وأمّك بحاجة إلى الخروج من هنا يا لين. لقد سمعتُ أبي ولارج مارج يتكلّمان عن ذلك، إنّهما يريدان مساعدتكما، لكنّ أمّك لا تسمح لهما.

- «ليس الأمر بالسّهولة التي يتخيّلها النّاس». قالت له.

- لو كان يحبّكما، لما أقدم على إيذائكما.

جعل الأمر يبدو في غاية البساطة، كما لو كان معادلةً رياضيّةً، غير أنّ الرّابط بين الألم والحبّ ليس خطّيّاً، بل على شكل شبكة. «كيف هو؟». سألته: «الشّعور بالأمان؟».

لمس شعرها: «أتشعرين به الآن؟».

كانت تشعر به. ربّما للمرّة الأولى، لكنّ هذا جنونيّ. فآخر مكان تكون ليني آمنة فيه هو هنا، بين ذراعي الفتى الذي يمقته أبوها: «إنّه يكرهك يا ماثيو، على الرغم من أنه لا يعرفك».

- لن أسمح له أن يؤذيك.

- فلنتحدّث عن شيء آخر.

- «مثل... كيف أفكّر فيكِ طوال الوقت؟ هذا يشعرني بالجنون، كم أفكّر فيك». جذبها إلى قبلة. غرقا في القُبل دهوراً، وراح الوقت يبطئ من أجلهما فقط: يتذوّقان بعضهما، يتشرّب واحدهما الآخرَ في جسده. تحدّثا أحياناً، تهامسا بالأسرار، أو ألقيا النّكات، أو توقّفا عن الكلام تماماً، واكتفيا بالقبلات. تعلّمت ليني السّحر الكامن في معرفة شخص آخر باللّمس.

تضعضع جسدُها من جديد بين ذراعيه، لكنّ ممارسة الحبّ كانت مختلفة في المرّة الثّانية. لقد غيّرتها الكلمات بطريقة ما، شقّت الحياة الواقعيّة طريقها بالمنكبين ودخلت.

أخافها أن يكون هذا هو كلّ ما سيحظيان به، هذا اليوم وحسب. خافت من ألّا يتسنّى لها الذّهاب إلى الجامعة أبداً، أو أن يقتل أبوها أمّها في غيابها. خافت حتّى من ألّا يكون هذا الحبّ الذي تشعر به تجاه ماثيو حقيقيّاً، أو أن يكون حقيقيّاً ومَعيباً؛ أنّها ربّما قد تعرّضت للتّلف بسبب والديها إلى درجة ما عادت تستطيع معها أن تعرف ماذا يكون الحبّ حقّاً.

- «لا». قالت لنفسها، له، للكون: «أنا أحبّك يا ماثيو».

كان ذلك هو الشّيء الوحيد الذي تعلمه علم اليقين.

❄ 20 ❄

أطبقت يدٌ على فم ليني، وهمس صوتٌ بخشونة: «لين، استيقظي».

فتحت عينيها.

- لقد غططنا في النّوم، يوجد أحد هنا.

شهقت ليني في راحة يد ماثيو.

كان المطر قد توقّف، وانصبّ ضوء الشّمس من السّماء.

من الخارج، سمعت محرّك شاحنة، سمعت قرقعة صندوقها المعدنيّ على محورها فيما عجلاتها تتدحرج فوق الأرض.

- «يا إلهي!». قالت ليني. اندفعت مذعورة من فوق ماثيو، التقطت بعض الملابس وارتدتها بسرعة. كانت تكاد تبلغ الدّرابزين حين سمعت الباب يُفتح.

دخل الأب، توقّف ونظر إلى الأسفل.

كان يقف على فستانها المتكوّم المبتلّ.

تبّاً.

دلّت نفسها عن حافّة الدّرابزين ونزلت سلّم العلّيّة في نصف انزلاق.

انحنى الأب نحو الفستان المنقوع ورفعه، فتقاطر الماء من تخاريم حاشيته.

- «لقد... لقد نالت العاصفة منّي». قالت ليني. كان قلبها يخفق بشدّة، وأنفاسها منقطعة، والدّوار يأخذ بتلابيبها. بحثت حولها بعينيها عن أيّ شيء قد يشي بهما، فرأت جزمة ماثيو.

أفلتت صرخة صغيرة.

كان المشجب على يسار أبيها ممتلئاً بالبنادق، وثمّة صناديق من الذّخيرة مكدّسة على الرّفّ تحته. ليس عليه إلّا أن يلتفت ويمدّ يده، ثمّ يصبح مسلّحاً.

هرعت ليني وأخذت فستانها المشبع بالماء.

عبست الأمّ، وتبعت نظرتُها نظرةَ ليني لتحطّ على الجزمة. اتّسعت عيناها، ونظرت إلى ليني ثمّ إلى العلّيّة، فذهب اللّون من وجهها.

- «لماذا ارتديتِ فستانك الفاخر؟». سألها أبوها.

- «الـ.. الفتيات يتصرّفن بهذه الغرابة يا إيرنت». قالت الأمّ، وانسلّت جانباً لتحجب الجزمة عن نظره.

نظر الأب حوله؛ وتوسّع منخراه. ذكّر المشهد ليني بمفترس يقتفي رائحة فريسة: «ثمّة رائحة مختلفة هنا».

علّقت ليني فستانها على علّاقة قرب الباب: «إنّها أغراض النّزهة التي حزمتُها من أجلنا». قالت ليني: «لقد.. لقد أردت أن أفاجئكما».

اتّجه الأب إلى الطّاولة، ورفع طيّة غطاء سلّة النّزهات، ثمّ نظر إلى داخلها: «يوجد صحنان فقط».

- لقد شعرت بالجوع فأكلت صحني، هذان لكما. رأ.. رأيت أنّكما ستستمتعان بالوجبة بعد رحلتكما إلى ستيرلينغ.

ورد صرير من الأعلى.

عبس الأب وحدّق إلى العلّيّة، ثمّ اتّجه نحو السّلّم.

اجلس ساكناً يا ماثيو.

لمس الأب سلّم العلّيّة، ونظر إلى الأعلى، ثمّ عبس. رأته ليني يرفع قدمه، ويضعها على الدّرجة السّفلى.

انحنت الأمّ والتقطت جزمة ماثيو، ثمّ ألقتها في صندوق الكرتون الكبير قرب الباب، فعلت ذلك بحركة واحدة رشيقة، ثمّ انسلت بجانب الأب وقالت له: «دعنا نُرِ ليني ماكينة الثّلج». رفعت صوتها كي يسمع ماثيو: «إنّها مركونة في الخارج قرب حظيرة الماعز».

ترك الأب سلّم العلّيّة واستدار نحوهما، كانت ثمّة نظرة غريبة في عينيه؛ أتراه شكّ في الأمر؟ «بالتّأكيد، هيّا بنا».

تبعت ليني أباها إلى الباب، وعندما فتحه، نظرت خلفها نحو العلّيّة.

«هيّا يا ماثيو». قالت في قرارتها: «اهرب».

أمسكت الأمّ يد ليني وشدّت عليها فيما هم يعبرون المصطبة وينزلون إلى العشب، كأنّها تخشى أن تستدير وتركض.

في الشّرم، كان قارب ماثيو الألمنيوم يلتقط ضوء الشّمس، فيتألّق بلونه الفضّيّ على الشّاطئ. لقد نظّفت العاصفة الفجائيّة المنظرَ الطّبيعيّ، فتركت كلّ شيء برّاقاً. ولمع الضّوء منعكساً عن مليون قطرة ماء، ليسقط على نصال العشب والأزهار البرّيّة.

قالت ليني شيئاً ما بسرعة؛ لم تعرف حتّى ما هو، مجرّد شيء يجعل أباها يلتفت إليها مشيحاً عن الشّاطئ.

– «ها هي ذي». قال حين وصلوا إلى المقطورة الصّدئة الموصولة بالشّاحنة. هناك كانت تربض ماكينة ثلج مبعوجة، مقعدها ممزق تماماً،

ومصباحها الأماميّ مفقود: «ستتكفّل الأشرطة اللّاصقة بإصلاح هذا المقعد، لذا فالماكينة جديدة عمليّاً».

ظنّت ليني أنّها سمعت باب الكوخ يُفتح، ثمّ وقع أقدام تسير على المصطبة.

- «إنّها رائعة!». هتفت: «يمكننا أن نستخدمها لصيد السّمك في الجليد، وقنص أيل الكاريبو، سيفيدنا كثيراً امتلاك ماكينتي ثلج اثنتين».

تناهى إلى مسمعها الانتحاب المميّز لمحرّك خارجيّ يدور، وأزيز تسارعه منطلقاً.

دفع الأب ليني جانباً: «أهذا قارب في شرمنا؟».

في الأسفل، كان قارب الألمنيوم مرتفعاً على صفحة الماء، ومقدّمته المدبّبة شامخة بكبرياء تشقّ العباب في سرعة متزايدة.

حبست ليني أنفاسها. لم يكن ثمّة شكّ أنّه ماثيو، شعره الأشقر وقاربه الجديد.. أيميّزه والدها يا ترى؟

- «اللّعنة على السّيّاح». قال الأب أخيراً مشيحاً بوجهه: «أولاد الجامعة الأثرياء أولئك يظنّون أنّهم يملكون هذه الولاية في الصّيف، سأضع لافتات تقول: "ممنوع انتهاك حرمة المكان"».

لقد فعلاها، ونفذا بفعلتهما. فعلناها يا ماثيو.

- ليني.

جاءها صوت أمّها حادّاً؛ بدت غاضبة، وربّما خائفة.

كانت أمّها وأبوها يحدّقان إليها كلاهما.

- «ماذا؟». قالت ليني.

- «والدك يتحدّث إليك». أجابت أمّها.

ابتسمت ليني بيسر: «أوه، أنا آسفة».

قال أبوها: «أظنّك كنتِ تجزّين صوف خراف أحلام يقظتك، كما اعتاد أبي أن يقول».

رفعت ليني كتفيها: «كنت أفكّر وحسب».

«في ماذا؟».

سمعت ليني التّغيّر في نبرة صوته، وأقلقها. رأت الآن كم كان يحدّق فيها بتمعّن، لعلّهما لم يفرّا بفعلتها بعد كلّ شيء. ربّما كان يعرف.. لعلّه يعبث بها.

- «أوه، أنت أدرى بحال المراهقين». قالت الأمّ بصوت راعش.

- سؤالي موجّه إلى ليني، ليس إليك يا كورا.

- كنت أفكّر في أنّه سيكون ممتعاً أن نخرج، ونمضي اليوم معاً. ربّما نجرّب حظّنا في منتجع بيدرسن على نهر كيناي، لطالما حالفنا الحظّ هناك.

- «تفكير جيّد». تراجع الأب عن ماكينة الثّلج الجديدة، ونظر إلى مدخل المركبات: «حسناً، إنّه الصّيف، ولديّ عمل أقوم به».

تركهما واقفتين وحدهما، ودخل إلى سقيفة الأدوات ليأخذ منشاره الآلي. رفعه فوق كتفه، واتّجه نحو مدخل المركبات، ثمّ اختفى بين الأشجار.

وقفت ليني وأمّها مكانهما، بالكاد تتنفّسان، إلى أن سمعتا أزيز الحياة يدبّ في المنشار.

التفتت الأمّ إلى ليني، وهتفت بقسوة: «غبيّة، غبيّة، غبيّة! كان من الممكن أن تُضبَطا بالجرم المشهود».

- لقد غططنا في النّوم.

- «كثيراً ما تبدو الأخطاء القاتلة اعتياديّة، تعالي». قالت الأمّ، وأخذتها إلى الكوخ: «اجلسي قرب النّار، سأمشّط لك شعرك، فهو غارق في الفوضى. أنت محظوظة لأنّه ليس ممّن يلحظون أشياء كهذه».

سحبت ليني كرسيّاً ثلاثيّ القوائم بلا ظهر نحو مدفأة الحطب، جلست عليه عاقدةً قدميها الحافيتين فوق مسندته السّفليّة، وراحت تحلّ جديلتها، وهي تنتظر.

أخرجت الأمّ مشطاً عريض الأسنان من علبة القهوة الزّرقاء الموضوعة على منضدتها المرتجلة، وبدأت على رسلها تسرّح تشابكات شعر ليني الذي يبلغ خصرها، ثمّ راحت تدلّك لها فروة رأسها بالزّيت، وتدهن قليلاً من بلسم جلعاد الشّذيّ الذي أعدّتاه من البراعم على يدي ليني الخشنتين: «تظنّين أنّك نجوتِ بفعلتك هذه المرّة، ولذا تريدين أن تري ماثيو مجدّداً. هذا ما كنت تفكّرين فيه حقّاً، أليس كذلك؟».

بالطّبع أمّها تعرف.

- «سأتصرف بذكاء أكبر في المرّة المقبلة». قالت ليني.

- «لن يكون ثمّة مرّة مقبلة، ليني». أخذت الأمّ ابنتها من كتفيها، وأدارتها على الكرسيّ: «ستنتظرين حتّى الجامعة، مثلما تحدّثنا. سنفعل الأمر كما خطّطنا له. في سبتمبر، سترين ماثيو في أنكوراج، وتبدئين حياتك».

- سأموت إن لم أره.

- لا، لن تموتي. أرجوكِ يا ليني، فكّري فيّ بدلاً من التّفكير في نفسك.

شعرت ليني بالخجل من نفسها، والحرج من أنانيّتها: «أنا آسفة يا ماما، أنت على حقّ. لا أعرف ماذا دهاني».

- «الجنس يغيّر كلّ شيء». قالت الأمّ بهدوء.

❄

بعد أسبوع، بينما كانت ليني وأمّها تتناولان دقيق الشّوفان على الفطور، فُتح باب الكوخ. تقدّم الأب إلى الدّاخل بخطوات واسعة، الخشب المجروش متناثر على شعره الدّاكن، وقميصه الفلانيل: «تعاليا معي، كلتاكما، بسرعة!».

تبعت ليني والديها خارج الكوخ نحو مدخل المركبات. كان الأب يسير بسرعة، خطواته تغطّي الأرض. تعثّرت الأمّ محاولةً إدراك إيقاعه، يشقّ عليها الحفاظ على توازنها فوق الأرض الإسفنجيّة.

سمعت ليني أمّها تقول هامسة: «يا إلهي!»، فرفعت ناظريها.

كان الجدار الذي أمضى الأب صيفه في بنائه ماثلاً أمامهم، وقد اكتمل. تعاقب لوح تلو آخر من الخشب المنشور حديثاً في خطّ مستقيم تُتوّجه الأسلاك الشائكة، فبدا الجدار أشبه بشيء خارج من معتقل غولاغ.

بيد أنّ ذلك لم يكن أسوأ ما في الأمر. الآن، صار ثمّة بوّابة تعترض مدخل المركبات، وجنزير معدنيّ ثقيل يبقيها مغلقة، ومن حلقات الجنزير يتدلّى قفل معدنيّ. رأت ليني المفتاح معلّقاً بسلسال حول عنق أبيها.

جذب الأب الأمَّ نحوه، وكان مبتسماً. انحنى نحوها، وهمس شيئاً في أذنها، ثمّ قبّل الكدمة الأرجوانيّة الصّغيرة عند أصل عنقها.

- «الآن ما من أحد غيرنا. ها نحن هنا، منعزلين عن العالم اللّعين الغدّار بأسره». قال: «سنكون بأمان الآن».

❄

لم يكن الخوف -كما اكتشفت ليني- ذلك المختلى الصّغير المظلم الذي تخيّلته دائماً: جدران تكبس أنفاسك من كلّ صوب، سقف يرتطم برأسك، أرضيّة باردة عند اللّمس.

لا.

الخوف قصرٌ باذخٌ، غرفةٌ تلي الأخرى، تربط بينها ردهات لا تنتهي.

في الأيّام التي أعقبت إغلاق البوّابة، محفوفةً بخشخشة جنزيرها، تعلّمت ليني الإحساس الذي يسكن تلك الغرف. ترقد في العلّيّة على سريرها ليلاً، وتحاول ألّا يأخذها النّوم، لأنّ النّوم يجيء ومعه كوابيسه. الخوف الذي تقارعه في وضح النّهار يحاصرها عندما يخيّم اللّيل. ترى في المنام موتها بمئة طريقة: غرقاً، سقوطاً في الجليد، وقوعاً عن سفح جبل، رصاصةً في الرّأس.

مجازات، كلّها مجازات. الموت في كلّ منام راودها وسيراودها بعد.

كان الأب يحوّم حولهما طوال الوقت، يتحدّث كأن شيئاً لم يكن، بمزاج فكاهيّ رائق للمرّة الأولى مذ تعرّض للطّرد من أرض آل هارلان. كان يمزح، ويضحك، ويعمل بجانبهما. وفي اللّيل، ترقد ليني متسمّعة إلى أصوات والديها، إلى ممارستهما للحبّ. كانت الأمّ بارعةً في التّظاهر بأنّ كلّ شيء طبيعيّ؛ أمّا ليني فقد فقدت تلك المقدرة الطفوليّة.

ما كانت تقوله في قرارتها، مراراً وتكراراً بلا انقطاع، هو: لا بدّ من أن نهرب.

❄

- «علينا أن نهجره». قالت ليني صباحَ سبت، بعد أسبوع من إيصاده للبوّابة. كانت تلك أوّل مرّة يتركهما أبوها فيها وحدهما معاً.

تلكّأت الأمّ، وارتخت يداها على كومة العجين التي كانت تدعكها: «سيقتلني». قالت همساً.

- ألم تفهمي بعد يا ماما؟ سيقتلك هنا، عاجلاً أم آجلاً. فكّري في

الشّتاء القادم؛ الظّلام والبرد، ونحن هنا، محاصرتان خلف ذلك الجدار. لن يعمل في خطّ الأنابيب هذا الشّتاء، سنكون وحدنا معه في الظلام، من عساه يوقفه، أو يساعدنا؟

رمقت الأمّ البابَ بنظرة ملؤها التّوتّر: «أين نذهب؟».

- لارج مارج عرضت المساعدة، وكذلك آل ووكر.

- ليس توم، هذا سيزيد الطّين بلّة.

- الجامعة ستبدأ بعد ثلاثة أسابيع ونصف يا ماما، عليّ أن أذهب في أسرع ما أستطيع. أتأتين معي؟

- ربّما ينبغي لك الذّهاب من دوني.

كانت ليني قد تنبّأت بهذا، وتصارعت معه حتّى توصّلت إلى جواب آخر المطاف: «عليّ أن أذهب يا ماما، لا أستطيع أن أعيش هكذا، لكنّني أحتاج إليك. أخشى أنّني... لن أقدر أن أتركك».

- «حبّتا بازلّاء في قرن واحد». قالت الأمّ بصوتٍ يشي بحزنه، لكنّها تفهمّت، فلطالما كانتا معاً: «عليكِ أن تذهبي.. أريدكِ أن تذهبي.. لن أستطيع أن أسامح نفسي ما لم تفعلي، فما هي خطّتك؟».

- نهرب في أوّل فرصة تتسنّى لنا. ربّما يذهب إلى الصّيد فنأخذ القارب؛ سنستغلّ أيّة فرصة سانحة. إن كنّا ما نزال هنا عند سقوط أوّل ورقة شجر، سينتهي كلّ شيء.

- إذنْ نهرب بهذه البساطة، بلا أيّ شيء.

- نهرب بروحينا.

أشاحت الأمّ بنظرها. مرّ وقتٌ طويلٌ طويلٌ قبل أن تومئ قائلةً: «سأحاول».

لم يكن ذلك هو الجواب الذي ترومه ليني، لكنّه أفضل ما ستحظى به. دعت فقط أن ترافقها أمّها عندما تلوح فرصة الهرب.

❄

بدأ الطّقس يتغيّر. هنا وهناك، أوراق خضراء نَضِرة حالت إلى الذّهبيّ، والبرتقاليّ المحمرّ، والقرمزيّ. أشجار البتولا التي احتجبت عن الرؤية طوال العام، وضاعت بين بقيّة الشّجر، ظهرت الآن بجرأة محتلّةً الصّدارة، لحاؤها أبيض مثل أجنحة الحمام، وأوراقها فتائل مليون شمعة متّقدة.

كلّما بدّلت ورقة لونها، تزايد توتّر ليني. أغسطس يشارف على نهايته؛ أي إنّ الوقت ما زال مبكّراً على وصول الخريف، لكنّ ألاسكا متقلّبة النّزوات هكذا.

على الرغم من أنّها لم تتحدّث مع أمّها حول خطّة هروبهما مرّة أُخرى، كان الموضوع يعيش في الهواء بين عباراتهما. ما إنْ يغادر الأب الكوخَ حتّى تترامقا، وفي النّظرة ينتأ سؤال: هل حان الوقت؟

اليوم، كانت ليني وأمّها تعدّان شراب التّوت الأزرق عندما عاد الأب من الخارج. كان متّسخاً ينضح عرقاً، وقد اكتسى وجهه الرّطب بطبقةٍ دقيقةٍ من الغبار الأسود. للمرّة الأولى، انتبهت ليني إلى خصل رماديّة في لحيته. شعره مربوط في ذيل حصان خفيض جُمع كيفما اتّفق، وقد عقد منديلَ رأسٍ يحتفي بالذّكرى المئويّة الثّانية للاستقلال على جبينه. تقدّم بخطوات جزمته المطّاطيّة الثّقيلة فوق أرضيّة الخشب المعاكس، دخل إلى المطبخ فرأى ما كانت الأمّ تعدّه من أجل العشاء. «مجدّداً؟». قال يخزر أصابع كروكيت السّلمون: «ما من خضراوات؟».

– «إنّني أرشّد استهلاكها. لقد نفد الطّحين، وبات الأرزّ في أواخره، أخبرتك بذلك». أجابت الأمّ متبرّمة: «لو أنّك تدعني أذهب إلى البلدة...».

- «يجدر بك أن تذهب إلى هومر يا أبي، كي نتموّن للشّتاء». قالت ليني راجيةً أن تبدو نبرتها اعتياديّة.

- لا أظنّ أنّ من الآمن ترككما هنا وحدكما.

- «الجدار يبقينا في مأمن». أجابت ليني.

- «ليس بالكامل، فقد يستطيع أحدهم أن يجيء بالقارب عند ارتفاع المدّ». قال أبوها: «ومن يدري ما قد يحدث في غيابي؟ ربّما ينبغي لنا الذّهاب معاً كلّنا، لجلب ما نحتاج إليه من عند تلك العاهرة في البلدة».

نظرت الأمّ إلى ليني.

«ها هي الفرصة». قالت عينا الفتاة.

هزّت الأمّ رأسها، واتّسعت أجفانها. تفهّمت ليني خوف أمّها؛ كانتا قد تحدّثتا عن تسلّلهما خلسةً في غيابه، لا أن تهربا في أثناء وجوده معهما. بيد أنّ الطّقس كان آخذاً في التّبدّل؛ اللّيالي تزداد برداً، ما يعني أنّ الشّتاء يقترب. سيبدأ الدّوام في جامعة ألاسكا بعد أقلّ من أسبوع، هذه هي فرصتهما للفرار، إن خطّطتا على نحوٍ صائب...

- «هيّا بنا». قال الأب: «الآن». صفّق بيديه، فأجفلت الأمّ من الصّوت الحادّ.

رنت ليني بلهفة إلى حقيبة مستلزماتها، الممتلئة -دائماً- بكلّ ما تحتاج إليه للنّجاة في البرّيّة. ما كان لها أن تأخذها معها من دون أن تثير الشّبهات.

سيتعيّن عليهما الإقدام على فرارهما من دون شيء عدا الملابس التي ترتديانها.

أخذ الأب بندقية صيد عن المشجب قرب الباب وحملها فوق كتفه.

هل هذا تحذير؟

- هيّا بنا.

ذهبت ليني إلى أمّها، ووضعت يدها على معصمها النّاحل فأحسّت كيف كانت ترتعد: «هيّا، ماما». قالت باتّزان.

ساروا إلى الباب، ولم تستطع ليني ردع نفسها عن التّوقّف والالتفاف إلى الخلف لثانية فقط كي تحدّق في الدّاخل الدّافئ الحميم للكوخ. على الرغم من كلّ الألم، وأسى القلب، والخوف، كان هذا هو البيت الوحيد الذي عرفته يوماً.

أملت ألّا تراه بعد الآن، وكم هو محزن أنْ كان لأملها وقع الفقدان.

في الشّاحنة، جالسةً بين والديها على المقعد الطّولانيّ الممزّق، كان بوسع ليني أن تستشعر خوفَ أمّها؛ إذْ كان يبعث رائحة فاسدة. ودّت لو تطمئنها، لو تقول لها: لا بأس، وإنّهما ستهربان وتنتقلان إلى أنكوراج، فيصير كلّ شيء على ما يرام، لكنّها اكتفت بالجلوس مكتوفة اليدين، تبدّل أنفاساً ضحلة، متشبّثةً، تأمل أنّهما -عندما يحين وقت الرّكض- ستحملان أقدامهما على الحركة.

أدار الأب الشّاحنة وقادها نحو البوّابة.

وهناك توقّف، ترجّل تاركاً بابه مفتوحاً، وذهب إلى البوّابة، وأخذ القفل بين يديه. أزال المفتاح من حول عنقه، وأقحمه في القفل، ثمّ برمه بقوّة.

- «آن الأوان». قالت ليني لأمّها: «حين نصل إلى البلدة سنهرب. العبّارة تصل بعد أربعين دقيقة، سنعثر على طريقة كي نكون على متنها».

- لن ينجح الأمر، سيمسك بنا.

- إذنْ نذهب إلى لارج مارج، وهي ستساعدنا.

- أتخاطرين بحياتها هي أيضاً؟

طقّ القفل المعدنيّ الضّخم منفتحاً، ودفع الأب البوّابة فوق السّبخة الوعرة حتّى عاد الطّريق الرّئيسيّ إلى حيّز الرّؤية من جديد.

- «قد لا نحظى إلّا بفرصة واحدة». قالت الأمّ، وهي تعضّ على شفتها السّفليّة بقلق: «يُستحسن أن تكون الفرصة الصّحيحة، أو ننتظر».

أدركت ليني أنّ تلك نصيحة جيّدة، لكنّها لم تدرِ إذا ما كان بوسعها الانتظار بعد. الآن إذْ سمحت لنفسها أن تفكّر في الحرّيّة بالفعل، بدت فكرة العودة إلى الأسر مستحيلة. «لا يمكننا الانتظار يا ماما، الأوراق بدأت بالتّساقط، وقد يجيء الشّتاء مبكّراً هذا العام».

عاد الأب إلى قمرة القيادة، وأغلق الباب، ثمّ استأنف انطلاقه. حين عبروا البوّابة، فتلت ليني جذعها فوق المقعد، ونظرت من بين البنادق المصفوفة على مسند الأسلحة؛ لقد بُخّت كلمات بخطّ الطّلاء الأسود العريض على الخشب المقطوع حديثاً.

ابتعدْ. ممنوع انتهاك حرمة المكان. ستُطلَق النّار على المنتهكين.

سجّلت ملحوظة ذهنيّة حول أنّه لم يغلق البوّابة خلفهم. انعطفوا على الطّريق الرّئيسيّ، وراحت الشّاحنة تقرقع مارّةً بقنطرة مدخل أرض آل ووكر، ثمّ مدخل مركبات مارج بيردسول.

أمام مدرج الطّائرات، كان الطّريق قد فُرش بحصى جديد أخذ ينهرس تحت عجلات الشّاحنة. وإلى أمامهم، لاح الجسر الخشبيّ المطايّ حديثاً، حيث وقف بضعة أشخاص يرتدون سترات مطريّة زاهية الألوان خلف الإفريز، يرنون إلى النّهر، ويشيرون إلى سمك السّلمون الأحمر الفاقع، وهو يسبح في المياه الصّافية في طريقه إلى وضع البيوض، أو الموت.

أنزل الأب نافذته وصاح: «عودوا إلى كاليفورنيا»، فيما مرّت الشاحنة وتجشّأت دخانها الأسود عليهم.

في البلدة، ثمّة متراس أقيم على طول الخطّ النّاصف لشارع مين ستريت - مجموعة من مساند نشر الخشب والدّلاء البيضاء والأقماع البرتقاليّة تبقي السّيّاح بعيدين عن الجرّافة التي كانت تحفر خندقاً أمام المطعم. وخلفه، على طول الشّارع، امتدّ فجّ طولانيّ فاغر مثل جرح تندّبت أطرافه بأكوام من التّراب المجروف.

خبط الأب قدمه على المكابح بقوّة توقّفت الشّاحنة القديمة على إثرها، وقد كادت تنزلق بين العشب الطّويل على جانب الطّريق. من هنا، تسنّى لهم أن يروا من يعمل على الجرّافة: توم ووكر.

شدّ الأب عصا الغيار إلى وضعيّة الرّكن، وأطفأ المحرّك، دفع الباب الممانع بجسده، وقفز مترجّلاً من الشّاحنة، ثمّ صفقه خلفه. وما إن قالت ليني: «ابقي معي يا ماما، أمسكي يدي»، حتّى ظهر أبوها عند باب المرافق وفتحه، ثمّ جذب معصم أمّها وسحبها إلى الخارج.

نظرت الأمّ خلفها بعينين مشرعتين: اذهبي! رسمت الكلمةَ بشفتيها. هصر الأب معصم زوجته، وأرغمها على التّقدّم بخطوات عاثرة كي تدرك إيقاع سيره.

- «سحقاً». قالت ليني.

رأت والديها يشقّان طريقهما بين حفنة السّيّاح الذين كانوا هنا في هذا اليوم المشرق من أواخر أغسطس؛ أبوها يفتح الطّريق بمرفقه بقوّة لا داعي لها، ويدفع النّاس جانباً.

لم تستطع ليني منع نفسها؛ انسلّت من الشّاحنة وتبعتهما، عسى أن

يكون ما زال ثمّة طريقة لإبعاد الأمّ عنه. ليستا في حاجة إلى وقت طويل، فقط ما يكفيهما للاختفاء. حبّاً بالجحيم، ستسرقان قارباً إن اضطرّتا، وربّما كانت هذه هي وسيلة الإلهاء التي تحتاجان إليها.

- «ووكر!». صاح الأب.

أطفأ السّيّد ووكر الجرّافة، ودفع قبّعة سائق الشّاحنة عن جبهته المتفصّدة عرقاً: «إيرنت أولبرايت، أيّ مفاجأة سارّة».

- ما الذي تفعله بحقّ الجحيم؟

- أحفر خندقاً.

- لماذا؟

- كهرباء من أجل البلدة، سأنصّب مولّدة.

- ماذا؟

كرّر السّيّد ووكر كلامه، ولفظ كهـ..ـر..باء بعناية، كأنّه يكلّم شخصاً بالكاد يفهم الإنجليزيّة.

- وماذا لو كنّا لا نريد كهرباء في كانِك؟

- «لقد اشتريت حقوق الارتفاق من كلّ محلّات البلدة يا إيرنت، ودفعتُ نقداً». أجاب السّيّد ووكر: «من أناس يريدون أضواء، وبرّادات، وتدفئة في الشّتاء. أوه! ومصابيح شارع. ألن يكون ذلك رائعاً؟».

- لن أدعك.

- وماذا عساك تفعل؟ تبخّ بالطّلاء من جديد؟ ما كنت لأنصح بذلك، لأنّني لن أكون حليماً وغفوراً هذه المرّة.

جاءت ليني من خلف أمّها، جذبتها من كمّها محاولةً تحريرها من الأب في أثناء انشغاله بشيء آخر.

- ليني!

رنّ صوت ماثيو. كان واقفاً أمام الحانة، يحمل صندوق كرتون كبيراً.

- «ساعِدنا». صرخت.

أخذ الأب ابنته من عضدها وشدّها إلى أمامه: «تظنّين أنّك بحاجة إلى المساعدة؟ من أجل ماذا؟».

هزّت رأسها وقال بصوت مبحوح: «لا شيء، لم أعنِ ذلك». رمت بنظرة إلى ماثيو، الذي كان قد وضع الصّندوق أرضاً، وانطلق باتّجاههم مترجّلاً عن الممشى الخشبيّ.

- «يستحسن أن تقولي لذاك الولد أن يتوقّف عن المشي، وإلّا أقسم بالله...». وضع الأب يده على السّكّين المعلّقة بخصره.

- «الأمور على ما يرام». صاحت لماثيو، لكنّها رأت أنّه لم يصدّقها، لقد رآها تبكي: «ابـ.. ابقَ مكانك، أخبر أباك أنّه ما من بأس».

لفظ ماثيو اسمها؛ رأته يتشكّل على شفتيه، لكن لم تستطع أن تسمعه.

ضيّق الأب قبضته على عضد ليني حتّى أحسّت بها مثل كمّاشة تطبق فكّيها. ساق ليني وأمّها عائداً بهما إلى الشّاحنة، دفعهما إلى الدّاخل، وصفق الباب خلفهما.

الأمر بأكمله لم يستغرق دقيقتين: وصولهم إلى البلدة، المشهد الذي أثاروه، صيحة الاستغاثة: ساعِدنا، ثمّ الرّجوع إلى الشّاحنة.

طوال طريق العودة إلى المنزل، ما انفكّ الأب يغمغم بصوتٍ غير مسموع، لم تتبيّن منه سوى كلمتين هما: «كذّاب»، و«ووكر».

أمسكت الأمّ يد ليني فيما تترجرج الشّاحنة فوق الطّريق المحفَّر، ثمّ

تنعطف بهم إلى أرضهم. حاولت ليني أن تفكّر في طريقة لتهدئة روع أبيها؛ ماذا دهاها فصرخت هكذا؟ هي أوعى من أن تطلب المساعدة.

الحبّ والخوف.

أعظم قوى الأرض الهدّامة. لقد قلبها الخوف حتّى ألبسها بطانتها، والحبّ جعلها غبيّة.

دلف الأب بالشّاحنة من البوّابة المفتوحة، ولمّا يزل يدمدم لنفسه. فكّرت ليني: حين يخرج كي يغلق البوّابة، سأتولّى المقود وأنقل الغيار إلى الوضعيّة العكسيّة، ثمّ أخبط قدمي على دوّاسة الوقود، لكنّه ترك البوّابة مفتوحة خلفهم.

مفتوحة.. بوسعهما أن تهربا في قلب اللّيل...

في فسحة الأرض، بدّل غيار السّرعة إلى وضعيّة الرّكن، وأطفأ المحرّك، ثمّ مشق ليني، وشدّها فوق العشب، وعلى العتبات، وعبر المصطبة، دفعها إلى داخل الكوخ بقوّة جعلتها تتعثّر وتسقط.

جاءت الأمّ خلفه تتحرّك بحذر، ووجهها يكتسي بهدوء مدروس. كيف تراها أجادت ذلك؟ لم تعرف ليني. «إيرنت، أنت تبالغ في ردّ فعلك. أرجوك، فلنتحدّث عن الأمر». بسطت يدها على كتفه.

- «أتظنّين أنّك بحاجة إلى مساعدة يا كورا؟». قال بصوت محكم النّبرة بما يدعو إلى الاستغراب.

- إنّها صغيرة، لم تعنِ شيئاً بما قالته.

رأت ليني عنف أنفاسه، وتشنّج أصابعه الخارج عن السّيطرة. كان يقف على مقدّمة أخمصيه، فورة الطّاقة تندلق منه، والغضب يمسخه. «أنت تكذبين عليّ». قال.

هزّت الأمّ رأسها: «كلّا، لست أكذب. أنا لا أعرف حتّى ما تعنيه».

- «آل ووكر هم السّبب دائماً». غمغم.

- إيرنت، هذا جنون...!

ضربها بقوّة جعلتها ترتطم بالجدار. وقبل أن يتسنّى للأمّ استعادة توزانها، كان قد استأنف الغارة عليها؛ أخذ يشدّ شعرها إلى الخلف كاشفاً شحوب بشرة عنقها. لفّ شعرها حول يده، ونزل بقبضته من علٍ، ففجّ لها صدغَها بالأرضيّة.

قذفت ليني نفسها على أبيها، فحطّت على ظهره. راحت تخلبه بأظافرها، تشدّ شعره وتصرخ: «اتركها!».

تلوّى متحرّراً منها، وشجّ جبين أمّها بالأرض.

سمعت ليني الباب يُفتح خلفها؛ وبعد ثوانٍ كانت قد فُضَّت عن ظهر أبيها. حظيت بلمحة من ماثيو، رأته يشدّ أباها، وينزعه عن أمّها، ثمّ يفتله في مكانه، ويعالجه بلكمةٍ على فكّه كانت من الشّدّة أن ترنّح لها الأب، وخرّ على ركبتيه.

ركضت ليني إلى أمّها تعينها على النّهوض: «علينا أن نذهب، الآن».

- «اذهبي أنت». قالت الأمّ، وهي تنظر بتوتّر نحو الأب، الذي كان يئنّ ألماً. «اذهبي». وجهها مدمّىً، وشفتها ممزّقة.

- «لن أتركك». أجابت ليني.

فاضت الدّموع في عيني الأمّ، وتساقطت ممتزجة بالدّم: «لن يتركني وشأني أبداً. اذهبي أنت.. اذهبي».

- «لا». كرّرت ليني: «لن أتركك».

- «إنّها على حقّ يا سيّدة أولبرايت». قال ماثيو: «لا يمكنك البقاء هنا».

تنهّدت الأمّ: «حسناً، سأذهب إلى لارج مارج، وهي ستحميني. لكن، ليني؛ أنا لا أريدك قريبةً منّي أبداً، أتفهمين؟ إن جاء في طلبي، لا أريدك أن تكوني موجودة». نظرت إلى ماثيو: «أريدها أن تغيب لمدّة أربع وعشرين ساعة على الأقلّ، أن تختبئ في مكان لا يستطيع العثور عليه. سأذهب إلى الشّرطة هذه المرّة، وأطلب فتح محضر».

أومأ ماثيو برصانة: «لن أسمح أن يحدث شيء لها يا سيّدة أولبرايت، هذا وعد».

ندّت همهمة أنين عن الأب، ثمّ شتم وحاول النّهوض.

رفعت الأمّ حقيبة مستلزمات ليني وناولتها إيّاها: «الآن يا ليني، علينا أن نهرب».

خرجوا راكضين من الكوخ إلى الفناء المشرق المضاء بالشّمس نحو شاحنة ماثيو. «ادخلا». هتف بهما، ثمّ انطلق إلى شاحنة الأب، رفع غطاء المحرّك، وفعل شيئاً ما به.

انشقّ باب الكوخ خلفهم، وخرج منه الأب مترنّحاً.

سمعت ليني طقّة بارودة تُلقَّم. «اللّعنة يا كورا!». كان أبوها على المصطبة، والدّم ينزف غزيراً من جبينه، فيعشي بصره، وهو يحمل بندقية صيد: «أين أنت؟».

- «ادخلا!». صاح ماثيو، ورمى شيئاً ما بين الأشجار، ثمّ قفز إلى مقعد السّائق وشغّل شاحنته.

رنّت رشقة خردق خارجةً من البارودة بصخب، قفزت ليني إلى المقعد وانحشرت أمّها بجانبها. دفع ماثيو غيار السّرعة إلى وضع القيادة، ووهص دوّاسة الوقود، فانطلقت الشّاحنة تترنّح مؤخّرتها في العشب الطّويل قبل

أن تستحكم العجلات موطئها. زاد السّرعة عبر مدخل المركبات منبثقاً من البوّابة المفتوحة، ثمّ انعطف على الطّريق الرّئيسيّ.

انعطفوا من جديد عند مدخل لارج مارج متابعين طريقهم فيه إلى آخره، ثمّ أطلق ماثيو نفير البوق. «أبقِها في مأمن ومنأى عنّي». قالت له الأمّ، فأومأ برأسه.

حدّقت ليني في أمّها، وانطوت تلك التّحديقة على حياتيهما بأكملهما، على كلّ حبّهما. «لن ترجعي إليه». قالت ليني: «ستتّصلين بالشّرطة، وتفتحين محضراً. سنلتقي بعد أربعٍ وعشرين ساعة، ثمّ نهرب. أتعدينني؟».

أومأت الأمّ، وعانقتها بشدّة ماسحةً دموعها بالقبلات. «اذهبا». قالت بنبرة حادّة.

بعد خروج الأمّ من الشّاحنة، وانطلاقهما مبتعدَين، جلست ليني تعيد تشغيل الشّريط من أوّله في عقلها، وتبكي بصمت. كان كلّ نفَس يؤلمها، وتعيّن عليها أن تصارع رغبةً ملحّةً في العودة، في أن تكون مع أمّها. أتراها ارتكبت خطأً بتركها؟

انعطف ماثيو عند بوّابة آل ووكر، ودخلت الشّاحنة تقرقع تحت القنطرة المرحِّبة.

- «لا يمكننا البقاء هنا! فسيبحث عنّا في هذا المكان». قالت ليني: «أمّي قالت إنّ علينا الاختفاء لمدّة يوم».

ركن شاحنته وخرج منها: «أعلم، لكنّ المدّ منخفض، ليس بوسعنا استخدام القوارب ولا الطّائرة العوّامة. لا أعرف إلّا مكاناً واحداً للاختباء، ابقي هنا».

بعد خمس دقائق، عاد ماثيو بحقيبة ظهر ألقاها في صندوق الشّاحنة.

لم تنِ ليني تنظر خلفهما، عبر مدخل مركبات آل ووكر.

- «لا تقلقي، سيستغرق وقتاً كي يعثر على غطاء موزّع المحرّك». قال ماثيو.

ومن جديد انطلقا، منعطفين على الطّريق الرّئيسيّ، ثمّ يساراً نحو الجبل.

منعطفات.. تعرّجات.. معابر نهريّة.. وطريقهما مثابر صاعد...

أخيراً، ولجا مصفّاً ترابيّاً، وتوقّفا فيه على نحو أبتر. ما من مركبات أخرى، وثمّة لافتة عند رأس الشِّعب الجبليّ تقول:

منطقة مخلب الدّبّ البرّيّة

الاستعمالات المسموحة: نزهات المسير، التّخييم، تسلّق الصّخور.

المسافة: 2.8 ميل باتّجاه واحد.

الصّعوبة: ارتقاءات حادّة عسيرة.

اطّراد الارتفاع: 2600 قدم.

التّخييم: سلسلة ساوتوث ريدج الصّخريّة، قرب معبر نهر إيغل كريك المشار إليه.

أعان ماثيو ليني على الخروج من الشّاحنة، وجثا يتفقّد جزمتها المدبّبة، ويعيد ربط شوّاطاتها. «هل أنت بخير؟».

- ماذا لو قام...؟

- لقد أصبحَتْ في برّ الأمان، لارج مارج ستحميها. كما أنّها أرادت أن تكوني في مأمن.

- «أعلم، هيّا بنا». قالت بهمّة مثبّطة.

- أمامنا مسير طويل، أيمكنك ذلك؟

أومأت أنْ نعم.

اتّجها نحو الشِّعب، ماثيو يتصدّر الطّريق، وليني تقتفي خطاه مجاريةً سيره بمشقّة.

تابعا الصّعود لساعات، من دون أن يريا أحداً. تلوّى الشِّعب مثل أفعوان على طول جرف صخريّ حادّ الانحدار. وتحتهما كان البحر، أمواجاً تكسّر نفسها عند أقدام الصّخور. الأرض ترجف بعد كلّ موجة، أو ربّما ليني هي التي ظنّت ذلك لأنّ الحياة كانت تبدو في غاية التّقلقل الآن، حتّى الأرض ما كانت تبدو أهلَ ثقة.

أخيراً، وصل ماثيو إلى ما كان يبحث عنه: مرج عشبيّ واسع مترامي الأطراف، تتكاثر فيه سوق التّرمس الأرجوانيّة. كان الثّلج يبيّض الذّرا؛ وإلى الأسفل ترقد ثنايا الصّخر ترقّطها هنا وهناك نقاط بيضاء هي خراف دال.

ألقى بحقيبة ظهره على العشب واستدار يواجه ليني. ناولها شطيرة سلمون مدخّن وعلبة كولا دافئة، وريثما أكلت راح ينصب خيمة صغيرة ويضرب أطنابها عميقاً بين العشب.

في ما بعد، والنّار تطقطق أمام الخيمة التي ثُبّتت طيّتاها البرتقاليّتان مفتوحتين، جلس ماثيو على العشب بجانبها. لفّها بذراعه، فانعطفت في حضنه.

- «ليس عليك أن تكوني الوحيدة التي تتكفّل بحمايتها، أتعرفين ذلك؟». قال: «جميعنا سنعتني بكما، لطالما جرت الأمور هكذا في كانِك».

ودّت ليني لو يكون ذلك صحيحاً. أرادت أن تصدّق أنّ ثمّة مكاناً آمناً لها ولأمّها، فرصةً جديدة لحياتهما، بدايةً لا تنهض من رماد نهاية عنيفة فظيعة. وأكثر من أيّ شيء، ما عادت تريد أن تشعر أنّها تحمل مسؤوليّة سلامة أمّها على كاهلها وحدها.

التفتت نحو ماثيو، طافحةً بالحبّ تجاهه بتوقٍ لا يقاس، إلى درجة شعرت معها كما لو كانت عالقةً تحت الماء في أمسّ الحاجة إلى الأكسجين: «أحبّك».

- «وأنا أيضاً». قال.

هنا، وسط اتّساع ألاسكا المترامي، بدت الكلمات متناهية في صغرها، كأنّها قبضةٌ تهتزّ متوعّدةً في وجه الآلهة.

* 21 *

كانت وظيفته أن يبقيها في مأمن.

ليني كانت نجمته القطبيّة. يعلم أنّ هذا يبدو غبيّاً وبناتيّاً ورومانسيّاً، وأنّ النّاس سيقولون إنّه أصغر من أن يلمّ بهذه الأمور، بيد أنّ ذلك غير صحيح. المرء يكبر حين تموت أمّه.

هو لم يستطع أن يحمي أمّه، أن ينقذها.

أمّا الآن، فقد بات أقوى.

ضمّ ليني بين ذراعيه طوال ليلة أمس، أمدّها بحبّه، أحسّ بها ترتعش، وتتقبّض من كوابيسها، وأصغى إلى نشيجها. لقد خبر ما يعنيه ذلك، أن تدور كوابيس المرء حول أمّه.

أخيراً، حين انسكب أوّل وميض ضوء النّهار، وأنار جوانب الخيمة الصغيرة المصنوعة من النايلون البرتقالي، انسلّ من جوارها مبتسماً لصوت غطيطها المكتوم. ارتدى ملابس البارحة، وانتعل جزمة المسير البرّيّ خاصّته، ثمّ خطا إلى الخارج.

غيوم رماديّة تتحرّك بقوّة عضليّة في عرض السّماء، وتظلّل الشّعب الجبليّ من مسافة خفيضة. النّسيم أشبه بتنهيدة منه بأيّ شيء آخر، لكنّ

أغسطس في أواخره. كانت الأوراق تبدّل ألوانها ليلاً، وكلاهما يعرف ما معنى هذا. التّغيير يحدث بسرعة أكبر هنا.

أشغل ماثيو نفسه بإقامة نار من البقايا السّوداء التي تركها لهب الأمس. اقتعد صخرةً، وانحنى إلى الأمام، وراح يحدّق إلى اللّهب المتراقص، حين اشتدّ النّسيم وشعّث اللّهب كأنّه يوبّخه.

والآن، فيما هو يجلس عند النّار وحيداً، اعترف لنفسه أنّه يخشى أن يكون قد اقترف خطأً بجلبليني إلى هنا، أن يكون قد أخطأ بترك كورا في كانِك. خشي أن يستدير فيرى إيرنت يشقّ طريقه في الشِّعب حاملاً بندقيّة بإحدى يديه، وقنّينة ويسكي بالأخرى.

كان خائفاً على ليني أكثر من أيّ شيء آخر؛ فكيفما انتهت كلّ هذه الأحداث، حتّى لو تصرّفت على النّحو الأمثل في كلّ خطواتها، وفرّت، وأنقذت أمّها، سيبقى في قلب ليني كسرٌ دائم. لا يهمّ كيف يفقد المرء أحد والديه، أو ما إن كان هذا الوالد عظيماً أو سيئاً، يظلّ أسى الفقد رفيق الأولاد إلى الأبد. كان ماثيو يأسى على الأمّ التي كانت لديه، وأدرك أنّ ليني ستأسى على الأب الذي كانت تريده.

وضع ركوة قهوة خاصة بالتخييم في النّار، وثبّتها بين ألسنة اللّهب.

سمع خشخشة من خلفه، صوت سحّاب، وحفيف نايلون. أزاحت ليني طيّتي الخيمة وخرجت إلى الصّبح. وفيما هي تجدل شعرها، سقطت قطرة مطر في عينها.

- «أهلاً». قال، وقدّم لها القهوة، فسقطت قطرة مطر أخرى داخل الكوب المعدنيّ.

أخذت الكوب بكلتا يديها، ثمّ جلست بجانبه، وانحنت تتّكئ عليه.

سقطت قطرة مطر أخرى، رنّت داخل ركوة القهوة، ثمّ طقطقت وتحوّلت إلى بخار.

- «يا له من توقيت ممتاز». قالت ليني: «سينهمر المطر علينا في أيّة لحظة».

- ثمّة كهف في غليشر ريدج.

رفعت عينيها إليه: «لا أستطيع أن أظلّ بعيدة».

- لكنّ أمّك قالت...

- «أنا خائفة». قاطعته بصوت خافت.

سمع وخزة الشّكّ في صوتها، فأدرك أنّها تطلب منه شيئاً، وليست تخبره أنّها خائفة وحسب.

فهمها.

لم تكن تعرف ما هو الجواب الصّحيح، وتخشى أن تكون أخطأت.

- «أتظنّ أنّه ينبغي لي أن أرجع من أجلها؟». سألته.

- أظنّ أنّ على المرء أن يقف بجانب من يحبّهم.

رأى الانفراج يتبدّى عليها، والحبّ.

- «قد لا أتمكّن من الذّهاب إلى الجامعة. تعرف ذلك، صحيح؟ أقصد، إن كان علينا أن نهرب، فلا بدّ من الذّهاب إلى مكان لن يبحث عنّا فيه».

- «سأذهب معك». قال لها: «أينما ذهبتِ».

سحبت نفساً، وبدت متزعزعة إلى درجة ظنّ معها أنّها قد تنهار: «أتعرف ما هو أكثر ما أحبّه فيك يا ماثيو؟».

- ما هو؟

جثت فوق العشب المبلّل أمامه، وأخذت وجهه بين يديها الباردتين، ثمّ قبّلته، وكان لها مذاق القهوة: «كلّ شيء».

بعد ذلك، لم يبدُ أن ثمّة الكثير ممّا يقال. أدرك ماثيو أنّ ليني مشتّتة، أنّها لم تستطع التّفكير في أيّ شيء عدا أمّها، وأنّ عينيها لم تنفكّا تفيضان بالدّموع، وهي تنظّف أسنانها، وتلفّ كيس نومها، وكذلك أدرك الرّاحة التي شعرت بها لأنّها عائدة.

سينقذها.

سيفعل. سيعثر على طريقة كي يفعل. سيلجأ إلى الشّرطة، أو الصّحافة، أو إلى أبيه. حبّاً بالجحيم، ربّما لن يتوانى عن الذّهاب إلى إيرنت نفسه، فالمتنمّرون ليسوا سوى جبناء يمكن دحرهم ودفعهم إلى التّراجع دائماً.

سينجح ذلك.

سيفصلون إيرنت عن ليني وكورا، ويتيحون لهما أن تبدأا حياةً جديدة. ستستطيع ليني أن تذهب إلى الجامعة مع ماثيو. ربّما لا يكون ذلك في أنكوراج، ربّما لا يكون حتّى في ألاسكا، لكن من يأبه؟ كلّ ما يريده هو أن يكون معها.

سيجدان بدايةً جديدةً في مكان ما من العالم.

تناولا الفطور، وحزما أغراض التّخييم، وسارا نحو خمسين قدماً عائدين عبر الشِّعب قبل أن ترتدي العاصفة وجهها الجدّيّ، وكانا حينها في مكان ضيّق اضطرّهما إلى السّير في رتل أحاديّ.

- «ابقي قريبة». صاح ماثيو بصوتٍ يعلو على المطر الهائج وزعيق الرّيح. كانت سترته تصدر صوتاً أشبه بتخليط أوراق لعب، وقد ألصق

المطر شعرَه بوجهه فأعماه. مدّ يده إلى الخلف، وأخذ يد ليني فانزلقت من بين أصابعه.

راح المطر يجري في نهيرات، ويزلّق وجوه الصّخور. إلى يسارهما، أخذت سوق نبات السّنفيّة ترتعش، ثمّ تناثرت على الأرض، وقد كسّرتها الرّياح والمطر.

أعتم طريق الشِّعب؛ تقدّمت غشاوة ضبابيّة حجبت كلّ شيء عن البصر، ورمش ماثيو بعينيه يحاول أن يرى.

المطر يلطم قلنسوته النّايلون. وجهه مبتلّ، والماء يجري على خدّيه، ويتسلّل تحت ياقته، ويتجمّع على أهدابه.

تناهى شيء إلى سمعه.

صرخة.

استدار في مكانه، ولم تكن ليني خلفه. هرع يركض عائداً، وهو يصيح باسمها، وصفعه فرع شجرة على وجهه بقوّة، ثمّ رآها؛ كانت على بعد نحو عشرين قدماً، خارج الطّريق، إلى اليمين القصيّ. رآها تقترف خطأً. زلّت قدمها، وبدأت تسقط.

صرخت، ونازعت لاستعادة توازنها، حاولت أن تنتصب واقفة، تمدّ يدها بحثاً عن شيء ما.. أيّ شيء...

ليس ثمّة أيّ شيء...

- «ليني!». صاح يناديها.

لكنّها هَوت.

❄

ألم...

أفاقت ليني في ظلامٍ كريه، متمدّدةً في الوحل لا تستطيع أن تتحرّك بلا ألم. سمعت تقاطر الماء المتتابع، المطر يتساقط فوق صخرة. كانت رائحة الهواء نتنة، رائحة تفسّخ وأشياء ميتة.

ثمّة شيء قد كُسر في صدرها، ضلع ربّما؛ هي متأكّدة من ذلك، وربّما ذراعها اليسرى، إمّا أنّها كُسرت، وإمّا أنّ كتفها قد انخلعت.

كانت راقدةً على حقيبة ظهرها، جسدها محنيّ فوقها، ربّما ذلك ما أنقذ حياتها.

يا للمفارقة!

نزعت حزامَي حقيبة المستلزمات عن كتفيها، متجاهلةً الألم الحارق القابض الذي يتأتّى عن أصغر حركة. استغرقت دهراً كي تحرّر نفسها؛ وحين فعلت، ظلّت مستلقية في مكانها، ذراعاها وساقاها مفرودة إلى أقصاها، تلهث، والغثيان يفور في معدتها.

تحرّكي يا ليني.

كزّت على أسنانها، وانقلبت على جنبها، فغطست في بركةٍ عميقةٍ من الوحل اللّزج.

تنفّست بصعوبة، تألّمت، حاولت ألّا تبكي، ورفعت رأسها تنظر حولها.

ظلام.

كانت الرّائحة سيّئة هنا، رائحة عفن ونتانة. الأرض وحلٌ عميقٌ، والجدران صخرٌ مبلّلٌ أملس. كم مضى عليها وهي فاقدة وعيها؟

زحفت ببطء إلى الأمام، ضامّةً ذراعها المكسورة إلى جسدها. شقّت

طريقها البطيء المعذّب إلى نصل ضوء ينير بلاطة حجريّةً نحتها الزّمن والماء حتّى باتت أشبه بصحن فنجان.

ازداد ألمها حتّى تقيّأت، لكنّها تابعت التّقدّم.

سمعت صياحاً ينادي باسمها.

زحفت فوق البلاطة الحجريّة المقعّرة، ورفعت ناظريها، كان المطر يغشي بصرها.

فوقها بمسافة بعيدة، رأت الحمرة الغبشة لسترة ماثيو: «لييييننييي!».

- «أنا هنا». حاولت أن تصيح بالكلمتين، إلّا أنّ الألم في صدرها حال دون ذلك. لوّحت بذراعها السّليمة، لكنّها كانت تعلم أنّه لا يستطيع رؤيتها. فرجة الصّدع فوق رأسها ضيّقة، لا يزيد عرضها عن حوض استحمام. من خلالها، كان المطر يتساقط بغزارة، وصوته النّقريّ هدير من الضّوضاء في الكهف المظلم. «اذهب وائتِ بالمساعدة». هتفت أعلى ما استطاعت.

انحنى ماثيو عن الحافّة المنحدرة، محاولاً الوصول إلى شجرة نمت بعناد من الصّخرة.

كان يهمّ بالقدوم إليها.

- «لا!». صاحت.

وضع إحدى ساقيه فوق الرّفّ الصّخريّ، متحدّراً إلى الأسفل بأناة، يبحث عن موطئ لقدمه، ثمّ توقّف، ربّما يعيد تقييم الوضع.

أحسنت، توقّف، هذا خطير للغاية! مسحت ليني عينيها، وحاولت أن تركّز بصرها وسط السّيل المنهمر.

وجد موطئاً لقدمه، وتدلّى عن الرّفّ متشبّثاً في مكانه، بات الآن معلّقاً على الجدار الصّخريّ.

ظلّ هناك لوقت طويل، حرفَ X من الأحمر والأزرق على جدار الحجر الرّماديّ. أخيراً، مدّ يده شِمالاً نحو شجرة، شدّها مختبراً تماسكها، ثمّ تمسّك بها وانتقل إلى موطئ قدمٍ آخر أخفض بقليل.

سمعت ليني قعقعة أحجار، فأدركت ما كان يحدث، ثمّ شاهدته بنوع من الحركة البطيئة، الذّاهلة، المرتاعة.

انقلعت الشّجرة من وجه الصّخرة.

كان ماثيو ما يزال متشبّثاً بها حين هوى.

صخرٌ، وطينٌ، ووحلٌ، ومطرٌ، وماثيو يسقط سقوطاً مدوّياً، صرخته تضيع في انهيار الصّخر المتداعي. تشقلب في سقوطه نحو الأسفل، جسده يكسّر الأغصان ويرتطم بالحجر مرتدّاً بين الجنبات.

ألقت بذراعها فوق وجهها، وأشاحت برأسها، فيما حطّ الحطام فوقها، وارتطمت الحجارة بها، وجرحت إحداها وجنتها. «ماثيو.. ماثيو!».

رأت آخر الصّخور تسقط بعد فوات الأوان على الاحتماء.

❄

ليني في عرض خليج توتكا مع أمّها، على متن زورق الكانو الذي انتشله أبوها من المكبّ. الأمّ تتحدّث عن فيلمها المفضّل، روعة بين العشب، الذي يروي قصّة حُبٍّ شابٍّ خرج عن الطّريق المرسوم له. «وارن يحب ناتالي، يمكنك تخمين ذلك، لكنّه ليس كافياً».

ليني بالكاد تصغي؛ ليست الكلمات هي ما يهمّ، بل اللّحظة. هي وأمّها شاردتان، وقد تملّصتا من مشاغلهما، تتقمّصان حياةً أخرى، متجاهلتَين قائمة المهامّ الرّوتينيّة التي تنتظرهما في الكوخ.

إنّه يوم من التي تسميّها الأمّ أيّام الطّيور الزّرقاء(*)، غير أنّ الطّائر الوحيد الذي تراه ليني في السّماء كريستاليّة الزّرقة هو نسر أصلع يحلّق في الأعالي بجناحين يمتدّان على عرض ستّة أقدام. وعلى مسافة غير بعيدة، فوق نتوء مسنّن لصخرة سوداء، ثمّة فقمات ترقد معاً، وتنبح على النّسر. طيور الشّاطئ تنعب لكنّها تظلّ نائيةً بنفسها. وهناك طوق كلب زهريّ صغير يتألّق في الأغصان العالية لإحدى الأشجار، قرب عشّ ضخم لنسر.

يمرّ قارب محدثاً دويّاً انفجاريّاً قرب زورقهما، فيعكّر المزاج الرّائق للماء.

سيّاح يلوّحون، ويرفعون آلات تصويرهم.

- «إنّ المرء ليعتقد أنّهم لم يروا زورق كانو في حياتهم». تقول الأمّ، ثمّ تلتقط مجذافها: «حسناً، يستحسن بنا أن نعود إلى المنزل».

- «لا أريد لهذا أن ينتهي». تتذمّر ليني.

ابتسامة الأمّ غير مألوفة؛ ثمّة ما هو في غير محلّه: «عليكِ أن تساعديه يا فتاتي الصّغيرة، ساعدي نفسك».

فجأةً، يميل الزّورق إلى جانبه بشدّةٍ تجعل كلّ ما على متنه ينقلب إلى الماء: القناني، وحافظات التّرموس، وحقيبة ظهر.

تتشقلب الأمّ قرب ليني صارخةً، وتسقط في الماء وسط طرطشة، ثمّ تختفي.

يستوي الزّورق في وضعيّته.

تهرع ليني إلى الحافّة، وتنظر إلى الماء، وهي تصيح: «ماما!».

(*) يوم طائر أزرق: تعبير أمريكيّ يصف اليوم الصّافي المشمس الّذي يلي تساقط الثّلج غالباً ويُعدّ مثاليّاً للتّزلّج، والتّرجمة الحرفيّة هنا لضرورة السّياق. (المترجم)

تنبثق من سطح الماء زعنفة سوداء حادّة مثل نصل السّكّين، ترتفع وترتفع، حتّى تكاد تبلغ ارتفاع ليني؛ حوت قاتل.

الزّعنفة تحجب الشّمس، فتظلم السّماء دفعةً واحدة؛ يصير كلّ شيء أسود.

تسمع ليني انزلاق حوت الأوركا، طرطشة الماء لدى ظهوره، وصفير الهواء من فتحته التّنفّسيّة. تشمّ رائحة السّمك المتفسّخ في أنفاسه.

فتحت ليني عينيها بأنفاس ثقيلة؛ الصّداع يتخبّط داخل جمجمتها، وطعم الدّم يملأ فمها.

كان العالم مظلماً بالفعل تسوده رائحة النّتانة والعفن.

رفعت رأسها. كان ماثيو عالقاً في الصّدع فوقها، محصوراً بين الجدارين الصّخريّين، معلّقاً في الهواء، قدماه متدلّيتان فوق رأسها، وقد ثبّتته حقيبة ظهره في مكانه.

- ماثيو! ماثيو!

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم يُجب.

(لعلّه لا يستطيع.. لعلّه ميت..).

سقطت قطرة ما على وجهها، فمسحتها وأحسّت بطعم الدّماء.

استوت جالسةً بشقّ الأنفس، كان الألم عنيفاً إلى درجةٍ جعلتها تتقيّأ كمّيّة كبيرة على نفسها، ثمّ تفقد وعيها. وعندما أفاقت، كادت تتقيّأ من جديد بسبب رائحة قيئها الذي تناثر فوق صدرها.

شغّلي دماغك.. ساعديه.. إنّها ألاسكيّة، يمكنها أن تنجو بحقّ اللّعنة! فذلك هو الشّيء الوحيد الذي تعرف كيف تفعله، الشّيء الوحيد الذي علّمها إيّاه أبوها.

- «إنّه صدع يا ماثيو، وليس كهف دبّ؛ لذا فالأمور جيّدة». لن يدخل دبّ بنّيّ إلى المكان متهادياً يبحث عن مأوىً ينام فيه. أخذت تتحرّك إنشاً تلو الآخر في أنحاء المكان، يداها تتحسّسان الجدران الصّخريّة الملساء. ما من مخرج.

زحفت مجدّداً فوق الصّخرة الشّبيهة بصحن فنجان، ورفعت ناظريها نحو ماثيو.

- إذنْ، الطّريق الوحيد للخروج هو في الأعلى.

كان الدّم يقطر من ساقه، ويسقط على الصّخرة بجانبها محدثاً صوتاً.

نهضت واقفة.

- «أنت تسدّ طريق الخروج الوحيد، لذا عليّ أن أحرّرك. الحقيبة هي المشكلة». لقد تسبّب العرض الإضافيّ في تثبيته: «إن تمكّنتُ من نزع الحقيبة عنك ستسقط».

السّقوط. لم تبدُ تلك خطّة عظيمة، لكنّها لم تستطع أن تفكّر في شيء أفضل.

حسناً.

كيف؟

أخذت تتحرّك بحذر شديد، وأقحمت يدها الخدرة في نطاق بنطالها. انزلقت وسقطت عن صخرة صحن الفنجان، فغطست في الوحل اللّزج. طعنها ألمٌ حادٌّ في صدرها، فجعلها تشهق. راحت تنبّش في حقيبة مستلزماتها حتّى عثرت على سكّينها، أمسكتها بين أسنانها، وزحفت إلى موضعٍ تحت قدمَي ماثيو تماماً.

الآن كلّ ما عليها فعله هو أن تصل إليه وتحرّره بالسّكّين.

كيف؟ لم تكن تستطيع بلوغ قدميه.

أتسلّق.. كيف؟ ليس لديها سوى ذراع سليمة واحدة، والجدار الحجريّ أملس ومبتلّ.

على الصّخور.

عثرت على بعض الصّخور المسطّحة الكبيرة، وجرّتها إلى الجدار مكدّسةً إيّاها فوق بعضها بأفضل ما استطاعت. استغرق الأمر دهراً، كانت متأكّدةً أنّها غابت عن الوعي ثمّ أفاقت واستأنفت العمل مرّتين.

عندما انتهت من إقامة كومة بلغ ارتفاعها قدماً ونصفاً، سحبت نفساً عميقاً واعتلتها.

تحت وطأة وزنها، انزلقت إحدى الصّخور من تحتها.

سقطت سقوطاً مدوّياً، فارتطمت ذراعها المصابة بشيء ما، وصرخت.

كرّرت المحاولة أربع مرّات، وكانت تسقط في كلّ مرّة. لن ينجح هذا؛ الصّخور زلقة للغاية، ولا تستقرّ عند تكديسها.

- «حسناً». إذنْ، ليس بمقدورها تسلّق الصّخور المكدّسة، ربّما كان ينبغي لهذا أن يكون واضحاً.

ترنحت نحو الجدار، ومدّت يدها كي تلمس سطحه البارد الذي دبّقته الرّطوبة. استخدمت يدها السّليمة لاقتفاء الحجر المبلّل، تبحث باللّمس عن كلّ نتوء، وحافّةٍ، وتجويف. ثمّة ضوء شحيح ينسلّ من كلا جانبَي ماثيو. نقّبت في حقيبتها مجدّداً، وعثرت على مصباح رأس ثبّتته فوق جبينها. بوجود الضّوء، رأت تضاريس سطح الصخرة: الحوافّ، والحفر، ومواطئ القدم.

بحثت باللّمس إلى الأعلى، ونحو الجانبين، والخارج، حتّى عثرت

على نتوء صغير في الحجر من أجل قدمها، فوضعتها فوقه. ثبّتت نفسها في الموضع، ثمّ راحت تتلمّس بحثاً عن آخر.

سقطت بشدّة، وظلّت مستلقيةً مكانها ذاهلة، تتنفّس بصعوبة شاخصةً إلى الفتى ببصرها. «حسناً، فلنحاول من جديد».

مع كلّ محاولة، كانت تحفظ تضريساً جديداً في جدار الصّدع. وفي محاولتها السّادسة، قطعت كامل المسافة إلى الأعلى، فبلغت من العلوّ ما يكفي للإمساك بحقيبة ظهره وتثبيت نفسها. كان منظر ساقه اليسرى فظيعاً؛ عظم بارز، ولحم ممزّق، وقدمه ملويّة إلى الخلف تقريباً.

كان متدلّياً بلا حراك، رأسه مائل إلى الجانب، والدّم يلطّخ وجهه إلى درجة أفقدته معالمه.

لم تستطع أن تتبيّن إذا ما كان يتنفّس.

- «أنا هنا يا ماثيو، اصمد». قالت له: «سأحرّرك». سحبت نفساً عميقاً.

وباستخدام نصل مطواتها، راحت تقطّع أحزمة الحقيبة عند الكتف والخصر. استغرقت أبديّةً كي تفعل ذلك بيد واحدة، لكنّها أنجزت الأمر في نهاية المطاف.

لم يحدث شيء.

قطعت كلّ الأحزمة من دون أن يتحرّك. لم يتغيّر أيّ شيء.

أخذت تشدّه من ساقه السّليمة بأقوى ما استطاعت.

لا شيء.

شدّت مرّة أخرى، ففقدت توازنها، وهوت إلى الوحل والصّخور.

- «ماذا؟». راحت تصرخ نحو الفتحة: «ماذا؟».

سمعت فرقعةً معدنيّة؛ صوت شيء يرنّ على الصّخر.

هوى ماثيو من مكانه، وارتطم بالجدار، ثمّ استقرّ بصوتٍ مكتومٍ في الوحل قرب ليني، وحطّت الحقيبة بجانبها، راشقةً إيّاها بالوحل.

هرعت ليني نحوه، وأخذت رأسه في حضنها تمسح وجهه المدمّى بيدها الملطّخة بالوحل: «ماثيو! ماثيو!».

ندّ عنه صفير، ثمّ سعال، وكادت دموع ليني تنفجر.

جرّته فوق الوحل نحو صخرة صحن الفنجان. وهناك، كافحت وعاركت كي تضع جسده فوق السّطح الحجريّ المقعّر.

- «أنا هنا». قالت له، وهي تتسلّق بجانبه. لم تدرك حتّى أنّها كانت تبكي قبل أن ترى قطرات دمعها تحطّ فوق وجهه الموحل. «أحبّك، ماثيو». قالت له: «سنكون على ما يرام، أنا وأنت. سترى. سوف...». حاولت أن تتابع الكلام، أرادت ذلك، بل كانت تحتاج إلى ذلك، لكن لم تستطع أن تفكّر إلّا في أنّه هنا بسببها. بسببها هي. لقد سقط، وهو يحاول إنقاذها.

❄

صرخت حتّى آلمتها حنجرتها، لكن لم يكن ثمّة أحد ليسمعها. ما من مساعدة آتية، لا أحد يعرف حتّى بوجودهما في الشِّعب الجبليّ، ناهيك عن سقوطهما في أحد صدوعه.

هي التي سقطت.

أمّا هو فكان يحاول إنقاذها.

وها هما الآن؛ مهشّمان، متسربلان بدمائهما، يتكوّمان على بعضهما فوق هذه الصّخرة المسطّحة الباردة.

فكّري.

ماثيو راقد بجانبها، وجهه مدمّى ومتورّم، وملامحه مشوهة. ثمّة طيّة

جلديّة كبيرة انشقّت عن وجهه، وتدلّت مثل أذنٍ جريحةٍ لكلب، كاشفةً عن العظم الأبيض المحمرّ تحتها.

إنّها تمطر من جديد. الماء يتدفّق على الجدران الصّخريّة، ويحوّل الوحل إلى بركة دبقة. الماء يحيطهما من كلّ صوب، يدور في دوّامة داخل تقعّر الصّخرة، يموج، ويطرطش، ويقطر، ويروّم. في ضوء النّهار الواهي الذي انسلّ مع المطر، رأت أنّ دم ماثيو قد حوّل لون الماء إلى الورديّ.

ساعده يا ربّ.. ساعدنا...

زحفت من فوقه، وانزلقت عن الصّخرة، ثمّ راحت تنقّب في حقيبته بحثاً عن قماش مشمّع. استغرقت وقتاً طويلاً كي تثبّته في مكانه بيدٍ سليمةٍ واحدةٍ، لكنّها تمكّنت من ذلك في النّهاية، وصنعت مزراباً لجمع ماء المطر في حافظتَي ترموس كبيرتين. وعندما امتلأت إحداهما، ثبّتت الأخرى بحيث تجمع الماء، ثمّ تسلقّت الصّخرة من جديد.

أمالت ذقنه وجعلته يشرب، فابتلع الماء بتشنّج، وغصّ وأخذ يسعل. وضعت التّرموس جانباً، وراحت تحدّق إلى ساقه اليسرى؛ بدت مثل كومة من لحم الهامبرغر تبرز منها شظيّة عظم.

ذهبت إلى حقيبتَي الظّهر، وأنقذت ما استطاعت من محتوياتهما. كانت عدّة الإسعافات الأوّليّة محفوظة بعناية؛ عثرت على محلول باكتين مطهّر، وشاش، وأسبرين، وفوط صحّيّة. نزعت حزامها وقالت: «لن يمدّك هذا بشعور جيّد. ما رأيك بقصيدة؟ كنّا نحبّ روبرت سيرفس، أتتذكّر؟ عندما كنّا طفلين، كان بمقدورنا أن نردّد قصائده الجيّدة عن ظهر قلب».

وضعت حزامها حول فخذه، وشدّته حتّى صرخ واضطرب جسده. وفيما راحت تبكي لإدراكها ما لا بدّ من أنّه يشعر به من ألم، ضيّقت الحزام أكثر، ففقد الفتى وعيه.

ضمّدت جرحه بالشّاش والفوط الصّحيّة، وثبّتت كلّ ذلك في مكانه باستخدام الشّريط اللّاصق.

ثمّ عانقته أفضل ما استطاعت على الرّغم من ذراعها المكسورة وضلعها المشعور.

أرجوك لا تمُت!

ربّما لم يستطع أن يشعر بها، ربّما كان يعاني البرد مثلها؛ إذْ كانا منقوعين بالماء كلاهما.

كان عليها أن تُعلمه أنّها هنا.

القصائد.. انحنت نحوه، وهمست في أذنه بصوتها الأجشّ المترنّح، من خلف اصطكاك أسنانها: «"هل سبق لك أن خرجت إلى العزلة الهائلة، وكان القمر صافياً على نحوٍ فظيع..."».

❄

يسمع شيئاً ما؛ أصواتاً مختلطةً لا تعني شيئاً، حروفاً تُقذف إلى بركة، فتطفو متفرّقة.

يحاول أن يتحرّك. لا يستطيع.

خدر. دبابيس وإبر في جلده.

ألم. ألم فظيع. رأسه ينفجر، النّار تضطرم في ساقه.

يحاول أن يتحرّك مجدّداً، يئنّ. لا يستطيع التّفكير.

أين هذا؟

الألم هو الجزء الأكبر منه. كلّ ما هو موجود. كلّ ما تبقّى. ألم. عمى. وحدة.

لا.

هي.

ما معنى هذا؟

❄

- ماثيو، ماثيو، ماثيو.

إنّه يسمع ذلك الصّوت، وهو يعني له شيئاً ما، لكن ماذا؟

الألم يطمس كلّ شيء آخر. ثمّة صداع يعجزه عن التّفكير. رائحة القيء، والعفن، والتّفسّخ. رئتاه تؤلمانه، وكذلك منخراه. لا يستطيع أن يتنفّس من دون لهاث.

يبدأ بتمحيص ألمه، فيرى أدقّ الفروق. الضّغط في رأسه يتصاعد، يَخفق، ينعصر؛ ثمّة حدّة في ساقه، طعنات، نار وجليد.

- ماثيو.

صوت. (صوتها). مثل شمسٍ ترخي ضياءها على وجهه.

- أنا هنا، أنا هنا.

هباء بلا معنى.

- ششش. لا بأس. أنا هنا. سأروي عليك قصّة أخرى. ربّما سام ماكغي.

لمسة.

عذاب. يظنّ أنّه يصرخ.

لكن ربّما يكون كلّ ذلك كذبة...

❄

احتضار. يمكنه أن يشعر بالحياة تتصفّى منه، حتّى الألم زال.

هو لا شيء، مجرّد كتلة مرتخية وسط البلل والبرد، يبول على نفسه، يتقيّأ، يصرخ. أحياناً يتوقّف تنفّسه دفعةً واحدة فيسعل حين يعاوده من جديد.

الرّائحة مريعة. عفن، روث، تفسّخ، بول، قيء. حشرات تزحف عليه من كلّ صوب، تطنّ في أذنيه.

لا شيء يبقيه حيّاً سواها هي.

هي تتحدّث وتتحدّث. قوافٍ مألوفة تكاد تأخذ معنىً. يستطيع سماع أنفاسها. يعلم متى تكون مستيقظة، ومتى تكون نائمة. تعطيه ماءً، تجعله يشرب.

إنّه ينزف الآن، من أنفه. يمكنه استطعام المذاق، والإحساس باللّزوجة الدّبقة.

إنّها تَغيم.

لا، هذه كلمة خاطئة.

تبكي.

يحاول أن يتمسّك بهذا المشهد، لكنّه يذهب مثل كلّ شيء آخر، يأكله الغبش، أسرع من أن يمسكه. ها هو يطفو من جديد.

هي.

أحبّك يا ماثيو، لا تتركني.

الوعي ينسرب من بين أصابعه. يقاتل من أجله، يخسر، ويغرق من جديد في الظّلام النتّن.

❄ 22 ❄

بعد ليلتين قارستين فظيعتين، تحرّك ماثيو لأوّل مرّة.

لم يفِق، لم يفتح عينيه، لكنّه تأوّه وأصدر صوت الطّقطقة المريع هذا، كما لو كان يختنق.

شبه منحرفٍ من زرقة السّماء يتدلّى فوقهما، لقد كفّت عن الإمطار أخيراً. رأت ليني وجه الصّخرة بوضوح، كلّ الحوافّ، والتجاويف، ومواطئ الأقدام.

الفتى يحترق من الحمّى، جعلته ليني يبتلع المزيد من الأسبرين، ودلقت آخر ما تبقّى من الباكتين على جرحه، وأعادت تضميده بشاش جديد ألصقته بالشّريط اللّاصق.

على الرغم من ذلك، لم يزل بمقدورها أن تشعر بالحياة تنحسر منه؛ لم يعد ثمّة هو في الجسد المتكسّر بجانبها. «لا تتركني، ماثيو...».

تناهى صوت أزيز بعيد في قلب الظّلام، خفقُ مروحة طائرة هليكوبتر.

فكّت نفسها عن ماثيو، وهرعت فوق الطّين. «نحن هنا!». صاحت، وهي تخوّض نحو الفرجة التي تتيح السّماءَ بين الصّخور.

مطّت جذعها فوق الجدار الصّخريّ المنحدر، وأخذت تلوّح بذراعها السّليمة وتصرخ: «نحن هنا! هنا في الأسفل!».

سمعت كلاباً تنبح، ولغط أصوات بشريّة.

لمع ضوء مصباحٍ يدويّ في وجهها.

- «لينورا أولبرايت». هتف رجُل يرتدي زيّاً بنّيّاً: «أهذا أنتِ؟».

❄

- «سنخرجك أنت أوّلاً يا لينورا». قال أحدهم. لم تستطع أن ترى وجهه في مزيج ضوء الشّمس والظّلّ.

- كلّا! ماثيو أوّلاً. إنّ... حالته أسوأ.

وقبل أن تعي ذلك، كان يجري ربطها داخل قفص، وسحبها على الجدار المنحدر. أخذ القفص يرتطم بالصّخر ويرنّ، والألم يرتدّ في صدرها وعلى طول ذراعها.

حطّ القفص على أرضيّة صلبة بصوت صلصلة، وأعماها ضوء الشّمس. كان ثمّة رجال في زيّ موحّد حولها من كلّ اتّجاه، وكلاب تنبح بجموح، وصافرات تُطلَق.

أغمضت عينيها من جديد، وأحسّت بنفسها تُنقل إلى الرّقعة العشبيّة في الشِّعب الجبليّ، وسمعت خفق شفرات هليكوبتر. «أريد أن أنتظر ماثيو». صاحت.

- «ستكونين على ما يرام يا آنسة». قال شخصٌ يرتدي زياً، وجهه قريب للغاية، وأنفه مفلطح مثل مظلّة فطر وسطه: «سننقلكِ جوّاً إلى المستشفى في أنكوراج».

- «ماثيو». قالت، وهي تقبض على ياقته بيدها السّليمة، وتشدّه نحوها.

رأت وجهه ينقلب. «الفتى؟ إنّه وراءك. لقد أتينا به».

لم يقل إنّ ماثيو سيكون على ما يرام.

❄

فتحت ليني عينيها ببطء، فرأت شريطاً من الإضاءة في الأعلى فوقها، خطّاً من الأبيض المتوهّج على خلفيّةِ السّقف المرصوف ببلاطٍ حاجبٍ للصّوت. للغرفة رائحة مشبعة بالحلاوة، وهي ممتلئة بباقات الأزهار والبوالين. كانت أضلاعها مضمّدة بأضمدة لصيقة تجعل التّنفّس مؤلماً، وذراعها المكسورة في جبيرة. النّافذة قربها تكشف عن سماء من الأرجوانيّ الشّاحب.

- «ها هي فتاتي الصّغيرة». قالت أمّها. كان الجانب الأيسر من وجهها متورّماً، وجبهتها تصطبغ بالأسود والأزرق، والملابس المشعّثة المتّسخة تروي قصّة قلق أمّ. لثمت جبين ليني، وأبعدت شعرها بحنوّ عن عينيها.

- «أنتِ بخير». قالت ليني، شاعرةً بالانفراج.

- أنا بخير يا ليني، أنتِ التي أثرتِ قلقنا.

- كيف عثروا علينا؟

- لقد بحثنا في كلّ مكان. أخرجني القلق عن طوري، وكذلك كانت حال الجميع، ثمّ تذكّر توم آخر المطاف مكاناً كانت زوجته تحبّ أن تخيّم فيه، ذهب يبحث هناك فوجد الشّاحنة. انتبه طاقم البحث والإنقاذ إلى بعض الأغصان المتكسّرة في سلسلة مخلب الدّبّ الصّخريّة حيث سقطتما، حمداً لله.

- ماثيو حاول أن ينقذني.

- أعرف، لقد أخبرتِ المسعفين بهذا نحو عشر مرّات.

- كيف حاله؟

لمست الأمّ وجنة ليني التي تغطّيها الكدمات: «إنّه في حالةٍ سيّئةٍ، لا يعلمون إن كان سيصمد حتّى الصّباح».

نهضت ليني جالسةً بشقّ الأنفس، متألّمةً من كلّ نفَس وحركة. ثمّة إبرة مغروزة في ظهر يدها، وحولها شريط لاصق بلون لحميّ يغطّي كدمة أرجوانيّة. استلّت الإبرة بأناة، وألقتها جانباً.

- «ماذا تفعلين؟». سألتها أمّها: «لديك ضلعان مكسوران».

- عليّ أن أرى ماثيو.

- لقد انتصف اللّيل.

- «لا يهمّني». دلّت ساقيها العاريتين المكسوّتين بالخدوش والكدمات عن حافّة السّرير، ونهضت واقفة. اقتربت الأمّ منها، وتحوّلت إلى عكّاز يدعمها. ومعاً سارتا ببطء مبتعدتين عن السّرير.

عند الباب، رفعت الأمّ السّتارة، ونظرت عبر النّافذة، ثمّ أومأت. انسلّتا خارج الغرفة، وأغلقت الأمّ الباب خلفهما بهدوء. تقدّمت ليني ببطء أليم على قدمين مكسوّتين بجوربين، تتبع أمّها عبر ممرّ تلو آخر حتّى وصلتا إلى منطقة باهرة الإضاءة تبرز فيها معالم كفاءة باردة تسمّى وحدة العناية المركّزة.

- «انتظري هنا». قالت الأمّ، وسبقتها تتفقّد الغرف. عند الغرفة الأخيرة على اليمين، استدارت وأشارت لليني أن تتبعها.

على الباب خلف أمّها، رأت ليني اسم «ووكر، ماثيو» مكتوباً على لوح مشبكيّ داخل جيب بلاستيكيّ شفّاف.

- «قد يكون هذا صعباً». قالت الأمّ: «فهو يبدو في حالة سيّئة».

فتحت ليني الباب ودلفت إلى الدّاخل.

الآلات في كلّ مكان، تطقطق، وتهمهم، وتئزّ، تصدر صوتاً يشبه التّنفّس البشريّ.

لا يمكن للفتى الذي في السّرير أن يكون ماثيو.

رأسه حليق ومكسوّ بالأضمدة؛ الشّاش متشابك على وجهه، والقماش الأبيض تشرّب لوناً زهريّاً من نزّ الدّم. لقد غُطّيت إحدى عينيه برقعة واقية، والأخرى أغمضها التّورّم. ساقه مرفوعة ومعلّقة على ارتفاع نحو ثمانية عشر إنشاً فوق السّرير بوساطة مِعلاق جلديّ، وقد تورّمت حتّى بدت أقرب إلى جذع شجرة منها إلى ساق فتى. لم تستطع أن ترى منها شيئاً سوى أصابع قدمه الأرجوانيّة الكبيرة بارزةً من الأضمدة. وثمّة أنبوب في فمه المتهدّل يصله بآلة ترتفع وتهبط في أنفاس تنفخ صدره ثمّ تفرغه، هكذا يتنفّس.

أمسكت ليني بيده السّاخنة الجافّة.

ها هو ذا، ينازع من أجل حياته بسببها، لأنّه يحبّها.

انحنت إليه، وهمست: «لا تتركني، ماثيو. أرجوك! أنا أحبّك».

بعد ذلك، لم تدرِ ماذا تقول.

وقفت مكانها قدر ما أمكنها، تأمل أن يستطيع الشّعور بلمستها، وسماع تنفّسها، وفهم كلماتها. شعرت أنّ ساعات كانت قد مضت حين سحبتها أمّها في النّهاية بعيداً عن السّرير وقالت بحزم: «لا تناقشيني»، ثمّ قادتها عائدةً بها إلى غرفتها، وأعانتها على اعتلاء سريرها.

- «أين أبي؟». قالت ليني أخيراً.

- «إنّه في السّجن، بفضل مارج وتوم». حاولت الأمّ أن تبتسم.

- «جيّد». أجابت ليني، ورأت أمّها ترجف.

❄

في الصّباح التّالي، استيقظت ليني على مهل. استمتعت بنعمة فقدان

الذّاكرة لهنيهة عابرة، لم تلبث الحقيقةُ بعدها أن دهمتها. رأت أمّها متكوّمةً فوق كرسيّ قرب الباب.

- «أهو حيّ؟». سألتها.

- لقد صمد طوال اللّيل.

قبل أن تتسنّى للّيني معالجة هذه المعلومة، سُمع قرع على الباب.

التفتت الأمّ، فإذا بالسّيّد ووكر يدخل. بدا منهَكاً، يعلوه المقدار نفسه الذي تشعر به ليني من الضّنى والتّشتّت.

- «مرحباً يا ليني». نزع قبّعة سائق الشّاحنة عن رأسه، وسحقها بتوتّر بين يديه الكبيرتين. انتقلت نظرته إلى الأمّ، وبالكاد حطّت عليها قبل أن تعود إلى ليني. لقد دار بينهما حديث خالٍ من الكلمات، واستثنى ليني.

- لارج مارج وثيلما وتيكا هنا، كلايد يعتني بحيواناتكم.

- «شكراً لك». أجابت الأمّ.

- «كيف حال ماثيو؟». سألته ليني، وهي تعاني للنّهوض جالسةً، وتئزّ من الألم في صدرها.

- إنّه في غيبوبة مستحثّة طبّيّاً. ثمّة مشكلة في دماغه، شيء يسمّى رضّاً قاصّاً، وقد يصاب بالشّلل. سيحاولون أن يوقظوه، ليروا ما إن كان قادراً على التّنفّس بمفرده. لا يظنّون أنّه سيستطيع.

- أيظنّون أنّه سيموت حين ينزعون الأجهزة عنه؟

أومأ السّيّد ووكر: «كان ليرغب في وجودك بجواره، كما أعتقد».

- «أوه، توم». قالت الأمّ: «لا أدري. إنّها مصابة تتألّم، وسيكون ذلك أكثر ممّا تطيق أن تراه».

- «لن أرضى أن أشيح بوجهي، ماما». قالت ليني، ونهضت من سريرها.

أخذ السّيّد ووكر ذراعها وأسندها.

نظرت إليه: «أنا السّبب في إصابته. لقد حاول إنقاذي، الذّنب ذنبي».

- ما كان ليستطيع أن يفعل غير ذلك يا ليني، لا سيّما بعد ما حدث لأمّه. أنا أعرف ابني؛ حتّى لو عرف الثّمن المتأتّي عن ذلك، لحاول إنقاذك على أيّة حال.

تمنّت ليني لو يُشعرها ذلك بتحسّن، لكن لم يحدث.

- إنّه يحبّك يا ليني، ويسعدني أنّه عثر على ذلك.

كان يتكلّم كما لو أنّ ماثيو قد رحل منذ الآن.

تركت السّيّد ووكر يقودها خارج الغرفة، وعبر الرّدهة. كانت تشعر بوجود أمّها خلفها؛ من آن إلى آخر تمدّ يدها، وتلامس برؤوس أصابعها أسفل ظهر ابنتها.

دخلوا غرفة ماثيو. كانت أليسكا هناك، تستند بظهرها إلى الحائط. «مرحباً، لين». قالت لها.

لين.

مثل أخيها.

عانقت أليسكا ليني. لم تكونا تعرفان بعضهما جيّداً، لكنّ المأساة خلقت نوعاً من الرّابطة الأُسريّة بينهما. «كان ليحاول إنقاذك مهما كلّفه ذلك، فتلك طبيعته».

لم تستطع ليني أن تجيب.

فُتح الباب، ودخل ثلاثة أشخاص إلى الغرفة، يسحبون معهم المعدّات. في الصّدارة رجُل يرتدي مريلةً بيضاء، وخلفه ممرّضتان في مريلتين برتقاليّتين.

- «عليكما أن تقفا هناك». قال الطّبيب للّيني وأمّها: «باستثنائك أيّها الأب، تعال وقف قرب السّرير».

ذهبت ليني إلى الجدار، ووقفت ضاغطةً بظهرها عليه. بالكاد تفصلها بعض المسافة عن أليسكا، لكنّها بدت باتّساع محيط؛ على أحد شاطئيه الأخت التي تحبّه، وعلى الآخر الفتاة التي تسبّبت في انهياره. مدّت أليسكا يدها، وأمسكت بيد ليني.

أخذ الفريق الطّبّيّ يتحرّك بكفاءة حول سرير ماثيو، يتبادل الإيماءات والكلام، وتدوين الملحوظات، وتفقّد الأجهزة، وتسجيل العلامات الحيويّة.

ثمّ قال الطّبيب: «حسناً؟».

انحنى السّيّد ووكر، وهمس بشيء ما لماثيو، ثمّ قبّل جبينه المضمّد، وتمتم كلمات لم تستطع ليني سماعها. وعندما تراجع إلى الخلف، كان يبكي. التفت نحو الطّبيب وأومأ برأسه.

ببطء، سُحب الأنبوب من فم ماثيو.

انطلق صوت إنذار.

سمعت ليني أليسكا تقول: «هيّا يا ماتي، بوسعك أن تفعلها». ابتعدت عن الجدار وتقدّمت إلى الأمام، آخذةً ليني معها.

وقال السّيّد ووكر: «أنت فتىً صلب.. قاوم...».

انطلق صوت إنذار.

بيب.. بيب.. بيب...

تبادلت الممرّضتان نظرةً عارفة.

كانت ليني تعلم أنّه لا يجدر بها أن تتكلّم، لكنّ شيئاً لم يستطع كبح جماحها: «لا تتركنا، ماثيو... أرجوك...».

رمق السّيّد ووكر ليني بنظرةٍ مريعةٍ معذَّبة.

سحب ماثيو شهيقاً متحشرجاً كبيراً.

سكت صوت الإنذار.

- «إنّه يتنفّس بمفرده». قال الطّبيب.

لقد عاد، قالت ليني لنفسها بانفراج مترنّح، سيكون على ما يرام.

- «حمداً لله». تنفّس السّيّد ووكر الصّعداء.

- «لا ترفعوا سقف آمالكم». قال الطّبيب، فخيّم الصّمت على الغرفة: «قد يتنفّس ماثيو بمفرده من دون أن يفيق أبداً، قد يظلّ في حالة إنباتيّة مستديمة. وإن حدث وأفاق، يمكن أن يعاني من خلل إدراكيّ كبير. التّنفّس شيء، والحياة شيء آخر».

- «لا تقل ذلك». قالت ليني بصوت أنعم من أن يسمعه أحد: «قد يسمعك».

- «سيكون على ما يرام بالتّأكيد». تمتمت آلي: «سيفيق، ويبتسم، ويقول إنّه جائع. هو جائع على الدّوام. وسيرغب في واحد من كتبه».

- «إنّه مقاتل». أضاف السّيّد ووكر.

لم تستطع ليني أن تقول أيّ شيء، لقد زالت النّشوة التي اعتمرت بها حين سحب ذلك النّفَس الأوّل. مثل بلوغ ذروة سكّة قطار أفعوانيّ: يمرّ نانوثانية من الانتعاش الصّرف قبل الغوص المتهوّر إلى الخوف.

❄

- «سيخرّجونكِ اليوم». قالت الأمّ، فيما ليني تحدّق إلى تلفاز معلّق

على الحائط في غرفة المستشفى. كان رادار يثرثر بقصّة ما على مسمعَي هوكْ آي في مسلسل ماش. ضغطت ليني زرّ الإطفاء؛ كانت قد أمضت سنيناً تتمنّى لو تستطيع مشاهدة التّلفاز، والآن لا تلقي للأمر أدنى بال.

حقّاً، إنّها تواجه صعوبةً في الاهتمام بأيّ شيء عدا ماثيو، ومشاعرها في مكان يتعذّر الوصول إليه. «لا أريد الذّهاب».

- «أعلم». أجابتها أمّها تمسّد لها شعرها: «لكن علينا أن نغادر».

- إلى أين سنذهب؟

- إلى البيت. لكن لا تقلقي، فأبوكِ في السّجن.

البيت.

قبل أربعة أيّام، حين كانت في ذلك الصّدع مع ماثيو، تتمنّى بلا أمل أن يجري إنقاذهما قبل أن يموت بين ذراعيها، كانت قد قالت لنفسها إنّهما سيكونان على ما يرام. سيكون ماثيو بخير، وسيذهبان إلى الجامعة معاً، وسترافقهما أمّها إلى أنكوراج، فتجدان شقّة، وربّما تقدّمان المشاريب في حانة تشيلكوت تشارلي وتجمعان إكراميات كبيرة. وقبل يومين، عندما شاهدتهم يسحبون الأنبوب من فم ماثيو، ورأته يتنفّس بمفرده، راودتها هنيهة من الأمل، سرعان ما تكسّرت على صخرة أنّه «قد لا يفيق أبداً».

والآن باتت ترى الحقيقة.

لن يكون ثمّة جامعة لها ولماثيو، ولا انطلاقة جديدة لشابّين عاديّين واقعين في الغرام.

لا يمكن لها أن تستمرّ في خداع نفسها، أن تتابع أحلامها بنهايات سعيدة. كلّ ما تستطيع فعله هو أن تكون موجودة من أجل ماثيو وتظلّ تمدّه بحبّها.

أظنّ أنّ على المرء أن يقف بجانب من يحبّهم. كان هذا ما قاله هو، وما ستفعله هي.

- هل لي أن أرى ماثيو قبل أن أذهب؟

- لا، لقد أصيبت ساقه بإنتان، وهم لا يسمحون حتّى لتوم بالاقتراب منه، لكنّنا سنعود حالما نستطيع.

- حسناً.

لم تشعر ليني بأيّ شيء، وهي تتجهّز للذّهاب إلى المنزل.

لا شيء.

جرّت قدميها عبر الرّدهة خلف أمّها، تضمّ ذراعها المجبّرة إلى جسدها، وتومئ للممرّضات اللّاتي يودّعنها.

هل ابتسمت عرفاناً؟ لا تظنّ ذلك، لقد فاتتها حتّى تلك الأشياء الصّغيرة. لا يشبه هذا الأسى أيَّ شعور سبق لها أن اختبرته، فهو خانق، وثقيل، يسحب اللّون من كلّ شيء.

وجدتا السّيّد ووكر في قاعة الانتظار الرّئيسيّة، يذرع مكانه، وهو يشرب قهوة سوداء من كوب ستايروفوم. كانت أليسكا جالسةً على كرسيّ قربه، تقرأ مجلّة. ولدى دخولهما، حاول الاثنان أن يبتسما.

- «أنا آسفة». قالت ليني لهما.

اقترب السّيّد ووكر، لمس ذقنها وأرغمها على رفع رأسها: «لا مزيد من هذا». قال لها: «نحن -الألاسكيّين- أقوياء، أليس كذلك؟ فتانا سينجو، سيعيش، وسترين ذلك».

لكن أليست ألاسكا هي التي كادت تقتله؟ كيف يمكن لمكان ما أن يكون نابضاً بالحياة مثل ألاسكا، أن يكون على القدر نفسه من الجمال والقسوة؟

لا، ليس الذّنب ذنب ألاسكا، بل ذنبها هي. لقد كانت ليني غلطة ماثيو الثّانية.

اقتربت أليسكا وحاذت أباها: «لا تفقدي الأمل حياله يا ليني، فهو فتىً صلب. لقد اجتاز وفاة أمّي، وسيجتاز هذا أيضاً».

- «كيف سأستعلم عن حاله؟». سألت ليني.

- «سوف أنشر المستجدّات عبر المذياع، بينينسو لا بايبلاين، في بثّ السّابعة مساءً. ترقّبيها». قال السّيّد ووكر: «وسنحضره إلى المنزل حالما نستطيع، سوف يتماثل إلى الشّفاء على نحوٍ أفضل بيننا».

أومأتْ ليني فاقدةً الحسّ.

قادتها أمّها إلى الشّاحنة في الخارج وصعدتا على متنها.

خلال الطّريق الطّويل إلى المنزل، مضت الأمّ تدردش بتوتّر. أشارت إلى الجزر الشديد في معبر تيرناغين المائيّ، والسّيّارات المصفوفة أمام حانة ذا بيرد هاوس في منتصف النّهار، والحشد الذي يصطاد السّمك عند النّهر الرّوسيّ (يسمّونه صراع صيد السّمك؛ إذْ يقف الصّيّادون جنباً إلى جنب شبه متراصّين). عادةً ما كانت ليني تحبّ هذا المشوار؛ تفتّش عيناها السّلاسلَ المرتفعة بحثاً عن بقع بيضاء هي خراف دال، أو تجوبان المعبر المائيّ مترقّبتين حيتان البيلوغا البيضاء ذات الجلد الأملس والمنظر العجيب، التي تظهر في بعض الأحيان.

أمّا الآن فقد اكتفت بالجلوس صامتة، ويدها السّليمة ملقاة في حضنها.

في كانِك، نزلتا عن العبّارة بالشّاحنة، وراحت تقرقع بهما فوق المنحدر المعدنيّ المبرغل قبل أن تمرّ بالكنيسة الرّوسيّة القديمة.

تحرّت ليني أن تتجنّب النّظر إلى الحانة حين مرّتا بها. وعلى الرغم من

ذلك، رأت لافتة «مغلق» على بابها، والأزهار المتروكة أمامها؛ لا شيء تغيّر سوى ذاك. تابعتا حتّى نهاية الطّريق، ودلفتا من البوّابة المفتوحة إلى ملكيّتهم. وهناك، ركنت الأمّ أمام الكوخ وخرجت، ثمّ استدارت إلى جهة ليني وفتحت الباب.

انسلّت ليني جانباً، ممتنّةً لمسكة أمّها الثّابتة، وهما تسيران في العشب الطّويل. أخذ الماعز يثغو ويتكوّم على بعضه، واقفاً في حشدٍ عند بوّابة الشّبك.

داخل الكوخ، تدفّق نور شمس أغسطس الزّبديُّ من النّوافذ المتّسخة التي كستها طبقة سميكة من الغبار.

كان الكوخ لا تشوبه شائبة؛ ما من زجاج متكسّر، لا قناديل ساقطة على الأرضيّة، لا كراسي مقلوبة. لا يوجد دليل على ما كان قد حدث هنا.

والمكان يعبق برائحة زكيّة، لحم مشويّ. وما إن انتبهت ليني إلى الرّائحة تقريباً حتّى خرج أبوها من غرفة النّوم.

شهقت الأمّ.

ليني لم تشعر بشيء، وتحديداً لم تشعر بالمفاجأة.

وقف في مكانه قبالتهما، شعره الطّويل مشدود في ذيل حصان مشعّث، ووجهه مكسوّ بالكدمات، وقد اختلطت معالمه بعض الشّيء، واسودّت إحدى عينيه. كان يرتدي الملابس نفسها التي رأته ليني فيها آخر مرّة، وثمّت لطخات جافّة من الدّم على رقبته.

- «لقـ.. لقد خرجت». قالت الأمّ.

- «أنتِ لم تقدّمي بلاغاً». أجابها.

انقلب وجه الأمّ أحمر، ولم تنظر إلى ليني.

تقدّم نحو الأمّ: «لأنّك تحبّينني وتعلمين أنّني لم أقصد أيّاً من ذلك، كما تعلمين كم أشعر بالأسف. لن أكرّرها أبداً». وعدها، وهو يمدّ يده إليها.

لم تعرف ليني إذا ما كان الخوف هو السّبب، أم الحبّ، أم العادة، أم مزيج سامّ من الثّلاثة، لكنّ أمّها مدّت يدها هي الأخرى. تشابكت أصابعها الشّاحبة مثل خيطان مع أصابعه المتّسخة، ثمّ تقوّست لتتمسّك بيده.

سحبها بين ذراعيه، وعانقها بشدّة كأنّه يظنّ أنّ هنالك ما سيجرف واحدهما فيترك الآخر وحيداً. وعندما انفضّ العناق أخيراً، التفت إلى ليني: «سمعت أنّه سيموت، أنا آسف».

آسف.

حينذاك أحسّت ليني بشيء، حركة سيزميّة تُنبئ بزلزال في تفكيرها؛ مثل فسحة الرّبيع، تغيير في المنظر الطّبيعيّ، انفكاك عنيف، مفاجئ. لم تعد خائفةً من هذا الرّجل. وإن كانت، فقد غار الخوفُ إلى مكان أعمق من أن يعبّر عن نفسه. كلّ ما تشعر به هو الكراهية.

- «ليني؟». قال عابساً: «أنا آسف. قولي شيئاً».

رأت ما فعل صمتُها به، كيف مزّق ثقتَه، فقرّرت حينها تماماً: لن تكلّم والدها بعد اليوم أبداً. فلتَضعُف أمُّها وتتراجع، فلتَعُد وتنشبك في هذه العقدة السّامّة التي هي عائلتهم. ليني لن تمكث أكثر ممّا يتحتّم عليها، وحالما تتحسّن حال ماثيو ستغادر. إن كانت هذه هي الحياة التي اختارتها أمّها لنفسها، فليكن؛ أمّا ليني فستغادر.

حالما يتحسّن ماثيو.

- «ليني؟». قالت الأمّ بصوتٍ متزعزع. هي أيضاً أصابها التّغيّر الذي

طرأ على ليني بالارتباك والخوف، استشعرت جيشانَ عاطفةٍ بوسعه أن يزحزح قارّات من مكانها.

سارت ليني وتجاوزتهما كليهما، ثمّ تسلّقت سلّم العلّيّة على نحو أخرق، وحبت إلى داخل سريرها.

❄

عزيزي ماثيو،

لم يسبق لي أن خبرت ثقل الأسى بحقّ، وكيف أنّه يمطّ المرءَ مثل كنزة قديمة مبلّلة. كلّ دقيقة تمضي من دون كلمة منك، من دون أمل بكلمة منك، تبدو كأنّها يوم، وكلّ يوم يبدو شهراً. أريد أن أصدّق أنّك ستنهض لتجلسَ ببساطة ذات يوم وتقول إنّك تتضوّر جوعاً، أنّك ستدلّي ساقيك عن السّرير، ثمّ ترتدي ثيابك وتأتي إليّ، وربّما تحملني إلى كبينة صيد عائلتك، حيث نطمر نفسينا تحت الفراء ونتبادل الحبّ من جديد. هذا هو الحلم الكبير. للغرابة، فهو لا يؤلم بمقدار الحلم الصّغير، وهو أن تفتح عينيك وحسب.

أعلم أنّ ما حدث لنا كان ذنبي. لقد خرّب لقاؤك بي حياتَك، ما من أحد يستطيع أن يجادل في هذا. أنا، بعائلتي المختلّة، وأبي الذي أراد أن يقتلك لأنّك تحبّني، والذي يضرب أمّي لمجرّد كونها على دراية بذلك.

إنّ كرهي له سمٌّ يحرقني من الدّاخل إلى الخارج. كلّما نظرتُ إليه قَسا شيءٌ ما في داخلي. يرعبني مقدار كرهي له، أنا لم أبادله كلمةً منذ عودتي.

هذا لا يروق له، يمكنني أن أخمّن ذلك.

بصراحة، لا أعرف ماذا أفعل بكلّ هذه المشاعر. أنا حانقة، أنا يائسة، حزينة أنا بطريقة لم أكن أعلم أنّها موجودة أصلاً.

ما من منفس لأحاسيسي، ما من صِمام يُسكِتها. أصغي إلى المذياع كلّ ليلة عند السّابعة. البارحة، بثّ والدك مستجدّات حالتك. أعرف أنّك خرجت من الغيبوبة من دون أن تصاب بالشّلل، وأحاول أن أقبل بهذا نتيجةً جيّدةً بما يكفي، لكنّها ليست كذلك. أعلم أنّك لا تستطيع المشي، أو الكلام، وأنّ دماغك قد تعرّض لتلف يتعذّر إصلاحه على الأرجح، هذا ما قالته الممرّضات.

لكن لا شيء من ذلك يغيّر ما أشعر به؛ أنا أحبّك.

إنّني هنا.. أنتظر.. أريدك أن تعرف هذا؛ سأنتظر إلى الأبد...

ليني

❄

كانت ليني جالسةً على قيدوم مركب الصّيد، منحنيةً بجذعها، أصابعها العارية ترفرف في الماء ذي البرودة المنعشة، فيما هي تراقبه يموج ويركد. بدت الجبيرة التي تغلّف ذراعها الأخرى ناصعة البياض بجانب بنطالها الجينز المتّسخ، وكان ضلعاها المكسوران يجعلانها واعيةً بكلّ نفس تأخذه.

بوسعها سماع والديها يتبادلان همهمة ناعمة؛ أمّها تُغلق صندوق التّبريد الذي امتلأ بأسماك فضّيّة، وأبوها يشغل المحرّك.

دار محرّك القارب؛ فاشرأبّ قيدومه إلى أعلى، فيما هم يزيدون السّرعة نحو البيت.

عند شاطئهم، هرس القارب ما تحته من الحصى والرّمل، مصدراً صوتاً يشبه تلظّي النقانق في مقلاة من الحديد الصّبّ. وثبت ليني إلى المياه التي تبلغ الكاحل، وأخذت الحبل المهترئ بيدها السّليمة تشدّ المركب

إلى موضع أعلى فوق اليابسة. ربطته بجذع ضخم خالٍ من الأغصان رماه البحر فاستلقى بزاوية على الشّاطئ، وعادت لتأخذ شبكة الصّيد المعدنيّة التي تقطر ماءً.

– «يا لها من سمكة فضّيّة تلك التي اصطادتها ماما!». قال الأب مخاطباً ليني: «أظنّها هي التي فازت في مسابقة اليوم».

تجاهلته. ألقت حقيبة المعدّات فوق كتفها، واتّجهت نحو الدَّرج تشقّ طريقها إلى البرّ ببطء.

حين صارت هناك، أرجعت المعدّات إلى مكانها، وانطلقت إلى حظيرة الحيوانات كي تتفقّد الماء لديها. علفت الماعز والدّجاج، وتريّثت لتقلب السّماد في الحاوية، ثمّ شرعت تنقل الماء من النّهر. استغرق الأمر وقتاً أطول بذراع قويّة واحدة فقط. أطالت البقاء في الخارج قدر ما استطاعت، لكن كان عليها أن تدخل في النّهاية.

كانت الأمّ في المطبخ تجهّز العشاء: سلمون طازج محمّر بالمقلاة، سُجِّيَ برذاذٍ من زبدة الأعشاب المحضّرة في المنزل، وفاصولياء خضراء مقليّة بدهن الموظ المحفوظ، وسلطة أُعِدّت من الخسّ والطماطم المقطوفة حديثاً.

هيّأت ليني الطّاولة، وجلست.

قعد أبوها على كرسيّ قبالتها. لم ترفع رأسها، لكنّها سمعت جلبة قوائم الكرسيّ على الخشب، وصريره عندما جلس عليه. تنشّقت التّوليفةَ المألوفة من رائحة الجسد البشريّ، والسّمك، ودخان السّجائر. «كنت أفكّر أن نذهب إلى شرم الدّبّ غداً، لنقطف التّوت الأزرق. أعرف كم تحبّينه».

لم تنظر ليني إليه.

دنت أمّها منها، تحمل صينيّة من البيوتر عليها سمك بجلد مقرمش، فُرشت بجانبه الفاصولياء الخضراء زاهية اللّون. توقّفت لبرهة، ثمّ وضعت الصّينيّة في منتصف المائدة بجانب علبة حساء معدنيّة قديمة مُلئت بالأزهار.

- «وجبتكِ المفضّلة». قالت لِليني.

- «أها». أجابتها.

- «اللّعنة! ليني». قال والدها: «لا يمكنني احتمال هذا الفتور الكئيب. أنتِ هربتِ، والفتى سقط. ما حدث قد حدث».

تجاهلته.

- قولي شيئاً.

- «ليني». قالت الأمّ: «أرجوكِ!».

قام الأب عن الطّاولة بحركةٍ مندفعةٍ وعصفَ خارجاً من الكوخ، ثمّ خبط الباب خلفه.

غاصت الأمّ في مقعدها. كان بوسع ليني أن ترى مدى تعب والدتها، وكيف ترتعش يداها. «عليكِ أن تكفّي عن هذا يا ليني، فالأمر يثير غضبه».

- إذنْ؟

- ليني... ستغادرين عمّا قريب. سيسمح لك بالذّهاب إلى الجامعة الآن، إنّه يشعر بأسف فظيع لما حدث، يمكننا أن نحمله على الموافقة. سيكون بوسعك أن تذهبي، كما كنتِ تريدين تماماً. كلّ ما عليك فعله هو...

- «لا». قالت بنبرةٍ أشدّ ممّا نوت لها، فرأت وقعها على أمّها، كيف انكمشت مجفلةً بانعكاسٍ غريزيّ.

ودّت لو أهمّها أنّها تخيف أمَّها، لكنّها لم تستطع إحكام قبضة فكرها حول ذلك. أمّها اختارت أن تحفر بحثاً عن الكنوز في تربةِ حُبِّ أبيها المساميّة السّامّة؛ أمّا ليني فلا، ليس بعد الآن.

كانت تعرف ما يفعله صمتُها به، وكيف يثير غضبه. كلّ ساعة تمرّ وهي منقطعة عن تبادل الكلام معه، تزيده سخطاً وتهيّجاً، تزيده خطورة، بيد أنّها لم تأبه.

- إنّه يحبّك.

- هه.

- أنت تشعلين فتيلاً يا ليني، وتعرفين ذلك.

لم تستطع ليني أن تخبر أمّها كم هي غاضبة، أن تحكي لها عن تلك الأسنان الحادّة الصّغيرة التي تمضغ لحمها طيلة الوقت، فتمزّق من جسمها مزقةً تلو أخرى كلّما نظرت إلى أبيها. هبّت ناهضةً عن المائدة، وذهبت إلى العلّيّة كي تكتب إلى ماثيو، محاولةً ألّا تفكّر في أمّها الجالسة هناك في الأسفل وحدها تماماً.

❄

عزيزي ماثيو،

أحاول ألّا أفقد الأمل، لكنّك تعلم كم كان عصيباً عليّ دائماً؛ أعني الأمل. مضت أربعة أيّام على آخر مرّة رأيتك فيها، كأنّها دهر.

الأمر مضحك؛ الآن إذْ صار الأمل زلقاً وخوّاناً هكذا، أدركُ أنّني طوال تلك السّنين من طفولتي -حين ظننت أنّني لا أؤمن بالأمل- كنت أعتاش عليه في الواقع. كانت أمّي تغذّيني بحِمية ثابتة قوامها «إنّه يحاول»، وكنتُ أتلقّف اللّقيمات مثل كلب ترير صغير، وأصدّقها كلّ يوم. حين يبتسم لي،

أو يقدّم لي كنزة، أو يسألني كيف كان يومي، كنت أقول لنفسي: «أترين؟ إنّه يهتمّ». وحتّى بعد أن رأيتُه يضربُها لأوّل مرّة، ظللت أسمح لها أن تضع تعاريفَ للعالم نيابةً عنّي.

الآن كلّ ذلك مضى.

ربّما يكون مريضاً، ربّما كسرته فيتنام، أو ربّما لا يكون كلُّ ذلك غيرَ أعذار تُفرش عند قدمي رَجلٍ يتعفّن من الدّاخل وحسب.

ما عدت أدري، ومهما حاولت، لا أستطيع أن أبالي.

لم يتبقّ لديّ أيّ أمل تجاهه، الأمل الوحيد الّذي أستطيع التّشبّث به موجّه إليك.. إلينا...

ما زلتُ هنا.

❄ 23 ❄

حضرة مدير القبول المحترم:

جامعة ألاسكا، أنكوراج

يؤسفني جدّاً إخباركم أنّني لن أتمكّن من حضور المقرّر في الجامعة هذا الفصل.

وآمل -على الرغم من تشكّكي- أن يطرأ تغيرّ على ظروفي بحلول الفصل الشّتويّ.

سأظلّ إلى الأبد ممتنّة لقبولكم لي، وأتمنّى أن يُتاح مقعدي لطالب محظوظ آخر.

ببالغ المودّة،

لينورا أولبرايت

❄

في سبتمبر، عصفت الرّياح هادرةً بأنحاء شبه الجزيرة، واستهلّت الظّلمة زحفها فوق اليابسة بطيئاً لا يلين. وبحلول أكتوبر، كانت الهنيهة التي تمثّل الخريف في ألاسكا قد انقضت. كلّ ليلة، عند السّابعة، تجلس ليني قرب المذياع -الصّوت مرفوع إلى أقصاه، والتّشويش يخشخش-

تتحيّن صوتَ السّيّد ووكر، بانتظار أخبار عن ماثيو، لكن مع مرور الأسبوع تلو الآخر، لم يطرأ أيّ تحسّن.

في نوفمبر، تحوّل التّهطال إلى ثلج، ناعم أوّل الأمر، زغب إوزّ يتنزّل مرفرفاً من سماوات بيضاء. تجمّدت التّربة الوحليّة، فصلُبت كالغرانيت وصارت زلِقة، لكن سرعان ما انفرشت طبقة من البياض فوق كلّ شيء، بدايةً جديدة فريدة من نوعها، تمويهاً من الجمال يغطّي أيّاً كان ذلك الذي يستتر تحته.

وماثيو لم يزل ليس ماثيو.

ذات أمسية جليديّةِ البرْدِ تلت أوّلَ عاصفة شعواء للموسم، أنهت ليني روتينها اليوميّ تحت جناح ظلمة فاحمة، ورجعت إلى الكوخ. وفي الدّاخل، تجاهلت والديها ووقفت أمام مدفأة الحطب تمدّ يديها إلى دفئها. ثنت أصابع يدها اليسرى بحرص شديد. ما زالت تشعر بضعف ذراعها، وتحسّ بها غريبةً عن جسمها بطريقة ما، بيد أنّ إزالة الجبيرة كان حملاً انزاح عن صدرها.

التفتت، فرأت انعكاسها على النّافذة. وجه ناحل شاحب بذقن مدبّبة كرأس سكّين. لقد نقص وزنها منذ الحادثة، وكانت نادراً ما تكلّف نفسها عناء الاستحمام. الأسى قلب كلّ شيء رأساً على عقب؛ شهيّتها للطّعام، معدتها، نومها. بدت في حال سيّئة، عجفاء يابسة ومنهَكة، وترهّلت طيّتان تحت عينيها.

ذهبت إلى المذياع في تمام السّاعة 6:55 وشغّلته.

عبر المكبّر، سمعت صوت السّيّد ووكر، ثابتاً ثبات سفينة صيد في البحار السّاكنة. «إلى ليني أولبرايت في كانِك: سننقل ماثيو إلى دار

تمريض في هومر. يمكنك أن تأتي للزّيارة بعد ظهيرة الثّلاثاء، الدّار تدعى مركز شبه الجزيرة لإعادة التّأهيل».

- «سوف أذهب لرؤيته». قالت ليني.

كان أبوها يشحذ سكّينه اليولو، توقّف قائلاً: «حين تنفتح أبواب الجحيم على الأرض».

لم تزغ عيناها إليه، ولا رفّ لهما جفن: «ماما، أخبريه أنّه إن أراد منعي، سيتعيّن عليه أن يطلق النّار عليّ».

سمعت ليني أمّها تسحب نفَساً حادّاً.

مرّت ثوانٍ. استشعرت غضبَ أبيها وتقلقلَه، وكان بوسعها أن تحسّ بالحرب التي تدقّ طبولها داخله. أراد أن ينفجر، أن يفرض مشيئته، أن يضرب شيئاً ما، لكنّها تعني ما قالته، وهو يعلم ذلك.

ضرب ركوة القهوة، فطيّرها مدمدماً بشيء لم يسعهما سماعه، ثمّ شتم وألقى يديه في الهواء وتراجع إلى الخلف، كلّها في حركة واحدة رعاشيّة. «اذهبي». قال: «اذهبي لرؤية الفتى، لكن أتمّي مهامّك قبل ذلك. وأنتِ...». تحوّل إلى الأمّ شاهراً نحوها إصبعاً وكزَ به صدرها: «ستذهب وحدها، أتسمعينني؟».

- «أسمعك». أجابت الأمّ.

❄

جاء الثّلاثاء أخيراً.

- «إيرنت». قالت الأمّ بعد الغداء: «ليني تحتاج إلى توصيلة إلى البلدة».

- «قولي لها أن تأخذ ماكينة الثّلج القديمة لا الجديدة، وأن تكون هنا

بحلول وقت العشاء». ثمّ رمق ليني بنظرته: «أعني ما أقوله، لا تجعليني آتي بحثاً عنكِ». اقتلع فخاخ الصّيد الحديديّة عن علّاقاتها على الحائط، وخرج صافقاً الباب وراءه.

تقدّمت الأمّ نحو ابنتها، وهي تسترق النّظر خلفها بقلق، ثمّ وضعت في يد ليني ورقتين مطويّتين: «رسالتان، إلى ثيلما ومارج».

أخذتهما ليني وأومأت برأسها.

- لا تتصرّفي بحماقة يا ليني، عودي قبل موعد العشاء. يمكن للبوّابة أن تُغلق من جديد في أيّ وقت، فهي ليست مفتوحة سوى لأنّه يشعر بالأسف لما فعل ويحاول أن يحسن التّصرّف.

- كما لو كنتُ أكترث.

- أنا أكترث، ويجدر بك أن تكترثي لي.

أحسّت ليني بوخزة أنانيّتها: «أجل».

في الخارج، انكفأت ليني على نفسها لتواجه الرّيح، وأخذت تسير مجهدةً عبر الثّلج.

حين أنهت علْف الحيوانات، دوّرت ماكينة الثّلج وركبتها.

توقّفت أمام مدخل رصيف الميناء في البلدة وركنت ماكينتها.

كان ثمّة مركب أجرة مائيّ ينتظرها، لقد طلبته أمّها على جهاز اللّاسلكيّ، فالبحر أعتى من أن يسمح بالخروج إليه بالقارب.

ألقت ليني حقيبة ظهرها على كتفها، وسارت فوق المعبر الأملس المكسوّ بالجليد.

لوّح لها ربّان مركب الأجرة المائيّ. كانت متأكّدةً أنّه لن يأخذ منها أجرة التّوصيلة؛ فهو مغرم بصلصة التّوت البرّيّ التي تعدّها أمّها، والأمّ تعدّ

دستتي مرطبانات منها كلّ عام له خصوصاً؛ تلك هي الطّريقة التي يتّبعها المحلّيّون: المقايضة.

ناولته ليني مرطباناً وصعدت إلى متن المركب. وإذْ جلست على المقعد الطّويل في الخلفيّة، تحدّق إلى البلدة المرفوعة على ركائز فوق البحر، أخبرت نفسها ألّا تضمر الآمال من أجل اليوم. كانت تعرف حالة ماثيو، وقد سمعت الكلمتين مراراً حتّى حُفرتا في وعيها: تلف دماغيّ.

ومع ذلك، في اللّيل، بعد أن تفرغ من كتابة رسالتها اليوميّة إلى ماثيو، كانت غالباً ما تغرق في النّوم، وتحلم أنّ الأمر أشبه بقصّة الجميلة النّائمة؛ تعويذة شريرة بوسع قبلةٍ باعثُها حبٌّ حقيقيّ أن تزيلها، يمكنها أن تتزوّج به وتأمل أنّ حبّها سيوقظه.

بعد أربعين دقيقة، عقب عبور متعرج تتخلله ارتطامات بالأمواج عبر خليج كاتشيماك، توقّف مركب الأجرة المائيّ عند الرّصيف فوثبت ليني إليه.

في هذا اليوم الشّتويّ القارس، لفّ الضّبابُ كامل الخطّ المائيّ للّسان الرّمليّ. لم يكن ثمّة سوى بضعة محلّيّين خرجوا من منازلهم في هذا الطّقس، وما من سيّاح. معظم المحالّ تُغلق طيلة الفصل.

ابتعدت عن الطّريق، وبدأت المسار الصّاعد إلى داخل هومر. لقد قيل لها إنّها متى تصل إلى المنزل الذي يوجد قاربٌ زهريّ اللّون في فنائه، ولم تزل زينة الرّابع من يوليو معلّقة فيه، تكُنْ قد قطعت مسافةً أكثر من اللّازم في شارع وارديل.

كانت دار التّمريض تقوم عند طرف البلدة، فوق قطعة أرض نمت نباتاتها حتّى خرجت عن السّيطرة، بجوار مصفّ سيّارات مفروش بالحصى.

توقّفت. ثمّة نسر أصلع ضخم يجثم فوق عمود هاتف ويراقبها، عيناه الذّهبيّتان تتألّقان في الدّكنة.

أرغمت نفسها على متابعة الحركة، ودخلت المبنى، تحدّثت إلى موظّفة الاستقبال وتبعت توجيهاتها نحو الغرفة في نهاية الرّدهة. وهناك، عند الباب المغلق، توقّفت قليلاً؛ أخذت نفَساً ثابتاً، ثمّ فتحت الباب.

كان السّيّد ووكر واقفاً قرب السّرير، واستدار لدى دخول ليني. بدا لا يشبه نفسه، لقد نحتت الشّهور عودَه؛ صارت كنزته وبنطاله الجينز فضفاضين عليه، ونمت على وجهه لحية شابَ نصفُها: «أهلاً، ليني».

- «مرحباً». قالت، وتجاوزته نظرتُها إلى السّرير.

ماثيو يرقد مقيّداً؛ ثمّة شيء شبيه بالقفص حول رأسه الأصلع، كان مثبّتاً بالبراغي، لقد حفروا في جمجمته. بدا نحيلاً، ومهزولاً، وعجوزاً، مثل طائر منتوف الرّيش. رأت وجهه لأوّل مرّة، تتشابك فوقه ندوب حمراء كأنّها مزمومة بسحّابات. هناك طيّة من الجلد المجعّد تشدّ إحدى زوايا عينيه إلى الأسفل، وأنفه مسطّح.

كان راقداً بلا حراك، عيناه مفتوحتان، وفمه متهدّل، وخيط من اللّعاب يتدلّى من شفته السّفليّة الممتلئة.

اتّجهت ليني إلى السّرير، ووقفت بجانب السّيّد ووكر.

- ظننته في حال أحسن.

- إنّه كذلك بالفعل، أقسم إنّه ينظر إليّ مباشرةً في بعض الأحيان.

انحنت ليني نحوه: «مـ.. مرحباً يا ماثيو».

تأوّه ماثيو وجأر، كلمات ما هي بالكلمات، مجرّد نخير وهمهمات أشبه بأصوات القردة. تراجعت ليني إلى الخلف، كان يبدو غاضباً.

وضع السّيّد ووكر يده على يد ابنه: «إنّها ليني يا ماثيو، أنت تعرف ليني».

صرخ ماثيو. كان صوتاً يمزّق الفؤاد ذكّرها بحيوان عالق في فخّ، وراحت عينه اليمنى تدور في محجرها. «واااااث».

حدّقت ليني فيه فاغرةً فمها. ليست هذه حالاً أحسن، وليس هذا ماثيو، هذه القشرة الصّارخة المتأوّهة التي تقوم مقام شخص.

- «بلااا...». تابع ماثيو أنينه، وراح جسده يتلوّى، ثمّ تلت ذلك رائحة مريعة.

أخذ السّيّد ووكر ليني من ذراعها، وقادها إلى خارج الغرفة.

- «سوزانا». خاطب الممرّضة: «يحتاج إلى تغيير الحِفاض».

كانت ليني لتنهار لولا السّيّد ووكر الذي أمسك بها، قادها إلى قاعة انتظار فيها آلات بيع، وساعدها على الجلوس فوق أحد الكراسي.

جلس على الكرسيّ الذي بجانبها: «لا تشغلي بالك بالصّراخ، فهو يفعل ذلك طوال الوقت. يقول الأطبّاء إنّ السّبب جسديّ محض، بيد أنّني أظنّه الإحباط. إنّه موجود هناك... في مكان ما، وهو يتألّم. يقتلني أن أراه بهذه الحال، ولا أكون قادراً على المساعدة».

- «يمكنني أن أتزوّجه، وأعتني به». قالت ليني. كانت قد تخيّلت ذلك في أحلامها؛ الزّواج، واعتناءها به، وحبّها الذي سيعيده إلى وعيه.

- إنّ هذا لشيء جميل حقّاً يا ليني، ويجعلني متأكّداً أنّ ماثيو أحبّ الفتاة الصّحيحة، لكنّه قد لا ينهض من ذلك السّرير أبداً ولا يكون قادراً على قول «موافق».

- لكنّ النّاس يتزوّجون، أقصد الأشخاص المصابين، والذين فقدوا القدرة على الكلام، والمحتضرين. أليس كذلك؟

- لا يتزوّجون من فتيات في الثّامنة عشرة من أعمارهنّ، وأمامهنّ الحياة بأكملها. كيف حال أمّك؟ سمعت أنّها قبلت بالعودة إلى أبيك.

- إنّها تقبل العودة دائماً، هما أشبه بمغناطيسين.

- جميعنا قلقون عليكما.

- «أجل». تنهّدت ليني. وبماذا نفع القلق يوماً؟ لا أحد سوى أمّها يستطيع تغيير وضعهما، وهي ترفض ذلك.

في الصّمت الذي ران بعد ذلك التّعليق الذي لا جواب له، مدّ السّيّد ووكر يده إلى جيبه، وأخرج علبة مغلّفة بورق جرائد، كُتب على وجهها العلويّ بقلم تخطيط أحمر: عيد ميلادٍ سعيد يا ليني. «عثرت أليسكا عليها في غرفة ماتي، أظنّه أعدّها لكِ... في ما مضى».

- «أوه!». لم تستطع أن تقول أكثر من ذلك، كان عيد ميلادها قد ضاع وسط المعمعة هذا العام. أخذت الهديّة وراحت تتمعّن فيها.

خرجت الممرّضة من غرفة ماثيو. وعبر الباب المفتوح، سمعته ليني يصرخ: «وااا... نا... شير...». مكتبة سُر مَن قرأ

- التّلف الدّماغيّ... الوضع سيّئ يا صغيرتي، لن أكذب عليك. أسفت لسماع أنّك قرّرتِ عدم الذّهاب إلى الجامعة.

دسّت الهديّة في جيب معطفها: «وكيف لي أن أذهب؟ كان يُفترض أن نذهب معاً».

- كان ليريدك أن تذهبي، تعلمين هذا.

- ما عدنا نعرف ما يريده، أليس كذلك؟

نهضت وعادت إلى غرفة ماثيو. كان يستلقي متيبّساً، وأصابعه مثنيّة.

البراغي في رأسه والنّدوب على وجهه منحته مظهراً فرانكنشتاينيّاً، وعينه السّليمة الوحيدة تحدّق بفتور إلى الأمام، ليس نحوها.

انحنت إليه وأخذت يده، كان لها ثقل الموتى، فقبّلت ظهرها وقالت: «أنا أحبّك».

لم يجب.

– «لن أذهب إلى أيّ مكان». وعدته بنبرة غليظة: «سأظلّ هنا دائماً. ها أنا ذي يا ماثيو، أنزلُ كي أنقذك، كما فعلتَ من أجلي. لقد فعلتَ ذلك، أتدري؟ أنت أنقذتني. أنا واقفة هنا، بجانب الشّخص الذي أحبّه. آمل أنّك تسمع هذا».

مكثت قربه طوال ساعات. ظلّ يصرخ من آن إلى آخر، ويعاني في مكانه، وبكى مرّتين. في النّهاية، طلبوا منها المغادرة كي يحمّموه.

لاحقاً فقط، بعد أن أشارت لمركب الأجرة المائيّ، وصعدت على متنه، فيما هي تصغي إلى صوت بدن القارب يرتطم بالأمواج المزبدة، والماء ينثر رذاذه على وجهها، أدركت أنّها لم تودّع السّيّد ووكر. كانت قد سارت عبر دار التّمريض ببساطة وخرجت منها، مرّت برجُل يقف أمام تخشيبة مثبّتة بأشرطة لاصقة وقماش بلاستيكيّ، ومجموعة أطفال يلعبون الكرة في فناء مدرسة ويرتدون ملابس قطبيّة مموّهة، وامرأة عجوز من السّكّان الأصليّين تنزّه كلبَي هاسكي وبطّة؛ الحيوانات الثّلاثة مقيّدة بالأعنّة.

كانت تظنّ أنّها حزنت على ماثيو، وأفرغت كلّ الدّموع التي في جعبتها، لكنّها الآن ترى صحراء الأسى التي تمتدّ قبالتها. يمكن لهذا أن يستمرّ ويستمرّ. الجسد البشريّ مكوّن من الماء بنسبة ثمانين بالمئة؛ وهذا يعني أنّها مصنوعة من الدّموع حرفيّاً.

في كانِك، فيما هي تترجّل من مركب الأجرة المائيّ، بدأ الثّلج يتساقط. ثمّة همهمة خفيفة تصدر عن البلدة: صوت المولّدة الكبيرة التي تمدّ الأضواء الجديدة بالطّاقة. تساقط الثّلج مثل الدّقيق المنخول في وهج مصابيح السّيّد ووكر الجديدة، وبالكاد فطنت إلى البرد، وهي تسير باتّجاه المخزن العامّ.

رنّ الجرس لدى دخولها. السّاعة الرّابعة والنّصف، لم يزل الوقت نهاراً عمليّاً، لكنّ الظّلام كان يسود بسرعة.

كانت لارج مارج ترتدي معطفاً مهدّباً من الجلد السّويديّ يبلغ فخذيها، فوق بنطال مبطّن، وبدا شعرها أشبه بقصاصات أُخِذَت من لوح إتش أ سكيتش(*) وألصِقت بجمجمتها. ثمّة أماكن خلت من الشّعر تماماً، رقع حلقتها بحماسة أكبر من اللّازم حتّى انكشفت فروة رأسها البنّيّة، ربّما لأنّها لا تملك مرآة. «ليني! يا لها من مفاجأة جميلة». قالت بصوت بوق ضباب من شأنه أن يفزع الطّيور ويرسلها إلى كبد السّماء: «لقد اشتقت إلى أفضل موظّفةٍ لديّ على الإطلاق».

رأت ليني الحنوّ في عينَي المرأة الدّاكنتين. همّت أن تقول: «رأيت ماثيو»، لكنّ ما فعلته -وأثار رعبها- كان أنّها انفجرت بالبكاء.

قادتها لارج مارج إلى طاولة الحساب، ساعدتها في الجلوس على أريكة قديمة الطّراز وناولتها علبة مشروب تاب.

- «لقد رأيت ماثيو توّاً». قالت ليني، وهي تهوي بجذعها إلى الأمام.

(*) Etch A Sketch: لعبة رسم ميكانيكيّة شهيرة للأطفال، تتكوّن من شاشة رماديّة محاطة بإطار أحمر يحوي قرصين يتحكّمان بتوزيع مسحوق الألمنيوم لتشكيل الخطوط. (المترجم)

جلست لارج مارج بجانبها، فأصدرت الأريكة صريراً محتجّاً: «أجل، كنتُ في أنكوراج الأسبوع الماضي. منظر تصعب رؤيته، وذلك يقتل توم وآلي أيضاً. كم من وجع القلب بوسع عائلة واحدة أن تتحمّل؟».

- «ظننت أنّ نقله إلى دار تمريض يعني تحسّن حالته، ظننت...». تنهّدت: «لا أعرف ماذا ظننت».

- هذه أحسن حال يمكنه أن يصل إليها، حسب ما سمعت. فتى مسكين.

- لقد كان يحاول إنقاذي.

همدت لارج مارج لبرهة. وفي الصّمت، تساءلت ليني إذا ما كان بوسع شخص ما أن ينقذ آخر بالفعل، أم أنّ ذلك أمر يجب عليك أن تفعله لنفسك.

- كيف حال أمّك؟ ما زلتُ لا أصدّق أنّها سمحت لإيرنت بالعودة.

- «أجل، لا يمكن للشّرطة أن يفعلوا شيئاً إن لم تفعل هي». لم تعرف ليني ماذا تضيف، كانت تعلم أنّه من المستحيل لشخص مثل لارج مارج أن يفهم ما الذي يدفع بامرأة مثل كورا إلى البقاء مع رجُل مثل إيرنت. يُفترض أن يكون الأمر بسهولة معادلة رياضيّة لطلّاب الابتدائيّة: يضربكِ × عظام مكسورة = تتركينه.

- لقد توسّلنا أنا وتوم إلى أمّك أن تتقدّم ببلاغ، أظنّها خائفةً أكثر من أن تُقدِم على ذلك.

- «الأمر أكثر من مجرّد خوف». أوشكت ليني أن تتفوّه بالمزيد حين انقبضت معدتها، اعتقدت أنّها قد تتقيّأ: «آسفة». قالت حين مرّ الغثيان بسلام: «باتت حالتي مريعة مؤخّراً، أظنّ أنّ القلق يصيبني بتوعّك بدنيّ».

ظلّت لارج مارج جالسة في مكانها لوقتٍ طويلٍ، ثمّ اندفعت ناهضة: «انتظري هنا». تركت ليني على الأريكة تتنفّس بحذر، وسارت نحو رفوف المخزن، فارتطمت بأحد الفخاخ الفولاذيّة المعلّقة على الجدار.

لم تنِ ليني تعيد مشهدها مع ماثيو في ذهنها؛ تسمع صرخاته، وترى عينه تدور في محجرها. يحتاج إلى تغيير الحِفاض.

ذنبها هي.. الذّنب كلّه ذنبها...

عادت لارج مارج، جزمتها المطّاطيّة تزقزق على أرضيّة نشارة الخشب. «أخشى أنّك قد تحتاجين إلى هذا، أنا أبقي واحداً لديّ طوال الوقت».

نزلت ليني بعينيها، فرأت العلبة الطولانية في راحة لارج مارج.

وبهذه البساطة، ازدادت حياة ليني سوءاً على سوئها.

❄

في ظلام ليلةٍ حلّت مبكّراً، شقّت ليني طريقها من المرحاض الخارجيّ إلى الكوخ تحت سماء زرقاء مخمليّة تنيرها النّجوم. كانت ليلة من ليالي ألاسكا ذات السّماء الصّافية النّابضة بالحياة، تلك الّتي تبدو من عالم آخر؛ إذْ ينعكس ضوء القمر على الثّلج، ويوقد توهّج العالم.

داخل الكوخ، أرتجت الباب خلفها، ووقفت قرب صفّ المعاطف، وكنزات الكاويتشان، والسّترات المطريّة، وصندوق القفّازات والقبّعات عند قدميها. وقفت عاجزة عن الحركة، عن التّفكير، عن الإحساس.

حتّى الآن، حتّى هذه الثّانية بعينها، كانت لتقول إنّ الأزرق هو لونها المفضّل. (فكرة غبيّة، لكن ها هي ذي). الأزرق؛ لون الصّباح، الشّفق، لون المجالد والأنهار، لون خليج كاتشيماك، وعينَي أمّها.

الآن بات الأزرق لونَ حياة مدمَّرة.

لم تدرِ ماذا تفعل، ما من جواب جيّد؛ كانت ذكيّة بما يكفي كي تدرك ذلك...

وغبيّة بما يكفي كي تكون في هذا الوضع.

- ليني؟

سمعت صوت أمّها، وميّزت النّبرة القلقة، لكنّ ذلك لم يهمّ. شعرت ليني بالمسافة تمتدّ بينهما؛ هذه هي الطّريقة التي يأتي بها التّغيير؛ افترضت: في هدأة الأشياء غير المنطوقة والحقائق المتغاضى عنها.

- «كيف حال ماثيو؟». سألتها الأمّ. اقتربت إلى ليني، نضت عنها معطفها وعلّقته، ثمّ قادتها إلى الأريكة، لكنّ واحدة منهما لم تجلس.

- «إنّه ليس هو». أجابت ليني: «لا يستطيع التّفكير، ولا الكلام، ولا المشي. لم ينظر إليّ، اكتفى بالصّراخ».

- لكنّه لم يُشَلّ على الرغم من ذلك، وهذا جيّد، صحيح؟

كان هذا ما ظنّته ليني أيضاً، في ما مضى، لكن ما يجديك أن تكون قادراً على الحركة إن لم تستطع التّفكير، ولا الرّؤية، ولا الكلام؟ ربّما كان أفضل لو مات من فوره هناك، أكثر رأفة.

لكنّ العالم لم يتحلَّ يوماً بالرّأفة، لا سيّما تجاه الأطفال.

- أعرف أنّك تظنّينها نهاية العالم، لكنّك شابّة. ستقعين في الحبّ مرّة أخرى، و... ما هذا الذي في يدك؟

مدّت ليني قبضتها، وأرخت أصابعها لتكشف عن الأنبوبة النّحيلة في يدها.

أخذتها الأمّ وتفحّصتها: «ما هذا؟».

- «اختبار حمل». قالت ليني: «الأزرق يعني نتيجة إيجابيّة».

فكّرت في سلسلة الخيارات التي قادتها إلى هنا؛ كان انحراف بمقدار عشر درجات في أيّ موضع من طريقها ليتكفّل بتغيير كلّ شيء. «لا بدّ من أنّ هذا حدث ليلة هروبنا، أو ربّما قبل ذلك، كيف نعرف أموراً كهذه؟».

- «أوه، ليني». قالت أمّها.

ما كانت ليني تحتاج إليه الآن هو ماثيو. تحتاج منه أن يكون هو، كاملاً سليماً، عندئذٍ كانا ليواجها الأمر معاً. لو أنّ ماثيو كان ماثيو، لتزوّجا ورُزقا بطفل. إنّه عام 1978 حبّاً بالله؛ ربّما لا يتعيّن عليهما حتّى أن يتزوّجا، الفكرة أنّ بمقدورهما تجاوز المحنة. سيكونان فتيّين أكثر من اللّازم، وسيتعيّن على الجامعة أن تنتظر، لكنّ الأمر لن يكون بالمأساويّة التي هو عليها الآن.

كيف لها أن تقوم بهذا دونه؟

قالت الأمّ: «لم يعد الأمر يشبه ما كان عليه في أيّامي، حين كانوا ليطردوك خزياً وتأخذ الرّاهبات طفلك. بات لديك خيارات الآن، القانون يسمح بـ...».

- «سوف أنجب طفل ماثيو». أجابت ليني. لم تعرف قبل تلك اللّحظة أنّ عقلها خاض في الأمر بكامله، وأنّها خرجت بقرار.

- لا يمكنك أن تربّي طفلاً بمفردك، هنا.

- «تقصدين مع أبي». قالت ليني، فمَثَلَ الأمر أمام عينيها: الشّيء الذي يزيد الطّين بلّة. ليني حبلى بطفل من آل ووكر، وأبوها سينفجر غضباً حين يعرف.

- «لا أريده أن يقترب على الإطلاق من هذا الطّفل». قالت ليني.

شدّتها أمّها بين ذراعيها، وعانقتها بقوّة.

- «سنجد حلّاً». قالت، وهي تمسّد لها شعرها. أحسّت ليني أنّ أمّها تبكي، وزاد ذلك من شعورها بالأسى.

- «ما هذا؟». قال الأب بصوت مدوٍّ.

هبّت الأمّ متراجعةً من موضعها، والذّنب بادٍ على محيّاها. تألّقت وجنتاها بالدّموع، وارتعدت شفتاها بابتسامة متزعزعة. «إيرنت!». قالت: «لقد عدت».

دسّت ليني الأنبوبة في جيبها.

وقف أبوها عند الباب، وأنزل سحّاب ميدعته المبطّنة: «كيف حال الفتى؟ أما يزال من الخضراوات؟».

لم يسبق لليني أن شعرت بكلّ هذه الكراهية. دفعت أمّها جانباً وذهبت نحوه، رأت المفاجأة تعتري وجهه، وهي تقترب منه وتقول: «أنا حبلى».

لم ترَ من أين أتتها الضّربة. في لحظةٍ كانت تقف مكانها، تحدّق إلى أبيها، وفي التّالية ضربت قبضتُه ذقنها بقوّة جعلتها تحسّ بطعم الدّم. انقصف رأسها إلى الخلف، تعثّرت وفقدت توازنها، ثمّ ارتطمت بالطّاولة وهوت أرضاً؛ وإذْ حطّت على الأرض، كانت تفكّر -للغرابة- وتقول لنفسها: يا لسرعته!

- «إيرنت، لا!». صرخت الأمّ.

فكّ الأب إبزيم حزامه وحرّره، ثمّ تقدّم نحو ليني.

حاولت النّهوض، لكنّ رأسها كان يطنّ، والدّوار يغلبها، وزاغ بصرها.

أوّل ضربة من إبزيم حزامه نالت منها على صفحة خدّها، فمزّقت جلدها. صاحت ليني بعالي صوتها، وحاولت الفرار.

ضربها مجدّداً.

رمت الأمّ نفسها عليه، تخرمش وجهه. دفعها بعيداً وسعى خلف ليني من جديد.

جذبها وأنهضها على قدميها، ثمّ لطمها بظهر يده على وجهها. سمعت صوت الغضروف يتصدّع ويطقّ. انساب الدّم من أنفها. ترنّحت متراجعةً إلى الخلف، تحاول حماية معدتها بالغريزة، وهي تخرّ على ركبتيها.

انطلق عيار ناريّ.

سمعت ليني الدّويّ الصّاخب، وشمّت رائحة البارود، ثمّ تشظّى الزّجاج.

وقف الأب مكانه مباعداً بين ساقيه، يده اليمنى ما تزال متكوّرةً إلى قبضة. مرّت ثانيةٌ من دون أن يحدث شيء؛ لم يأتِ أحد بحركة، ثمّ تقدّم الأب متعثّراً، نحو ليني. الدّم ينفر من جرح في صدره، ويبقّع قميصه. بدا مرتبكاً، متفاجئاً: «كورا؟!».

كانت الأمّ واقفةً خلفه، والبندقيّة ما تزال مصوّبةً إليه: «إلّا ليني». قالت بصوت ثابت: «إلّا حبيبتي ليني».

ثمّ أطلقت النّار مجدّداً.

* 24 *

- «لقد مات». قالت ليني. ليس أنّه كان ثمّة مجال كبير للشّكّ، فبوسع البندقيّة التي اختارتها أمّها أن تصرع ذكر موظ.

انتبهت ليني إلى أنّها كانت راكعةً وسط بركة من الدّم المُراق، وبدت نتف العظم والغضروف مثل اليرقات وسط الدّماء. انسلّ هواء جليديّ إلى داخل الغرفة عبر النّافذة المحطّمة.

ألقت الأمّ السّلاح. تقدّمت نحو الأب، عيناها مشرعتان، وفمها يرتعش. أخذت تحكّ عنقها بتوتّر، فاكتست البشرة الشّاحبة بخطوط حمراء.

نهضت ليني على قدميها بمشقّةٍ خشبيّة، وذهبت إلى المطبخ. كان يُفترض بها أن تقول لنفسها: نحن على ما يرام، لقد رحل، لكنّها لم تكن تشعر بشيء، ولا حتّى بالارتياح.

وجهها يؤلمها بشدّة تصيب معدتها بالغثيان. مذاق الدّم يجعلها تتهوّع، وأنفها يصدر صفيراً مع كلّ نفَس. بلّلت خرقة بالماء وضغطتها على وجهها، وراحت تمسح الدّم.

كيف استطاعت الأمّ أن تحتمل هذا الألم مراراً وتكراراً؟

غسلت الخرقة، وعصرتها من ماء دمائها الورديّ، ثمّ بلّلتها من

جديد، وعادت إلى غرفة المعيشة التي كانت تختنق بروائح دخان البارود والدّم.

كانت الأمّ جاثيةً على الأرضيّة. لقد سحبت الأب إلى حضنها وراحت تهدهده، وتهزّه، وتبكي. الدّم في كلّ مكان: على يديها، وركبتيها، حتّى إنّها طلت عينيها به.

- «ماما؟». انحنت ليني إليها ولمست كتفها.

رفعت الأمّ عينيها وكانت ترمش كأنّها مخمورة: «لم أجد طريقة أخرى لإيقافه».

- «ماذا نفعل؟». سألتها ليني.

- «شغّلي اللّاسلكيّ، واتّصلي بالشّرطة». قالت الأمّ بصوت خالٍ من الحياة.

الشّرطة.. أخيراً.. بعد كلّ هذه السّنوات، ستستعينان ببعض المساعدة: «سنكون على ما يرام، ماما. سترين».

- لا، لن نكون يا ليني.

مسحت ليني الدّم عن وجه أمّها، كما سبق أن فعلت مرّات عديدة، ولم تجفل الأمُّ بأدنى حركة. «ماذا تقصدين؟».

- سيعدّونها جريمة قتل.

- جريمة قتل؟ لكنّه كان يضربنا، أنت أنقذتِ حياتي.

- «لقد أطلقتُ النّار عليه من الخلف يا ليني، مرّتين. المحلّفون ومحامو الدّفاع لا يحبّون إطلاق النّار على النّاس في الظّهر. لا بأس، فهذا لا يهمّني».

دفعت شعرها عن وجهها، فتركت خطوط دم مكان مرور أصابعها:

«اذهبي وأخبري لارج مارج، فهي محامية، أو كانت كذلك. ستتعامل مع الأمر». بدت الأمّ كما لو كانت تحت تأثير عقار؛ نطقها بطيء: «ستحظين ببدايتك الجديدة، ستربّين طفلك هنا في ألاسكا، بين أصدقائنا. سيكون توم بمنزلة الأب لك، أوقن بذلك. ولارج مارج تحبّك كثيراً. ربّما ما تزال الجامعة ممكنة». نظرت إلى ليني: «كان الأمر يستحقّ، أريدك أن تعلمي هذا، وكنت لأكرّر فعلتي من أجلك».

– مهلاً، أتتحدّثين عن تركِكِ إيّاي؟ عن السّجن؟

– اذهبي وأحضري لارج مارج وحسب.

– لن يُزجَّ بك في السّجن جزاء قتل رجُل يعرف كلُّ من في البلدة أنّه كان معنِّفاً.

– لا آبه. أنت في أمان، وهذا كلّ ما يهمّني.

– ماذا لو تخلّصنا منه؟

رمشت الأمّ بعينيها: «نتخلّص منه؟».

– «يمكننا أن نجعل الأمر يبدو كأنّه لم يحدث». نهضت ليني على قدميها. أجل، هذا هو الحلّ؛ ستتدبّران طريقةً لمسح ما فعلتاه، ثمّ يصبح بإمكانهما أن تبقيا هنا، هي وأمّها، وتعيشا بين أصدقائهما، في هذا المكان الذي نما حبّه في فؤادهما. سينعم الطّفل بمحبّة الجميع، ثمّ حين يتحسّن ماثيو أخيراً، ستكون ليني بانتظاره.

– «ليس الأمر بهذه السّهولة يا ليني». قالت الأمّ.

– «إنّها ألاسكا. لا شيء سهل، لكنّنا أقوياء. عدا عن أنّك إن ذهبتِ إلى السّجن، سأكون بمفردي، مع طفل عليّ أن أربّيه. لا أستطيع فعل ذلك من دونك، أنا أحتاج إليك يا ماما».

مرّت لحظة قبل أن تقول الأمّ: «سيتعيّن علينا أن نخفي الجثّة، ونتأكّد من ألّا يُعثر عليها أبداً. التّربة متجمّدة أكثر من أن تسمح بدفنه».

- صحيح.

- «لكن يا ليني». قالت باتّزان: «أنت تتحدّثين عن جريمة أخرى».

- وأن أسمح بنعتكِ بالقاتلة؟ ذلك ما سيكون جريمة. أتظنّين أنّني سآمَنُ القانونَ على حياتك؟ القانون؟ أنت أخبرتني أنّ القانون لا يحمي النّساء المعنَّفات، وكنتِ محقّة. لقد خرج من السّجن خلال بضعة أيّام. متى حدث أن حماك القانون منه؟ كلّا.. كلا...

- هل أنت واثقة يا ليني؟ فهذا يعني أن يتحتّم عليك العيش مع الأمر.

- يمكنني أن أعيش معه، أنا واثقة.

استغرقت الأمّ بعض الوقت لتتفكّر، ثمّ انتزعت نفسها عن جثّة الأب الرّخوة الدّامية، ونهضت واقفة. دخلت إلى حجرة نومها وخرجت بعد لحظات ترتدي بنطالاً مبطّناً وكنزة بياقة ضيّقة عالية. رمت ثيابها الملطّخة بالدّماء في كومة عند جثّة الأب: «سأعود بأسرع ما أستطيع، لا تفتحي الباب لأيّ أحد غيري».

- ماذا تقصدين؟

- الخطوة الأولى هي أن نتخلّص من الجثّة.

- أتظنّين أنّني سأكتفي بالجلوس هنا فيما تفعلين ذلك؟

- أنا من قتلته، وأنا سأفعل هذا.

- وأنا سأساعدك في التّغطية على الأمر.

- ليس لدينا وقت للجدال.

- «بالضّبط». تجرّدت ليني من ثيابها الدّامية، وخلال لحظات كانت

قد ارتدت بنطالها المبطّن، ومعطفها، وانتعلت جزمة الأرنب مستعدّةً للانطلاق.

- «أحضري فخاخه». قالت الأمّ، وغادرت الكوخ.

جمعت ليني الفخاخ الثّقيلة عن علّاقاتها فوق جدار الكوخ، وحملتها إلى الخارج. كانت الأمّ قد وصلت المزلجة البلاستيكيّة الحمراء الكبيرة بماكينة الثّلج، المزلجة التي اعتاد الأب أن يستخدمها لنقل الخشب؛ بمقدورها حمل صندوقَي تبريد كبيرين، والكثير من الخشب المقطوع، وجثّة موظ.

- «افردي الفخاخ على المزلجة، ثمّ اذهبي وأحضري المنشار الآلي وآلة الحفر».

عندما عادت ليني بالأدوات، قالت أمُّها: «هل أنت مستعدّة للمرحلة التّالية؟».

أومأت أن نعم.

- فلنذهب ونحضره.

استغرقتا ثلاثين دقيقة لجرّ جسد الأب الخالي من الحياة من الكوخ فوق المصطبة المكسوّة بالثّلج، ثمّ عشر دقائق أخرى لتثبيته فوق المزلجة. ارتسم خطّ من الدّماء على الثّلج يكشف مسارهما، لكن في غضون ساعة -مع استمرار تساقط الثّلج بهذه الغزارة- سيكون قد اختفى. وإذْ يجيء الرّبيع، ستغسله الأمطار وتذهب به بعيداً. غطّت الأمّ الأب بمشمّع، وثبّتت الجسد وغطاءه بحبال مطّاطيّة.

- حسناً إذنْ.

تبادلت ليني نظرةً مع أمّها، نظرةً تنطوي على الحقيقة القائلة بأنّ

حياتهما، بعد هذا التّصرف، وهذا القرار؛ ستتغيّر إلى الأبد. ومن دون كلام منحت الأمّ ليني الفرصةَ كي تغيّر رأيها.

لم تتزحزح الفتاة، إنّها ثابتة على موقفها. ستتخلّصان من الجثّة، وتنظّفان الكوخ، وتخبران الجميع أنّه تركهما، تقولان إنّه لا بدّ من أنّه سقط عبر الجليد في أثناء الصّيد، أو ضلّ طريقه في الثّلوج. لا أحد سيشكّك، أو يلقي بالاً، فالجميع يعلمون أنّ ثمّة ألف طريقة للاختفاء في هذه الأرجاء.

ستتخلّص ليني وأمّها أخيراً - أخيراً- من خوفهما.

- حسناً إذنْ.

شغّلت الأمّ ماكينة الثّلج، ثمّ اتّخذت مكانها فوق المقعد المخصّص لشخصين وقبضت على المِقوَد. وضعت كمامة نيوبرين على وجهها المتورّم المغطّى بالكدمات، ثمّ اعتمرت خوذتها بحذر شديد، وفعلت ليني الشّيء نفسه. «سيواجهنا برد لا يرحم». هتفت الأمّ ترفع صوتها فوق هدير المحرّك: «لأنّنا سنصعد إلى الجبل».

صعدت ليني على المتن، وأحاطت خصر أمّها بذراعيها.

زادت الأمّ دورات المحرّك فانطلقتا، تقودان عبر الثّلج البكر، منسلّتين من البوّابة المفتوحة. انعطفتا يميناً على الطّريق الرّئيسيّ، ثمّ يساراً على الطّريق الذي يتّجه صاعداً نحو منجم الكروم القديم. بحلول ذلك الوقت، كان اللّيل عميقاً، والثّلج عاصفاً، والبرد طاغياً، والخيوط الصّفراء الصّادرة عن المصباح الأماميّ لماكينة الثّلج تقود الطّريق.

في مثل هذا الطّقس، لم تكونا بحاجة إلى القلق كثيراً من أن يراهما أحد. ولأكثر من ساعتين، ظلّت الأمّ تقود في طريق صاعد على الجبل،

تخفّف لمستها على مقبض المقود حيث يكون الثّلج عميقاً. سارت الماكينة بهما صاعدةً سفوحاً، وهابطةً ودياناً، عبرت أنهاراً متجمّدة، ودارت حول جروف صخريّة شاهقة. أبقت الأمّ سرعة الماكينة منخفضةً إلى درجة بالكاد أسرع من السّير على الأقدام؛ فالسّرعة ليست هدفهما الآن، بل الاحتجاب عن الأنظار، كما ينبغي بالمزلجة أن تظلّ ثابتة.

وصلتا أخيراً إلى بحيرةٍ صغيرةٍ في موضعٍ مرتفعٍ من الجبل، تحيط بها الأشجار العالية والجروف. كان هطول الثّلج قد توقّف في وقتٍ ما من السّاعة الماضية، وانفسحت الغيوم لتكشف عن سماء ليل زرقاء مخمليّة تغسلها دوّامات من ضوء النّجوم. طلع القمر، كأنّه يريد أن يشاهد المرأتين وسط كلّ هذا الثّلج والجليد، أو أن يندب خياراتهما. مكتملاً وساطعاً، أرسل ضوءه عليهما، فانعكس على الثّلج كأنّه يعود ليرتدّ نحو السّماء وهجاً مشعّاً ينير المشهد الثّلجيّ برمّته.

في هذا الصّفاء اللّيليّ المباغت، باتتا مرئيّتين؛ امرأتان فوق ماكينة ثلج في عالم متوهّج بالأبيض الفضّيّ برفقة جثّة هامدة على مزلجة.

عند شطّ البحيرة المتجمّد، خفّفت الأمّ السّرعة، حتّى توقّفت الماكينة مرتعشة. طنين الحشرات المنبعث من المحرّك كان أعلى ضوضاء هنا، وطغى على الصّوت الخشن لتنفّس ليني من خلف كمامة النيوبرين والخوذة.

هل البحيرة متجمّدة بالكامل؟ ما من طريقة للتّأكّد من ذلك. يجدر بها أن تكون، عند هذا المستوى من الارتفاع، لكنّ الوقت ما يزال مبكّراً كذلك، فالشّتاء لم ينتصف بعد. أخذ الثّلج يشعّ بضوء القمر في أنحاء البحيرة المسطّحة المتجمّدة.

أحكمت ليني قبضتها.

بالكاد فتلت الأمّ مقبض المقود، ثمّ تقدّمت إلى الأمام قليلاً. في هذا الظّلام، كانتا مثل رائدتي فضاء، تتحرّكان وسط عالمٍ غريبٍ ذي إضاءةٍ مستحيلةٍ، مثل أعمق مجاهل الفضاء، وصوت طقطقة الجليد يحيط بهما من كلّ صوب. في مركز البحيرة، أطفأت الأمّ المحرّك، فانزلقت الماكينة حتّى توقّفت، وترجّلت الأمّ. كان صوت التّصدّع عالياً، مُلحّاً لا يكلّ، لكن ليس من النّوع الذي يشغل البال. ليس سوى أنّ الجليد يتنفّس، ويتمدّد؛ لا يتكسّر.

نزعت الأمّ خوذتها، وعلّقتها على المقود، ثمّ أزالت الكمامة، فخرجت أنفاسها في غيوم رطبة. وضعت ليني خوذتها على مقعد الفينيل المرمّم بالشّريط اللّاصق.

في ضوء القمر الفضّيّ الأزرق الأبيض، تألّقت بلّورات الجليد الكريستاليّة فوق سطح الثّلج تلمع مثل أحجار كريمة.

سكون.

لا شيء إلّا تنفّسهما.

جرّتا جثّة الأب عن المزلجة معاً، واستخدمت ليني رفش الطّوارئ لتحفر حفرةً صغيرة في الثّلج. حين وصلت إلى الجليد الزّجاجيّ الفضّيّ، أعادت الرّفش إلى مكانه، وأخذت آلة الحفر والمنشار الآلي. استخدمت الأمّ الآلة لتُحدث حفرةً بعمق ثمانية إنشات في الجليد، فنزّ الماء نصف الذّائب من الأسفل، وتقلقل قرص الجليد المستدير.

نزعت ليني كمامتها ودسّتها في جيبها، ثمّ دوّرت المنشار الآلي، وكان أنينه صاخباً على نحو لا يطاق هنا.

وجّهت النّصل إلى الأسفل، وأقحمته في الحفرة، ثمّ باشرت العمل الطّويل المضني لتحويل الحفرة إلى فتحةٍ مربّعةٍ كبيرةٍ في الجليد.

حين أتمّت ليني عملها، كان العرق يتفصّد منها بغزارة. ألقت الأمّ الفخاخ قرب الحفرة، فحطّت بصلصلة معدنيّة.

ثمّ عادت لإحضار الأب. أحكمت القبض على يديه البيضاوين الباردتين، وجرّته إلى الحفرة، ثمّ ركّنته قربها.

كانت جثّة الأب متيبّسة وهامدة، ووجهه أبيض وقاسياً مثل منحوتةٍ من عاج.

للمرّة الأولى، فكّرت ليني بحقّ في ما تفعلانه، في الأمر الشّنيع الّذي أقدمتا عليه. من الآن فصاعداً، سيتعيّن عليهما أن تعيشا مع معرفتهما أنّهما امتلكتا القدرة على هذا، على هذا كلّه: إطلاق النّار، حمل رجُلٍ ميّتٍ، تغطية جريمة. على الرغم من أنّهما أمضتا حياةً كاملةً تتستّران على أفعاله، وتشيحان بوجهيهما، وتدّعيان، كان هذا أمراً مختلفاً. الآن، باتتا المجرمتين، والسّرّ الذي على ليني أن تحميه هو سرّها.

يُفترض بالشّخص الصّالح أن يشعر بالعار؛ بيد أنّها كانت غاضبة عوضاً عن ذلك، تكاد تعوي غضباً.

ليتهما غادرتا قبل سنوات، أو اتّصلتا بالشّرطة، وطلبتا المساعدة. كان من شأن أيّ تصحيح مسار من طرف الأمّ أن يؤول بهما إلى مستقبلٍ لا تقفان فيه وبينهما رجُل ميّت فوق الجليد.

فتحت الأمّ الفخاخ بمشقّة، وفرّقت فكوكها السّوداء عن بعضها. دفعت عضد الأب إلى داخل الشّرَك، فانغلق الفخّ بطقّة تكسير عظام، وشحب وجهها مكتسياً بالغثيان. نهشت الفخاخ كلتا ساقي الأب وكسرتهما -بطقطقة مسموعة- فصارت أثقالاً.

ظهرت أضواء الشّمال القطبيّ في الأعالي، تنثال في دوّامات من الأصفر، والأخضر، والأحمر، والأرجوانيّ؛ ألوان سحريّة مستحيلة، أضواء تتساقط كالأوشحة الحريريّة في عرض السّماء، شِلل من الأصفر، والأخضر النّيونيّ، والورديّ الصّادم، وبدا القمر الكهربائيّ السّاطع كأنّه يراقب كلّ هذا.

أطرقت ليني تحدّق في أبيها. رأت الرّجُل الذي كان يستخدم قبضتيه حين يغضب، رأت الدّماء على يديه، والانطباق الخبيث لفكّه. لكنّها رأت الرّجُل الآخر كذلك، ذلك الذي نحتته من الصّور الفوتوغرافيّة، ومن حاجتها الخاصّة، الذي أحبّهما قدر ما استطاع، وقدرتَه على الحبّ التي دمّرتها الحرب. فكّرت ليني أنّه قد يطاردها ويؤرّق فكرها. ليس هو وحسب، بل الفكرة التي يمثّلها، الحقيقة الحزينة والمخيفة التي تقول إنّ بوسعك أن تحبّ وتكره الشّخص نفسه في الوقت نفسه، بوسعك أن تشعر بفقد عميق دائم، وخزيٍ من ضعفك، وتظلّ مسروراً لأنّ هذا الأمر الفظيع قد أُنجِز.

هوت الأمّ على ركبتيها بجواره، وانحنت نحوه: «لقد أحببناك».

رفعت عينيها إلى ليني، تريد -وربّما تحتاج- منها أن تقول الشّيء نفسه، أن تفعل ما كانت تفعله على الدّوام. حبّتا بازلّاء في قرن واحد.

كلّ ذلك قابع بينهما الآن؛ سنوات من الصّراخ والضّرب، من الخوف... والبسمات والضّحك، الأب يقول: هيّا يا صهباء، ويتوسّل الغفران.

- «وداعاً يا أبي». كان ذلك كلّ ما استطاعت ليني أن تستحضره. ربّما، مع الزّمن، لن تكون هذه آخر ذكرياتها عنه؛ ربّما مع الزّمن ستتذكّر كيف كانت تشعر حين يمسك بيدها، أو يحملها على كتفيه، ويسير بها على طول منتزه ستراند.

دفعته الأمّ فوق الثّلج، والفخاخ تطقطق، إلى داخل الحفرة المفتوحة. غطس جسده، وارتدّ رأسه إلى الخلف.

وجهه شاخص نحوهما، حجر كريم منقوش في المياه السّوداء الباردة، البشرة بيضاء في ضوء القمر، وقد تجمّدت اللّحية والشّاربان. ببطء، ببطء راح يغرق في الماء، ثمّ اختفى.

لن يكون ثمّة أثر له في الغد، سيلتئم الجليد قبل أن يجيء أيّ شخص آخر إلى هنا بوقت طويل، وستكون جثّته قد غارت إلى قاع البحيرة بفعل الفخاخ الثّقيلة. بمرور الوقت، سيتهرّأ بسبب الماء، ولن يبقى منه سوى العظام، قد تنجرف العظام إلى الشّاطئ، لكنّ الحيوانات المفترسة ستعثر عليها غالباً قبل السّلطات. وبحلول ذلك الوقت، لن يكون هناك من يتابع البحث على أيّة حال. خمسة من بين كلّ ألف مفقود في ألاسكا سنويّاً يضيعون إلى الأبد، وهذه حقيقة معروفة. يسقطون في الصّدوع، يضلّون طريقهم في الشِّعاب، يغرقون في المدّ المرتفع.

ألاسكا.. العزلة الهائلة...

- «أتعرفين ماذا تجعلنا فعلتُنا هذه؟». قالت الأمّ.

وقفت ليني بجانبها، تتخيّل منظر جسد أبيها الشّاحب المتخشّب يضيع في قلب الظّلام؛ أكثر شيء كان يكرهه على الإطلاق. «ناجيتين». أجابت ليني. ولم تغفل عن المفارقة السّاخرة؛ فهذا ما أراد أبوها لهما أن تكوناه.

ناجيتان.

❄

ظلّت ليني تكرر ما حدث في ذهنها، فترى آخر لمحة حظيت بها من وجه أبيها قبل أن تبتلعه المياه السّوداء. هذه الصّورة ستطاردها بقيّة حياتها.

حين عادتا أخيراً إلى الكوخ، مرهقتين وقد تسرّب البرد إلى عظامهما، تعيّن على ليني وأمّها نقل الحطب إلى الدّاخل لتلقيم النّار. رمت ليني قفّازيها إلى ألسنة اللّهب، ووقفت هي وأمّها أمام النّار، أيديهما المرتعشة ممدودة إلى الحرارة، وكم ظلّتا على تلك الحال؟

من يدري؟ لقد فقد الوقت معناه.

كانت ليني تحدّق فاقدةً الإحساس إلى الأرضيّة. ثمّة شظية عظم قرب قدمها، وأخرى على طاولة القهوة. سيستغرق تنظيف كلّ هذا اللّيل بأكمله، وهي تخشى أنّ الدّم -حتّى لو مسحتاه- سينزّ عائداً في فقاعات تنبجس من الخشب مثل قصص الرّعب، لكن عليهما أن تبدأا العمل.

- «علينا أن ننظّف المكان، سنقول إنّه اختفى». قالت ليني.

عبست الأمّ، وعضّت على شفتها السّفليّة بقلق: «اذهبي وأحضري لارج مارج، أخبريها بما فعلت». نظرت إلى ليني: «أتسمعينني؟ أخبريها بما فعلته أنا».

أومأت ليني وتركت أمّها وحدها لتبدأ بالتّنظيف.

في الخارج، كان الثّلج قد أخذ يتساقط خفيفاً من جديد، وازداد العالم ظلاماً، تكسوه طبقات من الغيوم. سارت ليني بخطوات ثقيلة إلى ماكينة الثّلج وركبتها. رقاقات الثّلج الخفيفة الشّبيهة بزغب الإوزّ تتساقط، وتغيّر اتّجاهها مع الرّيح. في ملكيّة لارج مارج، انعطفت ليني يميناً، واندفعت داخل أيكة أشجار، تقود وفق مسار ملتفّ صنعته آثار العجلات على الثّلج.

وصلت آخر المطاف إلى فسحة: صغيرة بيضويّة الشّكل تطوّقها أشجار بيضاء باسقة. منزل لارج مارج كان عبارة عن كوخ يورت(*) مشيّد

(*) اليورت: مسكن تقليديّ هو عبارة عن خيمة دائريّة متنقّلة مكسوّة بالجلود أو اللّبّاد، ينتشر استخدامها بين القبائل البدويّة في سهوب آسيا الوسطى. (المترجم)

من القماش والخشب. ومثل جميع منتهجي حياة الاكتفاء الذّاتيّ، كانت لارج مارج تحتفظ بكلّ شيء، لذا كان فناؤها ممتلئاً بأكوام وأكوام من الخردة التي غطّتها الثّلوج.

ركنت ليني أمام اليورت وترجّلت. كانت تعلم أنّها ليست بحاجة إلى أن تجهر بالتّحيّة، فضوء المصباح الأماميّ وصوت ماكينة الثّلج كانا قد أعلنا عن وصولها.

ولم تستغرب حين فُتح باب اليورت بعد دقيقة، وخرجت منه لارج مارج ترتدي دثار صوف مثل شملةٍ ضخمة حول جسدها. ظلّلت عينيها بيدها لتحميهما من الثّلج المتساقط: «ليني؟ أهذا أنت؟».

- أجل.

- «ادخلي، ادخلي». قالت لارج مارج تشير لها بالدّخول بيدها.

صعدت ليني العتبات بسرعة ودلفت إلى الدّاخل.

كان داخل اليورت أكبر ممّا بدا من الخارج، ونظافته شديدة. القناديل تشعّ بضوء زبديّ، ومدفأة الحطب تدلق الحرارة وترسل دخانها عبر ماسورة معدنيّة تنتأ من فتحةٍ أُحدِثَت بعنايةٍ عند ذروة قبّة اليورت.

الجدران مشيّدة من ألواح خشب رفيعة متصالبة وفق نموذج معقّد، والقماش يمتدّ مشدوداً خلفها مثل تنّورة مقوّمة بهيكل معدنيّ محكم. السّقف المقبّب مدعّم بالعوارض، والمطبخ بالحجم الكامل، وغرفة النّوم في الأعلى ضمن علّيّة تشرف على منطقة المعيشة. الآن، في الشّتاء، جوّ المنزل حميميّ وملموم؛ أمّا في الصّيف فلا شكّ أنّها تفتح سحّابات النّوافذ القماشيّة لتكشف عن مناخل تفسح المجال لدخول حُزم كبيرة من الضّوء. كانت الرّيح تضرب القماش بصوت مكتوم.

ألقت لارج مارج نظرةً واحدةً على وجه ليني المكسوّ بالكدمات وأنفها المهروس، على الدّم الجافّ فوق وجنتيها، وقالت: «ابن العاهرة». ضمّت ليني في عناق شديد، وظلّت متشبّثة بها.

- «كان الأمر سيّئاً اللّيلة». قالت ليني في النّهاية، وهي تفكّ نفسها. كانت ترتجف، لعلّها بدأت تستوعب الأمر أخيراً؛ لقد قتلتاه، كسّرتا عظامه، وألقتاه في الماء...

- هل كورا...؟

- «لقد مات». قاطعتها ليني بهدوء.

- «حمداً لله». قالت لارج مارج.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ماما...

- لا تقولي لي أيّ شيء، أين هو؟

- اختفى.

- وكورا؟

- في الكوخ. قلتِ إنّك ستساعديننا، وأظنّنا نحتاج إلى ذلك الآن -كما تعلمين- كي ننظّف الآثار، لكنّني لا أريدك أن تتورّطي في المتاعب.

- لا تقلقي بشأني. اذهبي إلى المنزل، سأكون هناك خلال عشر دقائق.

كانت لارج مارج قد بدأت تغيير ملابسها بالفعل حين غادرت ليني اليورت.

عندما عادت إلى الكوخ، وجدت أمّها تقف بعيداً عن بركة الدّم والبقايا، مُطرقةً تحدّق إليها، الدّموع تنهب وجهها، وهي تقضم ظفر إبهامها المتشقّق.

- «ماما؟». قالت ليني، تكاد تخشى أن تلمسها.

- ستساعدنا؟

وقبل أن تتمكّن ليني من الإجابة، رأت شعاع ضوء يومض على النّافذة ويُفقدها بريقها قبل أن يصبّ سطوعه على الأمّ. شاهدت ليني أسى أمّها وندمها يَسوْدان هالةَ الصّورة.

دفعت لارج مارج باب الكوخ ودخلت، ترتدي ميدعة كارهارت مبطّنةً، وتعتمر قبّعة فرو ابن عرس خاصّتها، وتنتعل جزمة من الفراء تبلغ ركبتيها. ألقت نظرة سريعة مسحت بها الأنحاء، فرأت الدّم المتخثّر ونتف العظم.

اتّجهت إلى الأمّ، ولمستها برفق على كتفها.

- «لقد هاجم ليني». قالت الأمّ: «اضطررت أن أطلق النّار عليه، لكن... أطلقت عليه في الظّهر يا مارج، مرّتين. كان أعزل، تعرفين معنى هذا».

تنهّدت لارج مارج: «أجل، هم لا يلقون بالاً لما يفعل الرّجُل، أو كم تكونين خائفة».

- كبّلناه بالأثقال وألقيناه في البحيرة، لكن... تعرفين كيف يُعثَر على الأشياء في ألاسكا. فكلّ شيء يخرج إلى وجه الأرض خلال فسحة الرّبيع.

أومأت لارج مارج برأسها.

- «لن يعثروا عليه أبداً». قالت ليني: «سنقول إنّه هجر البيت».

قالت لارج مارج: «ليني، اذهبي إلى الأعلى وضّبي حقيبة صغيرة، تكفي لمبيت اللّيلة».

- «يمكنني أن أساعد في التّنظيف». قالت ليني.

- «اذهبي». كرّرت لارج مارج بصرامة.

صعدت ليني ودخلت إلى العلّيّة، ومن خلفها، سمعت أمّها ولارج مارج تتحدّثان بصوت خفيض.

اختارت ليني ديوان شعر روبرت سيرفس لتأخذه معها من أجل اللّيلة، وأخذت أيضاً الألبوم الذي أهداها إيّاه ماثيو، وصار الآن ممتلئاً بصورها المفضّلة.

دفعتهما إلى قعر حقيبة ظهرها، بجانب آلة تصويرها العزيزة، وغطّت كلّ ذلك ببضع قطع ملابس، ثمّ نزلت إلى الأسفل.

كانت أمّها قد انتعلت جزمة الأب الثّلجيّة، وأخذت تسير عبر بركة الدّم تاركةً أثراً وراءها حتّى الباب. وعند عتبة النّافذة، ضغطت بيدها الملطّخة بالدّم على الزّجاج.

- «ماذا تفعلين؟». سألتها ليني.

- «نتأكّد من أن تعرف السّلطات أنّ أمّك وأباك كانا هنا». أجابتها لارج مارج.

خلعت الأمّ جزمة الأب، وانتعلت جزمتها، ثمّ أحدثت المزيد من الآثار الدّامية. وبعد ذلك، أخذت أحد قمصانها، ومزّقته، ثمّ ألقته على الأرض.

- «أوه». قالت ليني.

- «بهذه الطّريقة سيعرفون أنّه مسرح جريمة». وضّحت لارج مارج.

- «لكنّنا سننظّف كلّ شيء». قالت ليني.

- «كلّا يا فتاتي الصّغيرة، علينا أن نختفي». قالت الأمّ: «الآن، اللّيلة».

- «مهلاً». قالت ليني: «ماذا؟ سنقول إنّه هجرنا، النّاس سيصدّقون ذلك».

تبادلت لارج مارج والأمّ نظرة حزينة.

- «النّاس يُفقَدون في ألاسكا طيلة الوقت». أردفت ليني، وصوتها يحتدّ.

- «ظننتُكِ فهمتِ». ردّت الأمّ: «لم يعد بإمكاننا البقاء في ألاسكا بعد هذا».

- ماذا؟

- «لا نستطيع البقاء». قالت الأمّ، برفق، لكن بحسم: «لارج مارج توافقني الرّأي. حتّى لو كان بإمكاننا الادعاء بأنه دفاع عن النّفس، لم يعد ذلك متاحاً الآن؛ فقد تسترنا على الجريمة».

- «القصد الجرميّ». قالت لارج مارج: «لا دفاع للنّساء المعنَّفات اللّاتي يقتلن أزواجهنّ، على الرغم من أحقّيتهنّ التّامّة في الحصول عليه، بحقّ الجحيم. ربّما تؤكّدين حالةَ دفاعكِ عن طرف ثالث، فيمرّ الأمر بسلام، وربّما تجري تبرئتك -إن اقتنعت هيئةُ المحلّفين أنّ استخدام القوّة المميتة كان منطقيّاً- لكن أتودّين حقّاً خوض هذه المخاطرة؟ القانون ليس ذا نفع لضحايا العنف المنزليّ».

أومأت الأمّ: «سوف تترك مارج الشّاحنة مركونة في مكان ما، والدّم يلطّخ قمرة القيادة. وفي غضون بضعة أيّام، تبلّغ عن فقداننا وتقود الشّرطة إلى الكوخ. سيستنتجون -كما نأمل- أنّه قتلنا كلتينا ولاذ بالاختفاء. مارج وتوم سوف يخبران الشّرطة أنّه معنِّف مؤذٍ».

- «أمّك وأبوك يتشاركان الزّمرةَ الدّمويّة نفسها». أضافت لارج مارج: «ما من فحص حاسم يمكنه تحديد صاحب الدّم. على الأقلّ، هذا ما آمله».

- «أريد أن أقول إنّه هرب». أصرّت ليني بعناد: «أنا أعني هذا يا ماما، أرجوكِ. ماثيو هنا».

- «حتّى في الأحراش، سيتحرّون عن اختفاء رجُل محلّيّ يا ليني».

قالت لارج مارج: «ألا تذكرين كيف اجتمع الكلّ للبحث عن جينيفا ووكر؟ سيكون الكوخ أوّل مكان يبحثون فيه، وماذا ستقولين عن النّافذة المحطّمة بطلق ناريّ؟ أنا أعرف كيرت وارد، هو شرطيّ يلتزم بالقانون نصّاً، لا أستبعد أن يحضر كلباً، أو يستدعي محقّقاً من أنكوراج. مهما أحسنّا التّنظيف، قد يظلّ دليل هنا. شظيّة عظم بشريّ، أو شيء ما يدلّ على هويّة أبيك. إن عثروا على ذلك، سيعتقلونكما كلتيكما بتهمة القتل».

اقتربت الأمّ من ليني: «أنا آسفة يا فتاتي الصّغيرة، لكنّك أنتِ من أراد هذا. كنتُ مستعدّة لتحمّل الجريرة وحدي، بيد أنّك لم تتركيني. لقد خضنا في الأمر معاً الآن».

شعرت ليني أنّها تسقط سقوطاً حرّاً. من سذاجتها، ظنّت أنّ بوسعهما الإقدام على هذه الفعلة الشّائنة من دون دفع ثمن يتجاوز إغراق روحيهما في الظّلام، والذّكريات، والكوابيس.

لكنّ الأمر سيكلّف ليني كلّ شيء أحبّته؛ ماثيو.. وكانِك.. وألاسكا...

- ليني، لم يعد أمامنا خيار الآن.

- «ومتى كان لدينا خيار أصلاً؟». قالت ليني.

أرادت أن تصرخ وتبكي وتتصرّف كالطّفلة التي بدا أنّها لم تكنها يوماً. لكن إن كان صباها وعائلتها قد علّماها شيئاً، فهو كيف تنجو.

أمّها على حقّ؛ ما من سبيل إلى التّستّر على هذا الدّم، وسيكون بوسع الكلاب والشّرطة أن يشمّوا الجريمة. ماذا لو كان لدى أبيها موعد في الغد لا تعلمان عنه واتّصل أحد ما بالشّرطة ليبلّغ عن فقدانه قبل أن تتجهّزا؟ ماذا لو انزلقت جثّته وتحرّرت من أغلالها فطفت إلى الشّاطئ عند ذوبان الماء وعثر عليه صيّاد ما؟

كالعادة، كان على ليني أن تفكّر في الأشخاص الذين تحبّهم.

أمّها تلقّت كلّ تلك الضّربات لتحميها، بل وأطلقت النّار على أبيها كي تنقذها. ليس لها أن تترك أمّها وحدها الآن، فارّةً من العدالة، كما أنّها لا تستطيع تربية طفلها بمفردها. شعرت بحزن غامر، حسٌّ خانق كما لو كانت قد ركضت خطّ ماراثون كاملاً لا لشيء إلّا لينتهي بها المطاف إلى مكانها نفسه.

على الأقلّ ستكونان معاً، اثنتاهما، كعهدهما الدّائم، وسيحظى الطّفل بفرصة في شيء أفضل.

- «حسناً». التفتت إلى لارج مارج: «ماذا سنفعل؟».

أُنفِقت السّاعة التّالية على التّفاصيل الأخيرة: قُمن بركن الشّاحنة على جانب الطّريق، ولطّخن مسكة الباب بالدّم. قلبن الأثاث، وتركن زجاجة ويسكي فارغة، وأطلقت لارج مارج النّار مرّتين على الجدران الخشبيّة، ثمّ تركن باب الكوخ مفتوحاً للحيوانات كي تدخل وتعيث المزيد من الفساد ممعنةً في طمس أيّ دليل باقٍ.

- «هل أنت جاهزة؟». سألتها أمّها في النّهاية.

ودّت ليني لو تقول: لا، لستُ جاهزة، فأنا أنتمي إلى هنا. لكنّ الأوان كان قد فات على انتشال الماضي من الخراب، لذا أومأت بتجهّم.

حضنتهما لارج مارج كلتيهما بقوّة، وقبّلت خدودهما المبلّلة، وتمنّت لهما حياةً طيّبة. «سوف أبلّغ عن فقدانكما». همست في أذن ليني: «لن أخبر كائناً عن هذا مهما حدث، يمكنك الوثوق بي».

وفيما كانت ليني تنزل هي وأمّها على درجات شاطئهم المتعرّجة لآخر مرّة، تحت هطول ثلجيّ يعشي الأبصار، شعرت الصّبيّة كأنّ عمرها ألف سنة.

تبعت أمّها على الشّاطئ المكسوّ بالثّلج والوحل نصف الذّائب؛ الرّيح تجلد عينَي الأمّ بشعرها، وتجرّد صوتها من جهارته، وتعبث بالحقيبة على ظهرها. خمّنت ليني أنّ أمّها تكلّمها، لكنّها لم تستطع سماع الكلمات، ولم تعبأ بذلك. راحت تخوّض في الأمواج الجليديّة نحو القارب، ألقت حقيبتها على متنه، وتسلّقت إليه، ثمّ جلست على المقعد الخشبيّ الطّويل. على الشّاطئ، لن يلبث الثّلج المتساقط حتّى يمسح كلّ أثر لمسيرهما؛ كما لو أنّهما لم تكونا هنا من الأساس.

قفزت الأمّ إلى المتن. ومن دون أضواء ترشدهما، قادت المركب بطيئاً بمحاذاة الشّاطئ، محكمةً قبضتيها المكسوّتين بقفّازين حول المقود، وشعرها يتطاير في كلّ اتّجاه.

انعطفتا عند الالتواء فيما يومض فجرٌ جديدٌ يريهما طريقَهما.

❄

توقّفتا أمام الرّصيف المؤقّت في هومر.

- «عليّ أن أودّع ماثيو». قالت ليني.

قذفت أمّها حبلاً إليها: «مستحيل! يجب أن نذهب. كما أنّه لا يمكن لأحد أن يرانا اليوم، تعلمين هذا».

ربطت ليني الحبل لتثبّت القارب: «لم يكن سؤالاً».

مدّت الأمّ يدها إلى حقيبتها وحملتها، ثمّ ثبّتتها على ظهرها. وبأناة، ترجّلت ليني عن المركب إلى الرّصيف المكسوّ بالجليد، فأصدرت الحبال المتوتّرة صريراً.

أطفأت أمّها المحرّك، ونزلت من القارب، ووقفتا معاً تحت الثّلج الذي يتساقط بنعومة.

أخرجت ليني وشاحاً من حقيبتها، ولفّت به عنقها، مغطّيةً النّصف السّفليّ من وجهها: «لن يراني أحد يا ماما، لكنّني ذاهبة».

- «كوني عند طاولة الدّخول في غلاس ليك خلال أربعين دقيقة». أجابتها أمّها: «ولا دقيقة أكثر، اتّفقنا؟».

- سنسافر جوّاً؟ كيف؟

- فقط كوني هناك وحسبك.

أومأت ليني. في الحقيقة، لم تكن مهتمّةً بالتّفاصيل، كلّ ما تستطيع أن تفكّر فيه هو ماثيو. حملت حقيبة ظهرها وانطلقت، تسير بأقصى سرعة تجرّأت عليها فوق جليد الرّصيف. في هذا الوقت المبكّر من صباحٍ نوفمبريّ بارد ومثلج، لم يكن ثمّة أحد في الخارج ليراها.

وصلت إلى دار التّمريض وأبطأت سيرها. هنا ينبغي لها أن تتوخّى الحذر، لا يمكنها أن تترك أحداً يراها.

انفتح الباب الزّجاجيّ أمامها بصوت حفيف.

في الدّاخل، شمّت رائحة المطهّرات وشيئاً آخر، رائحة معدنيّة قابضة. عند المكتب الأماميّ امرأة تتحدّث في الهاتف، لم تبادر حتّى إلى رفع رأسها حين فُتح الباب. انسلّت ليني إلى الدّاخل، وهي تقول لنفسها: كوني خفيّة... كانت الممرّات هادئة في هذا الصّباح الباكر، وأبواب المرضى مغلقة. وعند غرفة ماثيو توقّفت قليلاً، شحذت عزمها، وفتحت الباب.

السّكون يخيّم على غرفته، والظّلام. ما من أصوات ضغط هواء، أو تكتكة تصدر عن أجهزة، لا شيء يمدّه بالحياة إلّا قلبه الضّخم.

لقد ضبطوا وضعيّته بحيث نام جالساً، رأسه محاصر داخل ذلك الشّيء الشّبيه بالهالة الذي رُبط بصدريّة كي يمنعه عن الحركة. بدت أوصال وجهه

المكسوّ بندوب ورديّة كأنّها دُرزت ببعضها بوساطة آلة خياطة. كيف يمكن أن يعيش هكذا، مقطّباً، مركّباً بالبراغي، لا يقدر أن يتكلّم، أو يفكّر، أو يلمس، أو يُلمس؟ وكيف لها أن تتركه يمرّ بهذا من دونها؟

ألقت حقيبتها على الأرضيّة واقتربت من السّرير، ثمّ مدّت يدها إلى يده. بشرته، الّتي كانت ذات زمان خشنة من تنظيف السّمك وإصلاح معدّات المزرعة، باتت الآن ناعمة كبشرة فتاة. لم تستطع منع نفسها عن التّفكير في أيّامهما في المدرسة، حين كانا يُشابكان الأيدي تحت طاولة المقعد، ويتبادلان الرّسائل جيئةً وذهاباً، ويظنّان أنّ بوسعهما امتلاك العالم.

- «كنّا لنستطيع أن نفعلها يا ماثيو. كنّا لنستطيع أن نتزوّج ونحظى بطفل مبكّراً جدّاً ونظلّ غارقين في الحبّ». أغمضت عينيها وتخيّلت ذلك، تخيّلت نفسيهما. كانا ليتمكّنا من مغالبة السّنين وبلوغ خريف العمر، فيكونا زوجاً عجوزاً بشعر أشيب في ملابس عفا الزّمن على طرازها، جالسَين على مصطبة تحت شمس منتصف اللّيل.

كنّا لنستطيع...

كلمات عقيمة، فات الأوان عليها.

- «لا يمكنني أن أترك أمّي وحدها، وأنت لديك أبوك، وعائلتك، وألاسكا». انكسر صوتها في هذه النّقطة: «أنت لا تعرف من أكون على أيّة حال، أليس كذلك؟».

انحنت مقتربةً منه أكثر، وانطبقت يدها حول يده بشدّة. حطّت الدّموع على وجنته وعلقت عند النّسيج الورديّ المتندّب النّافر.

ما كان ساموايز غامجي ليترك فرودو بمثل هذه الحال أبداً، ما من

بطل يمكن أن يفعل هذا، لكنّ الكتب ما هي إلّا انعكاس للحياة الواقعيّة، وليست الشّيء ذاته. الكتب لا تحدّثك عن فتيان يكسّرون أجسادهم، ويمزّقون أدمغتهم حتّى جذوعها، فتيان لا يستطيعون الكلام، أو الحركة، أو التّلفّظ باسمك، أو عن أمّهات وبنات يقدمن على خيارات فظيعة لا رجعة عنها، ولا عن مواليد يستحقّون أفضل من الحيوات الفاسدة الغارقة بالفوضى التي وُلدوا إليها.

وضعت يدها على معدتها مجدّداً. الحياة الكامنة هناك صغيرة بحجم بيضة ضفدع، أصغر من أن يُحَسَّ بها، ومع ذلك تكاد تقسم أنّ بوسعها سماع صدى نبض ثانٍ يجري بجانب نبضها. كلّ ما تعرفه هو هذا: عليها أن تكون أمّاً جيّدة لهذا الطّفل، وعليها أن تعتني بأمّها. نقطة انتهى.

- «أعرف كم كنت تريد أطفالاً». قالت ليني بصوت خفيض: «والآن...».

على المرء أن يقف بجانب من يحبّهم.

انفتحت عينا ماثيو؛ إحداهما تحدّق إلى الأمام مباشرةً، والأخرى تدور في محجرها بجموح. تلك العين الخضراء المحدّقة كانت الجزء الوحيد الذي ميّزته منه. تلوّى في مكانه، وندّ عنه أنين فظيع متألّم.

فتح فمه وصرخ: «بو\\\\\...». راح يتخبّط ويتهيّج، كما لو يحاول أن يحرّر نفسه. أصدرت الهالة رنيناً حين ارتطمت بحاجز السّرير، وبدأ الدّم يتشكّل عند البراغي في صدغه. انطلق جرس إنذار. «هررررم...».

- «لا». قالت له: «أرجوك...».

فُتح الباب خلفها، وهرعت ممرّضة إلى داخل الغرفة مارّةً بها.

تراجعت ليني متعثّرة، ترتجف، غطّت رأسها بقلنسوة سترتها؛ الممرّضة لم ترَ وجهها.

كان يجأر في سريره، ويصدر أصواتاً بهيميّة من بلعومه، ويتخبّط. حقنت الممرّضة شيئاً ما في مدخله الوريديّ: «لا بأس عليك يا ماثيو، هدّئ من روعك. سيكون والدك هنا عمّا قريب».

أرادت ليني أن تقول: أحبّك، مرّةً أخيرة، جهراً، كي يسمعها العالم، لكنّها لم تجرؤ.

عليها أن تغادر، الآن، قبل أن تستدير الممرّضة.

إلّا أنّها لزمت مكانها، الدّموع تتألّق في زجاج عينيها، ويدها لم تزل على بطنها. سأحاول أن أكون أمّاً جيّدة، وسأخبر الطّفل عنّا.. عنك...

مدّت يدها إلى حقيبتها، أخذتها، وانطلقت تجري.

تركته هناك، وحيداً مع غرباء.

خيارٌ تعرف أنّه ما كان يوماً ليتّخذه هو تجاهها.

❄

هي.

إنّها هنا. أم لا؟ ما عاد يعرف ما الحقيقيّ.

لديه كلمات يعرفها، كلمات جمعها إذ استوعب أهمّيتها، لكنّه لا يعرف معانيها؛ غيبوبة.. مشابك تثبيت.. هالة.. تلف دماغيّ.. الكلمات موجودة، مرئيّة لكنّها غير مرئيّة، مثل صور في غرفة أخرى، يُنظر إليها لمحاً عبر زجاج معرَّق.

أحياناً يعرف من هو وأين هو. أحياناً، لثوانٍ، يعرف أنّه كان في غيبوبة وخرج منها؛ يعرف أنّه لا يستطيع أن يتحرّك لأنّهم ربطوه. يعرف أنّه لا يستطيع تحريك رأسه لأنّهم أقحموا في جمجمته براغيَ ووضعوه في قفص. يعرف أنّه يجلس هكذا طوال اليوم، مدعّماً، وحشاً في القيد، ساقه

بارزة مفرودة أمامه، والألم يمضغه بلا كلل. يعرف أنّ النّاس يبكون حين يرونه.

أحياناً يسمع أشياء.. يرى أشكالاً.. أشخاصاً.. أصواتاً.. ضوءاً.. يحاول أن يلتقطها، أن يركّز، لكنّ الأشياء كلّها عثٌّ مرقّطٌ على توتٍ عليّق.

هي.

إنّها هنا الآن، أليس كذلك؟ من تكون؟

الّتي ينتظرها.

«كنّا لنستطيع أن نفعلها يا ماثيو».

ماثيو.

هو ماثيو، صحيح؟ هل «هي» تتحدّث إليه؟

«أنت لا تعرف من أكون...».

يحاول أن يلتفت، أن يتلوّى فيتحرّر كي يستطيع رؤيتها «هي» بدلاً من السّقف، الّذي يبدو كأنّه يتدحرج جيئةً وذهاباً فوقه.

يصرخ مستجدياً إيّاها «هي»، يبكي، يحاول تذكّر الكلمات الّتي يحتاج إليها، لكن ليس ثمّة شيء ليستطيع إيجاده. الإحباط يتعالى، حتّى إنّه يجعل الألم يزول.

هو لا يستطيع الحراك. إنّه مخبوز -لا، ليس هذا الشّيء الصّحيح- مقيّد.. مربَّط.. مكبوح...

شخص آخر الآن؛ صوت مختلف.

يحسّ أنّ كلّ شيء ينسرب من بين أصابعه. يجمد، غيرَ قادر على تذكّر ما حدث حتّى قبل دقيقة واحدة.

هي.

ما معنى هذا؟

يكفّ عن المقاومة، يشخص إلى المرأة في الزّيّ البرتقاليّ، يصغي إلى صوتها المهدّئ.

عيناه تغمضان. فِكرته الأخيرة «هي». لا تغادري، لكنّه لا يعرف حتّى ما معنى هذه.

يسمع وقع أقدام.. ركضاً...

هذا مثل نبض قلبه.. موجود ثمّ يغيب...

❄ 25 ❄

حوّل الثّلج المتساقط هومر إلى منظر طبيعيّ أغبش من ألوان خرساء وسماوات ناصلة، وكان الأشخاص القليلون الذين يلاحقون مشاغلهم خارج بيوتهم يرون العالم عبر زجاج سيّارات متّسخ، أو يشخصون إليه متلفّعين حتّى الذّقون. لا أحد فطن إلى فتاةٍ، بمعطفٍ ضخمٍ وقلنسوةٍ تظلّل وجهها ووشاحٍ يحجب نصفَه السّفليّ، تشيلُ خطاها الثّقيلَةَ على الطّريق المنحدر.

كان وجه ليني يُشبعها ألماً، وأنفها ينبض من شدّة البرد، لكنّ شيئاً من ذلك لم يكن أكثر أشكال وجعها بلاغةً. على طريق المطار، خفّت غزارة الثّلج قليلاً، وانعطفت الفتاة متجهة نحو مهبط الطّائرات. توقّفت قليلاً أمام باب مكتب المهبط، ورفعت ياقتها الضّيّقة لتغطّي شفتها المشقوقة.

المكتب صغير مشيّد من الخشب والصّفيح المموّج بسقف حادّ الانحدار، بدا مثل قنّ دجاج كبير الحجم. وخلفه، رأت طائرة صغيرة على المدرج، محرّكها يدور بسرعة متزايدة. ثمّة حرفان مفقودان من لافتة «غلاس ليك للطّيران»، حوّلاها إلى: «بحيرة المؤخّرة للطّيران»(*). كانت اللّافتة على هذه الحال منذ مدّة لا تتذكّر ليني متى بدأت، قال المالك إنّه

(*) Glass Lake / Ass Lake.

سيصلحها ذات مرّة، واكتفى بذلك. يُفترض أنّ تلاميذ مدارس سرقوا الحرفين بهدف الدّعابة.

في الدّاخل، بدا المكان غير منجَز هو الآخر: أرضيّة من بلاط مشمّع لصّاق غير متجانس، طاولة من الخشب المعاكس، منصّة صغيرة وُضعت عليها كتيّبات للسّيّاح، حمّام خلف باب مكسور. وثمّة صناديق مكدّسة قرب الباب الخلفيّ: أغراض وصلت مؤخّراً، أو على وشك أن تُشحَن.

كانت الأمّ جالسةً على كرسيّ بلاستيكيّ أبيض، وقد لفّعت النّصف السّفليّ لوجهها بوشاح، وغطّت شعرها الأشقر بقبّعة. جلست ليني بجانبها على أريكةٍ فرديّةٍ منجّدةٍ بقماشٍ ذي زينةٍ نباتيّةٍ بُولِغَ في حشوه، ومزّقته قطّة ما بمخالبها، فحوّلته إلى أشرطة.

أمامهما، ثمّة مجلّات مبعثرة فوق طاولة قهوة من الفورمايكا.

كانت ليني قد تعبت من البكاء، من الشّعور بهذا الأسى الذي ما انفكّ ينفتح وينغلق داخلها، لكنّها أحسّت بالدّمع يخز عينيها على الرغم من ذلك.

أطفأت الأمّ لفافة تبغها في علبة الكولا الفارغة على الطّاولة أمامها، فأزّ الدّخان متلاشياً إلى العدم، وأرجعت ظهرها تتنهّد.

- «كيف حاله؟». سألتها.

- «كما هو». انحنت ليني على أمّها، تدفعها الحاجة إلى دفء جسدها الملموس. مدّت يدها في جيبها، وتلمّست شيئاً حادّاً.

الهديّة التي كان السّيّد ووكر أعطاها إيّاها من ماثيو؛ لقد نسيت أمرها في خضمّ كلّ ما حدث. أخرجتها، وراحت تحدّق فيها؛ هديّة صغيرة رفيعة مغلّفة بورق الجرائد، تعلوها كتابة ماثيو: عيد ميلادٍ سعيد يا ليني!

لقد مرّ عيد ميلادها الثّامن عشر من دون أن يلتفت أحد إليه تقريباً هذا العام، لكنّ ماثيو كان يخطّط من أجله. ربّما كان يضمر فكرة للاحتفال به.

فضّت ورق الغلاف، وطَوَتْه بأناة إلى شيء تحتفظ به. (لقد لمسه وهو يفكّر فيها). في الدّاخل، وجدت علبة بيضاء رقيقة، وفيها قطعة مصفرّة ممزّقة الحوافّ من صفحة جريدة طُويت بعناية.

كانت مقالة صحفيّة، وصورة قديمة بالأبيض والأسود لشخصين من أصحاب مُلكيّات الاكتفاء الذّاتيّ وقد شابكا يديهما، محاطين بمجموعة من كلاب المزالج، يجلسان على كرسيّين غير متناسبين أمام كوخ صغير يكسو الحزاز سقفه. الخردة تزيّن الفناء، وثمّة صبيّ بشعر أشقر فاتح يجلس على التّراب. تعرّفت ليني إلى الفناء والمصطبة: كان هذان جدَّي ماثيو.

في الأسفل، كتب ماثيو: يمكننا أن نكون مثلهما.

أحسّت ليني بوخز في عينيها. ضمّت الصّورة إلى قلبها، ونظرت إلى المقالة.

ألاسكا الّتي أحبّها، بقلم: ليلي ووكر

4 يوليو 1972

تظنّ أنّك تعرف معنى البرّيّة، فهي كلمة استخدمتها طيلة حياتك؛ تستخدمها لتصف حيواناً، أو شعرك، أو طفلاً غير منضبط؛ أمّا في ألاسكا، فأنت تتعلّم المعنى الكامن وراءها حقّاً.

لقد جئتُ أنا وزوجي، إيكهارت، إلى هذا المكان كلٌّ على حدة، وهذا قد لا يبدو مهمّاً، بيد أنّه كذلك بلا شكّ. كان كلٌّ منّا قد قرّر بمفرده

-ويمكنني أن أضيف أنّ ذلك لم يحدث في صبانا- أنّ الحضارة ليست له، وكان ذلك في خضمّ الكساد الكبير. كنتُ أعيش في كوخ بسيط مع والديّ وستّة أشقّاء، ولم يكن لدينا ما يكفينا من أيّ شيء قطّ؛ لا من الوقت، ولا المال، ولا الطّعام، ولا الحبّ.

ما الذي جعلني أفكّر في ألاسكا؟ حتّى في هذه اللّحظة، لا أتذكّر. كنت في الخامسة والثّلاثين من عمري، مركونةً على الرّفّ، كانوا يسمّوننا عوانس آنذاك. ماتت أختي الصّغرى -من كسرة القلب ربّما، أو من اليأس الذي ترافق مع مشاهدتها لأطفالها الرّضّع يعانون- وأنا سرت مبتعدة.

بتلك البساطة. كان في جيبي عشرة دولارات، ولا أمتلك أيّة مهارات حقيقيّة، واتّجهتُ غرباً. بالطّبع ذهبتُ إلى الغرب، بسبب ما في ذلك من رومانسيّة. في سياتل، رأيت لافتةً لألاسكا. كانوا يبحثون عن نساء يقمن بأعمال الغسيل للرّجال في مناجم الذّهب.

قلت لنفسي: «يمكنني أن أغسل الثّياب». وذهبت.

العمل كان شاقّاً، والهتاف والصفير يصدران عن الرّجال طيلة الوقت، لقد خشنت بشرتي حتّى صارت مثل الجلد المدبوغ. حينذاك التقيت بإيكهارت؛ كان أكبر منّي بعشر سنوات، ولا يتحلّى بوسامة تلفت الأنظار، إن كنت صريحة.

لفت نظري، وحدّثني عن حلمه بإقامة مسكن مكتفٍ ذاتيّاً في شبه جزيرة كيناي. وعندما مدّ يده، أخذتُها. هل أحببته؟ لا، ليس آنذاك. ليس طوال سنوات، في الحقيقة. غير أنّه حين مات، شعرت أنّ الله مدّ يده وانتزع قلبي من صدري.

بريّة.. هكذا كنت أصف كلّ شيء؛ حبّي، وحياتي، وألاسكا.. صدقاً،

كلّ ذلك متشابه بالنّسبة إليّ. ألاسكا لا تجذب الكثيرين، فمعظم النّاس مدجّنون أكثر من أن يستطيعوا التّعامل مع الحياة في هذه الأنحاء، لكنّها حين ترميكَ بخطاطيفها، فهي تغرزها عميقاً وتثبّتك بها، حتّى تصبح مِلكها. بريّة.. عشيقة ذات جمال قاسٍ وعزلةٍ ساطعة. وليساعدك الرّبّ، لن يكون بمقدورك العيش في أيّ مكان آخر.

- «ما هذا الذي بحوزتك؟». سألتها الأمّ، وهي تنفث الدّخان.

طوت ليني المقالة طيّتين حذرتين: «مقالة كتبتها جدّة ماثيو، لقد توفّيت قبل قدومنا إلى ألاسكا ببضع سنوات». كانت صورة جدَّي ماثيو -المؤرّخة بعام 1940- على حجرها: «كيف لي أن أكفّ عن حبّه، ماما؟ هل... سأنسى؟».

تنهّدت الأمّ: «آه، هذا الموضوع. الحبّ لا يتلاشى ولا يموت يا فتاتي الصّغيرة. يقول لك النّاس إنّه يفعل، لكنّ هذا غير صحيح. إن كنتِ تحبّينه الآن، فستظلّين على حبّك له بعد عشر سنوات، وبعد أربعين. ربّما على نحوٍ مختلف، بنسخة ذاويةٍ من هذا الحبّ، لكنّه بات جزءاً منك، وأنتِ جزء منه».

لم تعرف ليني أكان هذا مواسياً أم مخيفاً. إن ظلّت تشعر هكذا إلى الأبد، كما لو أنّ قلبها جرح مفتوح، فكيف لها أن تكون سعيدةً من جديد ذات يوم؟

- لكنّ الحبّ لا يأتي مرّة واحدةً فقط في حياتك، بالمقابل. ليس إن كنتِ محظوظة.

- «لا أظنّ أنّنا -آل أولبرايت- محظوظون». أجابت ليني.

- لا أدري. لقد عثرتِ عليه مرّة، وسط هذا اللّامكان. أيّة فرص كانت لك بلقائه، وبأن يقع في حبّك، وتقعي في حبّه؟ أرى أنّه: يا لحظّك!

- ثمّ سقطنا في صدع، تعرّض دماغه للتّلف، وأنتِ قتلتِ أبي كي تحميني.

- صحيح. حسناً، يمكنك أن تنظري إلى النّصف الفارغ أو النّصف الممتلئ من الكأس.

كانت ليني تعلم أنّ الكأس قد كُسرت. «إلى أين سنذهب؟». سألتها.

- وهل يهمّك حقّاً؟

- لا.

- سوف نعود إلى سياتل، هذا كلّ ما يخطر ببالي. بفضل لارج مارج، سنتمكّن من الذّهاب جوّاً من دون حاجة إلى التّنقّل متطفّلتَين.

فُتح الباب، فأدخل هبّة من الهواء الجليديّ البارد. ظهرت امرأة ترتدي معطفاً بنّيّاً، وتعتمر قبّعة كاويتشان شُدّت إلى الأسفل فغطّت جبهتها: «الطّائرة جاهزة للإقلاع، رحلة أنكوراج».

شدّت الأمّ وشاحها على الفور، ورفعته إلى تحت عينيها تماماً، في حين اعتمرت ليني قلنسوة معطفها، وضيّقت حبالها بشدّة حول وجهها.

- «هل أنتما المسافرتان؟». سألت المرأةُ، وهي تنظر إلى ورقة تحملها بيديها المكسوّتين بقفّازين. وقبل أن يتسنّى للأمّ أن تجيب، رنّ الهاتف على طاولة المكتب. ذهبت المرأة إليه وأجابت: «غلاس ليك للطّيران».

هرعت ليني وأمّها خارجتين من المكتب الصّغير نحو مهبط الطّائرات، حيث كانت طائرتهما تنتظر، ومروحتها تئزّ. عند الطّائرة، ألقت ليني حقيبة

ظهرها في القسم الخلفيّ، فحطّت بين صناديق يُراد إيصالها إلى مكان ما، ثمّ تبعت أمّها إلى داخل الطّائرة القابع في الظّلال.

اتّخذت مقعدها (كان ثمّة مقعدان اثنان فقط خلف الطّيّار) وشدّت الحزام.

قعقعت الطّائرة الصّغيرة وهي تسير إلى الأمام، ترتجّ بشدّة، ثمّ ارتفعت وتمايلت حتّى استوت في الهواء. بدا للمحرّك صوت البطاقات التي اعتاد الأطفال في حيّها القديم أن يثبّتوها على محاور عجلات درّاجاتهم.

حدّقت ليني من النّافذة، تطلّ على الدّكنة. من هذا الارتفاع، بدا كلّ شيء ملوّناً بالرّماديّ الفاحم والأبيض؛ غباشة تقوم مقام البرّ، والبحر، والسّماء. جبال بيضاء مدبّبة، أمواج غاضبة يعلوها الزّبد فوق بحر بلون الرّماد، أكواخ ومنازل عنيدة تتشبّث بساحل بريّ.

رويداً رويداً، لم تعد هومر في مجال الرّؤية.

❄

سياتل ليلاً تحت المطر المنهمر.

أفعوان أصفر من مصابيح المركبات الأماميّة في الظّلام.. لافتات النيون في كلّ مكان، تلقي انعكاساتها على الشّوارع المبلّلة.. إشارات المرور تغيّر ألوانها.. الأبواق تصيح بتحذيراتها المتقطّعة...

ثمّة موسيقا تندلق من الأبواب المفتوحة، تنقضّ على اللّيل، لا تشبه أيّة موسيقا سبق لليني أن سمعتها، لها نغم رنّان غاضب. وخارج الحانات يقف أناس يبدو بعضهم كأنّهم هبطوا من المرّيخ؛ على وجناتهم دبابيس أمان، شعورهم زرقاء متيبّسة صُفِّفَت بتسريحات موهوك، ويرتدون ملابس سوداء بدت مقطّعةً إلى شرائط.

- «لا بأس». قالت الأمّ، وجذبت ليني إليها، فيما هما تسيران قرب مجموعة من أشخاص بدوا مشرّدين، يقفون بكسل في حديقة، ويمرّرون لفافات التّبغ في ما بينهم.

رأت ليني المدينة على نحو متقطع بين أهدابها المسدلة، يغبّشها المطر الذي لا ينقطع. شاهدت نساءً يحملن رُضّعاً ويربضن في المداخل، ورجالاً نائمين في أكياس نوم تحت الطّريق المرتفع الذي يشرف على هذا القسم من البلدة. لم تسعفها مخيّلتها في إيجاد السّبب الذي يدفع النّاس إلى العيش بهذه الطّريقة في حين يمكنهم أن يذهبوا إلى ألاسكا ليتعيّشوا من الأرض ويشيّدوا لأنفسهم بيتاً. لم تستطع إلّا أن تفكّر في كلّ أولئك الفتيات اللّاتي اختُطفن عام 1974 وعُثر على جثثهنّ في مكان غير بعيد عن هنا. لقد اعتُقِل تيد بندي، لكن هل يعني ذلك أنّ الشّوارع باتت آمنةً الآن؟

عثرت الأمّ على هاتف مأجور، واتّصلت تطلب سيّارة أجرة. وفيما لزمتا مكانهما تنتظران وصولها، توقّف المطر.

وقفت سيّارة أجرة صفراء فاقعة عند الرّصيف المتّسخ، فرشقتهما بالماء. تبعت ليني أمّها إلى المقعد الخلفيّ، الذي كان ينضح برائحة صنوبر عنيفة. منذ ذلك فصاعداً، صارت ليني تشاهد أضواء المدينة عبر نافذة. بوجود الماء في كلّ مكان، على شكل قطرات وبِرَك، من دون تساقط المطر، اكتسى المكان بمظهرٍ مهرجانيّ مختلط متعدّد الألوان.

انعطفت السيّارة على طريق صاعد. كان واضحاً أنّ هذا الجزء من المدينة ذا المباني قليلة الارتفاع المكسوّة بقرميد قديم -ساحة بايونير- هو الحفرة التي يسارع النّاس إلى الخروج منها ما إن يضعوا أيديهم على بعض المال؛ أمّا مركز المدينة فقد كان وادياً من مبانٍ مكتبية وناطحات سحاب ومتاجر تقوم على أطراف شوارع مكتظّة، بواجهات عرض أشبه

بمواقع تصوير الأفلام، تسكنها تماثيل أُلبِست بدلات برّاقة لها حشوات كتف مبالغ فيها وخصور مزمومة. عند قمّة التلّ، أفسحت المدينة المجال لحيّ من المنازل الفخمة.

- «ها هو». قالت الأمّ للسّائق، وأعطته آخر ما تبقّى لديهما من المال المستدان.

كان المنزل أكبر ممّا تتذكّره ليني. وفي الظّلام، بدا مشؤوماً على نحو مبهم، بسطحه المدبّب في ذروة تشير مثل إصبع مرفوع إلى سماء ليليّة سوداء، ونوافذه المتألّقة ذات التّصاميم معيّنيّة الشّكل، وكلّ ذلك محاط بسياج حديديّ تنتهي قضبانه برؤوس مستدقّة تثقب القلوب.

- «هل أنت واثقة؟». طرحت ليني سؤالها بهدوء.

كانت تدرك أيّ ثمن كلّف هذا أمَّها، أن تعود إلى المنزل طلباً للعون. رأت أثر ذلك في عينيها، في ارتخاء كتفيها، في طريقة تكوّر يديها إلى قبضتين. الأمّ تشعر بالإخفاق الذي تعنيه عودتها إلى هنا: «هذا يثبت أنّهما كانا على حقّ بشأنه منذ البداية ليس إلّا».

- يمكننا أن نختفي من هنا أيضاً، ونبدأ من الصّفر وحدنا.

- «ربّما كنت لأفعل هذا بنفسي يا فتاتي الصّغيرة، لكنّني لن أفعله بك. لقد كنتُ أمّاً رديئة، إلّا أنّني سوف أكون جدّةً جيّدة. أرجوكِ، لا تمنحيني مخرجاً من هذا». سحبت نفساً عميقاً قبل أن تضيف: «هيّا بنا».

أمسكت ليني بيد أمّها، وسارتا على الدّرب الحجريّ معاً، حيث كانت بقع الضّوء تنير شجيراتٍ قُلِّمَت على هيئة حيوانات، وأغصانَ ورد شائكة شُذِّبَت استعداداً للشّتاء. توقّفتا عند الباب الأماميّ المزخرف، وانتظرتا، ثمّ طرقت الأمّ.

بعد لحظات، فُتح الباب وظهرت الجدّة.

لقد غيّرتها السّنين، تركت دمغتها على وجهها وطيّاته. شعرها شاب، أو لعلّه كان أشيب دائماً وهي توقّفت عن صبغه. «يا ربّاه». همست وأطبقت يدها الهزيلة على فمها.

- «مرحباً يا أمّي». قالت الأمّ بنبرة متقلقلة.

سمعت ليني وقع أقدام.

تنحّت الجدّة جانباً، فتقدّم الجدّ ووقف بجانبها. كان رجُلاً ضخم البنية؛ بطن بدين محبوس خلف كنزة من الكشمير الأزرق، لُغدان كبيران لدنان، شعر أبيض ممشّط على عرض رأسه اللّامع، مع عناية ظاهرة بالخصل. يرتدي بنطالاً أسود فضفاضاً من البوليستر، يزمّ وسطَه حزامٌ ضُيّق بشدّة، وتبرز من تحته تقاطيع ساقين نحيلتين مثل سيقان الطّيور. بدا أكبر من أعوامه السّبعين.

- «مرحباً». قالت الأمّ.

حدّق الجدّان بهما، بأعين مزمومة، ينظران إلى الكدمات على وجهي ليني وأمّها، والوجنات المتورّمة، والأعين المسودّة. «ابن العاهرة». قال الجدّ.

- «نحتاج إلى المساعدة». قالت الأمّ، وهي تعصر يد ليني.

- «أين هو؟». أراد الجدّ أن يعرف.

- «لقد تركناه». أجابت الأمّ.

- «حمداً لله». قالت الجدّة.

- «أعلينا أن نقلق من أن يأتي في طلبكما، ويحطّم بابي؟». سأل الجدّ.

- هزّت الأمّ رأسها: «لا، على الإطلاق».

تضيّقت عينا الجدّ. أتراه فهم معنى ذلك؟ أدرك ما فعلتاه؟ «ماذا تقـ...».

- «أنا حبلى». قاطعته ليني. كانتا قد تحدّثتا في هذا هي وأمّها، وقرّرتا ألّا تقولا شيئاً بخصوص الحمل في الوقت الحاليّ، لكن الآن؛ إذْ وقفتا هنا، تطلبان المساعدة، بل تتوسّلانها، لم تستطع أن تلتزم بذلك. لقد كتمت ما يكفي من الأسرار خلال حياتها، وما عادت تريد أن تحيا في ظلالها بعد الآن.

- «التّفّاحة لا تسقط بعيداً عن شجرتها». قالت الأمّ، وهي تحاول أن تبتسم.

- «سبق أن مررنا بهذا الموقف». قال الجدّ: «كأنّني أتذكّر نصيحتي لك».

- «أردتَني أن أتخلّى عنها، وأعود إلى المنزل، وأتظاهر أنّ بوسعي أن أكون الفتاة التي كنتُها من قبل». أجابت الأمّ: «وكنتُ أريدك أن تقول لي: لا بأس، وإنّك تحبّني مهما كان».

- «ما قلناه حينها». قالت الجدّة بنبرة ناعمة: «هو أنّ ثمّة نساء في كنيستنا غير قادرات على الإنجاب، وأنّهنّ كنّ ليمنحن طفلتك بيتاً جيّداً».

- «سوف أحتفظ بطفلي». قالت ليني: «إن كنتما لا تريدان مساعدتنا، فلا مشكلة، لكنّني سأحتفظ بالطّفل».

ضغطت أمّها على يدها.

ران الصّمت بعد إعلان ليني، وخلاله لمحت بعينها كم بات العالم واسعاً عليها هي وأمّها الآن، ورأت محيط المتاعب الشاسع الذي تواجهانه وحدهما، وأرعبها ذلك، لكن ليس بمقدار فكرة العالم الذي ستقبع فيه إن

هي تخلّت عن هذا الطّفل. ثمّة خيارات لا يتعافى المرء منها؛ لقد أضحت كبيرة بما يكفي كي تدرك ذلك.

أخيراً، بعد ما بدا دهوراً، التفتت الجدّة إلى زوجها. «سيسيل، كم مرّة تحدّثنا عن فرصة ثانية؟ ها هي ذي».

- «لن تهربي في منتصف اللّيل من جديد؟». قال للأمّ: «فأمّك... بالكاد استطاعت أن تجتاز ذلك بسلام».

في تلك الكلمات المعدودة، المختارة بعناية، سمعت ليني حزناً أسيّاً. ثمّة ألم بين هذين الشّخصين وبين أمّها، ألم، وندم، وارتياب، لكن هنالك شيء أرقّ كذلك.

- كلّا يا سيّدي، لن نفعل.

ابتسم الجدّ أخيراً: «أهلاً بعودتكما إلى بيتكما، كورالين ولينورا. فلنضع بعض الثّلج على هذه الكدمات، يجب أن يراكما طبيب».

رأت ليني تردّد أمّها في الدّخول إلى المنزل، فأخذتها من ذراعها، وشدّت أزرها.

- «لا تفلتيني». همست الأمّ.

في الدّاخل، انتبهت ليني إلى رائحة أزهار. كان ثمّة عدّة باقات كبيرة مرتّبة في مزهريّات وُضعت بذوق فنّيّ على طاولات خشبيّة لامعة، ومرايا بأطر مذهّبة على الجدران.

ألقت لمحة على الغرف والرّدهات، وهم يسيرون، فرأت غرفة طعام بطاولة تتّسع لاثني عشر شخصاً، ومكتبة تتكدّس رفوفها من الأرضيّة إلى السّقف، وغرفة معيشة فيها اثنان من كلّ شيء: أريكتان، وكرسيّان، ونافذتان، ومصباحان. ثمّة دَرج، مكسوّ بسجّادة مترفةٍ إلى درجة أنّ

المشي عليها بدا أشبه بالمشي على أرضٍ غيضة في الصّيف، يفضي إلى ردهة في الطّابق العلويّ رُصفت جدرانها بخشب الماهوغاني، وزُيّنت بحوامل مصابيح نحاسيّة، ولوحات تُصوّر كلاباً وخيولاً داخل أطر ذهبيّة مزخرفة.

- «هنا». قالت الجدّة حين توقّفت أخيراً، وكان الجدّ قد تخلّف عنهنّ كما لو أنّ توزيع الغرف عملٌ من أعمال النّساء: «لينورا، ستنامين في غرفة كورالين القديمة. كورا، تعالي من هنا».

دخلت ليني إلى غرفتها الجديدة.

في أوّل الأمر، لم ترَ إلّا الدّانتيل، وليس من النّوع الرّخيص ذي التّخاريم الصّغيرة الّذي اعتادت على رؤيته في متجر غودويل؛ بل دانتيل فاخر، يشبه تقريباً شباك عنكبوت خيطت إلى بعضها. ستائر الدّانتيل العاجيّ تؤطّر النّوافذ، وثمّة المزيد منه على مُلاء السّرير وأغطية المصابيح. الأرضيّة مفروشة ببُسط لها لون طحين الشّوفان الشّاحب، وُزِّع فوقها أثاث عاجيّ بحوافّ مذهّبة، ومكتب صغير على شكل كِلية دُسَّ تحته كرسيّ بلا ظهر منجّد بقماش بلون العاج.

بدا الهواء خانقاً، غير طبيعيّ، مُحمَّماً برائحة خزامى زائفة.

ذهبت إلى النّافذة، رفعت إطارها الثّقيل، وانحنت تطلّ منها. رحّب بها اللّيل العذب، وهدّأها. كان المطر قد توقّف، وترك خلفه ليلاً أسود متلألئاً، وكانت الأضواء مضاءةً في كلّ المنازل على طول الشّارع.

ثمّة رقعة صغيرة من سطح المنزل المبلّل أمامها، وتحتها يمتدّ الفناء الذي ينعم بعناية كبيرة، وتنتصب فيه شجرة قيقب مسنّة على مقربة، فروعها عارية تقريباً، عدا بضع أوراق حمراء ذهبيّة ما زالت متشبّثة.

أشجار.. هواء ليليّ.. هدوء...

تسلّقت ليني من النّافذة، ونزلت على السّطح المكسوّ بألواح الخشب تحت غرفتها. وعلى الرغم من وجود أضواء مُشعَلة في المنزل، وفي المنازل الأخرى على امتداد الشّارع، فقد شعرت بأمان أكبر هنا في الخارج. شمّت رائحة الشّجر والخُضرة، وحتّى نكهة بعيدة من ضوع البحر.

السّماء غير مألوفة؛ سوداء. في ألاسكا، تكون لسماء اللّيل في الشّتاء زُرقة مخمليّة قانية، وحين يغطّي الثّلج الأرض ويكسو الأشجار بردائه، يتشكّل ضوءٌ محيطٌ يخلق وهجاً سحريّاً. عندئذٍ، في بعض الأحيان، تتراقص أضواء الشّمال في الأعالي. ومع ذلك، فقد ميّزت النّجوم؛ لم تكن في المكان نفسه، لكنّها النّجوم نفسها. الدّبّ الأكبر.. نطاق الجبّار.. كوكبات كان ماثيو قد دلّها عليها تلك اللّيلة، وهما مستلقيان على الشّاطئ.

أغلقت أصابعها على قلادة القلب حول عنقها. صار بإمكانها أن ترتديها علانيةً الآن من دون قلق من أن يسألها أبوها كيف حصلت عليها، لن تنزعها بعد اليوم أبداً.

- أترغبين في بعض الصّحبة؟

- «بالتّأكيد». أجابت ليني، وتنحّت تفسح مكاناً بجانبها.

خرجت أمّها من النّافذة المفتوحة إلى السّطح، ثمّ جلست بجانبها، تضمّ ركبتيها إلى صدرها. «اعتدتُ أن أنزل على تلك الشّجرة وأتسلّل في ليالي السّبت أيّام الثّانويّة كي أتسكّع مع الفتيان في مطعم دِيك درايف إن في جادّة أورورا، كلّ شيء كان يتعلّق بالفتيان». تنهّدت وأسقطت ذقنها في الوهدة بين ركبتيها.

اتّكأت ليني على أمّها، وراحت ترنو إلى المنزل في الجهة المقابلة

من الشّارع؛ وهجٌ غامر من الأضواء المسرفة، ورأت عبر النّوافذ ثلاثة تلفزيونات على الأقلّ تومض بألوانها.

- أنا آسفة يا ليني، حوّلتُ حياتك إلى هذه الفوضى.

- «نحن فعلنا ذلك». أجابت ليني: «معاً. والآن علينا أن نتعايش مع الأمر».

- «ثمّة خلل ما فيَّ». قالت أمّها بعد صمت قصير.

- «لا». ردّت ليني بحزم: «كان ثمّة خلل فيه هو».

❄

- «إنّه هناك، صدّقيني. هناك تماماً». قالت الأمّ بعد مضيّ خمسة أيّام، حين تعافت كدماتهما بما يكفي لتغطيتها بمساحيق التّجميل. لقد قضتا قرابة أسبوع متقوقعتين داخل المنزل من دون أن تغامرا بالخروج قطّ، وبدأ الضّيق بالقعود والتّوق إلى الحركة يُخرجانهما عن طورهما بعض الشّيء.

الآن، وقد قُصّ شعر الأمّ بتسريحة بيكسي وصُبغ باللّون البنّيّ، خرجتا من المنزل أخيراً، واستقلّتا حافلةً إلى وسط سياتل المكتظّ، حيث اندمجتا في الحشد الذي تكوّنه عناصر متباينة من سيّاح، ومتسوّقين، وهواةٍ لموسيقا البانك روك.

أشارت الأمّ إلى السّماء الزّرقاء الصّافية.

لم تكن ليني تلقي بالاً للجبل (هكذا يسمّون جبل رينير هنا -الجبل- كأنّه الجبل الوحيد المهمّ في العالم) أو للمعالم الأخرى التي أشارت أمّها إليها بفخر شديد، كما لو أنّ الفتاة لم ترَ أيّاً منها من قبل. لافتة نيون «السّوق العموميّة» السّاطعة التي تشرف على سقيفة سوق السّمك؛ برج إبرة الفضاء

الذي يبدو مثل سفينة فضائيّين ثُبّتت فوق أعواد لعبة الإزالة(*)؛ الأكواريوم الجديد الذي يبرز بجرأة إلى قلب مياه خليج إليوت الباردة.

كانت سياتل جميلة في هذا النّهار المشمس الدّافئ من نوفمبر؛ هذا صحيح. خضراء كما تتذكّرها، مطوّقة بالماء، ومغطّاة بالأسفلت والخرسانة.

النّاس يزحفون مثل النّمل في كلّ جنباتها. الضّوضاء والحركة سيّدتا الأشياء: نفير أبواق، أناس يقطعون الشّوارع، حافلات تنفث الدّخان وتكاد تطحن مسنّناتها على التّلال التي ترفع المدينة فوق أكتافها. كيف لها أن تشعر أنّها في وطنها هنا، وسط كلّ هؤلاء النّاس؟

ما من صمت في هذا المكان. طوال اللّيالي القليلة الماضية، كانت تستلقي في سريرها الجديد (الذي يعبق بروائح منعّم الأقمشة وصابون الغسيل الجاهز) محاولةً أن تشعر بالارتياح. ومرّة انطلقت صافرة إسعاف أو شرطة مدويّةً من دون سابق إنذار، فهجم الضّوء الأحمر الغمّاز من النّافذة، وصبغ الدّانتيل بحُمرة دمويّة.

هي وأمّها الآن في شمالي المدينة. لقد ركبتا حافلةً يقطع خطُّها المدينة بعرضها، ووجدتا مقعدين بين الرّكّاب الذين يعلوهم الحزن لخروجهم في هذا الوقت المبكّر، ثمّ سارتا عبر «الجادّة» المزدحمة، وعلى الطّريق الصّاعد إلى جامعة واشنطن مترامية الأطراف.

وقفتا عند حافّة شيء يُدعى السّاحة الحمراء؛ كانت الأرض مرصوفة

(*) إزالة الأعواد: لعبة تقوم على نثر مجموعة أعواد على نحوٍ عشوائيّ فوق سطح مستوٍ ليتناوب اللّاعبون على إزالتها عوداً تلو الآخر بشرط عدم زحزحة بقيّة الأعواد. (المترجم)

بقرميد أحمر على مدّ بصر ليني. ثمّة مسلّة حمراء كبيرة تشير إلى السّماء الزّرقاء، والمزيد من المباني القرميديّة تشكّل محيطاً للمكان.

هنالك المئات حرفيّاً من الطّلّاب يتحرّكون عبر أنحاء السّاحة، يغدون ويروحون في موجات مثرثرة ضاحكة. إلى يسارها، مجموعة اكتست بالسّواد الكامل تحمل لافتات احتجاجيّة تتحدّث عن الطّاقة والأسلحة النّوويّة، والعديد من أفرادها يطالبون بإغلاق شيء يدعى هانفورد.

ذكّرها المشهد بطلّاب الجامعات الذين كانت تراهم في هومر كلّ صيف، جماعات من اليافعين المدجّجين بمعدّات ريكريشنال إكِوبمنت المطريّة، يرنون إلى القمم المسنّنة التي اعتمرت الثّلج كأنّهم سمعوا الله يناديهم بأسمائهم. كانت تسمع أحاديث مهموسة عن كيف أنّهم سيرمون كلّ شيء خلف ظهورهم وينتقلون لعيش حياة أكثر أصالةً خارج شبكة الخدمات. العودة إلى الأرض، يقولون، كأنّهم يرنّمون آيةً من الكتاب المقدّس. مثل مقولة جون موير الشّهيرة: الجبال تنادي، وعليّ أن ألبّي. كان النّاس يسمعون هذا النّوع من الأصوات في ألاسكا، ويحلمون أحلاماً جديدة. غير أنّ معظمهم لا يلبّون من الأساس، ومن بين القلّة الذين يفعلون، فالغالبيّة العظمى يغادرون قبل نهاية شتائهم الأوّل، لكنّ ليني لطالما كانت موقنةً أنّهم يتغيّرون ببساطة بفعل الحلم العملاق، والإمكانيّة التي يلمحونها في الأفق البعيد.

انساقت ليني بين الحشد بجانب أمّها، متشبّثةً بحقيبة الظّهر الصّغيرة التي تملكها مذ كانت في الثّانية عشرة؛ حقيبتها الألاسكيّة. كانت تُكنّ تجاهها شعوراً طوطميّاً، الأثر الأخير المتبقّي من حياةٍ طرحتها. تمنّت لو أنّها استطاعت أن تجلب صندوق غداء ويني الدّبدوب خاصّتها.

وصلتا إلى وجهتهما: مبنى قوطيّ بلون السّكّر الزّهريّ، له قناطر ممتدّة، وأبراج دقيقة التّصميم، ونوافذ بشِباك معدنيّة معقّدة الزّخارف.

في الدّاخل مكتبة لم تشهد ليني لها مثيلاً. صفّ تلو صفّ من الطّاولات الخشبيّة، مزيّنة جميعها بمصابيح قراءة خضراء، وقد وُزّعت بترتيب تحت سقف مقنطر، والثّريّات القوطيّة تتدلّى فوق المشهد. والكتب! لم يسبق لها أن رأت هذا العدد منها. راحت تهمس لأذنيها وتحدّثها عن عوالم غير مستكشَفة، وأصدقاء لم تلتقِ بهم، فأدركت أنّها لم تكن وحدها في هذا العالم الجديد. أصدقاؤها هنا، يقابلونها بضلوعهم المُعَنْوَنة، وينتظرونها كما فعلوا دائماً. لو أنّ ماثيو يرى هذا...!

اقتفت خطوات أمّها، وكعوب جزمتيهما العالية تطقطق على الأرضيّة. ظلّت ليني تترقّب أن يرفع النّاس رؤوسهم ويشيرون إليهما بالبنان كدخيلتين، بيد أنّ الطّلاب في قاعة القراءة الدّراسيّة ما كانوا يأبهون بالغرباء وسطهم.

حتّى أمينة المكتبة لم يبدُ أنّها كانت تصدر أيّة أحكام عليهما، وهي تصغي إلى أسئلتهما وترشدهما نحو طاولة أخرى، حيث تنتظرهما أمينة أخرى استمعت إلى طلبهما.

- «تفضّلا». قالت الأمينة الثّانية، وهي تناولهما حزمة من الصّحف.

أجابت الأمّ: «شكراً لك». وجلست. استبعدت ليني أن تكون أمينة المكتبة سمعت الرّجفة في صوت أمّها، أما هي فسمعتها.

جلست على المقعد الخشبيّ الطّويل بجانب أمّها، ولزّت بها.

لم تستغرقا وقتاً يُذكر قبل أن تجدا ما تبحثان عنه.

عائلة مفقودة في كانِك
واشتباه بعمل شائن

كشفت سُلطات الولاية عن معلوماتٍ حول عائلةٍ مفقودةٍ في كانِك. ووفقاً للرّواية، اتّصلت جارتهم مارج بيردسول بشرطة الولاية في تاريخ 13 نوفمبر لتبلّغ عن اختفاء جارتها كورا أولبرايت، وابنتها لينورا. «كان من المفترض أن تزوراني أمس، ولم تأتيا. انتابني القلق على الفور من أن يكون إيرنت قد مسّهما بسوء». قالت بيردسول.

في 14 نوفمبر، بلّغ توماس ووكر عن عثوره على شاحنة مهجورة في موضع غير بعيد عن مسكنه. وعُثر على المركبة –المسجّلة باسم إيرنت أولبرايت– عند علامة المسافات رقم 12 في طريق كانِك.

أوردت السّلطات تقريراً أفاد بوجود دماء على المقعد والمقود، إضافةً إلى حقيبة كورا أولبرايت النّسائيّة.

«نحن نتحرّى في القضيّة على أنّها قضيّة مفقودين، وجريمة قتل محتملة في آنٍ معاً». قال الضّابط كيرت وارد. وأفادت شهادة الجيران أنّ لإيرنت أولبرايت سوابق من العنف، وأنّهم يخشون أن يكون قد قتل زوجته وابنته، ثمّ لاذ بالفرار.

ما من معلومات إضافيّة متاحة للنّشر حتّى هذه اللّحظة، وما يزال التّحقيق جارياً.

يُرجى من كلّ من تتوفّر لديه أيّة معلومات عن عائلة أولبرايت أن يتواصل مع الضّابط وارد.

أرجعت الأمّ ظهرها وتنهّدت بهدوء.

رأت ليني الألم الذي تحمله أمّها، وستظلّ تحمله دائماً منذ الآن؛ من جرّاء كلّ شيء: بقائها حين انبغى لها أن تغادر، حبّها له، قتله. ماذا يكون مصير ألم مثل هذا؟ أيتبدّد ببطءٍ أم يتخثّر ويصبح سامّاً؟

- يقول أبي إنّهم سيعلنون وفاتنا في مرحلةٍ ما، لكنّ هذا قد يستغرق سبع سنوات.

- سبع سنوات؟

- علينا أن نمضي قدماً، ونتعلّم أن نكون سعيدتين، وإلّا فلمَ كان كلُّ ما كان من الأساس؟

سعيدتان.

لم تكن للكلمة أيّة قابليّة للطّفوّ عند ليني، لم تلقَ قوّة ترفعها. وللصّراحة، ما كان بمقدورها تصوّر السّعادة من جديد على الإطلاق، ليس على نحوٍ حقيقيّ.

- «أجل». قالت تُكابر لتبتسم: «سنكون سعيدتين الآن».

❄ 26 ❄

ذلك المساء، بعد العشاء، جلست ليني على سريرها تقرأ. الصمود لستيفن كينغ. لقد أتمّت قراءة ثلاثة كتب له خلال الأسبوع الماضي، فاكتشفت شغفاً جديداً؛ وداعاً للخيال العلميّ والفنتازيا، ومرحباً بالرّعب.

خلصت إلى أنّه انعكاس لحياتها الداخلية؛ وهي تفضّل أن تراودها كوابيس عن شخصيات مثل راندال فلاغ، أو كاري، أو جاك تورانس عوضاً عن ماضيها هي.

كانت تهمّ بقلب صفحة حين سمعت أصواتاً خفيضةً تمرّ قرب غرفتها.

ألقت نظرةً على السّاعة بجوار السّرير، وهي واحدة من بين عشرات السّاعات في المنزل، جميعها تتكّ بإيقاع متزامن كأنّها نبضٌ لقلبٍ خفيّ. لقد قاربت التّاسعةَ مساءً.

عادةً يكون جدّاها قد خلدا إلى سريرهما في مثل هذا الوقت.

وضعت ليني الكتاب جانباً، بعد أن علّمت صفحتها. ذهبت إلى الباب، فشقّته بما يكفي لاستراق النّظر.

كانت الأنوار مُضاءةً في الطّابق السّفليّ.

انسلّت من غرفتها. قدماها الحافيتان لا تصدران أيّ صوت فوق

سجّادة الصّوف التّرِفة، يدها تنزلق على درابزين الماهوغاني الأملس، وهي تحثّ خطاها نزولاً على الدّرج. عند قاعدته، أحسّت ببرودة الرّخام الأبيض والأسود تحت قدميها.

كانت أمّها جالسةً على الأريكة ذات اللّون البرتقاليّ المحروق، وقبالتها جلس والداها على كرسيّين وثيرين متطابقين منجّدين بقماش مزخرف بنقشة البيزلي، وبينهم تربض طاولة القهوة المصنوعة من خشب القيقب، وقد زُيّن سطحها بغابة من تماثيل الخزف المنمنمة.

- «يظنّون أنّه قتلنا». قالت أمّها: «لقد قرأتُ الصّحيفة المحلّيّة اليوم».

- «كان يمكن أن يفعل هذا بسهولة». أجابت الجدّة: «لقد حذّرتك، تتذكّرين، وقلت لك ألّا تذهبي إلى ألاسكا».

- «ألّا تتزوّجيه». صحّح الجدّ.

- «أترِيان أنّني بحاجة إلى مواعظ التّشفّي؟». ردّت الأمّ، ثمّ تنهّدت ثقيلاً وأضافت: «كنتُ أحبّه».

سمعت ليني الشّجن والحسرة اللّذين يموجان بين الثّلاثة. ما كانت لتفهم هذا النّوع من النّدم حتّى قبل عامٍ، بيد أنّها الآن تفهمه.

- «لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل بعد كلّ هذا». تابعت أمّها: «لقد خرّبتُ حياة ليني وحياتي، وها قد جررتكما الآن إلى قلب المعمعة».

- «أتمزحين؟». قالت الجدّة: «بالطّبع ستجرّيننا، فنحن والداك».

قال الجدّ: «هذه من أجلك».

أرادت ليني أن تطلّ وتنظر، لكنّها لم تجرؤ. سمعت صرير كرسيّ، ثمّ كعباً يطقطق على أرضيّة الخشب الصّلب (الجدّ ينتعل الأحذية الرّسميّة طوال الوقت، منذ الفطور حتّى موعد النّوم)، وأخيراً صوت كرمشة ورق.

- «إنّها شهادة ميلاد». قالت الأمّ بعد لحظات: «لامرأة تدعى إيفلين تشسترفيلد، مولودة في 4 أبريل 1939. لماذا تعطيني إيّاها؟».

سمعت ليني صرير الكرسيّ من جديد. «وهذه رخصة زواج مزوّرة. أنت تزوّجتِ برجُل اسمه تشاد غرانت. بهاتين الوثيقتين، سيكون بوسعك الذّهاب إلى دائرة المركبات واستصدار رخصة قيادة، وبطاقة ضمان اجتماعيّ جديدة. لديّ شهادة ميلاد من أجل ليني أيضاً. ستكون ابنتك، سوزان غرانت. ستستأجران منزلاً غير بعيد من هنا، وسوف نخبر الجميع أنّك قريبتنا، أو مدبّرة منزلنا. شيء ما. أيّ شيء يبقيكما في مأمن». قال الجدّ بصوتٍ خشّنه الانفعال.

- كيف حصلت على كلّ هذا؟

- أنا محامٍ، ولديّ معارفي. دفعت لأحد موكّلِيَّ، رجُل يتحلّى... بأخلاق مرنة.

- «هذا لا يشبهك». قالت الأمّ بصوت خفيض.

مرّ صمتٌ قصيرٌ، ثمّ: «جميعنا تغيّرنا». أجاب الجدّ: «لقد تعلّمنا بالطّريقة الصّعبة، أليس كذلك؟ من اقتراف الأخطاء. كان ينبغي أن نصغي إليك عندما كنتِ في السّادسة عشرة».

- وأنا، كان ينبغي أن أصغي إليكما.

رنّ جرس الباب.

كان صوتاً غير متوقّع في هذا الوقت من اللّيل، ما جعل ليني تشعر بانقباضة خوف. سمعت وقع أقدام، ثمّ حفيف ستارة خشبيّة.

- «الشّرطة». سمعت جدّها يقول.

هرعت الأمّ خارج غرفة المعيشة فرأت ليني.

- «اصعدي إلى الأعلى». قال الجدّ، وهو يتبعها إلى خارج غرفة المعيشة.

أخذت يد ليني وقادتها على الدّرج. «من هنا». قالت لها: «بهدوء».

حثّتا خطاهما على الدّرج، ثمّ عبرتا الرّدهة غير المضاءة على رؤوس الأصابع إلى غرفة النّوم الرّئيسيّة؛ غرفة ضخمة بنوافذ سميكة العضائد، وسجّادة خضراء زيتونيّة، يتسيّدها سرير رباعيّ الأعمدة كُسي بدانتيل يطابق السّجّادة بدقّة.

ساقت الأمُّ ليني إلى فتحة تدفئة في الأرضيّة. وبأناة، فكّت غطاءها ووضعته جانباً.

جثت على ركبتيها، وأشارت إلى ليني أن تقترب: «اعتدتُ أن أسترق السّمع على الرّاهبات حين يجئن لطردي».

تناهى صدى وقع أقدامٍ إلى ليني عبر الأضلاع المعدنيّة للفتحة.

أصوات رجال.

- التّحرّيان: آرتشر ماديسون، وكيلر وات، من قسم شرطة سياتل.

الجدّ: «هل ثمّة خطب ما في الحيّ، حضرتكما، في هذه السّاعة المتأخّرة؟»

- نحن هنا [شيء لم تستطيعا سماعه] بالنّيابة عن شرطة ولاية ألاسكا. [كلمات اختلطت ببعضها] ابنتكما، كورا أولبرايت... [شيء ما] آخر مرّة شوهدت فيها... يؤسفنا أن نقول... افتراض بالوفاة.

سمعت ليني جدّتها تصرخ.

- على رسلك يا سيّدتي، فلنساعدك على الجلوس.

صمت طويل، ثمّ صوت جلبة، حقيبة رسميّة تُفتح، سحب أوراق.

«لقد عُثر على شاحنة النّصف نقل... الكوخ ممتلئ بالدّماء، وثمّة نافذة مكسورة، مسرح جريمة واضح، لكنّ الحيوانات أفسدت الأدلّة... الفحوصات غير حاسمة... أشعّة سينيّة أظهرت ذراعاً مكسورة... أنفاً مكسوراً. البحث جارٍ، لكن... هذا الوقت من العام... الطّقس. الله أعلم ماذا سنجد حين تذوب الثّلوج... نبقيكما على اطّلاع...».

- «لقد قتلهما». قال الجدّ. هذه الكلمات كانت عالية النّبرة، غاضبة: «ابن العاهرة».

«العديد من التّبليغات... عُنفه».

التفتت ليني إلى أمّها: «إذنْ فقد نجونا بفعلتنا؟».

- حسناً... ما من قانون تقادمٍ يشمل جرائم القتل، كما أنّ كلّ ما فعلناه -وسنفعله في دائرة المركبات- سيكون دليلَ إدانة. لقد أطلِقت النّار عليه في ظهره، وتخلّصنا من الجثّة، ثمّ لذنا بالفرار. إن حدث أنْ عُثر عليه يوماً، سيجيئون بحثاً عنّا، والآن والداي كذبا من أجلنا. جريمة أخرى؛ لذا علينا أن نتوخّى الحذر.

- إلى متى؟

- إلى الأبد يا فتاتي الصّغيرة.

❄

عزيزي ماثيو،

لقد اتّصلتُ بدار الرّعاية كلّ يومٍ هذا الأسبوع، أدّعي أنّني قريبتك. الجواب هو نفسه دائماً: ما من تغيُّر. وهذا يكسر جزءاً جديداً من قلبي كلّ مرّة.

أعلم أنّي لن أستطيع إرسال هذه الرّسالة أبداً، وأنّك -حتّى لو أرسلتُها- لن تتمكّن من قراءتها، أو لن تفهم الكلمات. لكن عليّ أن أكتب

لك، حتّى لو كانت الكلمات سدى. لقد قلتُ لنفسي (وقال لي الآخرون مراراً) إنّني أحتاج إلى أن أمضي قدماً بحياتي الجديدة، وأنا أحاول أن أفعل ذلك، أحاول حقّاً.

لكنّك داخلي، جزءٌ منّي، وربّما حتّى الجزء الأفضل. لستُ أتحدّث عن طفلنا وحسب. أنا أسمع صوتك في رأسي، تكلّمني في نومي حتّى بتّ معتادةً على السّير والدّمعُ على خدّيّ.

أظنّ أنّ أمّي كانت على حقّ بشأن الحبّ؛ فعلى الرغم من كلّ اضطرابها، هي تفهم متانته، وتحمّله، وخبله. ليس بوسع المرء أن يحمل نفسه على الوقوع في الحبّ، كما أفترض، وكذلك ليس بوسعه حملها على الخروج من حفرته.

أحاول أن أتأقلم هنا، أبذل جهدي. أقصد، سوزان غرانت هي الّتي تحاول التّأقلم. الشّوارع مكتظّة بالسّيّارات، والنّاس يتراصّون فوق الأرصفة، وما من أحد تقريباً ينظر إلى آخر، أو يقول: مرحباً. غير أنّك كنت محقّاً بشأن الجمال مع ذلك؛ فحين أترك نفسي أراه، يكون موجوداً. أراه في جبل رينير، الذي يذكّرني بجبل إيليامنا، ويستطيع أن يظهر ويختفي بسحرٍ ساحر. هنا، يسمّونه «الجبل»؛ لأنّهم لا يملكون غيره في الواقع. ليس كما عندنا، حيث تشكّل الجبالُ عمودَ عالِمنا الفقريَّ المكشوف.

جدّاي يشغلان بالهما بأكثر الأشياء غرابة: ترتيب الطّاولة، موعد تناول الطّعام، إجادتي لدسّ الشّراشف تحت فراش السّرير، مدى شدّي لضفيرة شعري. منذ أيّام، ناولتني جدّتي ملقطاً وطلبت منّي أن أنتف حاجبيّ.

لكنّنا استأجرنا منزلاً لطيفاً صغيراً ليس بعيداً عنهما، وبوسعنا أن نزورهما شرط توخّي الحذر. أظنّ أنّ أمّي فوجئت إذْ ألفت نفسها تحبّ أن

تكون برفقة والديها. لدينا الكثير من الطّعام وملابس جديدة، وحين نجلس جميعنا حول مائدة العشاء، نحاول أن نحيك خيوط حيواتنا ببعضها، أن نصلح القُطَب التي أفلتت من صنّاراتنا، وما إلى هنالك.

ربّما هذا هو الحبّ.

❄

عزيزي ماثيو،

عيد الميلاد هنا أشبه بحدث ألعابٍ أولمبيّةٍ، لم أرَ مثل هذه الكميّة من البهرجة والأطعمة في حياتي. لقد قدّم لي جدّاي عدداً كبيراً من الهدايا حتّى صار الأمر محرجاً. لكن في ما بعد، حين خلوتُ إلى نفسي في غرفتي، أحدّق من النّافذة إلى جيران نتجنّبهم، وأنظر إلى منازل تلفّها أضواء الزّينة المتألّقة، أخذني التّفكير في الشّتاء الحقيقيّ، وفيك.. فينا...

تأمّلت صورة جدّيك، وأعدت قراءة المقالة التي كتبتها جدّتك.

أتساءل كيف يبدو الأمر لطفلتنا. أتراها تشعر بالتّقلقل الّذي يعتريني؟ هل تُعزف أغنيةُ قلبي المكسور على مسمعها؟ أريدها أن تكون سعيدة، أريدها أن تكون ابنة حبّنا، ابنة الشّخصين اللّذين كنّاهما.

أظنّني أحسست بالطّفلة تتحرّك اليوم...

أفكّر فيها باسم ليلي، على اسم جدّتك.

على الفتيات أن يكنّ قويّات في هذا العالم.

❄

عزيزي ماثيو،

لا أصدّق أنّنا دخلنا عام 1979. لقد اتّصلت بدار الرّعاية مجدّداً اليوم وسمعت المعتاد. لا تغيّرات.

لسوء الحظّ، سمعتني أمّي أتّصل، فخرجت عن طورها وقالت إنّني غبيّة. يبدو أنّ بوسع الشّرطة أن يتعقّبوا المكالمة إن أرادوا، لذا لم يعد يمكنني الاتّصال. لا أستطيع أن أعرّضنا جميعاً للخطر، لكن كيف لي أن أتوقّف؟ هذا كلّ ما ظلّ لي منك. أنا أعرف أنّك لن تتحسّن، لكنّني كلّما اتّصلت أقول لنفسي: ربّما هذه المرّة. الأمل هو كلّ ما لديّ، أكان مجدياً أم لا.

لكن هذه هي الأخبار السّيئّة، وهي هيّنة. أنت تريد أخباراً جيّدة، فنحن في عام جديد.

أنا أرتاد جامعة واشنطن، لقد حرّكت جدّتي بعض الأمور واستطاعت أن تتدبّر تسجيل سوزان غرانت من دون وجود ما يثبت تخرّجها في الثّانويّة. الحياة مختلفة بلا شكّ في «العالم الخارجيّ»، فكميّة المال الّتي يملكها المرء أمر مهمّ هنا.

ليست الجامعة كما توقّعتها. بعض الفتيات يرتدين كنزات شيتلاند المزغّبة، والتّنانير مربّعة النّقوش، والجوارب التي تبلغ الرّكبة، أظنّ أنّهنّ فتياتُ أخويّات. لا يكففن عن الكركرة والتّكوّم على بعضهنّ مثل الغنم، والفتيان الّذين يتبعونهنّ مثل ظلالهنّ صاخبون بحيث يمكن لدبٍّ أن يسمعهم قادمين من بُعد ميل.

في قاعة المحاضرات، أتظاهر أنّك بجانبي. ذات مرّة صدّقتُ الأمر حتّى كدتُ أكتب لك قصاصة ورق وأمرّرها من تحت الطّاولة.

أنا مشتاقة إليك. أشتاق إليك كلّ يوم، وفي اللّيالي أكثر. وكذلك تفعل ليلي. لقد بدأت تركل وتوقظني من النّوم أحياناً. وعندما تبدأ بالتّقلّب مثل سنجاب مجنون، أقرأ عليها قصائد روبرت سيرفس، وأحكي لها عنك.

وهذا يهدّئها على الفور.

❄

عزيزي ماثيو،

الرّبيع هنا لا يشبه الفسحة الألاسكيّة في شيء. ما من أراضٍ تتداعى، ولا قطع جليد بحجم المنازل تنفكّ متحرّرة، ولا أغراض مفقودة يبصقها الوحل.

لا شيء إلّا اللّون في كلّ مكان. لم يسبق لي أن رأيت هذا العدد من الأشجار المزهرة؛ اللّون الورديّ يغطّي حرم الجامعة.

يقول جدّي إنّ التّحقيق ما زال مفتوحاً، لكن لم يعد أحد يبحث عنّا، افترضوا أنّنا متنا.

بطريقة ما، هذا صحيح. لقد تبخّرت عائلة أولبرايت إلى عدم.

في اللّيل، بتّ أتحدّث إليك وإلى ليلي الآن. أهذا يعني أنّني مجنونة أم وحيدة وحسب؟ أتخيّلنا ثلاثتنا متغلغلين ببعضنا على السّرير، وأضواء الشّمال تقيم عرضاً خارج نافذتنا فيما تنقر الرّيح على الزّجاج. ألقّنُ طفلتنا أن تكون ذكيّةً وشجاعةً، شجاعةً مثل أبيها. أحاول تلقينها أن تحمي نفسها من الخيارات الرّهيبة التي قد تواجهها ذات يوم. أخاف أن نكون -نحن نساء أولبرايت- ملعونات في الحبّ، فأتمنّى أن تكونَ صبيّاً، ثمّ أتذكّرك تقول إنّك تريد أن تعلّم ابنك الأشياء الّتي تعلّمتها من حياة الاكتفاء الذّاتيّ، و... حسناً، ذلك يصيبني بحزن شديد فأزحف إلى السّرير، وأشدّ الغطاء فوق رأسي، ثمّ أتظاهر أنّني في ألاسكا شتاءً. يتحوّل نبض قلبي إلى رياح تدقّ الزّجاج.

الصّبيّ يحتاج إلى أبٍ، وأنا كلّ ما لدى ليلي.

يا لها من فتاة مسكينة!

❄

- «دروس لاماز تلك كانت خزعبلات». صاحت ليني حين عصر الانقباضُ التّالي أحشاءها، وجعلها تصرخ: «أريد مخدّراً».

- «أنتِ التي أردتِ ولادةً طبيعيّة، فات الأوان على المخدّر الآن». قالت أمّها.

- «عمري ثمانية عشر، لماذا تصغون إلى ما أريده؟ أنا لا أعرف شيئاً». أجابت ليني.

انحسر الانقباض، وخفّ الألم.

راحت تلهث، وخيوط العرق تزحف على جبينها.

أخذت الأمّ رقاقة ثلج من الكوب البلاستيكيّ على الطّاولة قرب سرير المستشفى ووضعتها في فم ابنتها.

- «أضيفي إليه المورفين يا ماما». توسّلت ليني: «أرجوكِ، لا أستطيع تحمّل هذا. لقد اقترفتُ خطأً، لست جاهزةً لأكون أمّاً».

ابتسمت أمّها: «ما من أحد يكون جاهزاً».

بدأ الألم يتصاعد من جديد. كزّت ليني على أسنانها، تحاول التّركيز على التّنفّس (كأنّ ذلك يساعد في شيء)، وقبضت على يد أمّها.

أغمضت عينيها تعصر جفونها وتلهث، حتّى بلغ الألم ذروته. وحين بدأ -أخيراً- يهمد، ألقت ظهرها على السّرير من جديد، وقد استنزفت قواها. قالت لنفسها: ينبغي أن يكون ماثيو هنا، لكنّها دفعت الفكرة جانباً.

جاء انقباض آخر بعد ثوانٍ قليلة. وهذه المرّة، عضّت ليني على لسانها بقوّة حتّى نزف.

- «اصرخي». قالت أمّها.

فُتح الباب ودخلت طبيبتها. كانت امرأة نحيلة ترتدي مريلةً زرقاء،

وقلنسوة جراحيّة، وقد نُتف حاجباها على نحوٍ غير متطابق، ما منحها مظهراً أعوجَ بعض الشّيء. «سيّدة غرانت، كيف نشعر الآن؟». سألتها.

- أخرجي هذا الشّيء منّي، أرجوك!

أومأت الطّبيبة برأسها، وارتدت قفّازين: «فلنتفقّد الوضع، أتسمحين؟». باعدت بين مسندي القدمين.

في الحالة الطّبيعيّة، ما كانت ليني لتشعر بالرّاحة لجلوس شخص لا تكاد تعرفه بين ساقيها المفتوحتين، لكنّها الآن لن تتردّد في فتح ساقيها على شرفة إطلالة برج إبرة الفضاء إن كان ذلك كفيلاً بإنهاء هذا الألم.

- «يبدو أنّنا على وشك الولادة». قالت الطّبيبة بنبرة متّزنة.

- «حقاً!». صاحت ليني من انقباضٍ آخر.

- حسناً يا سوزان، ادفعي. بقوّة، أكثر.

فعلت ليني ذلك. دفعت، وصرخت، وتعرّقت، وشتمت.

ثمّ، بالسّرعة نفسها الّتي باغتتها بها، انتهى الألم.

انهارت فوق السّرير.

- «صبيّ». قالت الطّبيبة، ثمّ التفتت إلى الأمّ: «أيّتها الجدة إيف، أترغبين في قطع الحبل؟».

وكما لو من خلف غشاوة، شاهدت ليني أمّها تقطع الحبل السّرّيّ وتتبع الطّبيبةَ إلى حيث لفّتا الوليد ببطّانيّة حراريّة لها لون أزرق شاحب. حاولت ليني أن ترفع ظهرها، لكن لم يكن قد تبقّى لديها أيّ قوة.

صبيّ يا ماثيو، ابنك.

غير أنّ الذّعر اعتراها: إنّه يحتاج إليك يا ماثيو، لا أستطيع أن أفعل هذا...

أعانتها أمّها على النّهوض إلى وضعيّة جلوس، ووضعت اللّفّة الصّغيرة بين ذراعيها.

ابنها. كان أصغر شيء رأته في حياتها، بوجه يشبه حبّة الدّرّاق، وعينين داكنتي الزّرقة تنفتحان وتغمضان، وفم صغير مثل برعم وردة يتحرّك مستجدياً الرّضاعة. نتأت قبضةٌ زهريّة من البطّانيّة الزّرقاء، فمدّت ليني يدها إليها.

قبضت أصابع الطّفل المنمنمة على إصبعها.

فاض في داخلها حبٌّ سافعٌ، مطهِّرٌ، غامرٌ، طوّق قلبها وفرطه إلى مليون قطعة صغيرة، ثمّ أعاد تشكيله. «يا الله». قالتها برهبة.

- «أجل». قالت أمّها: «كنتِ تسألين عن هذا الشّعور».

- «ماثيو دينالي ووكر، الابن»، قالت بصوت خفيض. ألاسكيّ من الجيل الرّابع لن يعرف أباه يوماً، لن يحسّ بذراعي ماثيو القويّتين تطوّقانه، أو يسمع صوته الذي يشدّ الأزر.

- «مرحباً يا أنت». قالت.

الآن علمت لماذا هربت من جريمتهما. لم تكن تعلم من قبل، لم تفهم بحقّ ما كان يمكن أن تخسره.

هذا الطّفل.. ابنها..

لن تتردّد في التّضحية بحياتها كي تحميه، ستفعل أيّ شيء وكلّ شيء كي تبقيه في مأمن. حتّى لو كان ذلك يعني أن تصغي إلى أمّها، وتقطع آخر خيط هزيل يربطها بألاسكا وماثيو؛ اتّصالاتها بدار الرّعاية. لن تعاود الاتّصال. مجرّد الفكرة مزّقت نياط قلبها، لكن ماذا عساها تفعل غير ذلك؟ لقد أضحت أمّاً الآن.

كانت تبكي دموعاً ناعمة. ربّما سمعتها أمّها فعرفت السّبب، وعرفت أن ليس ثمّة ما يقال؛ أو لعلّ كلّ الأمّهات يبكين في هذه اللّحظة. «ماثيو». همست، وهي تداعب خدّه المخمليّ: «سنناديك إم جاي. كانوا ينادون أباك ماتي في بعض الأحيان، لكنّني لم أناده بهذا الاسم قطّ... وهو يعرف كيف يطير... كان ليحبّك كثيراً...».

⁎1986⁎

* 27 *

- «لا أعرف كيف أعيش مع ما فعلتُه بحياتها». قالت كورا.

- «لقد انقضت سنوات». أجابتها أمّها: «انظري إليها، إنّها سعيدة. لماذا علينا أن نظلّ نخوض في هذا الحديث؟».

أرادت كورا أن تتفّق مع أمّها، فهذا ما كانت تعلّل به نفسها يوميّاً. انظري، إنّها سعيدة. في بعض الأحيان، كانت تقارب أن تصدّق ذلك تماماً، ثمّ تأتيها أيّام مثل اليوم. لا تعرف ما الذي يسبّب التّغيّر؛ الطّقس ربّما، العادات القديمة، ذلك الخوف النهم الذي ما إن يتحرّك داخلك حتّى ينحفر في عظامك، ويقبع هناك إلى الأبد.

مرّت سبع سنوات منذ أخرجت كورا ليني من ألاسكا، وأحضرتها إلى هنا، إلى المدينة المتربّعة على حافّة الماء.

كانت ترى كم حاولت ليني أن تضرب جذوراً لها في هذه الأرض البليلة الغنيّة، كم حاولت أن تُزهر، لكنّ سياتل مدينة مأهولة بمئات الآلاف، لا تستطيع أبداً أن تتكلّم باللّغة الوعرة التي تنطق بها روح الرّواد السّاكنة في ليني.

أشعلت كورا لفافة تبغ، وسحبت الدّخان إلى رئتيها، ثمّ تركته يتلبّث هناك؛ هدّأتها العادةُ المألوفة من فورها. نفثت ورفعت ذقنها، محاولةً أن

تأخذ راحتها على كرسيّ التّخييم. كان أسفل ظهرها يؤلمها من نوم ليلة البرّيّة الزّائفة في خيمة، وأنفاسها مرهَقة من بردٍ لحوح.

على مسافةٍ غير بعيدة، ليني واقفة عند حافّة النّهر، وثمّة صبيّ صغير على أحد جانبيها، وشيخ على الآخر. رمت خيط صنّارتها في قوسٍ رشيقٍ متمرّسٍ، ففرقع وتراقص في الهواء قبل أن يستقرّ في الماء السّاكن. شمس أواخر الرّبيع تصبغ كلّ شيء بالذّهب؛ الماء، والشّخوص الثّلاثة المتفاوتة، والأشجار القريبة. وعلى الرغم من الشّمس المشرقة فوقهم، بدأ سقوط المطر، قطرات صغيرة يفرزها الهواء الرّطب.

إنّهم في غابة هوه المطريّة، واحدة من آخر ملاذات البرّيّة البكر في النّصف الغربيّ المأهول لولاية واشنطن. كانوا يأتون إلى هنا كلّما استطاعوا، وينصبون خيامهم في مواقع تخييم تقدّم الكهرباء والماء. هنا، بعيداً عن الحشود، يتسنّى لهم أن يكونوا على ذواتهم الحقيقيّة، فلا يتعيّن عليهم القلقُ من أن يُشاهَدوا معاً، أو تلفيقُ القصص، أو رواية الأكاذيب. منذ سنوات، ما عاد أحد يأتي على ذكر عائلة أولبرايت في ألاسكا، أو يذهب للبحث عن أيّ من أفرادها، لكن مع ذلك، كانوا متيقّظين على الدّوام.

ليني تقول إنّها تستطيع التّنفّس في هذه البرّيّة، حيث الأشجار لها قُطر مركبات الفولكس فاغن، وقد تطاولت بما يكفي لتحجب الشّمس الحَرون. تقول إنّ عليها تعليم ابنها أشياء تشكّل جزءاً من إرثه، دروساً لا يُمكن تلقينها في عالمٍ معبّدٍ مضاء بمصابيح الشّوارع؛ أشياء كان أبوه ليعلّمه إيّاها.

خلال السّنوات القليلة الماضية، أضحى والد كورا صيّاد سمك شرهاً، أو لعلّه لم يكن سوى جدٍّ شرهٍ لا يتوانى عن فعل أيّ شيء وكلّ شيء يتكفّل

بجعل ليني وإم جاي يبتسمان. لقد كفّ عن العمل في القانون، وتحوّل إلى التّسكّع في زوايا منزله.

لذا كانوا يجيئون للتّخييم هنا متى تسنّى لهم ذلك، بصرف النّظر عن المطر الذي يستقبلهم عشر مرّات من كلّ اثنتي عشرة، حتّى في منتصف الصّيف. يصيدون السّمك من أجل العشاء، ويقلونه في مقالٍ من الحديد الصبّ على نارٍ في العراء. وفي اللّيل، بينما هم متحلّقون جميعاً حول نار السّمر، تتلو ليني قصائدَ، وتروي قصصاً تدور أحداثها في مجاهل برّ ألاسكا.

لم تكن تلك متعةً بالنّسبة إلى ليني، بل شيء مختلف، حيويّ، طريقة لتنفيس الضّغط الذي يتراكم طيلة الأسبوع، وهي تسير بين أمم البشر في حرم جامعة واشنطن الشّاسع، وتبيع الكتب للزّبائن الدّائمين خلال عملها ذي الدّوام الجزئيّ في مكتبة شوري العملاقة في الجادّة الأولى، وتحضر دروس التّصوير الضّوئيّ ليلاً.

كانت تأتي إلى هنا كي تعيد إيجاد نفسها في الطّبيعة، كي تستردّ الشّذرة التي تستطيع العثور عليها من روحها الألاسكيّة مهما بلغت من الصّغر، كي تصل ابنَها بالأب الذي لم يعرفه، والحياة التي كانت له بحقّ المولد من دون أن يملكها في الواقع. ألاسكا، التّخم الأخير، الأرض التي ستظلّ وطن ليني إلى الأبد، المكان الذي تنتمي إليه.

- «يمكنكِ سماعه يضحك». قالت أمّها.

أومأت كورا. لقد كان هذا صحيحاً؛ فعلى الرغم من قرع الطّبول الصّادر عن المطر المتزايد، عن القطرات التي تحطّ على خيام النّايلون والقلانس البلاستيكيّة وأوراق الشّجر ذات حجم الأطباق، كان بوسعها سماع ضحكة حفيدها.

كان إم جاي أكثر الأطفال هناءةً؛ صبيّ يقيم الصّداقات بسهولة، ويمتثل للقوانين، ولا يزال يمسك يدك وأنتما تسيران على الرّصيف نحو المدرسة. تهمّه الأمور المعتادة التي تهمّ صبيّاً في سنّه: دمى الأبطال، وأفلام الكرتون، والمثلّجات في الصّيف. لم يزل صغيراً كفايةً كي لا يطرح الكثير من الأسئلة عن أبيه، لكنّ هذا سيأتي في حينه، الجميع يعرف ذلك. كورا تعرف أيضاً أنّ إم جاي، حين ينظر إلى ابتسامة أمّه، لا يبصر أيّاً من الظّلال القابعة خلفها.

- «أتظنّين أنّها ستسامحني ذات يوم؟». طرحت سؤالها، وعيناها ثابتتان على ليني.

- أوه، حبّاً بالقديس بطرس. علامَ تسامحك؟ على إنقاذ حياتها؟ هذه الفتاة تحبّك يا كورالين.

سحبت كورا سحبةً طويلة من لفافة تبغها، ثمّ نفثت الدّخان. «أعلم أنّها تحبّني، لم أشكّ ولو لثانية في ذلك، لكنّني تركتها تشبّ في ساحة حرب، تركتها ترى ما لا ينبغي لأيّ طفل أن يراه، تركتها تختبر الخوف من رجُل كان يُفترض به أن يحبّها، ثمّ قتلتُه أمام عينيها، وهربتُ وجعلتها تعيش حياتها باسمٍ مستعار. ربّما لو كنتُ أكثر قوّة، وشجاعة، لاستطعتُ أن أغيّر القانون مثل إيفون وانرو(*)».

- لقد استغرقت قضيّة تلك المرأة سنيناً حتّى وصلت إلى المحكمة العليا، عدا عن أنّك كنتِ في ألاسكا لا واشنطن. من كان ليعرف أنّ

(*) إيفون وانرو (المعروفة الآن باسم إيفون ل. سوان): هي أمريكيّة من السّكّان الأصليّين اشتُهرت بسبب محاكمتها في عام 1972 بخصوص إطلاقها النّار على رجل اعتدى على ابنها، وأصبحت عَلَماً في صفوف النّسويّين وحركات حقوق السّكّان الأصليّين. (المترجم)

القانون سيعترف في النّهاية بحقّ النّساء المعنّفات في الدّفاع عن أنفسهنّ؟ وأبوك ما زال يقول إنّ ذلك نادراً ما يُطبَّق. عليك أن تتجاوزي الأمر برمّته، وكذلك هي. انظري إليها، هناك مع ابنها، تعلّمه صيد السّمك. ابنتك على ما يرام يا كورا. إنّها بخير. لقد غفرت لك، وعليك أن تغفري لنفسك.

- إنّها بحاجة إلى أن تعود إلى المنزل.

- «إلى المنزل؟ إلى الكوخ الذي يفتقر إلى الصّرف الصّحّيّ والكهرباء؟ إلى الفتى ذي الدّماغ التّالف؟ إلى تهمةٍ بالاشتراك بعد الواقعة؟ ثمّة فحص دم جديد يتوفّر الآن، شيء له علاقة بالحمض النّوويّ، لذا كفاكِ سخفاً يا كورا». مدّت يدها ولفّت ذراعها حول كتف ابنتها: «فكّري في كلّ ما لقيتماه هنا. ليني تتلقّى تعليماً، وهي في طريقها إلى أن تصبح مصوّرةً مدهشة، وأنت تحبّين عملك في المعرض الفنّيّ، منزلك دافئ على الدّوام، ولديك عائلة تستطيعين الاعتماد عليها».

لقد غُفر لها ما فعلته بابنتها، هذا صحيح، وغفران ليني كان حقيقيّاً وصادقاً مثل نور الشّمس، لكنّ كورا، على الرغم من كلّ محاولاتها طيلة هذه السّنوات، لم تستطع أن تغفر لنفسها. ليس إطلاق النّار ما كان يؤرّقها؛ فهي تعلم أنّها كانت لتقدم على الجريمة نفسها من جديد لو تكرّرت الظّروف.

هي لم تستطع أن تسامح نفسها على السّنوات التي سبقت ذلك، على ما سمحت به وقبلته، على تعريف الحبّ الذي أورثته لابنتها مثل تعويذة قاتمة.

بسبب كورا، تعلّمت ليني أن تَقنع بنصف حياة، فتتظاهر أنّها شخصٌ آخر، في مكان آخر.

بسبب كورا، لا تستطيع ليني أن ترى الرّجُل الذي تحبّه، أو تعود إلى الوطن من جديد. كيف لكورا أن تغفر لنفسها هذا؟

❄

ابتسمي.

أنت سعيدة.

لا تعرف ليني لماذا عليها تذكير نفسها أن تبتسم وتبدو سعيدة في هذا اليوم المشرق، فيما هم في الحديقة للاحتفال بتخرّجها في الجامعة.

إنّها سعيدة.

حقّاً.

لا سيّما اليوم. هي فخورة بنفسها؛ أوّل أنثى في عائلتها تتخرّج في الجامعة.

(لقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً).

ومع ذلك، إنّها في الخامسة والعشرين من عمرها، أمّ عازبة، وتحمل -بدءاً من الغد- شهادةً جامعيّةً في الفنون البصريّة. لديها عائلة محبّة، وأفضل طفل في العالم، ومكان دافئ تعيش فيه. لا تعاني من أيّ جوع، أو برد، أو خوف على حياة أمّها، مخاوفها الوحيدة الآن هي مخاوف الأهل الاعتياديّة؛ عبور الأطفال للشّارع وحدهم، سقوطهم عن المراجيح، الغرباء الذين يظهرون من حيث لا تدري. وهي لا تنام على أصوات الصّراخ، أو البكاء، ولا تستيقظ على أرضيّةٍ مكسوّةٍ بالزّجاج المكسور.

إنّها سعيدة.

لا يهمّ أنّها تمرّ أحياناً بأيّام مثل هذا اليوم، حيث ينتأ الماضي في مجال رؤيتها من دون كلل.

بالطّبع ستفكّر في ماثيو اليوم، في هذا اليوم تحديداً، فهو يومٌ كانا يتحدّثان عنه كثيراً. كم مرّة بدأ حوار بينهما بـ: عندما ننهي الجامعة...؟

بحركة غريزيّة، رفعت آلة تصويرها، وضيّقت مجال رؤيتها للعالم. بهذه الطّريقة كانت تتعامل مع ذكرياتها، وبها تعالج العالم وتستوعبه؛ من خلال الصّور. فعن طريق آلة تصوير، بوسعها أن تقصقص حياتها، وتعيد تأطيرها.

سعادة.. بسمة..

كليك.. كليك.. كليك.. ثمّ تعود إلى نفسها من جديد، تستطيع أن ترى الأمور المهمّة.

سماء زرقاء لا تشوبها شائبة، من دون غيمة واحدة على مدّ البصر، والنّاس حولها من كلّ صوب.

كان ضوء الشّمس ينادي على السّياتليّين بلغة يفهمونها، يخرجهم سَحباً من منازلهم التي تغطّي السّفوح، ويشجّعهم على انتعال أحذيةٍ رياضيّةٍ باهظة الثّمن، والاستمتاع بالجبال، والبحيرات، وطرق الغابات الملتفّة. وبعد ذلك يتوقّفون عند متجر بقّاليّة ثريفتواي المحلّيّ من أجل شرائح لحم مغلّفة مسبقاً يضعونها على شوّاياتهم في حفلات شواء نهاية الأسبوع.

الحياة ناعمة هنا في سياتل، آمنة ومحتواة. ممرّات مشاة، وإشارات مرور، وخوذ، وشرطة على صهوات خيول، ودرّاجات.

بوصفها أُمّاً، كانت تقدّر كلّ هذه الحماية، وتحاول أن تستقرّ في هذه الحياة المريحة. لم تخبر أحداً -ولا حتّى أمّها- كم تشتاق إلى عواء الذّئاب، أو قضاء يوم بمفردها على ماكينة الثّلج، أو أصداء تصدّع الجليد

في فسحة الرّبيع. باتت تشتري لحمها بدلاً من اصطياده، تفتح الصّنبور للحصول على الماء، وتطرد الماء في مرحاضها حين تنتهي. السّلمون الذي تشويه في الصّيف يصل إليها منظّفاً، ومقطّعاً إلى شرائح، ومغسولاً، محبوساً خلف أغلفة السّيلوفان مثل شرائط فضّيّة وورديّة من الحرير.

اليوم، كلّ النّاس يضحكون من حولها، ويتكلّمون. الكلاب تنبح، وتثب لالتقاط الأقراص الطّائرة. الفتيان المراهقون يتقاذفون كرات القدم في ما بينهم.

- «انظري!». قال إم جاي يشير إلى بالون ورديّ كُتب عليه: «تهانينا أيّتها الخرّيجة!» يتمايل في نهاية شريط أصفر، كان يحمل قطعة كاب كيك أُكِل نصفها في يده، وقد ترك الكريم الذي يغطّيها لحيةً على وجهه.

ليني كانت تعلم أنّه يكبر بسرعة (بات في الصّفّ الأوّل الآن)، لذا عليها أن تداعبه وتغطّيه بالقبلات مغتنمةً أنّه ما زال يسمح بذلك. حملته بين ذراعيها، فمنحها قبلة مبلّلة بالعرق وكريم الزّبدة، وعانقها بطريقته المميّزة؛ يغمرها بكامل جسده، ويلقي ذراعيه حول عنقها كما لو أنّه يغرق إن تركها. الحقيقة أنّها هي التي ستغرق إن تركته.

- «من أيضاً جاهز للحلوى؟». قالت الجدّة غوليهر من مكانها عند طاولة النّزهات. لقد انتهت توّاً من تجهيز الطّاولة، ووضعت عليها الحلوى المفضّلة لدى ليني؛ الأكو تاك: مثلّجات إسكيمو مصنوعة من الثّلج، وسمن الكريسكو، والتّوت الأزرق، والسّكّر. كانت أمّها قد احتفظت بكتل من ثلج الشّتاء في الثّلاجة، لهذا الغرض بالتحديد.

وثب إم جاي متحرّراً من حضن أمّه، ورفع يديه بانتصار (يديه كلتيهما، ليضمن أن يُرى): «أنا! أريد أكو تاك!».

لفّت الجدّة من حول طاولة النّزهات، ووقفت بجانب ليني. لقد تغيّرت كثيراً خلال السّنوات القليلة الماضية، خفّ تحفّظها، على الرغم من أنّها ما زالت تعتني بلباسها كأنّها ذاهبة إلى النّادي الرّيفيّ حتّى في أثناء نزهة.

- «أنا فخورة بك جدّاً يا ليني». قالت.

- وأنا فخورة بنفسي أيضاً.

- صديقتي سوندرا من النّادي تقول إنّ ثمّة شاغراً لوظيفة مساعد مصوّر في مجلّة صانِست، هل أطلب منها أن تتصّل نيابةً عن سوزان غرانت؟

- «أجل». قالت ليني: «أقصد، من فضلك». لم يكن بمقدورها أن تتأقلم تماماً مع الطّريقة التي تُجرى بها الأمور هنا، بدا أنّ الحياة تكافئك على من تعرفهم أكثر ممّا على ما تستطيع فعله.

غير أنّها موقنة من أمر واحد: أنّها محبوبة. لقد رحبّت جدّتها وجدّها بهم منذ البداية. وطيلة الأعوام القليلة الماضية، عاشت ليني وأمّها وإم جاي في منزل مستأجَر صغير بحيّ فريمونت، وكانوا يزورون جدّيها في نهايات الأسابيع. ظلّت هي وأمّها متيقّظتين دائماً أوّل الأمر، تخشيان عقد الصّداقات، أو التّحدّث إلى الغرباء، لكن مع مرور الوقت، كفّت شرطة ألاسكا البحثَ عنهما، وبهت تهديد الانكشاف متراجعاً إلى خلفيّة حياتهما.

كان إم جاي يثير الكثير من الجلبة، ويتمتّع بمقدار وافر من الطّاقة يحوّل المنزل الرّزين في كوين آن هيل إلى مكانٍ صاخب. في اللّيالي التي يقضونها معاً، يتجمّعون حول التّلفاز لمشاهدة برامج بدت عديمة المعنى بالنّسبة إلى ليني. (هي تقرأ، عوضاً عن ذلك؛ كانت في قراءتها الثّالثة على التّالي لرواية مقابلة مع مصّاص الدّماء). إم جاي كان العجلة، وهم جميعاً

محاورها. حبّه يوحّدهم، ويسعدون طالما كان سعيداً. وهو طفلٌ سعيدٌ للغاية، النّاس يعقّبون على ذلك طيلة الوقت.

رأت ليني أمّها، واقفةً وحدها عند طرف فناء اللّعب، تدخّن، باسطةً يدها على أسفل ظهرها بطريقة بدت غير طبيعيّة.

من صورتها الجانبيّة، استطاعت ليني أن ترى كم كانت عظام وجنتي أمّها حادّة، وكم تفتقر شفتاها إلى اللّون، وكم بات وجهها نحيلاً. كالعادة، لم تكن تضع أيّة مساحيق تجميل، وتكاد تبدو نصف شفّافة. لقد كفّت عن صبغ شعرها منذ سنوات؛ صار الآن أشقر تتخلّله خيوط رماديّة.

- «أريد أكو تاك!». هتف إم جاي يشدّ ليني من كمّها. كان صوته متبلّداً بسبب الانسداد الذي سبّبته له نزلة البرد الأخيرة. منذ بدأ بارتياد المدرسة الخاصّة القريبة من البيت، لم يتوقّف -وكذلك هم جميعاً في الحقيقة- عن معاركة نزلات البرد.

- «وما هي الطّريقة اللّائقة لطلب ذلك؟». سألته ليني.

- «رجاااااءً!». أجاب إم جاي.

- حسناً، اذهب وأحضر جدّتك. قل لها أن تطفئ لفافة التّبغ السّيّئة، وتأتي إلى الطّاولة.

انطلق كالرّصاصة، ساقان بيضاوان هزيلتان تتحرّكان مثل خفّاقات البيض، وشعره الأشقر يتطاير فوق وجهه الشّاحب الدّقيق.

شاهدته يسحب أمّها إلى طاولة النّزهات، وقد تورّد وجهها من الضّحك.

أشاحت ليني بنظرها، مبعدةً انتباهها عنهما للحظة قصيرة. رأت رجُلاً يقف قرب بوّابة الدّخول إلى هذه الحديقة العامّة، له شعر أشقر.

إنّه هو.

لقد وجدها.

لا.

تنهّدت ليني. هي لم تهاتف دار التّمريض منذ سنوات، كثيراً ما كانت ترفع سمّاعة الهاتف، ثمّ تعدل عن الاتّصال. لا يهمّ أنّ تهديد الانكشاف قد قلّ، فهو ما يزال قائماً. وعدا عن ذلك، حين كانت تتّصل، آنذاك قبل سنوات، كانت تجد وضعه على حاله في كلّ مرّة: لا تغيّرات.

كانت تعلم أنّه تعرّض لتلف يتعذّر إصلاحه بسبب السّقوط، وأنّ الفتى الذي تحبّه لا يعيش إلّا في أحلامها. أحياناً، في اللّيل، يهمس لها في نومها؛ ليس دائماً، ولا حتّى كثيراً، لكن بما يكفي لشحذ عزيمتها. في أحلامها، ما يزال الفتى المبتسم الذي أهداها آلة تصوير، وعلّمها أنّ الحبّ لا يكون مخيفاً دائماً.

- «هيّا». قالت الجدّة، وأخذت ليني من ذراعها.

- «هذا رائع». قالت ليني. بدت لها الكلمات خشبيّة أوّل الأمر، تعوزها الحماسة، لكن حين راح إم جاي يقفز مصفّقاً ويصيح: «ياي، ماما!» بصوته الشّبيه بصوت ميكي ماوس، لم تستطع ألّا تبتسم.

تراجعت الحوافّ القاتمة من جديد، فانحسرت حتّى لم يبقَ سوى هذا المكان، سوى هذه اللّحظة. نهار تضيئه الشّمس، احتفال، عائلة. هكذا هي الحياة، ممتلئة بالتّغيّرات الزّئبقيّة. البهجة تعاود الظّهور بغتةً مثل ضوء الشّمس.

إنّها سعيدة.

إنّها كذلك.

❄

- «حدّثيني عن ألاسكا يا ماما». قال إم جاي تلك اللّيلة، وهو يخلد إلى سريره ويشدّ لحافه.

ردّت ليني الخصل البيضاء المجعّدة الرّقيقة عن جبين ابنها، وهي تفكّر -مجدّداً- كم كان يبدو مثل أبيه. «أفسح لي مكاناً». قالت له.

استلقت بجانبه، فأسند رأسه إلى كتفها.

كانت الغرفة مظلمة بمعظمها، لا يضيئها سوى مصباح صغير عليه رسوم حرب النّجوم قرب السّرير. على عكس ليني، كان ابنها يترعرع طفلاً لأمريكا التّجاريّة. بعد نزهة الحديقة، وكلّ المتعة التي حظيا بها اليوم، كانت تعرف أنّ إم جاي مرهَق، لكنّه ما كان لينام من دون قصّة.

- الفتاة الّتي أحبّت ألاسكا...

تلك كانت قصّته المفضّلة، لقد بدأتها ليني قبل سنوات، وتوسّعت فيها مع الوقت. تخيّلت مجتمعاً يعيش في مياه مضيقِ ألاسكيّ فيروزيّة لها برودة الجليد، داخل مبانٍ غُمرت حين ثار بركان آكو العظيم. أفراد هذا الشّعب -عشيرة الغراب- يتوقون إلى النّهوض نحو الضّوء من جديد، إلى المشي تحت أشعّة الشّمس، لكنّ لعنةً ألقاها أكبر أبناء عشيرة النّسر كانت قد حكمت عليهم بالبقاء في المياه الجليديّة إلى الأبد؛ حتّى تتمكّن هامسةٌ من استدعائهم للعودة. وكانت الهامسة هي كاتياك؛ فتاة أجنبيّة لها قلب صافٍ، وقوّة هادئة.

وأخذت أحداث القصّة تنبسط أسبوعاً تلو الآخر، فتروي ليني كلّ ليلة مقداراً كافياً لهدهدة ابنها كي ينام. كانت قد ابتكرت كاتياك بوحي من أساطير سكّان ألاسكا الأصليّين التي قرأتها في صباها، ومن الأرض الجميلة القاسية نفسها. وكان يوكي، الفتى الذي تحبه كاتياك -مشّاء البرّ- قد نادى عليها من الشّاطئ.

لم يكن ثمّة شكّ في فكر ليني حول هويّة العاشقَين، أو السّبب الذي يجعل القصّة تبدو لها بهذه التّراجيديّة.

- «تحدّت كاتياك الآلهة وتجرّأت على السّباحة إلى الشّاطئ. لم يكن يُفترض بها أن تكون قادرةً على فعل ذلك، بيد أنّ حبّها ليوكي منحها قدرةً خاصّة. ظلّت تركل وتركل حتّى تحرّرت من الأمواج أخيراً، وأحسّت بضوء الشّمس على وجهها.

خوّض يوكي في المياه الجليديّة الباردة، ينادي اسمها. رأت عينيه، خضراوين مثل المياه السّاكنة للخليج الذي كان وطن شعبها ذات مرّة، وشعره بلون نور الشّمس. "كات". قال لها: "خذي يدي"».

رأت ليني أنّ إم جاي غطّ في النّوم، فانحنت لتقبّله، ثمّ انسلّت من السّرير.

كان المنزل الصّغير ذو الطّابق الواحد هادئاً. الأمّ في غرفة المعيشة على الأغلب، تشاهد مسلسل ديناستي. سارت ليني في الرّدهة الضّيّقة لمنزلهم المستأجر، الجداران على جانبيها مزيّنان بصورها الفوتوغرافية، ورسوم إم جاي. منذ وقت طويل، زال رهاب الأماكن المغلقة الذي كان يُغِير عليها في هذه الرّدهة قاتمة الإضاءة المرصوفة بألواح الخشب الزّائف.

لقد روّضت البرّيّةَ الكامنة فيها بالتّصميم نفسه الذي روّضت به البرّيّة بعينها ذات زمان. تعلّمت الملاحة في الحشود، والعيش مع الجدران، والتّوقّف من أجل حركة المرور. تعلّمت أن تترقّب طيور أبي الحنّاء عوضاً عن النّسور، أن تشتري سمكها من متجر سيفواي، أن تدفع المال مقابل ملابس جديدة من متاجر فريدريك آند نيلسون. تعلّمت أن تنشّف شعرها ذا الطّبقات التي تبلغ كتفيها بالسّيشوار، وتحمّمه بالبلسم، وتُعنى بتناسق ملابسها. وباتت تنمص حاجبيها وتزيل شعر ساقيها وإبطيها هذه الأيّام.

تمويه.. لقد تعلّمت أن تتأقلم..

دخلت إلى غرفتها وأشعلت الضّوء. خلال سنوات عيشهم هنا، لم تغيّر شيئاً في هذه الغرفة، ولم تشترِ أيّ غرض بهدف تزيينها تقريباً، لم ترَ جدوى في ذلك. كانت الغرفة جرداء واعتياديّة، ممتلئة بأثاثٍ اشتروه من مبيعات المرائب على مرّ السّنوات. الأثر الوحيد للّيني نفسها هو معدّات التّصوير: العدسات، والكاميرات، وبكرات الأفلام الصّفراء الفاقعة، وأكوام من الصّور، ومجموعات من الألبومات. أحد الألبومات مُلئ بالصّور التي التقطتها لماثيو وألاسكا، والبقيّة أكثر حداثة. وعند زاوية مرآة التّبرّج ثُبّتت صورة جدَّي ماثيو؛ يمكننا أن نكون مثلهما، وبجانبها أوّل صورة التقطتها له بكاميرتها البولارويد.

فتحت الباب المفضي إلى المصطبة الصّغيرة المرصوفة بألواح خشب الأرز التي تحيط بمدار المنزل. في الفناء، كانت أمّها قد أقامت حديقة خضراوات كبيرة. خرجت ليني إلى المصطبة، وجلست على أحد كرسيَّي الأديرونداك اللّذين كانا هنا حين انتقلوا للسّكن. في الأعلى، بدت السّماء المؤتلقة بترتر النّجوم لا حدّ لها. ثمّة سياج متين من خشب الأرز يحدّد أرضهم الصّغيرة؛ استطاعت أن تشمّ الرّائحة البعيدة لأوّل حفلات شواء الصّيف، وتسمع جلبة درّاجات الأطفال تُعاد إلى أماكنها لتبيت اللّيلة. الكلاب تنبح، وهناك غرابٌ يصيح موبّخاً بنعيبٍ حادٍّ خفيض.

أسندت ظهرها إلى الكرسيّ، وراحت تحدّق نحو الأعالي، محاولةً أن تفقد نفسها في أطراف السّماء المترامية.

- «مرحباً». قالت أمّها من خلفها: «أترغبين في بعض الصّحبة؟».

- بالطّبع.

جلست الأمّ على الكرسيّ الآخر، القريب بما يكفي لتشابكا يديهما في أثناء جلوسهما هنا. لقد تحوّل هذا إلى مكانهما مع السّنوات، مصطبة ضيّقة تبرز نحو بُعدٍ ما لا ينتمي إلى الماضي، ولا إلى الحاضر. أحياناً، لا سيّما في هذا الوقت من العام، يعبق الهواء برائحة الورد.

- «أنا مستعدّة لتقديم أيّ شيء كي أرى أضواء الشّمال». قالت ليني.

- أجل، وأنا أيضاً.

راحتا ترنوان معاً إلى سماء اللّيل الهائلة. لم تنطق إحداهما بكلمة؛ ما من حاجة إلى ذلك. ليني تعرف أنّ كلّاً منهما تفكّر في الحبّ الذي كان لها ذات يوم.

- «لكن لدينا إم جاي». قالت الأمّ.

أمسكت ليني بيد أمّها.

إم جاي.. بهجتهما.. حبّهما.. رحمة الله بهما...

❄ 28 ❄

أصيبت كورا بذات الرّئة، وبالكاد كان ذلك مفاجئاً؛ إذْ إنّها كانت، طوال أسابيع، تلتقط كلّ مرض يسري في مدرسة إم جاي.

ها هي الآن جالسة في قاعة انتظار معقّمة، ينتابها السّخط، ولا تُطيق صبراً حتّى يُخلى سبيلها.

انتظار.

لقد قابلت بالتّقدير كلَّ الفحوص الهادفة إلى الطّمأنينة التي أصرّت طبيبة والدتها على إجرائها، وخضعت لها، لكنّها لا تريد إلّا أن تحصل على وصفة مضادّات حيويّة وتخرج من هنا، فإم جاي سيعود من المدرسة قريباً.

راحت كورا تقلّب صفحات العدد الأخير من مجلّة بيبول. («نظرة تيد دانسون الشّبقة تعود من جديد إلى مسلسل تشيرز»، هكذا يقول عنوان المقالة السّخيف). جرّبت أحجية الكلمات المتقاطعة في القسم الأخير من المجلّة، لكنّها لم تكن ملمّةً بالثّقافة الشّعبيّة بما يكفي كي تحرز تقدّماً يُذكَر.

بعد أكثر من ثلاثين دقيقة، عادت الممرّضة ذات الشّعر الأزرق إلى قاعة الانتظار وقادت كورا إلى مكتب صغير اصطفّت على جدرانه

الشّهادات، والجوائز، وأشياء من ذلك القبيل. أشير إلى كورا بالجلوس على كرسيّ أسود متين.

جلست، وعقدت ساقيها بحركة غريزيّة عند الكاحلين كما لُقّنت قبل سنواتٍ أيّامَ النّادي الرّيفيّ. خطر لها فجأة، بغباء، أنّ تلك الحركة كانت تعبيراً مجازيّاً عن كلّ ما تغيّر بالنّسبة إلى النّساء خلال حياتها؛ إذْ ما عاد أحد يأبه بكيفيّة جلوسهنّ.

- «إذنْ يا إيفلين». قالت الطّبيبة. كانت امرأةً صارمة المظهر، لها شعر أشبه بسِيف التّنظيف، وولع واضح بالمَسكرة، وبدت كأنّها تعيش على القهوة السّوداء والخضار النّيئة، لكن من تكون كورا كي تحكم على امرأة بسبب نحولها؟ ثمّة مجموعة من صور الأشعّة السّينيّة ثُبّتت على شاشة تشبه ألواح لعب الأطفال المضيئة خلف طاولة مكتبها.

- «أين ذات الرّئة؟». سألتها كورا، وهي ترفع ذقنها نحو الصّور. أخطبوط يلتهم شيئاً ما؛ هكذا بدت لها.

همّت الطّبيبة بالكلام، ثمّ توقّفت.

- دكتورة؟

أشارت د. براشر إلى إحدى الصّور: «أترين هذه المناطق البيضاء الكبيرة؟ هنا، هنا، وهنا؟ أترين هذا الانحناء الأبيض؟ الظّلّ المحاذي لعمودك الفقريّ؟ كلّ هذه علامات قويّة توحي بوجود سرطان رئة. نحتاج إلى مزيدٍ من الفحوصات كي نتأكّد، لكن...».

مهلاً.. ماذا؟

كيف لهذا أن يحدث؟

أوه، صحيح. إنّها مدخّنة، وهذا سرطان رئة. طوال سنوات، لم تكفّ

ليني عن التّذمّر من هذه العادة، وحذّرت أمّها من هذا السّيناريو بعينه؛ آنذاك كانت تضحك وتقول لها: «بحقّ الجحيم يا فتاتي الصّغيرة، قد أموت وأنا أقطع الشّارع».

- «يُظهر التّصوير الطّبقيّ المحوريّ كتلة على كبدك، وهذا يُنذر بنقائل». قالت د. براشر، واستمرّت بكلامها.

تشابكت الكلمات، واختلطت ببعضها داخل ذهن كورا: حروف ساكنة وصوتيّة، سلسلة أنفاسٍ تشهق وتزفر.

تابعت د. براشر، تستخدم كلمات اعتياديّة ضمن سياقٍ خارجٍ عن المعتاد يستحيل استيعابه: تنظير قصبات، ورم، عدوانيّ.

- «كم تبقّى لديّ؟». سألتها كورا، وهي تدرك متأخّراً أنّها قاطعت الطّبيبة في أثناء حديثها عن شيء ما.

- لا يمكن لأحد إخبارك بهذا يا سيّدة غرانت، لكن يظهر أنّ سرطانك عدوانيّ؛ سرطان رئة في المرحلة الرّابعة، وقد نشر نقائله بالفعل. أعلم أنّ هذا شيء يصعب سماعه.

- كم تبقّى لديّ؟

- أنت امرأة شابّة نسبيّاً، سنلجأ إلى العلاج المكثّف.

- أها.

- ثمّة أمل دائماً يا سيّدة غرانت.

- «أحقّاً؟». قالت كورا: «ثمّة أيضاً عاقبة أخلاقيّة لأعمال المرء».

- عاقبة أخلاقيّة؟

- «هو كان يحوي سمّاً». قالت كورا لنفسها: «وأنا شربت سمّه».

كشّرت د. براشر، وانحنت إلى الأمام: «إيفلين، هذا مرض، وليس عقاباً، أو سداد ثمن، أو خطيئة. إنّها أفكار تنتسب إلى العصور المظلمة».

- أها.

- «حسناً». وقفت د. براشر، وهي ما تزال عابسة: «أريد تحديد موعد من أجل تنظير القصبات بعد ظهيرة اليوم، ويُفترض بهذا أن يؤكّد التّشخيص. أهنالك من تودّين مهاتفته؟».

نهضت كورا على قدميها، وشعرت بوهن في الاتّزان دفعها إلى التّشبّث بظهر الكرسيّ. قفز ألم قاعدة عمودها الفقريّ من جديد، وبات أسوأ الآن إذْ أدركت ماهيّته.

سرطان.

لديّ سرطان.

لم تستطع تخيّل نفسها تقول ذلك بصوت عالٍ.

أغمضت عينيها، وزفرت نفَسها. تخيّلت -بل تذكّرت- فتاةً صغيرةً بشعر أحمر جامح، ويدين صغيرتين بضّتين، ونمش مثل رقائق القرفة، تمدّ يدها إليها وتناديها: ماما، أنا أحبّك.

لقد مرّت كورا بالكثير، وعاشت حين كان يمكن أن تموت. سبق أن تخيّلت حياتها بمئة طريقة مختلفة، وتمرّنت على ألف طريقة للتّكفير. تخيّلت نفسها تهرم، وتنال منها الشّيخوخة، فتضحك حين يُفترض بها البكاء، وتستخدم الملح بدلاً من السّكّر. في أحلامها، كانت ترى ليني تقع في الحبّ من جديد، وتتزوّج وتُنجب طفلاً آخر.

أحلام.

خلال لحظة تخطف الأنفاس، تفتّتتْ حياة كورا تحت المجهر،

وأضحت ضئيلة. تداعت جميع مخاوفها، وحسراتها، وخيباتها، لم يعد ثمّة ما يهمّ سوى شيء واحد؛ كيف كان لها ألّا تعرف هذا منذ البدء؟ لماذا أمضت كلّ ذلك الوقت في البحث عن هويّتها؟ كان ينبغي بها أن تعرف.. على الدّوام.. منذ أوّل البداية..

لقد كانت أمّاً.. أمّاً.. والآن...

ليني يا حبيبتي.

أنّى لها أن تقول وداعاً؟

❄

وقفت ليني خارج الباب المغلق لغرفة أمّها في المستشفى، تحاول تهدئة أنفاسها. كانت تسمع الضّوضاء حولها من كلّ الاتّجاهات، في جميع أنحاء الرّدهة؛ أشخاص يركضون بأحذية ذات نعال مطّاطيّة، عربات تُدحرج من غرفة إلى غرفة، إعلانات تصدر عن مكبّرات الصّوت.

مدّت يدها إلى مقبض الباب ذي اللّون الفضّيّ، وفتلته.

دخلت إلى غرفة كبيرة، قُسمت إلى مساحتين أصغر بوساطة ستارة تتدلّى من سير معدنيّ على السّقف.

كانت أمّها جالسةً في سريرها، تُسند ظهرها إلى كومة من الوسائد البيضاء. بدت تشبه دمية أنتيكا، ببشرة لها لون قشر البيض، مشدودة على وجهها المنحوت برقّة. عظم ترقوتها ناتئ فوق ياقة رداء المستشفى ذي القياس الكبير، والجلد غائر على جانبيه.

- «مرحباً». قالت ليني، ثمّ انحنت وطبعت قبلةً على وجنة أمّها النّاعمة: «كان بوسعك إخباري أنّك ذاهبة إلى الطّبيبة، كنت لآتي معك». أبعدت الشّعر الأشقر الرّماديّ الخفيف عن عيني أمّها: «هل أصبتِ بذات الرّئة؟».

- لديّ سرطان رئة في المرحلة الرّابعة، غير أنّه قذرٌ محتالٌ صغيرٌ اجتاح عمودي الفقريّ وكبدي أيضاً. لقد بات في دمي.

تراجعت ليني خطوةً إلى الخلف حرفيّاً، وكادت ترفع يديها لتحجب وجهها: «ماذا؟».

- أنا آسفة يا فتاتي الصّغيرة، الوضع ليس جيّداً. لم تكن الطّبيبة متفائلةً كثيراً.

أرادت ليني أن تصرخ: كفى!

لم تستطع أن تتنفّس.

سرطان.

- هـ.. هل تتألّمين؟

لا.. ليس هذا ما أرادت قوله.. ما الّذي تريد قوله؟

- «آه». قالت الأمّ، مع إشارةٍ من يدها المعروقة: «أنا أتمتّع بصلابة ألاسكيّة». مدّت يدها نحو لفافات تبغها قرب ليني.

- لستُ متأكّدةً إن كانوا يسمحون بهذا هنا.

- «أنا متأكّدة أنّهم لا يسمحون». قالت أمّها، ويدها ترتجف فيما تشعل اللّفافة: «لكنّني سأبدأ العلاج الكيميائيّ قريباً». حاولت أن تبتسم: «لذا بوسعي أن أتطلّع إلى الصّلع والغثيان، أنا واثقة أنّها إطلالة ستناسبني».

اقتربت ليني منها: «سوف تقاومين، صحيح؟». قالت لها، وهي تدافع دموعاً لا تريد لأمّها أن تراها.

- طبعاً، سأركل مؤخّرة هذا الوغد.

أومأت ليني، ومسحت عينيها.

- ستتحسّنين. جدّي سيؤمّن لك أفضل رعاية في المدينة، لديه صديق في المجلس الإداريّ لمركز فريد هاتش، سوف...

- سأكون على ما يرام يا ليني.

لمست الأمّ يد ابنتها. وقفت ليني في مكانها، متّصلةً بأمّها بالأنفاس، واللّمس، وحياة كاملة من الحبّ. أرادت أن تقول الشّيء الصّائب تماماً، لكن ماذا عساه يكون، وكيف لبضع كلمات واهية أن تكون ذات قيمة في خضمّ بحر السّرطان؟ «لا أستطيع أن أفقدك». همست لها.

- «أجل». قالت الأمّ: «أعلم يا فتاتي الصّغيرة، أعلم».

❄

عزيزي ماثيو،

لم يمضِ إلّا بضعة أيّامٍ على كتابتي إليك، مُضحكٌ كم يمكن للحياة أن تتغيّر خلال أسبوع.

ليس الأمر مضحكاً بالمعنى التّقليديّ، هذا أكيد.

ليلة أمس، بينما أنا مستلقية في سريري الوثير، أرتدي منامتي الجاهزة، ألفيتُ نفسي برفقة أشياء كثيرة لا أرغب أن أفكّر فيها، وبهذا عثرتُ على طريقي إليك.

لا أظنّنا تحدّثنا كفايةً عن وفاة أمّك، ربّما لأنّنا كنّا طفلين، أو لأنّ صدمتك كانت شديدة. لكن كان ينبغي لنا أن نتحدّث في ذلك لاحقاً، حين كبرنا. كان ينبغي لي إخبارك أنّني سأصغي إلى آلامك إلى الأبد، كان ينبغي لي أن أطلب منك ذكريات.

الآن، أرى كيف يتحوّل الأسى إلى جليد رقيق. أنا لم أفقد أمّي بعد، لكنّ كلمةً واحدةً كانت كفيلةً بدفعها بعيداً عنّي، وإقامة حاجز بيننا لم يكن

موجوداً من قبل. للمرّة الأولى على الإطلاق، نحن نكذب على بعضنا. أستطيع أن أشعر بهذا، نكذب كي تحمي واحدتنا الأخرى.

لكن ما من سبيل إلى الحماية، أليس كذلك؟

إنّها مصابة بسرطان الرّئة.

ربّاه، كم أتمنّى لو كنتَ هنا!

تركت ليني قلمها. هذه المرّة، لم توفّر لها الكتابة إلى ماثيو أيّ عزاء.

لقد جعلتها تشعر بسوء أكبر في الحقيقة، وبوحدة أكبر كذلك.

إنه لأمرٌ مثير للشّفقة، ألّا يكون لديها من تتحدّث إليه عن هذا، أنّ صديقتها المفضّلة لا تملك أدنى فكرة عن هويّتها.

طوت الرّسالة ووضعتها في صندوق الحذاء مع جميع الرّسائل الأخرى التي كتبتها على مرّ السّنوات من دون أن ترسل أيّةً منها.

❄

ذلك الصّيف، شاهدت ليني السّرطان يمحو أمّها. كان شعرها أوّل شيء زال، وتبعه حاجباها، ثمّ قسمات كتفيها الصّلبة؛ إذْ بدأتا تترهّلان، وبعد ذلك فقدت وقفتها وقدرتها على المشي بسهولة، وفي النّهاية، أتى السّرطان على حركتها بالكامل.

بحلول أواخر يوليو، بعد أن كان السّرطان قد محا الكثير، أماط التّصويرُ الطّبقيّ المحوريّ الأخير اللّثامَ عن الحقيقة؛ لا شيء ممّا جرى فعله قدّم أيّ عون.

جلست ليني ساكنةً بجانب أمّها، تمسك بيدها، وهما تتلقّيان خبر إخفاق العلاج. السّرطان في كلّ مكان، عدوّ يزحف بلا كلل، يشقّ طريقه

في العظام، ويتلف الأعضاء. لا داعي للنّقاش حول المحاولة من جديد، أو المقاومة.

عوضاً عن ذلك، انتقلنا من جديد إلى منزل آل غوليهر، حيث جُهِّز سرير مستشفى في الغرفة المشمسة التي يتدفّق الضّوء من نوافذها، وتواصلوا مع خدمة رعاية المحتضرين.

لقد قاومت الأمّ من أجل حياتها، قاتلت أكثر ممّا قاتلت في سبيل أيّ شيء، لكنّ السّرطان لا يبالي بالجهود.

الآن، ترفع الأمّ ظهرها ببطء، ببطء شديد، فوق السّرير إلى وضعيّة جلوس مترهّلة، وفي يدها المعروقة ترتجف لفافة تبغ لم تشعلها. لم يعد بوسعها أن تدخّن، بالطّبع، لكنّها تحبّ الإمساك باللّفافات. ثمّة بضع خصل من الشّعر على الوسادة، تنساب مثل عروق الذّهب فوق القطن الأبيض. قرب السّرير تنتصب أسطوانة أكسجين؛ وقد أُقحم أنبوبان شفّافان في منخري الأمّ لمساعدتها على التّنفّس.

نهضت ليني من موضعها بجوار السّرير، وتركت الكتاب الذي كانت تتلو منه بصوت عالٍ. صبّت لأمّها شربة ماء، وقدّمتها لها، فمدّت يديها إلى الكوب البلاستيكيّ. كانتا ترتعشان بشدّة، فوضعت ليني يديها فوقهما، وساعدتها على الإمساك بالكوب. ارتشفت رشفةَ طائر طنّان وسعلت، أخذت كتفاها النّاحلتان مثل فراخ الطّيور ترتجفان بقوّة أقسمت ليني معها أنّها سمعت خشخشة العظام تحت الجلد الرّقيق.

- «لقد حلمتُ بألاسكا ليلة أمس». قالت الأمّ، وهي تلقي بظهرها فوق الوسائد، رفعت عينيها إلى ليني وأضافت: «لم تكن الأمور سيّئة بالكامل، أليس كذلك؟».

أحسّت ليني بصدمة لدى سماعها الكلمة تُذكَر بهذه الطّريقة العَرَضيّة. بموجب اتّفاق ضمنيّ، كانتا لم تتحدّثا عن ألاسكا -أو أبيها، أو ماثيو- منذ سنوات، لكن ربّما لا مناص من إتمام الدّورة والعودة إلى البداية مع اقتراب النّهاية.

- «كانت رائعة بقسم كبير منها». أجابت ليني: «كنتُ أحبّ ألاسكا، وأحبّ ماثيو. كنتُ أحبّك، حتّى إنّني كنت أحبّ أبي». اعترفت بهدوء.

- لم يخلُ الأمر من المتعة، أريدك أن تتذكّري هذا، والمغامرة أيضاً. حين تتذكّرين، أعرف أنّ من السّهل أن تسترجعي الأشياء السّيّئة؛ عنف أبيك، الأعذار التي كنتُ ألتمسها، حبّي الحزين له. لكن كان ثمّة حبّ خيّر كذلك، تذكّري هذا، والدك كان يحبّك.

كان هذا مؤلماً أكثر من قدرة ليني على التّحمّل، لكنّها رأت كم تحتاج أمّها إلى قول هذه الكلمات. «أعرف». قالت لها.

- ستحدّثين إم جاي عنّي، اتّفقنا؟ ستخبرينه كيف لم أكن أغنّي أيّة أغنية بكلماتها الصّحيحة، وكيف كنت أرتدي البناطيل المثيرة، وأنتعل الصّنادل، وأبدو جميلة فيها. ستخبرينه كيف تعلّمت أن أتحلّى بالصّلابة الألاسكيّة رغماً عن إرادتي، وكيف لم أكن أسمح للأشياء السّيّئة قطّ أن تقتلني، كيف تابعتُ وتابعت. أخبريه أنّني أحببت أمّه مذ رأيتُها، وأنّني فخورة بها.

- «وأنا أيضاً أحبّك، ماما». قالت ليني، بيد أنّ هذا لم يكن كافياً. لا يكاد يقارب الكفاية، لكنّهما ما عادتا تملكان الآن سوى الكلمات -الكثير الكثير منها- والقليل القليل من الوقت.

- أنت أمّ صالحة يا ليني، على الرغم من حداثة سنّك. لم أكن يوماً أمّاً جيّدة مثلك.

- ماما...

- دعينا من الأكاذيب يا فتاتي الصّغيرة، ليس لديّ وقت.

انحنت ليني لتمسّد الشّعر القليل عن جبين أمّها. كانت شعيرات دقيقة مثل زغب الإوزّ، هشّة. هذا النّحول الذي يأكلها لا يُحتمل، بدت مع كلّ نفَس تفقد قليلاً بعد من قوّة الحياة فيها.

مدّت يدها ببطء نحو طاولة السرير الجانبية، وفُتح الدّرج العلويّ منزلقاً بحركة صامتة توفّرها النِّجارة المكلفة. بيدٍ مرتجفةٍ، أخرجت رسالةً طُويت بنضارة إلى أثلاث. «هاكِ».

لم تُرد ليني أن تأخذها.

- أرجوكِ!

أخذت الرّسالة، وفتحت طيّاتها بأناة، فرأت ما كان مكتوباً على الورقة، بخربشة يدٍ بالكاد يمكن قراءتها:

أنا، كورالين مارغريت غوليهر أولبرايت، أطلقتُ النّار على زوجي، إيرنت أولبرايت، حين كان يضربني.

أثقلتُ جثّته الهامدة بفخاخ الحيوانات، وأغرقتها في بحيرة غلاس ليك. لقد لذتُ بالفرار لأنّني خفتُ أن يُزجَّ بي في السّجن، على الرغم من إيماني آنذاك -والآن- أنّني أنقذتُ حياتي ليلتئذٍ. كان زوجي رجُلاً معنِّفاً طوال سنوات، وقد اشتبه الكثير من سكّان كانِك في اعتدائه عليّ وحاولوا مدّ يد العون، لكنّني لم أقبل.

يداي ملوّثتان بدمائه، وكذلك ضميري. لقد حوّل الذّنب نفسه إلى سرطان، وها هو الآن يقتلني. إنّها عدالة الله.

أنا قتلتُه وأخفيتُ الجثّة، فعلتُ ذلك بمفردي تماماً، ولا علاقة لابنتي بالأمر.

بوافر الاحترام، كورالين أولبرايت

تحت توقيع أمّها المرتعش، ترك جدّها توقيعه بصفته محامياً وشاهداً معاً، إضافة إلى ختم كاتب عدل.

سعلت الأمّ في كرةٍ من المناديل، ثمّ سحبت نفساً يخنقه البلغم، ورفعت عينيها إلى ليني. وللحظة شاقّة شديدة الحساسيّة، توقّف الوقت بينهما، والتقط العالم أنفاسه.

- حان الوقت يا ليني. كنتِ تعيشين حياتي يا فتاتي الصّغيرة، ولقد آن الأوان كي تعيشي حياتك.

- بنعتِك بالقاتلة والتّظاهر أنّني بريئة؟ أهكذا تريدين لي أن أبدأ حياتي؟

- بل بالذّهاب إلى الوطن. يقول أبي إنّ بإمكانك إلقاء اللّائمة كلّها عليّ، قولي إنّك ما كنتِ تعرفين شيئاً، إنّك كنت طفلة. سوف يصدّقونك، وتوم ومارج سيساندانك.

هزّت ليني رأسها رافضةً، وقد أغرقها الحزن، فلم تستطع أن تقول أكثر من: «لن أتركك».

- «آهٍ يا فتاتي الصّغيرة، كم مرّة تعيّن عليكِ أن تقولي هذا في حياتك؟». تنهّدت الأمّ متعَبةً، ورنت إلى ليني بعينين حزينتين دامعتين. كانت أنفاسها صفيراً مضنياً: «لكنّني أنا التي سأتركك، وهذا هو الشّيء الذي ما عاد بإمكاننا أن نهرب منه. أرجوكِ». همست لها: «افعلي هذا من أجلي، كوني قويّةً أكثر ممّا كنتُ يوماً».

❄

بعد يومين، وقفت ليني أمام الغرفة المشمسة، تصغي إلى صفير أنفاس أمّها وهي تحدّث جدّتها.

عبر الباب المفتوح، سمعت كلمة «آسفة» بصوت جدّتها الرّاعش.

كلمة باتت ليني تمقتها. هي تعلم أنّ أمّها وجدّتها قالتا خلال السّنوات القليلة الماضية ما تحتاجان إلى أن تقولاه لبعضهما بالفعل، كانتا تتحدّثان عن الماضي بطريقتهما الخاصّة مقطّعة الأوصال. ليس دفعة واحدة، من دون لحظةٍ كبيرةٍ محدّدةٍ تنتهي بهما إلى البكاء والعناق، بل مناوشة مستمرّة دائمة لأطراف هذا الماضي، إعادة معاينة للتّصرّفات، والقرارات، والمعتقدات، وتقديم للاعتذارات، والصّفح. كان من شأن كلّ ذلك أن يقرّبهما أكثر من ذاتيهما، ذاتيهما اللّتين لطالما كانتاهما. أمّ وابنة. رابطتهما الجوهريّة التي لا يمكن تبديلها؛ الهشّة كفايةً لتتقصّف بفعل كلمة قاسية قيلت منذ زمن بعيد، والمتينة كفايةً لتنجو من الموت ذاته.

- «ماما! ها أنتِ ذي». قال إم جاي: «لقد بحثتُ عنكِ في كلّ مكان».

انزلق وهو يركض نحوها فاصطدم بها بشدّة، وكان يحمل نسخته الأثيرة من إلى عالم الكائنات البرّيّة: «قالت جدّتي إنّها ستقرأ لي».

- لا أدري يا فتاي الصّغير...

- «لقد وعدَتْني». قال هذا، وانطلق من أمامها، ليدخل إلى الغرفة المشمسة مثل جون واين وهو يبحث عن عراك: «هل اشتقتِ إليّ يا جدتي؟».

سمعت ليني ضحكة أمّها الخفيضة، ثمّ الرّنين والصّرير حين ضرب إم جاي أسطوانة الأكسجين.

خرجت جدّتها من الغرفة بعد لحظات، فرأت ليني وتوقّفت. «إنّها تطلب رؤيتك». قالت بهدوء: «لقد دخل سيسيل ورآها».

كانتا تعرفان كلتاهما ما معنى هذا. البارحة، فقدت الأمّ استجابتها طيلة ساعات.

مدّت الجدّة يدها، وقبضت على يد ليني بشدّة، ثمّ تركتها. وبنظرة أخيرة حزنها جارف، عبرت الجدّة الرّدهة، ثمّ صعدت الدّرج إلى غرفة نومها، حيث تخيّلت ليني أنّها ستُطلق العنان لنفسها كي تبكي على ابنتها التي تفقدها. جميعهم كانوا يحاولون بجدّ كبير ألّا يبكوا أمام أمّها.

عبر باب الغرفة المشمسة المفتوح، سمعت ليني صوت إم جاي عالي النّبرة: «اقرئي لي يا جدتي»، ثمّ ردّ أمّها غير المسموع.

ألقت نظرة على ساعة يدها، لن يكون بمقدور أمّها التحمّل لأكثر من بضع دقائق معه. إم جاي صبيّ مطيع، لكنّه صبيّ، ما يعني القفز، والثّرثرة، والحركة الّتي لا تتوقّف.

راح صوت الأمّ الخيطيّ يطفو على الهواء الذي تضيئه الشّمس، جالباً معه طوفاناً من الذّكريات: «في اللّيلة التي ارتدى ماكس فيها بدلة الذّئب خاصّته، وراح يشاغب على نحو أو آخر...».

أُخِذت ليني بصوت أمّها كما كان يحدث على الدّوام، بل ربّما الآن أكثر، في وقت كلّ لحظة من لحظاته مهمّة، وكلّ نَفَس من أنفاسه أُعطِية. كانت قد تعلّمت كيف تغمر الخوف تحت السّطح، كيف تدفعه إلى مكان هادئ في الأعماق وتغطّيه بابتسامة، لكنّه كان موجوداً دائماً، بفكرة تلحّ عليها: هل هذا النّفَس هو النّهاية؟ أم هذا الذي يليه؟

هنا، عند النّهاية، بات يستحيل التّصديق باحتمال إيقاف تنفيذ الحكم في اللّحظة الأخيرة. كما أنّ أمّها في ألم شديد، يبدو معه مجرّد الأمل في نجاتها يوماً آخر، ساعة أخرى، محض أنانيّة.

سمعت ليني أمّها تقول: «النّهاية». وحملت الكلمة معنى مزدوجاً حادّاً.

- قصّة واحدة بعد يا جدتي.

دخلت ليني إلى الغرفة المشمسة.

كان موقع سرير مستشفى الأمّ قد اختير بحيث يستغلّ ضوء الشّمس الدّاخل من النّافذة. بدا تقريباً مثل سرير من حكاية سحريّة في عمق الغابات، يضيئه نور الشّمس، وتحيط به أزهار نمت في دفيئة.

أمّا الأمّ نفسها فهي الجميلة النّائمة، أو بياض الثّلج، شفتاها هما الموضع الوحيد من جسدها الذي احتفظ بشيء من اللّون، وما تبقّى كان شديد الضّآلة وخالياً من اللّون، حتّى بدت كأنّها تذوب في المُلاء البيضاء. الأنبوبان البلاستيكيّان الشّفّافان يخرجان من فتحتَي أنفها، ويلتفّان حول أذنيها، ثمّ يمتدّان إلى الأسطوانة.

- «هذا كافٍ يا إم جاي». قالت ليني: «جدّتك بحاجة إلى أخذ قيلولة».

- «أوه، سحقاً». قال، وأرخى كتفيه الصّغيرتين.

ضحكت الأمّ، وتحوّلت ضحكتها إلى سعال: «يا لها من لغة جميلة يا إم جاي!». صوتها لا يعلو على الهمس.

- «جدتي تنزف بسبب السّعال من جديد». قال إم جاي.

سحبت ليني منديلاً من العلبة قرب سرير أمّها، وانحنت لتمسح لها الدّم عن وجهها: «أعطِ جدتك قبلة على يدها، واذهب يا إم جاي، فجدّك لديه نموذج طائرة جديد تركّبانه معاً».

رفعت الأمّ يدها عن السّرير، وكان ظهر اليد مكسوّاً بالكدمات من إبر المداخل الوريديّة.

انحنى إم جاي إليها، فحرّك السّرير بشدّة جعلتها تهتزّ، وضرب أسطوانة الأكسجين بركبته، ثمّ قبّل اليد التي تغطّيها الكدمات بحذر.

حين غادر، تنهّدت الأمّ، وعادت للاستلقاء على الوسائد: «هذا الولد ذكر موظ، يجدر بك أن تسجّليه في رقص الباليه، أو الجمباز». كان صوتها يكاد لا يُسمع، فتعيّن على ليني أن تنحني نحوها.

- «أجل». قالت ليني: «كيف حالك؟».

- أنا متعَبة يا فتاتي الصّغيرة.

- أعلم.

- متعَبة للغاية، لكن... لا أستطيع أن أتركك، لا... أستطيع. لا أعرف كيف أفعل. أنت كلّ شيء بالنّسبة إليّ، أتعلمين؟ حبّ حياتي الأعظم.

- «حبّنا بازلّاء في قرن واحد». همست ليني.

- «اثنتان من النّوع نفسه». سعلت الأمّ: «فكرة أن تكوني وحيدة، من دوني...».

انحنت ليني إليها، ولثمت جبينها النّاعم. باتت تعرف ما عليها أن تقوله الآن، ما تحتاج إليه أمّها، فلطالما عرفت إحداهما متى ينبغي أن تكون قويّةً من أجل الأخرى: «أنا بخير، ماما. أعرف أنّك ستكونين معي».

- «دائماً». همست الأمّ، وصوتها بالكاد يُسمع. مدّت يدها المرتجفة، ولمست وجنة ليني، كانت بشرتها باردة، والجهد الذي تطلّبته منها هذه الحركة البسيطة بيّناً.

- «يمكنكِ الذّهاب». همست ليني.

تنهّدت الأمّ بعمق، وفي تلك التّنهيدة، سمعت ليني كم قضت أمّها من مدّة وجهد في مقاومة هذه اللّحظة. سقطت يد الأمّ عن وجه ليني، وحطّت

على السّرير بصوت مكتوم. انفتحت مثل وردة، لتكشف عن كومة من المناديل الدّامية. «آه يا ليني... أنتِ حبّ حياتي... أنا قلقة...».

- «سأكون بخير». كذبت ليني، وانساب الدّمع على وجنتيها: «أحبّك، ماما».

لا تذهبي يا ماما، لا أستطيع أن أكون في هذا العالم من دونك.

أغمضت الأمّ جفنيها الرّاعشين. «لقد... أحببتكِ... يا فتاتي الصّغيرة».

بالكاد استطاعت ليني أن تسمع هذه الكلمات الأخيرة الهامسة. أحسّت بنفس أمّها الأخير عميقاً كما لو أنّها هي التي سحبته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

❄ 29 ❄

- لقد أرادت أن تأخذي هذا.

وقفت الجدّة في فرجة باب غرفة نوم ليني القديمة المفتوح، متّشحةً بالسّواد. كانت قادرة على جعل الحِداد يبدو أنيقاً، وهذا شيء من النّوع الذي كانت الأمّ لتسخر منه قبل زمن طويل؛ كانت لتنظر باستعلاء إلى امرأة تنشغل بالمظاهر. لكنّ ليني تعلم أنّ المرء أحياناً يتشبّث بأيّ شيء تطوله يده كي يظلّ طافياً، وربّما لم يكن كلّ هذا السّواد سوى درع، طريقة تقول بها للنّاس: لا تكلّموني، لا تقتربوا منّي، لا تطرحوا أسئلتكم اليوميّة المعتادة وقد انفجر عالمي.

كانت ليني، في المقابل، تبدو أشبه بشيء جرفه المدّ وألقاه على الشّاطئ. خلال السّاعات الأربع والعشرين التي انقضت على وفاة أمّها، لم تستحمّ، أو تفرّش أسنانها، أو تبدّل ثيابها، كلّ ما فعلته هو الجلوس في غرفتها خلف باب مغلق. وقد تبذل مقداراً أو اثنين من الجهد، حين يتعيّن عليها الذّهاب لإحضار إم جاي من المدرسة، لكن في غيابه، كانت تسبح وحيدةً في فقدها.

دفعت الأغطية عنها. وبحركةٍ بطيئةٍ، كما لو أنّ عضلاتها قد تغيّرت في غياب أمّها، عبرت الغرفة، وأخذت الصّندوق من جدّتها، وقالت: «شكراً».

نظرت واحدتهما إلى الأخرى، مرآتان من الأسى، ثمّ من دون أن تضيف شيئاً -ما جدوى الكلمات؟- استدارت الجدّة، وسارت عبر الرّدهة، بقامةٍ منتصبةٍ بتيبّس. لو أنّ ليني لا تعرفها، لقالت إنّ جدّتها مقدودة من صخر، امرأة تملك زمامها بالكامل، لكنّ ليني تعرفها. عند الدّرج، توقّفت الجدّة قليلاً، وفوّتت إحدى الدّرجات فتشبّثت يدها بالدّرابزين. خرج الجدّ من مكتبه، ليظهر عندما احتاجت إليه ويقدّم لها ذراعه.

الاثنان معاً، برأسيهما المطرقين، كانا لوحةً تصوّر الوجع.

كرهت ليني ألّا يكون ثمّة شيء تستطيع فعله كي تساعد. كيف لثلاثة أشخاص غارقين أن ينقذوا بعضهم؟

عادت إلى السّرير؛ وإذْ استقرّت فوقه، وضعت صندوق خشب الورد في حضنها. لقد سبق لها أن رأته، بالطّبع. فذات زمان، كان يؤوي ورق اللّعب خاصّتهما.

أيّاً كان مَن صنع هذا الصّندوق، فقد لمّعه بورق الصّنفرة حتّى بدا ملمس سطحه أقرب إلى الزّجاج منه إلى الخشب. كان تذكاراً، ربّما من الرّحلة البرّيّة التي قطعوها قبل عمر كامل، حين كانوا يعيشون في مقطورةٍ قادوها كلّ الطّريق إلى تيخوانا. كانت ليني أصغر سنّاً من أن تتذكّر الرّحلة -قبل فيتنام- لكنّها سمعت والديها يتحدّثان عنها.

أخذت نفساً عميقاً ورفعت الغطاء. في الدّاخل، رأت كومة مختلطة من الأغراض؛ سوار تعاويذ فضّيّاً رخيصاً، مجموعة مفاتيح في علّاقة كُتب عليها: «تابعوا قيادة الشّاحنة»، صَدفة مروحيّة ورديّة اللّون، محفظة قطعٍ معدنيّةٍ من الجلد السّويديّ المطرّز بالخرز، مجموعة ورق لعب، ناباً منقوشاً بأسلوب السّكّان الأصليّين يصوّر فرداً من الإسكيمو يحمل رمحاً.

التقطت الأغراض واحداً تلو الآخر، محاولةً تحديد أماكنها من السّياق الذي تعرفه لحياة أمّها. بدا سوار التّعاويذ أشبه بهديّة تمنحها فتاة لأخرى في الثّانويّة، وذكّر ليني بكلّ القطع المفقودة في حياة أمّها. الأسئلة التي أخفقت ليني في طرحها، القصص التي لم يتسنَّ لأمّها الوقت لمشاركتها... كلّ ذلك ضاع الآن. أمّا المفاتيح فقد تعرّفت عليها؛ كانت مفاتيح المنزل الذي استأجروه قبل سنين طويلة، وكان يطلّ على طريق مسدود في أطراف سياتل. الصَّدفة أظهرت حبّ أمّها لتمشيط الشّواطئ، والمحفظة الجلديّة جاءت على الأغلب من أحد متاجر الهدايا التّراثيّة تلك.

كان ثمّة قدح صغير عليه اسم حانة سالتي دوغ، وقطعة خشب ألقاها البحر نُقش عليها: «كورا وإيرنت، 1973»، وثلاثة أحجار عقيق بيضاء، وصورة لوالديها يومَ زفافهما التُقطت في المحكمة. في الصّورة، الأمّ تبتسم ابتسامةً مشرقةً، وترتدي فستاناً أبيض يصل إلى الرّبلتين، له تنّورة جرسيّة الشّكل، وتحمل وردة بيضاء واحدة بيديها المكسوّتين بقفّازين أبيضين؛ أمّا الأب فكان يضمّها إليه بابتسامة متيبّسة بعض الشّيء، ويرتدي بدلة سوداء وربطة عنق رفيعة. بدوا طفلين يلعبان لعبة الأزياء.

الصّورة التّالية كانت لحافلة الفولكس فاغن، وقد رُبطت فوق سطحها صناديقهم وحقائبهم. الباب مفتوح، وبوسع النّاظر أن يرى كلّ خردواتهم مكوّمة في الدّاخل. لقد التُقطت قبل توجّههم إلى الشّمال ببضعة أيّام فقط.

الثّلاثة واقفون بجوار الحافلة. الأمّ ترتدي بنطال جينز تتوسّع ساقاه تدريجيّاً حتّى طرفيهما، وكنزة تكشف عن بطنها، شعرها الأشقر معقوص في جديلتين، وقد عُقدت عصابة مطرّزة بالخرز حول رأسها؛ أمّا الأب فيرتدي بنطالاً بلون أزرق شاحب من البوليستر، وقميصاً يتماشى معه

أطرافُ ياقته كبيرة الحجم، وليني تقف أمام والديها، ترتدي فستاناً أحمر بياقة بيتر بان بيضاء، وتنتعل حذاء كيدس، وكلٌّ من والديها يضع يداً على أحد كتفيها.

كانت ابتسامتها عريضة، تشي بسعادتها.

تغبّشت الصّورة، وراحت ترقص في يد ليني المهتزّة.

لفت شيء ملوّن بالأحمر والأزرق والذّهبيّ انتباهها، فتركت الصّورة ومسحت عينيها.

ميداليّة عسكريّة؛ شريط أحمر وأبيض وأزرق، ثُبّتت على طرفه المستدقّ نجمة برونزيّة. قلبت النّجمة على وجهها الآخر، فرأت النّقش: إنجاز بطوليّ يستحقّ التّقدير. إيرنت أ. أولبرايت. تحتها، تُركت مقالة صحفيّة مطويّة يعلوها عنوان عريض: «إطلاق سراح أسير حرب سياتل»، وقد أرفِقت بها صورة لأبيها. بدا أشبه بجثّة، عيناه تحدّقان بفتور إلى الأمام، لا يكاد يشبه الرّجُل الذي في صورة الزّفاف بشيء.

أتمنّى لو كنتِ تتذكّرين أباك ممّا سبق... كم مرّة كرّرت أمّها ذلك خلال السّنين؟

ضمّت الصّورة والميداليّة إلى صدرها، كما لو تريد أن تطبعهما على روحها. هذه ذكريات تودّ أن تحتفظ بها: حبّهم، بطولته، صورتهم وهم يضحكون، فكرة تمشيط أمّها للشّواطئ.

بقي غرضان اثنان في الصّندوق: ظرفٌ، وورقة دفتر مطويّة.

وضعت ليني الميداليّة والصّورة جانباً، والتقطت الورقة، ثمّ فتحتها ببطء، فرأت خطّ يد أمّها الممتاز الخليق بطالبة مدرسةٍ خاصّة.

إلى فتاتي الصّغيرة الجميلة،

حان الوقت كي أصلِح ما فعلتُه، لقد عشتِ باسم مستعار لأنّني قتلت رجُلاً، قتلتُه أنا.

قد لا ترين هذا في الوقت الحاليّ، لكنّك تملكين وطناً، والوطن يعني شيئاً ما. أمامك فرصة لتحظي بحياةٍ مختلفةٍ، يمكنك أن تمنحي ابنك كلّ ما لم أستطع منحك إيّاه، غير أنّ هذا يتطلّب شجاعة، والشّجاعة مزيّة تتحلّين بها. كلّ ما عليك فعله هو أن تعودي إلى ألاسكا، وتقدّمي رسالة اعترافي للشّرطة، قولي لهم إنّني قاتلة، ودعي الجريمة تنتهي أخيراً كما كان ينبغي أن يحدث، من دون أن تلحق بك وصمتها. سيغلقون القضيّة وتنعمين بالحرّيّة، استعيدي اسمك وحياتك.

عودي إلى البيت، وانثري رمادي على شاطئنا.

سأكون معك، أراقبك وأحرسك، على الدّوام.

لديك طفل، لذلك فأنت تعلمين. أنت قلبي يا فتاتي الصّغيرة، أنت كلّ شيء فعلتُه على نحوٍ صائب، وأريدك أن تعلمي أنّني كنتُ لأفعل كلّ ذلك من جديد، بكلّ ثانية فظيعة رائعة منه. كنتُ لأكرّره سنيناً وسنيناً مقابل دقيقة واحدة معك.

داخل الظّرف، وجدت تذكرتين باتّجاهٍ واحدٍ إلى ألاسكا.

❄

على طول شارع كوين آن هيل المقلّم بعناية، كانت أشكال الحياة تفرقع وتثير الجلبة في يوم السبت الأخير من شهر يوليو هذا. تجمّع جيران الجدّين حول شوّايات ويبر، يقلّبون اللّحم الذي اشتروه من المتاجر،

ويعدّون كوكتيلات المرغريتا في الخلّاطات، فيما يلعب أولادهم على مراجيح يعادل ثمن واحدتها ثمن سيّارة مستعملة. أيكون أحدهم قد لحظ السّتائر المسدلة في منزل آل غوليهر؟ أيمكنهم بطريقة ما أن يستشعروا الأسى المنبعث من الحجر والزّجاج؟ هذا حزن لا يمكن الحديث عنه في العلن. كيف لهم أن يعبّروا عن أساهم على فقدان امرأة -إيفلين غرانت- لم يكن لها وجود حقيقيّ أصلاً؟

خرجت ليني من نافذة غرفة نومها، وجلست على السّطح، لقد تهرّأت الألواح الخشبيّة حتّى صارت ملساء من سنوات الجلوس في هذا الموضع. هنا، أكثر من أيّ مكان آخر، كانت تشعر بوجود أمّها بجانبها. وفي بعض الأحيان يكون الشّعور قويّاً إلى درجة أن يتراءى لها أنّها تسمعها تتنفّس، لكنّه النّسيم لا غير، يهمس بين أوراق شجرة القيقب المنتصبة أمامها.

- «اعتدتُ أن أضبط أمّك تدخّن السّجائر هنا حين كانت في الثّالثة عشرة من عمرها». قالت الجدّة بصوتٍ خفيض: «كانت تظنّ أنّ نافذةً مغلقة وحبّة سكاكر بالنّعناع تكفيان لتضليلي».

لم تستطع ليني ألّا تبتسم، لقد بدت هذه الكلمات القليلة مثل تعويذةٍ أعادت أمّها لمدّة ثانية جميلة ساحرة. شعلة من الشّعر الأشقر، وضحكة تحملها الرّيح. نظرت ليني خلفها، فرأت جدّتها واقفةً عند النّافذة المفتوحة لغرفة نوم الطّابق العلويّ، نسيم مسائيّ بَليل يداعب بلوزتها السّوداء، ويعبث بحافّة ياقتها عند العنق. داهمتها فكرةٌ عابرة مفاجئة بأنّ الجدّة قد لا تنزع الأسود عنها لبقيّة حياتها؛ أو لعلّها ترتدي فستاناً أخضر فتنزّ الحسرةُ والفقد من مسامها حتّى يحيلا لون القماش إلى السّواد.

- هل لي أن أنضمّ إليكِ؟

- «سأدخل أنا». همّت ليني بالنّهوض.

مدّت الجدّة جذعها من النّافذة المفتوحة، وراح شعرها يرتطم بالإطار ويتلوّى: «أعلم أنّك ترينني من العصر الجوراسيّ، لكنّني قادرة على التّسلّق من النّافذة. جاك لالان كان في السّتّين من عمره عندما سبح من ألكتراز إلى سان فرانسيسكو».

تحرّكت ليني لتفسح لها مكاناً.

خرجت الجدّة من فرجة النّافذة وجلست، محافظةً على انتصاب ظهرها المستند إلى جدار المنزل.

تراجعت ليني بظهرها كي تكون على سويّتها، وكانت تحمل صندوق خشب الورد معها. لم تكفّ عن لمس سطحه الصّقيل منذ فتحته في اليوم السّابق.

- لا أريدك أن تذهبي.

- أعرف.

- «جدّك يقول إنّه قرارٌ سيّئٌ، وهو أدرى». توقّفت قليلاً قبل أن تضيف: «ابقي هنا، لا تعطيهم تلك الرّسالة».

- كانت هذه وصيّتها عند الاحتضار.

- لقد رحلت.

لم تقدر ليني على مغالبة الابتسامة، كانت تحبّ أنّ جدّتها مزيج مركّب من التّفاؤل والعمليّة. لقد سمح لها التّفاؤل أن تنتظر نحو عقدين مترقّبةً عودة ابنتها؛ أمّا العمليّة فسمحت لها أن تنسى كلّ الألم الذي سبق ذلك. بمرور السّنوات، أدركت ليني أنّ أمّها لم تغفر لوالديها وحسب، بل توصّلت إلى فهمهما، والنّدم على الجفاء الذي عاملتهما به، ولعلّ هذا

طريق يمرّ به كلّ ابن أوّلاً أو آخِراً. «هل سبق لي أن أخبرتك كم أنا شاكرة لكما على احتضاننا، وحبّكما لابني؟».

- ولك.

- ولي.

- أفهِميني يا ليني، أنا خائفة.

كانت ليني قد فكّرت في الأمر طيلة اللّيل. هي تعلم أنّ الفكرة جنونيّة، وربّما خطرة، لكن ثمّة أمل أيضاً.

إنّها تريد -تحتاج- أن تكون ليني أولبرايت من جديد، أن تعيش حياتها هي، مهما كلّف ذلك. «أعرف أنّك تنظرين إلى ألاسكا على أنّها مكانٌ باردٌ وغير مضياف، مكان كنّا ضائعتين فيه، لكنّ الحقيقة أنّنا عثرنا على نفسينا هناك أيضاً. إنّه يسكن داخلي يا جدّتي، ذلك المكان. أنا أنتمي إليه. لقد كلّفتني كلّ سنوات بُعدي شيئاً ما، كما أنّ لديّ إم جاي، وهو لم يعد طفلاً رضيعاً، بات صبيّاً يكبر بسرعة، وهو بحاجة إلى أب».

- لكنّ أباه...

- «أعرف. لقد أمضيت سنيناً أخبر إم جاي قدر ما أستطيع من الحقيقة عن أبيه، وهو يعرف بشأن الحادثة ودار الرّعاية، لكنّ رواية القصص ليست كافية، إم جاي يحتاج إلى أن يعرف من أين جاء، ولن يمرّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يبدأ بطرح الأسئلة الحقيقيّة، وهو يستحقّ أن يحظى بالأجوبة». توقّفت قليلاً، ثمّ أردفت: «كانت أمّي مخطئة بشأن أشياء كثيرة، لكن ثمّة شيء أصابت فيه هو حديثها عن متانة الحبّ وصموده. إنّه لا يزول. ضدّ كلّ الاحتمالات، في وجه البغضاء، الحبّ يبقى، ولا يزول. لقد تركتُ الفتى الذي أحببته وهو محطّمٌ ومريضٌ، وأكره نفسي بسبب ذلك. ماثيو هو والد

إم جاي، وسواء أكان بمقدور ماثيو أن يعرف معنى هذا أم لا، سواء أكان يستطيع أن يعانقه ويكلّمه أم لا، فإم جاي يستحقّ أن يعرف عائلته. توم ووكر جدّه، وأليسكا عمّته. لا يمكن التّغاضي عن كونهما لا يعلمان بشأن إم جاي، فهما سيحبّانه بمقدار حبّك له».

- قد يحاولان أخذه منك، الوصاية قضيّة شائكة. لن تستطيعي تحمّل ذلك إن حدث.

تلك كانت زاوية مظلمة ليس بمقدور ليني تبيُّن ما وراءها. «ليس الأمر متعلّقاً بي»، قالت بهدوء: «عليّ أن أقوم بالأمر الصّائب، بعد كلّ هذا الوقت».

- إنّها فكرة سيّئة يا ليني، فكرة مريعة. إن كنتِ تعلّمتِ شيئاً من أمّك وما حدث، فينبغي أن يكون هذا: الحياة -والقانون- قاسيان على النّساء، وأحياناً، فعل الشيء الصحيح لا يساعد على الإطلاق.

❄

الصّيف في ألاسكا.

لم تنسَ ليني يوماً هذا الجمال الفاتن الذي يخطف الأنفاس. والآن، في طائرة صغيرة، تحلّق من أنكوراج إلى هومر، كانت تشعر بانفساحٍ هائل في روحها. للمرّة الأولى منذ سنوات، أحسّت أنّها نفسها بالكامل.

أبحرت الطّائرة في الجوّ فوق السِّباخ الخضراء على أطراف أنكوراج والامتداد الفضّيّ لمعبر تيرناغين المائيّ، وكان انخفاض المدّ يكشف عن قاع الرّمل الرّماديّ، حيث جنح الكثير من صيّادي السّمك الغافلين إلى اليابسة، وراح المدّ محمولاً على جناح السّحر يتلاطم في أمواج كبيرة بما يكفي لركوبها.

ثمّ جَون كوك الصّغير، شقّ من الزّرقة ترصّعه قوارب الصّيد. مالت الطّائرة إلى اليسار نحو الجبال المكسوّة بالثّلج، ثمّ طارت فوق حقل هاردينغ الجليديّ الّذي يشعّ بزرقة المجالد. وفوق خليج كاتشيماك، انقلبت اليابسة إلى خضار غنيّ من جديد، وارتدت معطفاً يكسو سلسلة من الرّوابي الزّمرّديّة. مئات القوارب ترقّط وجه الماء، وخلفها ترفرف شرائط من المياه البيضاء.

في هومر، هبطت الطّائرة مترجرجة على المدرج المفروش بالحصى، وراح إم جاي يزعق بسعادة، وهو يشير إلى خارج النّافذة. حين توقّفت الطّائرة أخيراً، نهض الطّيّار وفتح الباب الخلفيّ، ثمّ أعان ليني على إنزال حقيبتها ذات العجلات (حقيبة تنضح بسمات العالم الخارجيّ، حتّى إنّها غير مزوّدة بأحزمة كتف).

أمسكت إم جاي بإحدى يديها، فيما هي تجرّ حقيبتها فوق الحصى نحو مكتب الطّيران الصّغير، وأخبرتها ساعة كبيرة على الحائط بالتّوقيت؛ 10:12 ص.

عند الطّاولة، لفتت انتباه موظّفة الاستقبال.

- المعذرة، فهمتُ أن ثمّة مخفر شرطة جديداً في البلدة.

- حسناً، ليس جديداً تماماً، لكنّه يقع بعد مكتب البريد في شارع هيث. تريدين أن أتّصل لك بسيّارة أجرة؟

لو أنّ ليني لم تكن متوتّرة إلى هذه الدّرجة، لضحكت من فكرة العثور على سيّارة أجرة في هومر. «آه، أجل من فضلك، سيكون هذا رائعاً».

بانتظار السّيّارة، وقفت ليني في مكتب الطّيران الصّغير تحدّق برهبة إلى الجدار المكسوّ بأكمله بكتيّبات رباعيّة الألوان تروّج المغامرات

للسّيّاح: نُزل مغامرات ألاسكا الكبير في ستيرلينغ، ونُزل شرم آل ووكر للمغامرات في كانِك؛ أنزال يتمّ الوصول إليها بالطّائرة في سلسلة جبال بروكس، ومرشدون للأنهار بأجرة يوميّة، ورحلات صيد في فيربانكس. من الواضح أنّ ألاسكا قد تحوّلت إلى القِبلة السّياحيّة التي تخيّلها توم ووكر ذات يوم، وليني تعلم أنّ السّفن السّياحيّة ترسو على ساحل سيوارد كلّ أسبوع في الصّيف لتفرغ حمولتها من آلاف الأشخاص.

بعد لحظات من وصول سيّارة الأجرة، كانت هي وإم جاي داخل مخفر الشّرطة؛ مبنىً متطاول، منخفض الارتفاع، ذو سطحٍ مستوٍ، يقوم عند زاوية.

في الدّاخل، كان المخفر يتمتّع بإضاءةٍ ساطعةٍ، وطلاءٍ حديث. تعاركت ليني مع حقيبتها ذات العجلات، ورفعتها بجهد فوق عتبة الباب. الشخص الوحيد الموجود في المكان هو امرأة ترتدي زيّاً رسميّاً تجلس إلى مكتب. تقدّمت ليني بعزم ممسكةً بيد إم جاي بشدّة جعلته يتلوّى متذمّراً يحاول تحرير نفسه.

- «مرحباً». قالت للمرأة عند المكتب: «أودّ أن أتكلّم إلى رئيس الشّرطة».

- لماذا؟

- الأمر يتعلّق بـ... قتل.

- قتل إنسان؟

هذا سؤال لا يُطرَح إلّا في ألاسكا. «لديّ معلومات حول جريمة».

- اتبعيني.

قادت المرأة ذات الزّيّ الرّسميّ ليني مروراً بزنزانة خاوية إلى باب مغلق أُلصِقت عليه لوحة تقول: «الرّئيس كيرت وارد».

طرقت المرأة الباب بقوّة، مرّتين. ولدى سماعها عبارة «تفضّل» المكتومة، فتحت الباب. «حضرة الرّئيس، هذه المرأة الشّابّة تقول إنّ لديها معلومات بخصوص جريمة».

نهض رئيس الشّرطة ببطء، وتذكّرته ليني من يوم البحث عن جينيفا ووكر. شعره مُشذَّب بحلاقة مدرّجة طويلة عند قمّة الرّأس ومحفوفة الحوافّ، وشاربه الأحمر الكثّ بارز مقابل شعر لحيته الخفيف الكستنائيّ الذي من الواضح أنّه نما منذ حلقه هذا الصّباح. بدا أشبه بلاعب هوكي متحمّس غابر في أيّام المدرسة الثّانويّة تحوّل إلى شرطيّ ببلدة صغيرة.

- «لينورا أولبرايت». قالت ليني تعرّف عن نفسها: «أبي كان إيرنت أولبرايت، وكنّا نقطن في كانِك».

- يا ربّ السّماء! ظننّا أنّكما متّما، لقد أمضى فريق البحث والإنقاذ أيّاماً يفتّش عنكِ أنتِ ووالدتك. كم انقضى على ذلك، ستّة أعوام، سبعة؟ لماذا لم تتواصلا مع الشّرطة؟

أجلست ليني إم جاي على كرسيّ مريح، وفتحت له كتاباً. عادت نصيحة جدّها إلى ذاكرتها: إنّها فكرة سيّئة يا ليني، لكن إن كنتِ ستقدمين على فعلها، عليكِ أن تتوخّي الحذر، وتتصرّفي بذكاء أكبر ممّا تحلّت به أمّك يوماً. لا تقولي شيئاً، أعطهم الرّسالة وحسب. أخبريهم أنّك لم تعرفي حتّى أنّ أباك ميت قبل أن تعطيكِ أمّك هذه الرّسالة. أخبريهم أنّكما فررتما من اعتداءاته، واختبأتما كي لا يعثر عليكما. فكلّ ما فعلتماه -تغيير هويّتيكما، البلدة الجديدة، الصّمت- يتناسب مع أسرة مختبئة من رجُلٍ خطر.

- «أريد أن أذهب يا ماما». قال إم جاي، وهو ينطنط فوق مقعده: «أريد أن أرى أبي».

- «قريباً يا صغيري». قبّلت جبهته، ثمّ عادت إلى طاولة مكتب رئيس

الشّرطة. كان يفصل بينهما سطحٌ عريضٌ من المعدن الرّماديّ زيّنته صورٌ عائليّةٌ، وتناثرت فوقه كيفما اتّفق أكوامٌ ورديّة اللّون من استمارات الرّسائل الواردة، ألقيت بينها عدّة مجلّات صيد سمك مبعثرة. وثمّة بكرة صنّارة صيد خيطها متشابك على نحوٍ يستحيل فكّه، تُستخدم ثقّالةً للورق.

أخرجت الرّسالة من حقيبتها، وأخذت يدها ترتجف، وهي تقدّم اعتراف أمّها.

راح الرّئيس وارد يقرأ سطور الرّسالة، ثمّ جلس ورفع رأسه: «أتعرفين عمّا تتحدّث؟».

جرّت ليني كرسيّاً وجلست قبالته، كانت تخشى أن تفقد ساقاها القدرة على حملها: «أعرف».

- إذنْ، فقد أطلقت أمّك النّار على أبيك، وتخلّصت من جثّته، ثمّ لذتما بالفرار كلتاكما.

- الرّسالة معك.

- وأين أمّك؟

- لقد توفّيت الأسبوع الماضي. أعطتني الرّسالة، وهي على سرير موتها، وطلبت منّي أن أوصلها إلى الشّرطة. وتلك كانت أوّل مرّة أسمع فيها عن الأمر... أقصد، القتل. كنت أظنّ أنّنا هاربتان من اعتداءات والدي، لقد... كان عنيفاً، في بعض الأحيان. أبرحها ضرباً بقسوةٍ كبيرةٍ ذات ليلة، ففررنا في أثناء نومه.

- يؤسفني سماع خبر وفاتها.

حدّق الرّئيس وارد إلى ليني طويلاً، وتضيّقت عيناه. كانت قوّة تحديقه مزعزِعة، فقاومت ليني رغبتها الملحّة في التّململ. نهض أخيراً، وذهب

إلى خزانة ملفّات في القسم الخلفيّ من الغرفة، راح يقلّب الأوراق في أحد أدراجها، ثمّ أخرج مصنّفاً. ألقاه على طاولته، وجلس ثمّ فتحه. «إذنْ، والدتك كورا أولبرايت، كان طولها خمسة أقدام وستّة إنشات، ويصفها النّاس بنحول البنية والهشاشة. ووالدك كان بطول ستة أقدام تقريباً».

- أجل، هذا صحيح.

- لكنّها أطلقت النّار على أبيك، وجرّت جثّته إلى خارج المنزل، ثمّ ماذا؟ ربطته فوق ماكينة ثلج، وقادتها به إلى بحيرة غلاس ليك في الشّتاء، وفتحت حفرة في الجليد، وأثقلته بالفخاخ الحديديّة، ثمّ ألقته. وحدها. أين كنتِ أنت؟

ظلّت ليني جالسة بمنتهى الثّبات، يداها متشابكتان في حضنها. «لا أدري، فلا أعلم متى حدث ذلك». شعرت بحاجة إلى الإضافة، طبقات من الكلمات ترسّخ الكذبة، لكنّ جدّها كان قد قال لها أن تتلفّظ بأقلّ قدر ممكن.

وضع الرّئيس وارد مرفقيه على المكتب شاهراً أصابعه ذات الرّؤوس المفلطحة مثل برج كنيسة. «كان بوسعك إرسال هذه الرّسالة بالبريد».

- صحيح.

- «لكنّ هذا لا يشبهك، أليس كذلك يا لينورا؟ أنت فتاة طيّبة، شخص نزيه. لديّ تقارير برّاقة حولك في هذا الملفّ». انحنى إلى الأمام متابعاً: «ماذا حدث في ليلة هروبكما؟ ما الذي أثار غضبه؟».

- «اكـ.. اكتشفتُ أنّني حبلى». أجابت.

- «ماثيو ووكر». قال، وهو يلقي نظرة على الملفّ: «قال النّاس إنّكما كنتما واقعين في الحبّ».

- «أها». ردّت ليني.

- «أنا حزين للغاية ممّا أصابه، ممّا أصابكما كليكما. لكنّ حالتك تحسّنت؛ أمّا هو...». ترك الرّئيس وارد جملته معلّقةً في الهواء؛ فشعرت ليني بخزيها معلّقاً على مشجبٍ ما لم يُنطَق: «أسمع أنّ أباك كان يكره آل ووكر».

- بل أكثر من ذلك.

- وعندما اكتشف والدك أنّك حبلى؟

- «جُنّ جنونه، بدأ يضربني بقبضتيه، بحزامه...». تحرّرت الذّكريات التي قضت سنيناً تعمل على غمرها.

- لقد كان وغداً شرّيراً، حسب ما أسمع.

- «أحياناً». أشاحت ليني بنظرها، فرأت بزاوية عينها إم جاي يقرأ كتابه، فمه يتحرّك فيما يعمل على النّطق بالكلمات. تمنّت ألّا يكون هذا الحديث الدّائر قد وجد مرتعاً في زاوية مظلمة ما من لاوعيه، فيستطيع أن ينبثق ذات يوم.

دفع الرّئيس وارد ببعض الأوراق نحو ليني، ورأت اسم أولبرايت، كورالين مكتوباً في الزّاوية. «لديّ تصريحات تحت القسم من مارج بيردسول، وناتالي واتكنز، وتيكا رودز، وثيلما شيل، وتوم ووكر، جميعهم شهدوا برؤية كدمات على والدتك عبر السّنين. كان ثمّة الكثير من الدّموع حين أخذت هذه الإقرارات، أؤكّد لك ذلك، الكثير من الأهالي تمنّوا لو أنّهم تصرّفوا على نحو مختلف. ثيلما قالت إنّها تمنّت لو أنّها أطلقت النّار على والدك بنفسها».

- «لم تسمح أمّي لأيّ أحد بمساعدتها». قالت ليني: «ما زلت لا أعرف السّبب».

- هل حدث أن أخبرت أحداً أنّه كان يضربها؟

- ليس على حدّ علمي.

- «عليكِ أن تقولي الحقيقة إن كنت تريدين تلقّي مساعدة حقيقيّة».
قال الرّئيس وارد.

حدّقت ليني إليه.

- بحقّك يا ليني، كلانا يعرف ما حدث تلك اللّيلة، أمّكِ لم تفعل هذا وحدها. أنتِ كنتِ طفلة، ولم يكن الذّنب ذنبك. فعلتِ ما طلبته منك أمّك، ومن كان ليفعل غير هذا؟ ما من أحد على هذا الكوكب لن يتفهّم الأمر، لقد كان يضربها حبّاً بالله، القانون سيتفهّم هذا.

إنّه محقّ؛ لقد كانت طفلةً بالفعل، فتاة حبلى خائفة في الثّامنة عشرة من عمرها.

- «دعيني أساعدك». قال: «بوسعك أن تتخلّصي من هذا الحمل الفظيع».

كانت تعلم ما أرادت منها أمّها وجدّاها أن تفعله الآن: أن تستمرّ بالكذب، أن تقول إنّها لم تشهد جريمة القتل، ولا القيادة إلى غلاس ليك، ولا غرق جثّة أبيها في المياه الجليديّة.

أن تقول: ليس أنا.

بوسعها أن تلقي باللّائمة كاملةً على أمّها وتلتزم بهذه الرّواية.

وتكون إلى الأبد امرأةً تحمل هذا السّرّ الرّهيب القاتم، تكون كاذبة.

لقد أرادت لها أمّها أن ترجع إلى البيت، لكنّ البيت ليس مجرّد كوخ في عمق الغابات يطلّ على خليج صغير هادئ. البيت هو حالة ذهنيّة، هو السّلام الذي يجيء من تصرّف المرء وفق هويّته، وعيشه حياةً صادقة. ما

من شيء يسمّى قطع نصف الطّريق إلى البيت، ولا يمكن لها أن تبني حياةً جديدةً على أساسٍ متخلّعٍ قوامه كذبة. ليس مرّةً أخرى.. لن تقيم بيتاً من كذب..

- الحقيقة سوف تحرّرك يا ليني، أليس هذا ما تريدينه؟ أليس لهذا جئتِ؟ أخبريني بما حدث حقّاً تلك اللّيلة.

- لقد ضربني حين عرف بشأن الطّفل، ضربني بقوّة كانت كافيةً لتمزّق وجنتي وتكسر أنفي. لا... لا أتذكّر كلّ شيء، أتذكّره فقط، وهو يضربني، ثمّ سمعتُ أمّي تقول: إلّا حبيبتي ليني. وتبع ذلك إطلاقُ نار. رأيت... رأيت الدّم ينزّ منتشراً على قميصه، لقد أطلقَتْ عليه النّارَ مرّتين في الظّهر، كي تردعه عن قتلي.

- وأنتِ ساعدتِها على التّخلّص من جثّته.

تردّدت ليني، بيد أنّ التّعاطف الظّاهر في عينيه جعلها تقول بهدوء: «وأنا ساعدتُها على التّخلّص من الجثّة».

ظلّ الرّئيس وارد جالساً في مكانه لبرهة، مطرقاً ينظر إلى السّجلّات أمامه. بدا متأهّباً ليقول شيئاً ما، ثمّ غيّر رأيه. فتح درج مكتبه (فصدر عنه صوت صرير حادّ) وأخرج ورقةً وقلماً: «أيمكنكِ تدوين القصّة كاملةً؟».

- لقد أخبرتك بكلّ شيء.

- أحتاج إلى كلام مكتوب، ثمّ نكون انتهينا. لا تفقدي حماستك الآن يا ليني، لقد شارفتِ على النّهاية. تريدين أن ترمي الأمر كلّه خلف ظهرك، أليس كذلك؟

مدّت ليني يدها إلى القلم وسحبت الورقة إليها. اكتفت في البداية بالتّحديق إلى البياض الفارغ. «ربّما يجدر بي أن أطلب محامياً؟ كان جدّي ليوصي بهذا، فهو محامٍ».

- «يمكنك ذلك». أجابها: «فهذا ما يفعله المذنبون». ثمّ مدّ يده إلى الهاتف وسألها: «هل أطلبه لك؟».

- أنت تصدّقني، صحيح؟ لم أقتله، وأمّي لم تكن تنوي فعل ذلك، القانون بات يعلم بشأن النّساء المعنَّفات الآن.

- بالطّبع. وعدا عن ذلك، لقد أخبرتِني الحقيقة وانتهى الأمر.

- إذنْ، فما عليّ سوى أن أدوّنها، وأكون انتهيت؟ أستطيع الذّهاب إلى كابِنك؟

أومأ برأسه.

أيّ فرقٍ ستُحدثه كتابة الكلمات؟ بدأت على رسلها، كلمةً تلو الأخرى، تعيد بناء مشهد تلك اللّيلة الرّهيبة. اللّكمات، الحزام، الدّم، النّتف المتخثّرة. الرّحلة القارسة إلى البحيرة. آخر صورة لوجه والدها، عاجٌ في ضوء القمر، وهو يغوص في الماء. صوت ذوبان الجليد عند حافّة الفتحة.

التّفصيل الوحيد الذي تجاوزته هو المتعلّق بمساعدة لارج مارج لهما، لم تأتِ على ذكرها البتّة، ولم تأتِ على ذكر جدّيها كذلك، أو المكان الذي قصدته هي وأمّها حين غادرتا ألاسكا.

أنهت روايتها للأحداث بقولها: سافرنا بالطّائرة من هومر إلى أنكوراج، ثمّ غادرنا ألاسكا.

دفعت الورقة فوق سطح الطّاولة.

نظر الرّئيس وارد إلى اعترافها.

- «لقد أنهيتُ القراءة، ماما». قال إم جاي، فأشارت له بيدها كي يأتي. أغلق الكتاب وركض بنصف انطلاقة عبر الغرفة، ثمّ تسلّق إلى حضنها

مثل سعدان. وعلى الرغم من أنّه بات أكبر حجماً من ذلك، حملته وأقعدته في حضنها، فدلّى ساقيه النّحيلتين، وهو يركل طاولة المكتب المعدنيّة ببوز حذائه الرّياضيّ. بانغ.. بانغ.. بانغ..

نظر الرّئيس وارد إليها وقال: «أنتِ رهن الاعتقال».

شعرت ليني بالعالم يهوي من تحتها حرفيّاً: «لكن... أنت قلتَ إنّ الأمر سينتهي إن دوّنتُ أقوالي».

- «الأمر انتهى بيني وبينك، وبات الآن بيد شخص آخر». خلّل شعره بيده: «أتمنّى لو أنّكِ لم تأتي».

كلّ التّحذيرات طيلة تلك السّنوات، كيف نسيَت؟ لقد سمحت لحاجتها إلى الغفران والانعتاق أن تغلب الحسَّ السّليم. «ماذا تعني؟».

- لقد خرج الأمر من يدي يا ليني، بات برسم المحكمة الآن. سيتعيّن عليّ أن أحتجزك، إلى أن يحين موعد استدعائك للمثول أمام المحكمة على الأقلّ. إن كنتِ لا تستطيعين تحمّل نفقةِ أتعاب محامٍ...

- «ماما؟». قال إم جاي عابساً.

قرأ الرّئيس حقوق ميراندا(*) على ليني من ورقة أمامه، ثمّ أنهى كلامه بقوله: «إن لم يكن لديكِ من يستطيع أن يأخذ ابنك، فسيتعيّن تسليمه إلى الخدمات الاجتماعيّة. سوف يعتنون به جيّداً، أعدكِ بذلك».

لم تستطع ليني أن تصدّق الغباء والسّذّاجة اللذين تصرّفت بهما، كيف

(*) حقوق ميراندا أو تحذيرات ميراندا: هو نوع من الإنذار الّذي تقدّمه الشّرطة الأمريكيّة للمشتبه بهم جنائيّاً قبل الاستجواب، ويتضمّن ذكر حقّهم في التزام الصّمت ورفض الإجابة عن الأسئلة أو تقديم المعلومات، وتذكيرهم بأنّ أيّ شيء يقولونه سيؤخَذ دليلاً ضدّهم في المحكمة، وعرض تأمين محامٍ لهم إن كانوا لا يستطيعون تحمّل نفقات أتعابه. (المترجم)

أمكنها ألّا تتوقّع حدوث هذا؟ لقد حُذِّرت من الأمر، ومع ذلك صدّقت الشّرطة، وهي تعلم كم يمكن للقانون أن يكون متشدّداً وغير متسامح مع النّساء.

أرادت أن تشتم، وتصرخ، وتبكي، وتقلب كلّ ما حولها من أثاث، لكنّ الأوان كان قد فات على ذلك. لقد اقترفت خطأً فظيعاً، ولا يُمكن أن تُتبعه بآخر. «توم ووكر». قالت.

- «توم؟». عبس الرّئيس وارد: «لماذا تريدينني أن أتّصل به؟».

- اتّصل به وحسب. أخبره أنّني بحاجة إلى المساعدة، وسيأتي من أجلي.

- ما تحتاجين إليه هو محامٍ.

- «أجل». قالت: «أخبره بهذا أيضاً».

* 30 *

المعالجة(*).

كانت ليني قبل اليوم تربط هذه الكلمة بالطّعام الذي خضع لعمليّةٍ غيّرت شكله حتّى ما عاد يُمكن تمييزه وصار مضرّاً بالصّحّة، مثل الجبن المعلّب في عبوات بخّاخة؛ أمّا الآن فكان لها معنىً جديد كلّيّاً.

أخذُ البصمات. التّصوير الجنائيّ التّعريفيّ. استديري إلى اليمين من فضلك. أيدٍ تفتّشها.

- «هذا مُسلٍّ!». قال إم جاي، وهو يضرب قضبان الزنزانة بيديه، ويركض من طرف إلى آخر: «أُصدِرُ صوتاً مثل الطّائرة المروحيّة، اسمعي». ركض مجدّداً بأسرع ما يستطيع، ويده ترتطم بالقضبان.

لم تستطع ليني أن تلفّق ابتسامة، ليس بمقدورها أن تنظر إليه، لكنّها لا تستطيع الإشاحة عنه كذلك. لقد تطلّب الأمر منها استجداءً لا ينتهي كي تقنعهم بتركه هنا معها. الحمد لله أنّها في هومر، لا في أنكوراج، حيث لا شكّ أنّ القوانين كانت لتُطبَّق بصرامة أكبر. من الواضح أنّ الجرائم لم تزل

(*) في الإنجليزية، تأخذ عملية الإجراءات القانونية الجنائية وعملية معالجة الأغذية المطبوخة الكلمةَ نفسها، ويمكن لمفردة «المعالجة» في العربيّة أن تفي بالمعنيَين كليهما ضمن هذا السياق. (المترجم)

قليلةً في المنطقة، فقد كانت هذه الزّنزانة تُستخدم معظم الأحيان لإيواء السّكارى في نهايات الأسبوع.

كلانك.. كلانك.. كلانك..

- «إم جاي». قالت ليني بحدّة، ولم تنتبه إلى أنّها صاحت الاسمَ صياحاً قبل أن ترى وجهه؛ العينين الخضراوين القلقتين، والفم الفاغر تحتهما.

- «آسفة». قالت له: «تعال إلى هنا يا صغيري».

كانت أمزجة إم جاي أشبه بالبحر؛ نظرةٌ واحدة كفيلة بإخبارك كلّ ما تحتاج إلى أن تعرفه. لقد جرحت مشاعره، بل ربّما أخافته حتّى بثورانها.

شيء إضافيّ يمدّها بشعورٍ سيّئ.

جرّ إم جاي قدميه عبر الزّنزانة الصّغيرة، يحفّ حذاء التّنس ذا النّعل المطّاطيّ بالأرض عن عمد. «إنّني أتزلّج على الجليد». قال لها.

اجترحت ليني ابتسامةً، وهي تشير له إلى المكان الشّاغر بجانبها على المقعد الإسمنتيّ حيث جلس، وكانت الزّنزانة صغيرة إلى درجة أنّ المرحاض عديم الغطاء يلامس ركبته تقريباً. عبر القضبان المعدنيّة، كان بوسع ليني أن ترى معظم المخفر: مكتب الاستقبال، مكان الانتظار، الباب المفضي إلى مكتب الرّئيس وارد.

تعيّن عليها أن ترغم نفسها على عدم أخذ إم جاي بين ذراعيها وحَضنه بشدّة. «عليّ أن أتكلّم معك». قالت: «أتتذكّر كيف نتحدّث دائماً عن والدك؟».

- إنّه يعاني من تلفٍ دماغيٍّ، لكنّه سيحبّني على كلّ حال. هذا مرحاضٌ مقرف.

- وهو يعيش في منشأة مخصّصة للعناية بأشخاصٍ مثله، لهذا السّبب لا يزورنا.

أومأ إم جاي: «هو لا يستطيع التّحدّث على أيّة حال، فقد سقط في حفرة وانكسر رأسه».

- أها، وهو يعيش هنا، في ألاسكا، حيث نشأت ماما.

- أعلم ذلك طبعاً، لهذا نحن هنا. أيستطيع أن يمشي؟

- لا أظنّ ذلك، لكن... لديك أيضاً جدّ يعيش هنا، وعمّة اسمها أليسكا.

كفّ إم جاي أخيراً عن ضرب دمية الدّيناصور ثلاثيّ القرون البلاستيكيّة بالمقعد ونظر إليها: «جدّ آخر؟ جيسون لديه ثلاثة جدود».

- وأنت بات لديك اثنان الآن، أليس هذا جميلاً؟

سمعت باب المخفر يُفتح، ودخل منه هدير شاحنة في أثناء مرورها في الخارج وعجلاتها تدهس الحصى، ثمّ نفير بوق.

وهناك كان توم ووكر، يدخل بخطواته الواسعة إلى المخفر. كان يرتدي بنطال جينز باهت اللّون دُسَّ طرفاه في الجزمة، وتي شيرت أسود رُسم على وجهه الأماميّ شعار ضخم ملوّن لـ«نُزل شرم آل ووكر للمغامرات»، وقد غطّت جبهتَه العريضة قبّعة سائق شاحنة متّسخة.

توقّف في وسط المخفر، وراح ينظر حوله.

رآها.

ما كانت ليني لتستطيع البقاء جالسةً ولو حاولت، وهي لم تحاول، ابتعدت من جانب إم جاي بهدوء، ونهضت على قدميها.

شعرت برعشة من الطّاقة تتكوّن من التّوقِ القلِقِ والبهجة بجزأين متساويين. لم تكن قد أدركت قبل الآن، قبل هذه اللّحظة، كم افتقدت السّيّد ووكر. مع مرور السّنوات، كانت قد صبغت ذكراه بأفكار رومانسيّة،

هي وأمّها. بالنّسبة إلى أمّها، كان هو الفرصة التي انبغى أن تنتهزها؛ أمّا بالنّسبة إلى ليني، فقد كان الصّورة المثاليّة لما يمكن أن يتّصف به الأب. كانتا كثيراً ما تتحدّثان عنه في البداية، إلى أن بات الأمر مؤلماً أكثر من قدرتهما كلتيهما على الاحتمال، فكفّتا عن ذلك.

اتّجه نحوها، نزع القبّعة عن رأسه، وكوّرها بيديه. بدا مختلفاً، حتّته عوامل الجوّ أكثر من كونه قد شاخ. شعره الأشقر الطّويل حال إلى الرّماديّ حول وجهه، وقد جُمع في ذيل فرس في الخلف، من الواضح أنّه كان يعمل في الغابة حين اتّصل الرّئيس وارد به، فثمّة غصينات وأوراق جافّة عالقة بقميصه الفلانيل. «ليني». قال عندما لم يعد ثمّة ما يفصل بينهما سوى قضبان زنزانة: «لم أصدّق كيرت حين قال إنّك هنا». قبض على القضبان بيديه الكبيرتين المحمرّتين من العمل: «ظننتُ أنّ أباك قتلك».

شبَّ خزيُ ليني داخلها، فشعرت بدفء في وجهها: «لقد قتلته أمّي، حين همّ بضربي. اضطررنا إلى الهرب».

- «كنتُ لأساعدكما». قال مخفضاً صوته، وقد انحنى نحوها: «جميعنا كنّا لنفعل».

- أعلم، لهذا لم نطلب منكم.

- و... كورا؟

- «رحلت». قالت ليني بنبرةٍ غليظةٍ: «سرطان رئة. كانت... تفكّر فيك كثيراً».

- أوه، ليني، أنا آسف للغاية! لقد كانت...

- «أجل». قالت ليني بنعومة، محاولةً حينها ألّا تفكّر في كلّ ما كان يجعل أمّها مميّزة، أو كم هو مؤلم فقدانها. لم ينقضِ وقتٌ كافٍ بعد؛ لم

تتعلّم ليني كيف تتحدّث عن ألمها. عوضاً عن ذلك، تنحّت جانباً كي تتسنّى له رؤية الصّبيّ الجالس خلفها: «إم جاي، ماثيو الابن، هذا هو جدّك توم».

لطالما بدا السّيّد ووكر قويّاً على نحوٍ مستحيل خارق للقدرة البشريّة، لكنّها الآن رأت كيف استطاعت نظرة واحدة إلى الصّبيّ الذي يشبه ابنه كثيراً أن تهدّ حاجزه الصّلب. «يا إلهي...!».

وثب إم جاي ناهضاً على قدميه، وكان يقبض على ديناصور بلاستيكيّ أحمر بيده.

قرفص السّيّد ووكر ليصبح على مستوى عيني حفيده من خلف قضبان الزّنزانة: «أنت تذكّرني بصبيّ آخر له شعر أشقر».

تماسكي.

- «أنا إم جاي!». قال بابتسامةٍ كبيرة الحجم، وهو ينطنط: «أتريد أن ترى ديناصوراتي؟». لم ينتظر جواباً، وبدأ يخرج ديناصوراته البلاستيكيّة من جيوبه متباهياً بها واحداً تلو الآخر.

من فوق صوت الزّمجرة (هكذا هو صوت التّيرانوصور: غررر)، قال السّيّد ووكر: «إنّه يشبه أباه».

- «أجل». شقّ الماضي طريقه بالقوّة إلى الحاضر، وأطرقت ليني تنظر إلى قدميها، غير قادرة على مقابلة نظرة السّيّد ووكر.

- «آسفة لأنّني لم أخبرك». قالت: «اضطررنا إلى المغادرة سريعاً ولم أرِد توريطك في المتاعب. لم أرِدك أن تُضطرّ إلى الكذب من أجلنا، وما كان لي أن أترك أمّي تذهب إلى السّجن...».

- «آه، ليني». قال السّيّد ووكر أخيراً، وهو ينهض على قدميه: «لطالما

حملتِ هموماً تفوق سنكِ. لماذا أنتِ هنا إن كانت أمّك قد قتلت إيرنت إذنْ؟ ينبغي لكيرت أن يمنحكما وساماً كلتيكما بحقّ السّماء، لا أن يحتجزك».

كان يمكن لليني أن تنهار أمام الحنوّ الذي رأته في عينيه. كيف لا يكون غاضباً؟ لقد هجرت ابنَه المصاب بتلفٍ دماغيّ، وكذبت بغيابها طوال سنين، وسرقت منه سنيناً من حياة حفيده، والآن عليها أن تطلب منه معروفاً آخر. «لقد ساعدتُها بعد الواقعة، كما تعلم... في التّخلّص من... الجثّة».

اقترب منها: «واعترفتِ بهذا؟ لماذا؟».

- لقد خدعني الرّئيس. على كلّ حال، لعلّها الطّريقة التي ينبغي للأمور أن تسير عليها. كنت بحاجةٍ إلى قول الحقيقة، تعبتُ من التّظاهر بكوني شخصاً آخر. سأجد حلّاً لكلّ شيء، جدّي محامٍ. أنا فقط... أحتاج إلى أن أتوثّق من كون إم جاي في مأمن إلى أن... أخرج. هلّا أخذتَه؟

- بالطّبع، لكن...

- وأعرف أنّه لا يحقّ لي أن أطلب هذا منك، لكن أرجوكَ لا تُخبر ماثيو بشأن ابنه، أحتاج إلى أن أفعل هذا بنفسي.

- ماثيو لن...

- أعلم أنّه لن يفهم، لكنّني أحتاج إلى أن أكون من يخبره بأنّ لديه ابناً. هذا هو التّصرّف الصّائب.

سمعت صلصلة مفاتيح ووقع أقدام، كان الرّئيس وارد قادماً نحوهم. مرّ بالسّيّد ووكر بهدوء، وفتح باب الزّنزانة. «حان الوقت». قال.

انحنت ليني نحو ابنها. «حسناً يا فتاي الصّغير». قالت محاولةً أن تكون قويّة: «عليك أن تذهب برفقة جدّك الآن، فلدى ماما... أمور ينبغي فعلها». دفعته دفعةً صغيرة أخرجته بها من الزّنزانة.

- ماما؟ لا أريد أن أذهب.

تطلّعت ليني إلى السّيّد ووكر طلباً للمساعدة، لم تكن تعرف كيف تقوم بهذا.

وضع السّيّد ووكر يده الكبيرة على كتف إم جاي الصّغيرة: «إنّها سنة ورديّة يا إم جاي». كان صوته متزعزعاً مثل مشاعر ليني: «هذا يعني أنّ أسماك السّلمون الأحدب تكاد تسدّ مجاري الأنهار. يمكننا أن نصيد في نهر أنكور اليوم، ثمّة فرصة كبيرة أن تصطاد أكبر سمكة في حياتك».

- «أيمكن لماما وبابا أن يأتيا؟». سأل إم جاي: «أوه، مهلاً! بابا لا يستطيع أن يتحرّك، نسيت ذلك».

- «أتعرف بشأن أبيك؟». قال السّيّد ووكر.

أومأ إم جاي: «ماما تحبّه أكثر من القمر والنّجوم، مثلما تحبّني، لكنّ رأسه مكسور».

- «على الولد أن يغادر الآن». قال الرّئيس وارد.

نظر إم جاي إلى ليني: «إذنْ، سأذهب لصيد السّمك مع جدّي الجديد، صحيح؟ ثمّ سوف نتابع لعبة السّجن؟».

- «أها». قالت ليني، باذلة قصارى جهدها كي لا تبكي. كانت قد علّمت ابنها أن يثق بها، على الدّوام، وأن يصدّقها، وهكذا كان يفعل. مدّت يديها وشدّته إلى عناق، كأنّها تطبع الإحساس بوجوده على جسمها. من كلّ الشّجاعة التي أنفقتها حتّى الآن: العودة إلى الوطن، قول الحقيقة، الاتّصال في طلب توم ووكر؛ كان القدر الأكبر هو الذي تطلّبه منها مجرّدُ أن تترك ابنها يذهب. توصّلت إلى ابتسامة راجفة: «إلى اللّقاء يا إم جاي، أحسِن التّصرّف مع جدّك، وحاول ألّا تكسر شيئاً».

- إلى اللّقاء، ماما.

حمل السّيّد ووكر إم جاي برفعة خاطفة، وأقعده على كتفيه، فرنّت قهقهة الولد ذات النّبرة الحادّة.

- انظري، ماما، انظري! أنا عملاق!

- «إنّها لا تستحقّ أن تكون هنا». قال السّيّد ووكر للرّئيس وارد، الذي اكتفى برفع كتفيه: «لطالما كنتَ وغداً يتقيّد بالتّعليمات الحرفيّة».

- توجيه الإهانات إليّ، يا لها من خطّة جيّدة! قل ذلك للمحكمة يا توم، سوف نستدعيها قريباً، عند السّاعة الثّالثة، فالقاضي يريد الخروج إلى النّهر بحلول الرّابعة.

- «أنا آسف يا ليني». قال السّيّد ووكر.

سمعت الرّقّة في صوته، وعلمت أنّ الرّجل مستعدّ لتقديم المواساة. لم تجرؤ على مدّ يدها، أيّ بادرة حنوّ الآن كفيلة بكسر المقدار الضّئيل الذي تملكه من السّيطرة: «انتبه إليه يا توم، إنّه عالمي».

رفعت عينيها تحدّق إلى ابنها فوق كتفي جدّه، وقالت لنفسها: ربّاه، اجعل الأمور تمضي على خير، ثمّ أوصِدَ باب الزّنزانة.

مرّت بقيّة النّهار ببطء، بين مشاهد وأصوات غير مألوفة، وثرثرة هاتف، وفتح أبواب وإغلاقها، وأخذ طلبات غداء وتوصيلها، وخبط جزم على أرضيّة المخفر.

جلست ليني فوق المقعد الإسمنتيّ الصّلب، مُرخيةً ظهرها على الجدار البارد. كان نور الشّمس يتدفّق من طاقة الزّنزانة الصّغيرة، باعثاً الحرارة في كلّ شيء. دفعت شعرها المندّى عن عينيها، لقد أمضت السّاعتين الأخيرتين تبكي، وتتفصّد عرقاً، وتغمغم بالشّتائم واللّعنات،

فنالت الرّطوبة منها كلّ موضع يمكن أن تناله، وبدا لفمها طعم بطانة حذاء قديم. ذهبت إلى المرحاض الصّغير عديم الغطاء، وأنزلت بنطالها ثمّ قعدت، تدعو ألّا يراها أحد.

كيف يبلي إم جاي؟ تمنّت أن يكون السّيّد ووكر قد وجد دمية حوت الأوركا المحشوّة (التي تُسمّى بوب لسببٍ يتعذّر تفسيره) في حقيبة سفره، فإم جاي لن يستطيع النّوم اللّيلة من دونها. كيف نسيت أن تخبر السّيّد ووكر بهذا؟

فُتح باب المخفر، ودلف منه رجُل. كان له كتفان محدودبتان، وشعر متشابك إلى درجة توحي بأنّه تعرّض لصعقة كهربائيّة، ينتعل جزمة تبلغ الوركين، ويحمل حقيبة رسميّة خضراء بالية من النّايلون. «مرحباً يا مارسي». قال بصوت هادر. عادت ليني إلى مكانها على المقعد.

- «صباح الخير يا ديم». قالت الشّرطيّة الجالسة إلى مكتب الاستقبال.

ألقى نظرةً بزاوية عينه: «أهذه هي؟».

أومأت الشّرطيّة: «أجل. أولبرايت، لينورا. استدعاؤها عند السّاعة الثّالثة، سيأتي جون من سولدوتنا».

اتّجه الرّجُل نحوها، توقّف خارج الزّنزانة. أفلت تنهيدة، ثمّ أخرج مصنّفاً من حقيبته النّايلون المتّسخة وشرع بالقراءة. «يا له من اعتراف مفصّل، ألا تشاهدين التّلفاز؟».

- من أنت؟

- «ديمبي كاوي، المحامي الذي وكّلته لك المحكمة. سندخل، ونقدّم التماسَ براءة، ثمّ نخرج. إنّه موسم هجرة الأسماك الورديّة، اتّفقنا؟ كلّ ما عليك فعله هو أن تقفي عندما تأمرك المحكمة بذلك وتقولي:

"لستُ مذنبة"». أغلق الملفّ مردفاً: «هل لديك من يستطيع أن يدفع لك الكفالة؟».

- ألا تريد أن تسمع جانبي من الرّواية؟

- اعترافك بحوزتي، سنتحدّث لاحقاً، وكثيراً، أعدك. مشّطي شعرك.

غادر قبل أن يتسنّى للّيني استيعاب وجوده بحقّ.

❄

بدت قاعة المحكمة شبيهةً بعيادة طبيبٍ في بلدةٍ صغيرةٍ أكثر من كونها دار عدل موقّرة. ما من خشب برّاق، ولا مقاعد تشبه مقاصير الكنائس، ولا منضدة كبيرة أمامها. لا شيء سوى أرضيّة مكسوّة بالمشمّع، ومجموعة كراسي رُتّبت في صفوف، وطاولتين للمدّعي العامّ والدّفاع. في مقدّمة القاعة، تحت صورة مؤطّرة لرونالد ريغان، ثمّة طاولة طولانيّة من الفورمايكا تنتظر القاضي، وبجانبها كرسيّ بلاستيكيّ ينتظر الشّهود.

اندسّت ليني على كرسيّها بجانب محاميها، الجالس على مقربة من الطّاولة، يمحّص رسوماً بيانيّة متعلّقة بمستوى المدّ. وكان المدّعي العامّ جالساً إلى الطّاولة على الطّرف المقابل من الممشى؛ رجُل نحيل بلحية كثّة، يرتدي صُدرة صيد سمك وبنطالاً أسود.

دخل القاضي إلى قاعة المحكمة، يتبعه كاتب الاختزال والحاجب. كان يرتدي ثوباً أسود طويلاً، وينتعل جزمة صيد سمك من علامة إكستراتَف، اتّخذ مقعده خلف الطّاولة وألقى نظرةً على ساعة الحائط: «فلننجز الإجراءات بسرعة يا سادة».

نهض محامي ليني: «نلتمس من مقام المحكمة...».

فُتح باب القاعة بعنف خلف الحضور: «أين هي؟».

بوسع ليني أن تعيش وتبلغ سنتها العاشرة بعد المئة من دون أن تتوه عن هذا الصّوت، كاد قلبها يتشقلب من البهجة. «لارج مارج!».

تقدّمت لارج مارج بسرعة، وأساورها تخشخش. وجهها الدّاكن الذي ظهرت عليه أمارات التّقدّم في السّنّ مبقّع بشامات سوداء صغيرة، وشعرها فوضى متشابكة من الجدائل الرّفيعة الشّعثاء ردّتها عن وجهها عصابة رأس. مقاس قميصها الجينز صغير عليها؛ التصق مشدوداً فوق ثدييها الكبيرين، وبنطالها ملطّخ بالأزرق من قطف التّوت، وقد دُسَّت نهايتاه داخل جزمة مطّاطيّة.

جذبت ليني بعنفٍ من على كرسيّها وعانقتها. كان للمرأة رائحة الشّامبو المنزليّ ودخان الحطب، رائحة ألاسكا في الصّيف.

- «بحقّ لعنة الجحيم». قال القاضي يخبط بمطرقته: «ما الذي يحدث هنا؟ لقد استدعينا هذه المرأة الشّابّة بتهم جنائيّة خطيرة...».

خلّصت لارج مارج نفسها من العناق ودفعت ليني إلى كرسيّها. «لعنة الله يا جون، هذه الإجراءات هي الجريمة الحقيقيّة». تقدّمت بخطوات واسعة إلى مقعد القاضي، وصرير جزمتها يعلو مع كلّ خطوة: «هذه الفتاة بريئة من كلّ شيء، لقد أجبرها وارد الأبله على الإدلاء باعتراف. ومن أجل ماذا؟ تقديم مساعدة في جريمة؟ اشتراك بعد الواقعة؟ رحماك يا ربّ! هي لم تقتل أباها الخسيس، كلّ ما فعلته هو أنّها هربت حين قالت لها والدتها المرتاعة أن تفعل ذلك. لقد كانت ابنة ثمانية عشر ولديها أبٌ معنِّف، من عساه لا يهرب إن كان في مكانها؟».

طرق القاضي بمطرقته الخشبيّة على الطّاولة: «مارج، لديك فم بحجم سمكة سلمون ملكيّ. والآن اخرسي، هذه قاعتي، وما هذا إلا استدعاء لعين، لا محاكمة. يمكنك أن تقدّمي أدلّتك عندما يحين الوقت».

استدارت لارج مارج لتواجه المدّعي العامّ: «أسقط التّهم اللّعينة يا أدريان، إلّا إن كنت تودّ قضاء أيّام الموسم الأخيرة في المحكمة. كلّ من في كانِك -وفي خطّ الأنابيب على الأغلب- يعرفون أنّ إيرنت أولبرايت كان معنِّفاً، سأحضر عدداً لا ينتهي من الأهالي كي يشهدوا لصالح هذه الفتاة، بدءاً بتوم ووكر».

- «توم ووكر؟». قال القاضي.

استدارت لارج مارج نحو القاضي من جديد، وعقدت ذراعيها بطريقة توحي بالاستقرار، باستعدادٍ للوقوف هنا طيلة اليوم تجادل دفاعاً عن وجهة نظرها: «هذا صحيح».

نظر القاضي إلى المدّعي النّحيل: «أدريان؟».

أطرق المدّعي ينظر في الأوراق المنشورة أمامه، ثمّ نقر بقلمه على الطّاولة: «لا أدري، حضرتك...».

فُتح باب القاعة، ودخلت منه شرطيّة مكتب الاستقبال في مخفر الشّرطة. كانت تمسّد ساق بنطالها بتوتّر. «حضرة القاضي؟». قالت.

- «ما الأمر يا مارسي؟». دوّى صوت القاضي: «إنّنا مشغولون هنا».

- الحاكم على الخطّ، ويريد التّحدّث إليك، في الحال.

❄

منذ دقيقة، كانت ليني تقف بجانب محاميها خلف الطّاولة في قاعة المحكمة، وقبل أن تعي ما حدث، وجدت نفسها تغادر مخفر الشّرطة.

في الخارج، رأت لارج مارج واقفةً بجانب شاحنة بيك أب.

- «ماذا جرى؟». سألتها.

أخذت لارج مارج حقيبة سفر ليني، وألقتها في صندوق البيك أب

الصّدئ: «لا تختلف ألاسكا كثيراً عن غيرها من الأماكن، من النّافع أن يكون للمرء أصدقاء في مناصب عُليا. لقد اتّصل تومي بالحاكم، فتكفّل الأخير بإسقاط التّهم». لمست كتف ليني: «انتهى الأمر يا صغيرتي».

- «بل انتهى جزء منه فقط». أجابت ليني: «ثمّة المزيد».

- أجل، توم يريدك أن تذهبي إلى منزله، سيأخذك كي تري ماثيو.

لم تستطع ليني أن تسمح لنفسها بالتّفكير في هذا بعد، استدارت متّجهة نحو باب المرافق وصعدت إلى المقعد الطّويل المغطّى ببطّانيّة.

تسلّقت لارج مارج إلى مقعد السّائق، مقحمة جسدها الضّخم بحركة متلوية، وحين أدارت المحرّك اشتغل المذياع.

صدحت الأغنية «خذ قطعة صغيرة أخرى من قلبي الآن يا حبيبي» من مكبّر الصّوت، فأغمضت ليني عينيها.

- «تبدين هشّة يا صغيرة». قالت لارج مارج.

- «يصعب ألّا يكون المرء كذلك». فكّرت في أن تسأل لارج مارج عن ماثيو، لكنّها كانت تشعر بصدق أنّ أصغر الأشياء بوسعه أن يكسرها، لذا اكتفت بالتّحديق من النّافذة.

فيما كانت الشّاحنة تمضي بهما إلى الرّصيف المائيّ، لم تستطع ليني إلّا أن ترنو برهبة إلى رذاذ الضّوء السّحريّ. بدا العالم مضاءً من داخله، ألوان خياليّة بارزة ومموّهة، ذرا مدبّبة من الثّلج والصّخر، عشب أخضر نابض بالحياة، بحر أزرق.

كانت الأحواض ممتلئة بقوارب الصّيد والضّجّة؛ طيور البحر تصيح، المحرّكات تدمدم نافثةً دخاناً أسود إلى الهواء، ثعالب الماء تنزلق على صفحة المياه بين القوارب مزقزقةً بأصواتها.

استقلّتا قارب صيد لارج مارج الأحمر -المطاردة العادلة(*)- وانطلقتا بسرعة متزايدة عبر خليج كاتشيماك الأزرق الهادئ، نحو الجبال البيضاء الشّاهقة. تعيّن على ليني أن تحجب عينيها لتقيهما وهجَ ضوء الشّمس المنعكس على الماء، لكن ما من طريقة لحجبِ قلبها. باغتتها الذّكريات من كلّ جانب؛ تذكّرت رؤية هذه الجبال للمرّة الأولى، أكانت تعلم آنذاك كيف ستأسرها ألاسكا؟ كيف ستشكّلها؟ لا تدري، لا تستطيع أن تتذكّر. بدا ذلك منذ حياةٍ كاملة انقضت.

انعطفتا حول طرف شرمٍ سادي، ودخلتا بين جزيرتين خضراوين محدّبتين، شاطئاهما مغطّيان بالخشب الفضّيّ المجروف، وعشب البحر، والحصى. أبطأ القارب من سرعته، ودار حول مكسر الأمواج الصّخريّ.

حظيت ليني بنظرتها الأولى على ميناء كانِك، والبلدة القائمة على ركائز فوقه. ربطتا القارب، ثمّ سارتا على لوح العبور نحو السّياج الشّبكيّ الذي يقوم مقام المدخل إلى الميناء من البلدة. لا تظنّ أنّ لارج مارج قالت شيئاً، لكنّها ليست موقنة حقّاً. كلّ ما بمقدورها سماعه هو جسدها نفسه، يعود إلى الحياة من جديد في هذا المكان الذي سيظلّ يعرّف هويّتها؛ قلبها ينبض، رئتاها تسحبان الأنفاس، وقدماها تطأان حصى شارع مين ستريت.

لقد كبرت كانِك خلال السّنوات الماضية. واجهات المتاجر المكسوّة بألواح الخشب طُليت بألوان زاهية، كما في الصّور التي كانت تراها للبلدات الاسكندنافيّة المطلّة على الفيوردات. وبدا الممشى الخشبيّ الذي يربط بين كلّ شيء كأنّه جديد؛ مصابيح الشّارع منتصبة مثل الحرّاس،

(*) سُمّي القارب تيمُّناً بمبدأ «المطاردة العادلة» الأخلاقيّ لدى الصيّادين، الّذي يقتضي أن تكون الطرائد الكبيرة بريّةً وحرّةً طليقةً عند مطاردتها من أجل الصيد. (المترجم)

وثمّة أصائص ممتلئة بنبات إبرة الرّاعي وزهر البتونيا تتدلّى عن أذرعها الحديديّة. إلى يسارها يقوم المخزن العامّ، وقد توسّع إلى ضعف حجمه الأصليّ، بباب أحمر جديد. الشّارع يتباهى بمتجر تلو الآخر: محل سناكل، المطعم، متجر خيوط الغزل، محلّات الهدايا التّذكاريّة، أكشاك المثلّجات، باعة الملابس ولوازم الرّحلات، الأدلّاء السّياحيّون، محلّات تأجير زوارق الكاياك، حانة ملموت الجديدة، نُزل جينيفا، الذي يزدهي بصفّ عملاق من قرون الوعل فوق بابه.

تذكّرت يومهم الأوّل هنا، حين قالت أمّها، وهي تنتعل جزمة رحلاتها الجديدة وترتدي بلوزة موشّاة ذات طراز فلّاحيّ: إنّني أشعر بشيء من الرّيبة تجاه الجيران الّذين يستخدمون حيوانات ميتة لأغراض الزّينة.

لم تستطع ليني أن تقاوم الابتسام؛ ربّاه، كم كانوا غير مجهّزين!

السّيّاح يمتزجون مع المحلّيّين (ما زال التّمييز بينهم سهلاً عن طريق الملابس)، والمركبات مصفوفة في الشّارع أمام حانة ملموت: بضع درّاجات رباعيّة، وبعض الدّرّاجات التّرابيّة، وشاحنتا بيك أب، وسيّارة بينتو خضراء ليمونيّة برفراف مثبّت بالشّريط اللّاصق.

صعدت ليني إلى مركبة الإنترناشونال هارفستر القديمة الخاصّة بلارج مارج، وانطلقتا من جانب المخزن العامّ. حملهما جسر مطليّ حديثاً (اصطفّ على جانبيه صيّادو سمك ألقوا خيوط صنانيرهم في الماء) فوق نهر ذي مياه كريستاليّة صافية وصولاً إلى طريق مفروش بحصىً سرعان ما تحوّل إلى تراب.

خلال نصف الميل الأوّل من الطّريق، ظهرت علامات جديدة للحضارة: مقطورة سفرٍ مركونة فوق دعامات في العشب الطّويل،

وبجانبها جرّار نهشه الصّدأ، بضعة مداخل مركبات جديدة، منزل متنقّل، حافلة مدرسيّة قديمة مركونة قرب خندق تصريف المياه من دون عجلات.

لاحظت ليني أنّ لارج مارج قد علّقت لافتة جديدة عند منزلها، كُتب عليها: «هنا تُؤجّر زوارق الكاياك والكانو!».

- «أنا أحبّ علامات التّعجّب». قالت لارج مارج.

همّت ليني بأن تقول شيئاً، لكنّها أبصرت بداية أرض آل ووكر، حيث القنطرة الّتي ترحّب بضيوف نُزل المغامرات، وتعدهم بـ«صيد السّمك، وركوب زوارق الكاياك، ومشاهدة الدّببة، والرّحلات الجوّيّة لرؤية المعالم».

خفّفت لارج مارج ضغطها على الدّوّاسة مع اقترابهما إلى مدخل المركبات، ونظرت إلى ليني بطرف عينها تقول: «أواثقة أنّك مستعدّة لهذا؟ بوسعنا أن ننتظر».

سمعت ليني الرّقّة في نبرتها، وأدركت أنّ المرأة تعرض تقديم بعض الوقت لها قبل أن ترى ماثيو من جديد. «أنا مستعدّة».

مرّتا من تحت قنطرة آل ووكر، وراحت المركبة تقرقع فوق الطّريق الممهّد بالحصى. إلى يسارها، شُيّدت ثمانية أكواخ خشبيّة جديدة بين الأشجار، اختير موضع كلّ منها بحيث يحظى بإطلالة واسعة على الخليج، وثمّة درب ملتفّ مسيّج بدرابزين ينحدر ليفضي إلى الشّاطئ.

لم تقطعا مسافة طويلة قبل أن تبلغا منزل آل ووكر، الذي تحوّل الآن إلى نُزل آل ووكر. ما زال درّةَ تاجٍ كعهده؛ طابقان من الخشب المقشور، بمصطبة ضخمة، ونوافذ تطلّ على الخليج والجبال. لم يعد هنالك خردوات في الفناء؛ لا شاحنات صدئة، أو لفائف أسلاك، أو طبليّات

مكدّسة فوق بعضها. عوضاً عن ذلك، ثمّة حواجز خشبيّة قائمة هنا وهناك، وجدران حرّة نُصبت لتحجب ما خلفها أيّاً كان. كراسي الأديروندداك تملأ المصطبة، وقد نُقلتْ حظائر الحيوانات إلى خلف حاجز الأشجار البعيد.

عند الرّصيف البحريّ في الأسفل، رُبطت طائرة عوّامة بجانب ثلاثة قوارب صيد من الألمنيوم. ثمّة أناس يسيرون على الدّروب، ويصطادون السّمك على الشّاطئ. موظّفون في أزياء موحّدة بنّيّة، وزوّار في ملابس مطريّة متناسقة الألوان وصدرات جديدة من الصّوف النّاعم. خرجت ليني من الشّاحنة، وأخذت تُجيل نظرها في الأنحاء.

انطلق إم جاي خارجاً من النُّزل، قطعَ المصطبة وثباً، وهو يناور حول الكراسي، وجاء إليها يلوّح بشيء في يده.

انحنت ليني ورفعته بين ذراعيها، ثمّ حضنته بشدّة جعلته يبدأ بالتّلوّي كي يتملّص. لم تنتبه قبل هذه اللّحظة كم كانت خائفةً من فقدانه.

اتّجه توم ووكر نحوها، وبجانبه امرأة جميلة عريضة المنكبين من السّكّان الأصليّين، بشعر أسود يبلغ وركيها، بدأ الشّيب يغزوه في خصلة عريضة واحدة. كانت ترتدي بلوزة من الدّنيم باهت اللّون دُسّت داخل بنطال كاكيّ، وقد عُلّقت بحزامها سكّين مغمدة، وبرزت زرديّةٌ من جيب صدرها.

- «أهلاً، ليني». قال السّيّد ووكر: «أقدّم لكِ زوجتي، آتكا».

مدّت المرأة يدها وابتسمت: «لقد سمعتُ الكثير عنك وعن والدتك».

أحسّت ليني بتضيّق في حلقها، وهي تصافح يد آتكا الخشنة، وتقول: «يسرّني لقاؤك». ثمّ نظرت إلى السّيّد ووكر، وقالت بصوت متصدّع: «كانت أمّي لتسعَد لكما».

خيّم الصّمت عليهم بعد جملتها.

ألقى إم جاي نفسه على ركبتيه فوق العشب، وأقام معركة بين ديناصوره الأزرق ثلاثيّ القرون وتيرانوصوره الأحمر، مع تأثيرات زمجرة صوتيّة.

- «أودّ أن أراه الآن». قالت ليني؛ إذْ أدركت بالغريزة أنّ السّيّد ووكر كان ينتظرها كي تخبره أنّها جاهزة: «وحدي، على ما أعتقد. إن لم يكن لديك مانع».

التفت السّيّد ووكر إلى زوجته: «آتكا، هلّا انتبهتِ أنت ومارج إلى الصّغير لبعض الوقت؟».

ابتسمت آتكا، وردّت شعرها الطّويل إلى خلف ظهرها: «إم جاي، هل تتذكّر نجم البحر الذي حدّثتُك عنه؟ الحيوان الذي يسمّيه شعبي يويت، مصارع الأمواج؟ أتودّ أن ترى واحداً؟».

هبّ إم جاي واقفاً على قدميه: «أجل! أجل!».

عقدت ليني ذراعيها، وهي تشاهد لارج مارج وآتكا وإم جاي يسيرون نحو درج الشّاطئ، وأخذ صوت إم جاي المزقزق ذو النّبرة العالية يتلاشى تدريجيّاً.

- «لن يكون هذا سهلاً». قال السّيّد ووكر.

- «أتمنّى لو أنّني استطعتُ أن أكتب». أجابت: «لقد أردت أن أخبرك أنت وماثيو عن إم جاي، لكن...». أخذت نفساً عميقاً: «كنّا نخشى أن يعتقلونا إن عدنا».

- كان بوسعكما أن تثقا بنا كي نحميكما، لكن لا حاجة بنا إلى الحديث عمّا حصل آنذاك.

- «لقد تخلّيتُ عنه». قالت بهدوء.

- كان غارقاً في الألم إلى درجة لا يعلم معها من يكون، ناهيكِ عمّن تكونين أنت.

- أتظنّ أنّ هذا يخفّف من تأنيب ضميري؟ أنّه كان يتألّم؟

- أنتِ أيضاً كنتِ تتألّمين، أكثر ممّا كنتُ أعرف، كما أظنّ. هل كنت تعلمين أنّك حبلى؟

أومأت برأسها: «كيف حاله؟».

- لقد كان درباً عصيباً.

شعرت ليني بارتباك حادّ من السّكون الذي حطّ بينهما، وبالذّنب.

- «تعالي معي». قال لها، وأخذها من ذراعها يسندها. مرّا بأكواخ النُّزل، بالمكان الذي كانت تقوم فيه حظائر الماعز، وعبرا حقل قشّ محصوداً وصولاً إلى أيكة صغيرةٍ من أشجار التّنّوب السّوداء.

توقّف السّيّد ووكر. كانت ليني تتوقّع رؤية شاحنة، لكن لم يكن ثمّة واحدة. «ألسنا ذاهبين إلى هومر؟».

هزّ السّيّد ووكر رأسه نفياً. تصدّرها متوغّلاً أكثر بين الأشجار، حتّى وصلا إلى ممشىً من الألواح الخشبيّة، مسيّج بدرابزين من الأغصان المتشابكة على كلا جانبيه. تحت هذا الممشى، على حافّة من البرّ تحيط بها الأشجار، ثمّة كوخ خشبيّ مطلّ على الخليج؛ كوخ جينيفا القديم. هناك جسر خشبيّ عريض يقود من الممشى إلى الباب الأماميّ. لا، ليس جسراً، بل لوح عبور.

لوح عبور مخصّص لكرسيّ متحرّك.

تقدّم السّيّد ووكر المسير، جزمته تطأ الجسر الشّبيه بلوح العبور بخبطات مصمتة.

دقّ الباب، فسمعت ليني صوتاً مكتوماً، ثمّ فتح السّيّد ووكر الباب، وقادها إلى الدّاخل. «هيّا». قال برفق، يدفعها إلى داخل كوخ صغير حميميّ له جدار من النّوافذ التي تشرف على الخليج.

أوّل ما رأته ليني كان مجموعة من اللّوحات الكبيرة، إحداها -لوحة قماشيّة ضخمة ما زالت قيد العمل- مثبّتة على مسند رسم. ثمّة انفجار من الألوان على هذه اللّوحة؛ بقعٌ ورشّاتٌ وضرباتُ فرشاة منحت ليني -بطريقةٍ ما مستحيلة- انطباعَ أضواء الشّمال، على الرغم من أنّها لم تعرف السّبب. وهنالك حروف غريبة مشوّهة تصنعها كلّ هذه الألوان؛ تكاد تستطيع تبيّنها، لكن ليس تماماً. لعلّها تشكّل كلمة «هي»؟.. لقد جعلتها اللّوحة تشعر بشيء ما؛ الألم أوّلاً، ثمّ حسّ متنامٍ بالأمل.

- «سأترككما وحدكما». قال السّيّد ووكر. غادر الكوخ وأغلق الباب في اللّحظة الّتي أبصرت ليني فيها الرّجُلَ الذي على الكرسيّ المتحرّك، يجلس وظهره لها.

همّ باستدارةٍ بطيئةٍ، يداه المبقّعتان بالألوان تعملان على الكرسيّ برشاقة، وهو يناور كي يستدير.

ماثيو.

رفع عينيه. على وجهه تنتشر شبكة من النّدوب الورديّة الشّاحبة النّافرة، منحته مظهراً غريباً كأنّ تقاطيعه متّصلة ببعضها عن طريق القطب. أنفه مسطّح له مظهر مفلطح كأنف ملاكم عتيق، وعينه اليمنى مشدودة إلى الأسفل بمقدار طفيف بسبب نسيج متندّب تجمّع على شكل نجمة منفجرة فوق عظم وجنته.

لكنْ في عينيه.. كانت تراه هو، حبيبها ماثيو.

- ماثيو؟ هذه أنا، ليني.

ظهر العبوس على وجهه. انتظرته كي يقول شيئاً، أيّ شيء، لكنّه لم ينبس ببنت شفة، لا شيء إلّا هذا الصّمت المؤلم المديد، يحلّ محلّ نهرٍ لا ينتهي من الكلمات التي كانت تتدفّق بينهما ذات زمان.

أحسّت ببدء الدّموع. «أنا ليني». قالت من جديد، بنبرةٍ أنعم. حدّق إليها، ظلّ يحدّق وحسب، كما لو كان يحلم. «أنت لا تعرفني». قالت، وهي تمسح عينيها: «كنت أعلم أنّك لن تعرفني، ولن تفهم ما سأقوله عن إم جاي، أعلم هذا. كنت متأكّدة، الأمر فقط...». تراجعت خطوةً إلى الخلف. ليس بمقدورها أن تفعل هذا الآن، ليس بعد.

ستحاول من جديد لاحقاً. ستتمرّن على كلماتها. ستشرح الأمر لإم جاي، وتهيّئه. بات لديهم الوقت الآن، وهي تريد أن تفعل هذا على نحوٍ صائب. استدارت واتّجهت إلى الباب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

❋ 31 ❋

- مهلاً!

ماثيو جالس على الكرسيّ المتحرّك، متشبّث بفرشاة رسم دبقة، وقلبه يخفق بشدّة.

لقد أخبروه أنّها قادمة، لكنّه كان قد نسي، وتذكّر، ثمّ نسي من جديد. هكذا تسير الأمور معه أحياناً؛ الأشياء تضيع في دوائر دماغه المشوّشة. قلّ تواتر حدوث ذلك هذه الأيّام، لكنّه ما زال يحدث.

أو لعلّه لم يصدّق، أو ظنّ نفسه قد تخيّل الأمر، أنّهم قالوا ما قالوه ليجعلوه يبتسم، أملاً منهم أنّه سينسى.

ما زال يمرّ بأيّام ضبابيّة لا ينبثق أيّ شيء من غشاوتها، لا كلمات، ولا أفكار، ولا جُمل، الألم وحسب.

لكنّها هنا. لقد حلم بعودتها لسنوات، دوّر الاحتمالات في رأسه، وأعاد تدويرها. تخيّل الأفكار ومَسَّدَها. لقد تمرّن على الكلمات من أجل هذا الموقف، من أجلها، وحيدةً في غرفته، حيث لن يستبدّ التّوتّرُ ويحكم عليه بالخرس، حيث يستطيع أن يتظاهر بكونه رجُلاً يستحقّ العودة إليه.

حاول ألّا يفكّر في وجهه الدّميم، وساقه التي لا تتمالك نفسها. كان يعلم أنّه أحياناً لا يستطيع أن يفكّر جيّداً، فتتحوّل الكلمات إلى كائناتٍ

مستحيلةٍ تفرّ منه حالما يقترب. سمع صوته -الذي كان قويّاً ذات زمان- يهذي، ويبثّ كلمات حمقاء، فقال لنفسه: لا يمكن لهذا أن يكون أنا، لكنّه هو.

أسقط الفرشاة المبلّلة، وقبض على مسندَي كرسيّه المتحرّك، مرغماً نفسه على الوقوف. آلمه الأمر بشدّة جعلته ينخر من الألم، فأشعره ذلك بالخزي، تلك الضّجّة التي أحدثها، لكن ليس ثمّة ما يمكنه أن يفعله. كزّ على أسنانه، وعدّل وضع ساقه. إنّه جالس منذ وقت طويل للغاية، وقد استنزفته لوحته، تلك التي أطلق عليها اسم «هي»، والتي تتحدّث عن ليلةٍ يتذكّرها على شاطئها، فنسي أن يتحرّك.

مشى إلى الأمام متثاقلاً، مشيةً متمايلة متزعزعة جعلتها تظنّ على الأغلب أنّه قد يسقط في أيّة لحظة. لقد سقط مرّات كثيرة من قبل، لكنّه نهض مرّات أكثر.

- «ماثيو؟». تقدّمت نحوه، رافعة وجهها إلى الأعلى.

جمالها جعله يريد أن يبكي. أراد أن يخبرها أنّه كان يشعر بها حين يرسم، يتذكّرها، أنّ الأمر بدأ في دار الرّعاية كعلاج وظيفيّ، ثمّ بات الآن شغفه. أحياناً حين يرسم، كان يتمكّن من أن ينسى كلّ شيء؛ الألم، الذّكريات، الفقد، ويتخيّل مستقبلاً مع ليني، يتخيّل حبّهما مثل ضوء الشّمس والماء الدّافئ. تخيّلهما ينجبان أطفالاً، ويشيخان معاً، كلّ ذلك.

اعتصر تركيزه ليعثر على كلّ تلك الكلمات. الأمر أشبه بأن تجد نفسك فجأةً في غرفة مظلمة؛ تعلم أنّ ثمّة باباً، لكنّك لا تستطيع أن تجده.

تنفّس يا ماثيو. التوتّر يزيد الطّين بلّة.

سحب نفساً، ثمّ حرّره. سار مترنّحاً إلى الطّاولة المجاورة للسّرير،

وحمل الصّندوق الممتلئ بالرّسائل التي أرسلتها إليه قبل كلّ هذه السّنوات، حين كان في المستشفى، والرّسائل الأخرى، التي أرسلتها حين كان ولداً يخيّم الأسى عليه في فيربانكس. هذه الرّسائل هي ما جعله يتعلّم القراءة من جديد. ناولها الصّندوق، غيرَ قادرٍ على طرح السّؤال الذي أرّقه: لماذا توقّفتِ عن الكتابة إليّ؟

نظرت ورأت رسائلها في الصّندوق، ثمّ رفعت عينيها إليه: «احتفظتَ بها؟ بعد أن تركتُك؟».

- «رسائلك». قال لها. علم أنّ الكلمات ممدودة؛ تعيّن عليه أن يركّز كي يشكّل التّراكيب التي يريدها: «... كانت ما جعلني.. أتعلّم القراءة من جديد».

حدّقت ليني إليه.

- «كنتُ أصلّي.. كي.. تعودي». قال.

- «لقد أردتُ ذلك». همست.

ابتسم لها، وهو يدرك أنّ ذلك يشدّ الجلد تحت عينه، ويجعله يبدو أكثر تشوّهاً ممّا هو.

طوّقته بذراعيها، فذُهل كيف لم يزالا متلائمين. بعد كلّ ما مرّ به من شدّ، وإرخاء، وإعادة تركيب، وتوصيل؛ ما زالا متلائمَين. لمست وجهه المتندّب: «أنت جميل للغاية».

ضيّق عناقه لها محاولاً تثبيت نفسه، وهو يشعر بخوف مفاجئ يتعذّر تفسيره.

- هل أنت بخير؟ أتشعر بألم؟

لم يعرف كيف يقول ما يشعر به، أو كان يخشى أنّه إن قال ذلك سيصغر

في نظرها. لقد كان غارقاً طوال هذه السّنوات من دونها، وهي الشّاطئ الذي ظلّ يخبّط بأطرافه كي يجده، لكن ما من شكّ أنّها ستنظر في وجهه المقطّب الخَرِب وتفرّ منه، وحينها سيعود وينجرف إلى المياه القاتمة العميقة وحده.

حرّر نفسه من العناق، وعاد مترنّحاً إلى كرسيّه المتحرّك، ثمّ جلس، وهو يتأفّف تأفّفاً مكتوماً من الألم. ما كان يجدر به أن يعانقها، أن يشعر بجسدها على جسده. كيف عساه ينسى إحساس وجودها هذا من جديد؟ حاول أن يعود إلى سياق طبيعيّ للحديث، لكنّه لم يستطع أن يعثر على طريقه. كان يرتجف. «أين.. كنتِ؟».

- «في سياتل». اتّجهت نحوه: «إنّها قصّة طويلة».

لدى لمستها، تصدّع العالم -عالمه- كاشفاً عن أعماقه، أو تقطّعت أوصاله. شيء ما. أراد أن يتنعّم باللّحظة، أن يغمر نفسه فيها كأنّها كومة من الفراء، ويتركها تُدفئه، لكنّ أيّاً من ذلك لم يبدُ حقيقيّاً، ولا باعثاً على الأمان. «أخبريني».

هزّت رأسها.

- أنا.. أخيّبك.

- لستَ أنت الخيبة يا ماثيو، بل أنا. لطالما كنتُ كذلك. أنا التي غادرتُ وتركتك، وفعلتُ ذلك في وقت حاجتك الأمسّ إليّ. أتفهّم إن كنت لا تستطيع الغفران لي، فأنا لا أستطيع أن أغفر لنفسي. لقد فعلتُ ذلك لأنّ، حسناً.. ثمّة شخص عليك أن تلتقي به، وبعدها، إن بقيتَ تريد، يمكننا أن نتحدّث.

عبس ماثيو: «شخص.. هنا؟».

- في الخارج برفقة أبيك وآتكا، هلّا أتيتَ معي كي تلتقيا أنت وهو؟

هو..

استقرّت الخيبة عميقاً، حتّى بلغت عظامه الموصولة بالبراغي. «لا حاجة بي.. كي ألتقي.. بهذا الـ"هو" خاصّتك».

- أنت غاضب، أتفهّم هذا. لقد قلتَ إنّ على المرء أن يقف بجانب من يحبّهم، لكنّني لم أفعل، بل هربت.

- «لا تتكلّمي. اذهبي». قال بصوت أجشّ: «أرجوكِ.. اذهبي وحسب».

نظرت إليه، والدّمع في عينيها، كانت جميلة بحيث لم يستطع أن يتنفّس. أراد أن يبكي، أن يصرخ. كيف له أن يتركها تذهب؟ إنّه ينتظر هذه اللّحظة، ينتظرها، ينتظر أن يكونا معاً، منذ كلّ الأعوام التي يتذكّرها، عبرَ ألمٍ كان شديداً إلى درجة أنّه يبكي خلال نومه، لكنّه يستيقظ كلّ يوم ويقول لنفسه: هي، ثمّ يحاول من جديد. لقد تخيّل مليون نسخة مختلفة لمستقبلهما، لكنّه لم يتخيّل هذا يوماً؛ أن تعود كي تقول وداعاً لا غير.

- لديك ابنٌ يا ماثيو.

الأمر يحدث معه بهذا الشّكل أحياناً؛ يسمع كلمات غير صحيحة، ويستوعب معلومات غير موجودة. دماغه التّالف. قبل أن يتمكّن من وقاية نفسه، واستخدام الأدوات التي تعلّمها، حطّ ألم هذه الكلمات عليه من علٍ وتكسّر على جسده. أراد أن يُعلِمها أنّه أساء الفهم، لكنّه لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى العواء؛ زمجرة عميقة هادرة من الألم. لقد هجرته الكلمات؛ لم يتبقّ لديه سوى العاطفة الصّرفة. نهض مترنّحاً عن الكرسيّ، وتعثّر إلى الخلف، مبتعداً عنها، فارتطم بطاولة المطبخ بقوّة. إنّه دماغه التّالف، يخبره بما يريد سماعه عوضاً عمّا قيل بالفعل.

اقتربت ليني منه. كان بوسعه أن يرى كم هي جريحة، كم تراه مخبولاً، وجعله الخزي يرغب أن يشيح بوجهه. «اذهبي. إن كنتِ ستغادرين، فاذهبي».

- «ماثيو، كفى أرجوك. أعلم أنّني آذيتك». مدّت يدها إليه: «ماثيو، أنا آسفة».

- اذهبي من هنا، أرجوكِ.

- «أنت لديك ابن». قالت برويّة: «ابن.. لدينا ابن.. أتفهمني؟».

عبس قائلاً: «طفل؟».

- أجل، لقد أحضرتُه كي يقابلك.

في البدء، شعر ببهجةٍ محض لا مثيل لها؛ ثمّ باغتته الحقيقة بقسوتها. ابن، طفل من صلبه، ابنهما. جعله ذلك يرغب في البكاء على ما فاته.

- «انظري إليّ». قال بهدوء.

- أنا أنظر إليك.

- أبدو كأنّ.. شخصاً أعاد بنائي.. بآلة خياطة رديئة.. أحياناً يؤلمني الأمر.. إلى درجة ألّا أستطيع الكلام.. لقد استغرقت سنتين كي أكفّ.. عن القباع والصّراخ.. وأقول كلمتي.. الحقيقيّة الأولى...

- و؟

فكّر في كلّ الأشياء التي تخيّل ذات يوم أنّه سيعلّم ابنه الّذي سيأتيه إيّاها، فانهارت جميعها من حوله؛ كان محطّماً أكثر من أن يبعث التّماسك في أيّ شخص غيره: «أنا لا أستطيع أن أحمله.. لا أستطيع أن أضعه.. على كتفيّ.. لن يرغب في شخصٍ.. لا يستطيع فعل هذا.. كـ.. أب». كان يعلم أنّ ليني سمعت التّوق في صوته عند تلك الكلمة؛ كلمة من حرفين تنطوي على الكون بأسره.

لمست وجهه، وسارت بأصابعها على النّدوب التي تربط بين أوصاله، محدّقةً في عينيه الخضراوين: «أتعرف ما الذي أراه؟ أرى رجُلاً كان ينبغي لي أن أموت دون التّخلّي عنه، رجُلاً حاربَ كي يتكلّم، ويمشي، ويفكّر. كلّ ندب من ندوبك يفطر قلبي ويعيد تركيبه، خوفك هذا هو خوف جميع الآباء. إنّني أرى رجُلاً أحببته طوال حياتي، أرى والدَ ابننا».

- لا أعرف.. كيف أفعل ذلك..

- لا أحد يعرف، صدّقني. أيمكنك أن تمسك بيده؟ أيمكنك أن تعلّمه صيد السّمك؟ أيمكنك أن تعدّ له شطيرة؟

- «سأسبّب له الإحراج». قال.

- الأطفال متينون شديدو التّحمّل، وكذلك حبّهم. ثق بي يا ماثيو، يمكنك فعلها.

- ليس وحدي.

- ليس وحدك، سنكون أنا وأنت معاً، كما كان يُفترض من البداية. سنفعل ذلك معاً، اتّفقنا؟

- تعدينني؟

- أعدك.

وضعت يديها على وجهه، ووقفت على أصابع قدميها كي تقبّله. مع تلك القبلة، كما حدث مع قبلة أخرى منذ زمن طويل، منذ حياة كاملة، بين طفلين يؤمنان بالنّهايات السّعيدة، شعر بعالمه يستعيد انتظامه من جديد. «تعال وقابله». همست أمام شفتيه: «إنّه يشخر مثلك تماماً، ويرتطم بكلّ قطع الأثاث، ويحبّ قصائد روبرت سيرفس».

أخذت يده وخرجا معاً من الكوخ، وهو يعرج ببطء ممسكاً يدها بقوّة،

ويتّكئ عليها تاركاً إيّاها تتبّته. من دون كلام، شقّا طريقهما خارج الأشجار مروراً بالمنزل الذي أصبح الآن نُزل صيد سمك من الطّراز العالميّ، نحو درج الشّاطئ الجديد.

كالعادة، كان الشّاطئ مكتظّاً بزوّار يرتدون ملابسهم المطريّة الألاسكيّة الجديدة، ويصيدون السّمك عند حافّة الماء، فيما تصيح الطّيور في الهواء منتظرةً البقايا.

تمسّكت إحدى يديه بليني، فيما تشبّثت الأخرى بالدّرابزين، وشقّ طريقه البطيء الأعرج نزولاً على الدّرج.

إلى يمينهما على الشّاطئ، كانت لارج مارج تشرب عبوة جعة، وأليسكا في مياه الخليج تعطي دروس قيادة زوارق الكاياك للزّوّار؛ أمّا الأب وآتكا، فكانا برفقة طفل، صبيّ أشقر، يجلس القرفصاء قرب نجم بحر أرجوانيّ كبير.

توقّف ماثيو عن السّير.

- «ماما!». قال الطّفل لدى ظهور ليني. راح يقفز، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة تضيئه بأكمله: «أتعلمين أنّ نجوم البحر لديها أسنان؟ لقد رأيتها!».

نظرت ليني إلى ماثيو: «ابننا». قالت له وتركت يده.

أخذ يعرج نحو الصّبيّ الصّغير، ثمّ توقّف. وإذْ أراد أن ينحني، خرّ على ركبته، وكشّر من الألم متأوّهاً.

- أنت تُصدر صوتاً مثل صوت الدّببة. أحبّ الدّببة، وجدّي الجديد يحبّها أيضاً. وأنت؟

- «أحبّ الدّببة». قال ماثيو غيرَ واثق.

نظر في وجه ابنه فرأى ماضيه. تذكّر فجأةً أشياء كان قد نسيها: ملمس

بيض الضّفادع على يده، الطّريقة التي يمكن لضحكة طيّبة أحياناً أن تهزّ بها الجسد بأكمله، قصصاً تُقرأ قرب نار في العراء، لعبة القراصنة على الشّاطئ، بناء حصن بين الأشجار. كلّ تلك الأشياء التي يستطيع أن يعلّمها، كلّ الأشياء التي حلم بها على مرّ السّنين، وحاول جاهداً أيّما جهد كي يؤمن بها حين كان ألمه في أوجِه، لقد كان هذا شيئاً لا يجرؤ حتّى أن يأمل به.

ابني.. «أنا ماثيو».

– حقّاً؟ أنا ماثيو الابن، لكنّ الجميع ينادونني إم جاي.

شعر ماثيو بعاطفة لم يختبر أيّ شيء يشبهها من قبل.. ماثيو الابن.. ابني، قال لنفسه من جديد. وجد صعوبةً في الابتسام، وأدرك أنّه كان يبكي. «أنا أبوك».

نظر إم جاي إلى ليني: «ماما؟».

اقتربت ليني منهما، ووضعت يدها على كتف ماثيو، ثمّ أومأت: «هذا هو يا إم جاي، أبوك. لقد انتظر لقاءك طويلاً».

كشّر إم جاي عن ابتسامة أظهرت مكان سنّيه الأماميّين المفقودين. ألقى نفسه على ماثيو، وعانقه بشدّة جعلتهما ينقلبان. وحين اعتدلا مجدّداً، كان إم جاي يضحك: «أتريد أن ترى نجم بحر؟».

– «بالتّأكيد». قال ماثيو.

حاول النّهوض، ووضعَ يده على الأرض. علقت كسرات من الصّدف براحته، وهو يتعثّر، وأخذ كاحله المصاب يترنّح، ثمّ وجد ليني بقربه، تأخذ بذراعه، وتساعده على الوقوف من جديد.

ركض إم جاي نحو الماء، وهو يثرثر طوال الطّريق.

لم يستطع ماثيو حمل قدميه على الحركة؛ كلّ ما تمكّن من فعله هو الوقوف مكانه، يتنفّس تنفّساً سطحيّاً، وفيه بعض الخشية من أن يتكسّر كلُّ هذا مثل الزّجاج لدى أقلّ لمسة، أقلّ نفَس. وقف الصّبيّ الذي يشبهه على خطّ الماء، الشّعر الأشقر يتألّق في الشّمس، وطرف بنطاله الجينز مبلّل بالماء المالح، وهو يضحك. في هذه الصّورة وحدها، رأى ماثيو حياته برمّتها: الماضي، والحاضر، والمستقبل. كانت واحدةً من تلك اللّحظات –ومضة من النّعمة في عالم مجنون، بل وخَطِرٍ على نحو مستحيل أحياناً– التي تغيّر حياة الرّجال.

– «يحسن بك أن تتحرّك يا ماثيو». قالت ليني: «فابننا لا يجيد الانتظار للحصول على ما يريده».

نظر إليها، وقال في قرارته: ربّاه كم أحبّها! لكنّ صوته اختفى، ضاع في هذا العالم الجديد الذي تغيّر فيه كلّ شيء، الذي كان فيه أباً.

لقد قطعا مسافةً طويلةً جدّاً منذ بدايتيهما كطفلين معطوبَين، هو وليني. لعلّ كلّ شيء جرى كما ينبغي له، لعلّ كلّاً منهما عبرَ محيطَه الخاصّ –محيطها المتمثّل بحبّها المعطوب وفقدها، ومحيطه المتمثّل بألمه– كي يعودا إلى هنا من جديد معاً، إلى حيث ينتميان. «من حسن الحظّ أنّني أجيد ذلك».

رأى ما كانت كلماته هذه تعني لها.

– كنتُ أريد أن أظلّ بقربك، كنت أريد...

– أتعرفين ما هو أكثر ما أحبّه فيك يا ليني أولبرايت؟

– ما هو؟

– «كلّ شيء». أخذها بين ذراعيه، وقبّلها بكلّ ما يملك، وكلّ ما يتمنّى

أن يملك. وعندما تركها أخيراً، على مضض، وتراجع عنها، راح واحدهما يحدّق في الآخر، وخاضا حواراً كاملاً بالشّهيق والزّفير. هذه بداية، قال لنفسه؛ بداية في المنتصف، شيء غير متوقّع وجميل.

– «من الأفضل أن تذهب». قالت ليني أخيراً.

سار ماثيو بحذر فوق حصى الشّاطئ نحو الصّبيّ الواقف عند خطّ الماء.

– «بسرعة». قال إم جاي، وهو يلوّح لماثيو باتّجاه نجم البحر الأرجوانيّ الكبير: «إنّه هنا، انظر! انظر يا بابا».

بابا.

رأى ماثيو حجراً مسطّحاً بلون رماديّ فاحم، صغيراً مثل بداية جديدة، صقلَه البحرُ، فالتقطه بيده. كان وزنه مثاليّاً، وله الحجم الذي أراده تماماً. مدّه إلى ابنه وقال: «هاك.. سأريك.. كيف تنطّط الحجارة.. على وجه الماء.. إنّه أمر رائع.. لقد علّمت أمّك.. الشّيء نفسه.. قبل وقت طويل...».

❄

– «لطالما كان موقناً من أنّك ستعودين». قال السّيّد ووكر، وهو يقترب من ليني: «قال إنّه كان ليعلم لو كنتِ ميّتة، إنّه كان ليشعر بذلك. كلمته الأولى كانت «هي»، ولم نستغرق وقتاً طويلاً قبل أن نعرف أنّه كان يقصدك».

– كيف أكفّر عن هجراني له؟

– «آه، ليني! هكذا هي الحياة، لا تسير الأمور دائماً كما نتوقّع». رفع كتفيه: «ماثيو يعلم هذا، أكثر من أيٍّ منّا».

– كيف حاله، بحقّ؟

- إنّه يمرّ بنوبات معاناة، وألم في بعض الأحيان. يواجه صعوبةً في صياغة أفكاره على شكل كلمات حين يتوتّر، لكنّه في الوقت نفسه أفضل دليل سياحيّ للنّهر، والزّوّار يحبّونه. وهو يتطوّع في دار الرّعاية، كما أنّك رأيتِ لوحاته؛ كأنّ الله منحه هذه الموهبة ليعوّضه. مستقبله ليس مثل مستقبل الآخرين، ربّما، ليس كما تخيّلتماه حين كنتما في الثّامنة عشرة.

- «وأنا لديّ نوبات معاناتي أيضاً». قالت ليني بهدوء: «كما أنّنا كنّا طفلين آنذاك، ولم نعد كذلك الآن».

أومأ السّيّد ووكر: «ثمّة سؤال واحد فقط بحقّ، وكلّ شيء يأتي بعده». التفت لينظر إليها: «هل ستبقين؟».

بذلت قصارى جهدها كي تبتسم، كانت واثقةً تماماً أنّ هذا هو السّؤال الذي جاء ليطرحه. كونها والدةً هي نفسها، تفهّمت الأمر؛ هو لا يريد أن يُجرح ابنه من جديد: «ليست لديّ أدنى فكرة عمّا ستبدو عليه حياتي الجديدة هذه، لكنّني سأبقى».

وضع يده على كتفها.

على الشّاطئ أمامهما، راح إم جاي يقفز في الهواء: «فعلتُها! لقد جعلت الحجر ينطّ. ماما، هل رأيتِ ذلك؟».

نظر ماثيو إلى الخلف، ورمق ليني بابتسامة ملتوية. بدا هو وابنه متشابهين للغاية، يبتسمان كلاهما لها، واقفَين معاً أمام خلفيّةٍ من سماء بزرقةِ القنطريون العنبريّ. حبّنا بازلّاء في قرن واحد.. اثنان من النّوع نفسه.. بداية لعالم كامل جديد من الحبّ.

❄

على الرغم من أنّها كثيراً ما فكّرت في الأمر خلال السّنين، بل وكادت

تضفي عليه مسحةً أسطوريّة، أدركت ليني أنّها كانت قد نسيت السّحر الحقيقيّ لليلةٍ صيفيّة لا يحلّ فيها الظّلام.

هي جالسة الآن إلى إحدى طاولات النّزهات على شاطئ آل ووكر. ثمّة رائحة عالقة في الهواء لحلوى مارشميلو مشويّة، أضفت حلاوةً على اللّذعة المالحة للبحر الذي يغسل الشّاطئ ذهاباً وإياباً بلا انقطاع. وقف إم جاي أمام البحر، وقد ألقى خيط صنّارته في الماء، وراح يشدّ البكرة. السّيّد ووكر واقف على أحد جانبيه، يقدّم له النّصائح، ويساعده حين يتشابك الخيط، أو يعلق بشيء ما. وأليسكا على الجانب الآخر، تلقي خيط صنّارتها هي الأخرى. كانت ليني تعلم أنّ إم جاي سيغطّ في النّوم واقفاً مكانه في أيّة لحظة.

على الرّغم من أنّها أحبّت جلوسها هنا، تتشرّب هذه الصّورة الجديدة لحياتها، فهي تعلم أنّها تتجنّب شيئاً مهمّاً. مع كلّ دقيقة تمرّ، كانت تشعر بوزن تجنّبِها هذا؛ مثل يدٍ على كتفها، تذكير حانٍ.

انسلّت من مقعدها، ونهضت على قدميها، لم تعد تعرف كيف تقدّر التّوقيت من لون السّماء –حجر جمشت متوقّد رصّعته النّجوم– لذا نظرت إلى ساعة يدها. 9:25.

– «أنتِ على ما يرام؟». سألها ماثيو. ظلّ متمسّكاً بيدها إلى أن سحبتها برفق، حينها تركها.

– أحتاج إلى أن أذهب لرؤية بيتي القديم.

نهض، وأجفل من الألم حين حمّل قدمه المصابةَ وزناً. علمت أنّ يومه كان طويلاً على قدميه.

لمست وجنته المتندّبة: «سأذهب، رأيت درّاجةً قرب النُّزل. أريد أن أقف هناك وحسب، لن أتأخّر».

- لكن...

- يمكنني القيام بذلك وحدي، أعلم أنّك تتألّم. ابقَ مع إم جاي. عندما أعود، سنأخذه إلى السّرير. سأريك دمى الحيوانات المحشوّة التي لا يستطيع النّوم من دونها، وأحكي لك قصّته المفضّلة، إنّها تتحدّث عنّا.

كانت تعلم أنّ ماثيو سيجادلها، لذا لم تتح له المجال. هذا ماضيها هي، حمولتها هي. استدارت مبتعدةً عنه، وذهبت نحو درج الشّاطئ، ثمّ صعدت إلى الأرض العشبيّة في الأعلى؛ ما زال ثمّة عدّة زوّار يجلسون على المصطبة عند النّزل، يتحدّثون بصخب ويضحكون، ربّما يشحذون قصص صيد السّمك التي سيحملونها معهم إلى وطنهم.

أخذت درّاجةً من المنصب قرب النّزل وامتطتها، وسارت بها ببطء فوق الغيضة الإسفنجيّة، ثمّ قطعت الطّريق الرّئيسيّ، وانعطفت إلى اليمين باتّجاه نهاية الطّريق.

وهناك كان الجدار، أو ما تبقّى منه. ألواح خشبيّة خُلّعت، وقُطّعت، ونُزعت عن دعاماتها؛ الشّقف الخربة ملقاة في أكوام كساها معطف فرو من الحزاز، ولوّنتها سنواتٌ من الظّروف الجويّة القاسية بلون قاتم.

لارج مارج وتوم، وربّما ثيلما. كان بوسعها أن تتخيّلهم متجمّعين هنا حزينين عليهما، وقد حملوا فؤوساً، وراحوا يشقّون الخشب.

التفتت إلى مدخل المركبات، الذي كان النّجيل والأعشاب البرّيّة قد غزته، ونمت حتّى بلغت طول الرّكبة. لقد طرد الظّلُّ الضّوءَ؛ العالم هنا ساكن على طريقة الغابات والبيوت المهجورة. تعيّن عليها أن تبطئ سرعتها، وتحرّك الدّوّاسات بقوّة أكبر.

وصلت أخيراً إلى الفسحة. ظهر الكوخ إلى يسارها، وقد تهرّأ بفعل

الزّمن والعناصر، لكنّه ما يزال قائماً. وبجانبه، حظائر الحيوانات الخاوية المتداعية، اختفت أبوابها، وحطّمت المفترسات أسوجتها، وربّما صارت مرتعاً لكلّ أنواع القوارض. نما العشب الطّويل، وقد تخلّلته نباتات السّنفيّة ذات اللّون الورديّ الزّاهي ومقبض الشّيطان الشّائكة، حول الخردة التي تركوها خلفهم؛ أبصرت هنا وهناك أكواماً من المعدن الصّدئ، والخشب البالي. الشّاحنة القديمة تداعت وانحنت إلى الأمام مثل حصان عجوز، وتحوّل المدخَن إلى هرم من الألواح المفضّضة، المتعفّنة، المنهارة على نفسها؛ أمّا حبل الغسيل، فقد نجا على نحوٍ يتعذّر تفسيره، ولم تزل الملاقط معلّقة عليه تتمايل مع النّسيم.

ترجّلت ليني عن الدّرّاجة، ووضعتها على جنبها فوق العشب بأناة، واتّجهت إلى الكوخ، وهي تحسّ بمقدار لا بأس به من الخدر، كان البعوض يطنّ في غمامة حولها. عند الباب، توقّفت قليلاً وقالت لنفسها: يمكنكِ فعلها، ثمّ فتحت الباب.

بدا الأمر أشبه بالرّجوع عبر الزّمن، إلى يوم وصولها إلى هذا المكان، والحشرات النّافقة متجمّعة فوق الأرضيّة. كان كلّ شيء كما تركتاه، لكنّ الغبار غطّاه.

راحت أصواتٌ وكلماتٌ وصورٌ من الماضي تعبر في ذهنها؛ الجيّدة منها والسّيّئة، والمضحكة والمروِّعة. تذكّرت كلّ شيء في ومضة برق تخطف البصر.

أطبقت يدها على قلادة القلب عند عنقها، تعويذتها الجالبة للحظّ، فأحسّت بالقطعة العظميّة الحادّة تخز راحتها. أخذت تهيم في المكان، وخشخشت ستارةَ الخرز السّيكاديليّة التي كانت تمنح والديها وهْمَ الخصوصيّة. في غرفة نومهما، رأت كومة المقتنيات المغبرّة التي تشي

بشخصيّتيهما السّالفتين؛ فوضى متشابكة من الفراء على السّرير، سترات معلّقة على خطاطيف، جزمة تهرّأت مقدّمتها.

عثرت على منديل رأس أبيها القديم ذي رسومات الذّكرى المئويّة الثّانية للاستقلال فدسّته في جيبها، وكانت عصابة رأس أمّها المصنوعة من الجلد السّويديّ معلّقة على الحائط، فأخذتها ولفّتها مثل سوار حول معصمها.

في الأعلى، داخل عليّتها، وجدت كتبها مبعثرة، وقد اصفرّت صفحاتها وقُضمت؛ أصبح العديد منها موطناً للفئران، وكذلك حال فراشها. كان بوسعها أن تشمّ رائحة الحيوانات الصّغيرة في الهواء؛ رائحة قذرة تنضح بالعفن.

رائحة مكان منسيّ.

نزلت على سلّم العلّيّة من جديد، وحطّت على الأرضيّة المتّسخة الدّبقة، ثمّ نظرت حولها.

الكثير من الذّكريات. تساءلت كم من الوقت قد تستغرق كي تنقّب فيها كلّها! الآن، حتّى وهي واقفة هنا، لم تكن تعلم تماماً نوع المشاعر التي تكنّها تجاه هذا المكان، لكنّها تعلم، بل تؤمن، أنّ بوسعها العثور على طريقة لتذكّرِ الجوانب الجيّدة فيه. عليها ألّا تنسى الجوانب السّيّئة أبداً، لكنّها ستترك الأمر يمضي. عليها أن تترك الأمر يمضي. لم يخلُ الأمر من المتعة، كانت أمّها قد قالت، والمغامرة أيضاً.

فُتح الباب خلفها، سمعت وقع أقدام متفاوت يقترب منها. تقدّم ماثيو إلى جانبها: «الوحدة أمر مبالغ فيه». قال ببساطة: «أتريدين.. أن تصلحيه؟ وتعيشي هنا؟»).

- ربّما، أو ربّما نحرقه بأكمله ونعيد بناءه، الرّماد مفيد للتّربة.

لم تكن تدري بعد، كلّ ما تعرفه هو أنّها عادت إلى هنا أخيراً، بعد كلّ سنوات بُعدِها تلك، عادت بين سكّان الهوامش المجانين شديدي التّحمّل في ولاية لا يوجد مكان يشبهها، في هذا المكان المهيب الذي شكّلها، وحدّد هويّتها. ذات مرّة، قبل حياة كاملة، كانت قلقةً بشأن فتيات، يكبرنها ببضع سنوات وحسب، ضِعن وفُقدن. تسبّبت لها القصص بالكوابيس حين كانت في الثّالثة عشرة. والآن تعلم أنّ ثمّة مئة طريقة لضياع المرء، وطرائق أكثر حتّى لعثوره على نفسه.

❄

كم هو رقيق ذلك الحجاب الذي يفصل بين الماضي والحاضر! إنّهما موجودان في آنٍ واحد داخل قلب الإنسان. بوسع أيّ شيء أن ينقلك: البحر عند انخفاض المدّ، صيحة نورس، اللّون الفيروزيّ لنهر تغذّيه المجالد. صوت في الرّيح يمكن أن يكون حقيقيّاً ومتخيَّلاً في آنٍ معاً، لا سيّما هنا.

في هذا النّهار الصّيفيّ الحارّ، كانت شبه جزيرة كيناي تنبض بالألوان. ما من سحابة على مدّ البصر، والجبال مزيج سحريّ من لون الخزامى، والخضرة، وزرقة الجليد. وِهاد، وجروف، وذُرا؛ لم يزل ثمّة ثلج فوق خطّ الأشجار. الخليج ياقوتة زرقاء، يكاد يخلو من الموج. عشرات من قوارب الصّيد تتسكّع بجوار زوارق الكاياك والكانو؛ اليوم يوم مناسب للنّزول إلى الماء بالنّسبة إلى الألاسكيّين. كانت ليني موقنةً أنّ شاطئ بيشوب، الشّريط الرّمليّ المستقيم تحت الكنيسة الرّوسيّة في هومر، سيكون عبارةً عن خطٍّ طويل من الشّاحنات ومقطورات القوارب الفارغة، مثلما هي موقنة أنّ سائحاً لا يملك فكرةً عمّا يفعله، سيكون فوق الرّمال، يحفر بحثاً عن المحار، وهو غافل عمّا حوله، حتّى يطوله المدّ.

ثمّة أشياء لا تتغيّر أبداً.

الآن، ليني واقفة في فنائها الذي غطّته الأعشاب النّامية، وماثيو بجانبها. سارا معاً على المرتفع العشبيّ فوق الشّاطئ، والتقيا بالسّيّد والسّيّدة ووكر، وأليسكا، وإم جاي، الذين كانوا ينتظرونهما، وقد سبقوهما إلى هناك. قدّمت أليسكا لليني ابتسامةً مرحّبة دافئة، ابتسامة تقول: نحن معاً في هذا\ الأمر \الآن، عائلة. لم يتسنَّ لهما الكثير من الوقت للحديث في اليومين الماضيين، وسط معمعة عودة ليني إلى ألاسكا، لكنّهما كلتيهما تعلمان أنّ الوقت أمامهما، كي تقطّبا حياتيهما إلى بعضهما. سيكون أمراً سهلاً؛ فبينهما الكثير من الأشخاص المشتركين الذين تحبّانهم.

أخذت ليني يد ابنها.

ثمّة حشد ينتظرها على الشّاطئ؛ شعرت ليني بعيونهم عليها، ولاحظت كيف توقّفوا عن الكلام لدى اقترابها.

- انظري يا ماما، فقمة! لقد قفزت تلك السّمكةُ من الماء للتّوّ، واو! أيمكننا الذّهاب لصيد السّمك مع بابا اليوم؟ أيمكننا؟ عمّتي آلي تقول إنّ الأسماك الورديّة ما زالت تقوم بهجرتها.

حدّقت ليني إلى الأصدقاء المتجمّعين عند طرف الماء. كلّ من في كانِك تقريباً كان هنا اليوم، حتّى عدد من الانعزاليّين الذين لا يُشاهَدون إلّا في الحانة، وأحياناً في المخزن العامّ. لدى وصولها، لم يتكلّم أحد، وصعد الجميع إلى قواربهم واحداً تلو الآخر. سمعت تلاطم الماء على أبدان القوارب، وانسحاق الصّدف والحصى في أثناء نزولها إلى الماء.

وجّهها ماثيو إلى قارب تابع لنُزل شرم آل ووكر للمغامرات. ألبس إم جاي سترةَ نجاة صفراء فاقعة، ثمّ أقعده على المقعد الطّويل في مقدّمة

القارب، بحيث يواجه المؤخّر. صعدت ليني إلى المتن، وانطلقوا نحو المكان الذي تجمّعت فيه بقيّة القوارب.

كان الخليج هادئاً في بداية هذا المساء المشمس المتألّق، وبدا المدخل العميق للمضيق مهيباً في هذا الضّوء.

خرجت القوارب متهاديةً إلى عرض الخليج، وراحت تعوم معاً، وترتطم مقدّماتها ببعضها. نظرت ليني حولها: توم وزوجته الجديدة، آتكا ووكر؛ أليسكا وزوجها، دارو، وابناهما التّوءم في الثّالثة من عمرهما؛ لارج مارج، وناتالي واتكنز، وتيكا رودز وزوجها، وثيلما، وموبيت، وتيد، وجميع أفراد آل هارلان. الوجوه التي أحاطت بطفولتها، وستحيط بمستقبلها.

شعرت ليني بهم جميعاً ينظرون إليها، وخطر لها فجأة وبحدّة كم كان هذا ليعني لأمّها؛ قدوم هؤلاء الأشخاص لإلقاء تحيّة الوداع. أكانت أمّها تعلم كم يهتمّون لأمرها؟

- «شكراً لكم». قالت ليني، وضاعت الكلمتان غير الوافيتين وسط صوت الموج الذي يلطم أبدان القوارب. ماذا عساها تقول؟ «لا أعلم كيف...».

- «تحدّثي عنها وحسب». قال السّيّد ووكر بنبرة رقيقة.

أومأت ليني برأسها، ومسحت عينيها. حاولت مجدّداً، وكان صوتها عالياً قدر ما استطاعت رفعه. «لا أدري إن كان ثمّة أيّة امرأة جاءت إلى ألاسكا باستعداد أقلّ، هي لم تكن تجيد الطّبخ، أو الخَبز، أو إعداد المربّى. قبل ألاسكا، كانت فكرتها عن المهارة الضّروريّة للبقاء تتلخّص في وضع الرّموش الاصطناعيّة، والمشي وهي تنتعل كعباً عالياً، هي التي أدخلت السّراويل القصيرة المثيرة ذات اللّون الأرجوانيّ إلى هنا حبّاً بالله».

أخذت نفساً وتابعت: «لكنّها توصّلت إلى حبّ المعيشة هنا، كلتانا فعلت هذا. كان آخر ما قالته لي قبل أن تموت هو: «عودي إلى البيت»، وأنا فهمت ما قصدَته. لو أنّها تراكم هنا من أجلها، لاكتسى وجهها بإحدى ابتساماتها المشرقة، وسألتكم لماذا أنتم هنا ولستم تشربون وترقصون. توم، كانت لتناولك غيتاراً، وثيلما، كانت لتسألك عن أحوالك هذه الأيّام، وأنت يا لارج مارج، كانت لتعانقك حتّى تفقدي القدرة على التّنفّس». انكسر صوت ليني، فنظرت حولها تتذكّر: «كان قلبها ليمتلئ من مرآكم هنا جميعاً، من معرفتها أنّكم قدّمتم وقتكم على الرغم من كلّ مشاغلكم كي تتذكّروها، كي تقولوا: وداعاً. لقد قالت لي ذات مرّة إنّها كانت تشعر أنّها ليست شيئاً، مجرّد انعكاس لأشخاص آخرين. هي لم تفهم قيمتها الحقيقيّة جيّداً قطّ، آمل أنّها تنظر الآن من الأعلى فتعلم... أخيراً... كم كانت محبوبة».

سادت همهمات من الاستحسان والموافقة، بضع كلمات، ثمّ: سكون. الحزن الذي يبلغ هذا العمق يكون شيئاً وحيداً وصامتاً. من الآن فصاعداً، المكان الوحيد الذي ستسمع ليني فيه صوتَ أمّها سيكون فِكرَها؛ أفكار تنساب في قنوات عبر وعي امرأةٍ أخرى، بحث متواصل عن الاتّصال، عن المعنى. مثل جميع الفتيات يتيمات الأمّ، ستتحوّل ليني إلى مستكشفة للعواطف، تحاول إماطة اللّثام عن جزئها الضّائع؛ الأمّ التي حملتها، ورعتها، وأحبّتها. ستصبح ليني أمّاً وطفلاً في آن واحد؛ ومن خلالها، ستتابع أمُّها التّقدّم في السّن والمشيب. لن ترحل أبداً، ما دامت ليني تتذكّرها.

ألقت لارج مارج باقة أزهار إلى الماء.

- «سنشتاق إليك يا كورا». قالت.

وألقى السّيّد ووكر باقةً من أعواد نبات السّنفيّة، فراحت تطفو أمام ليني، بقعة من الورديّ الزّاهي يحملها الموج.

التقت نظرة ماثيو بعيني ليني، كان يحمل باقةً من السّنفيّة والتّرمس قطفها هذا الصّباح برفقة إم جاي.

مدّت ليني يدها داخل صندوق، وأخرجت المرطبان الذي يحوي الرّماد. وللحظةٍ عذبة، تغبّش العالم وجاءت أمّها إليها، ابتسمت ابتسامتها المشرقة، ودقّت وركها بورك ابنتها وقالت لها: ارقصي يا فتاتي الصّغيرة.

حين نظرت ليني من جديد، كانت القوارب ضربات ريشة من الألوان على خلفيّةٍ رسمها العالم الأزرق الأخضر.

فتحت المرطبان، وأفرغت محتواه ببطء في الماء. «أحبّك يا ماما». قالت ليني، وهي تشعر بالفقد يستقرّ عميقاً داخلها، وقد أصبح الآن جزءاً منها مثله مثل الحبّ. لقد كانتا أكثر من صديقتين حميمتين؛ كانتا حليفتين. أمّها سمّتها حبّ حياتِها الأعظم، وظنّت ليني أنّ ذلك ربّما ينطبق دائماً على جميع الأهالي وأبنائهم. تذكّرت شيئاً قالته لها ذات مرّة: الحبّ لا يتلاشى، ولا يموت يا فتاتي الصّغيرة. كانت تتحدّث آنذاك عن ماثيو والحزن، لكنّ كلامها صحيح بالدّرجة نفسها في ما يتعلّق بالأمّهات وأبنائهنّ.

هذا الحبّ الذي تشعر به تجاه أمّها، وابنها، وماثيو، والنّاس الذين حولها شيءٌ متين، واسع باتّساع هذا المنظر الطّبيعيّ، راسخ لا يتبدّل مثل البحر، أقوى من الزّمن نفسه.

انحنت إلى الأمام، وألقت بعضاً من أعواد السّنفيّة الورديّة الزّاهية فوق موجة تتقدّم برقّة، ثمّ شاهدتها تعوم نحو الشّاطئ. علمت أنّها من الآن فصاعداً ستحسّ بلمسة أمّها في النّسيم، وتسمع صوتها في صوت

المدّ المرتفع. أحياناً، سيسبّب قطفُ التّوت، أو إعداد الخبز، أو حتّى رائحة القهوة، لها البكاء. ولبقيّة حياتها، ستظلّ تنظر في السّماء الألاسكيّة الشّاسعة وتقول: «مرحباً، ماما» وتتذكّر.

- «سأظلّ أحبّك دائماً». همست للرّيح: «دائماً».

ألاسكا التي أحبّها

4 يوليو 2009

بقلم: لينورا أولبرايت ووكر

لو أنّ أحداً ما أخبرني حين كنتُ طفلةً أنّ صحيفةً ستأتي إليّ ذات يوم للتّحدّث عن ألاسكا في الذّكرى السّنويّة الخمسين لإنشاء الولاية، لضحكت. من كان ليظنّ أنّ صوري الفوتوغرافيّة ستعني كلّ هذا الكثيرين؟ أو أنّني سألتقط صورةً لتسرّب ناقلة بترول فالديز تغيّر حياتي وتصل إلى غلاف مجلّة؟

في الحقيقة، زوجي هو الشّخص الذي ينبغي لكم التّحدّث إليه، فقد تغلّب على كلّ تحدٍّ خبّأته هذه الولاية له في جعبتها وما زال صامداً. إنّه يشبه واحدةً من تلك الأشجار التي تنمو على جرف غرانيتيّ شديد الانحدار؛ لا تسقط في الرّيح والثّلج والبرد الجليديّ حين يُتوقّع لها ذلك، وتبقى منتصبةً في مكانها بعناد، وتزدهر.

أمّا أنا، فلستُ سوى زوجة وأمّ ألاسكيّة اعتياديّة تستمدّ فخرها في المقام الأوّل من الأطفالِ الذين ربّتهم، والحياةِ التي استطاعت، بطريقةٍ ما، أن تنتزعها من هذه الأرض الوعرة. لكن مثل جميع قصص النّساء، قصّتي تنطوي على ما هو أكثر ممّا يظهر على السّطح.

تتمتّع عائلة زوجي بمكانة أسرةٍ مَلَكيّة ألاسكيّة عملياً، فقد نحت جدّاه حياةً من البرّيّة النّائية بفأس وحلم. كما في حكايات الرّوّاد الأمريكيّين النّموذجيّة، استصلحا مئات الفدادين، ووضعا أساسَ بلدة استقرّا فيها. أطفالي: إم جاي، وكيناي، وكورا، هم رابع جيل يترعرع على هذه الأرض.

عائلتي كانت مختلفة. قَدِمنا إلى ألاسكا في السّبعينيّات، كان زمناً مضطرباً، ملؤه الاحتجاجات، والمسيرات، والتّفجيرات، والخطف. النّساء الشّابّات كنّ يُختطفن من حرم جامعاتهنّ، وكانت حرب فيتنام قد قسمت البلاد.

جئنا إلى ألاسكا هرباً من ذلك العالم. ومثل الكثير من التشيتشاكو منذ ذلك الوقت وقبله، كان تخطيطنا سيئاً. لم نكن نملك ما يكفي من الطّعام، أو المؤن، أو المال، ولم نتمتّع بأيّة مهارات تقريباً. انتقلنا للسّكن في كوخ ضمن جزء ناءٍ من شبه جزيرة كيناي، وتعلّمنا بسرعة أنّنا لم نكن نعرف ما يكفي، حتّى سيّارتنا -حافلة فولكس فاغن- كانت خياراً غير موفّق.

أحدهم قال لي ذات مرّة إنّ ألاسكا لا تخلق الشّخصيّة، بل تكشفها.

والحقيقة الحزينة أنّ الظّلام في ألاسكا كشف الظّلام داخل أبي.

لقد كان من محاربي فيتنام القدامى، أسير حرب. لم نكن نعرف آنذاك ما معنى كلّ ذلك؛ أمّا الآن، بتنا نعرف. في عالمنا المتنوّر، نعرف كيف نساعد رجالاً مثل والدي، نفهم الطّرائق التي يمكن بها للحرب أن تكسر أقوى العقول. آنذاك لم يكن ثمّة مساعدة، وكذلك لا مساعدة تُذكَر لامرأة وقعت ضحيّةً له.

تغلغلت ألاسكا -الظّلام، والبرد، والعزلة- إلى داخل أبي بطريقةٍ مريعةٍ، وحوّلته إلى واحدٍ من الحيوانات البرّيّة الكثيرة التي تقطن في الولاية.

لكنّنا لم نكن نعرف ذلك في البداية؛ أنّى لنا أن نعرف؟ حلمنا، مثل كثيرين غيرنا، وخطّطنا لطريقنا وألصقنا لافتة «إمّا ألاسكا، وإمّا الانهيار» على حافلتنا بالشّريط اللّاصق، واتّجهنا شمالاً، من دون استعداد.

هذه الولاية، هذا المكان، لا يشبه أيّ مكان آخر. جمال ورعب؛ خلاص وهلاك. هنا، حيث النّجاة قرار يجب أن يُتّخذ مراراً وتكراراً، في أكثر الأماكن بريّةً وجموحاً على أرض أمريكا، عند حافّة الحضارة، حيث يمكن للماء بجميع أشكاله أن يقتل المرء، تتعلّمون من تكونون؛ ليس من تحلمون أن تكونوه، ليس من تخيّلتم أن تكونوه، ليس من رُبّيتم كي تكونوه. كل ذلك سيتمزّق إلى هباء منثور خلال شهور الظّلام الجليديّ، حين يغبّش الصّقيع على النّوافذ رؤيتكم، ويصبح العالم صغيراً جدّاً، وتتعثّرون لتصطدموا بحقيقة وجودكم؛ عندئذٍ تتعلّمون ما ستفعلونه كي تنجوا.

ذلك الدّرس، تلك الرّؤيا الكشفيّة -كما قالت لي أمّي ذات مرّة، وهي تحدّثني عن الحبّ- هي هبة ألاسكا العظيمة والرّهيبة التي تهبها لنا. أولئك الذين جاؤوا من أجل الجمال وحده، أو من أجل حياةٍ ما مُتخيَّلة، أو أولئك الذين يسعون إلى الأمان، سيخفقون.

بين الأطراف المترامية لهذه البرّيّة الجامحة التي لا يمكن التّنبّؤ بها، إمّا أن يصير المرء إلى ذاته الأفضل ويزدهر، وإمّا أن يهرب صارخاً، من الظّلام، والبرد، وشظف العيش. ما من منطقة وسطى، ما من مكان آمن؛ ليس هنا، في العزلة الهائلة.

بالنّسبة إلينا، نحن، القلّة الأصلاب الأقوياء الحالمين، ألاسكا هي الوطن، دائماً وأبداً، الأغنية التي تسمعونها حين يكون العالم ساكناً صامتاً. إمّا أن ينتمي المرء إلى هذا المكان، فيفْلت العنان لنفسه المروَّضة، ويصبح برّيّاً مثله، وإمّا ألّا يفعل.

أنا أنتمي.

شكر وعرفان

أنا سليلة نسبٍ طويلٍ من المغامرين؛ لقد خرج جدّي من ويلز في الرّابعة عشرة من عمره ليصبح راعي بقر في كندا، وأمضى أبي حياته في البحث عمّا هو استثنائيٌّ، وناءٍ، وخارجٌ عن المعتاد، فهو يذهب إلى حيث لا يذهب معظم النّاس إلّا في خيالهم.

في عام 1968، رأى أبي أنّ كاليفورنيا باتت مزدحمة أكثر من اللّازم، فقرّر هو وأمّي أن يتصرّفا حيال ذلك. أقحمونا جميعنا (ثلاثة أطفال صغار، واثنين من أصدقائنا، وكلب العائلة) في حافلة فولكس فاغن. وتحت قيظ الصّيف، انطلقنا. جبنا أنحاء أمريكا في الحافلة، عابرين أكثر من دستة ولايات، بحثاً عن مكان ننتمي إليه. عثرنا على ذلك في الجمال الأخضر والأزرق لإقليم شمال غرب المحيط الهادئ.

بعد سنوات، انطلق أبي في بحثٍ جديدٍ عن المغامرة، ووجدها في ألاسكا، على ضفاف نهر كيناي ذي السّحر المهيب. هناك، التقى والداي باثنتين من سكّان الاكتفاء الذّاتيّ: لورا وكاثي بيدرسن، أمّ وابنتها، كانتا تديران منتجعاً على تلك الواجهة النّهريّة التي لا تضاهى منذ سنوات. في بداية الثّمانينيّات، تحالفت هاتان العائلتان الرّائدتان، وأنشأتا شركةً باتت تعرف باسم «نُزل مغامرات ألاسكا الكبير». عملَتْ ثلاثةُ أجيال من عائلتي في ذلك النّزل، وجميعنا وقعنا في غرام التّخم الأخير.

أودّ أن أتوجّه بالشّكر إلى آلِ جون -لورنس، وشارون، وديبي، وكينت، وجولي- وكاثي بيدرسن هالي، على حماسهم الذي لا حدّ له، ورؤيتهم في خلق ذلك المكان السّحريّ.

كما أودّ أن أشكر كاثي بيدرسن هالي وأنيتا ميركيس على مساعدتهما المعرفيّة والتّحريريّة في إعادة خلق عالم الاكتفاء الذّاتيّ الذي تميّزت به ألاسكا وخليج كاتشيماك خلال السّبعينيّات والثّمانينيّات. لقد عنى لي نفاذ بصيرتكما، ودعمكما لهذا المشروع، الكثيرَ جدّاً، وكلّ ما قد يكون ورد من أخطاء، أو هفوات، فهو من فعلي بلا شكّ.

وكذلك، إلى أخي؛ كينت -مغامر آخر- الذي أجابني عن نهر متدفّق لا ينتهي من الأسئلة الغريبة العجيبة حول ألاسكا. أنت -كعهدك- نجمٌ لامع.

شكراً لكارل وكيرستن ديكسون، والفريق المدهش في نُزل توتكاباي المطلّ على خليج كاتشيماك، على التّرحيب بي في زاويتهم الحبيبة من العالم.

وأودّ أن أشكر كذلك بضعة أشخاص مميّزين للغاية قدّموا مساعدة لا تُقاس في العمل على هذه الرّواية، لا سيّما في الأوقات الأصعب، حين شعرت باستعداد للاستسلام والتّخلّي عن المشروع. محرّرتي المتألّقة، جينيفر إندرلين، التي انتظرت بصبر، وقدّمت المشورة عندما طُلبت منها، ثمّ انتظرت بصبر قليلاً بعد. أنا في غاية الامتنان لوقتك الإضافيّ ومساندتك. شكراً لجيل ماري لانديس، وجيل بارنيت، اللّتين شجّعتاني عندما كنتُ في أمسّ حاجةٍ إلى ذلك؛ لآن باتي، التي علّمتني أن أثق بنفسي؛ لأندريا تشيريلو، وميغان تشانس، اللّتين تكونان موجودتين على الدّوام من أجلي؛ ولكيم فيسك، التي آمنت بهذه القصّة وببيئتها الألاسكيّة منذ البدء، ولم تخشَ قطّ أن تقول ذلك.

شكراً لتاكر، وسارا، وكايلي، وبرادن. لقد وسّعتم لي حدودَ الحب ومنحتموني عالماً جديداً في منتصف حياتي.

وأخيراً، إلى زوجي منذ ثلاثين عاماً، بينجامين. كنّا شريكين في مسيرة الكتابة هذه منذ بدئها، وما كان أيّ من هذا ممكناً لولا حبّك ومساندتك. كان الوقوع في غرامك أفضل شيء فعلتُه يوماً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كرِسْتِن هانا:

كاتبةٌ وروائيّةٌ أمريكيّةٌ، وُلدت في غاردين غروفي، كاليفورنيا (25 سبتمبر 1960) ودرست في جامعة واشنطن. تلقّت العديد من الجوائز، وكتبت ما يربو على عشرين رواية، تصدّر الكثير منها قوائم المبيعات، من بينها رواية «العندليب» التي لاقت نجاحاً عالميّاً كبيراً، واختيرت أفضل روايةٍ تاريخيّةٍ لعام 2015 على موقع غودريدز، وفازت بجائزة خيار الشّعب المرموقة عن فئة أفضل عملٍ روائيٍّ في العام نفسه. إضافةً إلى ذلك، اختيرت أفضل كتابٍ للعام من قبل أمازون، وآي تيونز، وباز فيد، ووول ستريت جورنال، ومجلّة بيست، ومجلّة ذا ويك.

صدرت رواية «العزُلة الهائلة» بتاريخ 6 فبراير 2018 عن دار سانت مارتن بريس للنّشر. ووردت قبل نشرها ضمن قوائم أكثر روايات يترقّبها القرّاء ذلك العام في صحيفة سياتل تايمز، وموقع باستل دوت كوم، وموقع بوب شوغَر، ومجلّة ووركينغ ماذر، وموقع سذرن لي فينغ، وموقع غودريدز.

من المقرّر صدور فيلم مبنيّ على رواية «العندليب»، وثمّة أخبار عن إنتاج قريب لفيلم مبنيّ على رواية «العزلة الهائلة».

علاء عودة:

كاتبٌ ومترجمٌ فلسطينيّ سوريّ، وُلد عام 1992 بمدينة طرطوس.

تخرّج في كلّيّة طب الأسنان بجامعة دمشق عام 2015.

صدرت له مجموعة شعريّة «عن كلّ ما هو خافت وبعيد» (2021)، ومجموعة قصصيّة «أربعون أنا ونصف بصلة» (2022) عن الدار الأهليّة للنشر والتوزيع في الأردن، إضافة إلى ترجمات عديدة، منها:

- صمت الفتيات - بات باركر (عصير الكتب، مصر، 2020).
- في بحر مظلم وبارد - إليزابيث بلاكويل (عصير الكتب، مصر، 2020).
- جوكر (رواية مصوَّرة) - براين أزاريلو ولي بيرميخو (عصير الكتب، مصر، 2021).
- دروس في الكيمياء - بوني غارموس (الأهليّة للنشر والتوزيع، الأردن، 2023).
- كتاب رهيب - جيسون موت (الأهليّة للنشر والتوزيع، الأردن، 2023).
- ثلاثيّة تجدُّد - بات باركر (عصير الكتب، مصر، 2023).
- بيرانيسي - سوزانا كلارك (الأهليّة للنشر والتوزيع، الأردن، 2025).

نشر العديد من النصوص الأدبيّة في صحف ومجلّات مطبوعة وإلكترونيّة، وحاز عدّة جوائز في مجالَي الشعر والقصّة، كما وصلت ترجمته لرواية «صمت الفتيات» إلى القائمة القصيرة في الدورة الثامنة (2020) لجائزة الشباب التي ينظّمها المركز القومي للترجمة في مصر.

يتّخذ "إيرنت أولبرايت" قراراً بالانتقال مع عائلته إلى ألاسكا، كي يعيشوا في ذلك المكان النّائي، بعيداً عن كلّ شيء، حتّى عن الماضي المؤلم الذي يثقل كاهله، هو أسير الحرب السابق، العائد من حرب فيتنام، برضوضٍ نفسيّة لا تبرأ.

في ذلك المكان الذي لا يشبه أي مكانٍ آخر، حيث النّجاة قرار يجب أن يُتّخذ مراراً وتكراراً، تحاول "لينورا" أن تتعلّم من تكون، وكيف تبقى على قيد الحياة والحبّ، وهي تواجه في الكوخ الصغير أخطاراً جمّة تبهت أمامها مخاطر الخارج، فما الذي سيتركه ذلك المكان الواقع عند حافّة الحضارة في ذاكرتها وروحها؟ وكيف ستنجو؟

في "العزلة الهائلة" تقدّم "كرستِن هانا" بورتريهاً لا يُنسى للهشاشة والمرونة البشريّتين، وتحكي قصّةً عن الحبّ والفقدان، والصراع من أجل البقاء، والبرّيّة الجامحة التي تكمن في الإنسان والطبيعة معاً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-641-54-2
9 789933 641542